
رواية
مكتبة
ليوناردو پادورا
كَغُبَارٍ في الرِّيْح
ترجمة: بسّام البزّاز



كَغُبَارٍ في الرّيْح



Author: **Leonardo Padura** | اسم المؤلف: ليوناردو پادورا

Title: **Como polvo en el viento** | عنوان الكتاب: كَغُبَارٍ في الرِّيح

Translated by: **Bassam Al-Bazzaz** | ترجمة: بسّام البزّاز

P. C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 | + 964 (0) 780 808 0800 | + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 | + 961 706 15017 | + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 | + 963 11 232 2275 | + 963 11 232 2289 | ص.ب: 8272

ليوناردو پادورا

كَغُبَارٍ في الرّيْح

ترجمة : بسّام البزّاز



تغريبة كوبيّة أم كونيّة؟

عشرةُ أشخاص ونيّف
في ثلاثين عاماً ونيّف
يعيشون ويتحرّكون ويطمحون
حتّى إذا رأوا بلادهم تعجز عن مواكبة حركتهم
ووطنَهم يقصر عن تلبية طموحهم
يتناثرون... يتبدّدون
كغبارٍ في الريح.

*

ليسوا ناكري جميل
ولا خونة
ولا كافرين بنعمة سابغة،
بل نفوسٌ متطلعة
لكنّها أسيرة واقعها،
وأرواحٌ طموحة
لكنّ الأفق ضيّق أمامها.
عنفوان في الأرواح.
اندفاع في الأنفس.
آمال عِراض في الأفئدة.

يطلبونها في بلدهم
يتمنون نوالها على أرضهم
لكنّ دون أحلامِهم بيداً دونها بيدُ:
انتظار لسراب،
فسادٌ وخراب،
نفاقٌ وتلوّن،
لم يخلقوا لها
أو خلقوا لقدرٍ فاق قدرتهم.
يبدأون البحث عن وطن
خارج حدود الوطن
حتّى إذا وجدوه،
وألقوا بعصا التسيار فيه
اكتشفوا أنّ البديل هو الغربة
والغربة سهلة وصعبة
حلوٌة ومُرّة:
دواءٌ وداء.
حياة وممات:

«ما نراه هنا نراه في مكانه، أمّا نحن، فليس هذا مكاننا. نحن هنا كالأشباح، غير موجودين، أو غير منظورين ولا مرئيين، لن ينادي أحدٌ علينا ليسألنا كيف أحوالنا وإلى أين نسير وماذا نفعل، ولن يسألني أيّ صديق عمّن فاز البارحة في المباراة. لسنا في ذاكرة أحد وليس أحد في ذاكرتنا. نحن كائنون وغير كائنين في آن معاً، وستمرّ سنون طويلة قبل أن نكون شيئاً أكبر من الطيف. لا أدري إن كنتَ فهمتني، ما يهمّ هو أن تعلمي هذا: نحن هنا لسنا ما كنّا عليه هناك».

«أعيش هنا منذ ستة عشر عاماً، فهل تعلم كم صديقاً عندي؟ ولا واحد. أعرف ناساً كثيرين، وقد رأيتَ أنّنا تعشينا مع بعضهم، والتقينا بهم، بعضهم من المستشفى، أصدقاء مونتسي... لكنّهم ليسوا أصدقائي... »

*

لا آلافُ الكيلومترات تفصل
ولا طوالُ المسافات تفرّق
ولا الجبالُ الشامخات الشاهقات
ولا البحارُ الهائجات المائجات
فما بين الإنسانِ وأرضِه جسرٌ
يعبره ولا يعبره
يقطعه ولا يقطعه
يظنّ أنّه يجتازه لكنّه لا يجتازه:

«وبدا لآديلا أنّ رابطة الدم التي تشدّ خطيبها إلى جذوره وثقافته تأبى أن تذوبَ في الأرض التي انتقل إليها. فلماذا يهاجر إنسانٌ كهذا؟ لماذا يفارقُ الإنسانُ بلادَه من دون أن يخرج منها؟»

دمٌ يربط ورمادٌ يمتزج بتراب الوطن ومائه:

«شرعت كلارا بتنفيذ ما أوصاها به برناردو: نثرت في مياه منبع النهر النقيّة الصافية رماده، فانجرف الرمادُ وتفرّق مع التيار. جزءٌ من برناردو سيمتصّه ترابُ كوبا، ليمتزج به وإلى الأبد؛ بينما سيواصل الجزءُ الآخر طريقه، مثل أنهار الحياة، ليصبّ في البحر ويجوب العالم»

«قرأ ماركوس في أحد كتب أمّه عن مهاجر اعتاد أن يحمل معه بيته ونمط حياته أنّى ذهب، كما يفعل الحلزون:

فلماذا علقت تلك الإشارة في ذهنه؟ هل لأنّ قدره هو أن يكون حلزوناً كأمّه، وإن كانت كلارا حلزوناً من نوع آخر؟ هل سيظلّ هو أيضاً يحمل بيته وبيئته على ظهره؟»

*

سؤالٌ مركزي يحمل ردّه في داخله:

«كانت كلارا تسأل نفسها: لماذا يقرّر هؤلاء، بعد أن عاشوا في ألفة وتقارب، متمسكين بعالمهم وانتمائهم، متميزين في حياتهم، متفوقين في أعمالهم، أن يرحلوا إلى أرضٍ لن يكونوا فيها ما كانوا؟ أرض ما كانوا فيها، ولن يكونوا، سوى أفرادٍ يُعاد غرسهم، لكنّ الكثير من جذورهم ستظلّ مكشوفة»

تعلّقٌ بين أملٍ في المستقبل
وخوفٍ من المجهول
دافعٌ يدفع
وخوفٌ يردع:

- لا أريد أن أرحل. لا أريد أن أرحل - قال إرفينغ.
- ماذا تقول؟ لا تريد أن ترحل؟
- بالطبع سأرحل. لكنّي لا أريد. وليس الأمر سواء.

«قضى إرفينغ اليوم الأخير من حياته السابقة في بيت (فونتانار)، القريب من المطار، الذي سينطلق منه، في تلك الليلة نحو مستقبل مجهولٍ، وإن كان أقلّ ضبابيّة من حاضره. مستقبل يعدُ بالحريّة، وإن كان مليئاً بالظلمة والصراعات والآلام والشعور بالذنب والمخاوف. هل سيتحمّل الغربة؟ هل سيتغلّب على الحنين الذي بات يشعر به وهو بعدُ لم يتغرّب؟»

«أحسّ ماركوس، للمرّة الأولى، بقبضة البعد عن

الأصول وفراق الأحبّة تضيّق الخناقَ عليه. إنّه يعرف نقاط ضعفه، لكنّه أخطأ تقدير صبره ومناعته في مواجهة إغراءات الحنين ومكائد الشوق»

*

الحالة التي لدينا هي كوبا.
وكوبا تبدو حالة فريدة
لكنّها ليست فريدة.
ليس همّنا الحكم بصحة المسيرة أو خطئها،
ولا بالتصويت لها والاستفتاء عليها
فالحديث في ذلك جدل عقيم
مناظرة لا تنتهي
شعارات لا نجد مصداقها لا هنا ولا هناك.
وإن وجدناه فسنجده محاطاً بألف علامة استفهام وعلامة.

*

يحاول پادورا أن يكون متوازناً
فحدوده في كوبا مرسومة
والخطوط الحمر أمامه معلومة
لكنّه روائي، والروائي ينهل مما يرى
و"يغرف" من النهر الذي يجري أمامه
فلا مهرب أمامه سوى الحقيقة
وإلّا تحوّلت الرواية إلى منشور سياسي.
وأنّى لرواية تتكلّم عن الهجرة والمنافي دون أن تضرب على الأوتار الذي ضرب عليها بادورا؟
والحل؟

الحلّ هو أن يتقرب من الخطوط الحمر
ولكن ليناقشها ويجادل حولها:

«في حواراتهما الأولى، سألت الفتاة رمسيس عمّا يدفع شاباً مثله إلى أن يترك دراسته ويشرع في التحضير لـ «رحلة نهائيّة عن بلده»؟ وما معنى ألّا يمنحوا الشاب، بعد تخرجه من الجامعة، رخصة للسفر إلّا إذا كان في مهمّة عمل رسميّة، إن هو أنجزها في كوبا، فلن يتقاضى عنها إلّا قدر ما تتقاضاه أمّه المهندسة شهرياً: عشرين أو ثلاثين دولاراً؟ إنّها لا تستوعب أيضاً كيف يستطيع الناس أن يعيشوا بالمرتّب الضئيل في بلدٍ تكلّف قنينة الزيت العاديّة فيه دولارين، وحيث نسي معظمُ سكّانه طعمَ اللحم (هل يوشك البقر على الانقراض؟)، لكنّهم، بالمقابل، لا يدفعون رسوماً عن الدراسة، ولا تتجاوز فاتورة الكهرباء عندهم أربعة دولارات (من دون إيركوندشن، طبعاً)، وتعريفة الهاتف دولارين (وكلّ ذلك باهظ في الدنمارك)؟، وأنّى للكثيرين أن يمتلكوا جهاز تبريد أو هاتفاً؟ أمّا الهاتف النقّال فلا وجود له تقريباً في كوبا، لأنّ «أحداً» قرّر أن يُحرم المواطن الكوبيّ منه ومن الدخول في الشبكة العنكبوتية، إلّا بصعوبة. وكيف لها أن تستوعب ألّا يحصل هذا المواطن على حاسوب شخصي، إلّا إذا أتى به من الخارج وحصل لإدخاله على تصريح الوزير أو من ينوب عنه، أو اشتراه من سوق الحواسيب السوداء، حيث يتاجر الطيارون والمضيّفات بالحواسيب والكلاسين والنقانق؟ أليس غريباً أيضاً، مع شحّة الطعام وضآلة الراتب الذي تدفعه الحكومة إلى 90% للمواطنين (لا يسّد الرمق باعتراف الحكومة)، ألّا يموت الناسُ من الجوع، بل يمارسون الرياضة لتخفيف وزنهم، ويحضر أكثر من مليون منهم مسيرة الأوّل من أيّار، لا للاحتجاج على الحكومة، كما يحدث في جميع أنحاء العالم، بل لتأييدها ودعمها؟ لا شيء غريب

ولا مستغرب، فالنقابات في كوبا تدعم الحكومة على طول الخط (ما أغرب ذلك!)، ومن العمّال من يتفاخر بأنّه يعمل اثنتي عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة في اليوم، وهو دوام يدعونه «دوام الطوارئ»، كما كان يحدث للفلاحين وعمال المناجم الدنماركيين في القرن التاسع عشر. صحيح أنّ هؤلاء الكوبيين البسطاء يحظون برعاية طبيّة جيّدة ومجّانية، لكنّهم لا يجدون، في أغلب الأحيان، حبّة أسبرين في الصيدليات، مع ذلك تراهم يرقصون ويغنّون ويتطوعون للعمل ويردّدون شعارات ثوريّة تدين الحصار الأمريكي المجرم، ويطالبون بعودة بعض الأبطال، بينما تجدهم، أنفسهم تقريباً، يهربون من البلد بالقوارب، أو بغيرها، نحو الولايات المتحدة، أو نحو أيّ مكان، وقد يظلّون في كوبا، يعيشون على ما يسمّيه رمسيس بـ«الاختراع»، وليس في ذلك، بالطبع، ما يستحقون عليه أيّة براءة اختراع. لا. إنّ لينا لا تفهم شيئاً من كلّ ما سمعت ورأت: فكوبا بلد عجيب غريب... »

كَسرٌ وجبرٌ

حكمٌ ونقض

هجوم ودفاع

انتقاد وتبرير

«ويردّ الفتى الكوبي بكلام لا تجد فيه الشابّة الدنماركيّة ما يردّ على أسئلتها أو يرضي تساؤلاتها:

– **حال بلدنا لا يفهمها حتى الله، ولا يصلحها حتّى الله...**

عبارة طالما سمعناها، عن كوبا وعن غير كوبا.

*

تطرح الرواية جملة من الأسئلة:

لماذا يهاجر المهاجر؟

وكم يعاني؟

في حوار مستمرّ ومتداخل حول الأسباب والنتائج والثمن:

«ما أكثر ما مرّ من سنين! وما أشدّ الحنين! وما أقسى صورة آخر ليلة لنا مجتمعين، بينما نعيش الآن شتاتنا! ما الذي جرى لنا؟ ولماذا؟ ومن يتحمّل الذنب؟ وهل ينفع أن نلقي الذنب على أحد؟»

ويختلط مفهوم **الوطن** بمفهوم **الدولة**.

من الغريب أنّ من يخلط بين المفهومين هما الجاني والمجني عليه، الحاكم و**المواطن**، على حدّ سواء. فالحاكم يتصوّر أنّه يجسّد الوطن. والهاربون من الوطن لا ينفكّون يلعنون الوطن الذي لم يشعروا فيه بكرامة ولا بأمان. والوطن ممّا يتصوّر ذاك وممّا يتوهم هؤلاء براء.

*

في **غياب الحريّة، وفي التعسّف والظلم** تكمن أصولُ المنافي. ومن رحمها تولد المصائبُ والرزايا: القمع والخوف والفساد والسجن والمنفى والموت...

– ما أغربَك، داريّـو –قال إرفينغ–. هناك كنتَ ممن لا يتكلّمون بالسياسة...

– لأنّ الكلام في السياسة كان محرّماً... لا شيء غير الطاعة. وأنت تعلم ذلك

– كنّا نتكلّم ولكن بصوت منخفض، كنّا نتكلّم... وأنتَ كنتَ في الحزب...

– اسمع، إرفينغ، أتعلم ما هو أفضل شيء وقع لي هنا؟

– أفضل ممّا أنتَ فيه؟ – سأل إرفينغ.

– هنا أستطيع أن أتكلّم عمّا أريد، ومع من أريد، أن أعيش بلا قناع، ومن دون خوف! ولا تذكّرني بالأشياء هناك، ولا كيف تعمل، أرجوك... »

«كان الموظفون ينظرون إلى المسافرين، يتحققون من

الحقائب، ويعودون للتحقق من الجوازات، ويطرحون على من يوشك على الخروج السؤال تلو السؤال. هل معك أجهزة كهربائيّة؟ مواد غذائيّة؟ هدايا؟ كتب؟ هلّا أريتني جواز سفرك؟ رجال الجمارك في إسبانيا لا يسألونك عن شيء، اللهمّ إلّا إذا كان معك فيلان مطليان بالأزرق. سيكتفون، عندها، بسؤالك: لماذا صبغتهما بالأزرق؟»

«لكنّ إرفينغ يعلم أنّ الحرّ الدبق الوسخ لم يكن المسبب الوحيد لتعرّقه الشديد، ولا لرغبته الجامحة في البكاء: بل هو خوفه، وحضوره الدائم الذي لا يستطيع منها فكاكاً، فالخوف عنده جزءٌ من الأوكسجين الذي كان يستنشقه في الجزيرة، وهو حالة التسمم التي جعلته يبتعد عنها. إنّه ذات الخوف الذي ظنّ، بعد كلّ تلك السنوات، أنّه طرده، لكنّه عاد عودة بومرنغ محتال تائه في البعد الرابع، ليضربه بقوته الطاغية»

«رفعت إليسا كتفيها من البطانية وعاينت القدح البلاستيكي.

– من أين تأتين بهذه الحاجات: البطانيات، المناديل، أواني الحلويات...!

– من الجيران... يعملون في المطار، وهناك يسرقون حتّى بنزين الطائرات.

– البنزين؟

– كلّ شيء... أمّا طيارو الخطوط الكوبية ومضيّفاتها فيجلبون كلّ ما يستطيعون حين يسافرون إلى الخارج، ثمّ يبيعونه. –رشفت كلارا من قهوتها–. هل ترغبين في فيديو أو مروحة تأتيك بالهواء البارد؟ هذه الأقداح أعجوبة من الأعاجيب: إنّها روسيّة، ولن يمكنك كسرها إلّا إذا انهلتِ عليها ضرباً بالمطرقة. »

«في الشركة يسرقون كلّ شيء ويبيعون كلّ شيء: مواد بناء ونفط وقطع غيار للشاحنات وخشب وأطقم حمّامات... أيّ شيء، وكلّ شيء... حالة من الجنون. نهبٌ على قدم

وساق. للمدير عشيقتان، لكلّ منهما بيتٌ مؤثث. اشترى لولديه من زوجته الرسميّة سيارتين حديثتين... وكان يغدق على المفتشين والمديرين والرؤساء والشرطة... في كوبا يقال: قرش يسبح ويطرطش.

*

الرواية جديدة في كلّ شيء
فهي آخر ما كتب پادورا
أتمّها في نيسان 2020
وتصل بالقارئ إلى عام 2016.
تتكلّم عن أحداث 11 أيلول وعن أوباما.
أجيالٌ تتعاقب والمشكلة واحدة
يحاول بعضهم حلّها بالهجرة
بينما يصمد آخرون.
قصّة تتكرر وتعم
ترسم أجواء كوبا
وحياة الكوبيين في كوبا
وفي المنافي

ولا يفوت پادورا أن ينوّع الشخصيات لتكون المنظورات متنوعة، والأجواء متعددة.

ولا يفوته أن يحقن الرواية بجرعات من التشويق (جريمة وجنس)، ونقاطٍ من الغموض لتكوّن، مع السياسة ومع المنفى، النقاط التي تدور في أفلاكها أحداث الرواية.

*

أقفُ، وقد انتهيتُ من ترجمة هذه الرواية الطويلة، وتشبّعتُ بأجوائها وأحداثها، فأجدُ أنّ مؤلفها كوبي وأبطالها كوبيون وأجواءها كوبيّة، لكنّ

صوراً وأفراداً وأخباراً وعوالم من خارج كوبا تقفز إلى بالي وتومض في مخيّلتي. صور عشتها، وأخرى سمعتُ بها أو قرأتُ عنها، من بلدان غير كوبا، عن أفرادٍ ليسوا كوبيين، وعوالم بعيدة عن كوبا.

ولا ألبث أن أجد الجواب... ويزايلني الاستغراب

فقد تبنّت كوبا وغير كوبا تفكيراً، واختطت منهجاً يرى في كلّ غريب عدواً.

وفي كلّ هواء داخل مصدراً للمرض والصداع.

وفي كلّ فرجة باب أو شبّاك سبباً لدخول العقارب والجرذان.

وكانت النتيجة دائماً مزيداً من الغلق والمنع والمراقبة والتحقق والتأكد من "نظافة" البلد.

ثمّ تكشف الأيّام أنّ البلد لم يكن نظيفاً

بل كان عليلاً ضعيفاً.

فقد فسد هواؤه

وفسدت قيمُه

ولاتَ ساعة مندمِ.

أرى أن أتوقف هنا

لأنّ الكلام عن الفساد

قصّة لا تنتهي.

بسّام البزّاز

الجزائر – حزيران/ 2022

كَغُبَارِ في الرّيْح

إلى حبيبَتي لوثيّا، ابنة الشتات.

إلى العزيز إليزاردو مارتينِث،

الذي ظلّ طفلَ (البيدادو)[1] الارستقراطي المدلّل

إلى آخر نفسٍ،

حتّى وهو في منفاه.

ستخسرُ الحربَ، لا ريب،

لكنّكَ ستكسبُ كلّ المعارك.

خوسيه ساراماغو

إنجيل يسوع المسيح

وأخيراً وصل المُؤمَّلُ المُنتَظر،

فُتحتْ لنا أبوابُ الدار

وأضيئتِ الأنوارُ

من جديد.

1- أرقى أحياء هافانا ومركزها التجاري والاقتصادي والإداري. أليزاردو مارتينِث صديق للمؤلف هجر كوبا وهو يافع وقصد پويرتو ريكو. وكان لا ينفكّ يردد: من هزيمة إلى هزيمة، حتى النصر الأخير.

[...]

ومن جديدٍ، دخلنا الدار،

نحن، المألوفينَ المعتادين.

لم يتخلّفْ منّا أحدٌ،

لم يبقَ أحدٌ في الانتظار.

خوسيه ليثاما ليما «المُنتظَر»

مقاطع شعريّة مهداة إلى قطعة مغناطيسها

غبارٌ في الريح

كلّنا غبارٌ في الريح

غبارٌ في الريح

كلّ شيء غبارٌ في الريح

الريح...

كنساس، «غبار في الريح»

(*Point of Know Return* (1977

كلمات كيري ليفغرن

1

آديلا وماركوس والحنان

... ما من واقعٍ غير الصدفة.

• پول أوستر[2]

ثلاثيّة نيويورك

طرق سمعَ آديلا فتزبيرغ رنينُ الأبواق في هاتفها النقّال، وهي الرنّة التي خصصتها للمكالمات العائليّة، وقرأت كلمة *ماما* على شاشة الآيفون. لم تتردّد في سحب رمز السماعة الخضراء، بعد أن تعلّمت، بالتجربة، أنّ من الخير ألا تتردّد.

- لوريتا؟ - سألتْ، كأنّها في شكٍّ من هويّة المُتصل.

قبل تلك المكالمة بثلاث ساعات، كانت الشابّة قد استجابت لرغبة في داخلها بمراجعة ذاكرة هاتفها، بينما كانت تتناول، كعادتها، وعلى مضض، كعادتها، اللبنَ اليوناني *اللايت* المُدعّم بالحبوب والفواكه، وتتنشق عطرَ القهوة، التي اعتاد ماركوس أن يُحضّرها كلّ صباح.

لبّت داعيَ الهاجس، وفتحت سجلّ المكالمات، ورأت أنّ *ماما* لم تبادر إلى طلبها في الشهور الستة عشر الأخيرة، بل كانت هي المبادرة إلى طلبها، وبواقع مرتين في الشهر، وإن بعد تردد. لم تُفاجأ آديلا كثيراً بالمكالمة. ربّما

2- **Paul Auster** (1947). كاتب ومخرج أمريكي. حاز جائزة أمير أستورياس في الأدب لعام 2007.

بسبب ذلك الهاجس، الذي سرعان ما اكتسب بُعداً تخاطريّاً. فربّما جاءت المكالمة بالصدفة. لذلك لم تتردّد الفتاة، بل جازفت وقفزت نحو المجهول. فإن عاشت فسترى ما الذي يستقر في القاع.

– كوسي، كيف حالكِ؟

ووجدت آديلا ما أكّد لها ظنّها في الصوتِ الأجشّ، الذي يشي بامرأة مدمنة على التدخين، مدمنة على الكحول –حتى لو أقسمت لها أمّها بأنّها لم تدخّن في حياتها، وحتّى لو أنّ ابنتها لم ترها تشرب ما هو أقوى من *بلودي ماري* أو أكثر من كأسين من النبيذ. وتحقق لها ظنّها أيضاً في استعمال أمّها ضميرَ التوكيد «أنتِ» الذي لم تفلح في التخلّص منه وهي تتكلم الإسبانيّة، وفي اللقب الذي كانت تناديها به منذ كانت ترضع– لم تكن تدعوها باسمها، متبوعاً بلقبها، *أديلا فتزبيرغ*، إلّا حين تكون غاضبة. لكنّ الصوتَ والضميرَ واللقبَ سرعان ما كشفت لها عن أنّ اتصال أمّها، بعد كلّ ذلك الانقطاع، سيفسد عليها يومها. فهل هذا ما قصدته لوريتا؟

– بخير... في عملي... وصلتُ للتو... أنا بخير... – لم تسألها عن حالها، ولا إن كان وقع لها شيء. ولم يخطر ببالها أن تقول لها إنّ الوقت غير مناسب للدردشة، فقد تأخرت عن قول ذلك بعدما أخذتها لوريتا في طريقٍ جهنّميٍ من شأنه أن يسمم عالمَ ابنتها ورئتيها.

– أنا سعيدة بسماع أخبارك... أمّا عن حالتي فأنا على أسوأ حال...

– ألأجلِ هذا تتصلين بي؟ هل أنتِ مريضة؟ هل حدث لك شيء؟ كم الساعة عندكم؟

– السادسة وثماني عشرة دقيقة... ما زال الوقت مظلماً... وبارداً... لا، لستُ مريضة... اتصلت بكِ لأنّي أمّكِ ولأنّي أحبّكِ، كوسي. ولأنّي أحبّكِ فأنا محتاجة إلى أن أتكلّم معك. هل هذا ممكن؟

– طبعاً، طبعاً... قلتِ إنّكِ «لستِ مريضة»؟ فما بكِ، لوريتا؟

أغمضت آديلا عينيها وسمعت الزفرة الطويلة، إحدى كلاسيكيات أمّها التراجيديّة. كانت آديلا، في بادرة انتقام لاواعية من طرفها، تنادي أمّها باسمها، ولا تخاطبها بـ*ماما* إلا حين تحسّ رغبة في قتلها. بينما كانت هذه تدعوها، منذ صغرها، بـ كوسي.

- كيف تسيرُ أموركِ مع خطيبك؟

كانت آديلا هي مَن زفر هذه المرّة.

- ألم تقولي إنكِ لا تريدين أن تعرفي شيئاً عنه؟ أظنّ أنّكِ لم تتصلي بي لسؤالي عن هذا. تمام؟

زفرة أخرى، أطول وأعمق. هل هي حقيقيّة؟ في آخر مكالمة بينهما، بمبادرة من لوريتا، أقسمتْ لها أمها أنّها لن تسألها ثانية عن حياتها الخاصّة، بل قالت لها إنّها إن أرادت أن تتمرّغ في الخراء، فلها أن تتمرّغ: لكنّها سترى أنّ الأمر لن يقف بها عند شمّ رائحته، بل ستأكله. وتعلم آديلا علم اليقين أنّ أمّها إن عاهدت شيئاً فلن تخلفه.

- علينا أن نقتلَ رينغو - وأخيراً نطق الصوتُ المؤرق.

- عمّ تتكلمين، أمّي؟

وسرعان ما ومضت في مخيّلة الفتاة صورةُ الحصان، الكستنائي، اللمّاع، بطرّة الشعر الأبيض المتدلية على جبينه، تلك الصورة التي إليها تعود تسميته رينغو *ستار*، لتحلّ محلّ صورة محاورتها. منذ أن حلّت لوريتا في الـ سي بريز *فارم*، مزرعة الخيل القريبة من (تاكوما)، وحصانُ كليفيلاند الرائع ذاك حبّها الأوّل والكبير. ولم يلبث الفحلُ، ذو العينين الباهتتين الحزينتين، اللتين تشبهان عيني آدمي حزينٍ عاقل، أن اختارها لتكون توأمَ روحه.

على مدى السنين -عشر سنوات؟ اثنتي عشرة سنة؟- التي أمضتها في ذلك البيت الريفي، الكائن شمال شرق البلاد، أصرّت لوريتا على أن تتولّى بنفسها أمرَ الحصان، فاعتنت به كما لم تعتنِ بأحدٍ في حياتها. وعلى صهوة سليل خيول الخدمة، التي تنتمي إلى العائلة المالكة الإنكليزيّة، وعلى وقع خطواتٍ واثقة وانقياد فريد، غير مألوفٍ في حصان أصيل يجري الدم حاراً في عروقه، تجوّلت آديلا، ذات مرّة، في تلك المزرعة وفي غابات تلك النواحي التي التجأت إليها أمّها.

- لا تطلبي منّي أن أكررَ ما قلتُ، كوسي.

- ولكن، ماذا جرى له؟ آخر مرّة تكلمنا... طيب، لقد مرّ وقت على ذلك... - توقفت الفتاة عن الكلام، وأسفت لأنّها ظنّت بأمّها الظنون،

فحسبت أنّها اتصلت بها لتشكو ضيقاً أو لتسخر من علاقاتها وقرارها بالسكن مع خطيبها في (هياليه) البعيدة. مع ذلك، فقد أفسدت أمّها عليها يومها فعلاً بما قالته.

– مغص... آلام في البطن... منذ أيام وأنا وريك نحاول معه... نبحث عن تفسير آخر لحالته... راجعنا أفضلَ بيطري هنا، وحصلنا منه قبل يومين على تشخيص نهائي. أجروا له غرزة البطن... حالته خطيرة، وسنه غير مناسبة لعمل جراحي، لن يتحمّل أيّة عمليّة... أنا أعرف ذلك، لكنّ البيطريّ يرى أنّه الحلّ الوحيد الممكن.

– يا إلهي... وهل يتألم؟

– نعم... منذ أيام وهو يتألّم... أعطيتُه مخدراً قوياً.

أحسّت آديلا بصعوبة في البلع.

– أما من علاج؟ أما من حلّ؟

– ما من معجزة.

– كم سنُ رينغو؟

– سنّه من سنّك... ستة وعشرون عاماً... إنّه عجوز، وإن لم يبد عليه ذلك...

فكّرتْ آديلا بالجواب وانتظرت قبل أن تقول:

– ساعديه، إذن، لوريتا.

زفرة أخرى سافرت عبر الخط، وانتظرت آديلا.

– هذا ما سأفعله... ولكن لا أدري إن كان عليّ أن أفعله بنفسي أم أكلّف ريك أو البيطري به.

– افعلي ذلك بنفسكِ. وتلطّفي.

– بالتأكيد... يا لها من مهمّة قاسية!

– فأنتِ له بمنزلة الأمّ – قالت الشابة، وهي لا تقصد تعريضاً.

– هذه هي المشكلة... هذا هو أسوأ ما في الموضوع... أنتِ لا تفهمين معنى أن تكوني أمّاً ولا تستطيعين أن... آهِ لو تعلمين مقدار ما تعنيه الأمومة من متعة، ومقدار ما تورثه من ألم!

- وأنتِ عانيتِ كثيراً، لوريتا، فما الذي لم تستطيعيه؟ - سألت آديلا بعفويّة، لكنّها أحسّت بأنها، وبسبب جلال المناسبة ورهبتها، سقطت في ذلك الفخ الذي طالما سقطت فيه، فراحت تستعد لردّة فعل أمّها. لكنّها فوجئت بأمّها تقول لها بهدوء:

- لم أبغِ إلا أن أخبرك بذلك. أن أطمئنّ عليك، وأن أقول لك إنّي أحبّك كثيراً، و... كوسي، لا أستطيع مواصلة الكلام. أظنّ أنّي ســ...

- I'm so sorry... - قالت آديلا. وانتبهت، في تلك اللحظة، إلى أنّ سؤالها الأخير كان في غير محلّه، وإلى أنّ أمّها تعاني فعلاً: فقد كلّمتها طوال الوقت بالإسبانية، وكانت، خلافاً لمنهجها طوال السنة والنصف الماضية، هي من بادر إلى الاتصال، بل من قطعه. لا بدّ أنّ قرارها، الذي بدت عازمة على تنفيذه، يثقل عليها، حتى إنّها لم ترد الدخول في الجدال الذي توقعت آديلا حدوثه.

ظلّت آديلا تنظر إلى هاتفها، وتتخيّل لحظةَ ستمسكُ لوريتا بالسرنجة المرعبة لتغرزها في رقبة رينغو ليدخل في إغفاءة أبديّة. تذكّرت عيني الحيوان المرتابتين الرقيقتين، وتذكرت النجمة التي تزيّن جبهته. رمت بالتلفون في درج مكتبها وأغلقت الدرج ونهضت. سارت عبر الممرّ المؤدّي إلى قاعة *المجموعات الخاصة* في مكتبة الجامعة، حيث تعمل خبيرة بالببليوغرافيا الكوبيّة. وحين مرّت من أمام يوهاندرا، مسؤولة الفهارس، أبلغتها بأنّها خارجة لتستنشق الهواء وتشرب القهوة.

- هل حدث شيء؟ - سألتها يوهاندرا.

- لا... أبداً... -تمتمت آديلا، وهي غير راغبة في الحديث عن خليط المشاعر التي أحدثتها فيها مكالمة أمّها ومنظر عيني الحصان، لكنّها استدارت نحو يوهاندرا-. هلّا أعطيتِني سيجارة؟

نظرت يوهاندرا إليها، وقد قوّست حاجبيها، ثمّ أخرجت سيجارة من علبة في حقيبتها اليدويّة.

- هل أنتِ متضايقة إلى هذا الحدّ؟ - سألتها، ثمّ ناولتها السيجارة والولّاعة.

تمتمت آديلا بكلمة «شكراً». حاولتْ أن تبتسم، ثمّ هزّت رأسها هزّاً خفيفاً حين قالت لها زميلتها، وهي تشير إلى شاشة حاسوبها، إنّ الرئيس أوباما سيزور كوبا فعلاً، يا لها من جرأة... خرجت آديلا إلى الحديقة المشجرة المحيطة بالمكتبة، فتلقتها دفقة من الهواء الساخن الرطب القادم من ميامي، الذي طالما خيّم على تلك الساعات من أيّام نيسان. غيوم قادمة من ناحية الشمال تنبئ بوابل آخر من المطر، مساءً، على (هياليه)، وربّما على الجنوب أيضاً، في ميامي، ممّا سيجعل من طريق عودتها عبر (پالميتو) معاناة بدنيّة ونفسيّة طالما ضيّقت عليها وسحقتها.

سارت وراء خيط العِطر المنبعث من القهوة الكوبية، قاطعة الحرم الجامعي، حتّى المقهى الواقع في الطابق السفلي من مبنى كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة. طلبت قهوة قليلة السكّر، ثمّ خرجتْ ثانية إلى الحديقة، وهي تحمل كوباً من البلاستك. بحثت عن مصطبة معزولة ومظلّلة لتشربَ عندها قهوتها وتدخن، خلسة، أوّل سيجارة لها بعد لا تدري من كم شهر. متعة تافهة ليومٍ تافه، فكّرت، لتداري هكذا على ضعفها بمتعة النيكوتين الذي راح يغمرها. في تلك اللحظة، أدركت آديلا فتزبيرغ أنّ سبب ضيق خلقها ليس رينغو العجوز المشرف على الموت، أو، بالأحرى، ليس هو السبب الوحيد، إنّما هي مكالمة لوريتا. فلا شكّ أنّ هناك أمراً دعا لوريتا إلى الاتصال بها. أمرٌ آخر، غير تعكير يومها. فما الذي دعا أمّها إلى مكالمتها؟

ظهر المنخفض الجويّ في صورة أمطارٍ غزيرة. لم تكن آديلا قد قطعت إلا نصفَ طريق عودتها إلى البيت عبر (پالميتو)، ذلك الطريق السريع العريض، ذي المسارات العشرة، الذي يأخذ أكثر من ساعتين من وقتها يومياً، بين الإثنين والجمعة. ويا له من وقت! ويا له من توقيت! ولطالما سألت نفسها، وهي في الطريق، عن كم ألفِ سيارةٍ تستطيع الوقوف في اللحظة ذاتها على الإسفلت الذي يغلي. تتصدّع السماءُ، بين الحين والحين، من جرّاء شحنات كهربائية تعجّل في سرعة نبضات قلب الفتاة وتبطئ من سرعة محركات بعض العربات التي سخنت، وتزاحمت، في طريق يمتد من ميامي حتى اللامتناهي. وتمكّن منها سوءُ مزاجٍ، رافقته صورة السرنجة المغروسة في وريد رقبة رينغو، وعمّقه شعورٌ بضغطٍ في أسفل بطنها، وهي علامة اقتراب دورتها الشهريّة. وبعصبيّة، أطفأت جهاز التسجيل، الذي كان يبث أغنية ماركوس المفضّلة، «هاڤانا المفتوحة»: ففي ذلك الازدحام المثير للأعصاب، وذلك الطقس الماطر، بدت دعوة تلك الأغنية إلى أن يكون الجميع happy، في غير محلها. ما زالت أمامها ثلاثة منافذ قبل أن تغادر الطريق السريع. شعرت برغبة في البكاء، فقد تضافر عليها الغضبُ والعجز. وتقدمت سيارتها عشرة أمتار تقريباً ثمّ توقفت.

قريباً سيكون قد مضى ثمانية عشر شهراً منذ أن قررت الشابّة الانتقال إلى (هياليه) للعيش مع ماركوس، ذلك القرار الذي كان سبباً لمساجلات عنيفة بينها وبين لوريتا، حين أعلنت الأمّ عن عجزها التام وقصورها المطلق عن فهم خيارات ابنتها. ثمّ سلّمت، في نهاية واحدة من تلك المساجلات، وأذعنت، وأقسمتْ ألا تتدخل في شؤون ابنتها الخاصة. لقد رأت الأم أنّ سفر الفتاة، بمؤهلاتها وشهادتها الأكاديمية، من نيويورك وانتقالها إلى

ميامي، وبالذات ميامي، للدراسة خطأ مردّه ما يعتمل في رأس الشباب من نزوات؛ ووصفت قبول ابنتها، التي حصلت على البكالوريوس في الإنسانيّات من جامعة فلوريدا الدوليّة، بوظيفة بائسة في مكتبة الجامعة، ثمّ بدءَها بعمل الماجستير في حقل بائس، تنبعث منه رائحة التخلّف، كما هو حقل الدراسات الأمريكيّة اللاتينيّة، بأنّه مضيعة للوقت وحرق للأعصاب... وزادت الفتاة الطينَ بلّة حين وقعت في غرام كوبي من لاجئي القوارب، ثم انتقلت، بعد أشهر قليلة، للسكن معه في شقة قذرة تقع في مدينة قذرة هي (هياليه). وتلك كانت الطامة الكبرى، وذلك كان الدليلَ القاطع على جنون البنت، بعد أن أضافت حلقة جديدة إلى سلسلة أخطائها، التي لا بدّ أن تترك آثارَها المدمّرة على حياتها.

انتهزت آديلا فرصة توقف أمّها عن الكلام، أثناء إحدى خطبها الحماسيّة، لتصيح في وجهها بأنّها ستنتقل إلى (هياليه) لأنّ وظيفتها هناك، ولأنّ مستقبلها هناك، ولأنّها تشعر، وللمرة الأولى في حياتها، بأنّها مُغرمة مُتيّمة. ضحكت لوريتا من كلام ابنتها وسألتها عن معنى قولها ذاك، وتساءلت إن لم يكن قرارُها محكوماً بحجم عضو خطيبها الكوبي. العالمُ مليء بالأعضاء الكبيرة، بل إنّها تفيض. أديلا فتزبيرغ، ابحثي في مجموعة *ناشيونال جيوغرافيك*، التي أعتقد أنّها موجودة في مكتبتك البائسة، أضافتْ وقطعت المكالمة. ثمّ عاودت الاتصال بعد عشرين ثانية، لتسألها إن كان في العالم مَن يفضّل السكن في (هياليه) على العيش في شقةٍ في (كوكونات غروف). (هياليه)!، صرختْ وأغلقت السماعة ثانية. وردّت آديلا على صمت أمّها بصمتٍ مثله، ومرّت أسابيعُ من الصمت.

كانت آديلا قد تعرّفت على ماركوس في ذي هنتر، المرقصِ القريب من شقتها في (كوكونت غروف)، حيث اعتادت الذهاب ليلة الجمعة مع يوهاندرا وصديقات أخريات عازبات، بعد أن جذبتها أجواؤه الهادئة، الأقربُ إلى الكوبية منها إلى الغربيّة. صارت هناك تستمتع بتدخين سيگار *أچ. آپمان* الذي تطلبه يوهاندرا من كوبا، وبالرقص، الرقص مع أيّ شخص، حتّى مع تلك الخلاسيّة الخبيرة، حين يضع الـ disc – jockey [منسّق الأغاني] موسيقى تنتمي إلى جزيرةٍ كان أولئك المنفيون لا ينفكّون يرفضونها، لكنّهم

لا يريدون (أو لا يستطيعون) منها فكاكاً. وحين لا يعود في مقدور آديلا مواصلة الرقص، فإنّها تجلس إلى طاولتها لتستريح، وتستمتع، بالنظر من هناك إلى صديقتها، الخلاسيّة تلك التي تجيد كلّ أساليب الرقص وفنونه، والتي تتقن التعبير، بحركاتها، عن الحسيّة العميقة الكامنة في تلك الأنغام، بإيقاع وعفويّة موروثة لا تستطيع آديلا بلوغها، مهما تمنّتْ ومهما اجتهدتْ.

ما أكثر ما كانت آديلا تستمتع بصحبة يوهاندرا، حتّى باتت تخشى أن يتشكّل في عقلها الباطن ميلٌ جنسيٌ مثلي. لذلك تجرأت، حين سافرت إلى نيويورك، لحضور عيد ميلاد أبيها الستين (لم تحضره لوريتا، كدأبها في السنوات السابقة)، وبسطت له مخاوفها، في طيّات حديث أرادت له أن يبدو عابراً. فتحت قلبها للشخص الوحيد الذي تستطيع أن تلجأ إليه في موضوع كالذي كان يشغل بالها. إنّها تعرف توجهاتها الجنسية وتشعر بها، مع ذلك، فطالما تملكها إحساس مقلق بأنّ شيئاً ما فيها لا يعمل كما يجب. ابتسم برونو فتزبيرغ، بعد أن أكلَ وشربَ في *بلو سموك*، المطعم الكائن في 115 إيست و شارع 27، الذي اعتادوا الذهاب إليه. ابتسم وهو يستمع إلى ابنته القلقة، وهوّن عليها بكلام يكاد يكون تشخيصاً في التحليل النفسي الذي مارسه في سنواته التي أمضاها في الأرجنتين: مشكلة آديلا أنّها ما زالت شابة، ولم تعثر بعدُ على الحبيب الذي سيوقظ غرائز الأنثى الكامنة في داخلها، تلك الغرائز التي لم ينجح مَن عرفتهم من عشّاق وطامحين في إيقاظها بالطريقة المثلى.

– امنحي نفسك وقتاً –قال، على طريقة لوريتا–. لا تبحثي عنه. سيأتيك هو برجليه.

– كأنّك، أبي، تتكلّم عن فارس الأحلام الذي تتحدث عنه حكايا الساحرات – قالت ساخرة.

أمسك برونو فتزبيرغ بيديها ووضعهما على الطاولة، ورسم على وجهه خير ما جاد به من تعابير، وعلى لسانه، خيرَ ما سمحت له به لكنته الأرجنتينيّة.

– وهذا هو ما تستحقين، بنيّتي. اعلمي أنّكِ فاتنة مكتملة الأنوثة. لك شفتان تموت أنجلينا جولي وجرّاحها التجميلي منهما حسداً وغيظاً، *وهاتان العينان السوداوان الواسعتان البرّاقتان* – قال، وهو يدندن بذلك البوليرو

الشهير. ثمّ ضغط على يديها وأضاف: لم يبقَ أمامكِ إلّا أن تبلغي الصدمة... نعم، ستكون صدمة... لكنّها في النهاية... أمّا عن خوفك من أن تكوني شاذّة جنسياً... فإنّ تلك الخلاسية جميلة أيضاً... لكنّها غير ميّالة إلى النساء، هي أكثر شبقاً من الدجاج، فلا تقلقي بشأنها.

– ومن أين عرفت أنّها شبقة...؟ – سألت، مقلدة لهجة أبيها الأرجنتينيّة.

– نسمع، نسمع – قال، وابتسم.

– سمعتَ حين زرتني في ميامي و...؟

– No comments

وكأنّ مكتوباً قد وقع. فقد تعرّفت آديلا على ماركوس، في مرقصها المفضّل، بعد أشهر من ذلك الحديث.

توقّعت أن تكون تلك الليلة مملّة، فقد كانت يوهاندرا تشكو من التهاب في حلقها وحمّى ألزماها البيت. لكنّ إلحاح صديقات أخريات، ورغبتها في البحث عن معنى جديد للتسلية، بحضور يوهاندرا أم بغيابها، دفعاها إلى أن تتزيّن وتخرج. وسرعان ما تبيّن لها أن مقاومتها وتمنعها لا معنى لهما، فطلبت، مع علمها بأنّ عليها أن تقود سيارتها عائدة إلى شقتها، كأساً ثانية وثالثة. فمكان سكنها، لحسن الحظ، قريب. عبّت ما طلبت، وهي تسند كوعها على الطاولة، المنزوية دائماً تقريباً، وتلوم نفسها على طريقة تفكيرها المملّة ونمط حياتها الفارغة. وراحت، في الوقت نفسه، تمتّع عينيها بالتفرّج على الكوبيين، الذين امتلأ المكان بهم وضجّت حلبة الرقص برقصاتهم وإيقاعاتهم. وفي تلك اللحظة، انطلقت الشرارة.

بدا الرجل، الذي لم يسبق لها أن رأته في ذي هنتر، رسماً كاريكاتيرياً أُرسل في طردٍ من هوليود لعمل فيلم من أفلام الخمسينيات: بنطلونٌ عريض وقميصٌ من الكتّان، طويلُ الأكمام، بياضٌ ببياض. أزرارُ قميصه العليا مفتوحة، وعلى الصدر الأجرد ميدالية برّاقة للعذراء، سيّدة الأعمال الخيريّة النحاسيّة[3]، معلّقة في سلسلة ذهبيّة برّاقة أيضاً. قبعة پنما، مقلّدة بكلّ تأكيد

3- شفيعة كوبا وحاميتها.

(من المؤكّد أنّه اشتراها من سوق ميامي، مع السلسلة الذهبيّة والميدالية البرّاقة)، يلبسها، حين يجد ذلك ضرورياً، في الاستعراض الذي يقدمه، ويرفعها على طريقة مصارع الثيران حين يمرر عباءته من أمام الثور، أو يرمي بها إلى الهواء ليلتقطها بعد استدارة سريعة ماهرة تنمّ عن مرانٍ وتدريب. أمّا شعره، المتموج الأسودُ سوادَ الكهرمان، فكان يلمع بعد أن يمتزج هُلامه اللماع بعرق التمرين. أمّا قدماه، اللتان تنتعلان خفين بنيين بطرقة رقيقة، من دون جوارب، فكانتا تضبطان خطواتِه بالملمترات، من دون أن ترتفعا عن الأرض الصقيلة إلّا قليلاً، بينما يُفسحُ للذراعين الوهم بالحركة، ويوكل إلى الكتفين التحكّم العميق والموجّه بالإيقاع الذي يضعه الكونترباص.

مع ذلك الهندام وتلك الانسيابية في الحركات، شرد فكر آديلا، وخمّنت أنّ مديري المرقص ما تعاقدوا مع ذلك الشاب إلّا لينشّط الأجواء. ففي لحظة معينة، وفي ذروة الموسيقى، حين يسود إيقاع الطبول والطبلات، يتوقّف الجميعُ عن الرقص، ويتحلّقوا حول الشاب والفتاة التي تصاحبه، الزنجيّة ذات الشعر السرح والفستان الضيّق الأخضر اللماع. إيحاءات في الوركين المتموجين، وجرأة في النظرات المتلهفة، وابتسامة على الوجوه التي طرّاها العرق. كلّ شيء ينمّ عن حسّية فيّاضة، في عرض يشي بشحنة جنسيّة عالية. ويتعالى، مع نهاية الوصلة، تصفيق الراقصين الآخرين والمتفرجين، متوجاً بصرخة تصدر عن الشاب:

– I love you, Miami!

همّت آديلا بتناول كأس ثالثة من نبيذ ضجرها، حين شعرت بأحدٍ يجرّ كرسياً بالقرب منها، ورأت الشخص الذي التفّ باللون الأبيض يجلس على ذلك الكرسي.

– ما بكِ، صغيرتي؟ هل هجركِ حبيبُك أم إنّكِ لا تحسنين الرقص؟

كان مزيج من رائحة الكولونيا والعرق ينبعث منه: رائحة رجل. ذلك هو الإحساس الأوّل الذي تملك آديلا. جلس الشاب على الكرسي، من دون استئذان، وراح يعبّ علبة هينكين كان يحملها معه. نزع قبعته ووضعها على الطاولة. جفف جبينه بمنديل أحمر ورسم على شفتيه ابتسامة كشفت عن أسنانٍ سليمة صحيحة البنية كاملة العدد.

– لا هذا ولا ذاك – خطر على بالها أن تقول له.

– هااااا. فأنا مستعد، بكلّ لطف واحترام، أن أحلّ لك أيّة واحدة من تينك المشكلتين. – ووسّع نطاق ابتسامته، ورفع أحد حاجبيه، فكأنّه يريد أن يحدّق فيها أكثر.

– متى وصلتَ إلى هنا؟ – سألته آديلا، وقد أعجبتها جرأة الشاب.

– قبل شهرين... –خفض صوته–. هل يُلاحظ ذلك عليّ؟

– يُلاحظ من بُعد كيلومترات. فما زلتَ فظاً.

ابتسم الشاب ثانية. راق لآديلا نموذج الفحل الكوبي الأصيل ذاك، الذي يحمل كلّ الصفات المطابقة لوصفه وصفته، والمعروفة في أصله وفصله.

– هل أشعركِ بما يخيف؟

– أبداً، بل تعطي... الحنان. أم يقال، تثير الحنان؟ – سألته، بعد أن لم تستطع أن تتجنّب ردة فعل عقلها الباطن إزاء ذاك الاعتراف الذي فضحه واحدٌ من شكوكها اللغوية التي طالما أبهرتها.

– أنتِ تقتلينني، صغيرتي... أنا أثيرُ الحنان؟... يا ويلي. إن استمررتُ على هذه الحال، فسيعيدونني إلى حيث أتيت.

وابتسمت آديلا. كيف يمكن الوصول إلى ذلك النموذج الذي بدا كأنّه صُمم بعناية جينية مدروسة؟

– Sorry...، عذراً... رقصكَ رائع – حاولت أن تصلح الأمور.

– وأنتِ؟... هل صحيح أنّك لا تجيدين الرقص؟

– من قال إنّي لا أجيد الرقص؟

– يبدو عليك ذلك... هيّا، فرجيني – قال، ثمّ مسح وجهه، من جديد، بالمنديل الأحمر، وتناول القبعة من على الطاولة. وقف (هل هو أطول الآن؟) ومدّ يده اليمنى إلى آديلا.

تطلّعت إليه ثانية. لا. مستحيل، فكّرتْ، لأنّها تفكّر دائماً. تفكر كثيراً. أكثر من الضروري: طالما قال لها أبوها ذلك، منذ أن كانت طفلة، لكنّه لم يقل لها إن كان الإمعانُ في التفكير أمراً حسناً أم سيئاً. لكنّ أسلوب الاصطياد ذاك بدا

لها كلاسيكياً مستهلكاً إلى حدّ يبعث على الضحك، وربّما لم تحاول، لهذا السبب، أن تطيل التفكير، بل أطلقت العنان لنفسها. لن تخسر شيئاً. تركت له يدها ونهضت، لكنّها حذّرته قبل أن تخطو خطوة واحدة:

- إن أتيتَ حماقة واحدة فسأتركك.

- لا حماقات.

- هل اشتريت القبعة من سوق العتيق؟

ابتسم. نظر إليها وأمسك بأنفه.

- من أين أنتِ؟ أنتِ يوما[4]، صحيح؟

- نعم، أنا أمريكيّة... من الولايات المتحدة الأمريكية. من نيويورك. لماذا؟

- لأنّ الأمريكان يرون كلّ شيء ميكي *ماوس*... لا، يا صغيرتي، إنّها من الإكوادور، وهي أصليّة، ومن النوعيّة الممتازة. جلبها لي صديقٌ وصل قبل أسبوعين. دشّنتها اليوم لأنّي منذ الصباح وأنا أشعر بـ...، لا أدري، بشيء كهذا...

- إحساس... حدس - استعجلت الكلام.

- أو علامة من الإله چانغو. كنتُ أعرف أنّ شيئاً حسناً سيقع لي.

- هل تدين بالسناتيريّة؟[5]

- لا، لكنّي، ومن باب الاحتياط، أؤمن بكلّ شيء... - قال وأظهر لها المنديل الأحمر ثمّ الميدالية التي تحمل صورة العذراء.

وجذبها جذباً إلى حلبة الرقص. أمسك بيدها اليسرى، ثمّ وضع يده اليمنى على خصرها وشدّها نحوه، ثمّ أبعدها، كأنّه في ريبة من أمره- ولكن، انتظري، انتظري... فأمّي لا تسمح لي بالرقص مع غريبات لا أعرف أسماءهن... What is your name, baby?

أحسّت آديلا بدفقة أخرى من الحنان. فعلاً، فهذا الشخص ما زال خامة نقيّة. نموذج مثالي.

4- *Yuma* استعمال كوبي وتعني أجنبي أو من مواطني الولايات المتحدة الأمريكيّة.

5- ديانة تمزج بين المعتقدات الأفريقيّة القديمة والمسيحيّة. تنتشر في منطقة الكاريبي.

- آديلا فتزبيرغ.

أطلق يدها اليمنى وبسط لها يده.

- تشرفنا، آديلا لا أعرف ماذا... أنا ماركوس مارتينِث چاپله، وفي كوبا يسمونني ماركيتو الوشق، ويدعونني أحياناً، ماندراك الساحر... و... أنتِ ولدتِ في نيويورك...، ولكن، من أين أنتِ؟ أمريكية مئة بالمئة، نصف أرجنتينية، كوبية نادمة؟

- كلّ هذا.

- كوكتيل مولوتوف، إذن؟ يااه، لا فرق... هيّا، ارقصي!

أثبتت آديلا، بعد خطوتين اثنتين، أنّها لا تملك فكرة عن الرقص، وأنّ قصاراها هو أن تسلّم قيادها لشريكها. وستدركُ الفتاة، في ما بعدُ، أنّ المفتاح يكمن في ذلك القرار: إذ لم تكتفِ بأن سلّمت ماركوس قيادَها في حلبة الرقص فحسب، بل سلمته إياه في حالة لم تألفها من الانقياد، حتّى وهي تقف على أرضها، تلك الأرض التي كان الشابُ يشعر فيها بغربة مبعثُها أحكامٌ مسبقة وأعباء ثقيلة باهظة. مع ذلك، فقد انساقت إليه، وراحت تنجرف أبعد وأبعد، أعمق وأعمق، حتّى غرقت في بحر ماركوس مارتينِث چاپله المتلاطم، وضاعت في عالمه الصاخب الواسع المتسارع، ثمّ واصلت التدحرج إلى أن استقرّ بها المقام، بعد أشهر من الزمان، في غيتو (هياليه)، «المدينة التي تتقدم». وها هي آديلا تتقدم في الرقم 49 من *ويست ستريت*، من ناحية شارع *پالم سپرينغ ميل*، بين بِرك الماء وازدحام المرور وأبواق السيارات، مُخلّفة وراءها إعلاناتٍ بالغة الفجاجة ومناظر بالغة الأذى.

في اللقاءين اللذين تمّا بينهما، قبل لقائهما الأوّل على الفراش، وفي الصدمة الجسديّة والنفسيّة (لأبيها أن يفخر بدقة تشخيصه) التي حرّكت كلّ عظمٍ من عظامها ومسّت كلّ عصبٍ من أعصابها (الثامن عشر من آب 2014 تاريخٌ لا يمكن نسيانه)، تسنّى لآديلا أن تكتشف أنّ تحت تلك الأقنعة، التي لم تكن أقنعة، والحركات، التي تبيّن أنّها حركات عفويّة ومحاولاتٌ ناجحة لملكة شفويّة نقيّة، شخصاً استطاع، بمزيج البراءة الكونيّة والصعلكة الهافانية فيه، أن يوحي لها بما *أثار فيها* الحنان من أول حديث دار بينهما. وهكذا شغفت آديلا بماركوس مارتينِث چاپله حبّاً.

في أيلول 2007 كان البلد يعيش في بحبوحة من الاستقرار الاقتصاديّ، والثقة بالانتصار على الإرهـاب، والأمل في التغيير. طلائع الخريف السوداويّة تلوح في أجواء نيويورك، بعد انقضاء الصيف المرهق. لكنّ الشمسَ في ميامي ما زالت تفطر الحجر، وما زال البحرُ صافياً شفافاً. لذلك قرّرتْ آديلا أن تستمتع بكل جيّد ما دام متوفراً، فلا تتذمّر من طقس قاسٍ ما زال بظهر الغيب، ولا تحرق دمَها بعلاقتها المتوترة مع أمّها، التي كانت تمرّ، في تلك اللحظات، بواحدة من أصعبِ أزماتها. ليس من حقّها أن تتذمر، إذن، لأنّها هي من قرّر واختار، وما عليها إلّا أن تنفّذ قراراتها: ستفعل ما تستطيع فعله لمصلحة حملة السيناتور الكاريزماتي الواعد باراك أوباما، وستواصل مناهضة الحرب والدعوة إلى حسن التعامل مع المهاجرين، وستقيم في جنوب فلوريدا لتبدأ هناك دراساتها الأكاديميّة في جامعة فلوريدا الدوليّة.

عاشت آديلا كلّ واحد من أعوامها السبعة عشر، التي أتمّتها في نيسان 2007 ذاك، في شقة كائنة في (هاميلتون هايتس)، في (ويست هارلم). شقّة مجمّدة الإيجار، كان والدها، برونو فتزبيرغ، قد استأجرها وسكن فيها منذ عشرين سنة تقريباً. في ذلك المكان حطّ بأمّها الرحال، بعد خروجها من كوبا، بداية عام 1989، في ما خططت له أن يكون زيارة قصيرة إلى بوسطن لحضور مؤتمر حول الصحة الحيوانيّة، وقرّرت ألّا تعود بعد انتهائها إلى الجزيرة، مع علمها بأنّه من الأيسر عليها أن تصبح رائدة فضاء في الولايات المتحدة من أن تعادل شهادتها الكوبيّة في الطبّ البيطري.

بدأت العلاقة بين الكوبية الهاربة والمحلل النفسي الأرجنتيني بحديثٍ عابر، في واحدة من قاعات (ميتروبوليتان ميوزيوم)، حول الرسامين الانطباعيين. فبعد أن تكلّما عن سيزان ورسومه المائية وألوانه، وعن ڤان كوخ وقوّته وحيويته،

ذهبا لتناول القهوة، ثمّ لتناول أكلة بسيطة، حتّى إذا انتهى العصر، كانت لوريتا آغيرّي بوديس وبرونو فتزبيرغ يتضاجعان في شقّة (هاميلتون هايتس). أمّا ما عجّل في نشوء تلك العلاقة، حسب ما بلغ آديلا من معلومات، فهي حالة فقدان الوليّ الداعم التي كانت تمرّ بها أمّها، التي لم تلبث أن حملت، في زلة لم تجد لها تفسيراً. وهكذا تحوّلت الكوبيّة الهاربة إلى لوريتا فتزبيرغ، ثمّ لم تلبث أن وضعت، بعد تسعة أشهر، ابنتها آديلا فتزبيرغ. نحن الآن في عام 1990.

حين انفصلت لوريتا عن برونو، عام 2005، اتفق الاثنان أن تظلّ آديلا في شقّة (مانهاتن)، لتواصل دراستها المتوسطة وكورساتها في الفنون التشكيليّة، بانتظار أن تحصل على منحة خاصة، أو على معونة حكومية تؤمّن لها الدخول في (كولومبيا يونيفرسيتي)، على أن تمضي أشهر الصيف في شقّة (أونيون سيتي) حيث تقيم أمّها، بعد أن تحمل مع كتبها، مباخرَها وكارمتها وجنونها.

في السنتين الأوليين اللتين أمضتهما بعيداً عن أمّها، وكانتا سنتين ودّعت فيهما مراهقتها، نعمتْ آديلا بحرية كبيرة للتقرّب من أصولها الكوبيّة، وهو ما حرصت لوريتا على الابتعاد عنه. قد تكون البنتُ تأثرت بميلٍ جيني، أو أنّ المسألة تعود إلى منافسة بين الأم والبنت، لكنّ شعوراً ملحّاً يجذبها إلى كلّ ما هو كوبي تأجج في الفتاة المراهقة، التي ما كان لها، بالمنطق، إلّا أن تكون نيويوركيّة، إن كان لتلك الصفة من وجود. انجذابٌ لم تشعر به لا نحو جذور أبيها الثقافية ولا نحو تربية أمّها البريطانيّة ولا نحو ثقافة المهاجرين الدومينيكانيين، الذين ملأوا منطقتها والذين ربت بينهم. فلماذا؟ سؤال سيلحّ عليها بعد سنوات.

في شقة (ويست هارلم)، تلقت آديلا التربية كنبتةٍ بلا جذور. كان أبوها، الأرجنتيني من أصل يهوديّ، يكره، بصمت وبشدّة، كلّ ما يتصل ببلده الأم (باستثناء منتخب الأرجنتين الوطني لكرة القدم، واللحم الأرجنتيني، وروايات سوريانو وپيغليا، وموسيقى پيازولا على الأكورديون)، الذي هرب منه بسبب ميوله السياسيّة أيّام شبابه. لكنّ برونو كان يكره أيضاً، وبنفس الشدّة، سطوة ثقافة والديه العبريّة، التي كان يرى أنّ النظام السياسيّ الصهيونيّ المقيت (يدعوه أحياناً بالفاشيّ) قد تلاعب بها وحرّفها. أمّا أمّها فقد قطعت، وبتطرّف أشدّ، كلّ علاقة لها بمسقط رأسها، الذي كانت ترى

فيه مرتعاً لأناس دنيئين متعالين بلا سبب، ومُحبَطين لأسباب كثيرة. وكانت تنتقد ثقافتها الكوبيّة بالحدّة نفسها التي تهاجم بها نمط الحياة الإنكليزيّة، الذي عانت منه أثناء سنوات دراستها وإقامتها في لندن، حين كان أبوها يعمل دبلوماسياً هناك، بين أناس اعتادوا أن يكوّروا أفواههم، حتى تبدو مثل فتحة شرج الدجاجة، وأن ينصرفوا إلى تحطيم اللغة التي صنعوها بأنفسهم. أمّا نيويورك... فجيدة، ولكن ليس بالمجمل: فمن مناخ رديء إلى قذارة ومخدرات إلى تكبّر وعجرفة.

بهذا النفور المتطرف، الذي يصل حتّى الأصول، رسمت لوريتا لابنتها طريق الاندماج: فكانت تفضلُ أن تكلمها بالإنكليزيّة، باللفظ البريطاني الذي لم تستطع، أو لم تشأ، أن تتخلّص منه، وتحثّها على أن تقرأ لكتّابٍ أمريكان، وأن تؤمن بأن عالمها عالمٌ غربي، وإن شابته بعض الرواسب الدينيّة والأخلاقيّة التي تصفها بالمنافقة، بل حاولت أن توجه ابنتها نحو معارفَ وعلوم أخرى تراها أسمى وأنبل، كالبوذيّة. كان من حسن حظ البنت والأم أنهما سكنتا نيويورك، حيث يقتضي الواجب أن تستفيدا ممّا توفّره نيويورك وتمنحه (نيويورك التي لا تمنح شيئاً وهي التي لديها كلّ شيء)، كما اعتادت أن تقول. أما كوبا، فالأفضل ألا تتكلّما عنها.

كانت آديلا محظوظة إذ بدأت، وهي صغيرة، وبتوجيه ومتابعة من أبيها، التكلّم بإسبانية صحيحة، تشوبها، أحياناً، لكنة أرجنتينية. ثمّ اختارت، وهي في الجامعة، أن تكون اللغة من بين مواد دراستها الأساس، وبدأت، في مبادرة شخصيّة، مدفوعة، ربّما، بروح التمرد فيها، قراءاتٍ في تاريخ كوبا وأدبها، أدبِ أجدادها، الذين لم تكن تعرف إلّا إشاراتٍ قليلة عنهم، ولم تسمع إلّا أحكاماً قاسية ما انفكّت أمّها تطلقها في حقّهم. وبدأت آديلا، حين امتلكت زمام نفسها، تحضر حفلات الموسيقى اللاتينيّة، التي يمتزج فيها مؤدون وراقصون من جميع الأنحاء، ومنهم كوبيون، حيث تعرّفت على فتاة من سنّها، اسمها أنيسلي، انتقلت إلى نيويورك حين كان عمرها أحد عشر عاماً، وكانت في نظر آديلا أكثر كوبيّة من *لا غوانتاناميرا*[6].

6- *La Guantanamera* أغنية شعبية كوبية رائجة.

مع أنيسلي ووالديها -كان أبوها مدرّب بيسبول وسوفتبول؛ بينما كانت أمّها طبيبة أطفال مكلفة بعمل ممرضة- خضعت آديلا لدورة مكثفة في الحياة الكوبيّة، كان يحضرها أيضاً ابنُ عم أنيسلي، الذي تبادلت معه القبلات، ثمّ جرّبت معه، وجرّب هو معها، الجنس لأوّل مرّة، وهما في السادسة عشرة (كان دافعها الفضول، لا الحبّ). لقد حملتها نهاياتُ الأسبوع تلك، في بيت صديقتها، إلى دهاليز حكاية لم تكتب، غنيّة بالمواقف والتصرفات والتعابير الكلاميّة، وإلى معرفة أماكن وتركيبة مجتمع سياسي يرونه مسؤولاً عمّا هم فيه من تشتت ونفي.

لقد ساعدتها أسرة أنيسلي على أن ترى ألواناً أخرى في الحياة الكوبيّة، غير تلك التي اعتادت أن تراها في مواقف لوريتا الحادّة، أو في الرفض المتطرف الذي يظهر في مواقف شخصيات عامة كثيرة في ميامي ونيوجيرسي إزاء أيّ تساهلٍ مع المجتمع الكوبي الحاضر دائماً في خطابهم. صحيح أنّ آراء تلك الأسرة تناهض النظام القائم في الجزيرة، لكنّها كانت تشكر لكوبا، وإن همساً، الفرص التي وفّرتها لها داخلَ البلد وخارجه. وخصوصاً خارجه، إذ حظيت بامتيازات كان مردّها خلافاً سياسياً عقائدياً جعلهم متميّزين عن كلّ المهاجرين اللاتينيين إلى الولايات المتحدة، ذلك البلد الرائع الذي يعيشون فيه ويكافحون.

وهكذا أبدت تلك الأسرة، بلا تصنّع ولا تكلّف، كبرياءً خالية من التحامل، ورضاً خالياً من العقد، وصرّحتْ بانتماءٍ تمسّكت به وأظهرته كلّما سنحت لها الفرصة لإظهاره، وعبّرت عنه بشتّى الطرق، من طريقة طبخ الفاصوليا السوداء، حتّى طريقة الثلاثي ماتاموروس في غناء بوليرو الدموع السود أيضاً[7]؛ ومن الاستمتاع بالأفلام القادمة من الجزيرة، المعروضة في مهرجانات نيويورك، حتّى قراءة أحد الروائيين الكوبيين المعاصرين، مروراً بسهرات الفكاهة والضحك على نكات غيّرمو آلباريث غيديس ومقالبه، التي تصوّر الكوبيين قمّة في الفطنة وبذاءة اللسان. وإذا كانت العائلة والأصدقاء

7- يشير إلى أغنية لهذا الثلاثي الكوبي عنوانها *Lágrimas negras* [= دموع سود] (1928).

الآخرون المقربون، القادمون أيضاً من كوبا، يعيشون، في الشارع، أجواء نيويورك الرحبة المفتوحة على الثقافات، فإنّهم، داخل بيوتهم أو في اجتماعاتهم، يواصلون العيش في جزيرتهم المفقودة. فلماذا تبدو أمّها، إذن، كأنّها قادمة من كوكب آخر، مطموس المعالم ضائع الحدود؟ تسأل الشابة نفسها، أحياناً.

ومع اندفاعها الكوبي من أجل الحفاظ على أصلها وجوهرها، اقتربت الفتاة المراهقة خطوة من اعتناق دين لا إله له، لكنّه دينٌ له رسولٌ اسمه خوسيه، كاسم البطريرك المذكور في الكتاب المقدّس، وكان، للمزيد من التشويق، شاعراً تنبؤياً. حينئذ بدأت الشابة تفهم عقيدة أنيسلي وعائلتها وتعجب بها: عقيدة تقوم على الاستمرار في أن يكونوا ما كانوا، ورفض أن يتخلوا عمّا باتوا عليه. لكنّ آديلا شعرت بأنّها، إن استطاعت فهمهم، فلن تستطيع تقليدهم: ثمّة شيء ينقص، أو يزيد، لكي تكون ما كانوا عليه وما يريدون أن يتمسكوا به.

مع ذلك، فحين اقتربت لحظة اختيار الجامعة، أبلغت آديلا أمّها، وبلا تردد، أنّها اختارت دراسة الإنسانيات في جامعة فلوريدا الدولية، حيث تؤهلها درجاتها العالية للحصول على منحة تغطّي تكاليف التسجيل.

وعندها نشبت بين الاثنتين حربٌ أعلن الأبُ فيها وقوفه على الحياد، مع استعداده للمساعدة مادياً، شرط أن تواصل الفتاة دراساتها العليا حتّى حصولها على الماستر. أمّا الأم، فقد استطاعت، في آخر محاولاتها للتأثير على ما اعتزمت عليه آديلا، أن تقنع ابنتها بأن تمضي معها بضعة أيّام في مزرعة الخيل، حيث تسكن وتعمل، في ضواحي (تاكوما). هناك، بعد أربعة أيام من الهدوء، وحين ظنّت الفتاة أنّ الأزمة انتهت على خير، نشبت بين الأم وابنتها واحدة من أشرس معاركهما، وصارت الأم تخاطب البنت بـ *آديلا فتزبيرغ*، بدلاً من أن تخاطبها باسم التودد كوسي. في تلك المناسبة، أبدت آديلا قوّة غير معهودة في طبعها، بعد أن واجهت إعصاراً من الدرجة الخامسة، اسمه لوريتا فتزبيرغ، التي ما انفكت تحاجج ابنتها وتحذّرها من أنّها إن انتقلت إلى ميامي، حيث أكوام الروث السياسي والثقافي والمدني، إنّما تنقل حياتها لتصبح خراء في خراء.

مرّ شهران على الجدل المرير. وفي أيلول 2007 الواعد، تركت سيارة التكسي آديلا في الرقم 116402 أس دبليو، من شارع 35، في منطقة (ويستچيستر)، حيث كانت عثرت، عن طريق الإنترنت، على شقّة صاحباها ميغيل ونيلدا باسايّو، قرّرت أن تسكن فيها لحين انتقالها إلى الإقامة الجامعيّة. قدّم لها الزوجان الستينيان، اللذان كانا بانتظارها عند الباب الرئيس، قدحاً من عصير الجوّافة، وصحناً من حلوى البيض، وقهوة (حلوة أيضاً)، قبل أن يسلماها مفتاح الشقّة ويطنبا في بيان جمال البناية والمربّع السكني والحارة والحي والمدينة والمحافظة، دون أن ينسيا أن يكررا لها، على طريقة الكوبيين، أنّ بيتهَم بيتُها.

أوقفت آديلا سيارتها التويوتا پريوس أمام الرقم 53 من الجادة 10 من (ويست هياليه)، حيث صارت تسكن، هي وماركوس، منذ أشهر. بيتٌ استأجراه بسعر مقبول من صاحبه، وهو آخر الأمريكان الساكنين في ذلك المربع السكني، بعد أن قرّر الانتقال للسكن في منطقة أقل زحمة وصخباً. وسرعان ما أثمرت جهود ماركوس في ترميم البيت الذي بدا عليه إهمالُ أصحابه وتعبُهم. وتعهّد الشاب الكوبي للمالك بإصلاح حديقة المنزل الأماميّة مقابل تخفيض الإيجار. وبالفعل، فقد رتّبها حتّى باتت تزهو بهيّة تحت أشعّة شمس عاودت الظهور لتُسخّنَ عصراً كان، حتى قبل عشر دقائق، معتماً وماطراً، ولتُخرجَ من الأرض أبخرة جهنّميّة. كان لذلك الركن من (هياليه)، بمساكنه المنفردة وجملوناته وحدائقه المزهرة المتناسقة، مقامُ الواحة بين فوضى غيتو كوبي تشكّل في المدينة، بعد خمسة عقودٍ من العمل الدؤوب والسعي إلى غزوها واحتلالها.

حين وصلت آديلا، لم تجد ماركوس في البيت: فمكان شاحنته الصغيرة في موقف السيارات شاغر. وأشعرها غيابُ الرجل، للمرة الأولى، بشيء من الراحة: فهي تحتاج إلى أنّ تختلي بنفسها برهة وتشرب، على مهلها، قهوتها، وتدخّن، على مهلها أيضاً، السيجارة التي كانت طلبتها من يوهاندرا. ذهبت، قبل أن تدخل البيت، إلى طرف الحديقة ورفعت اليافطة التي تحمل صورة هيلاري كلينتون، التي قد تكون أسقطتها الريحُ أو أطاح بها الجارُ المتعصّب للحزب الجمهوري. كانت آديلا تدرك أنّهما قد يثيران، بتعليق تلك اليافطة، حساسيات معينة، لكنّ قناعتها بحريتها في الاختيار، في بلد حرية الاختيارات، جعلها تختار أن تعلّق واحداً من الإعلانات الانتخابية القليلة الموجودة في ذلك المربع السكني، تعبيراً عن رهانها على فوز الديمقراطيين

في انتخابات نوفمبر (أمّا ماركوس، الذي اعتاد أن يترك للآخرين أن يقرّروا عنه في مثل تلك المسائل، فسيّان عنده أن يشغل البيت الأبيض هذا أو تلك، المهم هو ألا يتدخلوا في شؤونه، وخيرٌ من ذلك أن يتجاهلوه، كان يقول).

حالما دخلت البيت، شغّلت جهازَ التكييف بأقصى قوته وتوجهت إلى الحمّام. خلعت سروالها الداخلي المبقّع، ووضعت كلّ ملابسها في كيس، ثمّ استحمّت بعناية -لطالما أثارت دورتها الشهريّة نفورها- وحشرت السدّادة القطنيّة التي اعتادت استعمالها. شعور غامر بأنوثتها أوقفها قبالة المرآة العموديّة الملصقة بالجانب الخلفي من باب الحمام، وراحت تتأملُ جسمها العاري: وركان واسعان، جبلُ عانة مظلمٌ، وإن هذّبت شعره وشذّبته، نهدان صغيران مرتفعان، تتوجهما حلمتان لونهما كلون القرفة، بطن ناعمة صافية، فخذان مشدودا اللحم، وردفان عاليان. لطالما أكّد لها ماركوس أنّ جسمها رائع، ولطالما طلب منها أن تمشي عارية في البيت، وعبّر لها عن ثقته بأنّ كرياتٍ سوداً تجري في دمها، غير تلك البيض والحمر، ورثتها عن المرحومة جدّتها، التي تدين لها أيضاً بشفتيها المكتنزتين وبمؤخرتها البارزة وسواها من الفضائل المحببة المرغوبة. بدا كأنّ آديلا أرادت أن تتأكد من كلّ ذلك، فتفحصت منحنى مؤخرتها، التي طالما اجتذبت الأنظار، منذ أن بدأ جسدها بالتكوّر والنضوج.

ارتدت *شورتاً* وفانيلة لم يصمد نسيجُها أمام اندفاع النهدين المحرّرين من حمّالة الصدر. ثمّ أعدّت الإسبريسو وخرجت إلى الشرفة، التي كان ماركوس أصلح سقفها. بحثت، في قارورة الزجاج المليئة بالحلزونات والصدفات عن الولّاعة التي وضعتها هناك قبل أشهر، وبدأت ترتشف قهوتها، قبل أن توقد سيجارتها. أحسّت بتوتر في كتفها وبثقلٍ غريب في أسفلِ بطنها، سيلازمانها طوال أربع وعشرين ساعة، على الأقل. عادت إلى الغرفة، مدفوعة بداعٍ فسيولوجي تقريباً. أخرجت من صندوق احتياطها الاستراتيجي سيجارة ماريجوانا رفيعة، ثمّ عادت إلى الشرفة وأوقدت السيجارة.

وسرعان ما شعرت آديلا بتراجع الضغوط التي سببتها لها الساعة والنصف التي أمضتها في الطريق السريع، وبدأت تستمتع بجرعة السكينة

التي راحت تنساب في بدنها وتخفّف من مرارة الأحاسيس التي خلّفتها المكالمة الصباحيّة. هل اتصلت بها أمّها لتكلّمها عن الحصان المريض؟ هل اتصلت بها لشأنٍ آخر. شأن قد يكون أدعى للحزن؟ لماذا تشعر بأنّ هناك أوحالاً أخرى في قاع تلك المكالمة؟ إنّما تظنّ بأمّها الظنون، لأنّها تعرفها حق المعرفة...

دخّنت آديلا حتى كوت حرارةُ الجمرة القريبة أصابعها وأخرجتها من شرودها. غطست عقب السيجارة في ثفل القهوة، محاولة إخفاءه، وإن كانت تدرك أنّ الرائحة ستفضحها. سيلومها كارلوس لأنّها نقضت الاتفاق المبرم بينهما، الذي يحرّم تدخين تلك السجائر إلّا في مناسبات خاصة جداً، وبهدف الاستمتاع المشترك.

شعرت آديلا بالذنب. أحسّت بالضعف. فاقت، فتملكها إحساسٌ من يرى نفسه من منظور خارجي: امرأة شابة تدخن الماريجوانا من دون أن تكون مدمنة؛ امرأة تحتاج أن تكون وحدها وهي تعلم أنّها ليست وحدها؛ امرأة تريد أن ترسم مستقبلها وتؤمن بأنّها ستبلغه، وهي تعيش منقادة لحاضر طويل مثبّتٌ بمشابك. هي ونقيضها. هي وبديلها. ماذا جرى لها، ما الذي يثير قلقها، بل ما الذي يخيفها؟ هل هي حالة الحصان الموشك على الموت، أم هو وجود أمّ كأمّها في حياتها؟ أم هو احتمال أن تكون أخطأت في قراراتها؟ أهي مشاكل العمل أم الجامعة، أم هي مشاكل اقتصادية مشت إليها برجليها؟ ما من أجوبة، أو، ربّما، لم تشأ هي أن تردّ على أسئلتها. لا، قالت لنفسها، لن تطرح على نفسها المزيد من الأسئلة، ولن تبحث عن تفسيرات للقلق الذي يغمرها منذ الصباح. وفي تلك اللحظة وصلتها رائحة قويّة، رائحة عرق وتراب. وسمعت في الحال:

- دخّنتِ، برت - لانكستر!

كان أوّلُ حلمٍ كبيرٍ تمنّاه ماركوس مارتينِث چاپله، وفشل في تحقيقه، هو أن يصبح لاعبَ بيسبول شهيراً. لم يكن ذلك، في الواقع، حلمَه وحده، بل إن عددَ الحالمين بذلك من الكثرة إلى درجة أنه ليس من المنطقي أن يُعدّ إخفاقه إخفاقاً: فما أكثر مَن ذاقوا مرارة الفشل، بل إنّ عدد الذين صادفوا الفشل أكثرُ من عدد من أصابوا النجاح، إذا اعتمدنا مبدأ التناسب وأخذنا المتوسّط في الحسبان. لكنّ ماركوس سيواجه، مع الوقت ومع مشاغل الحياة، عراقيل أخرى، وإن بدت له أقلّ خطراً بالمقارنة مع ما واجه منها الكثيرون من المحيطين به، بدءاً بالمقربين. مع ذلك، وبعيداً عن إخفاقه في تحقيق حلمه ذاك، فإنّ ماركوس مدين للبيسبول بالكثير من ذكرياته الجميلة، بل إنّه يدينُ له بروح المنافسة التي سترافقه دائماً وتفتح أمامه الأبواب أنّى حلّ وأنّى رحل.

في عقد التسعينيات، تنبّه الصبيّ، وهو طفلٌ، ثمّ، وهو مراهق، إلى أنّ أزمة اقتصاديّة خانقة تعصف بالبلد: كهرباء لا تنفكّ تنقطع، وخبز شحيح ورديء، في منظره وفي مذاقه؛ شعور مقيم بالحر. أمّا ما عاناه حقّاً فهو صعوبة الحصول على الكرات اللازمة لممارسة رياضته المفضلة.

من أوقات النحس تلك يحتفظ ماركوس، في الركن المهمّ من ذاكرته، بذكرى اللقاء الكروي الذي جمع فريق حارته بفريق (بوييروس) القوي المتعجرف. في تلك المباراة، التي كانت واحدة من آلافٍ جرت بين الفريقين، على مدى سنوات كثيرة، تضافر حُسن الطالع وسعد النجوم ليسهّلا على ماركوس فرصة الوصول إلى صندوق الضرب مع اثنين من لاعبي القاعدة، وتسجيل نقطتين وضربتي خروج في المدخل، بعد ما بدا، لأوّل وهلة، أنّ الفريق الخصم منتصر لا محالة. وبدا أمل فريقهم كلّه معلقاً في ماركوس. لا أحد يدري من أين جاء ماركوس بتلك القوة والتناسق والسرعة: نفّذ رمية

تأرجح من أجل اختراق سريع، وصدّ الكرة بمضربه: كانت الصدّة من الدقّة والحدّة، أنّ الكرة انطلقت بكلّ سرعتها لتتجاوز الشجيرات التي كانت ترسم حدود الميدان، ولتضع ختم النصر لفريقه. ويا له من ختم!

عشرون عاماً من بعد: يغمض ماركوس عينيه ويحصر تفكيره، فيستحضر تلك اللحظة المجيدة: ما زال صوت الضربة يرنّ في مسامعه، وما زال يشعر بالتيار الذي سرى في ذراعيه عبر خشب المضرب، بل إنّه ليرى الكرة وهي ترتفع وتبتعد. يا له من شعور بالسعادة الكاملة والفرح الغامر! كانت غاية درجات الرضا عن الحياة وعن العالم. كانت بداية حلم لم يلبث أن انقطع.

أمّا الفضاء الأوّل، حيثُ نمّى ماركوس تطلعاته في ميدان البيسبول، فكان ساحة غير نظامية تقع نهاية حي (فونتانار)، قريباً من بيت أسرته. أرضٌ خلاء ظلّت تقدّم خدماتها الجليلة للفتية اللاعبين، حتى عنّ لأحدهم ذات يوم – كان ماركوس حينها في الثانويّة– أن يستصلحها ويزرع فيها درناتٍ أتوا بها من الأرجنتين، قيل إنّها غنيّة بالبروتين وستنفع في تغذية الملايين من رؤوس الأغنام، وربّما أغرقت (يدور الكلام دائماً عن وفرة وفيضان) الجزيرة باللحم والحليب. لكنّ أحداً لم يحظَ بملعب ولا بدرنات ولا بأغنام، ربّما حفاظاً على الكولسترول الوطني، في بلد اعتاد هوراثيو، أحد أصدقاء والديه، أن يقول عن أبقاره إنّها أدرجت على قائمة الأنواع المرشحة للانقراض.

لم يكن المتميزون من اللاعبين المستجدين يعدمون فرصة الصعود في المنافسات، بل كان في مقدورهم أن يتلقّوا تدريباً خاصاً في ملعب مستشفى الأمراض النفسية القريب، على يد أحد المدربين المنسّبين للعمل في ذلك الملعب القانونيّ، الذي كانت تنظم فيه بطولات، ويتردد عليه لاعبون مصنفون حسب الأعمار والدرجات. لن ينسى ماركوس أنه هو وزملاءه، رأوا، في إحدى جولات تدريبهم هناك، أورلاندو إرنانديث[8]، ذلك الخلاسي العابس الحليق، الذي طالما تفرجوا عليه وهو يُبلي بلاء حسناً

8- يشير إلى **Orlando Hernández** (1965) لاعب البيسبول الكوبي الذي هرب إلى الولايات المتحدة عام 1997. عرف بالدوكي *Duque* [الدوق]، ويعدّ أفضل رماة الكرة في تاريخ البيسبول الكوبي.

في ملاعب كوبا وملاعب العالم، مرتدياً قميص *لوس أندوسترياليس – هاڤانا* [= الصناعيون] أو قميص المنتخب الوطني رقم 26. فعلاً، فقد رأوا، مشدوهين، ذلك اللاعب، الذي يلقبونه «الدوكي»، بشحمه ولحمه، يقترب من المدرب ويتكلم معه بصوت واطئ. علموا، من بعدُ، أنّ «الدوكي»، ذلك البطل الأولمبي، وصاحب أعلى معدلات الفوز والخسارة في البيسبول الكوبي، والذي حكم عليه بالحرمان مدى الحياة من اللعب في البطولات الرسميّة، بعد أن اتهم بالتخطيط للخروج سراً من البلد (قيل أيضاً إنّه تكتّم على هروب أخيه أثناء وجوده في المكسيك)، طلب من المدرّب، وهو معلمه القديم، الإذن له ولأصدقائه باللعب بعد شغور الملعب، وأنّ المدرب الخائف ردّ بأنّ عليه أن يستشير مراجعه العليا قبل أن يمنحه الإذن والرخصة.

وكان على ماركوس، وقد بلغ السادسة عشرة، أنّ يقرّ بأنّ مهاراته الرياضيّة لم تكن تؤهله للانتساب حتّى إلى فريق الشباب في بلديته، على الرغم من أنّ شغفه باللعبة لم يتغيّر، وعلى الرغم من طول قامته وقوة بدنه. صحيح أنّه لم يتوقف عن اللعب في أوقات فراغه، ولا عن متابعة البطولات الوطنيّة، لكنّ حلم طفولته وإقباله على البيسبول سيظلّان، حتّى وهو في الولايات المتحدة، على حالهما، وسيظلّ موقفه منهما يتراوح بين حالة المتفرج أو حالة الكومبارس، الذي لا يطمع في بطولة ولا يتطلّع إلى نجوميّة.

بعد ستة أشهر من وصوله إلى (هياليه)، وحين استقر وضعه المادي، بدأ ماركوس يخصّص ساعتين من عصر كلّ اثنين وأربعاء وجمعة وسبت ليتمرّن في الجيم القريب من (ويستلاند مول)، حيث يعمل واحدٌ من أصدقاء (فونتانار) القدامى. لقد أخرج له هذا الصديقُ بطاقة شرف يستطيع الدخول بها مجاناً إلى النادي. أمّا أيام الثلاثاء والخميس، فقد قرّر أن يخصص منهما ساعتين مسائيتين (يضيف إليهما أحياناً ساعات صباح الأحد) ليعمل مساعداً للمدرّب في فريق «نمور هياليه». أمّا مدرّب ذلك الفريق وروحه فهو أغوسطين كاسامايور، لاعب البيسبول الكوبي السابق، ولاعب القاعدة الأول في فريق «صناعيي» العاصمة. صحيح أنّ نجم كاسامايور بدأ بالأفول، لكنّه كان واحداً ممّن عشقهم ماركوس في طفولته وجعل منهم مثاله وقدوته.

تقعُ ساحةُ التدريب في مكانٍ تنهضُ فيه بناياتٌ مأهولة بالبشر، على

مستوى الشارع 76 من (ويست). كان كاسامايور قد دعا فتية المنطقة، بين العاشرة والرابعة عشرة، للتمرّن، لا لتعليمهم أصول اللعبة وفلسفتها على نحو صحيح (وعلمي، كما كان يقول) فحسب، بل لكي يصرفهم عن أن يمضوا وقتهم في الشوارع، فتجرفهم مغرياته.

ولبّى جميعُ المراهقين، وعددهم خمسة وعشرون تقريباً، دعوته. وكانوا جميعهم من أبناء الكوبيين الذين وصلوا في الأعوام الأخيرة، ممّن لا يملكون ما يستطيعون أن يسجّلوا به أولادهم في مركز نظامي؛ آباءٌ وأمّهاتٌ يعملون، أحياناً، حتى الليل، بينما يُمضي أولادُهم أوقاتَ فراغهم في البيت، أمام الكومبيوتر، أو متسكعين في الشوارع، هائمين في عالم شرسٍ، من شأنه أن يرسم مسار حياتهم على أسوأ ما يكون المسار. لذلك استطاع كاسامايور، بمعونة بعض اللاعبين الكوبيين المقيمين في الولايات المتحدة وعددٍ من الآباء المتمكنين مادياً، أن يشتري ما يلزم من مواد، بل أن يكلّف أحد معامل النسيج في المدينة بخياطة القميص الخاص بفريق النمور. حين التحق ماركوس بالعمل معهم، كان الفريق قد بدأ يشارك في رابطة صغيرة تضمّ نواديَ المنطقة، حيث عانى من مرارة الخسارة أكثر ممّا ذاق من طعم الفوز، لكنّه لعب دائماً بالحماس الذي يبثه فيهم المدرّب، والمسؤوليّة التي يحملونها في تمثيل أفقر منطقة من المدينة «التي تتقدم».

لم تكن الساعات التي تطوّع ماركوس أن يمضيها في تدريب الفتية بقادرة على أن تعوّضه عن شغفه بالبيسبول، لكنّ تلك كانت خير طريقة لإشعاره بالراحة، وهو الواقع، آنذاك، فريسة حالة من التوتر الشديد مبعثها بحثه عن السبيل إلى الاندماج في عالمٍ يستدعي أن يعيش والسكين بين أسنانه، وأن يتعايش وهو لا يفتأ يتلفتَ يمنة ويسرة. في لحظة ارتداء بنطلون البيسبول، و*السبايك* (أفضل ما انتعله من أحذية طوال حياته) و*البلوفر* الأبيض، بكُمّيهِ البرتقاليين (كريه الرائحة ومتربٌ دائماً تقريباً)، وفي لحظة اعتمر القبعة وخرج إلى عشب الملعب الضارب إلى الحمرة، شعر كأنّه يدخل في بُعد لطيف من أبعاد الزمان والمكان حيث تتلخّصُ الحياة في السعي إلى عمل ما هو ضروري وعلى خير وجه ممكن: جريٌ ورميٌ وقذف وإمساك وتحويل وتفكير. على الأخص التفكير كما يفكر اللاعب. إنّه واثق من أنّ أحد تلامذته

يحلم أيضاً، كما حلم هو، بأن يصبح لاعباً كبيراً، يملأ اسمه الملاعب وينال الحبّ والإعجاب إذ يبلي بلاءً حسناً في ما أحسن كوبيون كثيرون فيه البلاء، طوال قرنٍ ويزيد. وقد يستطيع أحدُهم أن يحقق الحلم. بل أن يصل إلى أن يكون ملكاً، كما فعل «الدوكي»، الذي نال بطولة كوبا عدة مرّات، وحاز ذهبيةً أولمبيّة، وفاز، بعد هروبه من الجزيرة، على بطولة كبريات الروابط المحترفة الأمريكيّة.

في نهاية إحدى حصص التدريب، دعا كاسامايور ماركوس لشرب البيرة معه في شقته. في نهاية الأسبوع السابق، كان أولادُه قد زاروه، لكنّ بعض الزجاجات سلمت من ذلك الغزو الذي اشترك فيه أيضاً عددٌ من الجيران المتحمسين، المستعدين دائماً للمشاركة في تلك النشاطات.

- هل تعلم أنّ أولادي لا يحبون البيسبول؟ - اعترف *الكوتش* لماركوس، وهو يقدّم له زجاجة البيرة، وقد جلسا في شرفة شقته الصغيرة. تأمّل ماركوس الشارع في الوسط وبناية أخرى أمامه، تملأ حبالُ الغسيل بالكوناتها، تآكلت جدرانها ودبّ الخرابُ في حديقتها. بناية فيها من القبح والقذارة ما ذكّره بتلك البنايات التي صممها جداه المهندسان في (فورتانار).

- صغار القطط لا تحسن صيد الفئران - خطر على بال ماركوس أن يقول.

- المشكلة أنّهم لا يحبّون أيّ شيء... لكنّهم يريدون كلّ شيء. لا يعرفون كيف يعيشون. لم يفهموا قواعد اللعبة بعد. حتى المهندس فيهم، وهو مثلك، لم يستطع أن يعادل شهادته، لكنّه يفهم في الكومبيوترات، لذلك تراه يستنسخ بطاقات إلكترونيّة ويبيع بعض المنتجات على البيوت.

آثر ماركوس ألّا يعلّق (لقد اشترى غير مرّة من ابنه بنزيناً مسروقاً) واكتفى بهزّ رأسه.

- وأنتَ أمورك جيدة، أليس كذلك؟ - سأله *الكوتش*.

- أظنّ ذلك. لا أشكو من شيء. فأنا لم أصل إلّا من وقت قريب...

- وهل ستحاول معادلة شهادتك؟

- الآن لا أستطيع. عليّ أن أبدأ، تقريباً، من الصفر... أنت تعرف،

المسألة تحتاج إلى وقت ونقود... هؤلاء الأمريكان متشددون في موضوع الشهادات. الأمور هنا ليست كما في كوبا، فالدراسة هنا تكلّفك بيضة من بيضتيك ونصف البيضة الثانية...

هزّ كاسامايور رأسه موافقاً. تناول جرعة ونظر إلى الأفق، الذي كان مسمّراً في كتلة الكونكريت التي تنتصب أمامه، لا يفصله عنها غير الشارع.

– ما أسوأ هذا... مهندس آخر لا يستطيع أن يكون مهندساً... كم من مهندسٍ وكم من طبيبٍ من سنّك خرجوا من كوبا؟

– أنا أعرف الكثيرين... أحدّثك عن نصف زملائي في الجامعة... أخي هاجر قبل أن يتخرّج. لكنّه أكمل الدراسة في فرنسا. أخي هذا رهيب...

ظلّ كاسامايور مطرقاً صامتاً للحظات.

– هل لي أن أسألك، إن لم يكن في ذلك ما يضايقك، عن سبب خروجك من كوبا. الآن، بات يمكن لأيّ واحد أن يرحل، الشباب من مثلك يرحلون، ولكلّ منهم أسبابه، أمّا أنتَ...

– كان عليّ أن أخرج... كنت أرغبُ في أن أمتلك بيتاً وسيّارة، وهي أمور يستحيل الحصول عليها هناك... ولا في الأحلام.

– البيت والسيارة يمكن أن يكونا سبباً مهماً... طبعاً... أنا خرجتُ وراء أولادي. هم أيضاً كانوا يريدون بيتاً وسيارة. بقفزة واحدة: بيت وسيارة... مع ذلك فأنا أراكَ مختلفاً، أشعرُ بذلك...

– لا، كاسامايور، أنا شخص عادي... كوبي من بين كثيرين يعيشون في (هياليه) و...

– ولماذا تأتي لتدرّب الأولاد بينما يمكنك، بهذا الوقت، أن تكسب المال أو تدرس؟

رأى ماركوس أنّ الحديث بدأ يأخذ منحى غامضاً. حين يلحّ عليه أحدهم بالسؤال، يشعر بضغطٍ في معدته. فهل هي هواجس أبيه المعروفة؟هل هو الخوف الذي كان يلازم إرفينغ، الذي طالما تكلّم عن مُخبرٍ سرّي يراقبه ويعدّ عليه خطواته؟ وفكّر ماركوس أنّ قصّة خروجه من البساطة أنه في مقدوره أن يرويها لأيّ شخص.

- أحتاج المال، كما يحتاجه الجميع. وأحبّه، كما يحبّه الجميع تقريباً. ولكن يتعبني أن أشقى طوال اليوم... صحيح أنّ العمل مع آخرين أو من أجل آخرين هو خير ما علّمتني إيّاه أمّي، المسكينة، آخر رومانسيّة في العالم... لكنّي، في الواقع، لست مثلها... أمّا الساعتان اللتان أمضيهما في ذلك الملعب، فلا أمضيهما من أجلك ولا من أجل الأولاد، بل من أجلي... هل تفهمني؟... شاهدتُ مرة فيلماً يقول فيه رجل لابنه إنّ كرة البيسبول هي العالم، وحين سمعتُ ذلك... المهم، إن لم تفهم هذا الكلام فلا يهم: أنا أيضاً لا أفهم كثيراً. أنا في الملعب أشعر براحة، وهذا هو المهم... هلّا أعطتني زجاجة بيرة أخرى وكففتَ عن تسخين رأسي؟ هل نتكلم عن الكرة؟ هيّا، فأنا لم أحكِ لك يومَ قرّرتُ أن ألعب هوم *ران* [= دورة كاملة]. كان عمري عشر سنوات، وأقسم لك أنّي أدّيت ضربة بالعصا ما زلتُ أشعر بها هنا، في يدي...

بحراً وبرّاً وجوّاً، من حدود الشمال وحدود الجنوب، من حدود الشرق وحدود الغرب، من مضيق فلوريدا، وشلالات نياغارا، عبر المكسيك أو عبر موسكو، بحثاً عن مضيق (بيرينغ) البعيد وثلوج ألاسكا... في سنواته الأخيرة في هاڤانا، تحوّل ماركوس إلى مرجعيّة في طرق دخول الكوبيين إلى الولايات المتحدة، وأساليب حصولهم على الوضعيّة التي تمكّنهم، بعد عام واحد ويوم، من التمتع بإقامة شرعيّة قانونيّة في البلد الجار. فلماركوس الكثيرُ من الأصدقاء الذين اتبعوا واحدة من تلك الطرق ونجحوا فيها.

ومع أنّ ماركوس لم يكن في عجلة من أمره في موضوع الرحيل (على المدى القريب، على الأقل)، فقد شعر بأنّ وقت استعراض معارفه تلك قد حان وبات يلحّ عليه. عندها، بدأ يفكّر في ما يمكن أن يكون أسهلَ الطرق وأعقدها، في آنٍ معاً: الوصول إلى إحدى جزر فلوريدا الرملية الصغيرة والتوجّه، بمجرد أن يطأ الأرض، و«بقدمين ناشفتين»، إلى أوّل شرطي يقابله. لكنّ هذه الخطة لها سلبيات تكمن في احتمال أن يعترض حرسُ السواحل الأمريكان طريقَ المركب، ويعاد راكبوه، كما يقتضي الاتفاق، إلى كوبا. أمّا إيجابياتها فتتمثّل في قصر المسافة وقلّة عدد الوسطاء، وهم في العادة رجال خطيرون يفضل الابتعاد عنهم. أما النجاح فيعتمد على المركب وعلى الحظ، fifty fifty.

في محاولته الأولى للخروج من الجزيرة، منتصفَ عام 2013، لم يودّع ماركوس أمّه. أراد أن يوفر عليها معاناة القلق واللهفة على ولدها، إن كان حيّاً أم ميتاً، طليقاً أم سجيناً. في تلك المحاولة صحبه والدُ صديق له مع اثنين من أولاده المراهقين، لاعبان واعدان في البيسبول، يتطلعان إلى الانضمام، يوماً ما، إلى الرابطات الكبرى وكسب الملايين. وحدث أنّ نصف النجاح

المعتمد على الحظ خاب في تلك المناسبة. وخاب رجاءُ الركّاب، صحيح أنّ المركب الذي استأجروه كان جيداً، لكنّه لم يكن أسرع من لنش خفر السواحل الذي اكتشفهم. وكان على ماركوس والآخرين أن يرتدوا سترَ النجاة وأن يلقوا بأنفسهم إلى البحر (هكذا ينص الاتفاق بين قائد المركب والمسافرين) لكي تلتفت الشرطة إليهم وتنشغل بانتشالهم، بينما تسنح لصاحب المركب فرصة الهرب والإفلات من تهمة الاتجار بالبشر.

لم تفتّ تلك المحاولة الفاشلة في عضد ماركوس، بل راح يخطط لغزوة بحريّة ثانية. في تلك الأثناء اتصل به أحد زملاء الدراسة، وهو مهندس مثله، ليعلمه أنّه اكتشف طريقاً جديداً، وسهلًا، في ما يبدو، لا تهددهم فيه فكوك القروش ولا ألاعيب الوسطاء.

وبعد يومين من البحث المحموم عن مصادر التمويل اللازمة، كان ماركوس وصديقه مايكل، جاهزين للشروع في المغامرة (أفلح ماركوس، وقد بات احتمال سفره وارداً، في أن يقنع أمّه، لتعطيه بعض حُلي المرحومة جدته، فرضخت أمّه، والدموع في عينيها، لطلبه. وباع الشابُ جواهر جدته في ساعات). ذهبا باكراً إلى وكالةٍ للسفر خطر لها أن تقدّم عرضاً مجنوناً للكوبيين الراغبين في قضاء رحلة مدّتها عشرة أيّام في إيطاليا. أيّة حماقة هذه؟ سيّاح كوبيون في إيطاليا؟ ومع أنّ الصديقين ظلّا يريان الفكرة فيلماً بالمقلوب، فقد طارا بعد تسعة أيّام إلى إيطاليا، وعلى جواز سفر كلّ منهما ختمُ الشينغن. استناداً إلى الصور التي نشراها على الفيسبوك، فقد أمضى السائحان الكوبيان وقتاً ممتعاً في روما (ليوناردو دا فينشي: مطار الوصول)، فلورنسا، سينلا، البندقية، ميلان (مالپنسا: مطار المغادرة)، وزارا معالمَ ونُصُباً، وشربا نبيذاً، وأكلا پيتزا حقيقيّة، بل استمتعا بليلة حبّ على الطريقة الفينيسيّة، بفضل سائحتين إسبانيتين ساختنين.

حال عودتهما إلى كوبا (لم يرجع من مواطنيهم الذين كانوا سافروا معهما قبل أيام إلا ثلثهم)، اتجه الشابان إلى مكاتب الخطوط الجويّة المكسيكيّة، وبالنقود التي حوّلها رمسيس إلى أخيه ماركوس من إيطاليا

اشتريا بطاقتي سفر مُرجّع، هاڤانا -مكسيكو سيتي- هاڤانا، بطاقتان تضمنان لهما الدخول، على الرحب والسعة، إلى المكسيك، فجوازاهما الكوبيان يحملان التأشيرة الأوروبيّة المباركة.

بعد يومين طار الصديقان إلى بلاد الأزتيك، كما اعتاد ماركوس القول، ليبدآ الصعود براً نحو (تيخوانا) «الكئيبة الموحشة». في محطة الحافلات بالمدينة، وبعد أن دفع كلّ منهما مئتي دولار للشرطي المكسيكيّ الذي اعترضهما وأراد احتجازهما (إلا إذا دفعا المبلغ المقرر)، صعد الصديقان إلى سيارة أجرة (وفرها لهما الشرطي نفسه، بعد أن لان وانبسط) حملتهما إلى مكان قريب من المعبر الحدودي. هناك تقدّما وتلفظا، وبيد كلّ منهما جواز سفره وبطاقته الشخصيّة، بالكلمات السحريّة الكفيلة بفتح كلّ مغلق: نحن كوبيان، جئنا من كوبا. بهذه السهولة. وبعد أربعة أيّام، كان مايكل وماركوس يترجّلان من الحافلة التي أقلتهما إلى ميامي.

وبينما أقام مايكل في (فورت لودرديل)، مع أبناء عمّ له، لجأ ماركوس إلى لاورا، شقيقة عمّه هوراثيو، في (ساوث ويست ميامي). لم يكن هوراثيو أخا أبيه، لكنّه كان بمنزلة عمّه: فقد كان زميل دراسة وصديقاً حميماً لوالديه، ولطالما رآه ماركوس، وهو طفل، في بيتهم، لذلك اعتاد أن يناديه بعمّي، فكأنّه كان تنبأ بأنّ تلك الصلة ستنفعه في يوم من الأيام. في عام 1994، حين كان ماركوس في العاشرة من عمره، خرج العم هوراثيو (الذي كان يقصّ على الطفل حكايات غامضة، كتلك التي تعلل سقوط ثمار المانغو الناضجة من الشجرة، وتلك الأخرى التي تفسّر قدرة الطائرة التي تمرّ من فوق بيتهم على التحليق) من كوبا مع ألوفٍ آخرين ركبوا القوارب، واستقرّ به المقام في بويرتو ريكو، حيث تزوج وعمل أستاذاً للفيزياء في الجامعة هناك. إنّه العم هوراثيو نفسه الذي اتصل به ماركوس، عن طريق الفيسبوك، قبل خروجه من كوبا، وطلب منه أرقام تلفوناته.

لكنّ ماركوس لم يتصل به إلّا بعد أن وصل المكسيك، فقد خشي أن يتنصّت الكوبيون على مكالماته. طلب من هوراثيو أن يزوّده باسم واحدٍ من معارفه في ميامي، مستعدٍ لاستضافته لأيّام. لم يتردد هوراثيو في تنفيذ الطلب، وزوّده بعنوان شقيقته، لاورا، ورقم هاتفها. ولم تتردّد لاورا في

دعوته إلى بيتها في ميامي، بل وعدته بأنّها ستسلفه ما يكفي لتغطية نفقاته الأوليّة لحين استقراره. هل تودّ أن تأتي للعيش في سان خوان؟ فردّ ماركوس على العم هوراثيو، مجاملاً، أنّ عليه أن يفكّر في الموضوع، فقد فكّر مليّاً في مكان سكنه وخطط جيداً لطريقة عيشه. صحيح أنّ لديه أباً وأخاً وعديداً من الأصدقاء يعيشون خارج كوبا، لكنّه يعرف أيضاً استراتيجيات الكوبيين وأساليبهم في التعامل مع حياة المنفى. بل إنّه خبيرٌ وضليع في ذلك. معروف أنّ العالم واسعٌ عريض، لكن من المعروف أيضاً أنّه ليس هناك ما يبرّر أن يعيش فيه غريباً.

بعد أسبوعين من وصول ماركوس إلى الولايات المتحدة، استأجر أوّل سكنٍ له: شقة صغيرة في بناية (هياليه كلوب بيّاس)، قريباً من (ويستلاند مول) الذي بات بؤساً بعد عزّ. كان أخوه رمسيس والعم هوراثيو قد تمكّنا من إقناع داريو -بات متمكّناً ماديّاً، وإن كان مغلولَ اليد، حسب وصف رمسيس، بخيلاً حتّى النخاع، حسب رأي هوراثيو-، بأن يرسل إلى ولده من برشلونة بعض المال. وقد وجد ماركوس المقتصد في المبلغ المرسل ما دفع به إيجار الشقّة لأشهر واشترى به سيارة مستعملة، إذ ليس من السهل السكنُ في فلوريدا من دون واسطة نقل خاصة.

وصل ماركوس إلى شقته في الهوندا سيڤيك 2005 (وضع لها إضاءة اشتراها بسنتات من سوق شعبيّة كوبيّة، وأصلح بعجة في واقية الطين الأمامية بالعدّة التي أقرضها إيّاه صديق سمكري، ورشّ مكانها بالطلاء)، يحمل حقيبة ملابسه وبعض القدور التي زودته بها شقيقة هوراثيو. فتح باب الشقة رقم 1621 من بناية (هياليه كلوب بيّاس)، فصدمته رائحة نيكوتين وقطرانٍ مركزة كانت تصدر ممّا بدا أنّه سجّادة.

وبينما كان يفتح النوافذَ والأبـواب، ويطهّر المرحاضَ والمغسلة والحوض بالكلور، ويرشّ كلّ شيء بالمعطّر المطهّر، ويخرج المرتبة القديمة ويضع، مكانها، الجديدة التي اشتراها لتوّه، قرّر ماركوس أنّ تلك الشقّة ما هي إلّا محطة لن يلبث أن يغادرها، وقرّر أيضاً أن يتوقف عن التدخين، بعد أن رأى فيه عادة سيئة، تتنافى وظروف موطنه الجديد، حيث الهواء مكيّف والنظافة لازمة واجبة: وهكذا، وبعد أن تبوّل للمرة الأولى في تواليت بيته الجديد، رمى بالسجائر التي كان يحملها في المرحاض وأفرغ فوقها زجاجة من الكلور.

بدأ ماركوس، بمساعدة أصدقاء ومعارفَ آخرين من الكوبيين المقيمين في (هياليه)، يندمج في أجواء مدينةٍ تؤدي وظيفة حيّ كبير. فبعد أسبوعين من وصوله، وبوساطة من صديقه السمكري، حصل على عملٍ في ورشة لتصليح علب السرع للشاحنات، وإن كان عمله هناك، في الواقع، هو تنظيف كلّ قذرٍ ورفع كلّ ثقيلٍ. صاحب الورشة رجل يدعى أليپيو الناريثون، وهو صديق قديم نشأ في الحي الذي نشأ فيه أبوه (هل الجميع في هذه البلدة يعرف الجميع؟). وكان من حسن حظ ماركوس أنّ أليپيو كان طرد للتو عاملاً سلفادوريّاً، وجد فيه تقاعساً وضعف أداء، فضلاً عن أنّه كان يُخفي الملاقط ومفلات اللوالب وأطقم مجسات الاستشعار في ما يشبه أعمال السحر. صحيح أنّ عشرة دولارات في الساعة أجرٌ بائس، لكنّ ماركوس كان يعلم أنّ عشرة دولارات خيرٌ من لا شيء، وأنّه، بمعلوماته في الهندسة الميكانيكيّة وسنوات عمره التي عاشها في فوضى كوبا، لن يلبث أن يترك الورشة، أو لن يلبث أن يديرها. وهكذا انصرف إلى دراسة المحيط وتحليل الوسائل التي ستمكّنه من التحكّم بها والسيطرة عليها.

كان تقويمه الأوّل لسبب تفضيل الكوبيين السكن في مدينة (هياليه) سطحيّاً، على الرغم من أنّه كان، في جوهره، صحيحاً: ففي (هياليه) يسهل العيش «على الطريقة الكوبيّة»، حيث الجميع تقريباً يعرف الجميع. فهي، في الكثير من الأوجه، مرآة لنمط الحياة في الجزيرة، مع فارق أنّك تجد هناك، بين كلّ مربعين سكنيين، مخزناً من المخازن الكبرى تغصّ رفوفه بالبضائع. مع ذلك، فإنّك تجد فيها أيضاً، وكأنّك في كوبا، من يبيع الكثير من البضائع المعروضة في ذلك المخزن الكبير (من لحم ومعلبات وسكاكر) بنصف السعر (من المناسب، دائماً، ملاحظة تاريخ انتهاء الصلاحيّة).

هنا تجدر الإشارة إلى ظرف مهم جعل الكوبيين يفضلون السكن في تلك الرقعة الجغرافيّة، إذ كان من السهل، سابقاً، الحصولُ على عمل في ما كان يعرف بالمصانع. أمّا الظرف الآخر، فما زال ساريَ المفعول، وهو أنّ ذلك المكان، الذي يزداد قبحاً وتخلّفاً، حتى صار أغلبُ الذين أصابوا حظاً من النجاح الاقتصادي يهجرونه وينتقلون منه إلى أماكن أخرى، يوفّر سكناً أرخص ممّا توفره تلك المناطق التي يسكنها الكوبيون في جنوب فلوريدا.

أمّا العامل الحاسم في التفضيل والاختيار فهو أنّ الكوبيّ هناك غير ملزم بتعلّم الإنكليزية الصعبة ليستطيع ممارسة نشاطات حياته اليوميّة، أو، حتى، للحصول على الجنسيّة الأمريكيّة.

في مطاعم (هياليه) أطباق كوبيّة، وفي مقاهيها قهوة كوبيّة، وفي نواديها الليلية موسيقى كوبيّة، وكلّ من يعمل في صالونات الحلاقة فيها كوبي، وكلّ حديث فيها يجري باللهجة الكوبيّة (طالما تداول الناس الحديث عن سقوط وشيك للشيوعية في الجزيرة)، بينما تسود الإسبانية في المستشفيات. قرب الكنائس، كاثوليكيّة كانت أم بروتستانتيّة، (قساوستها ورهبانها، في معظم الأحيان، من أمريكا اللاتينيّة)، تجد «الصيدليات» الكوبيّة التي تبيع كلّ مستلزمات السحر والشعوذة، بما فيها حيوانات الأضاحي والطقوس التي تثير فزع الأمريكان المتحضرين، بل تثير فزع هواة الصيد منهم أو الذين يمتلكون في بيوتهم مشجباً للأسلحة ويحفظون في صندوق سيارتهم مسدساً أوتوماتيكياً. عمارات (هياليه) وبناياتها مسكونة بالكوبيين، بل إنّ عمدتها ومدير شرطتها ومدير إطفائيّتها كوبيون. كوبا هناك حاضرة في كلّ مكان، إلى درجة أنّ تلك الكثافة الكوبيّة شجّعت فتاة كوبية تعمل في كافتيريا من كافتريات سلسلة أمريكية معروفة على أن ترفض خدمة إحدى الزبونات لأنّها لا تتكلّم الإسبانية... «نحن هنا في هياليه، حبيبتي!» صرخت بوجه الغريبة.

في أحد كتب أمّه، كان ماركوس قد قرأ عن مهاجر كان يحمل معه أسلوب حياته أنّى ذهب، كما يفعل الحلزون، الذي يحمل قوقعته معه: فلماذا احتفظ بتلك الإشارة في ذهنه؟ هل لأنّ قدره هو أن يكون حلزوناً كأمّه، وإن كانت كلارا حلزوناً من نوع آخر؟ هل سيظلّ هو أيضاً يحمل بيته وبيئته على ظهره؟

لقد أرغم غزو الكوبيين لمدينة (هياليه) أعرق عائلاتها الأمريكيّة على النزوح، حتّى رفع الباقون منهم، كما رأى ماركوس، حين وصوله إليها، علم الولايات المتحدة في نقطة مرئيّة من بيوتهم، ربّما ليذكّروا أنفسَهم بالبلد الذي يعيشون فيه. أمّا مواطنو أمريكا الوسطى، مثل پويرتوريكو وفنزويلا، فكانوا يهربون من (هياليه) ما استطاعوا، إذ كانوا لا يطيقون عنجهيّة الكوبيين، الذين يرون في أنفسهم، حتّى وهم يموتون جوعاً، أشخاصاً متميزين. أمّا

الأفرو - أمريكان، الذين يسكنون شرق المدينة (سرعان ما تعلّم ماركوس أنّ الدقّة تقتضي أن يطلق هذه التسمية على من كانوا في كوبا يسمّون سوداً، لأنّهم سود)، فما كانوا يتقرّبون إلّا من الكوبيين (وما كان الكوبيون يتقربون إلّا منهم) ليعقدوا أقذر الصفقات، قبل أن يعود كلّ واحد إلى منطقته، فليس من مصلحة أحد تسخين الأجواء في مدينة تزدهر فيها تجارة بيع السلاح وتأجيره وحمله.

ثمّ كشف له تقويمٌ ثانٍ لمحيطه، أكثر تسامياً أو ميتافريقيّة، عن أنّ جوهر (هياليه) يكمن في أنّ العيش فيها يعني أنّك تضع إحدى قدميك على أرض مستعمرة داخل الولايات المتحدة، بينما تضع قدمكَ الثانية في كوبا، وفي أنّ المدينة هي الملجأ الصحيح للاجئين يحرصون على أن يظلّوا لاجئين، بل يرون أنّ في مقدورهم أن يجعلوا من ذلك الظرف منجماً للذهب. أمّا اكتشافه الأعظم فمفاده أنّ التحدث بإنكليزية صحيحة وطليقة في ذلك الجيب الإسباني، المزروع في كوكب من كواكب الأنكلو، امتيازٌ ما بعده امتياز.

بعد أربعة أشهر من وصوله إلى تلك الضاحية، وكان حديثَ العلاقة بآديلا، وعلى وشك أن يتفق مع أغوسطين كاسامايور ليعمل معه مدرباً مساعداً لفريق نمور هياليه، كان ماركوس قد نال ترقية في عمله حتّى بات شريكاً تجاريّاً لناريثون. أمّا مردّ صعودِه السريع فهو طلبه من مشغله أن يسمح له بأن يكلّم مورّدي قطع الغيار الأمريكان بلغتهم التي درسها في الجامعة، وهو ما لم يكن الميكانيكي يحسنه. وكان من أثر ذلك أنّه حصل من الأمريكان على أسعار تقلّ بنسبة 10% إلى 15% في الكثير من قطع الغيار. بل لقد فاجأ ناريثون حين بدأ يشتري، عن طريق الإنترنت، قطعاً بسعر يقلّ بنسبة الخُمس عن السعر المثبّت في المحلات العاديّة.

وسرعان ما أصبح ماركوس ذراع صاحب الورشة اليمنى يومَ أنقذ حاسوباته من فايروسات كادت تتلف ما بها من معلومات تقنيّة وعملية وماليّة. أراد الميكانيكي أن يوفّر على نفسه 500 دولار فاشترى نسخة مقرصنة من برنامج لفحص عمل علب السرع الخلفية GM من رجل دومينيكاني. وحين كان الناريثون يهمّ، وهو على وشك أن يصاب بجلطة قلبيّة، بحمل

الوحدة المركزية إلى صديق له خبيرٍ بالحواسيب، طلب منه ماركوس أن يسمح له بمعاينتها، واستطاع الشاب، مستعيناً بحاسوب زوجة الميكانيكي المحمول، أن ينقذ المعلومات، وينظّف الجهاز من الفايروسات، وينصّب برنامجاً أخذه من موقع إكوادوري دلّه عليه صديق آخر مهندس مقيم في إستوكهولم (أعطاه كلمة مرور مخترقة)، هو نفس البرنامج الموبوء الذي كان رئيسه قد اشتراه... وبعد أسبوع من الزمن انتقل ماركوس من عامل ينظّف كلّ قذارة ويرفع كلّ ثقيل إلى مسؤول الحسابات والعقود، والمكلّف بالفحوصات التقنيّة لعلب التعشيق والأعمال اللوجستيّة والمعلوماتيّة التي كان الميكانيكي الحاذق عاجزاً عن القيام بها بسهولة وكفاءة، هذا إذا استطاع. ومنذ ذلك الحين، كلّف الميكانيكي عاملاً جديداً هندوراسيّاً، وصل حديثاً ولا يحمل أوراقاً، بتنظيف كلّ قذارة ورفع كلّ ثقيل، مقابل ثمانية دولارات في الساعة، أمّا ماركوس فقد صار يكسب خمسة وعشرين دولاراً، مع نسبة بسيطة من الأرباح التي بدأت تدرّ على الورشة.

إزاء مهارات الشاب المهندس، لم يتردد الناريثون في رصد رأس المال المبدئي لتنفيذ الفكرة التي اقترحها ماركوس عليه بعد ترقيته. وهكذا بدأ ماركوس، بالتنسيق مع زميل آخر من زملاء الجامعة، مقيم في موسكو، باستيراد قطع غيار روسيّة لسيارات (لادا) و(مسكوفيج) ودراجات ناريّة ألمانيّة وسوفيتيّة، لبيعها بالجملة أو بالمفرد في الورشة، ومن ثمّ إعادة تصديرها وبيعها في كوبا. ولتسهيل شحن قطع الغيار الثقيلة عبر مضيق فلوريدا، فقد اتفق ماركوس مع موظف سابق في التأمين، يدعى تاّييث البدين، وكان أفسدَ وأقذرَ من مرحاض في محطة قطارات (مانثانيّو)، كان قد فتح وكالة لشحن الطرود إلى الجزيرة، مستفيداً من علاقاته القديمة ووظيفة المراقب التي كان يشغلها، والتي اضطر بسببها، وعلى الرغم منها، إلى الخروج من كوبا، لا يلوي على شيء.

ودرجت المصلحة، وتوسعت مبيعات قطع غيار السيارات الخمسينيّة الأمريكية (أيضاً لتصديرها إلى كوبا)، حتّى بدأ ماركوس، وبعد ستة أشهر، يكسب ما يقرب من ثلاثة آلاف دولار شهرياً، وكان أوّل ردّ فعل لصعوده الاجتماعي هو أنّه ترك شقة (هياليه كلوب بيّاس) الموبوءة، بعد أن باتت

الشرطة تداهمها، مرة واحدة في الأسبوع على الأقل، لأسباب عديدة تتراوح بين شجارٍ ومخدراتٍ وإزعاج الجيران بصوت الموسيقى المرتفع.

واستأجر ماركوس شقة كبيرة، مريحة، مهوّاة، تقع في الرقم 1708 ويست من الجادة 17. وعلى حائط الصالون، علّق شهادة المهندس الميكانيكي، بعد أن وصلته مصدقة من وزارة التعليم في جمهوريّة كوبا. وبعد شهرين، عمد إلى نقل أثاث آديلا من ميامي القريبة، ونقلِ الفتاة أيضاً، تلك الفتاة التي لم تكن كوبية ولا أرجنتينيّة ولا من ميامي، بل، أحياناً، ولا من نيويورك... الفتاة التي هام بها ماركيتوس حبّاً، وشغلت عقله المجنون، بعد أن استقرّ واطمأنّ في ظروف لطيفة أثارت الحنان (أم أعطته أو أشاعته؟).

بدأت آديلا وماركوس، بعد صدمة الهورمونات التي وقعت بينهما في 18 آب 2014، يمارسان الحبّ بشراهة ونهم. في أيّة ساعة. وفي أيّ مكان. وكيفما اتفق. وكان مكانهما المفضّل هو غرفة آديلا في شقتها الصغيرة المنشرحة، حيث تسمح ألواحُ الزجاج الكبيرة فيها برؤية جانبٍ من المدينة والميناء والبحر، بل تسمح، وبقليل من الخيال، برؤية شواطئ كوبا، التي طالما صوّرها ماركوس لخطيبته جنّة الأرض المفقودة. من تلك الشقّة العالية، كان العاشقان يشعران كأنّهما يسبحان فوق العالم وينعمان بقوّة متدفقة ورغبة جارفة. هناك استرجعا مسيرتهما عبر أصعب الطرق وأوعرها، ليصلا إلى نقطة الالتقاء؛ طرق امتثلت لقانون الصدفة فجمعت بينهما، ولمسار القصّة فألّفت بين قلبيهما، لكي يغلقا، هكذا، غاير عامدين ولا عالمين، فصلاً من فصول العناية السماويّة، ما كان لهما أن يتخيلا وقوعه. صدمة أخرى لن تلبث آديلا أن تتلقاها.

عقب أربعة أشهر من موجة المشاعر تلك، كتب البنك إلى آديلا، وهي تدين له بما يقرب من ثلث قرضها الدراسي، مبدياً قلقه من تأخرها في دفع الأقساط. في عام 2007، وقبل وقوع الأزمة المالية، كانت الشابة قد حصلت على اعتماد سخيّ يشمل قروضاً بفوائد مخفضة لتغطية نفقات التسجيل والإقامة الجامعية، مع وعود بالكثير من الامتيازات. وها هو البنك نفسه يبلغها بوضعها الائتماني الحرج، وبيّن لها خبير في الحسابات بأنّ هذا التأخر قد يكون على صلة بمبلغ إيجار شقتها، الواقعة في (كوكونت غروف)، وهي واحدة من أرقى مناطق المدينة.

بدا دخولُ العقل المالي الغامض العنيف على خط حياتها الخاصة عدواناً حقيقياً، وشعرت بأنّها تخضع لرقابة شديدة في ما يخصّ تصرفاتها وطريقتها

في تصريف حياتها. أمّا ماركوس، الذي لم تكن تجربته الكوبيّة المتواضعة تسعفه لفهم مسالك عالم البنوك الوعرة، فقد طلب من خطيبته أن تدله على مدير البنك ليشبعه ركلاً على ما أبداه من دناءة ونذالة. هذا، طبعاً، بعد أن يفرّغ خراء بطنه على أمّه القحبة. وأفرغ هذا الكلام بالإنكليزية والإسبانية، بل بالسومريّة.

وبعد أن حلّلا الوضع ببرود، اقترح ماركوس على آديلا أن تترك شقّتها وتنتقل للسكن معه في (هياليه)، حيث الإيجارات مناسبة والعيشة راضية. فكّرت الفتاة مليّاً ثمّ وافقت، لأنّها، بتربيتها، الأمريكية أكثر منها لاتينيّة، لا تستطيع أن تقترح عليه الحركة المعاكسة، أي أن ينتقل هو للسكن معها في (كوكونت غروف) ومشاركتها النفقات. لم تكن تلك، وقد قالت ذلك مراتٍ حتّى آمنت به وصدقته، أسوأ خياراتها، بل لقد أحست أنّها تستردّ جزءاً من حريتها وتستمتع، في الوقت نفسه، بحبيبها قريباً منها كلّ ليلة وكلّ يوم.

حين أعلنت عن قرارها ذاك، كانت الخلاسية جوهاندرا أوّل من سألها إن كانت فقدت صوابها: تنتقلين من (كوكونت غروف) إلى قذارة (هياليه)؟ لكنّ الصديقة، الجاهلة بالضائقة المالية التي كانت آديلا تمرّ بها، راحت تبيّن لها التأثيرات الجانبيّة اللطيفة لمصيبة الوقوع في الحبّ: حين تقع الواحدة منّا في الحبّ، تجنّ وتصبح مستعدة لعمل أيّ شيء، حتى لو كان من قبيل الانتقال للسكن في (هياليه). أمّا ردّة فعل أمّها، المتوقعة، فقد كانت أشدّ وأحدّ:

– واصلي سقوطكِ، كوسي، حتّى القاع. المضحكُ أنّكِ تسقطين وأنتِ فرحانة –حذّرتها لوريتا ولم تقفل الخط، فقد كان ذلك التعليق بداية سيل من اللوم باتجاه واحد: تفريطها في شبابها وانسياقها وراء نمط غريب من الحياة–. كوسي: الظلام لا يولّد إلّا الظلام – ذكّرتها، بنبرة بوذيّة.

– رجاءً، لوريتا – قالت البنت، وهي لا تريد أن تذكّر أمّها بأنّها أسهمت في مصيبتها حين توقفت عن إرسال أيّة مساعدة مالية لها منذ أن قررت البنت الدراسة في فلوريدا.

– حبيبتي. حياتكِ هي حياتي. ولكن، تذكّري أنّك مختلفة. عائلتك مختلفة. نحن كلّنا مختلفون لأنّنا خيرٌ وأفضل.

- لوريتا فتزبيرغ، لا تكرري عليّ هذه التفاهات! أيّة عائلة؟ وأفضل مِمَن؟

- ياي، ياي... كم مرّة قلتُ لكِ إنّ شخصاً مثلكِ، لم يطلع على السلوك الإنساني المنحطّ، ولم يعرف العنف، ولم يجرّب الجوع، ولم تصادفه إلا مشاكل عابرة كهذه التي تمرّين بها الآن، عليه أن يفهم أنّه أفضل، وأنّه عاش حياة أفضل... وإن اختار اختصاصاً تافهاً، في مكان تافه...

تعلم آديلا، في قرارة نفسها، أنّ أمّها محقّة في ما ترى وتقول. لكن ما كانت تحتاجه، في تلك اللحظة، هو قليل من الدعم، حدّ أدنى من التشجيع، في القفزة التي تقفزها، والتي لا تتصل، في الواقع، إلّا جزئياً بأزمتها الماديّة أو بحالتها العاطفيّة أو بانتقالها للسكن في هياليه البائسة. ما كان يزيد الطين بلّة أن تتضافر تلك العوامل وتشتد، دون أن تستطيع أن تحيّد أيّ واحد منها.

ولكي تتفرّغ لدراسة الماجستير على خير وجه، فقد قبلتْ آديلا بوظيفة بسيطة قليلة الراتب في قسم المكتبة الجامعيّة، الذي يضمّ *المجموعات الخاصة* التي اتخذت منها، بالتحديد، موضوعاً لأطروحتها. فموضوعها يقوم على تحليل اجتماعيّ وتاريخيّ لمراسلات ومذكرات شخصيّة كوبيّة عدّة من القرن التاسع عشر (مارتي، كارلوس مانويل دي ثيسپيدس، الراهب باليرا، دومينغو دل مونته، خوسيه أنطونيو ساكو وشخصيات أخرى من قدْر أدنى) ولمفاهيم الأمّة والسيادة والهويّة، التي كانت مطروحة، آنذاك، حول المبادئ الفلسفيّة والعمليّة التي يقوم عليها الوطن. لكنّ الموضوع تشعب واتسع ليشمل مجلداتٍ كثيرة، ووثائقَ غير منشورة، بل لقد تجاوز هدفه الأولي وخرج عمّا خطط له ورُسم. لكنّ ذلك لم يثنها عن عزمها، فقد كانت متأكدة من أنّ العمل سيخرج بكتاب يضمّ بين دفّتيه دراسة مهمّة، وقد تجد فيه مدخلاً لبلوغ الأستاذية التي ستسمح لها، على المدى البعيد، بتحقيق أحلامها، وتسديد ديونها، وإن بقي ذلك كلّه رهن مستقبلٍ عليها أن تخطط له بعناية وإن غابت عنه دقّة الحدود ووضوح المعالم. أمّا حاضرُها، الدقيقُ في حدوده، الواضحُ في معالمه، ففيه من الدقّة والتحديد ما يضيّق عليها ويعصرها عصراً.

أمّا ما أينع من كلّ تلك الثمار فهو أنّها باتت، وللمرّة الأولى، تساكن رجلاً، وتشعر، للمرّة الأولى أيضاً، بأنّها مغرومة، وبالتالي محرومة. حتّى أبوها لم يعجبه قرارها في الانتقال، وعرض عليها أن يرسل لها نقوداً، لكنّها رفضت العرض، وأبدت عزّة نفس وإباء. فللحريّة والطموح والمستقبل ثمنها، أليس كذلك؟ فكّرت، وعليها أن تدفع الثمن، قالت لنفسها. ستكون دكتورة جامعةٍ (مستقبلاً) ومؤلفة كتابٍ (مستقبلاً) وزوجة رجلٍ (حاضراً!).

بعد أن انتقلت آديلا للسكن في (هياليه)، حكت للوريتا قصة علاقتها بماركوس، بعد أن كانت تشير إليه بـ«شاب كوبي تخرج معه»، وتتهرّب من أيّ تفصيل عنه أو عن علاقتها به يسبب لأمّها تحسساً ويثير بينهما لوماً وجدلاً. وهكذا، فضّلت لأمها الكلام عن خطيبها، وحكت لها عن أصله وفصله، وعن مقدار ما فوجئت به من نفسها ومن تصرفاتها التي باتت تصرفات امرأة تزداد حبّاً لمن تحبّ وتعلقاً بمن تهوى.

– أوكي. أوكي. لن أجادلك أكثر... أكاد لا أصدق ما أسمع، لكنّي أعتقد أنّي أفهمك... هناك أشخاص ضعفاء مثلكِ... أكرّر أنّ المسألة كلّها تتعلّق بحجم عضوِ صاحبك الكوبي، أليس كذلك، كوسي؟ – قالت بسخرية واضحة، وضحكت. نعم، بالطبع، فلوريتا تضحك أحياناً. أمّا آديلا فتزداد مقتاً لها ورغبة في القضاء عليها.

في غمرة ذلك التصريح التنفيسي المريح للأعصاب، وتلك المبارزة الشفويّة التي ستريق دماً، ذكرت آديلا اسم ماركوس مارتينِث. فالتزمت لوريتا، وهي تستمع إلى حجج ابنتها، صمتاً غير معهود فيها، صمتاً ينمّ عن شيء من الاحترام. لكنّها، حين سمعت اسم الشاب، سألت ابنتها:

– ما اسم خطيبك؟ ما لقبه؟

– مارتينِث... ماركوس مارتينِث.

وبدا صمتُ لوريتا الجديد، الذي جاء من الطرف الآخر من البلاد، لآديلا أغربَ من ذاك المتعب، ربّما، الذي أحسّت به بينما كانت تشرح لأمّها أعراض ضعف المرأة المغرمة حين تجد نفسها، كما هي الآن، في بداية حالة من المعايشة.

– ماركوس مارتينِث، ثمّ ماذا؟ – تضخّم صوت لوريتا وعادت له نبرته التحقيقيّة الاستفهامية.

– وما أهميّة ذلك، لوريتا؟

توقف آخر. زفرة تلفونية أخرى.

– لا شيء... للعلم فحسب... مارتينِث ماذا؟

– مارتينِث چاپله.

– أنتِ مجنونة، آديلا فتزبيرغ! – قالت لوريتا، وأحسّت الفتاة أنّ شيئاً غريباً يحدث.

– ماذا جرى، لوريتا؟

– ماذا جرى؟ جرى الكثير... جرى أنّكِ اخترتِ كوبياً ميتاً من الجوع، هرب من بلده في قارب، بلا شغل، بلا عمل، يملأ أظافره زيت التشحيم...

– ها قد عدنا! قلتُ لكِ إنّه ليس من لاجئي القوارب، وإن كان ذلك لا يهم. وقلتُ لك إنّه مهندس، سيبراني تقريباً... وإنّه يكسب من عمله جيداً... يبيع موادّ ترسل إلى كوبا و... فهل في هذا ما يضايقك؟

لم تصلها عبر الخط، هذه المرة، زفرة، بل أكثر من زفرة: زئير وهرير.

– What?... ما عدتُ أستطيع الكلام معك أكثر...

– فما مشكلتك، إذن، مع خطيبي؟

أطلقت لوريتا زفرة من أقوى زفراتها.

– أنتِ تحمّلينني الكثير. دائماً تحمّلينني الكثير. أحتاج إلى التأمّل، أحتاج إلى الراحة والاسترخاء. سأخرج للتجوّل مع رينغو – قالت، وقطعت المكالمة.

أحسّت آديلا بطعم مرٍّ في فمها، فكأنّها قضمت فاكهة فاسدة. لقد بدت ردة فعل أمّها لها غريبة وغير متناسبة. من حقّ لوريتا أن تنكر كوبا وتنفر من الكوبيين وتتجنّب سماع أيّ شيء عن البلد وساكنيه، فذلك خيارها، وهي تحترم ذلك الخيار، لكنّ ذلك لا يعطيها الحق في أن تنتقد قرارها بتلك الطريقة، فهي فتاة بالغة، راشدة، وما عاد لوالديها أن يقرّرا نيابة عنها، وخصوصاً في الأمور العاطفيّة. لمَ كلّ ذلك الحقد على بلدها الأصلي، ولم

ذلك النفور من كلّ ما يتّصل به؟ فهل تظنّ لوريتا أنّ ابنتها أغرمت بكوبي قصدَ مضايقتها؟ وكيف بلغ بإحساسها القصور أنّها قطعت عليها المكالمة دون أن تسمعها أو أن تعبّر لها عن القليل القليل من الدعم والتفهّم؟ لقد أشعرتها ردّة فعل أمّها بالاستياء، وغمرها حزنٌ منعها من التعمّق في قراءة موقف لوريتا فتزبيرغ.

في اليوم التالي، تلقّت آديلا المكالمة الأخيرة من أمّها في ستة عشر شهراً، إذ لم تعد إلى الاتصال بها حتّى ذلك الصباح الربيعي من عام 2016، حين أخبرتها بسوء حالة رينغو.

– اتصلتُ بك لأقول لك شيئاً، كوسي –بدأت لوريتا كلامها–. سأكلمك بالإسبانية لأنّي أريد أن أكون دقيقة وواضحة. أريد أن تسمعيني فحسب. من دون أن تسأليني عن شيء... اسمعي، الحياة شيء بالغ التعقيد. أنتِ استمتعتِ بحياتك، واستطعتِ أن تفعلي فيها ما بدا لك، وأنا، في الواقع، أغبطكِ عليها، لأننا لا نحظى بنصيب واحد فيها. أنا لم أحظ بهذا النصيب. الظروف هي ما يحدّد الكثير من أمور الحياة. الظروف لا تسألك إن كنتِ تريدين أم لا. إن كنتِ على وفاق معها أم لا. هناك أحداث تغيّر كلّ شيء. وقد يتصرّف أحدنا وهو ينتظر شيئاً، ثمّ يقع ما هو العكس...

– عمّ تتكلّمين، لوريتا؟ –تجرأت آديلا وقاطعتها–. هل عدنا إلى أسطوانة الكارما والظلام؟

– أنا أتكلّم عن نفسي. نعم، عن كارمتي... عن حياتي البائسة. عن القرارات التي اضطررتُ إليها. عن ذنوبي وخطيئاتي، وبعضها كبائر... أقول لك ذلك لأنّي أريد أن تعلمي شيئاً ربّما نسيتِه أو لم أستطع أنا أن أبرهن لك عليه: أنتِ أهمّ شخص عندي، وأنا مستعدة، لكي أجعلك سعيدة، أن أفعل أيّ شيء. وقد فعلتُ الكثير. وبعضُ ما فعلتُ فظيع.

– أنتِ تخيفينني.

– Sorry... آسفة. أوشكُ أن أنتهي من كلامي: أمس تكلمتُ مع أبيك، وقد حكى لي عن مشاكلك الماديّة... كم تحتاجين للخروج من ضائقتك الماليّة، ولا تضطرين إلى الانتقال للسكن مع ذلك الرجل؟

شعرت آديلا بالدم يصعد إلى وجهها. فما كان لبرونو أن يكلّم لوريتا عن ضائقتها الماليّة.

- مالٌ كثير. ولكن لا تقلقي. سأتولّى بنفسي حلّ المشكلة.

- أستطيع أن أساعدكِ، كوسي. بل إنّي مستعدة، إن اقتضت الضرورة، أن أسطو لكِ على بنك أو أن أقطع طريقاً... أنا جادة في ما أقول، وأنت تعرفين أنّي أكسب جيداً ولا أنفق شيئاً تقريباً.

- أشكرك، ولكن لا... لديّ أسبابي. اتركيني أتصرّف بحياتي، لوريتا. كما تصرّفتِ أنتِ بحياتك!

صمتت الأم للحظات. وانتظرت آديلا الانفجار، لكنّها شعرت بالارتياح حين سمعتها تقول:

- أوكي، كوسي. افعلي ما بدا لك. فأنا آخر من يحقّ له أن يوجّه لك أيّ لوم... أتمنّى لكِ، بُنيّتي، حظاً سعيداً، وأرجو أن تنعمي بالسعادة، بغضّ النظر عن أيّ شيء. فأنا أحبّك أكثر ممّا تتصورين - قالت وأغلقت السماعة.

أحسّت آديلا بالغصّة المعهودة. ما الذي حدث يا تُرى؟ هل جنّت أمّها، أم إنّ «مرشد الطريق»، الذي بات يرافقها في منحاها البوذيّ، حوّلها إلى شخص آخر؟ ذنوب وخطايا؟ وذلك الاعتراف بالحبّ بعد سيل التأنيب والانتهار والتوبيخ؟ لم تتردد. بل ضغطت على زر إعادة المكالمة، لكنّها لم تتلق إلا صوت المجيب الآلي يخبرها بأن الهاتف الذي تطلبه مغلق، ويطلب منها أن تترك رسالة صوتية. همّت بغلق المكالمة، لكنّ شيئاً ما منعها. فتركت رسالة صوتيّة:

- لوريتا فتزبيرغ، أنا أحبّك أيضاً... ولكن، يا إلهي، ما أكثر ما يكلّفُ حبّك!

من مفاجأة إلى مفأجاة، سارت علاقة آديلا بماركوس في الأشهر الأولى. فكلّ ما درسته عن كوبا وتبنته، وكلّ ما عرفته عنها طيلة حياتها، وكلّ ما قرأته في الوثائق التي تعمل فيها منذ دخولها إلى الجامعة، وكلّ ما عاشته في الأيام التي أقامتها هناك أثناء زيارتها الأكاديمية للجزيرة عام 2010، لم تجد صداه في معايشتها اليوميّة إلاّ قليلاً. فقد تعرّضت انطباعاتها تلك، مع وجود شريكٍ على ذلك القدر من الانتماء إلى كوبا والصلة بها، لسيل من المواقف والاكتشافات زحزحها عن ثوابتها. أمّا انتقالها للسكن معه في (هياليه)، فقد كان بمنزلة كورس مكثّف متقدّم من التدرّب على مادةٍ خفيّة، باطنيّة، شبه سريّة، في مواجهة مباشرة مع الوسط الذي كشف لها عن حجم جهلها.

بإقامتها مع ماركوس، وذهابها للتسوق مرة واحدة في الأسبوع، وممارستها الـــfooting، من حين لآخر، ومرافقتها خطيبها في بعض مشاويره أو زياراته إلى أصدقاء قدامى أو جدد أو إلى إحدى مباريات النمور أيّام الأحد، بدا لآديلا أنّ رابطة الدم التي تشدّ خطيبها إلى أصله وثقافته تأبى أن تذوب في الأرض التي انتقل إليها، حتّى لو كانت هذه الأرض (هياليه). فلماذ يهجر إنسانٌ كهذا بلده؟ ولماذا يفارق الإنسان بلاده من دون أن يخرج منها؟ (فعلاً. فقد عاش هيريديا ومارتي وساكو وباريلا وثيريلو بيّابيرده أيضاً في المنافي، ومات الكثيرون منهم في الشتات، يطاردهم انتماؤهم الراسخ الوثيق، كما كشفت عن ذلك رسائلهم ومذكراتهم التي كانت على اتصال مباشر بها). وأدركت آديلا، بحكم معايشتها المهاجرين، أن لا أحدَ يترك المكان الذي يعيش فيه سعيداً إلا إذا وجد نفسه مجبراً على تركه –حين يفقد حالة السعادة الهشّة تلك–. إنّها متأكّدة من أنّ لوريتا وبرونو ما تركا بلدهما إلّا لأنّهما لم يكونا سعيدين فيه، ولذلك تخلّيا عنه، راديكاليّاً في حالة لوريتا،

ودراماتيكيّاً في حالة برونو. كان يمكن أن تبدو ردود فعلهما مفهومة لها، ولكنّ ماركوس، وكوبيين آخرين، من جيله خصوصاً، بدأت تتعرّف عليهم، طالما حطّموا تلك القاعدة، التي بدت، للوهلة الأولى، منطقيّة.

أمّا الاستنتاج الذي خرجت به آديلا، وما كان بالاستنتاج الهيّن، فهو أنّ ماركوس لم يكن يتبنّى أفكاراً سياسيّة راديكاليّة إلى حدّ دفعه إلى اختيار الهجرة والمنفى، ولم يكن يشعر بالحاجة إلى تغيير حياته والانتقال إلى محيط ثقافي مختلف، أو البحث عن تجارب جديدة. بل على العكس من ذلك تماماً. فعلى الرغم من ظروف الفقر القاسية التي عاشها، فلطالما حنّ ماركوس إلى أيام طفولته ومراهقته في حيّ (فونتانار)، وإلى سنواته الجامعيّة، التي اتسمت بتعطّشٍ للمعرفة كان هو وأصدقاؤه يحاولون إشباعه، أحياناً، وبطرق ملتوية، في بلد ينقص فيه كلّ شيء، حتّى المعلومات. مع ذلك، فالناس، حسب روايات الشاب، كانوا يحيون هناك حياة طبيعية تقريباً، وكان هو يتكلّم، في العادة، عن أيام هافانا ولياليها، وعن أيامه ولياليه فيها، كأنّه يتكلّم عن حفلة لا تعرف نهاية.

في كوبا، بينما يعيش كثير من الناس مكدّسين، وفي ظروف ماديّة صعبة، بقليل من الموارد أو بلا موارد، كان ماركوس وأمّه يسكنان في بيت يضمّ غرفاً عدّة؛ بيت لطالما تباهى به وتفاخر وهو يصفه. بل لقد توفر على مالٍ كثير، إن صحّ ما كان يحكيه عن لهوه وحفلاته وملابسه ودراجاته الناريّة وإجازاته التي يمضيها في البلاجات الخلّابة. حياة صاخبة لم يكن الشاب المهندس يتفرّغ فيها لعمله الرسمي، في شركة يعمل فيها مسؤولاً عن ورشة الصيانة، غير ساعتين يومياً، هذا إذا ذهب، فقد كان مديره رفيقاً من رفاق العربدة.

كانت آديلا تسمع وتكتشف، لكنّها لا تمتلك الوسائل التي تسمح لها بفهم جيد لتلك الآليّة البدائية الفريدة لمجتمعٍ يعدّ ممنوعاً كلّ ما ليس بقانونيّ، مع ذلك، يعثر الناس على الفجوات، ويسرقون (من الدولة) ولا يعدّون مجرمين، ويعيشون، وهم لا يعملون، أحسن حالاً من الذين يعيشون وهم يعملون.

علمت، مثلاً، أنّ خطيبها أصبح، في ضربة حظ، أحدَ كبار مجهّزي الجبنة البيضاء إلى مطاعم البيتزا الخاصّة في هافانا: هناك طلبٌ كبير على الجبنة في المدينة، وقد وجد طريقة لاحتكارها باللجوء إلى فريق لشراء الجبنة وتوزيعها، له فروعٌ في كاماغوي وهافانا. ينقلونها من الأولى، مخبأة في زوايا خفيّة من حافلات نقل الركاب بين المحافظات، ويبيعونها في الثانية. لكنّ آديلا لم تفهم الحاجة إلى إقامة شبكة لتهريب الجبنة، وكأنّها كوكايين. كما لم تفهم سبب حاجة خروج ماركوس من كوبا إلى درجة أنّه حاول الهروب في رحلة خطيرة عبر مضيق فلوريدا، الذي يستقر في أعماقه الله أعلم كم ألف كوبي.

تضافر سوءُ المزاج الذي رافقها طوال اليوم، وحديثها مع أمّها، وصورة رينغو المحتضر، علاوة على الوعكة التي ألمّت بها بسبب دورتها الشهريّة، لتشعر بالضعف، ممّا أجبرها على أن تدخّن سيجارة الماريجوانا تلك، ثمّ دفعها دفعاً إلى أن تستعلم عن شيء كان ماركوس قد موّه عليه وبرّره على الدوام بقلة ذات اليد وغياب المنظور والضجر والمجازفات الماليّة والتجارية والقانونية وعدم امتلاكه سيارة وبيت. تبريرات ضبابيّة عامة عائمة كانت تراها دائماً غير كافية ولا مقنعة من رجل مثله. لذلك اعتزمت أن تطالبه بالحقيقة ذلك العصر، فهي تحتاجها لتعيد ترتيب أفكارها.

لم تجد آديلا مهرباً، إذ فاجأها ماركوس ورائحة الماريجوانا تشيع وتضوع، ولم تجد غير الابتسامة ما تردّ به على لومه.

– لا عليكِ –قال لها ماركوس–، فمرة واحدة في العام لا تضرّ. ولكن، لا تحتفلي، يا فتاتي، بمفردك – أضاف، وانحنى ليقبلها، ودسّ إحدى يديه من فتحة قميصها وراح يداعب بأصابعه حلمة ثديها، فانتفخت، رغم الألم الذي سببته لها تلك المداعبة.

– لا تستغلّ ضعفي، أيّها الوغد – احتجتْ حين امتلكت ناصية لسانها.

ابتسم ماركوس، ونقل يده إلى ما بين ساقيها ونظر إليها مستفهماً:

– اليوم لا... الآن لا –قالت له متوسلة تقريباً–. طريق (پالميتو) السريع يحطمني... ودورتي... وفوق ذلك كلّه رائحتك المقرفة... هلّا غسلتَ قميصك.

جلس ماركوس على الكرسي، في الطرف الآخر من طاولة الشرفة، وهي قطعة أثاثٍ كان أخذها من مكبّ للنفايات وأعادها إلى الخدمة بمسمارين وضربة فرشاة. نهض فجأة ويده على صدغه، ودخل إلى البيت ليعود بزجاجتين من البيرة. بدأ يشرب زجاجته، وناول آديلا زجاجتها.

– أنا أيضاً مطحون –قال وهو يخلع قميصه، الذي يرتديه عادة في تمارين البيسبول، ويعلّقه على ظهر كرسيّه–. فالمطر الذي هطل منعنا من التدريب. خرجنا إلى الساحة، لكنّنا لم نستطع أن نتدرّب. تبّاً للمطر... وهذا الأحد لدينا مباراة مع المغفّلين من (لوس ماريستاس)، الذين يظنّون أنفسهم الأفضل... عدتُ إلى الورشة وبقيتُ هناك حتّى الآن.

– أنا أمضيتُ اليوم أفكر في أشياء كثيرة. منها أنّك لم تكلّمني قط عن سبب خروجك من كوبا.

– حكيتُ لك القصّة ألف مرّة، حبيبتي!

– لا. أنتَ حكيتَ لي عن أمور كثيرة... لكنّك لم تحكِ لي عن *أمورك*... أنتم، الكوبيين، أنتَ وأمّي ويوهاندرا، كلّكم تمضون النهار بالكلام، لكنكم لا تقولون كلّ شيء...

نظر ماركوس إليها، عبّ جرعة طويلة ثمّ ترك الزجاجة على الطاولة. نفش شعره بأصابعه، فكأنّه يريد أن يخرج شيئاً من فروة رأسه.

– في كوبا، لا تنتظري من أحدٍ أن يخبركَ بكلّ شيء... حالة تتعلمينها منذ الولادة... فأنتِ تريدين الحقيقة كاملة؟ طيب... سأخبرك بالحقيقة... الحقيقة هي لأنّي كنتُ على وشك أن أنفجر كالقنبلة، بعد أن أفلستْ تجارتنا.

– أيّة تجارة؟ الجبنة البيضاء؟

هزّ رأسَه بالنفي.

– لا. تجارة الشركة التي كنتُ أعمل فيها. حكيتُ لكِ عنها... في تلك الشركة يسرقون كلّ شيء ويبعون كلّ شيء: مواد بناء ونفط وقطع غيار للشاحنات وخشب وأطقم حمّامات... أيّ شيء، وكلّ شيء. هكذا جرت الأمور طبيعيّة حتّى قبل أن أعمل عندهم، قبل بضع سنوات.. هناك شركات كانت ترسل لنا بضاعة أكثر من المسجّلة. شركات أخرى ما كانت ترسل

شيئاً، لكنّها كانت تُسجّل. كانت هناك منافذ عديدة تتسلّم منّا ما يهمّها ثمّ تتكفّل هي بتسليمها إلى أشخاص نظّموا فرقاً للبناء أو ورشات، أو أو... يبيعون النفط لأشخاص يبيعونه لآخرين من أصحاب شاحنات أو سيارات التكسي الخصوصيّة. كانت النقود تهبط من السماء. فكأنّها تخرج من ماسورة مجاري... حالة من الجنون. نهبٌ يجري على قدم وساق، الجميع يسرق حتّى بدا أنّ الحالة ما كان لها أن تدوم طويلاً. كنتُ أقضي اليوم خائفاً، وإن واصلتُ قبضَ حصّتي. وقد حدّثتكِ عن الكولوراو، مديري، نعم حدّثتكِ. لديه صاحبتان، لكلّ منهما بيت مؤثث، وقد اشترى لولديه من زوجته الرسميّة سيارتين حديثتين لا أدري كم تكلّف الواحدة منهما... كومة الخراء العظيمة... وكان، طبعاً، يغدق العطاء للمفتشين والمديرين والرؤساء والشرطة... في كوبا يقال: سمكة القرش تسبح وتطرطش.

- لا أفهم، كيف يمكن هذا؟

- لا تحاولي أن تفهمي. فهكذا تسير الأمور، وهكذا سارت دائماً. فماذا تظنين؟ كيف يعيش الناس هناك، إذن؟ -سألها، وأشار صوب المكان الذي يفترض أنّه مكانه-. لكنّي شممتُ... كان الجوّ يتغيّر و... طيب، على الرغم من أن اسمي لا يظهر على أيّة ورقة، وأنّ عملي كان يقتصر على التطلّع إلى الجانب الآخر ومدّ يدي لتسلّم حصّتي، فقد شممتُ رائحة الانفجار الذي يقترب، وعلمتُ أنّ عليّ أن أعجّل بالخروج. لم أفكّر في الأمر كثيراً، وصادف أنّ والد صديقي خطط أيضاً للخروج، فدفعت مكاني في الرحلة: عشرة آلاف دولار، وهو كلّ ما أملك تقريباً. هل تفهمين معنى عشرة آلاف دولار في كوبا؟... إنّها مثل عشرة ملايين هنا!... تصوّري أنّ راتبي كان أربعين دولاراً في الشهر... لكنّي استطعتُ، على الرغم من كلّ ما كنتُ أنفقه، أن أوفّر ذلك المبلغ... لكنّ مشروع الرحلة لم يصادف النجاح، وقد حكيت لكِ عن ذلك. ضاعت النقود في البحر... أعادونا إلى كوبا، وبدأتُ، في اليوم التالي، أبحث عن طريقة للخروج، فألقى لي الربّ بالحبل: اتصل بي مايكل وكلمني عن موضوع إيطاليا.

- وهل كانت الشرطة حينها تبحث عنك؟

– لا. لم تكن تبحث عني آنذاك، لكنّ الحالة كانت مرشحة للانفجار في أيّة لحظة، كما انفجرت.

– أقسم لكَ أنّي لا أفهم شيئاً تقريباً. لا أفهم لماذا لم تبقَ في إيطاليا، كما فعل المسافرون الآخرون، وغامرتَ بالعودة إلى كوبا؟ وهل كانوا ينتظرونك؟... ألم تستطع البقاء هناك ثمّ تذهب إلى أبيك في إسبانيا أو إلى أخيك في فرنسا؟

– كنتُ أستطيع، ولكن... كيف أفرّط بعشرة أيّام من السياحة في إيطاليا؟ لا. فأنا لستُ مجنوناً إلى هذا الحد! وكيف لي أن أعيش في إسبانيا مع أبي، أو في تولوز مع أخي؟ لن أفعل ذلك ولو كنت مجنوناً. علاوة على أنّني هارب من وجه العدالة ومن المافيا ومن الرجل الذئب... أخي مهووس بالترتيب والنظام، أمّا أبي فأكثر جنوناً من معزة: فبعد أن رحل عن البلد، بات قلعة لنضال الطبقات ولاشتراكية القرن الحادي والعشرين أو اشتراكية لا أعرف ماذا، وإن كان يمتلك بيتاً في المدينة وآخر في الشاطئ، وعنده زوجة بدينة تدّعي التقدّميّة. تصوّري، حين كنتُ في كوبا، كانت مونتسي، وهذا هو اسمها، تقول لي، وهي في برشلونة، إنّ علينا أن نصمد ونقاوم وننتصر...، لكنّ أخي، رمسيس، حكى لي أنها تتغنّى بـ«نشيد الأمميّة» وهي ترتدي ملابس يابانيّة وأحذية إيطاليّة وتلفّ على رقبتها منديلاً أصفر من تصميم دولتشي&غابانا. فهل تفهمين ذلك؟

– لكنّك غامرتَ بالعودة إلى كوبا.

– لأغيّر حقيبتي، أليس كذلك؟ وها أنا ذا، *طفلتي*... لأنّ شيئاً مّا أخبرني أنّكِ هنا، في بلاد *اليوما*[4] بانتظاري...

واضطرت آديلا، وهي في ذهول واستغراب، إلى أن تبتسم.

– وهل حدث شيء؟

– حدث. بعد شهرين تقريباً من وصولي إلى هنا، أقدم الكولوراو على فعل ما فضح أمره. يقولون إنّ اسمي لم يرد في التحقيقات، وإن كنتُ لا أصدّق ما يقولون... قصّوا جناح المدير، مع أنّه كان قد نظّف كلّ قذاراته. حكموا عليه بالسجن ثلاث سنوات وصادروا حتّى سرواله الداخلي، وإن

كان من المؤكد أنّ لديه أموالاً كثيرة في مكان ما... كم أنا آسف، فحين أحصل على جواز سفر، لن أغامر بالعودة إلى كوبا. هكذا هي الحال، حبيبتي: جوني لن يستطيع العودة إلى كوبا. فأنا محكوم بالنفي المؤبد. ولكن أمامنا دائماً باريس... أو كازابلانكا... و(هياليه).



استلقت آديلا على السرير. إلى جانبها رواية پول أوستر [2] التي كانت قد بدأت قراءتها. لكنّها تشعر بخمول شديد. من مكانها ووضعها، تستطيع أن ترى، عبر باب الحمام المفتوح والزجاج الذي يفصل الدوش، جسمَ ماركوس العاري من تحت رشّات الماء. كانت تنتظر لحظة رؤيته وهو يشطف أعضاءَه، تتأمّله وهو يصرف عليها ليترات كثيرة من الماء ويكرّس لها جهد يديه. تذكّرت كلام أمّها ووجدت أنّها محقّة في جانب: فهي معجبة أيضاً بعضوه المتماسك المتين، المُعتبر في حجمه، العظيم في سُمكه، المتوّج بحشفةٍ رأتها، أحياناً، كبرعم وردة، وبدت لها، أحياناً أخرى، كحبّة فراولة.

وكلّمها، بينما كان يجفف بدنه بالمنشفة – وهو يأخذ وقته أيضاً في تنشيف ما بين فخذيه:

– اسمعي، حبيبتي. بما أنّكِ متعبة، فسأتولّى أنا إحضار الطعام... فأيّ طبق تفضّلين؟

أسفت آديلا لظرفها الشهري. فخطيبها الذي يقف أمامها عارياً، وفيض الماريجوانا، جعلاها تنسى وعكتها، فأحسّت، في تلك اللحظة، بدفقٍ من الرطوبة، أهاجه عنفوان الهورمونات في المرأة الخصبة. لكنّها كانت تعلم أنّ ماركوس لا يحب الاقتراب منها وقت دورتها، فحاولت كبح رغبتها.

– لا أدري. شيء خفيف... يناسب حالتي...

– خفيف؟ –سأل، كأنّه يفكّر، بينما كان يحشر ساقه في سرواله الداخلي، ويرشّ مزيل العرق تحت إبطيه، ويمشط شعره المجعّد، ويكرر سؤاله، بصوت أكثر انخفاضاً، ويلبس سلسلته الذهبيّة التي تحمل ميدالية

عليها صورة عذراء المحبّة النحاسيّة [3]، ويرشّ الكولونيا على بدنه ثمّ يرتدي سروال البرمودا الذي كان علّقه على باب الحمّام قبل أن يدخل إلى الغرفة-. أنا أتولّى الأمر. خذي حمّامكِ واستريحي برهة.

- شكراً... هلّا قبلتني؟

اقترب ماركوس من السرير وقبّلها.

- لا تسخني... فعليّ أن أجلب الطعام...

- رائحتكَ طيبة...

- وانتظري أن تأكلي ممّا أجلب... فالمذاق أفضل شيء -قال وابتسم-. حبيبتي، بخصوص ما كلمتك عنه الآن، وأرجو ألّا تفزعي... هناك مليون من البشر يعيشون كما كنتُ أعيش في كوبا، يعيشون على ما يخترعون وما يحتالون. بعضهم يكسب مالاً كثيراً، وآخرون يقاومون ويصمدون، ولكن باللف والدوران دائماً... لقد عاش أبناء جيلي في زمن لم نكن نجد فيه شيئاً، وترعرعوا من دون أن يؤمنوا بشيء. ربّما لم يؤمنوا إلّا بالبقاء على قيد الحياة. هناك، في الواقع، ناس من كلّ نوع وصنف، حتّى من الشيوعيين القدامى، لكنّ الأغلبيّة... الأغلبيّة لا تتذكر، بل لا تذكر شيئاً عن جدار كان اسمه جدار برلين، ولا عن إخوة لنا كان اسمهم السوفييت. لا تعنيهم السياسة ولا يستمرئون حكايات السياسيين عن مستقبل مشرق، ولا يصغون إليهم، بل يبحثون عن المستقبل بأنفسهم، كلّ حسب قدرته... أمّا الذين بقوا في كوبا فاستمروا يلفون ويدورون، أمّا نحن، فقد خرجنا، وما أكثر من خرج منّا! وما أكثر من يخرجون! هل تعلمين كم لاعباً مثل الدوكي [8] هرب من هناك في السنتين أو الثلاث الأخيرة، وكم مهندساً، مثلي؟

هزّت آديلا رأسها. ليست لديها فكرة، لكنّهم، بلا شكّ، كثيرون.

- لماذا تقول لي هذا؟ لا أحتاج أن أعرف الأعداد...

- حين تقرأين رواية، فعليك أن تصلي إلى آخرها وتتميها. وتوته توته خلصت الحدّوته...

من على الكنبة، تناول ماركوس *بلوفر* بلا أكمام، وبحث بقدميه، تحت المقعد، عن صندل مقلد من بريكنشتوك. أخذ من جرّار غرفة الطعام مفاتيح

شاحنته الصغيرة الشيفروليت 2014 وهاتفه الخليوي ومحفظته، وعند خروجه، رفع من العلّاقة برنيطة «الخروج» الزرقاء المزينة بحرف I الأبيض إشارة إلى فريقه المفضل، *لوس أندوستريالِيس-هاڤانا*. وبقيت في العلّاقة قبعة ينما وبرنيطة «الحظ»، الأغمق زرقة من الأولى، وهي التي رسم عليها بالأبيض حرفي N و Y إشارة إلى فريق *يانكيز-نيويورك*، وهي البرنيطة التي رافقته في رحلة عبوره إلى جنوب فلوريدا، وكان عمّه هوراثيو قد أهداه إيّاها، قبل سنوات طويلة، أثناء زيارة له إلى كوبا.

كان نُزُل (سانتا) يقع في الجادة 12 مع الشارع 68، مقابل آخر محال (مورّو كاسِل) الباقية، التي أغرقت (هياليه)، لسنوات، بالفريتاس الكوبيّة[9]. هناك اكتشف ماركوس مكاناً لشراء أطباق كوبيّة جاهزة وطازجة: فطبق (الپيلون) أساسي ومضمون الجودة: رز أبيض مع الفاصوليا دائماً؛ نوعان من طبيخ الفول، وحساء الأضلاع، مرتين في الأسبوع؛ وأطباق عديدة من لحم العجل أو شرائح الخنزير المقليّة (الأطرى والأشهى في المنطقة، يقول، لأنّها قطع يشترونها من مربٍّ للخنازير في (هومستيد)، يغذّيها على الطريقة الكوبية، وهي الأفضل في العالم)، مروراً ببستيك الطاجين و(روپا بييخا)[10] وطبيخ لحم الذيل و(الپيكاديّو) بالزيتون، والزبيب والكبر؛ سمك غير بالغ الجودة، ودجاجٌ مشوي أو مقليّ؛ أطباقٌ مطبوخة أو مقليّة جاهزة (كاسافا، بطاطس، بطاطا حلوة، قلقاس، موز) وسَلَطَات خضار دائماً مع الأفوكاتو. أمّا الحلويات، فهي الكلاسيكية المعروفة: مقشور الجوافة ومبشور جوز الهند وبودينغ الخبز وحلوى البيض. أمّا الزبائن فكانوا بسطاء أيضاً وأوفياء: تسعون بالمئة منهم كوبيون، بينهم باحثون عن الحظ من لعب اللوتو، أشخاص مسنون، لا قدرة لهم على تحضير الطعام، موظفون في المتاجر القريبة - يزداد عددهم ساعة الغداء، حين يذهب ماركوس والناريثون، خصوصاً إذا كان طبق اليوم حساء الأضلاع.

لطالما التقى في ذلك المكان عددٌ من أصدقاء سانتا وزوجها تيتو

9- **Frita cubana** همبرغر الكوبي.

10- طبق تقليدي كوبي عماده اللحم والرز الأبيض والموز.

القدامى، أصدقاء كوبا. كان تيتو رجلاً مكرشاً له وجه بِطريق، وحين لا يكون سكران، أو مشغولاً بكشط بطاقات اليانصيب مع أصدقائه، يحمل غلّة المطعم ليشتري من المورّدين الذين يظهرون، بين الحين والحين، حاملين منتجات غريبة: قواقع طازجة أو علب سجائر كوبيّة أو براميل زيت يوناني أو حلوى أعياد الميلاد الإسبانية، في شهر آب.

شرب ماركوس، وهو ينتظر طلبه، زجاجة من البيرة. تحادث مع تيتو، الذي كان يقف، يومها، مع صديقيه البيثكو [= الأحول] والمونغو [= الأبله]، الغارقين في سكرهما. تكلّم تيتو عن قراره ببيع محلّه، هذه عبوديّة، صديقي، فأنا أرغب في شراء يخت والذهاب إلى (كي ويست) للعيش هناك. ويعلم ماركوس أنّ تيتو، ومنذ عشرين سنة، يتكلّم عن محل يبيعه ويخوت يشتريها، وحياة يقضيها في (كي ويست) و(پالم بيتش) وحتّى في كاليفورنيا، من دون أن يفعل شيئاً. فسأله إن لم يكن من الأفضل له أن يبيع محله ويعود إلى كوبا ليفتح هناك مصلحة مشابهة ويمضي إجازاته في (كي ويست). في كوبا؟ مستحيل، نطّ تيتو، ولطالما نطّ، بغض النظر عن درجة سكره أو صحوته. لا أمان مع النيانغاراس[11]: فكلّ ما يحسنونه في كوبا هو تطفيرك وحرق دمك وأعصابك، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولذلك تراها، يا صديقي، تراوح في مكانها، ولذلك تراوح في مكانها. ويضحك ماركوس.

عاد ماركوس إلى البيت يحمل الطعامَ، فوجد آديلا وقد جهّزت الطاولة وحضّرت شراب الليمون بالثلج والسكّر الأسمر (فلا القهوة ولا شراب الليمون يمكن تناولهما بالسكر المصنّع: دائماً سكر أسمر، يقول ماركوس). شعر الشاب، وهو يرتّب الصحون والأواني، براحة تسري في بدنه، فها هي الكثير من مظاهر حياته الجديدة تبلغ منتصف الطريق، وهي محمّلة بالأحلام: أولاد سيولدون؛ سيارة جديدة لآديلا، تسديد رهن بيت (ليس في هياليه)؛ دكتوراه الفتاة؛ سداد دينها للجامعة؛ العودة إلى كوبا لقضاء أيام مع أمّه ومع المسكين برناردو، الذي اشتدّ عليه المرض، أو السفر إلى إيطاليا مع خطيبته ليفرّجها على الأماكن التي زارها وأماكن أخرى يتلهّف

11- Ñángara يقصد الشيوعيين.

لزيارتها؛ وربّما معادلة شهادته، ولطالما طلبت آديلا منه أن يفعل ذلك. لا. ليست حياته سيئة، قال لنفسه، فهو يشعر كأنّه يسبح على كتلة من حنان كثيف مضغوط، بلغ مرحلة تلامس درجة الكمال في تصميم قابل للتحقيق.

لذلك لم تفاجئه الحمّى والحماس اللذان دبّا فيه فحملاه إلى المطبخ ليمسك بردفي آديلا ويقبّلها في قفاها، ويسكر بعطر الصابون والشامپو والسپريه، الذي كان يقوّي رائحة المرأة العميقة فيها. وهكذا اكتشف ماركوس هناك، في (هياليه)، من حيث هرب الكثيرون، بينما وجد آخرون الكثيرون مكانهم في العالم، وحيث يصرّ الكثيرون على العيش فيها لاجئين، منكفئين على أنفسهم، في مشاعر كراهية وحنين تربطهم إلى الماضي، بينما يستمتع آخرون كثيرون فيها بحياتهم، هناك اكتشف ماركوس فضاءً له وفرجة يطلّ منها على المستقبل.

قبل أن يجلس للطعام، وضع الشابُ أسطوانته المفضّلة في السنوات الأخيرة، وفيها أغنيته المفضّلة، نشيده الوطني تقريباً: «happy دائماً».

بقيت نصف ساعة على بثّ حلقة المسلسل *من الأفضل الاتصال بسول*[12]. استلقت آديلا على كنبتها المفضّلة وفتحت رواية پول أوستر، بينما أتى ماركوس بحاسوبه المحمول ووضعه على قطعة من القماش السميك، كانت هي تصرّ على أن يضعها تحت الحاسوب لكي لا يخدش طاولة الطعام، التي اعتادت أن تنظفها وتضع عليها الزينة الوحيدة في البيت: مزهرية من تصميمها، فيها ورود سود مجففة وأعشاب بحريّة غامقة. شغّل الحاسوب وفتح صفحته على الفيس بوك. هناك طلبُ صداقة: كلارا چالپه. ابتسم الشاب، وقرّر ألّا يقطع على آديلا متعتها في مطالعة پول أوستر وعالمه في *بروكلين*[13]. وافق ماركوس على طلب الصداقة المرسل من أمّه ودخل إلى الصفحة الرئيسيّة. ظهرت على تلك الصفحة صورة لم يستطع ماركوس، حين نظر إليها، أن يمسك نفسه:

- رائع!... انظري هذا، آديلا، انظري هذا!

من أسبوعين، كان ماركوس قد بدأ إجراء يسمح له بالدخول، في تلك الليلة، إلى صفحة أمّه على الفيس بوك. وكما هو شأن كلّ ما يتصل بكوبا، فقد كان دون إتمام ذلك تعقيداتٌ وشروط. لم يكن الحاسوب من بين الأشياء التي باعها ماركوس حين أراد شراء تذكرة السفر إلى إيطاليا والخروج من المكسيك، فبالبريد الإلكتروني، كانت أمّه تراسل رمسيس، ابنها المقيم في تولوز، وإرفينغ، المقيم في مدريد، وهوراثيو، المقيم في سان خوان. فالمكالمات الهاتفيّة في كوبا هي من بين الأغلى في العالم، ثمّ

12- *Better Call Saul* مسلسل درامي تلفزيوني أمريكي بدأت قناة **AMC** بثه في شباط 2015.

13- إشارة إلى رواية بول أوستر «حماقات بروكلين» *Brooklyn Follies* (2005).

إنّ الإيميل يوفّر أيضاً إمكانية إرسال الصور، شرطَ أن تكون منخفضة الدقّة لتتناسب وحالة الإمساك المزمن الذي يعاني منها الملقّم الكوبي. مع ذلك، فقد كان ماركوس مهتمّاً بتوسيع قنوات الاتصال مع كلارا، ولذلك قرّر أن يفتح لأمّه صفحة على الفيس بوك، بينما تفتح هي من كوبا حساباً بريدياً - مدفوعاً بالدولارات التي يرسلها إليها ولداها (ماركوس دائماً تقريباً، ورمسيس، أحياناً) يسمح لها، إذا ما انتقلت بالحاسوب إلى ناحية من نواحي المدينة، حيث أقاموا «مناطق واي فاي»، بإجراء لقاءات وتبادل معلومات وصور وتعليقات بينهم الثلاثة ومع أشخاص آخرين مقرّبين. بل تستطيع، إن وجدت ذلك ضرورياً، أن تتصل بداريو، الذي ربّما أدّت رسائله، بعد أن ملأت السياسة رأسه، إلى أن تحول الرقابة الكوبية دون دخول كلارا على الشبكة.

أمّا ما عجّل في قرار ماركوس فهو مرضُ برناردو وحرصه على متابعة أخباره، ثمّ إنّهم فتحوا «منطقة واي فاي» في الحيّ الهافاني الذي يسكن فيه، حتّى بات في مقدور أمّه أن تكون أقربَ إلى أولادها وتنثر محبّتها وعواطفها على نصف سكان المعمورة.

منذ عدّة ليالٍ وماركوس يقلّب صفحته على الفيس بوك، على أمل أن تكون أمّه تعلّمت كيف تتعامل مع التكنولوجيا. إنّه يعلم أنّ كلارا جامعيّة، لكنّها، كحال جميع الكوبيين من جيلها، أمّيّة تكنولوجيّاً. لقد طلب منها مراراً وتكراراً أن تستعين ببرناردو، الذي لا شكّ أنّه قادر، رغم تعبه ومرضه، على مساعدتها في هذا الخصوص. وها هي المعجزة تتحقّق أخيراً... منذ الليلة السابقة، وكانت الوحيدة، منذ أيّام، التي لم يراجع فيها ماركوس بريده على الفيس بوك.

وضعت كلارا غلافاً لصفحتها صورة بيتهم في (فونتانار)، أمّا منشورها الأوّل فكان الصورة القديمة الجماعيّة التي كتبت إلى جانبها: «الأخويّة[14] قبل العاصفة. 21 كانون الثاني 1990». تذكّر ماركوس تلك الصورة، التي علّقوها، في وقت من الأوقات، على أحد جدران بيتهم في (فونتانار) إلى

14- مصطلح أطلقوه على أنفسهم مأخوذ من رواية *1984* لجورج أورويل.

أن رفعتها كلارا يوماً ما، بعد رحيل أبيهم من كوبا. في الصورة يظهرون جميعهم، شباباً تملأ البسمة وجوههم، وكان اليوم يوم أتمّت أمّهم عامها الثلاثين.

استندت آديلا إلى كتف ماركوس. كانت تبتسم:

– أهذا أنتَ ورمسيس؟

– طبعاً... رمسيس هنا عمره ثماني سنوات، وأنا ست... بلا أسنان. انظري هذا. ما أقبحني هنا!

– الواقفان خلفكما هما كلارا وداريو...

– نعم... انظري. من اليسار إلى اليمين، فابيو وليوبا، ماتا في حادث في بوينوس آيريس، وهما والدا فابيولا؛ إلى جنبهما إرفينغ وجويل، المثليان، اللذان تعرفينهما، وهما الآن في إسبانيا؛ ثمّ إليسا ومن كان زوجها، برناردو، وهو الآن، كما تعرفين، زوج أمّي؛ هذان الآخران هما أبي وأمّي؛ العم هوراثيو وخطيبته آنذاك، غيستي، كانت رائعة، وكنتُ مغرماً بها. بالمناسبة، أشاع أحدهم، بعد ذلك، بأنّ غيستي كانت جاسوسة. أمّا الأخيرة فهي «لا پينتا» [المصبوغة]، لا أذكر الآن ما كان اسمها، كانت ترافق والتر، الرسّام... كان بها بهاق، وكان السافل يقول إنّ ذلك يعجبه لأنّها تكون هكذا بلونين... الصورة التقطت يوم عيد ميلاد أمّي، في باحة بيتنا.

– قلتَ إنّ غيستي كانت جاسوسة؟... لمصلحة من؟ – سألت آديلا، بعد تردّد، وكانت تنظر إلى الشابة إليسا في الصورة: قصّة شعرها قصيرة وعيناها مغلقتان تقريباً في الصورة، تميل قليلاً نحو اليسار وتلبس رداء طويلاً يرتفع قليلاً عند مستوى بطنها.

– لا أقصد جاسوسة جاسوسة... كانت مخبرة، وكانت تراقبهم... لكن من المؤكد أنّ ذلك كان من تهيؤات أبي. المسكين، كان الجنونَ يمشي على قدمين... فالجنون في كوبا طبيعي... من التقط الصورة هنا هو والتر.

– صديق والديك الذي انتحر؟

– نعم. وجدوه ميتاً في اليوم التالي.

– في اليوم التالي؟... لم تقل لي ذلك...

- حسناً، لا أذكر إن كان في اليوم التالي، أقصد تقريباً... رمى بنفسه من بناية... لا يعرف أيضاً لماذا انتحر، لكنّ هوراثيو يقول إنّه لا يمكن أن يكون انتحر. أمّا أبي فيقول إنّه انتحر فعلا، لأنّ...

- ماركوس، متى نشرت أمّك هذه الصورة؟

- قبل يومين وانظري...

- انتظر، ماركوس، وهذه المرأة هي إليسا؟ - راحت آديلا، وهي في شغل عن تعليقات ماركوس، تشير إلى الشابة التي ارتفعت بطنها قليلاً. بدت بين الخامسة والعشرين والثلاثين، شعرها أسود أو كستنائي غامق وشفتاها رفيعتان. وبينما كانت آديلا تدقق النظر في الصورة، بدأت ترى أنّ هواجسها في يومها ذاك وآلامَها وإحباطاتِها وضيقها تكتسب اتجاهاً ومعنى؛ ها هي تفهم سبب مكالمة لوريتا، وإن بدأت تدور في رأسها حقيقة مريرة سالبة: لا. لا. مستحيل.

- قلتُ لك إنّها إليسا، التي كانت زوجة هذا، برناردو...

- وهل كانت حاملاً؟

- نعم... ثمّ حدث شيء غريب لها...

- ما اسم إليسا هذه؟ أقصد اسمها الكامل...

واصل ماركوس النظر إلى الصورة، فكّر قليلاً وردّ أخيراً:

- كورّيا! إليسا كورّيا - قال وهو مسرور لقدرته على التذكّر. جميع هؤلاء الموجودين في الصورة التي نشرتها أمّه لهم حضور دائم في طفولته ومراهقته، إلى أن بدأوا يتفرقون: غيّب بعضهم الموت، وهاجر آخرون من كوبا سالكين طرقاً شتّى، صوب نواحٍ مختلفة، ومن بينهم أبوه داريو وأخوه رمسيس. لم يبق منهم في كوبا غير أمّه، كلارا، وبرناردو، الذي يعيش معها منذ ما يقرب من عشرين سنة، والذي كان، حين وقت الصورة، زوج إليسا هذه، التي ربّما طارت في الهواء، علّق ماركوس.

- كيف طارت؟ ما الذي جرى لها؟ - سألت آديلا، وقد اختلطت عليها الأمور، على الرغم من أنّ قناعتها راحت تزداد رسوخاً.

- ألم أقل لكِ إنّ شيئاً غريباً وقع لها؟ اختفت ذات يوم، ولم يعرف عنها

شيء... لا أحد يدري إن كانت ماتت أم اختفت... كان أبي هو من اخترع موضوع أنّها طارت في الهواء... - ابتعدت آديلا عن ماركوس لكنّها بقيت صامتة. ثمّ سألت.

- هل اختفت إليسا بعد التقاط الصورة مباشرة؟ أي بداية عام 1990؟

- نعم، كلّ شيء كان غريباً... هناك أمور لا أعرفها جيداً. لم تكن أمّي تحب أن تتكلّم كثيراً عن الموضوع، فقد كان ذلك يثير شجونها. العم هوراثيو هو من حكى لي بعض الأشياء، لكنّ ذلك حدث من سنوات كثيرة. أمّا إرفينغ، فيبدو أنّه أعرف الجميع بما حدث، لأنّ الجميع حكوا له ما يعلمون، فهو مثلي، وأنتِ تعلمين كيف هم هؤلاء... المسكين إرفينغ، كنتُ أحبّه، إنّه شخص لطيف. لا أدري إن كانت إليسا اختفت قبل أن يلقوا بإرفينغ في الحبس أم بعد ذلك... يبدو أن تلك الحادثة كانت شديدة الوقع... وأنا أنظر الآن إلى إليسا يبدو لي أنّها تشبه أحداً...

استدار ماركوس، فرأى آديلا، وقد امتلأت عيناها بدموع راحت تنساب على خدّيها:

- ماذا أصابك، حبيبتي؟ الموضوع لا يستأهل كلّ هذا... فقد مرّ عليه...

- ستة وعشرون عاماً. وهي أعوام عمري... القصّة هي... انظر جيداً، انظر... لا. إليسا لا تشبه أحداً... إليسا كورّيا هي أمّي!... وإذا كان تاريخ الصورة هو كانون الثاني 1990، وكنتُ أنا ابنة إليسا هذه هي نفسها لوريتا... يا إلهي، ماركوس، فإنّ من كان في بطنها... في تلك البطن، هي أنا!

بعد ساعتين، حين انتهت من عصر ذاكرة ماركوس، وانصرفت إلى سريرها، كانت آديلا تشعر أنّها لا تسير على الأرض. ما كانت تتذكّر من حياتها غير لحظة، كانت فيها شاردة أقصى ما يكون الشرود: 11 أيلول 2001، في شقتها في (ويست هارلم). في ذلك اليوم تغيّر مفهومها عن الحياة. لكنّ تلك الحادثة المفجعة غيّرت مسار حياة الكثيرين، بل غيّرت نظام العالم، مع ذلك، لم يكن ما حدث في 11 أيلول 2001 بالنسبة إلى آديلا أسوأ من زلزال الحقائق والأسئلة التي كانت تشعر به في تلك اللحظة، لأنّ الهجوم، هذه المرة، لا يأتي من الخارج، بل من أعمق أعماقها. ولأنّها الآن تعرف أنّ العدوان يمكن أن يكون مستقبلاً أشدّ وأمرّ. لم تتذكّر آديلا أنّ حلقة تلك الليلة من مسلسل *من الأفضل الاتصال بسول* قد فاتتها، إلا حين تمكن منها التعب واستسلمت للنوم.

2

عيد ميلاد

استقرّ كلّ عنصر في مكانه، فكأنّ يدَ فنّان مسّت التشكيلة لتثبّتها في لوحة أو في صورة: في الوسط، جلست امرأة متدثرة على أريكة مكسوّة بقماش أخضر زمردي، تثني ساقيها وتلفّ ذراعيها عليها لتسندهما على صدرها وتركّز ذقنها على إحدى ركبتيها. شلّال شعرها الكستنائي الغامق يغطّي نصفَ وجهها، الذي بدا، مع الإنارة والمسافة، أشدّ سمرة. حزمة أضواء الشرفة تحدّد خطوط جسمها بظلالٍ غائرة من تلك التي تظهر عادة في أعمال كارافاجيو.[15]

كانت كلارا تستطيع أن ترى، وهي في المطبخ، عبر الممرّ الواسع المؤدي إلى الشرفة المسقّفة والحديقة الخلفيّة، صورة إليسا، مؤطرة بقائمة الباب وأعمدة الحديد التي تسند سقف الشرفة وتزيد من الإحساس بأنّ الصورة ثابتة مبنيّة. فكأن المرأة، بوضعيّة الجنين تلك، تحاول أن تحتمي من ندى الفجر، إذ تبدو بالغة الضعف، بالغة الهشاشة. تلك الوضعيّة كانت تسمح لكلارا، في الوقت نفسه، بأن ترى باطن فخذيها الشاحبين وإلى الأسفل منهما، طرف سروالها الداخلي الغامق الملتصق بالدهليز العميق الواصل بين الشرج والمهبل. بدا واضحاً على كلارا، الذاهلة عن الوقت، المبتلاة بالرغبة، المكبوتة على الدوام، أنّها في فناء مسرح أعدّ لكي تجثو بلطفٍ، ما إن تتلقّى الأمر بذلك، أمام المرأة، فتأخذ بذراعيها وتداعب يديها ثمّ تدفع ساقيها المثنيتين لكي تحشر وجهها في أعمق أعماق المركز الحميم وتعبّ من قاعه حتّى الثمالة.

15- **Caravaggio** (1571–1610). رسّام إيطالي.

تلك الصورة، اللذيذة الفاحشة، وتلك الرغبات الخاطئة اللوامة، التي نبّهت عقلها، تحفزها رطوبة سرعان ما غمرت مهبلها، ويحرّكها شعور قويّ بالضياع والحيرة، ستظلّ في ذاكرة كلارا إشارة إلى أناها الأصدق وهويتها الأحق، فما هي إلّا ثمرة سنوات من كبت شارك فيه حتّى لاوعيُها، كبتٌ سيظلّ حقيقة جامحة منفلتة، لن تستطيع التخلّص منها طوال حياتها، حتّى لو استبعدتها، أو ظنّت أنّها تجاوزتها وباتت غريبة عليها.

أبطل صفيرُ ماكنة القهوة الإيطاليّة السحرَ وأغلقت كلارا مفتاح الغاز. مررتْ يدها مرّاتٍ على وجهها، وهي لا تعي تماماً ما كانت تفعل، فكأنّها تحاول أن تمحو من عليه آثار شهوة محتملة راح ترددُها يزداد ويزداد، شهوة لا تحتال للظهور إلا في لحظات معيّنة من لقائها مع جانب مغمور منها، مدفوعة بجذب ينبع من إليسا، فقط من إليسا. شهوة تحتال للخروج من ظلمات كيانها.

- يا إلهي. لماذا يقع لي هذا؟ - تمتمت، وهي تُرجع تفاهات عقلها وترهات فكرها إلى تعبٍ بدني أصابها وكحولٍ أفرطت في تناوله. وضعت، وهي شاردة، ملعقتين من السكّر الأسمر في إبريق الخزف لتحلّي القهوة التي لم تلبث أن صبّتها في قدحين من البلاستك. في طريقها نحو الباحة، انتبهت، وهي تحمل الصينيّة، إلى أنّها نسيت شيئاً ما، شيئاً لم تفلح في تذكره، فعادت إلى المطبخ محاولة تذكره. لم تتذكره إلّا حين رأته. بطانية صغيرة. فحملتها على ساعدها.

ظلّت إليسا على وضعيّتها، لكنّ كلارا حاولت أن تبقي نظرها على مستوى الوجه وتبعد من رأسها فيضَ ضعفها. حنت جسمها لتقرّب من صديقتها، والصينيّة في يدها، ذراعَها التي تدلّت منها بطانية زرقاء غامقة تدلّ حواشيها الحمر إلى أنّها من ممتلكات شركة الخطوط الجويّة الكوبيّة. ابتسمت إليسا لها، ووضعت القماش المخمليّ على كتفها. رتّبت بيدها اليمنى حواشي العنق، وسترت باليسرى ساقيها وأحكمت الغلق على فخذيها.

- تجمّدتُ من البرد. أكاد لا أتعرّف على نفسي، أنا في أسوأ حال - قالت إليسا، وهي ترتّب جلستها على الكنبة.

– تعلمين أنّ الطقس في (فونتانار) يبرد وقت الفجر، وأنّ القطرة التي تسقط في هاڤانا تسقط هنا أيضاً –قالت كلارا، التي كانت تريد أن تقول أيّ شيء، والتي ما زالت تخشى أن يتكسّر صوتها. وعاودت الانحناء لكي تقدّم لإليسا قدح القهوة، الذي كان له لون البطانية الأزرق ذاته–. عليك أن تنامي، لا أن تشربي قهوة... لكي لا تصابي بالبرد.

كان الفجر الأوّل من عام 1990 أشدّ برودة من المألوف، خلافاً لمساء 31 كانون الأوّل وليله، اللطيفين الدافئين. ولم يكن المدعوون إلى عشاء نهاية العام، الذي احتفلوا به أيضاً في فناء بيت كلارا وداريّو، استعدّوا لذلك الانخفاض المفاجئ في درجات الحرارة.

رفعت إليسا كتفيها من البطانية وعاينت القدح البلاستيكي.

– من أين تأتين بهذه الحاجات، كلارا؟ البطانيات، المناديل، أواني الحلويات...! وهذه الأقداح الفظيعة! هل هي مسروقة؟

– من الجيران... –ابتسمت كلارا–. بينهم من يعمل في المطار، وفي المطار يسرقون حتّى بنزين الطائرات.

– البنزين؟

– كلّ شيء... أمّا طيارو الخطوط الجوية الكوبية ومضيفاتها فيجلبون كلّ ما يستطيعون حين يسافرون إلى الخارج، ثمّ يبيعونه. –رشفت كلارا من قهوتها–. هل تريدين شراء فيديو أو مروحة هوائيّة؟ هذه الأقداح أعجوبة من الأعاجيب: إنّها روسيّة، ولن تتمكني من كسرها إلّا إذا انهلتِ عليها ضرباً بالمطرقة.

ابتسمت المرأتان وشعرت كلارا بأنّها عادت إلى حالتها الطبيعيّة. كانت الساعة قريبة من الثالثة فجراً، ولم يبق في الفناء غيرهما. أمّا داريّو، زوج كلارا، فقد جرجر نفسه إلى غرفته، بعد أن أعلن عن وفاته حيّاً، وبعد أن استطاع أن يقنع الصغيرين، رمسيس وماركوس، اللذين استمتعا أيّما استمتاع بالأجواء الاحتفاليّة، بالذهاب إلى السرير، فذهبا حتّى من دون أن يفرّشا أسنانهما. ومات برناردو، زوج إليسا. أيضاً. مات من دون تصريح: انطرح، وفي يده كأسه المليون من الرون، على كنبة من كنبات الصالون ليصحو في

اليوم التالي أو بعد يومين. أمّا بقيّة أعضاء الأخويّة فقد بدأوا ينصرفون بعد الانتهاء من شرب الأنخاب وتبادل القبلات والتهاني بانتصاف الليلة التي بها تبدأ سنة جديدة، بدا أنّها، بغض النظر عن اختلاف المنظور، ستكون مشؤومة، دراماتيكيّة. فعلاً، فسرعان ما ستبدأ بهدّ كلّ ما بدا راسخاً، وسرعان ما ستشهد تحقق أسوأ التنبؤات.

كان أوّل المنصرفين الخلاسي هوراثيو وآخر خطيباته، الشقراء غيستي، وهي أصغر من الأخريات بعدة سنوات، ولديها من التضاريس ما لدى صاحباته السابقات. لحقهما إرفينغ وجويل، اللذان انصرفا مرغمين، إذ كان عليهما أن يمضيا بعض الوقت مع والدة إرفينغ، التي طالما شكت من وحدتها. وبعد الواحدة بقليل، انصرف والتر، وقد تمكّن منه السكر، وزوجته الأخيرة، مارغاريتا (كانوا يلقبونها بالـ«لا پينتا» [المصبوغة] بسبب بقع البهاق الذي تعاني منه)، التي طالما أفسدت الحفلات، والتي طالما شعرت بالنعاس أو بالصداع، وطالما رغبت في الانصراف قبل أن ينتقل والتر من نشوة المخمور إلى عربدة السكّير.

أمّا آخر المنصرفين فكان فابيو وليوبا، اللذين خرجا وهما يحملان ابنتهما فابيولا النائمة. انصرفا بتفاؤلهما وإيمانهما بالمستقبل، ليبدآ السنة، فرحين بسيارة الموسكوفج التي خصصتها الوزارة، قبل أشهر، لليوبا. سيارة قبيحة غيرُ مريحة وثقيلة، لكنّها جديدة، وقد تكون جاءت ضمن آخر إرسالية تضامنيّة من بلاد السوفييت المضطربة إلى شقيقته الصغرى، الجزيرة الاشتراكيّة. انتهزت كلارا توديع الشريكين، فدخلت إلى المطبخ لتعدّ ماكنة القهوة وتبحث في إحدى الخزانات عن البطانية التي طلبتها الصديقة، وتنعم، من حيث لا تحتسب، بالنظر إلى مفاتن إليسا الحميمة التي تبعث فيها الاضطراب وتفقدها التوازن.

– يمكنك أن تنامي حين تشائين – قالت كلارا، وهي راغبة في أن تختلي بنفسها.

– أنتِ تريدين؟ – سألت إليسا.

– أنا ميتة من التعب، لكنّي لست نعسانة.

- ولا أنا. وحين أنعس، أستلقي على الفراش، لكنّي لا أنام.

لطالما رأت كلارا في الأسابيع الثلاثة التي تفصل بين انتهاء السنة وحلول عيد ميلادها في الحادي والعشرين من كانون الثاني، وقتاً ثقيلاً. فمنذ أن بدأت، هي وعددٌ من الأصدقاء المقربين، الدراسة في الجامعة، وقررت أن تعود إلى السكن في (فونتانا)، تحوّل بيتها إلى ضربٍ من الملاذ الجماعي، وإلى مكان لتوديع السنة والاحتفال بعيد ميلادها أو بأيّة مناسبة تخطر على بالهم.

في بيت الأحلام ذاك، المحاط بالفضاءات، والقائم في حيّ من أحياء الضواحي التي ما زالت هادئة، كان في مقدور الأخويّة أن تجتمع، وأن ينعم الجميع بالحريّة: يتكلّمون عمّا لا يستطيعون الكلام عنه في أماكن أخرى، ويستريحون في ركن من أركانه، للمطالعة أو للاستمتاع بالوحدة المطلقة أو الصحبة الجميلة، بل للاختفاء، أحياناً، ساعة من الزمن، في واحدة من غرف الطابق العلوي الأربع لإطلاق العنان لرغبات قديمة أو لأخرى جديدة وليدة.

لكنّ كلارا، بحسها العالي بالمسؤوليّة وميلها الشديد إلى السوداويّة ونفورها من البيت، كانت تشعر بالعجز عن الاستمتاع بتلك المجالس قدر استمتاع أصدقائها بها. مع ذلك، فقد بات معلوماً لها، ومنذ وقت طويل، أنّ أكثر من كان يستمتع بأجواء البيت وبما يوفره من إمكانيات هو زوجها، داريّو، الذي جلب إلى بيت (فونتانا)، وهما بعدُ خطيبان، آلته الكاتبة القديمة، وكلّه تصميم على الإقامة فيه حتّى الموت. فقد كان الانتقال للسكن في بيت كبير، فيه حمامٌ خاص وغرفة نوم مستقلّة، وغرفة مطالعة، وحتّى شرفة وحديقة، خيرَ هدية يمكن أن يتلقاها طوال حياته، وهو الذي ولد في بيت من بيوت الفقراء، يقع في شارع (پيرسيبيرانثيا)، كان مقدراً له أن يمضي فيه حياته كلّها.

تناولت كلارا، مدفوعة بمذاق قهوتها المعتادة قبل الذهاب إلى النوم، علبة السجائر وأشعلت واحدة منها. خطرت ببالها فكرة أن تبدأ سنتها الجديدة بالإقلاع عن التدخين، لكنّ مذاق القهوة طالبها بمكمّله من النيكوتين.

- هاتِ سيجارة - طلبت منها إليسا، وأخرجت إحدى يديها من تحت البطانيّة.

ناولتها كلارا السيجارة.

– أما كنتِ تريدين ترك التدخين؟

– سأتركه – أكّدت إليسا وهي تشعل لها السيجارة.

– كم أسبوعاً قلت لي إنّكِ حامل؟

– خمسة عشر أسبوعاً... أظن. ثلاثة أشهر ونصفاً تقريباً. ارتفعت بطني، وكبر ثدياي، أبدو بقرة... أصبحت مخيفة.

– لا تقولي هذا، أنتِ رائعة... اسمعي: بقي على عيد ميلادي ثلاثة أسابيع. سأتمّ ثلاثين سنة من حياتي. وأنتِ ستتمين أربعة أشهر من حملك... فلماذا لا نترك التدخين في ذلك اليوم نفسه؟

– هل ستقدرين؟

– أظنّ أنّي سأقدر. أنا أقوى ممّا تظنين...

– فاسمعي، إذن. أنا سأترك التدخين الآن –قالت إليسا، وجرّت نفساً عميقاً من السيجارة التي أشعلتها للتو، ثم غمستها في قدح البلاستك مع ما بقي فيه من القهوة–. خلاص... ولكن عليكِ أن تفي أنت بوعدك أيضاً. أوكي؟

ابتسمت كلارا. إنّها تعلم أنّ إليسا هي من اللواتي ينفذنَ ما اعتزمن تنفيذه، ولطالما غبطتها على ذلك، وإن كانت، في الواقع، تغبطها على كثير من الأشياء، بل كانت تخشى بعضاً من ردود فعلها، على الرغم من أنّها تعدّها أقرب صديقاتها إلى نفسها.

تعرفت المرأتان بعضهما على بعض قبل خمسة عشر عاماً، حين عادت إليسا من لندن، بعد إقامة دامت سنوات. التقتا في إعدادية (البيدادو)، كانت كلارا قد سجلت فيها، وما كان لها فيها غير صديقات قليلات. ومع أنّ إليسا لم تكن تتباهى كثيراً بمميزاتها وبمسيرة حياتها، فقد صرحت ذات مرّة بأنّها أمضت ست سنوات في لندن مع والديها الدبلوماسيين (أكدت أنّها حضرت حفلة لرولنغ ستونز، وزارت منزل شارلك هولمز، ورأت عرضاً لأوبرا *يسوع المسيح سوبر ستار*[16]). كانت ذكيّة، لا تكفّ عن الحركة، وفاتنة، تفيض ثقة وتمرّداً. في ذلك الوقت، انعقدت الصداقة بينهما، وفوجئت كلارا، الخجولة

16– *Jesus Chist Superstar* أوپيرا روك قدمت في لندن عام 1971.

المنطوية، بذلك الجديد الذي جدّ، فغمرها الفرح. منذ تلك اللحظة باتت كلارا وإليسا صديقتين لا تفترقان، وأصبحتا نواة مجموعة من الأصدقاء، انضمّ إليها إرفينغ (رفيق طفولة ومثلي منذ الولادة، أتت به إليسا)، وسرعان ما انضمّت إليهم ليوبا، وهي أيضاً من صديقات إليسا القديمات، ثمّ انضمّ بعدها حبيبها الجديد، فابيو.

– موضوع الحمل هذا يثير أعصابي –اعترفت إليسا–. أشعر أنّه يغيّرني، أصبحتُ مختلفة...

– لأنّك مختلفة، ولأنّ الواحدة منّا غير مستعدة لمثل هذه الحالات. انظري إليّ: خرجتُ سليمة ولديّ صبيّان لا يكفّان عن حرق أعصابي طول اليوم. وخصوصاً ماركوس.

– رمسيس طيب، لكنّ ماركوس له خصوصيّة. يكفي أن تنظري إليه لتكتشفي ذلك.

– صحيح، ماركوس مختلف... –أقرّت كلارا، وأومض بريق الحبّ في عينيها–. لا أحبّ أن أقول ذلك، لكنّي أشعر بأنّ رمسيس هو ابن داريّو، بينما ماركوس هو ابني...

– أنا خائفة، كلارا... فلن تعرف الواحدة منّا ما الذي تحمله قبل أن يولد –قالت إليسا وهو تشير إلى بطنها، التي علت وارتفعت–. كيف سيكون طبعه؟ سيشبه من؟

– لا تشغلي بالك. لماذا تفكرين في ذلك؟ أنت دائماً أكثرنا إيجابيّة.

– أنا أفكّر في أشياء كثيرة.

– إليسا، إن لم تكوني مستعدة، فلماذا أبقيتِ على الحمل؟... طيب، أنا أيضاً لم أكن مستعدة حين حملت... ما عليك الآن هو أن تتقبلي وضعك وأن تفعلي ما قلته لك: حافظي على إيجابيتك.

– أنتِ تعرفين لماذا احتفظتُ بالحمل...

– نعم، لكنّهم أخطأوا. فلا أنتِ تعانين من ضمور في داخلك، ولا برناردو عقيم... تلك كانت هدية من الربّ.

– أنا لا أؤمن بإله ولا بربّ، وأنت تعرفين ذلك. أنا طبيبة بيطريّة، أؤمن

بالبايولوجيّة... بنزواتها أو جنونها. وأنتِ، أيّتها الرفيقة، أما عدتِ ماركسيّة - لينينيّة؟

- آي، إليسا... ما أعرفه هو أنّ البيولوجية تقول لي إنّ حيواناً منوياً من عشرة، في المتر المربع الواحد من برناردو، وصل إلى هدفه و... هل كان الحيوان المنوي من برناردو، إليسا؟ - خفضت كلارا صوتها وانحنت نحو صديقتها.

- هو هدية من الربّ، أنتِ نفسك قلتِ ذلك، كلارا. معجزة. فالربّ كبير، وهو على كلّ شيء قدير.

في السنوات العشرين الأولى من حياتها، كرهت كلارا چاپله دونياته بيتها، وفي العشر الأخيرة، تقبلته على أنّه خيرٌ لا بدّ منه. لكنّ البيت ظلّ يطاردها، حتى بدأت علاقتها به تتغيّر، حين راحت الصورة التي تصوّرت أن حياتها ستكون عليها، تتزعزع وتنهار. عندها، تحوّل البيت، المناسب المنظّم، إلى مكمّل ماديّ ووجودي، بل إلى خير ملجأ لها، وحينها أدركت كم ظلمته، وكم صارت تحبّه: إنّه الحلزون الذي يزحف، كالبركة أو كاللعنة، كما قالت لابنها ماركوس، بعد سنوات طويلة.

كانت كراهية كلارا المديدة ونفورها الطويل قد تغذّيا على جرعاتٍ قويّة من جغرافيا حضريّة، وعجزٍ عن تقويم احتياجاتها الحيويّة، وإحساسٍ مرهق بالضعف. لكنّ مشاعرها، في الواقع، ما كانت توافق طبعها وطبيعتها، مثلها مثل ردة فعل الجسم على أيّ التهاب. وستكتشف ذلك الطبعَ فيها، وستألم له، حين النضوج: حاجتها أو رغبتها أو طموحها إلى أن تكون شخصاً هامشيّاً، عضواً في قطيع تجد فيه تكملتها، بل أمنها وحمايتها. لكنّ تلك الصفة، التي أظهرتها على الدوام منزوية منكمشة، لم تصلها إلّا مع الوقت، حين وجدت نفسها مهددة بأقسى حالات الوحدة، وهو ما حاولت العمر كلّه أن تهرب منه. نوع من اليتم تصارعه على شفا وجودها، بعيداً عن أغلب أصدقائها، بعد أن رأت أولادها يرحلون، وإن حظيت بصحبة الرجل الذي لم تتوقع يوماً أن تصاحبه، الرجل الأنسب، الذي وجدت فيه أصدق حبّ. حبّ متأخر، لكنّه مناسبٌ وفي محلّه.

خلال طفولتها ومراهقتها، حوّل سكنُها في (فونتانا)، وهو حي نصفُ مأهول وبعيدٌ عن مركز المدينة (كانت كلارا تعدّ ذلك حتميّة جغرافيّة)، البيتَ إلى قفصٍ من ذهب. لكنّها، ومع الوقت، صارت ترى في ذلك البيت،

المشيّد في ضاحية تفخر بحداثتها، وفق تصميمٍ أثار إعجاب كلّ من زاره، امتيازاً لا ترغب فيه، وصارت ترى في كلّ مديحٍ يكيله صديق من أولئك الذين راحت تكسبهم تجاوزاً وعدواناً. لذلك ابتعدت عن البيت، قدر استطاعتها، أثناء سنوات دراستها الثانويّة. وحين دخلت الجامعة، حاولت أن تجعل من عنوان جدتها لأمّها، في (البيدادو)، عنواناً لها، لكي تحصل على غرفة في الإقامة الجامعيّة، القريبة من (فونتانار). ما كان يهمّها، آنذاك، هو أن تبتعد عن بيتها. لكنّ إحدى زميلاتها أبلغت عن عنوانها الحقيقي، فأخفق مسعاها في السكن في الإقامة الجامعيّة، وعندها، بدأت تبحث عن علاج لوحدتها، وقد وجدته في داريّو، ففتحت له باب بيتها.

يعود البناء إلى عام 1957. وهو من تصميم صاحبيه، المهندسين بيثنته چاپله وروساليّا دونياته. بل إنّ البيت الذي حلم به والداها، وشيداه في حيّ حديث، صمّم ليكون حيّاً لإقامة رجال أعمال ناجحين وفنانين مشهورين وتجار أثرياء، كان صرخة تحدّ معماري. فهو بناءٌ سداسي الأضلاع، لطابقه الأرضي ثلاثة مداخل أو مخارج (حسب اتجاه المرور): مدخل/ مخرج لما خططا له أن يكون الصالون –غرفة الاستقبال، تشكّل حدودَه أعمدة وألواح من الزجاج، ترسم فضاءً كبيراً ومريحاً من المزججات الملوّنة، وهو من صنع رسام صديق للمهندسين. المدخل/ المخرج الآخر، للمطبخ– غرفة الطعام، يتصل بشرفة فيها فرن من الآجر المقاوم للنار، ويمتد نحو الحديقة الأماميّة، التي يكسوها عشب إنكليزي. المدخل/ المخرج الثالث يمرّ عبر الصالون على شكل مثلّث مقطوع الرأس، له جدران من الآجر الأحمر، المكشوف والمدرّج والمحفور، ليكوّن فراغاتٍ ورفوفاً مختلفة الأحجام والأعماق، مناسبة لوضع الكتب والأسطوانات ولفافات الخرائط واللوحات. في وسط هذا الحيّز، وضعت منضدتا الرسم الصناعي، اللتان كان بيثنته وروساليّا يستخدمانها في عملهما، على شكل هرم مبتور، وظلّتا في ذلك المكان، متقابلتين، لسنوات. لكلّ واحدة من غرف الطابق الثاني تصميم مختلف. أمّا غرفة مالكي الدار ومصممَيْها فقد كانت على شكل مكعّب زجاجي يطلّ على الحديقتين الأماميّة والخلفيّة.

أمّا غرابة البناء فتعود، برأي بيثنته وروساليا، إلى طابقه الأرضي، الذي

استخدم فيه الزجاج والفولاذ والخشب استخداماً وظيفيّاً وجماليّاً، والذي ساهم في تصميمه العديدُ من أصدقائهما الفنّانين، وجميعهم تقريباً من أعضاء مجموعة الأحد عشر المجددة[17]. أمّا سرّ الجاذبيّة فيه، يقولان جادّين، فيكمن في الأشياء المدفونة في أساس البيت: حدوة جالبة للحظ؛ مجسّم طينيّ للإله أوراكان، من صنع هنود التاينو؛ سنّان لبنيتان من أسنان روساليّا؛ بقايا سرّة بيثنته مطحونة؛ مفتاح حديدي أقسم المهندسان أنّه مفتاح الأصفاد التي قيّدوا بها خوسيه مارتي أثناء حبسه في مقالع الحجر في (سان لورينثو)؛ قطعة من حجر برّاق مجلوب من مناجم النحاس القريبة من تمثال عذراء المحبّة، فوجئ المهندسون والمصممون والبنّاؤون، وحتى صديق جيولوجي، بقدراته المغناطيسيّة العجيبة.

حين ولدت كلارا، كان والداها من أنشط مهندسي كوبا الشباب، وكانا مرشحين لأن يغتنيا ويشتهرا، ولهما صلة بأعضاء أكثر التيارات الفنيّة والثقافيّة تجديداً في كوبا، حتّى في أوقات التشتت التي سببه عنفُ دكتاتوريّة مجنونة محكوم عليها بالفناء. بعد انتصار الثورة عام 1959، حين بدأ بعضُ الأصدقاء يعودون من المنفى، بينما بدأ آخرون، مع أول ملامح العهد الجديد، بالرحيل، قرر الزوجان المهندسان، مثلهما مثل كثيرين آخرين، الانضمام إلى العاملين من أجل تغيير اجتماعي، ومن أجل بناء بلد جديد. لقد أنستهما رومانسيتهما وإيمانهما بدولة فتيّة الكثيرَ من توجهاتهما الطليعيّة البرجوازيّة، بعد أن وضعا نبوغهما في خدمة المشاريع الوظيفيّة، التي لها مردود جماعيّ، والموجهة إلى تلبية احتياجات الشعب.

وبرز اسما بيثنته وزوجته، وتولّيا مسؤوليات رفيعة في العديد من المعاهد والوزارات والإدارات الوطنيّة، لذلك لم يجد المهندسان الوقت لتنفيذ تصاميم جديدة (بعض البنايات شرق الخليج، مخازن كبرى بنيت في أماكن عدة من المدينة)، على الرغم من أنّهما ساحا في أرجاء الجزيرة وهي في عنفوان ثورتها لينقلا تجربتهما، وسافرا إلى البلدان الاشتراكيّة ليكتسبا

17- مجموعة من الفنانين التشكيليين الكوبيين، مؤلفة من سبعة رسامين وأربعة نحاتين. نشطت بين عامي 1953 و1955 وغلب على أعمال أعضائها الاتجاه التجريدي.

المزيد من الخبرة. وفي تلك الأثناء راحا يعلّقان على جدران مكتبهما صوراً يظهران فيها مع ماو تسي تونغ (غيّراها، في الوقت المناسب، بأخرى يظهران فيها مع هوشي منه)، وجان پول سارتر (غيّراها أيضاً، في وقت من الأوقات، بأخرى يظهران فيها وهما يحادثان سلفادور أيّندي) أو مع يوري غاغارين المبتسم (بعد أن كانت الصورة توثّق لقاءهما مع نيكيتا خروشوف). أمّا منضدتا الرسم الصناعي، فقد نقلتا، حين اشتدّ اندفاعهما في طريق العمل الاجتماعي، إلى الكراج. أمّا رعاية ابنتهما كلارا وتربيتها، فقد انتقلت، إزاء سيل مسؤولياتهما المهنيّة والسياسيّة، إلى جدّيها لأمّها، وهكذا صارت البنتُ تحيا متنقلة بين بيت جدّيها في (البيدادو) وبيت والديها في (فونتانار).

في عام 1971، وبعد أن أمضيا عدة أشهر في حقول القصب، للمشاركة في حملة العشرة ملايين طن الشهيرة[18]، جهّز المهندسان أيديهما، التي اخشوشنت من مناجل الحصاد، لتصميم أوّل مشروع يُكلفان به من سنوات، والأخير في حياتهما: مجمعات سكنية عائليّة تلبي جملة من الشروط الصارمة: إذ يجب أن تكون متواضعة وعمليّة واقتصاديّة. أمّا تصاميمها فيجب أن تعبّر أدقّ تعبير عن الحلول البشريّة، وتصوّر أصدق تصوير الجماليّة الاشتراكيّة. يجب أن تترجم حاجة بلدٍ يكافح من أجل الخروج من التخلّف، بلدٍ مصمم على تبنّي الشيوعيّة باعتبارها الحالة المثلى والمحطة الأخيرة في تطوّر البشريّة، حيث يكون لجميع المواطنين مسكنٌ لائق، كما وعدوا به وبشّروا. عند منضدتي الرسم الصناعي، استطاع بيثنته وروساليّو، مستلهمين (جاءهما الإلهام في صورة وحي نزل عليهما من أعلى سماوات القرار) رسوماً لبناياتٍ شاهداها في موسكو، يمكن أن تكيّف لتلائم أجواء المدار. وانكبّ المهندسان على العمل طوال شهرين، وحين سلّما المخططات والمجسمات، تلقيا التهاني لبراعتهما في ترجمة أفكار أصحاب المشروع. وهكذا أقيمت تلك المجمعات السكنية. أقيمت في ناحية (فونتانار) ذاتها، لتخفف، بمظهرها البروليتاري، من أجواء الضاحية

18- *Zafra de los diez millones* كان الهدف منها زيادة صادرات كوبا من السكر لتحسين وضعها الاقتصادي. وقد جنّد لها الكثيرون وشارك فيها الجيش أيضاً. مع ذلك، لم تفلح الحملة إلّا في إنتاج 8 ملايين طن من السكّر.

البرجوازيّة، ولتكوّن نقيضاً لبيتهما الفخم في بنائه... البرجوازي في مظهره. وزاد الطين بلّة أنّ المشرفين على البناء أهملوا، توفيراً للوقت والنفقات، بعض التفاصيل، ونفّذوا المشروع بالمواد البسيطة المتوفرة، وكانت النتيجة بناياتٍ مربعة الشكل كئيبة، تكشف، من فرط العجلة، عن درجات متباينة القياسات وسقوف سرعان ما تسربت منها مياه الأمطار التي كثيراً ما تهطل على (فونتانار).

عمل بيثنته وروساليّا بنشاط، وكثر الكلام عن احتمال توليهما مسؤوليات سياسية خطيرة ومناصب إداريّة رفيعة. لكنّ حادثة وقعت ذات يومٍ من شهر أيلول من عام 1974، وضعت حدّا لمسيرتهما. فبينما كانا ينحدران بسيارتهما من جبال (إسكامبراي)، حيث خُطط لإقامة مزرعة تجريبيّة للفراولة والعنب، غفا بيثنته على مقود سيارته الجديدة الـ (فورد فالكون). لا يُعرف عمّ كان المهندسان يتحادثان في لحظاتهما الأخيرة. ربّما عن سعادتهما ورضاهما في عملهما لبناء عالم أفضل، عالم لن تلبث البشريّة، بحسب قوانين التطوّر التاريخي والديالكتيكي الدقيقة الصارمة، أن تنعم به. لكن موتهما منح كلارا، بأعوامها الخمسة عشر، سبباً إضافياً لكي تشعر بالكراهية لبيتها، الذي ظلّ، من حين لآخر، مغلقاً.

صحيح أنّ جدّيها شغلا حيّزاً عاطفياً مهمّاً لم يستطع والدها شغله في حياتهما، ولن يستطيعا شغله وقد ماتا، لكنّ كلارا طالما بحثت، بين أصدقائها وزملائها، ومنذ طفولتها، عمّا يدمجها بهم ويشعرها بدعمهم وحمايتهم لقهر خجلها. لذلك، فحين قررت ترك (فونتانا) والسكنَ في بيت جدّيها والبدء بدراستها الثانويّة في (البيدادو)، بعيداً عن بيتها، قدرِها الجغرافي، وعن الشعور بالفقد والخذلان، بحثت بين شبابٍ لم تكن حتّى تلك اللحظة تعرف شيئاً عنهم، عمّن يمكن أن يكون أنسبهم ليأخذ بيدها إلى العالم الجديد الذي يجب عليها أن تندمج فيه. ستدرك كلارا لاحقاً أنّ كلّ شيء كان مقدّراً ومُعدّاً لنشوء صداقتها مع إليسا، الفتاة الاجتماعية الجميلة، التي وجدت فيها خير حلّ لمشكلتها. إليسا، تلك الفتاة التي تعرف معاني كلمات جميع الأغاني الإنكليزيّة. علاقة ستأسف كلارا، في ما بعد، على أنّها لم تجتذب الطرف الآخر كاملة، ولم تبلغ قطّ حدّ الاكتمال.

مرق إرفينغ من أمام كلارا وهو يصيح ويحرّك يديه كمن احترقت يداه:

- ماكبيّا، ماكبيّا، هيّا... هيّا، وإلّا شخختُ على حاليا[19] - ودخل في حمّام الطابق الأسفل.

بعد ثلاث دقائق خرج وقد بدت على وجهه علامات ارتياح ما بعد التفريغ.

- ما الذي كنتَ تقوله يا ولد؟ - سألته كلارا، وكانت انتقلت إلى المطبخ وانتهت من غلق ماكنة القهوة الإيطاليّة القديمة، التي كان والداها اشترياها في (سيارس) هاڤانا عام 1958.

ابتسم إرفينغ.

- ألا تذكرين ماكبيان، الفتى النحيف القبيح في الثانويّة؟ كان الجميع ينادونه ماكبيّا.

ابتسمت كلارا وهزّت رأسها موافقة، وهي تقرّب عود الثقاب المشتعل من فرن الغاز.

- حين كانوا يرسلون بنا إلى العمل في الحقل، وكان أحد الظرفاء يريد الذهاب للتبوّل، كان يصرخ هكذا... ماكبيّا، ماكبيّا، هيّا... هيّا، وإلّا شخختُ على حاليا!... وقد تذكّرتُ الآن ذلك الفصل... هل تعرفين كم انتظرتُ الباص الملعون؟ أكثر من ساعة، وحين جاء... أنتِ تعلمين كيف جاء: راح الناس يتسلقونه إلى السقف!... أمرٌ فظيع، صديقتي... فإلى أين نحن ذاهبون؟ إلى أين؟

- يقال إنّ الأمور ستسوء أكثر. الاتحاد السوفييتي يتفتت... من كان يتصوّر أنّ هذا سيحدث؟

19- عبارة تقال للدلالة على ضرورة التعجيل لدخول الحمام والتبوّل.

- أمّي توقعتُ ذلك... أنتِ تعلمين أنّ أختي ذهبت للدراسة هناك، وحين عادت، كانت أشدّ فظاظة، بل عادت مدمنة على الخمر تقريباً... فكانت أمّي تقول: جميلٌ أن يصل الروس إلى الفضاء ويشقّون قناة بايكال - أمور[20]... أمّا حين تجدين أن شفرات حلاقتهم لا تحلق وجهك، ومعجون أسنانهم يورّم لثتك، فهذا يدلّ على أنّ ثمّة خللاً...

- غورباتشوف هو من خرئ في الموضوع

- ألا ترين أن الخراء كان يغمر الموضوع، وأنّ غورباتشوف لم يفعل غير أنّه أماط عنه اللثام، كما يقول والتر؟ ولكن، كلارا، هل من الممكن أن يكون المجتمع عادلاً حين يقوم العدل فيه على إشباع الناس بالركل على مؤخراتهم، وشيوع الذوق الفاسد ورائحة الإبطين النتنة؟ انظري ما حدث في برلين... وكنّا نظنّ ألمانيا ديمقراطيّة تفيض سعادة، وفيها كلّ ما يشتهي الشعب ويتمنى!... هل تعلمين أنّهم، بعد أن هدموا الجدار، سرقوا أرشيف الشتازي[21]، وها هم يكتشفون أنّ الجميع كان يتجسس على الجميع، وأنّ الكلّ كان يبلّغ عن الكلّ؟ فظاعة ما بعدها فظاعة! أمّا الخوف، فحدثي ولا حرج... لا شكّ أنّ لديهم إضبارة عنّي؟ أكيد و...

- أراكَ اليومَ منطلقاً... أسوأ من داريّو. اسمع، خذ حذركَ مما تصرّح به هنا وهناك.

- لكنّ ما أقوله هو الحقيقة!

- وما أهمية ذلك؟ -سألت كلارا، ورفعت القهوة من النار وصبّتها، كالعادة، في إناء من الصيني، كانت قد وضعت فيه السكّر الأسمر-. ناولني قدحين من هناك.

التفّ إرفينغ وتناول قدحي البلاستك الأزرق الغامق وعاد ليضعهما في مكانهما. ثمّ ذهب إلى غرفة الطعام المجاورة وفتح الخزانة التي حفظت فيها

20- خط عملاق للسكك الحديد يبلغ طوله 4. 234 كم ويمر عبر سيبيريا وصولًا إلى أقصى الشرق الروسي.

21- **Stasi** مختصر وزارة أمن الدولة في ألمانيا الشرقيّة أو الديمقراطيّة. أنشئت عام 1950 وحلّت عام 1990.

أطقم الصحون والأقداح الأصليّة وعاد بقدحي البورسلان art nouveau الوحيدين الباقيين.

– ولماذا لم تذهبي اليوم إلى عملك، كلارا؟

– توفيراً للنفط... ستعمل الورشة من الإثنين إلى الخميس. ولكن، أيّ معنى للتوفير من دون إنتاج؟... ما الذي سيحدث هنا؟

– ستحدث فوضى عارمة... نفدَ الورق في دار النشر التي أعمل فيها. بل ما عادوا يتسلمون مسودات كتب... أرى أن نجلس في الشرفة. العصر جميل –قال إرفينغ وهو يقدّم القهوة–. أتوقع أن أحداً مّا سيأتي، كما يحدث في العادة في هذا البلد، وسيفسد علينا قعدتنا...

– هذا لم تخترعه أنت، أيّها الوقح. – وضحكا.

خرجا إلى الشرفة وجلسا على كنبتين عتيقتين، سويديّتي الموديل إنكليزيّتي الصناعة، كان والدها اشتراهما في ميامي، قبل ثلاثين عاماً. لكنّهما شاختا، كما شاخ كلّ شيء، واهترأت حشوتهما.

نظرت كلارا إلى إرفينغ وهو يحتسي فنجانه برشفات صغيرة وبعينين نصف مغمضتين. إنّها تعرفه من خمسة عشر عاماً. وتعلم أنّه لن يتكلّم قبل أن ينتهي من قهوته.

– رائعة – قال وهو يضع قدحه على الطاولة.

كان إرفينغ واحداً من أوائل أصدقاء كلارا في ثانويّة (البيدادو). وخلافاً لبقيّة الطلبة المثليين، لم يكن إرفينغ يخفي –أو كان يصعب عليه أن يخفي– حركاتِ التخنّث البادية عليه. بل لقد واجه، بشجاعة، عواقب ميوله الجنسيّة، حين نفر منه زملاؤه، ونظر إليه بعض أساتذته نظرة ارتياب، بعد أن تصوّروه، استناداً إلى الموروث والأفكار الذكوريّة السائدة، مخلوقاً ضعيفاً، غير أهلٍ للثقة، مريضَ البدن والعقل. لكنّ شعوره بأنّه يحظى بدعم إليسا وحمايتها جعل من صفته تلك مقبولة محمولة. وعلى العكس من إرفينغ، كانت إليسا قويّة حسناء مشاكسة، مثيرة، بادية الأنوثة، ومستعدة، في الوقت نفسه، لأن تكسر رأس كلّ من يستحقّ أن تُكسر رأسُه، كما قالت أكثر من مرّة. بعد سنواتٍ من انتهاء الدراسة، حكى داريّو لأصدقائه عن مداخلات إليسا في

لجنة الشباب دفاعاً عن إرفينغ، وكيف أنّهم هددوها بإجراءات عقابيّة بعد أن وُصفت بحامية المخنثين وسواهم من الحشرات.

- طيب، هل ستساعدني؟ - سألته كلارا.

- ولأجل ماذا تظنّين أنّي هنا، حُبّي؟ أكثر من ساعة وأنا أنتظر الحافلة المباركة...

هزّت كلارا رأسها بالإيجاب. ربّما كان ميله المبرأ من كلّ غرضٍ لمساعدة الآخرين هو خيرُ فضائل ذلك الرجل، الذي تعرّض، منذ نعومة أظفاره، إلى التحقير والتعنيف والتهميش. لم يكن إرفينغ الأذكى بينهم ولا الأظرف ولا الألطف، لكنّه كان، على الدوام، الأكثر استعداداً للمعاونة، والأكثر، هذا هو المهم، تكتّماً، حتى إنّ بعضَ رجال الأخويّة، وجميعَ نسائها، كانوا يرونه أهلاً لثقتهم، فيستودعونه أسرارهم ويقصّون عليه مشاكلهم ويصارحونه بمشاريعهم، وحين حاول أيّ منهم أن يستدرجه ليحصل على معلومة تخصّ آخر، لم يخرج منه بغير التهرب والزوغان.

- ما زلتُ تعبانة من حفلة نهاية السنة، ويزداد تعبي لمجرّد التفكير في حفلة عيد ميلادي و...

- لا تقلقي، كلاريتا. كلّمتُ زوجك، وقال لي إنّه يرتّب موضوع المشروبات مع مريض من مرضاه. وسيذهب فابيو إلى (پيار دل ريّو) ليأتي بخنزير من مزرعة أقارب جويل. هناك يبيعونها بسعر رخيص، وسيكون هديتي وهديّة جويل... وسأطبخ أنا وبرناردو بقيّة ما سيظهر من أشياء، فدائماً هناك أشياء تظهر، من رزّ وبطاطا... أظنّ أنّ والدي ليوبا سيأتيان ببعض الحاجات من حوانيت الجيش، حيث الأسعار رخيصة... أمّا إليسا فستعمل كعكة *براوني* من تلك التي تجيد صنعها و...

- سنأكل نفس ما أكلناه نهاية السنة وليلة الميلاد؟

- نفس المكوّنات... وهي الوحيدة الموجودة... ولكن بأطباق مختلفة!

- لا تستهزئ، إرفينغ...

- إنّها ثلاثون سنة، كلاريتا! و... آه، فاتني أن أخبرك بأنّ والتر اللعين حصل على علبة من اثني عشر شريطاً للتصوير... الأخيرة التي وصلت

من جمهوريّة ألمانيا الديموقراطيّة المحتضرة! فالصور، كما ترين، ستكون مضمونة أيضاً... هل حقيقي ما يحكى عن جهاز الشتازي؟

انحنت كلارا وأمسكت بيد إرفينغ

- أنتَ أفضلُ من أعرف، وأنتَ تعرف ذلك.

- أعرف بالطبع... اسمعي، هل ترك برناردو، هنا أو هناك، قليلاً من الرون الممتاز الذي شربنا منه في المرة الأخيرة؟

هزّت كلارا رأسها ونهضت:

- أنا أخفيته عنه في الصباح. كان يريد أن يشربه في الفطور. إنّه مجنون بالشراب...

أنزلت كلارا من أحد الرفوف أقداحاً صغيرة، وأخرجت من أسفل المغسلة زجاجة من الرون. صبّت قليلاً من الشراب وقدّمته للصديق.

- إرفينغ، بما أنّكَ مطّلعٌ على الأمور، هل حدث شيء بين إليسا ووالتر اللعين، كما تصفه أنتَ؟

قوّس إرفينغ حاجبيه.

- لا أدري... لماذا؟

- يبدو أنّي أتوهّم الأشياء، لكنّي أظنّ أنّ إليسا لا تكلّمه... هممتُ أن أسألها عن ذلك...

- يا صديقتي، لا تشغلي مخّك بوالتر. الحقيقة أنّه شخصٌ لا يطاق. ولطالما ارتكب حماقات. هو الآن يشارك في عمل تطوعي. وأنتِ تعرفين أنّه *الأم شجاعة وأبناؤها*...[22]

ابتسمت كلارا.

- طيب، أردتُ أيضاً أن أكلّمك عن شيء. لذلك طلبتُ منك أن تأتي اليوم. الأولاد في بيت جدتي، وداريّو عنده اجتماع حزبي في المستشفى.

- كم يحبّون الاجتماعات!... فهل حلّوا مشكلة من المشكلات؟

- إرفينغ، دعك من هذه الأسطوانة، بروح أمّـك... المشكلة هي داريّـو... -توقفت كلارا، ولم يقل هو شيئاً. تناول كل منهما رشفة من

22- *Mother Courage and Her Children* من مسرحيات بريشت (1939) وتعدّ أعظمَ مسرحية في القرن العشرين. موضوعها إدانة الحرب ومناهضة النازيّة والفاشيّة.

الرون، وأخرجت كلارا من جيب تنورتها علبة السجائر والولاعة-. الأمور بيننا ليست على ما يرام، لا أدري ما الذي جرى لنا، أنا غريبة الأطوار، وهو كذلك. يساورني هاجس... أو بالأحرى، شك.

أشعلت كلارا سيجارتها، شربت ما تبقى في كأسها من الرون وعادت فملأتها ثانية.

– هل ستتبارين مع برناردو في الشرب؟ -سألها إرفينغ، وهو يشير بذقنه إلى زجاجة الرون-. تكلمي، فأنا لم أفهم منك شيئاً...

– المشكلة الأخرى تخصّ برناردو بالذات... هل رأيتَ كيف صار؟

– تقصدين أنّه يشرب كثيراً ويثرثر كالمجنون؟ هذا ليس جديداً عليه...

– وحملُ إليسا. الأطباء قالوا إنّه عقيم.

– ليس بالضبط – صحّح إرفينغ.

– عقيم واقعاً... حيواناته المنوية أقلّ من اللازمة...

– أين تريدين الوصول، كلاريتا؟ داريّو أو برناردو؟ ماذا قلتِ عن الشكّ الذي يساورك...؟

– أريد أن أربط بين حمل إليسا وغرابة أطوار داريّو وعقم برناردو...

وضع إرفينغ يديه على رأسه، قاصداً التعبير عن رفضه للفكرة.

– ولماذا تظنّين أنّ إليسا وزوجَك...؟ -ضمّ إرفينغ يديه وابتسم-. آي، أنتِ تعبانة. أخرجي هذاه الخزعبلاتِ من رأسك وفتشي عمّا حدث بينك وبين زوجك، فلا بدّ أنّ ما حدث بينكما شيء آخر.

تناولت كلارا جرعة أخرى من الرون وسحبت نفساً آخر من السيجارة.

– لا أقدر على إخراج الفكرة من رأسي... أنتَ تعلم أنّكم، معشرَ الرجال... أقصد أنّ إليسا تروق للجميع: داريّو وفابيو ووالتر... حتّى هوراثيو. حتّى أنتَ.

– لكنّهم جميعاً أصدقاء برناردو، ولن يستطيعوا... ثمّ، إنّ عيون الجميع الآن على غيستي، خطيبة هوراثيو، بمؤخرتها وصدرها وبلاهتها... هل لاحظتِ عينيها، مفتوحتين هكذا دائماً، كأنّها في حالة انبهار مستمر؟... بل إنّها مثل الذئب في (ليلى والذئب). اسمعي، قد يعجبني عددٌ من الرجال، لكنّي لن أذهبَ معهم. هناك فرق بين الأمرين، وأنتِ تعرفين ذلك.

- نعم، أعرف... وهل راقت لك امرأة ذات مرّة؟ ألم ترق لك إليسا؟
- آي. وما الداعي إلى هذا السؤال؟
تناولت كلارا جرعة أخرى ونفساً أخيراً من سيجارتها، ثمّ سحقتها في المنفضة التي جنبها.
- لا أدري. فضول من ناحيتي. و... وماذا تقول لو قلتُ لك إنّي أعجبتُ بامرأة؟
توقف إرفينغ عن الشرب.
- هنا نعم نستطيع أن نقول إنّ الوضع غريب... هل هناك امرأة تروقُ لك؟
- لا أدري... مؤخراً صرتُ لا أرغب في النوم مع داريّو و...
- وترغبين في أن تنامي مع امرأة؟
- لا أدري. أحياناً... أحياناً نعم، وأحياناً لا... ما أعرفه أنّي لست سحاقيّة...
- منذ متى يحدث لك هذا؟
- منذ سنوات... لكنّي لم...
عضّ إرفينغ شفته العليا وسألها:
- كلاريتا، هل تروق لك النساء أم تروق لك *واحدة* بعينها؟
- *واحدة* - قالت، مشددة هي أيضاً على الكلمة، وشعرت بحمل ثقيل يقع على كتفيها، حتّى شلّها عن الحركة. إنّها لا تريد أن تغيّر حياتها، ولا أن تعقّد حياة آخرين، فهي تفزع لمجرّد التفكير في العواقب، ولا ترغب في أن تكون سبباً لمعاناة آخرين، ولا سيّما أولادها، في الوقت الذي يتهدد العالم الخارجي خطرُ الانهيار، وبينما تحمل على عاتقها مسؤوليّة عالمها الخاص بها. كان الحمل الذي تنوء به ثقيلاً، مع ذلك، فقد شعرت بالراحة بعد أن صارحت الشخص الوحيد في العالم الذي يمكنها أن تصارحه. ووجدت نفسها تمدّ يديها، بلا وعي، لتمسك بيدي إرفينغ وتعصرهما، وتجهش، للمرة الأولى منذ سنوات، بالبكاء.

بدأت الأخويّة تطلق على نفسها ذلك الاسم حين قرأ عددٌ منهم رواية *1984*، قبل ثلاث سنوات من السنة التي اختارها أورويل عنواناً لروايته الديستوبيّة[23]. كانت إليسا هي من جاء بالكتاب (مموهاً بغلاف مجلّة كوريّة) إلى المجموعة، عن طريق إرفينغ، الذي كان أعاره إيّاه أحد أصدقاء جويل الذي حصل عليه من صديق كان خرج من كوبا قبل ذلك الوقت بأشهر، إثر نزوح (مارييل) الجماعي الشهير[24]. وتولّت إليسا، بعد أن أعجبتها الرواية، حثّ كلارا على قراءتها، وساندها هوراثيو، وبعد سنوات طويلة، حين لم يبق من الأخويّة إلّا القليلون، وبعد أن سُمح بنشر الرواية في كوبا، قررت كلارا أن تعود إلى قراءتها.

بعد انتهائها من الصفحات الأولى من النصّ، الذي طالما عدّه الرقيب الثقافي السوفييتي والكوبي تخريبياً، تذكّرت كلارا الساعات الاثنتين والسبعين التي أنفقتها، عام 1981، على قراءة الكتاب للمرّة الأولى كاملاً... كان من قبيل الشروع في مرور قسري عبر نفق من الشعور بالضيق، تقف إليسا في نهايته، مسلّطة على وجهها وروحها ضوءاً قوياً، لكنّه مشحون بالتحذيرات: فهل كان أورويل حكواتياً منفلتاً أم كاتباً واقعيّاً؟

يبدو أنّ هوراثيو هو من أطلق، وهم في السنة الأخيرة من الثانويّة، اسم «الأخويّة» على المجموعة، وإن حسب الجميع أنّ صاحبة الفكرة هي كلارا -هي لم تصحح الخطأ قط-. ربّما لأنّ الخليّة الأولى ضمّتها، هي وإليسا وإرفينغ، ثمّ انضمّت إليهم ليوبا وفابيو، ولأنّ بيت كلارا في (فونتانار)، على الرغم من بعده عن مركزالمدينة، بات مقرَّ الأخويّة الذي احتضن الجميع.

23- يقصد بها رواية «*1984*» التي تصوّر مجتمعاً ديستوبياً غير فاضل.

24- **El Mariel** ميناء كوبي انطلقت منه جموع غفيرة من الكوبيين صوب الشواطئ الأمريكيّة طلباً للجوء، بين أواسط نيسان ونهاية تشرين الأوّل من عام 1980.

وسرعان ما انضمّ هوراثيو إلى المجموعة، بعد عودته من معسكر للعمل الزراعي دام شهرين. قبل هوراثيو، أثناء ذلك المعسكر، بأن ينام في الطابق السفلي من سرير ذي طابقين، لم يكن أحدٌ يريد أن يشغله بعد أن كان مسؤول المعسكر خصصه لإرفينغ. أمّا لماذا قبل هو بالمكان الذي رفضه الآخرون فبسبب شطحات الرجل العلميّ المستجدّ المجنون التي تميّزه، وقراءاته المبكرة لمؤلفين سخنوا رأسه (كامو وأورتيغا وبوروز وبقيّة أعضاء جيل بيّت[25]، وسولجنيتسين، *والبرتقالة الميكانيكيّة* لأنطوني بورغيس، وهي كتب لا أحد يعرف من أين كان يأتي بها). ثمّ ولأنّه لم يكن يأبه بميول الآخر الجنسيّة، ما دامت ميوله هو واضحة لديه. وهكذا سنحت له فرصة التعرّف على رفيق مثليّ -في زمنٍ لم يكن المثليّ فيه يدعى مثلياً، بل مخنّثاً، عصفوراً، شيرنا، *لوكا*، وزّة، فرساً، *كوندانغو*- لا يشعر تجاهه بالنفور ولا يرقّ لحاله. وكان إرفينغ من الانفتاح والوضوح أن نشأت بين الاثنين صداقة مدّت لهوراثيو جسراً نحو بقيّة أعضاء المجموعة، وإن لم تكن وثيقة كتلك التي كانت بين الآخرين، فلطالما فضّل أجواء أخرى للحصول على ضالته من النساء (وقد اصطاد منهنّ الكثيرات، مع ميلٍ واضح للناضجات المجرّبات العشرينيّات، عازباتٍ كنّ أم مطلقاتٍ أم متزوجات).

بعد هوراثيو، وصل إلى المجموعة صديقه داريّو، وكان يسبقهم بمرحلة دراسية واحدة، وكان قد وضع عينه على كلارا، على الرغم من أنّه، بالخجل الذي كان يتصف به آنذاك، تأخر أكثر من سنة قبل أن يبادر بالهجوم، وسنة أخرى إضافية قبل أن ينجز مهمة الغزو والاحتلال. لم يكن داريّو، خلافاً للبقيّة (باستثناء هوراثيو)، ينتمي إلى طبقة ساكني البيوت الأنيقة أو الشقق الجميلة في (كوهلي) و(ميرامار) و(البيدادو). فبعض الأصدقاء -إليسا وليوبا وبرناردو- كانوا أبناء رجال متمكنين ماديّا، يسافرون إلى الخارج ويعودون بالملابس والأحذية وأجهزة التسجيل المفقودة في البلد، ومعهم دائماً نقود ينفقونها، نهاية العصر، في مثلجات (كوپيليا)، أو لتناول وجبة

25- **Beat Generation** مجموعة من الكتّاب الأمريكيين الذين أثروا الثقافة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، وتمحورت اهتماماتهم حول تعاطي المخدرات والجنس والديانات الشرقية ورفض الاقتصاد المادي.

العصر في (كارميلو) و(پوتين). أمّا داريّو، فكان ينتمي إلى عالم آخر. ولد في ضاحية (ثنترو - هاڤانا)، حيث يسكن الفقراء. وما زالت أمّه تسكن هناك، تعمل طباخة في أحد البيوت. في الحفلات، يرتدي نفس الحذاء الذي كان يرتديه في الثانويّة: الحصانُ بقرن الوحيدُ الذي كنتُ أملكه، اعتاد أن يقول. وإذا كان الآخرون لا يهتمون كثيراً بالمستوى الماديّ والاجتماعيّ للطالب المتفوّق في دراسته، اللطيف في علاقته، فقد كان ذلك المستوى الاجتماعي المتدني مصدرَ معاناة له، على الرغم من أنّه وجد، ومنذ طفولته، في تصميمه على التميّز سبيلاً للتعويض عمّا ينقص جيبه ويحطّ من مكانته.

أمّا برناردو فقد انضمّ إلى الأخويّة حين كان في الصفّ الثاني، وكان مساهمة متميّزة أتت به إليسا: فقد كان الشاب منتسباً إلى مدرسة لينين المهنيّة، حيث يتركّز طلبة المدينة المتميزون، وكانا، هو وإليسا، قد تعارفا أثناء الإجازة الصيفيّة المنصرمة، حين تصادف وجودهما مع عائلتها في واحد من بيوت الشاطئ في (البيدادو) المخصصة للمسؤولين (كان والد إليسا يشتغل في وزارة الخارجيّة، بينما كان والد برناردو وكيلاً لوزارة الصحة وكانت والدته تدير معهداً طبّياً). ولم يكن برناردو، الطامح إلى أن يكون سبيرانياً في الرياضيّات، مجرد طالبٍ يراه الآخرون ذكيّاً ومختلفاً ومنفتحاً وواثقاً من نفسه، بل كان وسيماً. كان كاملاً تقريباً: طويل القامة، صحيح الجسم، نحاسي الشعر، تضفي عيناه الخضراوان الغامقتان عليه جواً من الغموض. وكان، فوق هذا كلّه، لاعباً ماهراً في كرة السلّة والكرة الطائرة. كان، بكلمة واحدة، الخطيب المرشّح للفوز بإليسا.

مع انضمامه إلى المجموعة -ولمّا تسمّ «أخويّة» بعد- أضاف برناردو إلى أماكن لقاء الأصدقاء واحتفالهم، نهاية الأسبوع، مكاناً جميلاً ورائقاً: كان لمنزله في (ألتو -هاڤانا) فناءٌ واسع كبير؛ وفي صالته بار يضع في متناولهم زجاجة ويسكي إسكتلندي، أمّا جهازه الموسيقي، وهو من آخر جيل -مستورد من اليابان- فيسمح بتشغيل الأسطوانات الكثيرة والكاسيتات التي يمتلكها هو وإليسا وليوبا -مجلوبة من كلّ مكان، حتّى من الولايات المتحدة- وبأعلى صوت. ثمّ في البيت غرف عديدة، تبقى شاغرة حين يسافر والداه في رحلاتهما الكثيرة إلى خارج البلاد أو إلى المحافظات.

بعد سنوات، حين بات ممكنا التطلّع إلى الماضي واستشراف المستقبل، من خلال الصدوع التي أصابت أشدّ الأسوار متانة، كان التأثر يصل مداه في نفس كلارا حين تتذكّر النعمة الجزيلة التي حظي بها شباب السبعينيّات. كان العالم، في نظر تلك الكائنات المفعمة بالثقة، ومنهم إليسا وبرناردو وهوراثيو، المتمردون على كلّ شيء تقريباً -طول الشعر وفق التعليمات، ندرة البيرة، سيل الأفلام السوفييتيّة-، ينظّم نفسه ببساطة مراتبيّة مُرضية، يتقبلونها ويتقاسمونها، بلا اعتراض: فمهمتهم في الحياة هي أن يكونوا نسخة من **الإنسان الجديد**، بمعنى أن يدرسوا ويدرسوا حتّى النهاية -الشهادة الجامعية-، دون أن يتخلّوا عن حضور الاجتماعات السياسيّة والمساهمة في الأعمال التطوعيّة والخروج في المسيرات النضاليّة، لكي يصبحوا، من بعدُ، مهنيين جيدين وعمالاً ماهرين. وفي هذه الأثناء، يستمتعون بحفلات لا يجدون فيها، أحياناً، غير زجاجة من الرون أو الويسكي، مسروقة، ولا سجائر أفضل من تلك السجائر الطويلة السوداء البائسة. موسيقى موفورة ورقص مبذول. وموفور أيضاً ومبذول تبادل القبلات، وربّما اقتحم شريك وشريكته، ممن بلغا مرحلة متقدمة من الحميميّة (كانت إليسا وبرناردو في المقدمة) واختليا في إحدى الغرف. شباب يكمّل أحدهم هوايات الآخر، فيتبادلون الكتب والقراءات (كانت إليسا وهوراثيو وإرفينغ وبرناردو يأتون بكتب غير متوفرة أو حديثة الصدور) والأشرطة الموسيقيّة، ويحضرون العروض المسرحيّة والحفلات الموسيقيّة، ثمّ ينامون في قوارب ينفخونها أو على بطانيات يفرشونها على الرمل أو على العشب، ويأكلون لحم Spam المعلّب الروسي، والدجاج البلغاري بالبقول.

كانت تلك العزلة الماديّة والذهنيّة التي يعيشونها، غير مدركين حجم المعاناة (باستثناء إليسا *البريتيش*)، تجعلهم يرون العالم خريطة بلونين متقابلين: بلدان اشتراكيّة (الأخيار) وبلدان رأسمالية (الأشرار). البلدان الاشتراكيّة (التي يمكن السفرُ إليها) تجاهد لبناء المستقبل الناجز، (وإن لم يظهر جميلاً، يقول إرفينغ). مستقبل قوامه المساواة وديموقراطية دكتاتوريّة البروليتاريا العادلة المنوط تحقيقها بالطليعة السياسيّة للحزب الذي هو في طور بناء الشيوعيّة، التي بها ستكتمل حلقة التاريخ، أي العالم السعيد. أمّا

في الدول الرأسمالية المنهارة فيشيع السلب والنهب والتمييز واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان والعنف والعنصريّة والديموقراطية البرجوازيّة المنافقة، وتُصنع الحروب، كحرب فيتنام، وتقع الفضائح، كفضيحة ووترغيت، وتُزرع دكتاتوريات دمويّة، كتلك التي في تشيلي، وإن اعترفوا بأنّ من بعض تلك البلاد تأتي الموسيقى التي يروق لهم سماعها، والملابس التي يفضلون لبسها، بل أغلب تلك الكتب التي يقبلون على قراءتها بشغف (يقول برناردو).

أمّا مستقبل الفرد والجماعة فيرونه واقعاً رائقاً شفافاً ومضموناً: فإن كانوا أخياراً، أو بالأحرى، *أفضل*، فسيكافؤون عن جهودهم وتضحياتهم بحياة يتوفّر فيها تحقق شخصي واجتماعي وروحي (يؤكد داريّو وليوبا). وسينعمون بعيشة رغيدة في بلد يحقق أهدافه، كلّ يوم وكلّ أسبوع وكلّ شهر، وكلّ عام، وكلّ خمسة أعوام؛ وينعم بالتطور والازدهار، إلّا في حالات استثنائيّة (أكثرها من تدبير الأعداء، يقول فابيو). ستتحقق الأهداف، كما تؤكد الخطابات التي تكررها الصحف، ناجزة، وفي مواعيدها، ثمّ تكرّر في دروس تكريس الأيديولوجيا. لذلك تمسّك كلّ واحد منهم منهجيّاً (مثل داريّو) بذلك النمو الذي يمرّ عبر التضحية غير المشروطة والقبول الأعمى بأيّ عوزٍ أو تضحية أو تكليف. وهكذا يظلون يحلمون ويحلمون ويحلمون... لأنّهم يؤمنون.

حين دخلوا الجامعة، وشعر إرفينغ بالتحرر من الضغوط، قدّم لهم صاحبه جويل، وهو مصمم مجلات، أسودُ، فحلٌ، رشيق. زنجي يعاني من الربو ولا يجيد الرقص! قدّمه كما لو كان شخصيّة من شخصيّات السيرك. حدث ذلك في الفترة التي بدأوا يطلقون على أنفسهم اسم «الأخويّة»، وحين كفّوا عن التردد على بيت برناردو، بعد ما عوقب والده لسبب لم يكشف النقاب عنه، وزالت امتيازاته ونزل من عليائه (ربّما كان هو السبب في موته المبكّر). ما عادت المجموعة تجتمع في بيت (ألتا - هاڤانا)، إذ ما عاد أيضاً من ويسكي يسرقونه. لكنّ كلارا كانت، في تلك الأوقات، تدرس الهندسة الصناعية في المعهد التكنولوجي القريب من (فونتانار)، وكانت قرّرت، بعد أن رُفض طلبُها للسكن في الإقامة الجامعيّة، أن تعيد تأهيل بيتها وتستمتع فيه

بكامل الحرية، من دون رقيب ولا حسيب. حينئذ اتخذت الأخويّة من بيت كلارا مكاناً للالتقاء، كلّما عنّ لها أن تلتقي.

استقبلت كلارا وداريّو في بيتهما، ذات عصر يوم أحدٍ باردٍ من عام 1981، هوراثيو وبرناردو وإليسا. كانت إليسا بين متحمسة وقلقة، بعد قراءتها لرواية أورويل المثيرة. أمّا الآخرون، فقد وعدوا بالانضمام إليهم لاحقاً، فسنتهم الدراسية لم تكن انتهت، وكانوا يريدون استغلال وقتهم في الدراسة وتنشيط أعصابهم بتناول السباغيتي والثرثرة مع الأصدقاء، حسب تعبير إرفينغ. أمّا والتر، الإلكترون السائب الذي يلفّ منذ أشهر في مدار قد يتفق مع مدار الأخويّة وقد لا يتفق، والرسّام الذي يعيش كما يفترض هو أنّ يعيش الرسامون، فقد يأتي وقد لا يأتي، ثمّ يرونه يصل وهو يحمل زجاجة من الكحول أو وهو يحمل الكحول في دمه، يأتي بمفرده أو يأتي برفقة إحدى أولئك المجنونات اللاتي يتخذهنّ خطيبات، أنصاف هيپيز، أنصاف رسامات، بدينات جداً عموماً أو نحيفات جداً.

كانوا جالسين في الشرفة، يشربون من الرون المتبقي من حفلة عيد ميلاد كلارا. أخرجت إليسا من حقيبة يدها النسخة التي مرّت على يد الجميع من *1984* وناولتها إلى كلارا.

– أمنحكما ثلاثة أيّام لتقرآ الرواية –قالت وهي تشمل بأمرها داريّو–. فعليّ أن أعيدها إلى إرفينغ، الذي عليه أن يعيدها... لكنّي أنصحكما بقراءتها.

– أنا لا أحبّ الخيال العلمي – قال داريّو حين قرأ العنوان المموّه.

– لكنّه ليس خيالاً علمياً. أو ليس الخيال العلمي الذي تظنّه – أوضحت إليسا.

– إنّه أدب تخريبي –قال برناردو–. معاد للشيوعيّة...

– لا تكن متطرفاً، صديقي... –دخل هوراثيو على الخط–. هذه قصّة تدور حول السيطرة والمراقبة. حول أساليب التلاعب بعقول الناس. والحياة كلّها...

– وأين تقع أحداثها؟ – سألت كلارا.

– في مجتمع ما في المستقبل... –قال هوراثيو–. في عالم فاضل.

- شيوعي أم رأسمالي؟ - سأل داريّو.

قفزت إليسا:

- أسوأ!.. المشكلة هي...، المشكلة هي... أنّه يجعلك تفكّر. وما تفكّر فيه يسبب لك ضيقاً!...

- لذلك فهو من الأدب الرفيع -ختم هوراثيو-. أدب لا يهادن ولا يجامل: إنّه صورة للمجتمع الذي يسود فيه التسلّط، المجتمع الذي ليس للأفراد فيه أيّة إمكانية للتحرر. حيث الكلّ يراقب، وحيث في مقدور الجميع أن يبلّغ عن الجميع و...

- إذن، فالكتاب لا يتطرق إلى الشيوعيّة ولا يتكلّم عن الاتحاد السوفييتي؟ -سأل برناردو ساخراً، بعد أن عبّ جرعة من الرون-. لا تتفلسف، هوراثيو، لا تتفلسف...

- آآه، نعم، نعم. لأنّك تظنّ أنّ الشيوعيّة يمكن أن تكون هكذا، أليس كذلك؟ -مال هوراثيو إلى الأمام-. مراقبة، سيطرة، خوف، ووشايات؟

- بالطبع لا...، لكنّ الدعاية المعادية والتخريب الأيديولوجي موجودان، أليس كذلك؟ -نظر برناردو إلى كأسه الفارغة، وهزّ رأسه رافضاً نافياً-. خطيب إرفينغ سيأتي بالرون، أليس كذلك؟ ألن يأتي والتر اليوم؟

- الحقيقة، لا أرغب في قراءة هذا الكتاب -قال داريّو-. لديّ من أدب علم الأعصاب ما يغنيني عن أن أضيع وقتي بهذه التفاهات.

- هذه ليست تفاهات. أقسم لكم أنّها أشعرتني بالمرارة -اعترفت إليسا-. إن كان داريّو لا يريد أن يقرأ الرواية، فهذا شأنه... أمّا أنتِ، كلارا، فتستطيعين أن تقرأيها. أنا أقول لك ذلك: اقرأيها، وسنتكلم في ما بعد...

أذعنت كلارا. فإليسا لم تكن قائدة القطيع فحسب، بل كانت، في نظرها، القدوة والمثال والنموذج، بل كانت الضوءَ الساطع الذي يعمي بصرها، كما الضوء الذي تلقته حين خرجت من نفق قراءة أرويل في شتاء كوبا عام 1981، حين لم يكن في مقدور الأخويّة أن تتصوّر أنّ مستقبلها سيشهد نهاية، أو تغيّر، العديد من أحلامهم القليلة أو الكثيرة. سيشهد مأساة التشتت.

حين وقعت تلك الطبعة الكوبيّة الصادرة حديثاً في يد كلارا، بعد أكثر من

ثلاثين سنة على تلك القراءة الأولى والمؤثرة لرواية *1984*، عادت بذاكرتها إلى سنوات البراءة، وعادت إلى سؤال نفسها إن كان العلم خير من الجهل. أم إنّ العكس هو الصحيح؟ أن تعيش في الظلمة أم أن تكتشف أنّ العتمة والنور (وبالعكس) موجودان سواء بسواء؟ أن تؤمن بلا شك أم أن تشكّ ثمّ تفقد الإيمان، أم أن تحافظ على الإيمان وتواصل الاعتقاد على الرغم من الشكوك؟ ها هي كلارا 2014، التي ودّعت ولدها ماركوس للتو، تجد نفسها نهباً للقلق الذي بعثته فيها قصّة أورويل (أو واقعيته، كما قد تقول إليسا)، وتشعر بالحاجة إلى أن تنقّب في ذكرياتها الضائعة وقناعاتها التي توصلت إليها واستخرجتها من الأجوبة التي وجدتها على طول السنوات والخسارات وعرضها. إشارات مؤلمة قادتها إلى طرح المزيد من الأسئلة على نفسها، إلى أن تحاول أن تفهم الأسباب الكفيلة بتفسير ذلك الكم الهائل من المصائب، إلى أن تحدّد الأسباب والنتائج التي تزداد اتصالاً مع ما كان من الماضي البعيد، مع ما كان من الماضي الأقرب، بل مع ما سيكون التداعي الذي بدأ في حياتها وحياة أصدقائها الأعزاء: أسئلة لم تجد لها دائماً أجوبة.

نظرتْ كلارا، وهي تقف أمام أحد رفوف الآجر الأحمر، إلى القارورتين الزجاجيتين اللتين طفت في داخلهما، مغمورة في الفورمول، الأدمغة التي كان داريو يستخدمها في دراسته. لقد ظلّت القارورتان في مكانهما شاهداً على هوسٍ، ودليلاً على أنّ جرّاحاً للأعصاب أقام في ذلك المكان. منذ وقت طويل، وكلارا تحدّث نفسها، كلّما نظرت إلى القارورتين، بالتخلص منهما. في إحدى الكوّات المخصصة للكتب، وضعت الطبعة الكوبيّة من *1984*. في تلك اللحظة، وقع ما كانت تتمنّى، وما كان مقدّراً له أن يقع. رأت الطبعة القديمة من رواية *وجودٌ لا تُحتملُ خفّته*[26]، التي كان هوراثيو أهداها لها قبل رحيله، والتي لم تقرأها طوال أكثر من خمسة عشر عاماً. فأنزلتها من مكانها.

وضعت الكتاب بين يديها وتذكّرت أنّ موت تريسا وتوماس، بطلي الرواية، في حادثة سيّارة، تحوّل إلى صورة لموت والديها، اللذين قضيا

26- رواية للكاتب الفرنسي من أصول تشيكيّة ميلان كونديرا. صدرت عام 1984 وتدور حول ربيع براغ 1968 الذي انتهى بالغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا.

أيضاً في حادثة سيارة. كان توماس وتريسا، بعد أن تخلّيا عن كلّ شيء، قد وجدا، في ناحية بعيدة عن المجتمع، حالة السعادة المنشودة. فهل مات والداها، اللذان كانا يدّعيان أنّهما يملكان كلّ شيء، ويقيمان مجتمعاً جديداً، سعيدين أيضاً، مؤمنين بصحّة توجهاتهما الاجتماعيّة؟ تأمّلت كلارا، بتركيز وقلق، الصورة التي تزيّن غلاف تلك الطبعة من الرواية، لوحة لماكس أرنست، تظهر فيها امرأة عارية مقطوعة الرأس تطفو، على غير هدى، في مادة لا يعرف إن كانت غازيّة أم سائلة. وبينما كانت كلارا تنفض بيديها الغبار عن حافة الكتاب، فريسة الإحساس بالوحدة الذي خلّفه فيها رحيل ولدها ماركوس عن كوبا، رأت نفسَها في تلك المرأة المقطوعة المحرومة من كلّ سند وعون. وفي تلك اللحظة، انتبهت إلى أنّ صورة سقطت من بين أوراق الكتاب واستقرّت عند قدميها. كانت صورة آخر عشاء للأخويّة. وحينها علمت أنّها هي المرأة العائمة بلا رأس، التي صوّرها ماكس أرنست، وآمنت أنّ والديها لم يحظيا بما حظي به توماس وتريسا من مكافأة وتعويض.

أمّا داريّو فكان يحبّ البيت، بعد أن وجد فيه جنّته التي لم يحلم بالعيش فيها يوماً.

منذ أن قرّرت كلارا وداريّو العيش معاً في (فونتانار)، بُعيد دخولهما الجامعة، رأى داريّو مارتينِث، وكان ما يزال خطيبَها، أنّ ذلك البيتَ هو المكان الذي اختاره القدر ليكون سكنه، وتصرّف، منذ ذلك الوقت، تصرّفَ من يلبّي حاجة عضويّة في نفسه أو يستجيب لعلاج نفسي يخصّه. سعى إلى إدامة البيت وتحسينه، بعد أن ضمن دخوله الجنّة وبقاءه فيها خالداً مخلّداً. ووظّف، في سعيه ذلك، الوقتَ القليل الذي كان يفيض من ساعاته الطويلة بين الكليّة والمستشفيات، حيث دَرَس أسرار الأعصاب وألغازها، وطبّق، لاحقاً، مهاراته الفائقة وصولاً إلى أن أصبح اختصاصياً مرموقاً. واعتنى به كلّما خلا يومه من اجتماع حزبي أو نقابي أو عمّالي، ومنحه كلّ لحظة فاضت من وقته، بعد أن يغدق على كلارا من حبّه، ويستمتع باللعب مع أولاده، حين صار عندهما أولاد، ويلبّي كلّ ما يتمنّون ويشتهون، حين يكون ذلك ممكناً.

لم يكن أصدقاؤه يرون من سيرته الشخصيّة غير القمّة المشرقة، أمّا هوراثيو، فقد كان عالِماً بما يختبئ وراءَ الأكمة أو تحت السطح. ولد داريّو لأمّ عزباء حملت به سِفاحاً وهي في السادسة عشرة من العمر. أمّيّة وظيفيّة[27] عانت الأمرّين لكي تعمل طباخة في مطعم بائس. وُلدت في سولار[28] مختلط مزدحم في شارع (پيرسيبيرانثيا)، وسط هاڤانا. هناك نشأ الطفل الذي أصرّت على إنجابه، رغم كلّ الظروف التي أحاطت بها وبحملها. ومع أنّ

27- لا تعني الأميّة الوظيفيّة عدم القدرة على القراءة والكتابة والحساب، بل فقراً في تلك المهارات وعجزاً عن تطبيقها في الحياة اليومية والتعامل الطبيعي.

28- بنايات سكنية شعبيّة قديمة في هافانا، مؤلفة من غرف تغصّ بساكنيها من الفقراء.

داريّو كان يفضّل تجنّب الحديث عن أصله، فقد علم الأصدقاءُ أنّه عاش، حتى شبابه، في ذلك الجو البائس، بين قليلين من حَسني السلوك، وكثيرين سواهم لوّثت أجيّال من الفقر طباعَهم وأخلاقهم. في البداية، لم يكن، غير هوراثيو، ثمّ كلارا، يعلمان بأنّ داريّو تعرّض، في نشأته، للاحتقار والمهانة، وحتّى العنف بسبب طبعه المختلف، ذلك الطبع الدائم فيه: تعيس، منطوٍ على نفسه، يقرأ الكتب، ويذهب كلّ يوم إلى المدرسة. صحيح أنّه كان رثّ الملابس مرقّع البنطال، لكنّه كان ينال أعلى العلامات، ولطالما انتخب قدوة في اختبارات الروّاد، بل لقد أنعموا عليه بامتياز العبور من السنة الثالثة إلى الخامسة، دون المرور بالرابعة.

وشتّان ما بين الأم وولدِها، قال هوراثيو مرّة: كانت هي تحمل صليباً أسود على جبهتها، بينما كان هو يحمل نجمة ساطعة. أمّا برناردو، فيردّ ذلك كلّه إلى أنّ الأم كانت ضحيّة من ضحايا الرأسماليّة، بينما حظي الولدُ بامتيازات الاشتراكيّة. أما إرفينغ، وهو ماديّ من المدرسة الزهديّة، فكلّ شيء، في نظره، يعمل وفق البرهان الأرضيّ القائل إنّ الربّ موجود أحياناً، يختار واحداً ثمّ يمسّ جبهته بإصبعه. أمّا داريّو نفسه فيرى أنّ حظّه يرتبط بمعادلة أكثر بساطة: فما هو إلّا نتيجة واضحة لفيض مجهوداته ولحالة طوارئ ماديّة ووجوديّة لم يبيّن جوهرها قط. لأنّ ما لم يكن هؤلاء الأصدقاء أنفسهم -ومنهم هوراثيو ثمّ كلارا، بعده- يعرفونه هو أنّ داريّو كان يخفي، تحت الجزء القابل للنشر من ذلك الماضي المؤلم، الرموز الأشدّ دناءة من تجربته في الحياة.

لقد عاش الشاب، المصممُ على ألّا يعود القهقرى، معتمداً على إرادته، يرسمُ أهدافه ويسخّر لها تفوّقه، في كلّ مجال يخوضه، وقد يتجاوز الأهداف: يستخدم ذكاءه دائماً تقريباً، وقد يستخدم، عند الضرورة، قبضته وقوته: حلّ ناجعٌ طالما لجأ إليه في طفولته لنيل الاحترام في حيّه، حيث درجات الحرارة الإنسانية العالية. فداريو المنطوي والشاطر في دروسه، أخذ أيضاً لقاحاً مضاداً للخوف من الآلام الجسديّة، ولذلك بات قادراً على تحرير عنفٍ كعنف البركان، حين يؤذيه أحد أو يجرحه.

ولأنّ داريّو أحبّ البيتَ الذي تحققت فيه أحلامه، فقد كان ينظّف

حديقته ويقلّمها، بالحرص والمهارة نفسهما اللذين يعامل بهما تجويفاً في جمجمة. يصلّح الأسيجة ويصبغ الجدران وينظّف الخزانات والصهاريج؛ وينجز أعمال السمكرة والكهرباء والنجارة والبناء، حين تكون ضمنَ قدراته. كان ماهراً في التدبير، حاذقاً في التفكير: إذا كنتُ أستطيع أن استأصل ورماً من الدماغ، فكيف لا أستطيع أن أصلح نضحاً في الماء أو أطلي جداراً متقشراً؟ لكنّ البيت، الذي أهمله مالكاه الأصليان، سنواتٍ طويلة، لينصرفا إلى أعمال بناء جماعي من أجل عالم أفضل، وظلّ مهجوراً، سنواتٍ طويلة بعد موتهما، سرعان ما استردّ رونقه وجماله، بفضل جهود داريّو، الذي استمتع به هو وكلارا والأولاد وبقيّة أعضاء الأخويّة، حتى وقوع الكارثة، بل حتّى بعد ذلك.

عمل داريّو، استعداداً للاحتفال بنهاية العام 1989، ثمّ للاحتفال بعيد ميلاد كلارا الثلاثين، في كانون الثاني 1990، على أن يكون كلّ شيء في البيت كاملاً مرتباً، بل لقد فكّر في تشكيل قوّات صدمة، يمثّل هو فيها دور القائد، بينما يمثل فيها الولدان، رمسيس، ذو الثماني سنوات، وماركوس، ذو الست سنوات، دور الرقيبين المساعدين. أمّا كلارا، التي ما كانت تنفر من الاحتفالات وتعاني حالة نفسيّة قريبة من الاكتئاب، فقد ظلّت في المعسكر الخلفي، لا تتدخل إلّا في حالات الطوارئ. في تلك السنة، استعدّ داريو للاحتفالين بحماس أكبر، فقد أدرك أنه لا بدّ من فعل شيء ليرفع به معنويات زوجته، وليركّز به أيضاً تفكيره في شيء محدد ومنظور ونافع، في غمرة أجواء البلبلة التي تتجاوز أسبابُها ونتائجُها إرادته الحديديّة وتجثم قاتمة مكفهرّة فوق سعادته. فقد بدأت توترات العالم ودواخله ترتسم صعبة، وتهدد بضرب جبهته بإصبع (أم بمضرب بيسبول؟) لتطيح به وتغيّر مجرى حياته.

في تشرين الثاني 1989، وكان الغبار الذي أثاره سقوطُ جدار برلين الصاعق ما زال يغطي سماءها، اتصلوا بداريّو ليبلغوه بأنّ مناقشة رسالته لنيل الدكتوراه للمتخصصين من الدرجة الثانية في جراحة الأعصاب قد أجّلت، وهو ما حصل لبقيّة النشاطات الأكاديميّة في كلية الجملة العصبية المرموقة ومستشفاها في لايبزغ، الملحقتين بجامعة كارل ماركس. كان

عليه، بناءً على الاتفاقات بين وزارات بلدان مجلس التعاون الاقتصادي[29] أن يناقش رسالته نهاية آذار 1990، في ذلك المركز البحثي الشهير، ليحصل، في ظرف أشهر قليلة، على درجة علمية معترفٍ بها في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا اللاتينيّة. لكنّ اضطراب الأمور في الجامعة، وتعثّر الاتفاقيات بين الحكومات، أثّر على حياة الكثيرين، ومسّ مركز الجاذبيّة في شخص بعينه هو داريّو مارتينِث. وبحث المجلس العلمي لوزارة الصحة عن مخرج، فاقترح إجراء بعض الاتصالات ليتمكّن الطبيب من إتمام شهادته في معهد علوم الأعصاب في برشلونة. وظلّ أمله معلّقاً على ردّ ذلك المعهد، على الرغم من قناعته، التي راحت تترسّخ، يوماً بعد يوم، من أنّ تلك الشجرة لن تثمر.

قبل عيد ميلاد كلارا بثلاثة أيّام، وصلت إلى داريّو أربعة صناديق من البيرة، أتاه بها أحد مرضاه القدامى، وكان يدير فندقاً، بينما جاءت له أمّه بعشرة أرطال من الرز وكيس من البصل وحفنة من رؤوس الثوم، من المطعم العمالي الذي تعمل فيه. وقرّر، قبل أن يعود إلى (فونتانار) بغنيمته الثمينة، والفرحة تغمره، أن يمرّ بالمستشفى ليراجع جدول العمليات الجراحية المقررة لليوم التالي، وهو آخر أيام عمله الأسبوعي. في صندوق بريده، عثر على ورقة كتب عليها مدير المؤسسة العبارة الموجزة التالية: يؤسفني أن أبلغك بأنّ جامعة لايبزغ الألمانية قد ألغت الاتفاقية العلمية، رسمياً ونهائياً، أمّا عن إمكانية الحصول على الشهادة من برشلونة، فإنّ الجانب الكوبي ليس مستعداً لتحمّل التكاليف والنفقات، فوضع البلد الاقتصادي لا يسمح باستخدام الأموال في تلك الأغراض، لأنّ جميع الأموال ستوظّف لإدامة المنظومة الصحيّة والتحضير لدورة الألعاب الأمريكية، المقررة للعام القادم (المنشآت الأولمبيّة تعاني من تأخير واضح، أضاف)، وهو الحدث التاريخي الذي ستنتهزه كوبا لجني ميداليات تفوق ما سيحصله منها الأمريكان الأغنياء المتعجرفون، وتثبت، هكذا، ومن جديد، تفوّق رياضة

29- أو (الكوميكون) وهو التجمع الاقتصادي الذي شكّله الاتحاد السوفييتي عام 1949 ليضمّ دول أوروبا الشرقية وبعض البلدان الحليفة، مثل كوبا وفيتنام. وقد انفرط عقده مع انهيار المنظومة عام 1989.

الاشتراكيّة على رياضة العبوديّة. «آسف. فالأولويات أولويات». ثمّ أضاف المدير البليغ، بعد أن غيّر أسلوبه: «مع ذلك، يظلّ الأمل قائماً في أن يوافق الكاتالانيون على تحمّل النفقات... ما عليك إلا أن تتوجه بالدعاء إلى العذراء السمراء. مع ذلك، تظلّ أنتَ الأفضل، بشهادة أم بدون شهادة. لا تفقد إيمانك (وخاصّة بالسمراء)»، ختم المديرُ ملاحظته.

شعر داريّو، وللمرة الأولى في حياته البالغة، بأنّه وُضع أمام جدار لا سبيل للالتفاف عليه أو العثور على مخرج له. كان في الحادية والثلاثين من عمره، والجميع يعترفون بفضله وتفوقه، حتى إنّهم برمجوا له، لليوم التالي، عمليتين جراحيتين دقيقتين في الدماغ، لكنّه يرى بأمّ عينه كيف ينهار ما ظنّه سيثمر مستقبلاً باهراً ومستحقّاً، وكيف يتلاشى ما حسب أنّه سيناله بفضل جهده ونبوغه.

لم يفكّر داريّو، وهو عائدٌ، في سيارته (اللادا)، ليحتمي بجنّته الخاصة، إلا في حديثه المقلق، قبل أيام، مع والتر، اللعين.

والتر ماثيّاس هو آخر من انضمّ إلى الأخويّة، وهم في الجامعة، على الرغم من معرفتهم به من سنوات خلت. فقد التقى بفابيو، وكانا مراهقين، في مدرسة الفنون التشكيلية الأساسيّة، هناك أدرك فابيو أنّ ما ينقصه هو عنصر الإبداع، لذلك ترك الفنون واتجه إلى الهندسة المعمارية، بينما أثبت والتر أنّ لديه الكثير الوفير من الإبداع والعبقريّة وشطحات الخيال والتهوّر، فقد كان فناناً. ولطالما تكلّم فابيو ولويبا بإعجاب عنه، بل لقد حضر والتر، في بعض الأحيان، إلى اجتماعاتهم وحفلاتهم، حين لا يكون مرتبطاً بزملائه من مدرسة الفنون التشكيليّة.

ثمّ اختفى والتر ماثيّاس، حين أرسل به، إثر معجزة طبيعيّة أو بسبب خطأ كبير ارتكبه، ليدرس فنّ الجداريات والنحت في أكاديميّة ف. أي. سوريكوف[30]، بموسكو، وهي مؤسسة تعدّ وريثة الأسلوب والمنهجيّة التي سار عليها العديد من كبار الواقعيّين ثمّ الطليعيّين الروس: فتاريخها يحفل

30- فاسيلي إيفانوفتش سوريكوف (1848-1916). رسّام واقعيّ روسي شهير، اهتمّ بالموضوعات التاريخيّة.

بأسماء كبيرة من مثل قسطنطين ميلنيكوف وليوپولد سورفاج وفاسيلي پيروف وألكسي سافرازوف. لقد استطاعت الأكاديميّة المذكورة، على الرغم من رياح الواقعيّة الاشتراكيّة، التي كانت تعيش أيّام ذروتها ومجدها السياسي، أن تتحوّل إلى واحدة من أعرق الأكاديميات في العالم وأشهرها، بفضل علميّة برنامجها التأطيري، وفق ما أكّد والتر، مزهوّا. وظلّ التلميذ التشكيلي يتنقّل في الاتحاد السوفييتي، طوال عامين، يدرس قليلاً ويتعلّم كثيراً، ويمارس تحرره وعربدته، ولكن على الطريقة الروسيّة -يشرب الفودكا ويمارس الجنس مع فتيات الأكاديميّة، ويختفي نهاراً مع زميل له برازيليّ تنبع النقود من أذنيه. مع هذا البرازيلي قصد سمرقند وسبح في شواطئ (سوتشي) وزار غولاغ قديماً بالقرب من (أنادير)، في سواحل مضيق بيرينغ-، حتّى قرّر المسؤولون الحزبيون عن الطلبة الكوبيين، كما حكى والتر، وهو يبتسم، إنهاء إيفاده، بعد انقضاء أوّل إجازة له في كوبا. فليس لطالب غير منضبطٍ مثله، يصاحب الأغراب في بلاد الغربة، أن يعود إلى الاتحاد السوفييتي.

في كوبا، عمل والتر مصمماً للأغلفة والإعلانات في إحدى دور النشر، وبدأ، في الوقت نفسه، مهنة غريبة جمع فيها بين الرسم والتصوير: كثير العبقريّة، قليل الانضباط، ثمّة خلل في طبعه. في تلك الفترة، ضمّته الأخويّة بين صفوفها وتعاملت معه كأنّه كان دائماً بينهم. كانوا يتسلون بحكاياته الغريبة (ظنّوا أحياناً، وهم في بعض الأحيان واعون، أنّ الكثير من حكاياته ملفقة)، ورأوا فيه متجاوزاً لأيّ اعتبار، لا تشابهه في ذلك غير إليسا، بطبعها الفريد أيضاً، وإن كان بطرق أخرى، ومقبلاً على الشراب، لا يضارعه في الشراب غير برناردو... ولكن ليخسر أمامه دائماً.

ذهب، ذات يوم، إلى داريّو في المستشفى، وكان يشكو من آلام متكررة في رأسه، وخشي أنّه مصاب بورم في الدماغ. لكنّ داريّو استبعد ذلك بمجرد أن رآه. مع ذلك، فقد أجرى له بعض الاختبارات البدنية ثمّ بعض الفحوصات الدقيقة ليخرج بالنتيجة التي توقعها.

- فما دمتُ لا أعاني من ورم، ولا أوشك أن أموت، فلأسْكر، نعم الآن، لكي أجد سبباً للشكوى من ألم الرأس، ولكي لا أفكّر في شيء - قال والتر

حين علم بأنّ ما يشكو منه هي فقراته العنقيّة، وحين حوّله داريّو إلى طبيب المفاصل، ونصحه بارتداء الطوق، أثناء عمله، ليحدّ من حركة رقبته.

أمّا السبب الآخر لآلام رأسه فهو التوتر... التوتر الناتج عن ردود فعله غير الطبيعيّة...

– عن أيّ توتر تحكي؟ –قال والتر وهو يضحك–. ألا تعلم أنّ الثمانية والثمانية والثمانين عندي سواء، وأنه لا فرق عندي أن تأتي الحرب من السماء أو أن تقع نهاية العالم؟ ألا تعرف أنّي حين أمرضُ أدخّن سيجارة الماريجوانا لأرى العالم بالألوان؟

ولمّا كان داريّو اتفق مع والتر أن يلتقيا عصراً، فقد وافق على دعوته لتناول البيرة في بار مطعم (رانچو لونا)، حيث اعتاد والتر أن يجد عندهم بيرة باردة، لأنّ البارمان صديقه وقد اعتاد الرسام أن يدفع له لقاء ما يشرب لوحات مائيّة وتخطيطية لنسخ من لوحات سيرفاندو كابريرا[31]، كان البارمان يبيعها لزبائنه من الروس والبلغاريين على أنّها لوحات أصليّة من لوحات المايسترو.

لم يفهم داريّو كيف اتخذت مراجعة طبيّة، تبعها حديثٌ عابر في البار، منحى مقلقاً وخطيراً. فكّر في ذلك وهو في طريق عودته إلى (فونتانار). كيف؟ وفي ذات اليوم الذي تحطّمت فيه أحلامه؟ حوارٌ سيستحضره مراراً وتكراراً، حين تحلّ الكارثة بوالتر، وهم معه.

– كنتُ أريد أن أخبرك بشيء... أنتَ تعلم أنّ موتي بورم في دماغي لا يهزّ فيّ شعرة –بدأ الرسّام كلامه–. لكنّي أريد أن أعرف إن كانت حالتي بالغة الخطورة، لكي أنجزَ ما أتمنى إنجازه. وهذا، في الواقع، هو ما يسبب لي الألم في رأسي.

– أنتَ على ما يُرام: تجريد تصوّري... أهكذا تقولون؟ فوضى المنظومات الديناميكيّة التي يحبّ هوراثيو الكلام عنها –قال داريّو، وهو ما يزال مبتسماً–. لأني لا أفهم منك شيئاً.

تأكّد والتر من المسافة التي تفصلهما عن بقيّة روّاد البار ليقول لصاحبه في ما يشبه الهمس:

31– **Sevando Cabrera Moreno** (1923–1981) رسّام كوبي شهير.

- سأرحل... عليّ أن أرحل...

لم تكن تانك العبارتان، ببنائهما القواعدي وسياقهما الزمكاني، واضحتين: والتر يريد ترك البلد. أو، على الأقل، يحاول ترك البلد.

- كيف؟ وإلى أين؟ - سأل داريّو، بعد أن تلفت ليتأكّد من أنّ أحداً لا يسمعهما وهما يتكلمان عن ذلك الموضوع المثير للمشاكل.

- لا أدري، لكنّي سأرحل... أحتاج مساعدتك. أطلب منك أولاً ألّا تخبر بذلك أحداً. فأنت تعرف كيف تسير الأمور هنا. وهذا بالذات هو ما يجعلني أفكّر في الرحيل...

- أكرر عليك أنّي لا أفهم شيئاً ممّا تقول. لماذا تقول لي ذلك؟

- منذ أشهر وهم يراقبونني. ليس هذا وهماً أتوهمه. أعرف أنّ هناك من لا يعجبه سلوكي ونمط حياتي، ويحاول أن يؤذيني... بل، أظنّ... هل تقسم لي على أنّك لن تحكي ذلك لأحد؟ هيا، اقسم لي.

- والتر. والتر... حسنا. أقسم لك على ذلك...

- أظنّ أنّ غيستي، خطيبة هوراثيو، هي المكلفة بمراقبتي والتجسس عليّ. وهي التي تبلّغ عنّي أولاً بأوّل... فتلك هي وظيفتها، بل أظنّ أنّها تبلّغ عن البقيّة، وعنك، بالتأكيد. وهكذا تكتمل الخطة.

- قلتَ إنّكَ لستَ واهماً ولا مجنوناً ولا تشكو من ضغوط نفسيّة؟ هل دخّنتَ شيئاً اليوم؟... لا أدري عمّ تكلمني... جاسوسة لمراقبتك وحدك؟ ومن تحسب نفسك؟ سولجنيتسين؟ المشكلة أنّكَ... - أدرك داريّو أنّه تجاوز حدوده.

- أوكي، أنت لا تصدّقني... ليس مهماً، أنت حرّ... أنا مجنون، لكنّي أطلب مساعدتك.

- وكيف لي أن أساعدك؟ أتريد أن أعيرك يختي الأزرق أم الأبيض؟

- الدبلوماسي التشيكي الذي أجريت له عملية في عموده الفقري وصار صديقك. قل له إنّك تريد أن تهديه لوحة، قدّمني له والباقي عليّ. قل له إنّها لوحة لسافاندو...

شعر داريّو بجفاف في حلقه. فقد دخل الحديثُ أرضاً موحلة.

- لا أدري إن كان... ولكن، وهل تريد الرحيل لأنّهم يتعقبونك؟

- هذا سببٌ من الأسباب... المشكلة أنّي لا مكان لي هنا. هم يريدون أن يغيّروا طينتي وفق ما يرغبون. أوشك أن أختنق. أشعر بألم في رأسي!... وإن حدث ما يجب أن يحدث بالتأكيد، فستسوء الأمور وستقسو، وحين تسوء الأمور وتقسو، فليس أمامها إلا أن تضغط على البراغي المرتخية. وأنا لستُ مستعداً لذلك. لقد تعبت... فهل ستقدمني للتشيكي؟

- أنت تطلب منّي أن ألعب بالنار. فلو علمتْ غيستي وبلّغتْ عنّي فسيرسلون بجلدي إلى الدبّاغ -قال، وهو يتصنّع الابتسام-. هل أنتَ متأكد من أنّك تريد الرحيل؟ هل أنت مضطر إلى الرحيل؟عن جد أنّك تظنّ أنّ صاحبة الصدر الكبير تراقبك وتراقبنا؟ وتطلب منّي أن أساعدكَ وأنت تعلم بكلّ ذلك؟

- لستُ متأكداً من أيّ شيء. ما أريده هو أن أزيل الضغط عن صدري، وألّا يشتد ألم رأسي.

- وماذا ستفعل هناك؟ تعيش عيشة رسّام؟

- ربّما، وربّما لا أعود إلى الرسم إطلاقاً. العزلة والمراقبة يطبقان على رقبتي. كلّ شيء هنا سيّئ... داريّو، أستحلفك بأمّك. أريد أن أرحل وكفى.

فكّر داريّو وتساءل إن كان أنانياً. هو أيضاً أراد ذات مرّة أن يرحل، لكنّه أراد السفر والعودة بعد أن يبلغ حالاً أحسن ويبلغ درجة أرفع. لطالما حلم بالسفر لحضور مؤتمرات، أو بأن يرقى إلى منصب مدير المعهد أو أن تخصص له سيارة جديدة. فلماذا لا يستطيع غيره أن يرحل ليبني حياته في مكان آخر ولكي يصبح رساماً أفضل أو شخصاً آخر؟هل لذلك السلوك الجامح علاقة بتعاطي نوع من المخدرات أقوى من الماريجوانا، كما يخمّن؟ لكنّ ما يقلقه، أو بالأحرى يخيفه، هو أن يكون مستودع نوايا الآخر والقيّمَ على أسراره وخططه.

- فعلاً. هذا يكفي... - أجاب الطبيب، الذي تمنّى في تلك اللحظة لو أنّه كان بعيداً عن ذلك المكان وعن والتر.

- يا له من جنون! أن ينظروا إلى الرغبة في الرحيل على أنّها جريمة

تقريباً... أو من دون «تقريباً»... ألا يجب أن يكون ذلك حقاً من الحقوق؟ ألا يجب أن يكون مسألة شخصيّة لا مسألة دولة؟ كلّ هذه الأمور هي ما يدفعني إلى الذهاب إلى الجحيم. أنا لستُ جندياً، أنا فنّان، وفوق ذلك، غبيّ من الأغبياء الذين يؤمنون بالحق في ارتكاب الأخطاء. إن وقعتُ، فهذه مشكلتي، وأنا المسؤول الوحيد عمّا سيقع. إذن، هل ستساعدني؟... أنا أعرف، هم عازمون على تدميري وسحقي. أعرف ذلك...

طلب داريّو منه بعض الوقت لترتيب الأمر، لكنّه كان يعلم أنّه لن يسهّل الاتصال: فوالتر يدفعه دفعاً إلى لعبة خطيرة، وهو ليس مستعداً ليحرق نفسه بيده. يتكلّم مع دبلوماسي تشيكي؟ غيستي مخبرة؟ والتر ملاحق؟ هروب من البلاد؟ الرسام في حاجة إلى طبيب نفسي لا إلى جراح أعصاب. أو جواز سفر وتأشيرة مرور... لكنّ الحديث ظلّ عائماً في ذهنه ثمّ صعد إلى السطح، وهو يقود سيارته عائداً إلى (فونتانار)، محمّلاً بصناديق البيرة والرز ورؤوس الثوم وأطنان من الإحباط.

وصل داريّو إلى بيته وقد أسدلَ الليلُ الشتويّ المبكر سدوله، تسنده عتمة مدنيّة مخيفة، تهدد بقطع وشيك في الكهرباء. وانخفضت معنوياته، وهي الهابطة أصلاً، مع انقطاع الكهرباء، فلم يكلّف نفسه عناءَ رفع زجاج نوافذ سيارته المتقادمة، بل لم يكلّف نفسه عناء إدخالها في الكراج، وهو الذي كان يحرص عليها منذ أن خصصوها له قبل ثلاث سنوات، وكانت مخصصة من قبله لمدير المستشفى، الذي خصصت له سيارة جديدة. لقد اعتنى داريّو بالسيارة وردّ إليها اعتبارها بعد أن غيّر وبدّل فيها قطعاً كانت كلارا تحصل عليها بشتّى الطرق من مخازن ورشتها، وبمعونة ميكانيكي متخصص في بثّ الروح في كلّ ما هو ميّت.

التفّ داريّو من وراء البيت، ضجراً متعباً، وتوجّه نحو الباحة، حيث كان رمسيس وماركوس وأولاد آخرون يوشكون على الانتهاء من مباراة في كرة القدم مع آخر ضوء النهار، وطلب من ولديه أن يُنزلا الأكياس من صندوق السيارة وحذرهما من أن يتبرما أو أن يحتجا. فاجأت نبرة الأب الخشنة الولدين، فانصرفا لتنفيذ ما طلب. توجّه داريّو من المدخل الخلفي مباشرة إلى المطبخ، حيث كانت كلارا تعدّ الطعام على ضوء مصباحٍ نفطي صيني قديم.

اقترب منها. تبادل الاثنان النظرات دون أن يتفوها بكلمة. كانت ملامح وجهيهما تعبّر عن مشاعرهما: ظلام، بعوض، قلق، خوف، حيرة. اقترب وأمسك بخصرها وقبّلها في رقبتها.

- أنا وسخة - قالت له.

- لا يهمّ -قال-. أحتاجك. أحتاجك كثيراً. أنا أنهار - أضاف، فاستدارت لتقبّله. كانت القبلة عادية وساخنة، لكنّها بدت لهما غير طبيعية، فأطالا فيها، بينما راح هو يداعب صدرها.

- لو أني استحممتُ، لو كان الطعام جاهزاً، لو لم أكن أنتظر الولدين، اللذين سيأتيان في ظرف ثلاث دقائق، قذرين صارخين ميتين من الجوع... - قالت.

- لا عليك من كلّ ذلك. لا تضيّعي الفرصة - قال لها يترجاها تقريباً.

- وجهك فظيع... ماذا جرى؟

- جرى كلّ شيء. الكثير. لا تطلبي منّي الكلام عمّا جرى -طلب منها، لكنّه لم يستطع السكوت-. السفر إلى برشلونة شبه مستحيل. فالأموال المخصصة جمّدت. ليس عندهم أموال.

- ليس عندهم أموال... ولا بترول، ولا كهرباء... لكنّك تعرف ذلك كلّه.

- أعرف أنّكِ أنتِ وهذين المتوحشين جياعٌ... والبيت... وأمامنا حفلة... كنتُ أريد أن أحكي لك عن أمر آخر.

- ماذا جرى؟ خبّرني، بربّك!

- والتر... غيستي... الجدران التي تنهار... عليك أولاً أن تُخرجي الشيطان الذي في داخلي، هيّا. - عاود تقبيل امرأته، بحرارة أشدّ.

سيظلّ داريّو وكلارا يذكرانِ امتزاج جسديهما ذاك، فقد كان الأخير الذي غمرهما، وقد قدّما فيه أفضل ما في خزين طاقاتهما الجنسيّة. ربّما لأنّهما أطلقا العنان لكلّ جنود الشيطان الذين كانا يضمانهم بين جوانحهما.

بعد يومين، أتمّت كلارا عامها الثلاثين. وبعد خمسة أيام أخرى هبّت العاصفة التي قلبت حياة كلّ واحد من أعضاء الأخويّة. ما كان أغربها من عاصفة، وما كان أشدها وأعتاها!

في 20 كانون الثاني، وصلت إلى الجزيرة جبهة هواء باردة، مسبوقة برذاذ من المطر، بعد أن عرّجت بخليج المكسيك. أعقب الهواءَ البارد انخفاض في درجات الحرارة، فتلبّدت سماء عصر الحادي والعشرين بالغيوم وكساها ضوءٌ ساطع رمادي اللون، وسجّل الترمومتر، في باحة بيت (فونتانار)، ست عشرة درجة، رأى فيه أغلبُ المدعويين برداً قادماً من القطب الشمالي.

لم تنعم كلارا بليلة هادئة. فقد نامت، بعد أن تغلب عليها التعبُ، لكنّها صحت عند الثانية والنصف فجراً، مفزوعة من كابوس رأت فيه نفسها تبحثُ عن طفلين ضائعين هما طفلاها، لكنهما لم يكونا رمسيس وماركوس. ثمّ رأت نفسها تطلّ برأسها على هاوية يملأها ضبابٌ كثيف وخانق، وشعرت كأنها أصيبت بالعمى وتخشّبت. صحت، لكنّها لم تستطع النوم ثانية، بعد ما أصابها من بلبلة واضطراب. واجتاح رأسها سيلٌ من الأفكار المتضاربة: الحفلة؛ دورها فيها؛ إحساسها المذبذب بين الرغبة والنفور تجاه داريّو، داريّو الذي يزداد إحباطاً على إحباط؛ التوتر الغريب الذي يسببه لها قربُ إليسا؛ أولى إشارات الأزمة الماديّة والروحيّة التي ستلفّهم وتعكّر أيّ استشراف للمستقبل. إضافة إلى جنون والتر وخططه، وشكوكه بشأن غيستي، التي نطّت فجأة في رأسها، لتضخّم سيل الدلائل التي تشير إلى أنّها تشهد بداية النهاية لكثير من الأشياء. أمّا تلك القادمة، فستكون، ربّما، الأخطرَ والأقسى، وهو ما لم يخطر ببالها وقوعُه في الحاضر، وفي مستقبل بدأ يتشكّل، على مستوى العائلة والوطن والعالم، بأعتم ألوانه، في ليلة الأرق تلك. وهذا هو ديدن الأشياء في ليالي الأرق.

بدأ إحساسُها بالضيق يتراجع، وغمرها شعورٌ بالراحة، وهي ترى قطراتِ المطر تتصادم، وخيوطَ الماء ترسم أشكالاً عشوائيّة على زجاج النافذة

المطلّة على الفناء. عند الفجر تقريباً، أحسّت بالنعاس، فغرقت فيه، على غير عادتها، حتّى التاسعة صباحاً من ذلك اليوم الذي صادف ذكرى ميلادها الأجدر بالتذكّر والذكرى.

عاد أعضاء الأخويّة عصرَ ذلك اليوم إلى بيت (فونتانار) للاحتفال بعيد ميلاد كلارا الثلاثين، تنبعث من معاطفهم رائحة الخُزُن التي كانت محفوظة فيها. كان برناردو وإليسا أولّ الواصلين. تبعهما فابيو وليوبا، فقد كان على فابيو أن يساعد داريّو في شيّ الخنزير على الفحم، بينما يعدّ برناردو وليوبا العدّة لطبخ الرز والفاصوليا والبطاطا الحلوة اللذيذة، التي ستتكفّل إليسا وكلارا بتقشيرها. وعلى سبيل الإحماء وفتح الشهيّة صبّ برناردو لنفسه كأساً من الرون. نظر إليه الآخرون، وهم يتوقعون أنّ همّته في الطبخ لن تدوم طويلاً، فجهّز إرفينغ وجويل نفسيهما ليحلا محلّه في أيّة لحظة. أمّا هوراثيو ووالتر، فلا يمكن الاعتماد عليهما، إذ اعتادا الوصول متأخرين. لم يكن ممكناً أيضاً الاعتماد لا على الشقراء غيستي، التي ستأتي وقد طلت أظافرها، ولا على مارغاريتا *البِينتا*، الأشدّ سماجة من أمّها التي خلّفتها، بحسب تعبير إرفينغ الظريف.

استمتعت كلارا بحمّام ساخن وطويل، وانهمكت بالتحضيرات قبل أن تضع الزينة على وجهها. استندت إلى الثلّاجة وبيدها السكين، استعداداً لتقشير البطاطا. أشعلت سيجارة وراحت تدخن. هل في مقدورها أن تقلع عن التدخين حقاً؟ من مكانها، كان تصميم المطبخ، الذي وضعه والداها، يسمح لها بنظرة بانوراميّة للترّاس والباحة، وفي مركزها المنضدة، وفوقها كعكة الشوكولا التي اختارتها إليسا، مزيّنة بثلاثين شمعة حمراء صغيرة. ولإشاعة أجواء الاحتفال، تدلّت من السقف سلاسل من الورق، وأربعة واقيات ذكريّة منفوخة تعويضاً عن البالونات، المفقودة في السوق. حين بدأت بتقشير البطاطا، أعادت تلك الأجواء، التي تراوحت بين الطرافة والسرياليّة، إلى ذاكرتها، مثل بومرنغ[32] خبيث منحرف، صورة إليسا

32 -. *Boomerang* أو الخذوف وهو عصا معقوفة تستعمل سلاحاً أو في الرياضة. لها خاصيّة الاستدارة والارتداد صوب راميها بعد إصابة هدفها.

الجالسة وقد طوّقت ساقيها بذراعيها. ولم تلبث إليسا أن اقتربت منها، فكأنّ تفكير كلارا استدعاها، وطلبت منها سكيناً لتساعدها في تقشير البطاطا.

- البسي الصدريّة. هل رأيتِ كم هي متربة البطاطا؟ - قالت، وهي تناولها السكين.

أنزلت إليسا الصدرية من الشماعة وتركتها بالقرب من المغسلة. خلعت بلوزتها الصوفيّة الإنكليزيّة وتناولت الصدرية ثانية لتلبسها. في تلك اللحظة، لاحظت كلارا بقعة زرقاء على عضد إليسا الأيسر.

- ما هذا الازرقاق، يا فتاة؟

نفت إليسا أولاً ثمّ ابتسمت.

- متطلبات المهنة... رفسة حصان.

- يا إلهي! إليسا!... قضيتِ حياتكِ في هذا... وماذا لو كانت الرفسة في بطنك؟

هزّت إليسا رأسها

- لا تقلقي... اليوم طلبتُ إجازة بدون راتب لحين استحقاقي إجازة الأمومة.

- حسناً فعلتِ - تنهدت كلارا، وعادت إلى تقشير البطاطا.

كان في مقدور كلارا، وهي في مكانها، أن تشمّ رائحة إليسا. أحسّت، كما بات مألوفا أن يقع لها، بأنّها ضائعة. بأنّها كائن آخر. لا تعرف من هو وكيف. لكنّه كائن آخر. اضطرت إلى فتح موضوع جديد.

- ماذا جرى لبرناردو، إليسا؟ ألا تلاحظين أنّه صار يشرب كثيراً؟

- يشرب كما يشرب دائماً.

هزّت كلارا رأسها بالنفي.

- و... وما مشكلتكما، أنت وبرناردو، مع والتر؟

أبقت إليسا انتباهها ونظرها مشدودين إلى ما بين يديها.

- ما من مشكلة. لكنّنا لا نطيقه و... آآآي، تباً! يا للبطاطا القذرة...

سمعت كلارا شكوى صاحبتها وصوتَ السكين المعدنية التي ألقت بها في المغسلة. فعادت إلى نفسها. رأت إبهام إليسا وقد اصطبغ بالدم.

- يا إلهي!... ضعي إصبعك في المغسلة.

- اللعنة على... - قالت إليسا ووضعت إصبعها المجروحة تحت الماء، فاصطبغ الماء بلون الدم.

- ليس الجرحُ غائراً... ليس كبيراً -تطلّعت كلارا-. انتظري -طلبتْ من الأخرى، وأخرجتْ من أحد الدروج قطعة قماش نظيفة-. اضغطي هنا وأبقي على إصبعك مرفوعة.

فعلت إليسا ما أمرتها به كلارا. كان الألم ينعكس على وجهها. عاونتها كلارا على الإبقاء على ضمادة إصبعها.

- في مقدوري أن ألقحَ بقرة وأن أجري عمليّة لثور، لكنّي لن أتعلّم تقشير البطاطا - قالت إليسا.

- أنتِ لم تولدي لتقشّري بطاطا... -علّقت كلارا، وابتسمتا-. دعيني أرى...

رفعت كلارا الضغط عن الإصبع المصابة وأزالت بلطف الضماد عنها. لم يبق غير خطّ أحمر بين أخاديد البصمة، لكنّ احتمال النزف ما زال قائماً.

- هل لديك شريط لاصق؟ - سألتها إليسا.

- في حمام الطابق العلوي... سآتي لك بواحد. دعي الإصبع مضمدة ولا تخفضيها.

- ماذا دهاك كلارا!... كأنّكِ نسيتِ أنّني أفهم في الجروح ومداواتها...

نزعت كلارا الصدريّة وصعدت إلى الطابق العلوي عبر السلّم الخشبي المحشور في الجدار. دخلت إلى حجرتها، ذهبت إلى الحمّام وفتشت في الرفّ حتّى وجدت علبة الضمادات. فتحتها: لم يبق منها غير اثنتين. خرجت من الحمام والعلبة في يدها، وحين دخلت إلى الحجرة، رأت إليسا، وقد رفعت إصبعها، كأنّها تلوّح بإشارة *أوتو* - ستوپ إلى السماء.

- ما كان ضرورياً أن تصعدي...

- صعدتُ هرباً من اليينتا -قالت-. وصلا للتو، هي والتحفة زوجها... لا أطيقه... هل كان ضرورياً أن تدعيهما؟

- لا ضرورة لدعوته، لأنّه يظهر حين يجب أن يظهر.

ابتسمت كلارا وهي تخرج أحد الشريطين وتضع العلبة فوق أحد الدروج. وبحرص من لا يريد التفريط بالشريط بدأت بفصله عن قطعة الورق التي تغلّفه.

– هاتِ إصبعك – طلبت من إليسا ووضعت، بعناية أشدّ وحرص أكبر على ألا تؤلمها، اللصقة فوق الجرح الذي ما عاد ينزف إلّا قليلاً، ثمّ بدأت بسحب طرف اللصقة لتثبيت الجزء اللاصق على أفضل وجه ممكن. وبينما كانت تجري العمليّة، شعرت كلارا ببطن إليسا المرتفعة تمسّ بطنها، وتنشقّت بشراهة عطر الصديقة وغسول شعرها وزينتها. تنشقت عطر المرأة فيها. حين انتهت من وضع اللصقة على الإصبع، ظلّت كلارا لحظات تمسك بيد إليسا. كم تدوم اللحظة من وقت؟ كم تستوعب اللحظة من حدث؟ لم تعرف في أيّ جزء من تلك اللحظة، الساقطة، ربّما، من الزمن أو من سيّد كلّ الأزمنة، وهي تتلقّى ببطنها المنبسطة ضغط بطن الأخرى المنتفخة، بدأت حركة (هل هي حركة صادرة منها؟ من إليسا؟ من كلتيهما؟) والتصقت شفتا إحداهما بشفتي الأخرى. أحسّت كلارا بساقيها ترتجفان، وراح دماغها يحلل رضابَ الأخرى، يتذوّق طعمه، ويتحسس لبّ شفتيها، وقوّة لسانها الناعم المدبب، وأسنانها التي راحت تبحث عن لحم تنغرز فيه. لحظة أخرى أم أكثر من لحظة؟ بماذا فكّرتْ، بماذا أحسّت، ماذا تذوّقت وماذا بلعت، ماذا أعطت وماذا أخذت؟ من منهما كسرت التوازن؟ أسئلة طرحتها على نفسها لاحقاً، لأنّ نداء أوقفها ومسح عملية هضم الأحاسيس تلك التي بعثت الاضطراب في نبض قلبها.

– مامي، مامي! – صرخ ولدُها ماركوس، الذي أطلّ برأسه من باب الغرفة.

كانت كلارا ما تزال تمسكُ بيد إليسا الجريحة، وربّما تأخرت أكثر من لحظة (هل هي تلك اللحظة ذاتها أم هي أخرى؟) بين اللفتة والدوار واسترداد الوعي والردّ على ولدها الأصغر:

– لا تصرخ، ماركوس، رجاءً! – صرخت به، وقد بدت مضطربة. ماذا عساه رأى؟

- ما بإليسا؟ - سأل الطفل.

- جُرحتُ بالسكين... وقد انتهى الأمر - قالت إليسا، وهي تتحرر من يدي كلارا وتتقدّم نحو ماركوس لتريه الأصبع المضمّدة. حين مرّت من جنب الطفل وعبثت بشعره بيدها السليمة، وتساءلت كلارا إن كان ما قصدته، واقعاً، هو أن تعبث بأفكاره. ما الذي رآه طفلها ذو الست سنوات؟ إن كان رأى شيئاً، فماذا عساه سيظنّ؟ انتظرت كلارا الليلَ كلّه أن تسمع شيئاً من طفلها، لكنّه لم يقل شيئاً، لا في تلك الليلة ولا في الأيام اللاحقة. ولم تجد كلارا أجوبة على أسئلته حتى بعد ما يقرب من ثلاثين سنة، حين لم تعد الكثير من الأجوبة تهمّها إلّا قليلاً، أو حين باتت تؤثر فيها، ولكن بطرق أخرى.

انضمّت كلارا إلى المحتفلين، لكنّها حرصت على أن تبقى بعيدة عن إليسا. سلّمت على آخر الأصدقاء الواصلين -هوراثيو وغيستي، وحين تلقّت قبلة الشقراء ذات العينين المنبهرتين، مرّت ببالها شكوك والتر وقبلة إليسا-، وضعت البطاطا على النار ورشتها بالملح وصبّت لنفسها كأسا من الرون الذي جاء به والتر: كأسٌ مخدّرة. ما كانت تريد أن تفكّر، ولا أن تسمح لنفسها بالتفكير: فسيتوجب عليها أن تفكّر كثيراً، سيتوجب عليها أن تفكّر في كلّ شيء.

حين كان المدعوون مجتمعين بين الباحة والترّاس، يشربون ويتكلمون، بينما البطاطا تغلي في طنجرة عظيمة من الألمنيوم، والرز يطبخ في ثلاثة قدور حراريّة، والفاصوليا تنشر عطرها على الخلطة، والكمّون يتماسك على نار هادئة في قدور الضغط المكشوفة، والخنزير يتقلّب ثانية على الجمر ويعد برائحته الذكيّة، طلب برناردو، والكأس في يده، من الجميع الانتباه إليه. طلب من الجميع أن يشربوا نخباً، وأشار إلى رمسيس بأن يوقف الموسيقى -كان وضع *بوليرو* مشهور يغنيه پابلو ميلانيس كانت إليسا تحبّه حدّ البكاء- وغيّر الأسطوانة.

بحث برناردو، بخطوات مهزوزة، بعد كلّ من احتساه من الرون، عن أعلى مكان يطلّ على الحديقة. حاولت كلارا أن تتجنّبَ النظرات التي بدأ

الآخرون يتبادلونها، مع ابتسامة ساخرة على شفاههم، وشعرت أنّ النظر إلى برناردو يسبب لها شعوراً بالذنب. أضاء فلاش كاميرا والتر المكان وبلل برناردو ريقه، بانتظار أن تبتعد الطائرة التي أقلعت للتو من مطار (رانچو بويروس) القريب.

– من فضلك، رمسيس – قال برناردو أخيراً. ابتسم الطفل وضغط على زر تشغيل المسجّل.

ملأت دندنات الغيتار، التي تلقفها الجميعُ في الحال، باحة البيت. وارتسمت الابتسامة على وجوه البعض، واهتزّت رؤوس البعض الآخر، ونظر الجميع مندهشين إلى برناردو، الذي ظلّ ثابتاً، وقد أغمض عينيه، حين سمع صوت ستيف والش، مؤدي كنساس، صافياً رائقاً:

أغمض عينيّ لحظة
وتمضي اللحظة
وتمرّ كلّ أحلامي أمام عيني، يا للغرابة!
غبار في الريح
كلّها غبار في الريح
[بالإنكليزيّة]

فتح برناردو عينيه، ومرّ بنظرته عليهم جميعاً. خشيت كلارا أنّ أمراً خطيراً حدث. كانت تعرف أنّ برناردو يعشق تلك الأغنية، لكنّها رأت أنّها غير مناسبة لحفلة. حلّق عزفُ كمان روبي شتينهارد المنفرد الموحش في الأجواء، وعندها دخل المقطع الأخير من الأغنية:

غبار في الريح
كلّنا ما نحن عليه غبار في الريح
غبار في الريح
كلّ شيء غبار في الريح
الريح...
[بالإنكليزيّة]

ألقى برناردو نظرة ثانية على وجوه الحاضرين، الذين ظلّوا يترقبون صامتين.

– أليست هذه واحدة من أجمل الأغاني؟... وأكثرها صدقاً؟... طبعاً، كلّ شيء غبار في الريح... ولذلك أريد أن أقول لكم شيئاً، قبل أن تبدأوا بملء بطونكم بالخنزير المشوي والرّزّ والفاصوليا. -ابتسم برناردو، ولمعت عيناه، بخضرتهما العميقة الغامضة والجذّابة-. لا أدري إن كنتم راجعتم حساباتكم...، فالدور دوري لمراجعة الحساب، أم نسيتم أنّي سيبراني في الرياضيّات؟ الحسابات تقول إنّ هذه هي المرّة الحادية عشرة التي نجتمع فيها هنا للاحتفال بعيد ميلاد حبيبتنا كلارا. كانت المرة الأولى عام 1980، وكنّا جميعاً تقريباً، عدا والتر المقرف، كما يدعوه أحدهم، الذي كان حينها يصطاد الدببة في سيبيريا. لم يكن معنا أيضاً جويل، لأنّه لم يكن ظهر بعد؛ ولا مارغاريتا، لأنّنا كنّا نجهل أنّها موجودة؛ ولا غيستي، لأنّها كانت في الابتدائيّة... ولكن، هل يتذكّر الذين كانوا حاضرين آنذاك كيف كنّا عام 1980؟ عال العال. أليس كذلك؟ وها أنتم ترون الآن كيف نحن عام 1990. بلغنا جميعنا تقريباً الحادية والثلاثين وما عدنا أنفسنا، كما قال مارتي...

– يا لكَ من حمار! هذا من شعر نيرودا – صحّح له إرفينغ.

– شاعرٌ ما! المقصود أنّنا لن نكون أنفسنا أبداً ولا حالنا حالنا... لأننا كما ذكرتُ وقلت: غبار في الريح... ولكن بثقوبٍ وخرومٍ وندوب... نحن مجتمعون، وهذا ما أردتُ قوله. ونحن مجتمعون لأنّ كلارا كانت قطعة المغناطيس التي أبقت علينا هكذا، متراصين، في هذه الأخويّة التي نكوّنها -هزّ رأسه وشرب جرعة وابتسم-. كلارا وبيتها. كلارا وصبرها علينا. وما أكثر ما صبرت علينا!... ولكن قبل أن نشرب نخب قديسة الأصدقاء كلارا، ماما كلارا، أريد أن نشرب أولاً نخب أمرأتي، إليسا، حياتي... وماذا بعد، إرفينغ؟

– «حين كنّا، في ذلك الوادي// نسير ونقطف الزهور اليانعة// تهدهدنا الريح الباردة»

– شكراً، إرفينغ... تهدهدنا الريح الباردة.. باردة قليلة، أليس كذلك؟ –قال برناردو، وابتسم الجميع ما عدا والتر وإليسا وكلارا–. كنتُ أقول... إليسا، حياتي، هذه المرأة التي أنا مستعد، من أجلها، أن أرتكب جريمة قتل، لأنّ في أحشائها يكبر الطفل الذي طالما كافحنا وعانينا، كما تعلمون، لنحصل عليه. طفل قال أحدهم إنّه سيولد بفضل الربّ أو بفضل معجزة، لكنّي أقول إنّه سيولد بفضلي وفضل زوجتي. وأعدكم بأن اسمه سيكون، إن كان بنتاً، كلارا إليسا، أمّا إذا كان صبيّا فسأسميه أتيلا –ابتسم، وابتسم الآخرون كلّهم تقريباً–، لأنّه سيكون بربرياً وسأربيه ليصبح ضاربَ كرة أو ملاكماً أو موسيقيّاً، وهو أفضل ما يمكن للمرء أن يكون في هذا البلد البائس... نخب إليسا ونخب رحِمِها! ونخب النصر النهائي! في صحتكم! –صاح، ورفع كأسه، فردّ الآخرون بالمثل–. ولنشرب نخب كلارا ونتمنى لها عمراً مديداً، وأن نجتمع دائماً، دائماً لنحتفل بعيد ميلادها! في صحتك، كلارا، وعيد ميلاد سعيد! – علت الصيحات وعلا التصفيق والصفير وجرى الشراب أنهارا.

بعد كلمات برناردو، بدا التأثر حتّى على مارغاريتا لا پينتا، بينما راح الأصدقاء يتبادلون العناق والقبلات، وراحوا يضحكون ويتبادلون التهاني، بين قرع كؤوس وأقداح. تجنّبت كلارا الاقتراب من إليسا، وإن لاحظت، بقلق، ابتعادها عن والتر (أم إنّ والتر كان يبتعد عنها؟)، وانتظرت، بقلق، لحظة أن يتبادل إرفينغ وإليسا القبلات والكلمات حول خطبة برناردو الغريبة وقوله بأنّه مستعدّ حتّى للقتل من أجل المرأة التي تحمل جنيناً، يفترض معظم الحاضرين أنّ من زرعه في بطنها رجل آخر. أم لا؟

– صورة جماعيّة! – صاح هوراثيو، ووضع ذراعه على كتفي كلارا، بينما أمسك بيد غيستي لكي لا تشعر بأنّها مهمشة.

– هيّا. صوّرْ...

– تعالوا إلى الحديقة، ففي الترّاس انعكاس للضوء! – طلب والتر، وهو يحرّك ذراعيه كأنّه يقود قطيعاً من الغنم.

أمّا فابيو، الذي كان على الطرف الأيسر، فقد مدّ إحدى ذراعيه على

كتفي ليوبا. أمسك إرفينغ بيد جويل الخجول ووقفا إلى جانب المهندسين. واحتلت إليسا وبرناردو المكان المجاور لهما، ووقفت المرأة في مواجهة المصوّر. شبكت كلارا ذراعها على داريّو وأسندت، وهي غير راغبة، كتفها بكتف إليسا. ووقف هوراثيو، دون أن يطلق يد غيستي، إلى جانب أصحاب البيت، وفي الطرف الأيمن، وقفت مارغاريتا محاولة أن تداري على وضعيتها المألوفة التي تغطّي على ركبتيها. وركض رمسيس وماركوس ليقفا في المقدمة، بينما نادت ليوبا على فابيولا، التي لم تظهر.

- أظنّ أنّها في المرحاض - قال ماركوس، وضحك الجميع في اللحظة التي كان فيها والتر، من مكانه المرتفع، يقف خلف الكاميرا ويراقبهم ويطلب منهم أن يتراصّوا. عندها سحب برناردو إليسا من كتفيها، وفصلها سنتمتراتٍ عن كلارا وأوقفها قبالته، في وضعيّة جانبيّة من العدسة.

- واصِلوا الضحك، رجاءً، لأنّ فابيولا في المرحاض! - صاح والتر مرتين، وعينه ملتصقة بالكاميرا، لا تتحركوا. وأومض *الفلاش* ومضة واحدة. عندها صرخ هوراثيو:

- يااااااا. لقد احترق الخنزير!

وبينما كان والتر يدوّر الفيلم ويخرجه من الكاميرا، تفرّق أعضاء الأخويّة، مبتسمين... كغبارٍ في الريح.



3

هل الطقسُ حارٌ في هافانا؟

كان إرفينغ يعرف حقيقة أنّ كلّ واحد ينوء بحمل مخاوفه، مع ذلك، فلطالما ذكّره الواقع بتلك الحقيقة: كلّ واحد يحمل مخاوفه، وإن حمل بعضهم أكثر ممّا يحمل بعضهم الآخر.

حين خرجَ من بناية المطار وتلقّى لطمة الرطوبة اللزجة، ظنّ أنّه سيسقط مغشيّاً عليه. ما هذا! لقد أنسته السنواتُ الأربع عشرة من البعد عن الجزيرة حرارة الطقس، وأنسته تقديره لفعلها الطاغي. فمع الحرارة انبجس العرق من كلّ مسامة من مسامات جلده، حتّى أحسّ بقطراته تنساب عليه وتغمره، من قمّة يافوخه حتّى أخمص قدميه، وتدخل في عينيه لتزيد من رغبته في البكاء. لكنّ إرفينغ يعلم علم اليقين أنّ الحرّ الدبق الوسخ ليس هو السبب الوحيد لتعرّقه ورغبته الملحّة في البكاء: بل هو خوفه، وحضوره الدائم الذي لا يستطيع منه فكاكاً، فالخوف عنده جزءٌ من الأوكسجين الذي يستنشقه في الجزيرة، وهو حالة التسمم التي جعلته يبتعد عنها. إنّه ذات الخوف الذي ظنّ، بعد كلّ تلك السنوات، أنّه طرده، لكنّه عاد عودة بومرنغ [32] محتالاً تائهاً في البعد الرابع، ليضربه بقوته الطاغية. الخوف الذي أبقى عليه ساعات جالساً على مقعده في الطائرة يعاني، بلا جوع، من نوبات متكررة من الإسهال.

قبل ساعتين ونصف الساعة، حين غادر إرفينغ الطائرة التي حطّت على تراب الوطن، كان عليه أن يمرّ من بين ثلاثة رجال يرتدون بدلة رسمية وينظرون إلى كلّ مسافرٍ كأنّه متهم، أو كأنّه مسؤول عن كلّ جرائم الأرض.

عندها، تفجّر ذلك الخوف فيه، بعد أن تضخّم وفاق مرحلة الرهبة. أحسّ به يتصاعد ويتعاظم، مع تقدّمه نحو كابينات الهجرة التي غصّت بالمسافرين. إنّه يسمع دقات قلوبهم، حتّى خشي أن يسقط مغشيّاً عليه، وخاف أن يسمع عنصرُ الأمن، وهو يختم جوازه، نبضات قلبه.

ثلاثون دقيقة في طابور الهجرة: تصل إلى كوبا ويتلقّاك الطابور. «بلد الطوابير الطويلة»، فكّر وهو يقرأ إعلاناً موجّهاً للقادم يقول له إنّه وصل إلى «جنّة تحت الشمس». وقف أخيراً أمام كابينة أمن الحدود، وقد نشف بدنه من تعرّق عصبي وإسهال عصابي. وقف وفي جسمه من الوهن أكثر ممّا فيه من الارتعاش. تمتم بمساء الخير وسلّم جوازه الكوبي الذي تزينه تأشيرة حصل عليها من قنصليّة كوبا في مدريد.

– إر... – بدأ عنصر الأمن.

– إرفينغ كاستيّو كويستا – بادره هو فزعاً.

– انظر إلى الكاميرا –طلب منه الضابط، فنظر إلى الكاميرا–. في أيّة رحلة قدمت؟

– الكوبية.

– من أين؟

– من مدريد...

– هل لديك جواز سفر إسباني أيضاً؟

– نعم

– أرني إيّاه.

– تفضّل، رفيقي.

– أين ستسكن؟

– في بيت والدتي، المريضة، المسكينة، في البيدادو، شارع K، رقم 312، بين 15 و17... الطابق الثاني...! شقّة رقم 24!

– تذكرة العودة؟

– ها هي...

كان إرفينغ يتكلّم والآخر لا ينظر إليه. شعر بالوهن الذي دبّ في ساقيه

يزداد، بينما كان ضابط الأمن يقرأ، بدقة وحرفيّة، جوازه ويتفحصه، ثمّ يبحلق في التذكرة ويصغّر عينيه، ليتأكّد من المعلومات ويقارنها مع ما يبدو أنّه ظاهر لديه على شاشة حاسوبه (هل سيقول له إنّه كان سجيناً أم معتقلاً أو الله أعلم ماذا يسمون أيّام حجزه الفظيعة؟) ثم يعاود النظر إلى إرفينغ قبل أن يواصل مهمته. اللعنة! لماذا كلّ هذا التأخّر؟ نعم. أكيد أنّه يقرأ أنّي كنتُ سجيناً، أو معتقلاً؟ لديهم إضبارتي مرقمنة، ملفّ ضخم وناصح، قال لنفسه، وقد تحرّكت أمعاؤه مهددة وفاضت مساماته وغرقت.

تمنّى في تلك اللحظة لو أنّهم رفضوا دخوله إلى كوبا وأعادوه إلى إسبانيا في الطائرة ذاتها التي جاء بها. منذ أن خرج من الجزيرة، قبل ما يقرب من خمسة عشر عاماً، وأقسم أنّه لن يعود إليها، عاش إرفينغ الكابوس ذاته الذي عاشه جميعُ الكوبيين الذين اضطروا إلى الهجرة: سيعود ذات مرّة إلى الجزيرة و... لن يسمحوا له بالخروج منها ثانية. مهما شرح لهم أنّه لم يرتكب جرماً ومهما وضّح ومهما استعطف... لقد وقعتَ في المصيدة وما لكَ من مهرب. لقد أقرّ جميع من عرفهم بأنّهم رأوا مثل هذا الحلم، واجتاحهم ذات الخوف الذي يجتاحه في هذه اللحظة، التي يفترض أن تكون لحظة عودة سعيدة -مؤقتة- إلى أرض الوطن.

- في أيّ عام خرجتَ؟ - عاد المسؤولُ إلى سؤاله.

- عام 1997...، لا، آسف. عام 96. خمس عشرة سنة تقريباً...

- ولم تعد؟

نظر إليه الرجلُ بحدّة أشدّ، ولم يستطع إرفينغ إلا أن يهزّ رأسه نافياً، كأنّ اعترافه بالمدة الدقيقة لغيابه، وهي ثلث حياته، يمكن أن يكون السبب في رميه بكبيرة من الكبائر.

- سبب الزيارة؟

كان إرفينغ قد فكّر كثيراً في هذا السؤال، وأعدّ للرد عليه جوابين: أحدهما عاطفي والآخر متعقل، وكلاهما صحيح. تمنّى لو أنّه استطاع أن يردّ عليه بعاطفته: «لأنّي أتحرّقُ شوقاً للعودة إلى بلدي». لكنّه اختار الردّ المتعقّل:

- أمّي. وقد ذكرتُ لك أنّها مريضة... طلبت منّي أختي...

لم يظهر على وجه عنصر الأمن سالبٌ ولا موجبٌ، لكنّه رفع، أخيراً، الختم ودمغ الجواز الكوبي وأعاده له مع جميع الوثائق.

- مرحباً بك - قال رجل الأمن وبدا أنّه ابتسم. هل ابتسم فعلاً؟

تراجع الخوف درجاتٍ، لكنّه لم يختفِ. في الطرف الآخر من نقطة التفتيش، راح عددٌ كبير من رجال الجمارك، مصحوبين بكلابٍ صغيرة، طويلة الآذان، لو رأيتَها في مكان آخر لوجدتها لطيفة، يطوفون في أرجاء الصالة بانتظار الأمتعة التي تأخر وصولها إلى أحزمة الحقائب. كان الموظفون ينظرون إلى المسافرين، يتحققون من بطاقات الحقائب، ويعودون للتحقق من الجوازات، ولا ينفكون يطرحون السؤال تلو السؤال. هل معك أجهزة كهربائيّة؟ مواد غذائيّة؟ هدايا؟ كتب؟ هلّا أريتني جواز سفرك؟ رجال الجمارك في إسبانيا لا يسألونك عن شيء. بلى، إن كان معك فيلان مطليان بالأزرق، فسيسألونك: لماذا طليتهما بالأزرق؟ أمّا هؤلاء، فيسألونك ويرهبونك. في استعراض التحقيق والتفتيش والمراقبة والسيطرة والمصادرة والنظرات الحادة والاستجواب المكرر (سألته امرأة ترتدي صدريّة بيضاء إن كان عانى من حمّى، إن كان قادماً من أفريقيا، أسئلة غريبة، وكان هو على وشك أن يقول: إسهال، لكنّه ابتسم وردّ بالنفي على كلّ واحد من أسئلتها) اضطر إرفينغ أن يدخل إلى مغاسل المطار القذرة، وبينما كان يفرغ من بطنه سائلاً حارقاً، اكتشف أنّ التواليت خالٍ من الورق الصحّي، فاستعمل منديله لينظّف مؤخرته المسلوخة من كثرة ما أفرغ، وسأل نفسه، ألف مرّة أو ألفين، كيف لشخص جبان مثله أن يتجرأ على العودة ويحشر نفسه بنفسه بين فكي الذئب السافل.

صعد في تاكسي ليس فيه تكييف، فأنزل إرفينغ زجاج النافذتين الخلفيتين لينعم بشيء من هواء الشارع. خيّم في الخارج ظلام كئيب، بخارٌ ليلي ثقيل، ورأى أوّل إشارة إلى أنّه في موطنه حين مرّت سيارة الأجرة، في غمرة الظلمة والحرّ وبقايا الخوف، بمحطة وقود (فونتانار) المعتمة. فكّر إرفينغ، حينها، في لقائه مجدداً بكلارا وبرناردو والبقيّة الباقية من مجموعة تفرقت وحلّ بينها موتٌ، متحقق ومعلن، محمّلة بالكثير من الذكريات عن اللحظات الحلوة والمرّة والأمرّ، التي أمضوها معاً، على مدى عشرين سنة،

في صداقة حميمة مشتركة، وعشرين سنة أخرى من صداقة حافظوا عليها رغم المسافات والحنين. حتّى ذلك اللقاء المتجدد كان يخيفه. أمّا لقاؤه بأمّه فكان يرعبه.

فعلاً: فكلّ واحد يحمل مخاوفه. سوى أنّ حمولة بعضهم منها أكبر من حمولة بعضهم الآخر.

هل صحيح أنّ أحداً لن يبرح المكان الذي عاش فيه سعيداً، كما كان يقول هوراثيو المتفلسف، المشبع بالقراءات المثيرة للتفكير؟ وماذا عن المكان الذي لم يكن فيه سعيداً، لكنّه مكانه الذي لم يشأ ولم يفكّر في الابتعاد عنه؟ هل يمكن تحديد اللحظة الساعية إلى تغيير مسيرة حياة، وتأشير الانحراف المشؤوم الذي يدفع بحياة واحدة أو متعددة نحو مسالك غير منتظرة؟ كم تدوم لحظة محددة أو غيرُ محددة، مرئيّة أو غير محسوسة في لحظة انبثاقها، على حدّ تعبير كلارا؟ وكم تزن تلك اللحظة، وكم تَحسم وتُقرّر؟ والسعادة: كم تدوم السعادة؟ وبَعد النكسات؟ هل النصر النهائي ممكن بعد النكسات، كما اعتاد برناردو أن يقول؟ وتساءل داريّو مرّة: هل كُتب علينا أن نعيش ونحن نطرح هذه الأسئلة على أنفسنا فلا نتلقى منها جواباً يقنعنا ولا ردّاً يعزّينا؟

سيُمضي إرفينغ سنواتٍ كثيرة من حياته كالمسجون، يجرّ أغلالاً حديدية لأسئلة تلخّص مصيره. فهو لن يستطيع أن ينسى لحظة استيقاظه، مفزوعاً، صباحَ الأحد 27 كانون الثاني 1990، ذلك الصباح الذي سيحدّد واحداً من أصول -أو كلّ أصول- خياره بالابتعاد بجسده، وهو ما قد يعني أنّه لن يعثر على السعادة، وإن تصوّر أنّه بالابتعاد سيجد راحته، وجزم أنّه سيسعى إليها.

أمضى إرفينغ، جرياً على عادته مؤخراً، ليلة السبت في شقة صاحبه جويل في (الثيرّو)، واستمتع بنوم هادئ، ساعدت عليه الساعات الرائقة التي أمضاها مع زملاء له في دار النشر، بعد أن شهد عرضاً مسرحيّاً وشرب في بيت واحدٍ منهم. شكا الجميع هناك من شحّة المواد في السوق، مع ذلك، فقد توفر في ذلك اللقاء، الذي أعقب العرض المسرحي، من العناصر الروحيّة والماديّة (الرون والفول السوداني والبسكويت المطليّ بمادة لا يعلم إلّا الله

ما هي) ما جعله لقاءً مُرضياً، بل ضرورياً، في نظر إرفينغ، إذ وجد فيه صماماً خفّف عنه ما كان يعتريه من توترٍ تراكم في داخله منذ أيام، وطفرة محت تجربة مؤلمة، وامتداداً لحفلة عيد ميلاد كلارا، التي حضرها قبل أربعة أيام خلت. فحفلة (فونتانار)، كما يعرف -وكما تؤكده كدمة ما زال أثرها على وجهه-، كانت المناسبة الأخيرة التي جمعت كلّ أعضاء الأخويّة، مناسبة لن تلبث (وهذا ما لم يكن يعرفه بعد) أن تصطبغ، صباح الأحد، 27 كانون الثاني 1990 المشرق البارد ذاك، بدلالات خطيرة، بل مأساويّة.

أخرجه جرس الهاتف من نومه العميق الذي اعتاده كلما شعر بالسلام مع نفسه، نعاسٌ دبق يروق له أن يطيله في صباحات الأحد، متقلّباً في أحضان الخمول والكسل. حين فتح عينيه، اكتشف أنّ دماغه ما زال يسبح في ثمالة عربدة الليلة البارحة. تحرّك متعثراً، ركل كرسيّاً (ولطالما ركل قطعة أثاث في شقة جويل الضيقة) ودمدم مغيضاً متألماً (ماذا يفعل هذا الكرسيّ هنا؟) قبل أن يبلغ الهاتف اللعين الذي لم يكفّ عن الرنين، بينما سمع صوت جويل المحتجّ خافتاً.

- نعم... - همس حين رفع السماعة، محاولاً ألا يزعج جويل، الذي عاد يغطّ في نومه.

- إرفينغ، أنا هوراثيو...

- هوراثيو؟، كوينتوس هوراتيوس فلاكوس؟ -قال مازحاً-. وماذا يدعوك إلى مكالمة في هذه الساعة من يوم الأحد، أيّها التيس؟

تأخّر الآخر قبل أن يردّ عليه:

- الساعة الآن قريبة من الحادية عشرة و... ألم تسمع بالأخبار؟ يبدو أنّك لم تسمع...

لم يفهم إرفينغ. لم يكن بعدُ قادراً على استيعاب شيء، فمن دون القهوة، يصعب عليه التفكير، بل يستحيل عليه هضم أيّ شيء.

- ماذا جرى...؟ قل لي بربّك! - نظر إلى السقف، الذي تقاطعت عليه الشقوق، وإلى الساعة، التي تشير إلى الحادية عشرة إلا عشر دقائق صباحاً، وإلى الكرسي، الذي ابتعد عن مكانه بعد أن ركله، ونظر أخيراً إلى جويل،

الذي باعد ما بين ساقيه واستسلم للنوم، رغم رنين الهاتف والأصوات، بينما انتصب عضوه انتصاباً رفع الملاءة التي كانت تغطّيه. وفكّر في التقرّب من قطعة اللحم الأسود الصلبة تلك. فقد وجدت صباحات الأحد الشيّقة لطلب تلك الأمور أيضاً. سيتذكر لاحقاً أنّ كلّ ما رآه وشعر به أثناء صمت هوراثيو، كانت آخر حالة من حالات الرتابة اليوميّة البسيطة التي ستتلاشى، وإلى الأبد، ما أن يلقى صديقه بالقنبلة، بعد طول تردّد.

- مات والتر...

- ماذا؟

- قلتُ لكَ إنّ والتر مات!

- يا إلهي!

- انتحر!!!

لم يكن من الصعب على إرفينغ أن يبدأ حياته الجديدة في مدريد. مع ذلك، فطالما قضّت مضجعه أحلام يرى نفسه فيها وهو يهرب من شيء، فيستيقظ مفزوعاً متعرّقاً، بل قد يصحو وبه رغبة بالبكاء أو الرحيل إلى أيّ مكان، أو، ربّما، بالتواري عن الأنظار.

كانت نفسيّته، في الأسابيع الأولى، متوترة، وأموره معقدة، كشأنها دائماً. نام على كنبة الشقة الصغيرة، حيث تسكن شقيقة جويل مع زوجها الإسباني وولديها. لكنّه كان، إن أراد استعمال الحمّام، انتظر خروج أصحاب البيت إلى أعمالهم، وكان، في نهايات الأسبوع، يصلّي من أجل أن يخرجوا في نزهة أو للتسوّق، لكي يأخذ راحته بالاستحمام. ساهم في نفقات البيت (الماء والكهرباء)، بأن دفع بضعة آلاف من البيزتات بعثها له داريّو من برشلونة. يخرج، أحياناً، مع شخصٍ يعرفه أو كُلّف بمساعدته للحصول على عمل أو ليعده بالبحث عن عمل، أيّ عمل، فيدخل، وقد شعر بالإعياء، أحد البارات ليشرب قهوة بالحليب مع توست بالزبدة والمربى ينفق عليه بضع بيزتات. وتوفيراً لمصاريف النقل، لجأ إلى السير كيلومترات كثيرة، وهو يحمل خريطة سياحيّة، فيتعرّف، هكذا، على المدينة التي لم يخطر بباله يوماً أنّه سيمضي فيها بقيّة حياته.

ظلّ إرفينغ، بعد انتهائه من إجراءات إقامته الأولى، ينتظر، على أحرّ من الجمر، الردّ من أصحاب عملٍ مستعدين لقبوله من دون رخص العمل اللازمة. وقال له الجميع، وأوّلهم داريّو، حين اتصل به من برشلونة، إنّ احتمالات تشغيله لا تبدو كثيرة، إذا ما أخذ بالحسبان سنّه، إذ إنّه يناهز الأربعين، وحالة سوق العمل في البلد. لكنّه ظلّ مؤمناً بأن الحظ لم يتخلّ عنه كلّياً. ولم يلبث أن تأكّد له ذلك: فعقب أسبوعين من وصوله إلى إسبانيا،

صار يكسب بعض المال لقاء العناية بامرأة طاعنة في السنّ تسكن، في الطابق الأخير، مع ابنتها، صديقة شقيقة جويل تقريباً، التي تضطر إلى ترك مدريد، ثلاثة أيام أو أربعة، في مهمات تتصل بالعمل. ولمّا كان يحسن تنظيف البيت كما لا تحسنه خادمة أوكرانيّة، علاوة على مهارته في إعداد أطباق تنال إعجاب العجوز، فقد ضاعفوا له أجره ونظّموا أوراقه الرسميّة. وبعد أسابيع، حصل إرفينغ، عن طريق كوبي عمل معه في دار النشر، على وظيفة في إحدى المطابع. كانت مهمته الإشراف على طبع الصور والبطاقات، لكنّهم وسّعوا مهمّته وكلفوه بمراقبة العملية كلّها، من برمجة منظومات الطبع إلى ضبط الألوان وتنسيق القطع على المكائن. مع ذلك فقد وجد إرفينغ في عمله الجديد عملاً ثابتاً، ولا يتعارض مع عمله في رعاية المرأة العجوز ساعة يحتاجونه لرعايتها.

بذينك المرتبين البسيطين عزم إرفينغ على التعجيل في العثور على سكن مستقل، كي لا يضطر، هكذا، إلى النوم على كنبة آخرين ولا إلى استعمال حمامهم. وهكذا ركّز كلّ همّه في أولوياته، فما عاد يلتفت، حين يمرّ بواجهات المتاجر، إلى الملابس المعروضة ولا إلى أسعارها المخفضة. يدخل إلى السوبرماركت، يتجوّل فيه وينظر، يدرس ويتعلّم، يحلل مأكولاته، وبعضها مجهول لديه. وقد يخرق قواعد الانضباط وينساق وراء ما تشتهي نفسه، كما وقع له حين وقف أمام محل للحلويات، فسال لما رأى لعابه، وقرّر أن يشتري ذلك الكرواسان اللمّاع، الأوّل الذي يتذوّقه في حياته، والذي حمله، حين أكله مع القهوة بالحليب، إلى عقر دار اللذة والمتعة. كان إرفينغ ينظر ويخطط ويوفّر. يحاول أن يرتّب أشياءه، ويستوعب وظائف المدينة الأساسيّة، مُلزماً نفسه بتعلمها من جديد، وكأنّه كائن فضائي هبط من كوكب آخر. هكذا كان يرى نفسه.

صحبته أختُ جويل لتشتري له هاتفاً خليوياً، هدية منها (لم تخبر بذلك زوجها الإسباني)، ليعينه على التواصل، ثمّ أخذته ليفتح أوّل حساب مصرفيّ له في حياته، أودع فيه كلّ البيزتات التي كانت بحوزته: ثلاثة آلاف واثنتان وسبعون بيزته، بعد أن وفّر داريّو عليه ثمن المعطف الذي كان يحتاجه لدرء برد ليالي الربيع في مدريد، وأرسل له، فضلاً عن شيكٍ بثلاثة آلاف بيزيته،

معطفاً وبلوزتين وعدداً من القمصان، جديدة كلّها تقريباً، اعترف له بأنّها باتت ضيقة عليه.

في الأشهر الأولى من إقامته في منفاه، كانت ذكرى احتجازه، الذي دام ستة أيام وسبع ليال، في مركز للتحقيق، عقب وفاة والتر، لا تفارق باله. شيءٌ ما، أو أحدٌ ما، ذكر اسمه فأثار شكوكاً حول صلة محتملة له بمأساة أحاطت بها علامات استفهام ودوافع محتملة وعداوات شخصيّة معروفة. ومع أنّ الشرطة حققت مع بقيّة الأصدقاء، فقد كانت تحقيقاتها مع إرفينغ أطول وأدقّ، ولم يستطع، لا الوقتُ ولا البعدُ، علاجه من صدمةٍ أرهقته، كان، أثناءها، يردّ، المرة تلو المرّة، على أسئلة تطرح عليه بنعومة ولطف، تارة، وبصراخ يصمّ أذنيه، تارة أخرى، ومن خوفٍ أمسك، منذ تلك اللحظة، بتلابيبه.

طلب منه جويل، الذي ظلّ في كوبا بانتظار العثور على نقطة هشّة في إحدى القنصليات الأوروبيّة ينفذ منها ليتمكن من السفر واللحاق به، أن يعجّل في البحث عن سكن بديل له، فلقد توسلت به أخته الكريمة –وهي النسخة المؤنثة من شقيقها في سوادها وجمالها– أن يطلب، بأسلوب لطيف، من خطيبه (هذا ما قالته له، وضحك جويل من مكانه في الطرف الآخر من الخط ومن العالم) أن يترك بيتها متى أمكنه ذلك، فهي لا تريد أن تفقد زوجَها، الرجل الطيب والمبتلى، مع ذلك، بما ابتلي به الإسبان منذ زمن السيد القمبياطور[33] من سوء المزاج وضيق الخلق. وردّ إرفينغ على جويل بأنّه يتفهّم الوضع. وفي تلك الليلة نفسها –وبعد ثمانية أسابيع من وصوله إلى إسبانيا–، أبلغ شقيقة جويل وزوجها عزمه على الانتقال للسكن في مكان آخر.

وجهه الزوج، وقد أنعشه عزمُ الضيف على ترك البيت قريباً، إلى صديق له يفهم في موضوع الشقق الرخيصة والجيدة التي تقع في وسط المدينة.

33– **El Cid Campeador** بطل قومي إسباني وقائد حربي شارك في حروب الاسترداد الإسبانية التي انتهت بطرد العرب المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية. عاش في القرن الحادي عشر الميلادي.

وما هي إلّا أيام حتّى أصبح إرفينغ مواطناً من مواطني جمهوريّة (چويكا) الديموقراطيّة، بعد أن استأجر بالباطن غرفة واسعة بحمام مستقلّ في شقّة تسكنها امرأة مصمّمة متفتحة سحاقية أندلسيّة، حتّى في اسمها (ماكارينا)، وافقت على تخفيض بدل الإيجار مقابل تكفله بتنظيف الشقّة كاملة.

رأى إرفينغ في حيّ (چويكا) رجلين، بشاربين وعضلات، يتبادلان القبلات وسط الشارع؛ وشهد، مفزوعاً، منظر شابٍّ يحقن نفسه بجرعة من الهيروويين، وسط ساحة تغصّ بالمارة. هناك أمضى صيفه الإسباني الأوّل، وجرّب على جلده معنى الحرّ المدريدي. مع ذلك، فقد عاش أجواء من الحرّيّة والتسامح والقبول بالآخر، لم يكن يتصوّر وجودها. وهكذا شعر إرفينغ بأنّه وجد مكانه من العالم. فهل اكتشف طريدُ الجنّة فردوسَه المفقود؟

ما إن وطئت قدماه أرض المدينة التي كانت مدينته، حتّى فاجأه إحساسُ مَن يدخل في عالم يعرف خططه وعلاماته، لكنّه يكاد لا يعرفه. مبدئياً، كان كلّ شيء حيث يجب أن يكون: البحر، من وراء سور الماليكون[34]، وفي الطرف الآخر، جادة السيّارات. ها هي تلك مباني (البيدادو) الشاهقة، والحيّ المشجّر، حيث ولد وعاش حتّى رحيله، منطقة عامرة بالحدائق، ما زالت بعض شوارعها مرصوفة بالحجر. مرّ بناسٍ يتحرّكون بتناسق وانسجام، يرتدون ملابس خفيفة، شباب مبتسمين، وجوه لطيفة، صورة حياة كان يمكن، أو يفترض، أن تكون حياته. لكنّه شعر، في الوقت نفسه، في ما يشبه ردّة فعل غريبة غامضة، بزحمة مجهولة، فكأنّه يتحرّك في أرض مستنفدة، كلّ شيء فيها مُهدّم، مُتآكل، سقط صريع الخمود قبل أن تصرعه السنون، عالم ملوّث، نتن، ينتظر معجزة تنقذه. رأى ناساً آخرين، غريبي الأطوار، منهكين، كائنات خرجت من الفاقة المحيطة المبتهجة، صور كاريكاتيريّة رديئة لأشخاص عاش بينهم وانتمى إليهم طوال الست والثلاثين سنة الأولى من حياته، لكنّه لم يرهم على تلك الصورة القاتمة التي رسمها الفراقُ والغياب، والاكتشافات والذكريات، والنسيان والخذلان.

أيّ عالم هذا؟ أين مكانه؟ ما الذي جرى له؟ هل ما شاهده هو *عالمه* أم إنّه تصوير رديء ثلاثي الأبعاد للمكان الذي ظنّه مكانه، لكنّه يراه الآن غريباً عليه مستعداً لرفضه؟ هل بات رجلاً منقسماً إلى نصفين متعارضين، رجلاً لم يستطع، بأعوامه الخمسين، لا أن يعيد تموضعه في مكان ظلّ مكانه ستاً

34- **Malecón** هو كورنيش هافانا البحري.

وثلاثين سنة، ولا أن يجد نفسه في المكان الذي بدأ، من خمسة عشر عاماً، يصبح مكانه، دون أن يصبح مكانه؟

كان لقاؤه بأمّه مؤثراً. ومع أنّ العجوز ما كانت تشكو إلا من علل طبيعيّة مألوفة، فكأنّها كانت في شغل عن الآلام والأحزان، وعن الراحة والآمال، فقد بدا له ذلك الكائنُ المعصور، الذي قبّل وجنتيه وبلله بدموعه، جثة لم تبرد أوصالها بعدُ. كلّ شيء فيها تقلّص وانكمش، فكأنّها ذوت وضويت. وبكى الرجل، بكى من شعوره بالذنب، فما أحقّ العجوز بأن يكون ابنها بقربها في سنواتها، وربّما أسابيعها، الأخيرة.

مع ذلك، فقد كانت أخته، التي تكبره بأربعة أعوام، هي مصدرَ ألمه الأقسى واستغرابه الأشد. فقد بدت له في سنّ أمّها: شاخت، وشاب شعرها وتساقط، وتساقطت أسنانها، بعد أن التوى فمها إثر جلطة أصابتها قبل سنتين، فما عادت قادرة إلّا على التأوه والشكوى، والشتم واللعن، وكيل التهم والتظلّم من العوز، كلّ ذلك، في عباراتٍ مصحوبة بوابلٍ من اللعاب اللزج وريحٍ من الأنفاس النتنة. شتائم مكررة، فكأنّها تدور في ناعورة من كلمات غيرِ متوازنة. مئتان وعشرون بيزو، مئتان وعشرون بيزو، كانت العبارة التي تتكرر على لسانها، في إشارة إلى مبلغ تقاعدها، الذي يعادل عشرة دولارات في الشهر... هل كانت أمّه وأخته تعانيان من الجوع؟

في ليلة وصوله تلك، تملّك إرفينغ إحساسٌ أليم، فهو يقف أمام كائنين لا يتعرّف عليهما إلا بصعوبة، كائنين لن يقاوما وقتاً أطول، لن يقويا على أكثر من غطسة واحدة، بعد أن قاوما التيار طوال سنوات غيابه بفضل القليل الذي كان يخرج من جيبه ويبعث به لهما. دراهمُ معدودات، لكنّها مكّنت المرأتين أن تعيشا عيشة ضنكاً، مطروحتين في شقّة حلّت بها، في وقت من الأوقات، النعمةُ والسكن الكريم، لكنّها باتت تشبه مخزناً للمخلفات: قارورات دواء فارغة، أجهزة عاطلة، قطع أثاث منبوشة، كتب يعلوها الغبار، جدران لا تذكر متى طليت آخر مرّة، دفقات من روائح نتنة، من الداخل ومن الخارج. لم يكن بيتاً، بل بدا نفقاً يقود إلى الموت، وقبراً دفنت فيه الذكريات. كانت الصدمة بالغة الوقع عليه، لأنّها فاقت الصورة التي نقلت إليه والانطباعات التي وصلته، وهو في مدريد، عن طريق كلارا وبرناردو، ثمّ عن طريق

جويل، حين زار المرأتين، قبل سنوات. وكان من نتيجة ذلك أنّ إرفينغ فقد، لا شعورياً، الإحساس بالخوف، واكتسب، وهو واع مدرك، إحساساً آخر. إحساساً بذعرٍ مطلق لرؤية احتضار كائنين بات الآن يتعرّف عليهما، ولكن بصعوبة بالغة.

أمّا الأمرّ والأدهى فهو أنه شعر بالتقزز حين رقد على الملاءة الرماديّة المفروشة على السرير الذي أعدته له أمّه وأخته. ولكن. ألم يرقد، في حملات التطوّع الزراعيّة، على أسرّة قاسية، ونقالاتٍ خشنة، ومرتبات موبوءة؟ فما باله يشعر بالنفور وهو يستلقي على أفضل ما لدى أمّه وأخته من متاع وفراش؟ وما باله يشمخ بأنفه على أمّه وأخته، تلك المهندسة النوويّة التي تخرجت من جامعة موسكو، وتركت وظيفتها قبل بلوغ سن التقاعد، بعد ما أصابها من أمراض (اعتلال الأعصاب المتعدد العام والشلل النصفي في الوجه) وبعد تدهور قواها العقليّة (نوبات الهلع والاكتئاب). مئتان وعشرون بيزو، مئتان وعشرون بيزو.. وبكى إرفينغ طوال الفجر. إنّه يشعر بمدى دناءته لترفّعه على أهله، وبحجم أنانيته نحوهم وجحوده لهم: ألمٌ وشعور بالمرارة يبدأ من مشهد الابن الجاحد ليلة عودته إلى وطنه وينتهي وقد استبدّ التعبُ بجسمه وتفكيره. حين أصبح الصبح وفتح عينيه (مئتان وعشرون بيزو، مئتان وعشرون بيزو...)، هرب إرفينغ من البيت، محاولاً الفرار من نفسه، وهام على وجهه، في المدينة التي يعرفها ويجهلها، موطن أحلى ذكرياته وأمرّها. أرض حياته الأخرى البور، حياته التي ماتت ودفنت، مثلها مثل حيوات أخرى، ماتت ودفنت فعلاً.

صعد التاكسي، أمام فندق لم يكن موجوداً زمن رحيله.

– إلى (فونتانار)، من فضلك. كم؟

– أنتَ كوبي، أليس كذلك؟

– بلى...

– لأجلك... عشرة فولا[35]... أو مئتان وعشرون بيزو...

35– **Fula** هو الدولار الأمريكي.

لو أنّ والتر لم يعد إلى بيت (فونتانار)، بعد ثلاثة أيّام من عيد ميلاد كلارا، ليحمل الصور التي التقطها في الحفلة، وليكرر طلبه على مسامع داريّو؛ ولو أنّ الرسّام وإرفينغ لم يلتقيا هناك ويدخلا في جدالٍ مرير وعنيف، كان السبب في أن تكون تلك زيارة والتر الأخيرة لمنزل كلارا وداريّو؛ ولو أنّ الأيام التي سبقت 26 كانون الثاني 1990 والتي لحقته لم تكن مليئة بأخبار سيئة وأحداث غريبة، شكّلت مجموعة من الوقائع المتداخلة والمؤلمة... لو أنّ تلك الخلافات لم تعكّر الأجواء، ولو أنّ والتر لم ينتحر، بعد أن قفز من الطابق الثامن عشر وارتطم بالأرض، ليلة 26 كانون الثاني المشؤومة تلك، لكان لبعض مواقفه وأفعاله، وبعض مواقف آخرين قريبين منه، قراءاتٌ أخرى، مأساويّة أو جديرة بالتذكّر، وإن كانت، بلا شك، مختلفة. بل إنّ بعض تلك الأحداث لم تكن لتستحقّ أيّة قراءة، وكان الأمر سينتهي بها وقد طواها النسيان.

صُدم العديد من الأصدقاء لِما اعتبروه سلوكاً غريباً من الصديق البارد الكسول. فقد ظهر والتر في (فونتانار) عصر 24 كانون الثاني وهو يحمل دزينتين من الصور المطبوعة، من بين أخرى كثيرة التقطها قبل ثلاثة أيام في حفلة عيد ميلاد كلارا. أوضح لهم أنّه جاء ليُطلع بطلة الحفلة على الصور قبل إطلاع الآخرين عليها، لتتمكن هي، هكذا، من أن تختار الصور التي تريد الاحتفاظ بها، قبل أن يوزّع البقيّة الباقية على الآخرين. فوجئت كلارا بمبادرة والتر ونشاطه (لم يكتفِ بالحصول على الأفلام، بل حصل على ورق الطبع؛ ولم يتوقف عند التقاط الصور، بل طبعها أيضاً)، وسُرّت لتقديمها على غيرها في الاختيار. واختارت عدداً من الصور، ومن بينها، الصورة التي يظهر فيها جميع أفراد الأخويّة مبتسمين.

بعد أن قلبا الصور وشربا القهوة، سار والتر وداريّو نحو نهاية الباحة، حيث كان داريّو يصلّح سياجاً. هناك تحادثا طويلاً. طبعاً: لقد استعجل والتر تحميض الصور وطبعها ليصل إلى ذلك الحوار مع داريّو، فكّرت كلارا، وهي تنظر إليهما من مكمنها في المطبخ. أم إنّها خمّنت ذلك في ما بعد، حين بدأت تستجوب ذاتها؟

وصل إرفينغ، بينما كان الآخران ما زالا في الباحة. وجلس مع كلارا في غرفة الاستقبال، حيث شرب القهوة، التي كانت لا تزال دافئة (لم يبق المزيد من البن لعمل القهوة)، وأمضى برهة يعاين الصور التي اختارتها صديقته، والصور الأخرى التي ستوزّع على الآخرين، بين ساكت ومتندر على صور بعض المدعوين (عينا غيستي اللتان تذكّران بعيني الذئب في قصّة ليلى والذئب، وتقولان «لأراكِ أفضل»؛ وصورة السكران التي ارتسمت على وجه برناردو).

أمّا لماذا ذهب إرفينغ إلى (فونتانار)، فلأنّه لاحظ قلقاً على وجه كلارا أثناء حفلة عيد ميلادها. ومع أنّه كان يعرف جيداً أنّ ذلك السلوك قد يكون طبيعيّاً في امرأة لا تميل بطبعها إلى المرح والصخب، فقد فكّر أنّه قد يكون، هذه المرة، على صلة بما صارحته به قبل أيّام: اعتراف قد تتبعه رياحٌ وزوابع، قد تتحوّل، إذا ما انفلتت من عقالها، إلى عاصفة لا تُبقي ولا تذر. وقد لا يكون الأمرُ على ذلك القدر من الخطر والضرر، قال إرفينغ في نفسه، بعد أنّ فكّر مليّاً، ثمّ قرّر الذهاب للحديث مع كلارا: فليست هذه المرة الأولى التي يفشل فيها زواجٌ سعيد في ظاهره، بسبب علاقة عارضة تظهر فجأة، وتخرج عن نطاق السيطرة. فمن حقّ كلّ شخص -كما هي حاله- أن يصرّف رغباته بالطريقة التي تناسبه، وإن تولّدت عن ذلك آلامٌ وجروح، قد تشفى وقد لا تجد فرصة للشفاء. لن يموت أحد بسبب ذلك، فكّر. ولن يلبث أن يُدرك أنّه ربّما كان على خطأ.

ربّما كانت تلك الأفكار هي ما جعلت إرفينغ يطيل النظر في الصورة الوحيدة التي يظهر فيها الجميع، حتّى غيستي ومارغاريتا، والتي لم يظهر فيها والتر، لأنّه كان يقف خلف الكاميرا.

– لا أدري لماذا... لكنّ هذه الصورة تحزنني – قال، ثمّ أعادها إلى كلارا مع بقيّة الصور.

– بل مثيرة للشفقة. انظر كيف يعرض برناردو بطن امرأته. ما الذي دهاه؟ أرأيتَ الاستعراض الذي قدّمه؟

– أعتقد أنّ هذه الصورة لن تتكرر... لأنّ...، آي، كلارا، لقد أخبرني هوراثيو، قبل أيام، أنّه يفكّر في الرحيل.

– هوراثيو؟

– نعم، هوراثيو.

أطرقت كلارا مفكرة في ما سمعت. ثمّ قالت:

– والتر هوالآخر يريد الرحيل. إنّه خلف الدار، مع داريّو، يكلمه عن الموضوع. جاء من أجل ذلك، متذرّعاً بالصور.

عاد إرفينغ ونظر في الصورة.

– أترينَ؟... فجأة، الجميع يريدون الرحيل، ثمّة شيء خطأ... شيء ما لا يعمل، أو بالأحرى، كان دائماً لا يعمل وها هو ينفجر...

– إرفينغ، أمضيتَ عمرك وأنت تقول إنّ من حقّ أيّ منّا أن يفعل ما يريد. فإن قرّر أحد الرحيل، فليرحل... ما يقلقني هو أنّ والتر لا يكفّ عن مضايقة داريّو. يريد منه أن يساعده في الحصول على فيزا – قالت، وحكت له ما دار بين الرجلين قبل أسابيع، ولم تسمع بتفاصيله إلا قبل يومين أو ثلاثة من حفلة عيد ميلادها. كانت كلارا قد اطلعت أيضاً على شكوك والتر بشأن وجود الشقراء غيستي في المجموعة.

– هذا جنون، كلارا. فإذا كان والتر يعرف أنّها جاسوسة، فلماذا لم يخبر هوراثيو، الذي جاء بها؟ هوراثيو، الذي يريد أن يرحل و...؟ ألا يدرك والتر ما الذي يحدث لو علم أحدٌ بأنّ داريّو تكلّم مع دبلوماسي أجنبي ليسهّل رحيله...؟ ألا يعرف أنّ ذلك يخرّب بيتك وبيت زوجك وأولادك؟ هذا لعب بالنار؟ ألا ترين أنّه يستغلّ الثقة والصداقة؟

– بلى... هو يعرف أنّ داريّو يجاهد يمنة ويسرة ليقدّم أطروحته في

برشلونة. وتلك هي فرصته الوحيدة، أو الأخيرة...، فإن ارتكب أدنى زلّة، فتلك ستكون نهايته.

تنهّد إرفينغ

– ما الذي يجري لنا، كلارا؟ هل جنّ البشر؟ وما تقولينه عن برناردو، الذي يعرض بطن إليسا ويضع اسماً للطفل الذي سيولد... فما قصد رجل من مثل برناردو من كلّ ذلك؟ شيء غير معقول. وما هو من أثر خمرة ولا شراب...

– ما يحدث هو أنّ أشياء كثيرة تنهار... وحطام الكارثة يسقط على رؤوسنا... سأقول لك شيئاً لم أقله حتّى لنفسي... أنا متأكّدة من أنّ داريّو، إن سافر إلى برشلونة، فإنّه لن يعود.

– ماذا تقولين؟ –انفجرت دهشة إرفينغ–. حتّى داريّو؟

مسحت كلارا يديها بتنورتها قبل أن تردّ.

– كلّ يوم يقول لي إنّه تعبان... إنّ صبره قد نفد... إنّه يذهب إلى المستشفى لخاطر المرضى المسحوقين، الذين يحتاجونه، لكنّه يشعر بأنّه يقف على حافّة مصيبة... وأنّه يوشك على السقوط. أمّا عنّا نحن، أنا وهو، فما عادت الشراكة بيننا فاعلة... ما عادت تعمل. نمضي حياتنا بالجدل... لا أدري إلى متى... أحياناً نتشاجر، فينخرط بالبكاء ويطلب منّي الصفح... إنّه تعبان، إرفينغ، تعبان.

هزّ إرفينغ رأسه نافياً، وهو ينظر إلى حيث وقف داريّو ووالتر، اللذان نسيا موضوع السياج، وراحا يتكلمان ويومئان.

– وهل لما يجري بينكما صلة بما أخبرتِني به عن إليسا؟ – قال إرفينغ.

– لا أدري. لا أدري –ردّت كلارا–. ما عدتُ أعرف شيئاً... لا تكلمني عن هذا.

– أريد فقط أن أنبّهك إلى أمرٍ قبل فوات الأوان، أو قبل وقوع ما هو أسوأ. أنتِ أيضاً تستطيعين أن تفعلي بحياتك ما بدا لك، ولكن انظري إلى الجهتين، كلارا... أنتِ تعرفين إليسا، وتعلمين أنّها قادرة على فعل أيّ شيء. بيدها أن تنقذك وبيدها أن تقتلك. إنّها، أحياناً، غريبة...

- غريبة بأيّ معنى؟

وضع إرفينغ إصبعه على صدغه: غريبة هنا، غريبة الأطوار.

- ألا تعرفين، كلارا؟... ولذلك نامتْ مع هوراثيو، وربّما مع والتر أيضاً، وحملتْ لا أدري ممّن، وقررتْ أن تضع مولودها وهي تعلم أنّ زوجها عقيم. حسبتُ أنّك تعرفينها جيداً، ولكن...

ظلّت عينا كلارا مفتوحتين برّاقتين، بينما عاد إرفينغ يتلمّس صدغه. فهل سمعتْ هي بما سمع هو؟

- عمّ تتكلّم؟

- عن كوارث إليسا... عمّا أعرفه وعمّا عليكِ أن تعرفيه. قد يكون هناك آخرون. لكنّي متأكّد من هذين الاثنين. نامت مع الاثنين، مع الاثنين! ألم تري كيف تصرّفت ليوبا مع فابيو ذلك اليوم حين جرى الحديث عن حمل إليسا؟

هزّت كلارا رأسها بالنفي وقد بدا الذهول عليها.

- يا إلهي، إرفينغ! هذا غير ممكن... هل صحيح أنّ إليسا عاشرت والتر وهوراثيو؟ -قالت أخيراً-. هل هذا صحيح؟ ضاجعت الاثنين؟

- سأحكي لكِ لاحقاً ما حكاه لي هوراثيو... اهدئي الآن، فأنا أراهما قادمين... - طلب إرفينغ منها، حين رأى داريّو ووالتر يقتربان. في الخارج، يبدأ مساء أواخر كانون الثاني البارد، مساءٌ رائع سرعان ما سيتكدّر ويترك بصماته على ذاكرة الأخويّة ومصيرها. وفي تلك اللحظة، قطعت سماء (فونتانار) طائرة راحت تبتعد عن الجزيرة.

دخل داريّو ووالتر الصالون يحملان أربعة أقداح وزجاجة رون كان المصوّر قد جاء بها.

- لكي لا تقول إنّنا فقراء - قال داريّو مخاطباً إرفينغ ومدّ يده إلى صديقه، بعد أن ناول كلارا الأقداح. تبادل والتر وإرفينغ مصافحة فاترة، وبدأ داريّو بصبّ الرون.

- أنا لا أريد. اليوم لا أريد -أوقفته كلارا-. فرأسي يؤلمني. وعليّ أن أطبخ... هل ستبقيان على الغداء؟ - سألت ونظرت إلى الزوّار.

– أنا لا...، سأشرب الكأس وأنصرف –قال إرفينغ–. سأعود يوماً آخر، كلارا...

– إذا كان لديك ما يكفي من الطعام، فسأبقى –قال والتر–. لا أرغب في رؤية وجه لا بينتا. كدتُ أقتلها قبل كم يوم...

– ما المشكلة؟ – سألت كلارا.

– المشكلة أنّني ما عدتُ أطيقها ولا أطيق نفسي. طلبتُ منها أن تغرب عن وجهي، فردّت عليّ بأنها لن تفعل. لقد ركبَها عفريت وهجمت عليّ... وأخيراً انقلعت الليلة البارحة. ليتها لا تعود...

– والتر، والتر... انتبه لنفسك –حذّرته كلارا–. اسمع، ابقَ لتناول الطعام، فلدينا منه ما يكفي. قليل، لكنّه يكفي. –وخرجت إلى المطبخ، ومن هناك صاحت–: وابقَ أنتَ أيضاً، إرفينغ، هيّا، أريد أن أتكلّم معك في موضوع...

ظلّ الرجال الثلاثة ساكتين برهة. هواء ثقيل يخيّم على الأجواء ويلفّهم بظلمته.

– يا صديقي والتر. اعذر لي تدخّلي في ما لا يعنيني... أو، نعم، يعنيني –بدأ إرفينغ بالكلام، مدفوعاً برغبة خفيّة لم يستطع كظمها. بلا تفكير تقريباً، ولا تخطيط، ربّما–. لا أدري في أيّة ورطة وقعتَ، ولا لماذا، ولكن... ألا ترى أنّكَ تستغل صداقتك لداريّو؟

اكتفى والتر بالابتسام أولاً. وكانت ردّة فعله تلك هي ما يزعج إرفينغ منه. إذ كان يرى فيها تعبيراً عن ترفّع وعرضاً لغرورٍ يغذّيه بسلوك ثابت فيه، هو انعكاس طبع ملعون لا يقيم وزناً لشيء، طبع النزق المملّ، البراغماتي الذي لا يرى في الآخرين إلّا خدماً له وعبيداً. أمّا ردّة فعل والتر الثانية فقد كانت حازمة، وإن بدأها بصوت منخفض، ليبدو هادئاً، وبالتالي، أكثر تهديداً.

– ومن أعطاكَ شمعة في هذه الجنازة؟[36]

– أعطتني إيّاها الصداقة التي تربطني بهذ الرجل وزوجته منذ عشرين

36– *¿Quién te ha dado vela en este entierro?* تعبير عن إدانة تدخل الآخر في الموضوع وحشر أنفه فيه. وأصلها أنّ أهل الميّت يعطون شموعاً لأصدقائه المقربين.

عاماً. أعطتني إيّاها الأصول والتعقّل. أعطتني إيّاها نفختك الفارغة. فمن تظنّ نفسك؟ مركز العالم؟

عاد والتر وابتسم.

– اجمع هذه الشموع كلّها واحشرْها في مؤخرتك. وما أكثر ما حشروا لكَ فيها، أيّها المخنّث القذر –انفجر والتر–. لا تكلمني بهذه الطريقة! مفهوم؟

سيسأل داريّو نفسه كثيراً، وهو الذي يفهم أكثر من الآخرين في عواقب السلوك العنيف، كيف أنّه لم يتوقع ما كان وشيك الوقوع، وظلّ جامداً بين صديقيه وهما يتجادلان. حين خرجت كلارا من المطبخ، ترتدي الصدرية وتحمل السكين، وقد أفزعها الصراخ، كان داريّو يتساءل إن كان ذلك الرجل المنفلت هو والتر الذي يعرفونه، أم إنّ الجنون أخرجه من طوره. نعم. إنّه والتر نفسه الذي كان، حتى قبل دقائق قليلة، يتوسل إليه، وعيناه دامعتان، ويطلب مساعدته ونجدته.

– أيّها السيدان، من فضلكما. –تحرّك داريّـو محاولاً التوسط–. كفاكما...

– ماذا حدث؟ – سألت كلارا، والسكين ما تزال بيدها.

– حدث أنّ هذا المخنّث الحِشَري لا يريد... – بدأ والتر، وهو يرسم على وجهه نصف ابتسامة، لكنّه توقف حين رشّ إرفينغ وجهه بما كان في كأسه من الرون.

لطالما سيعيد إرفينغ تركيب تلك الدقائق في ذهنه. هل كانت تلك لحظة انكسار؟ بل سيتمكّن من أن يتابع ما حدث، كأنّه فيلم صوّرتْ بعض مشاهده بالتصوير البطيء، وأن يرى نفسه، من خارجه، في صورة عبثيّة. عاد وتذكّر المشهد مراراً وتكراراً وراح يبحث لتصرّفه ولتصرّف والتر عن تفسيرات وأسباب، وكاد يعثر على التفسير: شحنة من حزن وانقباض وإحباط كان يعيشه، هي ما جعلته يتصرّف على نحو لا يوافق طبيعته. هو ساخر ومستهزئ، ربّما، ليتقي الهجمات التي طالما سببته له ميوله الجنسيّة. وهو خجولٌ ورزين، ربّما، لأنّه يشعر بأنّه واقع تحت مراقبة دائمة وملاحقة

مستمرة. لكنّه ليس عدوانياً ولا عنيفاً كما ظهر عليه (لماذا لم أتوقّفْ، لماذا؟) حين ألقى بالرون في وجه والتر، كأنّه كان ينتظر أن يفعل ذلك من سنوات. ربّما فعل ذلك لهذا السبب. أم إنّه فعل ما فعل لمجرّد أنّ والتر بدا له مستفزّاً ومتورطاً حتّى بات هو السافل الذي كلّف بالتجسس عليهم، ثمّ راح يحرف أنظارهم صوب غيستي، ولذلك حرّض داريّو على أن يوصله إلى ما وصفته كلارا بأنّها نهايته؟ وتساءل أيضاً إن كانت تلك الفكرة هي ما حرّكه في تلك اللحظة وفي تلك الظروف.

فوجئ والتر برشقة الرون تلطمه، فظلّ، لثوانٍ، ينظر إلى كأسه التي في يده، فكأنّه يبحث فيها عن الجواب المناسب، لكنّه وضع الكأس على الطاولة ومسح وجهه بيده، كأنّه يمسح قطراتٍ من العرق. ثمّ رفع بصره، وقد احمرّت عيناه من أثر الكحول الذي دخل فيهما واهتاجتا من الغضب. انقضّ على إرفينغ، كأنّه مربوط إلى نابض، بعد أن ردّ إحدى ذراعيه إلى الوراء ليسدّد بها صفعة قويّة وسريعة ارتجّ لها وجه خصمه. ثم عاجله بركلة على خصيتيه، وحين انحنى إرفينغ يتلوّى من الألم، انهال عليه بكلتا يديه على قفاه ليطرحه أرضاً.

بدأت كلارا بالصراخ، واضعة يديها على فمها، حتّى باتت السكين قريبة من وجنتها. وتحرّك داريّو، وقد فوجئ بسرعة والتر، وألقى بنفسه على الرجل، الذي كان يستعد لركل إرفينغ من جديد.

- ماذا دهاك، يا رجل؟ -صرخ داريّو-. هل جننت؟ - واصل الصراخ بعد أن عاجل والتر بضربة قوية ليمنعه من ركل إرفينغ على رأسه. ومع تلك الضربة، فقد والتر توازنه فارتطم بالطاولة، وسقط عليها، فاصطدم وجهه بالحائط، بعد أن أخفق في التخفيف من وقع السقطة. وتناثرت الكأسُ شظايا.

بقي كلّ شيء جامداً للحظة، فلم يكن يسمع غير تنفّس داريّو وأنين إرفينغ. لكنّ الحركة سرعان ما دبّت على خشبة المسرح. نهض إرفينغ بقوة اليائس وركض صوب كلارا لينتزع من يدها السكّين وليستدير باحثاً عن والتر المرتبك، الذي كان يحاول النهوض، وهو يتحسس حاجبه الذي

أصيب بجرح فبدأ الدم يسيل منه. أمسكت كلارا، في ردة فعل لا إرادية، بإرفينغ من قميصه، فتمزّق القميص وأفلت إرفينغ، لكنّ داريّو، الذي تحرّك نحوه، انتهز الفرصة المناسبة ليضع قدمه في طريقه. فقد إرفينغ توازنه وانحرف ليتجنّب صدمة السقوط، بعد أن ترك السكين، التي انزلقت نحو قدمي كلارا. بين إرفينغ المطروح على الأرض ووالتر الواقف على قدميه، اختار داريّو والتر، فأمسك به وحمله من تحت إبطه، وبدأ يدفع به دفعاً إلى خارج البيت. وألقت كلارا، التي اصفرّ وجهها وراحت تبكي، بالسكين إلى المطبخ، ومن دون أن تشعر، رفعت تنورتها واعتلت صدر إرفينغ لتبقي عليه طريحاً أو لتصعّب، على الأقل، عليه النهوض.

ارتخى إرفينغ، وفخذا المرأة يلامسان وجهه، وأجهش بالبكاء. كان نشيجاً مكتوماً وعميقاً، فيه من الألم والشعور بالخجل أكثر ممّا فيه من الغضب والإحساس بالغيظ.

- بربّك، إرفينغ، بربّك - قالت كلارا، وأخذت بيديها وجه الصديق وانحنت فوقه تبكي معه.

على تلك الوضعيّة، المضحكة الشهوانيّة، وجدهما داريّو حين عاد ليقول:

- لقد انصرف... أخذه جارنا مانولو إلى المستشفى ليعاينوا له جرح حاجبه... سيحتاج غرزتين أو ثلاثاً. ولكن، ما الذي حدث؟ ما الذي يجري لنا؟

وانحنى داريّو على امرأته وصديقه، يحاول أن يطوّقهما ويحميهما، وشعر أنّه هو الآخر راغبٌ في البكاء: فعلاً. فماذا دهاهم؟ ماذا جرى لهم؟ وأيّة مصيبة حلّت بهم؟

في آخر يومين له في الدنيا، بدا والتر ماثيّاس ألبيار كالشبح.

انتظروا لإقامة طقوس السهر على جثمانه ثماني وأربعين ساعة، وجرت مراسم الدفن في مساء ممطر مكفهرّ وشديد البرودة، يوم 29 كانون الثاني 1990. وكان في سوء حالة الطقس ما قلّص عدد الحاضرين. وربّما تدخلت عوامل أخرى. بدت أمّ المتوفى وأختاه -أبوه، الذي كان ضابطاً في الاحتياط، قتل من سنوات في أنغولا- أقرب إلى الغضب منهنّ إلى الحزن، ربّما من الابن الذي قرّر أن ينهي حياته بيده، وربّما من العالم، الذي دفعه إلى اتخاذ ذلك القرار. أو ربّما من الحياة، عموماً، التي سدّدت للأسرة تلك الضربات القاصمة.

أبقى محققو الشرطة والطبّ الشرعي على الجثة يوماً ونصف اليوم لإجراء بعض التحقيقات التي لم يكن لها في نظر أصدقاء الميت المذهولين إلّا معنى واحد: إنّ فعل الانتحار الذي أقدم عليه الرجل هو، بحسب جميع الوقائع، بلا معنى.

واستطاعوا، شيئاً فشيئاً، أن يحصلوا على بعض التفاصيل. كان والتر، ليلة 26 كانون الثاني، قد دخل في بناية مؤلفة من ثمانية عشر طابقاً، كائنة في شارع E في منطقة (البيدادو). لا أحد يعرف كيف دخل، لأنّ بابها الأماميّ كان مغلقاً دائماً بسبب موجة السرقات التي تجتاح البلد. لم يره أحد وهو يدخل. لا أحد يعرف كيف استطاع فتح قفل الباب الحديدي، وهو المدخل الوحيد الممكن نحو سطح البناية، التي يبدو أنّ والتر ألقى بنفسه من أعلاها. ولكي تزداد الصورة غموضاً وإثارة للشك، فقد وجدت الشرطة القفل مغلقاً في مزلاجه، من الجانب الداخلي من البناية، ولولا أنّهم عثروا على علبة سجائر على مصطبة خشبيّة وعقبَ سيجارة مسحوقاً على بلاطات السطح،

لما جزموا بأنّ المنتحر المزعوم كان هناك. لا أحد أيضاً يعرف إن كان في السطح وحده أم برفقة شخص آخر. ولكن، إن كان رمى بنفسه من السطح، وكان صحيحاً ما قيل عن أنّ قفل درج المدخل كان مغلقاً (لم يستطع أيّ منهم طوال أعوام أن يقرر أصل المعلومة، ولا صحتها ولا كذبها)، فهذا يدلّ على أنّه كان بصحبة آخرين، وأنّ هؤلاء يحاولون التمويه والتضليل. لم يعثر أحدٌ لا على ورقة مكتوبة ولا قرينة ولا دليل يلقي الضوء على نوايا الرجل، الذي ارتطم جسده بالأرض، بُعيد الثامنة ليلاً. ووجد الأطباء الشرعيون في الجسم آثارَ كحول (هل كان سكران؟) ولكنهم لم يجدوا أثراً لمخدرات.

قال الأشخاص المقرّبون منه، وكثيرون منهم من أصدقائه، إنّهم لم يروه من يومين، أي منذ ليلة عيد ميلاد كلارا، بينما أفاد عددٌ من زملائه الرسامين، كأولئك الذين يعملون في الورشة التي اعتاد أن يطبع فيها لوحاته، إنّهم لم يروه من أسابيع. أمّا مارغاريتا، المرأة التي يمكن أن نقول إنّها رافقته في الأشهر الأخيرة، فقد كانت قررت هجره ليلة 23 كانون الثاني (لم تذكر أنّ شيئاً حصل بينهما، لكنّها قالت إنّه كان مكتئباً أو غاضباً أو أكثر جنوناً من المعتاد)، وتركته من دون أن تودّعه، حين كان معتكفاً في الحجرة المظلمة التي رتبها مكاناً له في كراج البيت القديم. ونفت مارغاريتا أيّ اتصال لها به بعد انتقالها إلى بيت أحد إخوتها في (غواناباكوا)، في الطرف الآخر من المدينة، حيث كانت ساعة وقوع الحادث. كانا يومين فارغين، امتدا بين الشجار في (فونتانار)، مروراً بالمستشفى، حيث خاطوا له الجرح الذي أصاب حاجبه الأيمن ثمّ تلاشيا واختفيا في الظلمة، ولم يعد لهما الضوء إلا مع القفزة المميتة من المبنى الشاهق.

وأجمع الأشخاص الذين شاركوا والتر ساعاته الثماني والأربعين الأخيرة على أنّ تصرفات المرحوم كانت غريبة، ومن بينها شجارُه مع إرفينغ. ولكن ما من شجارٍ يكفي مبرراً لقراره وفعلته: فالتصرفات الغريبة تملأ حياة الشاب الذي قضى حياته في المشاكل، ثمّ ما لبث أن اختفى، مثل إعصار مداري.

كشفَ داريّو عن أنّ والتر كان يشعر بأنّه ملاحق (لم يقل من كان يلاحقه) ولذلك كان يبحث عن سبيل للخروج من كوبا، فكان في تلك المعلومة ما أزال بعض الغشاوة عن عيون من لم يكونوا يعرفون شيئاً عن نواياه. ولكن،

إن كان خطط للرحيل والبدء من جديد وفي مكان جديد، فلماذا ينتحر؟ ألإنّ الخروج من كوبا صعب؟ ومن لا يعرف أنّ الخروج من كوبا شبه مستحيل؟ حتى هو كان يعرفه... أم إنّه سقط أو رمى بنفسه لأنّه كان سكران، على افتراض أنّه كان سكران؟ وكرر الجميع، بين دهشة وتأثّر، كلّ حسب مقداره وطريقته، السؤال الذي بدأ يطاردهم: ما الذي يجري لنا؟

قبل الدفن وبعده، خضع أفرادُ الأخويّة، فرادى ومجتمعين، للاستجواب، فهم بين مصدرٍ للمعلومات وبين متورطين في إحدى مراحل الحيثيّات، أو عالمين بقرينة لها صلة بموته.

وكان في تدخّل الشرطة وتحقيقاتهم ما زاد الوضع المتوتر أصلاً توتراً، إذ أثار في الجميع ردودَ فعل مختلفة: رفضت إليسا الكلام في الموضوع، وقالت إنّه يثير شجونها؛ وراح برناردو، كالعادة، يشرب ما وسع بدنه الشراب، فكأنّه يسعى إلى السكر سعياً؛ وأصيبت لا پينتا بنوبات من الهستيريا استدعت خضوعها إلى علاج نفسي، بعد أن حمّلت نفسها مسؤوليّة ما حدث. قالت إنّ والتر تغيّر، وبات كالمجنون، وكان عليها أن تتوقع تلك النهاية؛ أمّا داريّو، فقد لازمه شعورٌ بالذنب، فاعتكف وامتنع عن الكلام مع أحد وطلب إجازة من عمله لأنّه لم يعد في ظرف يسمح له بإجراء عمليات جراحية؛ وآثر فابيو ولوييا، وهما من أقدم أصدقاء المتوفى، وصديقا عائلته، الابتعاد، بل لم يحضرا مراسم الدفن؛ أمّا جويل، فقد شعر بالخجل ممّا حمله تجاه المنتحر من مشاعر الحنق والكراهية منذ أن علم بالشجار الذي وقع بينه وبين صاحبه، بينما سقط إرفينغ في حالة من الاكتئاب، وبدأ يشعر بالخوف يترصده، بعد أن ظنّ أنّه الوحيد، من بين الأصدقاء المقربين، الذي لديه دوافع واضحة ومعلنة تجعله يتمنّى موت والتر، بل يتسبب فيه. وها هو يتأكّد من صحّة مخاوفه وظنونه.

أمّا غيستي، فقد طلبت من هوراثيو ألا يعاود الاتصال بها، وحين علمت كلارا وداريّو، بعد عدة أسابيع، بشكوك إرفينغ حول احتمال أن تكون مخبرة لدى الشرطة، صرخت بهم الفتاة وشتمتهم وقالت لهم إنّها لن تعاود التقرّب من المجموعة. ووقع هوراثيو، الذي أثّر فيه الحادثُ تأثيراً قوياً، فريسة شعور سوداويّ، فراح يلوم نفسه على أنّه قصّرَ في حقّ والتر ولم يحسن قراءة

نواياه، ولم يمتلك من الفراسة ما يكفي لكي يخمّن السبب الذي دفع برجل مثله، حتى لو كان سكران، إلى اتخاذ ذلك القرار. غياب المنطق هذا دفع بهوراثيو، وهو الذي لا يؤمن إلا بأسباب ونتائج يمكن فكّ شفرتها، وعلى شكل معادلات، إلى أن يطرح على نفسه الأسئلة المحيّرة ويكرر قناعته بأنّ شيئاً مّا غريباً قد حدث. مع ذلك، وخلافاً لمواقف الآخرين، فقد تحركت ردة فعله نحو الأمام، فكأنّه أراد أن يحطم الجمود، وأخذ على عاتقه التحقيق في الأسباب التي يمكن أن تقف وراء قرار والتر... على افتراض أنّ ما وقع وقع بقرار والتر واختياره.

وبعد أسبوعين من تلك الليلة المشؤومة، استطاع هوراثيو أن يسلط ضوءاً كاشفاً على تلك العتمة المخيّمة. حكى للأصدقاء، الذين اجتمعوا في بيت (فونتانار)، لاحتفالٍ باهتٍ بعيد الحب (كان فابيو وليوبا حاضرين)، أنّه استدعي إلى مقر الثكنة الكولونياليّة، التي اتخذوا منها مكتباً مركزياً لقسم التحقيقات الجنائيّة، وأنّ الشرطة حضرت، عصر اليوم نفسه، إلى بيته وأجرت معه استجواباً مختصراً. لقد لاحظ هوراثيو أنّ أسلوب المحققين تغيّر في المناسبتين الأخيرتين، فقد تركّزت أسئلتهم على شخصيّة والتر وسلوكه وتصرفاته والأسباب التي قد تكون الدافع لما صار يبدو انتحاراً مؤكداً. لم يلاحظ على أسئلتهم اهتمامهم بعلاقات المتوفى بأعضاء الأخويّة الآخرين أو بزملائه الرسامين. فهل توصلت الشرطة إلى تفسيرٍ يبعد الشكوك نهائياً عن أعضاء المجموعة الدائمين؟ هل لديهم تفسيرٌ للقفل المغلق، الذي ربّما أغلقه جارٌ حريص أو شارد (من كان أوّل من أشار إلى القفل؟)، وقناعةٍ بأنّ الحادثة كانت انتحاراً؟ بدا هوراثيو متيقّناً من أنّ شيئاً ما تغيّر، لكنّه لم يشأ أن يخمّن أسبابه، حين تحرّكت إليسا، وكانت ساكنة، وردّت عليه بصوت مسموع جمّد له الدم في عروق الأصدقاء:

– المسألة سهلة، هوراثيو... ما حدث هو أنّ أحداً ما أدرك أخيراً بأن والتر كان سافلاً ومجنوناً ومدمنَ مخدرات ومدمنَ خمر وأهوج، وليس من الغرابة أن يقع لشخص مثله ما وقع له!... – قالت كأنّها استردّت طبعها، لكنّها فقدته فجأة وأجهشت بالبكاء. كان تلك المرّة الأولى والوحيدة التي يراها فيها أصدقاؤها تبكي.

في صباح اليوم التالي، انهارت استنتاجات هوراثيو حين حضر إلى شقة إرفينغ ضابطان من الشرطة وطلبا منه أن يرافقهما. كانت تلك المرة الرابعة التي يستجوبونه فيها، سوى أنّ سبب الاستدعاء، هذه المرة، لم يكن مقابلة استغرقت ساعتين. كان الشرطيان يحملان أمراً قضائياً بتوقيف إرفينغ كاستيّو كويستا، على ذمّة التحقيق في موضوع موت والتر ماثيّاس ألبيار.

لن يتحمّل إرفينغ سماع أغنية خواكين سابينا *تسعة عشر يوماً وخمسمئة ليلة*، فقد كانت تذكره بالأيام الستّة والليالي الخمس التي أمضاها موقوفاً في الثكنة الكولونياليّة القديمة الكائنة في شارع (إيخيدو) في هاڤانا، والتي تحوّلت في حسابه إلى مئاتٍ من الأيام ومئاتٍ من الليالي. كانت تلك الأيام، كيفما عدّت وأحصيت، من قبيل المرور بجحيم دفع إرفينغ ثمنه من نفسيته وصحته، إذ خرج من التوقيف مريضاً بارتفاع الضغط ومسكوناً بالخوف. في القليل الذي حكاه لبعض أصدقائه حول التجربة التي عاشها، وفي الكثير الذي أسرّه لشريكه جويل وللعزيزتين على قلبه إليسا وكلارا، لم يذكر إرفينغ أنّه تعرّض لأيّ نوع من العنف الجسدي. على العكس، فقد اقتادوه بلطف وتنقّل بين مختلف حجرات المركز ليدلي بأقواله للضابطين، رودريغِث وفرنانذِث، اللذين تكفّلا، مفردين أو مجتمعين، باستجوابه أكثر من عشرين مرّة، لعشر دقائق، أحياناً، ولساعات طويلة، أحياناً أخرى، كان يشعر في نهايتها بأنه على حافة الانهيار.

في زنزانة المركز سريرٌ عليه مرتبة رطبة وباردة. وفي السقف ثُبّتَ مصباحٌ فلوري مضاء على الدوام، سرعان ما أنساه معنى الساعات والأيام. يأتون له بالطعام على فتراتٍ، يراها أحياناً قصيرة، وأحياناً يراها متباعدة، طعام واحد لا يتغيّر: صحن من البلاستيك، فيه حفنة من رزّ وقليل من يخنة البازلا أو الفاصوليا الحمراء، كرتان من الكروكيت وقطعة من الخبز. ما كان يدري إن كان ذلك فطوره أم غداءه. لم يأتوا له بالقهوة قط، فكان نقص الكافيين هذا يسبب له صداعاً دائماً.

في جلساته الأولى مع المحققين، كرّر إرفينغ أقوال البداية، وأعاد رسم خطّ تحركاته ليلة 26 كانون الثاني: ذهب إلى المسرح (على بعد ستة مربعات

سكنية من البناية التي وقع فيها الحادث)، وزار بيت أحد الأصدقاء، وشرب الرون، دائماً بحضور أشخاص آخرين. فكّر إرفينغ أنّ المحققين يبحثان عن شرخ في حجة غيابه، فكأنّهما لم يكتفيا بشهادة جويل والأشخاص الثلاثة الآخرين، أو كأنّ ثمّة تدبيراً يحاك للإيقاع به.

في إحدى تلك الجلسات، وبعد أن كرّر رسم خط تحركاته للمرة الخامسة أو الألف، طلب منه أحد المحققين (هو الخلاسي رودريغِث؛ لأنّ الآخر، فرنانذِث، كان أشقر) ألا يتحرّك من كرسيّه إلى أن يأمره بذلك، وأن يضع يديه على فخذيه وأن يثبّت رأسه ونظره إلى الأمام وأن يبقي على قدميه ثابتتين على الأرض. مرّت عشرون دقيقة وهو على تلك الوضعيّة. بدأ يشعر بتنمّل في بدنه. بدأ يحسّ كأنّ بدنه ما عاد ملكه، لكنّه لم يتحرّك، من الخوف. وبعد أربعين دقيقة، اكتشف أنّ دماغه هو ما تنمّل وذاب. وبعد خمسين دقيقة -ظنّ، افترض، خمّن أنّها دقائق يصعب تحديد عددها-، فقد وعيه. بعد سنوات كثيرة، وكان حينها في إسبانيا، أرسل له هوراثيو وصفاً أدبيّاً لذلك الأسلوب: لقد وجد الوصف، بالتفصيل الذي حكاه إفرينغ، في رواية ألّفها كاتب يدعى فاسيلي غروسمان[37]. وبدا كأنّ مستجوبيه الكوبيين درسا في الأكاديميّة ذاتها التي درس فيها شخوص رواية كاتبٍ مات ضحيّة التهميش والانغلاق الذي يميّز مدرسة السياسة السوفييتيّة.

وكان على الموقوف أن يروي قصة شجاره مع والتر مراتٍ كثيرة. لقد كشف، منذ البداية، في آليّة دفاعية بقصد شيطنة والتر، عن أنّ منشأ الشجار هو هوسُ المنتحر بالرحيل عن البلد. كان واثقاً من أنّ داريّو لم يتكلّم عن خطط والتر، ولم يتطرق إلى ذكر الدبلوماسي التشيكي، كي لا يعقّد الأمور فترتدّ ضده، ويتّهم بأنّه لم يبلّغ الشرطة ولم يرفع تقريراً للحزب بنوايا المرحوم والتر ماثيّاس. لكنّ إرفينغ وجد، حين كلّمه المحققان عن تلك الجزئيّة، أنّ داريو (أو شخصاً آخر مطلعاً على القصّة) كشف لهما عن تلك المعلومة، بعد أن وجد أنّه، بالكشف عنها، إنّما يقوّي موقفه ويبرئ نفسه.

37- Vasili Grossman (1905-1964). صحفي وروائي ومراسل عسكري سوفييتي- روسي.

وهكذا رأى أنّ كشفه عن سبب شجاره مع والتر سيكون تأكيداً لما صرّح به داريّو.

الموضوع الشائك الآخر، الذي حاول إرفينغ تجنّبه، هو إدمان والتر على المخدرات. لكنّه وجد أنّ الشرطة مطلعة على الموضوع، فلم يجد بداً من أن يذكر لهم أنه سمع والتر، ذات مرّة، يقول إنّه دخّن ماريجوانا، لكنّه أكّد أنّه لم يره يدخن. أمّا عن الشرب، فقد أكّد إرفينغ ولع المتوفى بالكحول. أمّا من أين كان والتر يأتي بما يتعاطاه، إن كان يتعاطى شيئاً حقيقة، فلا فكرة لديه عنه.

لكنّ أكثر ما فاجأه في استجواب الشرطة أسئلتهم عن علاقة عاطفيّة مفترضة بين إليسا ووالتر. وخمّن إرفينغ أنّ معلومة على ذلك القدر من الخصوصيّة لا بدّ أنّها صدرت عن أحد المطلعين (داريّو أم كلارا أم هوراثيو أم إليسا نفسها؟). فهل كانوا يحاولون أن يصلوا عن طريقه إلى خيط يقودهم إلى إليسا أو برناردو أو أيّ واحد من أعضاء المجموعة؟ لكنّه ظلّ يردد، وهو خائف من حقيقة ذلك الاحتمال غير المستبعد، أنّه سمع التعليق، لكنّ إليسا أو والتر، وخصوصاً والتر، لم يكلّماه قط عن علاقة جنسيّة بينهما. هذا هو كلّ ما يعرفه. فلمن حكى هوراثيو تلك القصّة ومن أين جاء بها؟ مَن مِن الذين يعلمون بالصلة الغامضة بين المتوفى والشابة الحامل أبلَغ الشرطة عنها؟ إنّ إرفينغ ليفترض، من خلال تجربته الخاصّة، أنّه من غير المستبعد أن يصرّح أيّ شخصٍ واقع تحت الضغط بتلك المعلومات وسواها.

لكنّ تصريحه ببعض الأسرار وردّه المكرر على نفس الأسئلة لم يُشعره بالراحة، بل صار يشعر بأنّه معزول وفارغ وأعمى. ومن لحظة انكشاف كلّ مستور، تراجع كلّ شيء عليه وانحسر فيه، عجزُه وخوفُه، اللذان لم يجدا في ملاذ براءته إلّا القليل من الحماية. فسيل الأسئلة لم ينقطع وجلسات الاستجواب لم تتوقف.

أسوأ ما في الأمر أنّ الأسئلة كانت تكرر، ولكن بنبرات وصيغ مختلفة، بقصد أن يجبروه على تذكّر أنّه ردّ عليها فيحاول أن يتجنّب الوقوع في تناقض، حتى وصلت به الحال أنّه ما عاد يهتم باستراتيجيّته: هو بريء لأنّه

بريء، وليس لديه ما يقوله بشأن إليسا أو برناردو. أصرّ المحقق رودريغِث على أنّ ثمّة شخصاً آخر ضالعاً في موت والتر، وبالتالي فإنّ ما حدث كان جريمة قتل، وراح يؤكّد له، بين حين وحين، أنّهما لن يتوقفا عن التحقيق لحين العثور على الجاني. أمّا المحقق فرنانڈِث فكان يكرّر عليه أنّ ما يقومان به إجراءاتٌ روتينيّة، وأنّ بعض حالات انتحار يجب أن تُعدّ، ولأسباب عديدة، حالات انتحار مؤكدة (وخصوصاً إذا تعلّق الأمر بفنّان، والجميع يعرفون كيف هم الفنانون)، ويبثّ فيه الثقة إذ يعده بأنّه لن يلبث أن يعود إلى بيته وعمله، بمجرّد أن تتوضح الصورة. إن لم يكن إرفينغ مخطئاً (لا يستطيع أن يجزم بذلك)، فإنّ أيّاً من المحققين لم يوجّه له التهمة بقتل والتر... فلماذا يعتقلونه، إذن، ويضيّقون عليه؟ هل يقسوان عليه لأنّهما يعلمان أنّه مثليّ، ويريانه ضعيفاً وخائراً ويمكن الحصول منه على معلومات تمسّ الآخرين؟

وبينما كان إرفينغ ينقل بين غرف التحقيق، عبْر ممرّ له هيئة النفق، في ما يمكن أن يكون يومه الخامس أو المئة من توقيفه، وقعت عيناه، في لحظة توهّم أو لحظة حقيقة، على منظر خطير. فقد رأى، أو ظنّ أنّه رأى، لحظة فُتح البابُ وأدار رأسه، فتاة تجلس خلف مكتب وبيدها أوراق. فتاة شقراء لها عينان كالمذهولتين (هل رأى عينيها فعلاً؟)... إنّها غيستي، خطيبة هوراثيو، التي كان والتر يؤكد أنّها العنصر الأمني المندس في الأخويّة. عقب تلك الصورة الخاطفة، المثيرة للقلق (ماذا عساه قال هو أمامها، وعلى أيّ سرّ ائتمنها هوراثيو، وكم تعرف هي عنه وعن أصدقائه؟)، أحسّ برجفة في قدميه منعته من مواصلة المسير، لكن رودريغِث، وقد رأى ضعفه وتعبه، ساعده على الجلوس على الأرض ثمّ استدعى الطبيب. قاس الطبيب ضغطه فأمر بنقله إلى الطبابة، حيث زرق بإبرة في الوريد، بعد أن وضع له حبّة تحت لسانه، وتركوه ليرتاح لعدة ساعات.

أفاق إرفينغ من العلاج المهدئ والمنوّم الفعّال، لكنّ رأسه لم يتوقف عن التفكير. فلو صحّ أنّ الفتاة التي رآها، من فرجة الباب، هي غيستي، وأنّ غيستي تعمل، كما بدا واضحاً، لحساب الشرطة، فمعنى هذا أنّه، هو وأصدقاؤه، كانوا يسيرون عراة، فخصوصياتهم باتت معروفة مكشوفة، والشرطة صارت تعرف عن كلّ واحد منهم ما يمكن وما لا يمكن تصوّره،

وتعرف أجوبة الكثير من الأسئلة التي طرحوها عليه. والأدهى من ذلك أنّه بات يعرف أنّ الشرطة تمتلك عن كلّ واحد منهم، كما كان يحسب ويظن، إضبارة ضخمة. أمّا ما كان يريحه ويطمئنه فهو علمه بأنّه، هو وأصدقاءه، ليس لديهم ما يخفونه في بلد لدى الجميع فيه، أو الجميع تقريباً، ما يخفونه. خفف عنه أيضاً أنّه لم ينطق أمام المحققين، على مدى ستة أيّام، هي الأشدّ سواداً في حياته، بغير الحقيقة.

لن يستطيع إرفينغ الجزم بأنّ الشقراء التي رآها من فرجة الباب هي غيستي، ولن يجزم بذلك حتّى أفراد الأخويّة، بمن فيهم هوراثيو. ولن يتأكّدوا من ذلك إلّا بعد سنوات، حين عثر داريّو بالشقراء المذهولة في (پونتي فيكيو)[38]، وسألها عن تلك الجزئيّة...

في اليوم التالي لانهياره العصبي (أم مرّ ألف يوم؟)، وعقب جلستي استجواب، اتسمتا بدرجة أدنى من التوتر، حضر إلى الزنزانة ضابطٌ لا يعرفه إرفينغ. جاء ليبلغه بأنّ في مقدوره الانصراف، ويعتذر منه عن الضيق الذي يمكن أن سببوه له. وأبلغه بأنّهم سيزودونه، حين خروجه، بكتاب يبيّن أسباب تخلفه عن العمل، وهكذا لن يؤثر تغيّبه على وظيفته. قال له إنّ المحققين يطمعان في أن يتفهم موقفهما إذ كلّفا، بسبب طبيعة عملهما، بالتحقيق معه في جريمة قتل، وهو تحقيق ما زال قائماً، وأعرب عن أمله في أن يكون زميلاه عاملاه معاملة طيبة. وأبلغه أنّهم توصّلوا إلى معرفة الطريقة التي استطاع بها المتوفى الوصول إلى السطوح، وهكذا اتضحت لهم الكثير من الأشياء، أضاف، من دون أن يكشف عن المزيد من التفاصيل. وحين مدّ له الضابط يده ليصافحه، انخرط إرفينغ بالبكاء، بعد أن ظلّ يتابع التبريرات الرسميّة، بشعور من جُرّد من كلّ حماية، وبدا نحيبه كأنه لا يخرج من رئتيه بل من روحه. وهكذا تولّد في نفسه هاجس بأنّ الخوف الذي عاشه على مدى ستة أيام وخمس ليال سيكون مزمناً، كما هو ارتفاع الضغط الذي بدأ يشكو منه.

38- **Ponte Vicchio** أو الجسر القديم وهو من معالم مدينة فلورنسا الإيطالية ويعود بناؤه إلى مئات السنين.

ستبقى (فونتانار)، دائماً، وإلى الأبد، بل وبعد الأبد، واقعاً وفي الذكرى، قريبين كانوا أم بعيدين. ستبقى لهم (فونتانار). حلزون كلارا. الأليف[39]. المركز المغناطيسي الصادر، ربّما، عن حجر نحاسي ممغنط، مستخرج من الأرض ومعاد إلى الأرض.

في اليوم التالي، كان إرفينغ ما يزال يتوقّع أن يعودوا لاستدعائه في أيّة لحظة ويعيدوه إلى الجحيم. لكنّه تغلّب على مخاوفه، وذهب برفقة جويل إلى بيت كلارا، وهو مكان طالما شعروا فيه بالسعادة، فقد كان إرفينغ يعرف أنّه مدين لأصدقائه، أعضاء الأخويّة، بأنّ يقصّ عليهم قصّة مروره بمركز الشرطة. صحيح أنّه خسر في الحبس عشرة أرطال من وزنه، لكنه كسب اكتشاف عريهم، منفردين ومجتمعين، طوال شهور (أم طوال سنين؟).

كانت الأخويّة، التي التأم شملها عصر ذلك اليوم، تشعر ببالغ التأثر، حيث اختلط في نفوس أعضائها الخوفُ بالحزن، والغضبُ بالقلق. اجتمع هناك إرفينغ وصديقه الوفي جويل، وصاحبا الدار، كلارا وداريّو، وهوراثيو، والعائدان بعد غيبة، فابيو وليوبا، وإليسا، التي حملت لهم (صدقاً أم كذباً؟) خبرَ أنّ برناردو لن يحضر لأنّه يعاني من رشح مصحوب بحمّى. جاء هوراثيو، الله أعلم من أين، بدجاجة كنديّة عظيمة الصدر، قسمتها كلارا إلى قطع لكي ينال كلّ واحد من الآكلين قطعة مع الرزّ الذي استعدّت لطبخه، بينما حملت ليوبا علبة من الكروكيت Made in Vietnam، كانوا قد وزعوها في الوزارة مكافأة على إنجاز أعمال لا أحد يذكر أو يعلم أنّها أنجزت. وكان

39- إشارة إلى قصّة خورخي لويس بورخيس **Aleph** (1945). وأليف هو رمز العدد اللانهائي.

من حسن الحظ أنّ سيل المشروبات التي يتلقاها داريّو هدايا من مرضاه ظلّ متواصلاً (وإن لاحظ دائماً أنّ الخزين ينفد)، وهكذا جاء بليتر من *وايت هورس* قال عنه إنّه خير علاج لضيق الصدر، بل لقد وصفه لمن يشكو من ارتفاع الضغط... وأضاف إنّ الليتر كاف لهم، في غياب برناردو الذي لا يرتوي، ووالتر الذي ودّع وإلى الأبد.

جلسوا في الشرفة. لم يكن أيّ منهم مهتمّاً بمنظر الشمس وهي تغرب، ولا بفرشة الألوان المتوهجة، بل أنصتوا صامتين إلى إرفينغ وهو يقصّ عليهم ما جرى له، بنبرات التشديد وتوقفات الصمت الدراماتيكيّة التي يحسنها، والتي جعلته، متقصداً أم غير متقصّد، يؤجل، حتّى لحظة الذروة، فصل رؤيته لغيستي (كانت ترتدي بدلة رسمية أم لباساً مدنياً؟) وإصابته بانهيار بدني ونفسيّ.

– رأيتُها عرضاً، ثانيتين، لكنّي أقسم بروح أمّي أنّها هي. تلك العينان...
– أكّد، وهو ينظر إلى هوراثيو.

– «الخوف يفتك بالروح»، كما قال فاسبيندر[40] – قال الفيزياوي، الذي بدأ يهزّ رأسه نافياً.

– فاس مَن؟ – سأل فابيو.

– لا يهم، رجل يصنع أفلاماً...، و... –بدا هوراثيو كأنّه أضاع خيط فكرته–. نعم، والرعب يجعلنا نتصور أو نتخيّل... أمّا موضوع أنّ غيستي سوپر جاسوسة فهي قصّة اختلقها والتر... سأقول لكم شيئاً... لقد فكّرتُ في الأمر كثيراً، وأرى أنّه، إن كان هناك من مخبر بيننا، فقد كان والتر...

– وأنا سأردّ عليك، هوراثيو، بنفس طريقتك –تدخّل فابيو من جديد–. «الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع»، كما قال آخر...

– نابليون؟ –قال داريّو، وهو يسعى إلى التخفيف من حدّة التوتر، وكعّ من الكأس التي كانت في يده وقضم الكروكيت الفيتنامي الذي كان يحمله في اليد الأخرى. سبب له مذاق الكروكيت الغريب ردة فعل كيميائيّة غريبة

40- **Rainer Werner Fassbinder** (1945-1982). مخرج سينمائي وكاتب وممثل ألماني.

في ذاكرته العاطفيّة-. أم إنّ من قاله هو نجوين صون المحارب؟ - وابتسم لاستحضاره ذكرى بطل المسلسل الإذاعيّ، الذي يُسقط طائرات الأمريكان بسهام الفيت كونغ التي لا تخيب.

- فعلاً، أيّها السادة -عاد فابيو-. عرفتُ والتر من سنوات كثيرة. هو يمكن أن يكون كلّ شيء إلا شرطيّاً. أيّ شيء... حتّى منتحراً.

- ألم يكن مستفزّاً؟ - سأل إرفينغ.

- أو ابن قحبة -أكمل جويل-. لقد قال إرفينغ له ذلك وانظروا كيف تصرّف. لماذا؟ لأنّه كان ابن قحبة، وإن مات. وليس لأحد أن يذكّرني بأنّ الواجب يقتضي ألّا نذكر من الأموات إلّا محاسنهم... كان ابن قحبة حقيقياً...

لم يكفّ هوراثيو، الغامض المنعزل بعض الشيء، عن هزّ رأسه الذي بدا كأنّه رقّاص لا يتوقّف عن الحركة.

- لا أريد أن أدافع عن أحد، فابيو. فقط أريد أن نكون منطقيّين... ما الداعي إلى تكليف أحد بمراقبتنا؟

- لا أدري... ولكن...

- ربّما يراقبوننا لأنّ عملهم يقتضي أن يراقبونا، أو بسبب انحراف في نفوسهم أو رذيلة، ربّما... -قالت إليسا، وكانت، حتى تلك اللحظة، صامتة، على غير عادتها-. دعك من المنطق، هوراثيو. أنا أعرف جيداً أنّ كلّ ذلك غير منطقي، أحياناً. لا فرق بين أن تكون غيستي أو أن يكون والتر أو...

- لا أحبّ أن نتكلّم عن هذا الموضوع -قاطعتها ليوبا-. فإنّه ينرفزني...

- تنرفزي، إذن -عادت إليسا-. أنا أعلم ذلك. أقسم لك بحياة والدي أنّي أعلم ذلك جيداً. أيّ واحد هنا يمكن أن يكون جاسوساً. وأنا أظنّ أنّ والتر كان جاسوساً. وإلّا، فلمَ كلّ هذا التحقيق؟

- كفى، إليسا... -قالت ليوبا متوسلة تقريباً-. لنغيّر الموضوع!

- دائماً هناك احتمال لوجود متلوّن - أقرّ هوراثيو. مع ذلك، فقد أراحه طلبُ ليوبا الكفّ عن الخوض في ذلك المستنقع، الذي غاص فيه

حتّى عنقه، لكنّه صمّم، في قرارة نفسه، أن يفكّر: فلماذا تضايقت ليوبا؟، تساءل في البداية. هل هي المخبرة؟ وقال لنفسه، أيضاً، إنّ من الممكن أن يكون إرفينغ قد رأى غيستي، كلّ شيء جائز. أمّا ما لا يشكّ فيه، وقد اعترف بذلك لاحقاً لإرفينغ، حين بدأت تُسمع بين المجموعة تحذيراتٌ جديدة أشدّ صوتاً، فهو أنّ هناك ما هو أشدّ دناءة من مراقبة ما زال المكلّف بها غير معروف، ويمكن أن يكون، كما قالت إليسا، أيّ واحد. إنّه لا يشكّ في أنّ قذارة تتكدّس في ركن من الأركان، خراء حقيقيّ في مقدوره أن يشمّ رائحته، وإن لم يكن ظرفه يسمح له برؤيته. لكنّه لن يلبث أن يعثر على المصدر الذي تنبعث منه تلك الرائحة النتنة.

– وهل تعرفون آخر ما قاله لي الضابط قبل أن يطلقوا سراحي؟ – قطّب الكثيرون جبينهم: ماذا قال؟–. قال إنّهم عرفوا كيف صعد والتر إلى السطوح.

– وكيف عرفوا؟ – سألت إليسا.

– هل كان عنده مفتاح القفل؟ – استغرب فابيو؟

– أظنّ... – قال إرفينغ.

– ومن أين حصل عليه؟ – سألت كلارا، فهزّ إرفينغ كتفيه.

– فقد أطلقوك، إذن، لأنّهم باتوا يعتقدون أنّه انتحر، أليس كذلك؟ – قال فابيو.

– وقالوا لكَ إنّ القفل أغلق ثانية من الداخل؟ – سأل هوراثيو، لكنّ سؤاله ظلّ معلّقاً أمام صمت إرفينغ.

لم يشرب إرفينغ المتألّم غير جرعة من كأسه، بل انتحى جانباً بإليسا، التي تركت الشرب والتدخين بسبب حملها. حلّ الظلام وابتعد هو وهي عن الآخرين، الذين بدا عليهم أثرُ الشراب. خرجا إلى الباحة المعتمة. ربّما لكي يتكلّما، وربّما لأنّ مغناطيس الكيمياء الذي طالما قرّب بينهما جذبهما، وربّما لأنّهما أرادا الابتعاد فحسب، بعد أن ضاقا بالجدال حول جوهر الفقيد الأخلاقيّ والإنسانيّ، والأسباب الممكنة لانتحاره، الذي بات شبه مؤكّد.

في الأسابيع الأخيرة، برزتْ بطنُ إليسا وعلت، وإن رأتها صغيرة على

أشهر حملها الخمسة. واعترف لها إرفينغ بأنّ الحمل، الذي كانت تضيق به، لأنّه يجعلها أسمن وأبطأ، يزيدها جمالاً. قال لها ذلك وهو يداعب بطنها المنتفخة.

– الأسوأ ليس هو ما يظهر على الجسم –اعترفت إليسا–. بل هو ما أشعر به في داخلي –قالت، ووضعت يدها على جبهتها–. أشعر بأنّي مختلفة.

– طبعاً، مختلفة، بسبب اضطراب هورموناتك –أكّد–. ولأنّك تعانين من مشكلة.

هزّت إليسا رأسها.

– أكثر من مشكلة... دعكَ منّي ومن بطني ولنتكلّم عن مشاكلي... فأنا لا أفهم لماذا ألقت الشرطة بك في الحبس كلّ تلك الإيام ما داموا يعتقدون أنّ والتر مات منتحراً... لا تتصوّر كم فكّرت فيكَ وفي الظرف الذي مررتَ به.

– ولا يمكنك أن تتصوّري ما جرى لي... أنا لم أحكِ لكم غير القليل... الأسوأ هو ما لم أحكه.

– وما الذي لم تحكه؟

مسح بظاهر يده عينيه النديتين، وتنهّد، ثمّ وجّه نظره نحو الظلام العميق. فهكذا كان يرى نفسه من الداخل: محفوفاً بالظلمة المنذرة المحذّرة.

– أظنّ أنّ الشرطة استجوبتني بانتظار أن أخبرهم بشيء عنكِ أو عن برناردو. إن كنتما على خلاف مع والتر. هم لديهم معلومات.

– لا معلومات ولا شيء... ما من مشكلة بيننا وبين والتر. ولئن أطلقوا سراحك فلأنّهم لم يمسكوا عليك دليلاً.

– لستُ متأكداً، الحقيقة أنّي لست متأكداً.

– وماذا تظنّ أنّهم يعرفون؟

– ما نعرفه نحن تقريباً، ولكن بتفاصيل أكثر... ربّما هناك أمورٌ غامضة في انتحار والتر. وقصّة القفل الذي وجدوه مغلقاً...

– يا للقفل! ما هو قذر وغامض كان في رأس والتر السكران. لقد ألقى بنفسه من الأعلى أو سقط، لا فرق، من حماقته...

– وماذا لو أنّ سبب اهتمام الشرطة هو أنّ والتر كان منهم؟ أنتِ قلتِ...

- وما الذي سيحمل ذلك التعيس على أن يكون شرطياً! أنا أعرف معنى أن تكون شرطيّاً! نشأتُ مع واحد حقيقي! ووالتر لم يكن خراء... ولا غيستي.

توقف إرفينغ ونظر إليها.

- أنتِ تعرفين أنّه لم يكن شرطياً ولا شيئاً من ذلك... تعرفين، لأنّكِ نمتِ معه، أليس كذلك؟

بحلقت به إليسا وأوشكت أن تبتسم:

- عمّ تتكلّم، إرفينغ؟

- هوراثيو يعتقد أنّكِ نمتِ معه، لا أدري لماذا، لكنّه يعتقد ذلك. ولا أدري إن كان هو أو شخص سمع ذلك منه وأخبر الشرطة... أنا سمعتُ هذا الكلام منهم. وربّما نقلوه إلى برناردو. هل أخبرك بشيء عن الموضوع؟... إليسا، هل يمكن أن يكون برناردو هو من قتل...؟

توقّفتْ إليسا عن النظر إلى إرفينغ. وردّت على أسئلته نافية برأسها. أغمضت عينيها للحظة، ولاحظ إرفينغ أنّ شحوباً علا سحنتها، لكنّها عادت ونظرت إليه وقالت:

- أيّ جنون هذا وأيّة ترهات...! كلا بالطبع! لم أنم معه يوماً... أقسم لك بأقدس المقدسات...، ببطني هذه التي أحملها -قالت، فشعر بأنّ ذلك الكلام خفّف عنه-. ثمّ إنّ الجميع يعرف أنّ برناردو كان معي، في بيتي، ليلة انتحر ذلك المغفّل، و... كان سكران. دعوا برناردو وشأنه.

- وبطنك؟

تأخر ردّها لثوانٍ.

- إنّها هديّة من الربّ، وقد أخبرتكم بذلك...

- إليسا! أتوسّل إليك بأعزّ ما عندك... اسمعي، أنا أيضاً فكّرتُ كثيراً بك حين كنتُ موقوفاً... فكّرتُ في قوّتكَ. تمنيتُ لو أمتلكت قوّتك لأستطيع أن أقاوم بها ما كنتُ أعانيه.

وحرّكت إليسا ثانية رأسها نافية.

– هناك، لا قوّة تنفعكَ غير قوتك: معرفتك بأنّك لم تذنب. ذلك هو الشيء الوحيد الذي يُبقي عليك صامداً.

– لكنّه لا يساعدكِ على تحمّل الخوف.

– نحن الآن جميعاً خائفون.

– وبرناردو؟

– خائف أيضاً، وإن لم يكن يعرف بموضوع إن كنتُ نمتُ مع أحد أو إن كان هو قتل أحداً. كمّ مرّة عليّ أن أكرر هذا الكلام؟ هل تعقل أن يقتل برناندو؟... وأنا أيضاً خائفة.

– لكنّك ما زلتِ قويّة.

– أبداً... هذه –ووضعت يدها على بطنها– تسلبني قوّتي. وقد قلتُ لك إنّي أشعر مختلفة. بل إنّي لا أتعرّف على نفسي أحياناً. أحياناً أنظر إلى المرآة فلا أرى صورتي: لا أجد إليسا... سينتهي كلّ هذا، وحينها، سأكون أنا من يقتل هوراثيو، أقسم لك على ذلك –قالت، ورأى إرفينغ دموعاً تسيل على خدّي صديقته، معبودته، مثله الأعلى، التي لم تلبث أن نشجت، وبصعوبة استطاعت أن تقول–: لأنّي لم أفكّر يوماً في والتر... أمّا من نمتُ معه حقاً فهو هوراثيو.

– يا إلهي، إليسا... ماذا تقولين؟

– ما سمعتَه – قالت وهي تنتحب.

– يا إلهي... هوّني عليكِ – قال، وحضنها وقبّلها من جبينها ومسح دموعها وشعر بصدقها وقربها. وكيف لا وهي إليسا... فتاته.

لم يخطر ببال إرفينغ أنّه، في ليلة (فونتانار) الباردة تلك، وبينما كان يغوص في أسرار قد تغيّر مجرى حياة الكثيرين، كان يكلّم صديقته إليسا كورّيا ويحضنها ويقبّلها للمرة الأخيرة، لسنوات كثيرة، وربّما إلى الأبد.

البحر من جديد. من بوابة ذلك الطابق الرابع، ومن فوق صنوبراتٍ ونخلاتٍ ومساكنَ أخرى قليلة، يُشاهد البحر المتوسط الوادع، الساكن، فسيحاً، مبهراً، باهتَ الزرقة، مع ربوة تصعد نحو جبال غير شاهقة. البحر، من جديد. البحر الذي لم يره من سنة مضت. سنة كاملة أمضاها بروحه وجسمه عند المحيط. ها هو البحرُ ينقل إليه أحاسيس خاطئة، تبدأ بالسلام الداخلي والمتعة الساكنة وتنتهي بالضيق الذي تسببه قائمة طويلة من الخسارات والفقد (محبوبته. أمّه. أصدقاؤه. عالمه. خسارات ربما لن يستردها). في ذلك الصباح، وبينما كان إرفينغ ينظر إلى بحرٍ يراه بحره، لكنّه ليس ببحره، تملّكته قناعة غريبة مفادها أنّ غربته ستعود عليه بمعاناةٍ طويلة ومكابدةٍ لا دواء لها، شأنها شأن ضغطه المرتفع. وما من خيار عنده غير جمع أرباحٍ وخسائر.

كان في الليلة السابقة قد طار إلى برشلونة، حيث كان داريّو بانتظاره. ثمّ انطلقا، في سيارة *ستروين زانتيا* لمّاعة جديدة، تنبعث من داخلها رائحة الجلد اللطيفة، يقطعان الطرق المعتمة حتّى (كالافيل)، بلدة الصيّادين التي باتت، يوماً بعد يوم، خياراً لسكنٍ ثانٍ واصطيافٍ، فهي تقع على شاطئ (باس پينديس)، في منتصف الطريق بين (تارّاغونا) وبرشلونة. هناك، في ضاحية (سيغور كالافيل) السكنية، كان داريّو المحظوظ وزوجته الكتلانيّة، مونتسي، قد اشتريا مؤخراً بيتهما الثاني.

تشغل الشقّة الطابقَ الرابع كلّه، وهي نوع من شقّة السطوح أو الـ penthouse، كما يطلق عليه في كوبا، وتقع في أعلى بناية ما زالت تفوح منها، كما من *الستروين*، رائحة ما هو جديد. شقة تستحقّ فعلاً ما كان داريّو يشعر به من زهوٍ وهو يقود صاحبه، حال وصولهما، لا إلى حجرة إقامته

فحسب، بل لقد طاف به أنحاء المنزل -الغرف والحمامات والمطبخ الواسع الذي هو، في الوقت نفسه، غرفة الطعام، حتّى مكتب العمل، حيث وضع علم نادي البرتسا متقاطعاً مع علم كاتالونيا-. وانتهت الجولة بالشرفة الفسيحة الموجّهة شطرَ الساحل، الذي كان، في تلك الساعة من الليل، يصنعُ ستارة مظلمة يَعِدُ عمقها إرفينغ بالاستيقاظ قبل مضيّفيه، لكي يجلس في صباح اليوم التالي في الشرفة، وحيداً، يستمتع بشرب فنجانه من القهوة.

منذ وصوله إلى إسبانيا، قبل عام مضى، اتصل إرفينغ هاتفياً بداريّو عدّة مرّات، وتلقّى منه كلّ عونٍ ماديّ -معاطف باتت صغيرة عليه، ونقود، ثلاث مراتٍ أو أربعاً-، لكنّهما لم يلتقيا، لأنّ الصديق القديم -الذي خرج من كوبا قبل خمس سنوات- لطالما حدّثه عن نفوره من مدريد، التي كان يسميها «عاصمة المملكة»، المتعجرفة الدكتاتوريّة. فعمّ يتكلّم داريّو؟ هل هذا هو داريّو الذي عرفه؟ ومن أيّة دكتاتوريّة يشكو باندفاع وغضب، وبالتلفون وبأعلى صوته؟

لم يفاجأ إرفينغ كثيراً حين اتصلت به مونتسي لتدعوه لإمضاء نهاية الأسبوع الطويلة الوشيكة معهما، في شقتهما التي دشناها حديثاً في (سيغور دي كالافيل). فداريّو، قالت له، يتحرّق شوقاً لرؤيته، بل إنّ في إمكانهما، إن شاء، أن يرسلا له تذكرة السفر بالطائرة. وافق إرفينغ بالطبع، وبدأ يستعد، من فوره، للرحلة التي طالما حلم بها، بعد ما رأى من مغريات الدعوة، التي بدت جولة حُضّر لها بتخطيط كاتلاني، لأنّها ستشمل، كما قالت له مونتسي، جولة في مدينة تاراغونا وآثارها الرومانيّة، وزيارة لبرشلونة للاطلاع على الشقّة التي يسكنانها في المدينة.

حين خرج من صالة المغادرة في المطار، صدم إرفينغ بأولى المفاجآت التي ستواجهه على مدى أيام إقامته الأربعة في كاتالونيا: رأى سيّداً بدا له مألوفاً، حليق الرأس أو أصلع، مدوّر الوجه كقطعة البسكوت، ملتفّا بمعطف ماركة (بربري)، ترافقه شقراء مكتنزة تصغره بعشر سنوات، يبتسم ويفتح له ذراعيه مرحّباً مستبشراً. لم يكن من السهل عليه أن يتقبّل فكرة أنّ تلك هي النسخة المُحدّثة للصديق العزيز الذي ودّعه قبل سبع سنوات في مطار هافانا، وكان يومها نحيلاً يكسو رأسَه شعرٌ وخطه الشيب، والذي بكى لحظة الوداع، بعد أن خطط لأنّ تكون رحلته تلك رحلة نهائيّة.

لم يكن الزائر قد فاق بعد من استغرابه للانقلاب الذي طرأ على شكل مستقبِله، حين فوجئ بأنّ انقلاباً آخر طرأ على لغته ونبرة كلماته وعباراته، فقد اكتسبت لغة داريّو لكنة كاتلانيّة، فكأنّه ولد في ضيعة من ضياع (جيرونا). أحسّ إرفينغ، وقد استغرب الانقلاب الكبير والغريب الذي طرأ على داريّو -هل يتحرّك بطريقة مختلفة ويومئ بأسلوب آخر؟-، بالضيق إذ وجد نفسه في حضرة رجلٍ يعرفهُ ولا يعرفه.

فكّر إرفينغ، وهو يرى داريّـو يسير ممسكاً بيد مونتسي، كأنّهما خطيبان يستمتعان بنجاح مؤامرة حاكا خيوطها معاً (لا يتكلمان بينهما إلّا بالكتلانية)، ويفرّجانه على شقّة (سيغور دي كالافيل)، التي وصفها داريّو بأنّها *لُقطة*، بأنّ ما دعا صديقه إلى استضافته هي حاجته إلى شخصٍ مثله، ليكون شاهداً على نجاحه، وناقلاً لصورة الحياة الرغيدة التي يحياها. فها هو داريّو، يبرهن من خلال مسكنيه الرائعين، على عزمه الراسخ في الابتعاد عن البيت الحقير الفقير الذي ولد فيه ونشأ. لا شكّ أنّ هذا هو السبب، فكّر إرفينغ، وهو ما يزال يبتسم، مستمتعاً بوحدته، صباح اليوم التالي لوصوله. معلوم، قال إرفينغ لنفسه، فالكوبي يهمّه علم الآخرين بمضاجعته امرأة لذيذة أكثر من اهتمامه بفعل المضاجعة نفسه... وكيف لا تفعل تلك الخصلة الفارقة فعلها في داريّو، وهو يروّج لبيتٍ يقع قبالة البحر، هو بيت إقامته الثاني!

- لا بدّ أنَ القهوة أعجبتك. -أخرجه الصوت القادم من خلفه من شروده، فالتفت ليرى داريّو يحمل فنجان قهوة، وقد التفّ برداء بيتي حريري مورّد. ربت على كتفه وجلس في المقعد القريب-. سننتظر أن تصحو مونتسي من تأثير الحبوب التي تتناولها وتستيقظ لتناول الفطور...

عاود إرفينغ الشعور بأنّه خارجَ مكانه، أو بأنّه في المكان الذي كان عليه أن يكون فيه دائماً: ما زال داريّو 1997 نصفَ أصلع وسميناً، كما رآه الليلة البارحة، لكنّه يظهر الآن ملتفّاً برداء منزلي كلاسيكي أنيق، بالغ البرجوازيّة قياساً إلى معاييره، لكنّ صورته بدت، وقد عاد له صوتُه ونبرتُه الكوبيّة، تتشكّل بين الحاضر والذكرى.

– ما من مشكلة، سننتظرها –قال إرفينغ وابتسم–. هل تريد أن أعدّ قهوة جديدة؟

– نعم، هيّا... ولكن استعمل قهوة *إيلي*. إنّها على الرف... الأيسر. اللعنة على... كم أتمنّى أن أعود إلى إيطاليا!

عاد إرفينغ إلى المطبخ وعبأ ماكنة القهوة الإيطاليّة ببنّ قهوة إيطاليّة أيضاً. كان يعرف أنّ داريّو لا يحبّ إعداد القهوة. وعادت به ذاكرته إلى خليط الحبوب الذي لم يكن فيها من مذاق القهوة إلّا القليل، وتذكّر كيف أنّ ذلك الخليط طالما أنذر بغلق فتحات ماكنة إعداد القهوة، تلك القهوة التي لا شكّ أنّ كلارا وأولاد داريّو يتناولونها الآن، هناك في (فونتانار). هذا إذا ما زالت لديهم قهوة.

– كنت أفكّر... – قال إرفينغ وهو يعود إلى الشرفة بفنجانين تفوح منهما رائحة القهوة العطرة.

– في كلارا والقهوة – قاطعه داريّو.

– وكيف حزرت؟

– لأنّي أعرفك جيداً، أيّها السافل...، وأعرف نفسي جيداً...، عليّ أن أشتري لك فناجين من البورسلان! –قال داريّو، وقبل أن يرشف من قهوته الجديدة نهض وتقدّم خطوة وفتح ذراعيه ليضمّ إرفينغ إلى صدره بقوّة–. أمّا هذا فمن الخشب، من الخشب.

فوجئ إرفينغ بفيض المشاعر التي أبداها صديقه، الذي طالما ضنّ بهذا النوع من التعبير البدني عن مشاعره. لكنّ إرفينغ استردّ حالته وردّ بما يحسن الردّ به:

– داريّو...، الخشبُ هو ما تضربني به، وأنتَ تسير عارياً، من تحت رداء مخنّث عجوز.

أطلق الصديقان، اللذان لم يضحكا من زمان، ضحكة مميزة، لا بشدّتها، بل بنوعيتها.

بعد الفطور، تبادل داريّو الحديث بالكتلانية مع مونتسي: اقترح عليها أن يستغلوا ذلك الصباح الرائق ليتمشّوا على الكورنيش البحري، لكنّها اعتذرت

بأنّ عليها أن تنتهي من مراجعة بعض أعمال طلبتها في جامعة برشلونة، وأن تجري بعض المكالمات التلفونية لإتمام بيع شقة، وهي التجارة التي تكسب منها معظم موردها.

– اذهبا أنتما –أضافت بالإسبانية–. سآتي إليكما، عند الثانية، لآخذكما لتناول بعض المقبلات، ومن هناك نستطيع أن نذهب إلى (تارّاغونا) لتناول الغداء. اتفقنا؟ لقد وعدتُ إرفينغ بأن نصحبه لزيارة الآثار الرومانيّة و...

– تمام، حبيبتي. *وداعاً*.

ارتدى داريّو، للخروج إلى النزهة، بنطلوناً وقميصاً ناصعي البياض، وصندلاً جلديّاً وقبّعة من نسيج (اشتريناها من جزيرة كريت، قال) لتقيه لفح الشمس. مع ذلك، فقد ألحّت مونتسي عليه أن يضع كريماً واقياً على خدّيه وجبينه ورقبته. حين رآه إرفينغ، بتلك الملابس وخطوط الزعيم الهندي البيض على وجهه، ظنّ أنّ داريّو فارقه من جديد، أو أنّ ذلك الجسد بات يضمّ مخلوقين متشابهين وإن اختلفا: الرجل الذي كان وما يزال، والآخر الذي يريد أن يكون. تذكّر أنّ الرجل الأوّل كان، قبل أسبوع واحد من خروجه من كوبا، يكتوي بنار شمسٍ حارقة، ويحفر في باحة بيته في (فونتانار) ليستخرج درنات البطاطا الحلوة الرفيعة من أجل الطعام، بلا قبّعة يعتمرها ولا قميص يرتديه، ولا كريمات *اللوكسيتان* التي يفوح عطرها الآن فيبدو بها كأنّه نمر مدجّن أليف. فهل يعقل أن تسبب له شمس أيار الباهتة في (سيغور دي كالافيل) سرطاناً في الجلد، وهو الذي اصطلى بلهيب شمس كوبا؟ أمّا إرفينغ، فلم يفزع ولم يقلق، بل تمسّك ببنطلون البرمودا والفانيلة من دون أكمام.

هبط الصديقان النزلة صوب البحر، وحدّث داريو إرفينغ، بلهجته ومفرداته الكوبية التي استعادها، عن رضاه وسعادته بحياته الجديدة. إنّه يؤدي الوظيفة ذاتها التي كان يؤديها في كوبا –يفتح جماجم ويعجن أمخاخاً ويشقّ ظهوراً ويثبّت أعمدة وفقراتٍ–، ويكسب من عمله ما لم يكن يحلم به.

– هل تعلم أنّي أصبتُ بقرار الخروج من كوبا؟ بل كان خيرَ قرار اتخذتُه في حياتي. وأنا مدين بالشكر لمن دفعوا بي إلى الخروج. لا أدري كيف

كنت سأعيش هناك، فالحياة في كوبا تسير من سيئ إلى أسوأ. وما من حلّ، ما من حلّ...

هزّ إرفينغ رأسه موافقاً. لم يجد ما يردّ به على حديث داريّو حول شعوره بالراحة في مهجره ورضاه عن صواب أحكامه وتصوراته عن الحياة في كوبا واحتمالات الحل فيها. وقرّر أنّ من غير المناسب أن يعكّر فرحة داريّو وحماسه، حقيقياً كان أم مصطنعاً، أم كان مزيجاً من الاثنين، ولذلك آثر ألّا يحكي له عن كلارا وولديه، رمسيس وماركوس، الذين تركهم وراءه، ليعيشوا حياة بادية السوء والبؤس، حسب رأيه هو نفسه.

– وانظر المرأة التي حظيتُ بها –واصل داريّو الكلام–. إنّها تعاملني كأني إله... هي في الواقع crazy بعض الشيء، لكنّها ملاك. ليست بخيلة... أمّا في الفراش...! فحدّث ولا حرج. هي، كما رأيت، سمينة و.. –وبعد توقف قصير، أضاف–: تفعل معي ما لم تكن كلارا تستطيع فعله.

تذكّر إرفينغ حواراته مع كلارا حول الموضوع، وبدا له أنّهما تكلما عن ذلك قبل ألف سنة، فقرّر البقاء في الحاضر.

– هذا شيء يسعدني –قال إرفينغ، لكنّه لم يستطع أن يبلع لسانه–. وهل تتضاجعان بالكتلانيّة؟

ضحك داريّو

– لم تتغيّر... فأنتَ كما أنتَ...

بلغا الكورنيش العريض، الذي على جانبه صفّ طويل من أشجار النخيل، بينما تمتدّ، على الطرف الآخر، مساحة واسعة من الرمل النظيف، وبحرٌ ماؤه ساكن، لكنّه شديد البرودة.

– أخي إرفينغ، أنتَ لا تعرف ما عاناه الكتلانيون لكي ينالوا هويتهم –بدأ داريّو الكلام–. أنا أفهمهم، فقد عشتُ في كوبا ورأيتُ وحشيّة الأمريكان. ولذلك أتفهّم تطلعاتهم وطموحهم. وسترى...، لن يحدث هذا غداً ولا بعد غدٍ، لكنّ انفجاراً سيقع ذات يوم، أؤكّد لك ذلك... وإذا كنتُ أعيش هنا وأعمل هنا، وأشعر بالراحة هنا... فلماذا لا أكون مثل الذين يعيشون هنا؟ أمّا سادة مدريد هؤلاء فهم...

– ما أغربَك، داريّو –قال إرفينغ–. هناك كنتَ لا تتكلّم بالسياسة...
– لأنّ الكلام في السياسة كان محرّماً... لا شيء غير الطاعة. وأنت تعلم ذلك، فلا تتصنّع الـ...
– نحن كنّا نتكلّم بالسياسة. بصوت منخفض، لكنّنا كنّا نتكلّم... وأنت كنتَ في الحزب...
– صحيح... –أقرّ داريّو–. وأيّة مشكلة حللتم بالكلام؟ لا شيء. هلّ تغيّر شيء؟ هل تبدّل شيء؟... اسمع، إرفينغ، أتعلم ما هو أفضل شيء وقع لي هنا؟
– وهل بقي أفضل ممّا أنتَ فيه؟ – سأل إرفينغ، وقد استبطأ كلام داريّو.
– هنا أستطيع أن أتكلّم عمّا أريد، ومع من أريد. أستطيع أن أعيش بلا قناع، يا صديقي، بلا قناع. ومن دون خوف! ولا تذكّرني بالأشياء هناك، ولا كيف تعمل، أرجوك...

أومأ إرفينغ برأسه موافقاً. إنّه لا يريد أن يرسم لداريّو صورة الرجل المستعد للقتال على جميع الجبهات، لأنّه يدرك أنّه لا يملك سلطة لفعل ذلك: فلكل شخص الحق في التفكير والعيش كما يحلو له، شرط ألّا تلحق قراراته وأفعاله الضرر بآخرين. ولطالما نادى هو نفسه بذلك، فليس هو بالشخص الأنسب لانتقاد داريّو على استمتاعه بملذاته الماديّة والروحيّة.

– أنا سعيدٌ من أجلك، داريّو. سعيدٌ حقاً... واعذر لي إن بدوت، في بعض الأحيان، متعجرفاً... كانت أمّي تقول لي ذلك.
– أتعلم، إرفينغ؟... لا تعتذر عن أيّ شيء... أمس قرأتُ أفكاركَ على وجهك... –قال، وهو يلمس رأسه الذي غطّته قبّعة القش–. أنا أعرفك منذ لا أدري كم سنة... نعم، هذا صحيح، أردتُ أن أدعوك لكي ترى كيف أعيش. وقبل أن تذهب، سأريك شقّة مونتسي في برشلونة ومكتبتي. أريد أن آخذك إلى المستشفى الذي أعمل فيه، يبدو فندقاً بخمس نجوم. هناك ينادونني سنيور ودكتور وبروفيسور، وليس رفيق... أريد أن ترى بأم عينيك ذلك كلّه –فتح ذراعيه، كأنّه يريد أن يقول إنّ البلاج والكورنيش والبنايات المجاورة كلّها جزء من أملاكه–، لا أن تراني وقد صرتُ أشدّ بؤساً ممّا كنتُه دائماً. فذلك ما عاد ممكناً...

- عجباً، تذكّرتُ ذلك الشعار الذي كان علينا أن نردّده حين كنّا في الثانويّة... «دائماً يمكن فعل المزيد!»...

- هل ستواصل جلدي؟... اسمع. إن أردت الحقيقة فإنّ عليّ أن أعمل ثلاثين سنة تقريباً لأتمكّن من تسديد ثمن شقة البلاج، ولولا مونتسي ونقودها، لما كنتُ، ولما كنّا، أنا وأنتَ، حيث نحن الآن، نستمتع بجمال هذه الناحية من العالم. ولم يفتني أن أعرف السبب الذي جعل من هذه الناحية من العالم، وليس من بوليفيا ولا من الكونغو، هي الأجمل... نعم، طلبتُ من مونتسي أن تدعوك لتتفرّج على كلّ هذا، إرفينغ، لأنّك تعرف أنّ حياتي كانت صراعاً من أجل الابتعاد عن تلك القذارة التي ولدتُ فيها ونشأت، وإن لم يكن في مقدورك أن تتخيّل الأشياء التي جرت لي... إنّما أفعل ذلك لكي أسمع منك، وأنتَ صديقي الذي ساعدني، حين قرّرتُ السفر، بنصف ما كان يملك، وهو ما لن أنساه، حتى لو صرتُ أتكلّم بالكاتلانيّة. أقول لك، إنّي أفعل ذلك لكي أسمع أخاً لي مثلك وهو يقول لي إنّي لم أخطئ... حكيتُ لك عن الجانب المضيء من حياتي، لكنّ الجانب المظلم موجود أيضاً: حين أتأمّل كلّ ما أمتلكه وما أستطيع امتلاكه، أرى أنّه ليس أهمّ من ذاك الذي ما عدتُ أملكه لأنّي فقدته... أو لأنّ أحداً انتزعه منّي. ومن ذلك الرفيقات المنظفات، نعم، نعم، اللائي كنّ ينظفن الأرضيّة، واللاتي كنّ يعددن لي القهوة التي يأتيني بها أحياناً مرضاي، ويطلبن منّي زوجاً من القلقاس إن كان ما جاء لي به مرضاي هو القلقاس... أنت تفهمني، إرفينغ، أليس كذلك؟

- أفهمك، داريّو... ومن لا يفهم... فليذهب إلى الجحيم، صديقي.

- نعم. فليضرب رأسه بالحائط...

- لا أرى أنّكَ أخطأتَ، داريّو -قال إرفينغ وهو ينظر إلى البحر، المختلف عن بحره، لكنّه بحر واسع مغرٍ-. في كوبا جرت لنا الكثير من الأشياء التي نغّص بعضُها علينا عيشتنا... وفوق ذلك والتر وإليسا ولغز الجاسوس والمشاكل التي بينك وبين كلارا... أنتَ فعلتَ ما رأيتَ أنّه الصواب، وخلاص... ولكن، بالمناسبة، عليّ أن أذكّركَ بأنّ بعضنا يحبّ أن ينغّصوا عليه حياته.

صباح 15 شباط 1990 توجّه إرفينغ إلى دار النشر التي طال احتضارها بسبب شحة الورق على مستوى البلد. واستعدّ، عند انتصاف النهار، لتناول طبق الرزّ والبطاطا الحلوة والكرنب وكروكيت العجينة المجهولة المغطاة بما يشبه الحبوب المتقرحة، وهي الوجبة نفسها تقريباً التي كان يتناولها أيّام اعتقاله في الثكنة. وجبة باتت عماد الغذاء الوطني، إذا ما ناوبنا بين الكروكيت والبيض وكريات اللحم المفروم بالثوم وفول الصويا. أبلغوه، ذات يوم، بأنّ لديه مكالمة في الاستقبال، لا يمكنهم تحويلها إليه، بسبب انقطاع الكهرباء. نزل إرفينغ، والملعقة في يده، يلعن حظه العاثر. رفع السماعة فإذا بإعصار خامد ينفجر في وجهه:

– إرفينغ. وأخيراً، صديقي... هذه أنا.

– مرحباً، كلارا، كيف حالك؟

– إرفينغ... هل تعرف شيئاً عن إليسا؟

– إليسا؟... رأيتها الليلة البارحة كما رأيتِها أنتِ و...

– وبعد ذلك؟

– بعد ذلك؟ -أحسّ إرفينغ بأنّ مصابيحَ تحذيرية تشتعل-. ماذا حدث، كلارا؟

– حدث أنّ برناردو لا يعرف أين اختفت؟ ولا والداها... لم تذهب إلى عملها، ولم يعثروا عليها في أيّ مستشفى... لا أحد يعلم بمكانها...

– ألا تعرفين كيف هي إليسا؟... إنّها تذهب إلى حيث تريد... لا، كلارا، لا تقلقي. إن لم يعثروا عليها في أيّ مستشفى، فهذا يعني أنّها بخير – قال، محاولاً أن يصدّق ما يقول. لا، إنّه لا يريد أن يذهب فكره بعيداً.

- حسناً... ولكن يقلقني ما هو أصعب.

- وما هو الأصعب؟...

- نعم. أنتَ تعلم أنّ إليسا مجنونة... البارحة، بعد أن خرجتم، بقينا أنا وهي وداريّو... وعندها وصل برناردو. كان شبه سكران، كالعادة، وفاجأته إليسا بأنّها ليست حاملاً منه.

أغمض إرفينغ عينيه قبل أن يصيح:

- أخبرته؟ لكنّها أقسمت لي أنّها لن تكلمه عن الموضوع... ثمّ إنّها ألمحت لي أنّ حمل بطنها قد يكون من برناردو.

- لكنّها قالت ذلك في وجهه... وأمامنا.

- وهل ذكرت له اسماً؟ - صرخ إرفينغ تقريباً.

- لا... لكنّ أغرب ما في الأمر هو أنّ برناردو بدا كأنّه غير مهتمّ. أظنّ أنّه يعلم بالموضوع... لأنّه بقي هكذا، حتى انتهى من شرابه، ثمّ نهض وانصرف، من دون أن يتفوّه بكلمة. هل تظنّ، إرفينغ، أنّ برناردو فعل شيئاً لها، ولذلك اختفت؟

أحسّ إرفينغ بهزّة تسري في أنحاء جسمه. ما تلمّح إليه كلارا يبدو كلاماً فارغاً حين يتصل الأمر برجل ضعيفٍ، بات، منذ أن أدمن الشراب، مهزوزاً وخوّافاً. ولكن، أليس العالم مليئاً برجال ضعفاء مهزوزين جبناء، قادرين على اتخاذ قرارات خطيرة وارتكاب أفعال شرّيرة؟ والكحول في هذه الحالات هو عاملُ الخطورة.

- أين هو برناردو؟

- لا أدري! -بدت كلارا خائفة-. اتصل بي قبل قليل ليسألني إن كنتُ أعلم شيئاً عن إليسا.

- سأتصل به الآن... سأبحث عنه... لا تقلقي، كلارا، كلّنا نعرف كيف هي إليسا -كرّر العبارة كأنّ في معرفتهم بطباع تلك المرأة ما يمنع أيّة مصيبة-. حسناً، إلى اللقاء...

- إرفينغ! ما هذا؟

- لا تقلقي، يا امرأة - حاول أن يهدئها.

– لا تطلب منّي أن أهدأ. اللعنة! –انفجرت به كلارا، وهي الهادئة في العادة–. لا يمكنني أن أهدأ! أنا خائفة، إرفينغ. ما يجري لا يبعث على الاطمئنان.

– كلارا، اهدأي... قلت لك اهدأي...، دعيني أذهب إلى برناردو، فلعلّه يعرف شيئاً. وسأتّصل بك، أو آتي إليكم في بيتكم. اهدأي وسترين أنّ كلّ شيء سيمضي على خير، أنتِ تعرفين كيف هي إليسا – قال ثانية وأغلق السماعة.

بعد الرابعة عصراً بقليل، دخل إرفينغ إلى بيت (فونتانار) مكسوراً. لم يجد أثراً لبرناردو. وجد كلارا قد زادت توتراً وحدّة. ورأى داريّو يقف في الشرفة الخلفية ومعه فابيو وليوبا وهوراثيو، كأنهم تداعوا لاجتماع. أمّا جويل فسيحضر لاحقاً. كان الأصدقاء قد استنفدوا تخميناتهم وانتهوا من تدوير كلّ الأفكار في رؤوسهم حين ظهر برناردو، في حدود الثامنة مساءً.

قبل وصول برناردو بساعتين، وفي الدقائق الموجزة التي تستغرقها شمس شباط للاختفاء وراء الأفق، حاول هوراثيو الابتعاد عن المجموعة، واصطحب إرفينغ إلى ناحية مدخل البيت.

– إرفينغ... –بدأ، ثمّ صمت ليتأكّد من أنّ أحداً لا يسمعهما–. هل كلّمتكَ إليسا عنّي مؤخراً؟

لعن إرفينغ الظروف التي جعلته مستودع شكوك أصدقائه وخطاياهم. فأطلق العنان للسانه.

– نعم، هوراثيو...، قالت إنّكَ نمتَ معها. لا أدري كم مرّة.

تنهّد هوراثيو.

– مرتين. والأصح أنّها هي من نامت معي. أنتَ تعلمُ أنّي لا أخون صديقي.

– أشكّ كثيراً في عفتك. بل أكاد أجزم أنّك أنتَ المبادر!

– أقسم لك... لم أجرِ وراءها، كانت هي من حامت حولي، وأنتَ تعرف كيف هي... لكنّ ما يهمّ الآن، إرفينغ، هو أن تصدقني القول وتقول لي إن كانت إلسيا ترى أنّي أنا المسؤول عن حملها.

– بعد ما حدث الليلة البارحة... من يمكن أن يكون أباه أيضاً؟ إذا كان برناردو عقيماً...

– أنا لستُ مجنوناً إلى هذا الحد، ولطالما استعملتُ الواقي الذكري...

– فهل هو حقاً هديّة من الربّ؟

– يمكن أن يكون هدية من والتر – قال هوراثيو.

– هي أقسمت لي أنّها لم تنم معه.

– وهل صدّقتَها؟

– ماذا تقصد؟

– لا شيء. لم أقل شيئاً. – تمتم هوراثيو، وعاد إلى داخل البيت، بينما خاطبه الثاني محذّراً:

– تود إليسا لو تقتلك، لأنّك ما فتئتَ تقول عنها إنّها نامت مع والتر...

رآه إرفينغ يبتعد. لقد بات مقتنعاً، لأوّل مرّة، منذ أن اتصلت به كلارا منتصف النهار، بأنّ شيئاً خطيراً يحدث. ما الذي حدث لإليسا. إليسا الواضحة المباشرة المكشوفة، إليسا التي لا تخاف، ولا تلفّ ولا تدور، إليسا التي عرفها، والتي يظنّ أنّه ما زال يعرفها؟ كيف يمكن لشخصٍ أن يضيع في متاهة كهذه من الخفايا والخيانة والرفض والأكاذيب؟ وهل اعترافُها لزوجها بأنّه ليس أبا المخلوق الذي في أحشائها، هو السبيل الوحيد للحيلولة دون أن تعيش معه حياة مزيفة غريبة وقاسية؟ لكنّ تلك الطريقة بدت له غير مناسبة ومهينة، بدت له ضربة لا يستحقها برناردو الطيب. ثم، لماذا قالت له ما قالت بحضور كلارا وداريّو؟ وماذا عساهما يظنّان في ما صارحته به؟ هل كانت مدفوعة بأحداث غريبة تراكمت وبدأ إرفينغ يجد فيها تفسيراً لبعض تصرفاتها الغريبة الأخيرة، التي تنمّ عن غضب ويأس يدفعانها إلى الاصطدام بالجدار والتجاوز على من يحيطون بها. ما الذي جرى، وما الذي يجري لنا؟ بدأ إرفينغ أيضاً يتساءل ويسأل.

حين وصل برناردو، كانت كلارا أوّل من سأل.

– هل من أخبار؟

– لا شيء –قال برناردو–. لا جديد...

- هل شربتَ؟ - سأله إرفينغ.

- قليلاً...

- قل لنا ماذا حدث؟ - سأله داريّو.

انتهز إرفينغ الحوار لكي يراقب ردود فعل كلارا وهوراثيو وبرناردو: هو يعلم أنّ هؤلاء الثلاثة هم الأقرب إلى إليسا، حاضراً وماضياً، وربّما كانوا الأكثر صلة بأسباب غيابها أو بعواقبه. فبعد ما سمعه من هوراثيو، وما اعترفت به إليسا من أنّ هوراثيو ليس أبا الطفل المنتظر، ساور إرفينغ شكّ جعله لا يستبعد أن يكون أيّ رجلٍ من سكّان هذا الكوكب، قريباً كان أم غريباً، عاشرها. فكم من البشر عاشرت إليسا؟

- أنا تعبان... هلّا أمهلتموني دقيقة واحدة؟... أحتاج إلى جرعة أخرى. أريد شيئاً آكله -قال برناردو المنهك-. لم يدخل جوفي غير فنجان قهوة... داريّو، هل أستطيع أن أتحمّم؟ أشعر بالوساخة.

بينما كان برناردو في الحمّام، فكّرت كلارا وليوبا في أن تعدّا أطباقاً ممّا تبقّى من عشاء اليوم السابق وغداء ذلك اليوم. وخرج الجميع إلى الشرفة، يحملون زجاجتين من الرون، بقيتا من احتفالهم في اليوم السابق بسان فالانتاين. خرجوا إلى الشرفة لأنّ الحرارة عادت إلى الارتفاع، وإن كان الوقتُ كئيباً والأجواءُ مشحونة بالتوتر. حشر رمسيس وماركوس نفسيهما بين المجتمعين، واقترب ماركوس من أمه ليسألها إن كان مات شخص آخر، فنهرته.

رشف برناردو جرعة، ثمّ ترك المنشفة على المنضدة القريبة، وبدأ بالكلام.

- سمعتم بما قالته لي إليسا البارحة. هل حكيتِه لهم، كلارا؟... -أومأت موافقة-. أنا لم أفاجأ، كنتُ أعرف أنّ الحمل ليس منّي... كنتُ أنتظر أن تعترف هي لي بذلك. لكنّي لم أتوقع أن تفعل ذلك بتلك الطريقة، أمام العالم... أمام كلارا وداريّو... كانت تلك سفالة منها.

- أظنّها كانت منفعلة -قال داريّو-. منذ عدّة أيّام ونحن منفعلون. وهي، في حالها...

- لا. بل فعلت ما فعلت لإهانتي...

- برناردو! ألم تكن تعلم أنّ الحمل ليس منك؟ - خاطبه إرفينغ.

فسقط حجرٌ من الصمت على الشرفة. أتمّ برناردو شرب الرون قبل أن يردّ.

- كنتُ أعلم... بلى... كنتُ أعرفُ به من ناحيتي... لا من ناحيتها. سألتها ألف مرّة، وألف مرّة ردّت عليّ بأنّ الحمل لا يمكن أن يكون إلّا منّي... هذا ما كانت تقوله لي! لذلك لا أخفيكم أنّني، حين قالت لي إنّ الحمل ليس منّي، شعرتُ بأنّي أريد أن انهال عليها بالضرب، هنا... -قال، وأشار إلى أرضيّة الشرفة حيث كانوا مؤتلفين-. قد أكون سكّيراً وعقيماً، لكنّي أفضل منها. لذلك انتظرتها في الخارج، وحين وصلنا، تركتُها في البيت وقلتُ لها إنّي ذاهب إلى الجحيم، وإنّي سأعود إلى البيت اليومَ صباحاً لآخذ بعض متعلقاتي، وإنّي لا أريد أن أراها ثانية، لأنّها وجه نحس ومصدر مصائب... وهذا الصباح، حين وصلتُ، في حدود العاشرة، لم أجد إليسا في البيت، وقد فرحتُ لذلك. كنتُ أتمنّى فعلاً ألّا أراها، كي لا أسمع منها ما يخرجني من طوري ويثير أعصابي... حين ذهبتُ لآخذ حاجاتي، بحثتُ عن حقيبة جلديّة صغيرة ولم أجدها. لكنّي لم أقلق. ففي بيتنا يضيع كلّ شيء... حملتُ بعضَ أشيائي، لكنّي لم أجد الصليب الذي اشتريته من المكسيك، وكنتُ أضعه دائماً على مكتبي وكانت هي معجبة به... اتصلتُ، قبل خروجي، ببيت أبيها. سألتهم، لكنّهم أنكروا علمهم بأيّ شيء عنها. وهنا اتصلتُ بكلارا، التي لم تكن تعرف شيئاً عنها أيضاً. تذكّرتُ الحقيبة الصغيرة، وعاودت البحث عنها في كلّ أنحاء البيت، لكنّي لم أعثر عليها. ولاحظتُ أيضاً اختفاء بعض أشيائها، ملابسها الداخليّة، وحاجتين أخريين أو ثلاث.

- فهي، إذن، ليست مختفية... كلّ ما في الأمر أنّها أخذت بعض أغراضها واختبأت - قال هوراثيو، ولاحظ إرفينغ نبرة ارتياح في صوت الرجل، ولم يشأ أن يعكّر عليه ذلك الشعور.

- إليسا لا تتخفّى من أحد، هوراثيو. أظنّ أنّ إليسا رحلت...

- إلى أين؟ -صاحت كلارا-. وما أدراك أنتَ، إرفينغ؟

- لا أعرف شيئاً! أنا أفترض و...

- إرفينغ مُحق -قال برناردو-. ممّن تتخفى ولماذا؟ منّي بالطبع لا... إليسا رحلت... بكلّ تأكيد...

تنحنح فابيو قبل أن يتكلّم.

- وهل سألتم في المستشفيات؟... حالة إجهاض، آلام... ربّما لم تستطع أن تصرّح باسمها.

- لم أجدها لا في مستشفى الأمومة ولا في (ماريياناو) ولا في (لويانو)... اتصلتُ بالدكتور موخينا، الذي يتابع حملها...

- أمسِ قالت لي إنّ حملها يسير على ما يرام - قالت ليوبا، وهي عالمة بأنّ الموضوع يثير الشجون.

- ألا ترون أنّنا نثير زوبعة في فنجان؟ -حاول داريّو أن يهدئهم-. أعتقد أنّها ما زالت في مكان ما، هنا... فكيف لأحدٍ أن يرحل عن كوبا هكذا في رمشة عين؟

- ذهبتُ إلى بيت أبيها -واصل برناردو الكلام، كأنّه لم يسمع التعليقات الأخيرة-. أنتم تعرفون صلات روبرتو كورّيا وعلاقاته... المهم، قال لي إنّه ليست لديه فكرة عن المكان التي قد تكون ابنته ذهبت إليه، وإنه لم يرها من أيّام. وكانت أمّها أقلّ من أبيها علماً ومعرفة. كانت تائهة مشوّشة البال. -وضع أصابعه على صدغه-. اقترحتُ على روبرتو تبليغ الشرطة...

- اللعنة، برناردو! - احتجّ إرفينغ.

- ما بكَ، إرفينغ؟ - قال برناردو غاضباً.

- لماذا تحشر الشرطة في القضيّة؟ ألا يحتمل أن يظنّوا أنّ إليسا اختطفت؟ وماذا قال لك أبوها؟ فهو متنفذ ويعرف الكثير...

صحيح أنّ إليسا لم تقل شيئاً يوماً عن نشاطات أبيها، لكنّ الجميعَ كانوا يشكّون أنّ روبرتو كوريا لم يكن مجرّد دبلوماسي يجمع إلى وظيفته عمله في المخابرات، ولا مجرّد مدير لشركات مثّلها في السنوات الأخيرة. مع ذلك، فقد بلغتهم أخبار مؤكدة في الأشهر الأخيرة، بعد المحاكمة التي أجريت في الصيف لعدد من ضباط الجيش والمخابرات، الذين اتهموا بجرائم تصل

إلى حدّ المتاجرة بالمخدرات وخيانة الوطن، أنّ روبرتو كورّيا أحيل على التقاعد، بعد أن جرّد من مهماته في وزارة الخارجيّة. وهكذا ضاعت عليه فرص السفر إلى الخارج، وخصوصاً إلى بنما، إحدى عقد شبكات المتاجرة بالمخدرات ومراكز الحسابات المصرفيّة المفتوحة بالدولارات المتأتية من مختلف الصفقات. ولئن كانت إليسا قد اختفت طوعاً، فليس من المستبعد أنّ يكون ذلك الرجل الغامض، الذي ما زال يحتفظ بعلاقاته ونفوذه، وراء اختفائها وتبخّرها.

- قال لي إنّه سيجري بعض الاتصالات... ولكي تطمئن، إرفينغ...، فقد حذّرني من الذهاب إلى الشرطة، لأنّ ذلك قد يعقّد الأمور. طلب منّي أن أعود إلى البيت وأن أنتظر مكالمة منه.

- وهل ذهبتَ إلى الشرطة أم لم تذهب؟ - ألحّ إرفينغ. لقد أضاف كلامُ هوراثيو عن علاقة بين إليسا ووالتر غموضاً إلى مسألة تزداد تعقيداً وتشابكاً.

- لا...، عدتُ إلى بيتي...، بعد أن شعرتُ بالقذارة. ولأنّي أرى أنّي غير معنيّ كثيراً بأمرها. بل أتمنّى أن تكون ذهبت إلى جهنم... مؤكّد أنّه ذهبت إلى هناك...

- أنتَ لا ذنبَ لكَ في أيّ شيء، برناردو -تدخّل جويل بحذر ليصرّح بمفهومه البسيط عن الحقيقة-. فلو كان من أحد هنا تنطبق عليه صفة القذارة فهي إليسا.

- من الأفضل ألّا تتكلّم - اعترض عليه إرفينغ.

- بل أتكلّم وأتكلّم!... فأنا لا أطيق التفاهات - انتفض جويل، ودفع طبقه ونهض من المائدة وسار نحو نهاية الباحة.

- ولكن جاءني شرطي - قال برناردو.

- هل اتصل روبرتو بالشرطة؟ - أحسّ إرفينغ بالخطر من جديد.

- رجل الشرطة هو صديق والدها... طرح عليّ أسئلة... بخصوصها وبخصوصنا... تكلمنا نصف ساعة تقريباً، وفي النهاية طلب منّي ألا أقلق، لأنّهم سيتكفّلون بالبحث عنها. وبسبب ذلك الشرطي تأخرتُ عليكم، ولولا مجيئه لشربتُ وسكرت...

ساد الصمتُ. عبّ برناردو كأسه ودفع بها نحو فابيو، الذي عاود ملئها له.

- إليسا رحلت عن كوبا - قال حينئذٍ فابيو، فالتفت نحوه الجميع، باستثناء برناردو.

- هل تعرف شيئاً؟ - سألته ليوبا، وهي تنظر إلى زوجها بحاجبين مرفوعتين.

- وأنّى لي أن أعرف؟... قطعاً لا أعرفُ... لكنّي أخمّن كما يخمّن برناردو وإرفينغ. أراهن بقطع ذراعي إن كانت إليسا مختبئة أومختطفة. إليسا رحلت. رحلت. وساعدها أبوها على الرحيل.

- ولكن كيف؟ -عادت ليوبا وسألت-. وهل رحلت هكذا، بوجهها الجميل؟ كيف تقول ذلك؟... وصلت إلى المطار وصعدت في أوّل طائرة؟ ما هذا الهراء، فابيو! ولماذا رحلت؟ وكيف ترحل امرأة لها الجرأة على أن تقول لزوجها ما قالت له... فكيف رحلت وإلى أين؟

- في لنش؟ وهي حامل؟ - كانت أسئلة كلارا مشحونة بالقلق.

- هناك طرق أخرى للرحيل -قال فابيو-. طرق أخرى، معقدة، لكنّها ممكنة. نعم، ليوبا، ربّما خرجت إليسا عن طريق المطار. -وأشارت بيدها نحو جهة (رانچو بويروس)، حيث مطار خوسيه مارتي-. لديها جواز سفر، أليس كذلك؟

هزّ إرفينغ رأسه موافقاً. وقال.

- إن كانت رحلت في لنش أو في طائرة أو في صاروخ...، المهم أنّ القرار لم يكن وليد لحظته. لا بدّ أنّها فكّرت فيه واستعدّت لتنفيذه. طبعاً. طبعاً، ولذلك رمت أمسِ بوجه برناردو موضوع حملها... هي لم تفعل ذلك لإهانتك، برناردو، بل لتصارحك وتقول لك الحقيقة... هي لم تخبر أحداً بخططها... لأنّها لم تُرد أن نعلم بالأمر. ولأنّها كانت خائفة...، لا تنظروا إليّ هكذا...، فما من أحدٍ لم يشعر بالخوف، في لحظة ما من حياته. حتّى إليسا كورّيا. هي نفسها قالت لي ذلك!

ما الذي جرى لهم؟ ماذا دهاهم؟ سأل إرفينغ نفسه أيضاً منذ الأسابيع الأولى المضطربة تلك من عام 1990، وسيسألها مرّاتٍ ومرّات على مدى سنواتٍ وسنوات. شيء ما انكسر، وسرعان ما سيتبيّن له أنّه كسرٌ لا يُجبر. فقد بلغوا نقطة اللاعودة، فلا هم أنفسهم، ولا الأشياء ذاتها. هذا ما قاله، تقريباً، شاعرٌ من الشعراء، وهذا هو ما يراه إرفينغ.

مرّت الأيام ولا جديدَ عن إليسا: كيف هربت؟ وإلى أين؟ قلّبوا كلّ الاحتمالات ودوّروا كلّ الفرضيّات، لكنّهم لم يخرجوا بطائل. ربّما هناك من يعرف شيئاً، لكنّه لا يكشف عنه. ومع الجهل نما الغموض وتكاثرت التكهنات. في البداية استبعدوا موتَها. لكنّ اختفاءها أضاف غموضاً إلى الغموض الذي يلفّ انتحار والتر ودافعه.

تساءل هوراثيو، مدفوعاً بذهنيته القائمة على المنطق، والمؤسسة على مبدأ السبب والنتيجة، إن كان من رابط بين الحادثتين. هل لوالتر وموته صلة بحمل إليسا واختفائها؟ ثمّ سأل، بعد أن شحذ ذهنه وفطنته، فأثار بسؤاله سخط إرفينغ وكلارا: وهل من رابط، مباشر أو غير مباشر، بين إليسا وما حلّ بوالتر؟

ما أكثر ما تحمّل منزل (فونتانار)، وما أكثر ما تحمّلت أجواؤه وسهراته من هزّات داخليّة وخارجيّة توالت عليه منذ ذلك الحين! تقلّصت الأخويّة، ونمت في داخلها مشاعرُ الذنب والفقد والخيانة والعار، ولم يغب عنها ذلك الشك القاتل في وجود جاسوسٍ بينهم. هل هي غيستي أم والتر؟ أم هو آخر من الآخرين؟

وتتابعت الأشهر، ومرّت، وهي تلقي بعلامات الاستفهام الكثيرة على

الرؤوس. وهيمنت على جميع أعضاء الأخويّة، وسواهم من مواطني البلاد، أمزجة ثقيلة من اليأس والبرم والضيق والقلق. حالة من البلبلة العظيمة تلفّ كلّ شيء، بينما ينهار عالم معروف ومتماسك. الحاضر يخنقهم بعوزه ومعضلاته المؤلمة، والمستقبل يتبخّر في ضباب كثيف.

أراد إرفينغ أن يرى في نفسه المتضرر الأكبر، عاطفياً ونفسيّاً، من اختفاء إليسا وموت والتر. وكان له في الصدمة التي أحدثها تحقيق الشرطة معه، وقربه الدائم من راعية الأخويّة، صديقته وحاميته طوال سنوات الشدّة، ما دعم فيه تلك القناعة. لكنّه وجد في سقوطِ برناردو المُهان في براثن الكحول، وحزن كلارا الظاهر، والاكتئاب البادي على المكافح داريّو، وهوس هوراثيو بالبحث والتحرّي، وانسحاب فابيو وليوبا التدريجي الصامت، ما زحزح ألمه عن مكان الصدارة.

أمّا أكثر ما أثّر في إرفينغ فهو ذلك الخوف الذي استقرّ في داخله. خوف جامح، فاق في ضرره ذاك الذي نشأ عن ردود الفعل الاجتماعيّة والسياسيّة، وحتّى الشخصيّة، تجاه مسألة ميوله الجنسيّة أو تجاه صيغ معينة لفهم الحياة والعيش. فقد بات يخاف من كلّ شيء أو من كلّ شيء تقريباً. يزن كلماته، ويراقب حركاته وسكناته، بل يلتفت، بين الحين والحين، أثناء مسيره في الشارع. لقد سرق شعوره ذاك بالخوف العام الشامل قسطاً كبيراً من فرحته وانطلاقه وسخريته وحيويّته. وحوّله إلى شخص آخر، ليس أفضل ضرورة.

وتواصل الهدم، في تلك الأثناء، من حوله بإيقاع متسارع، وظلّ البلد بلا حلفاء سياسيين، وبلا غذاء ولا بترول ولا وسائط نقل ولا كهرباء ولا دواء ولا ورق، بل ومن دون سجائر ورون، وأعلن عن وصول لحظة تاريخيّة حاسمة أطلق عليها، تخفيفاً وتلطيفاً، مصطلح «الفترة الخاصة في زمن السلام». فترة؟ وكم تدوم الفترة؟ لحظاتٍ أم دقائقَ أم أياماً أم سنواتٍ أم عقوداً أم قروناً؟ كم تأخذ فترة لا تحدّها حدودٌ من حياة وحيدة سريعة خاطفة كهذه؟ أولم يكن العصر الحجري القديم والحديث، اللذان داما آلافاً من السنين، فترة؟...

بات جليّاً أنّ الجزيرة دخلت نفقاً مظلماً لا نهاية له. أغلقت دار النشر

أبوابها، وأرسلوا بإرفينغ وجويل وبالعديد من زملائهما، إلى ورشة لنسج تعليقات المكرمية، لا يعرف إن كان لأغراض تجاريّة (إن وجدت أغراض تجاريّة) أم لتكون جزءاً من علاج نفسي جماعي؟ ونُقل المهندسان ليوبا وفابيو إلى مكاتب أخرى، ليشغلا نفسيهما، حين يجدان ما يشغلان به نفسيهما، بحصر المساكن المتضررة أو الآيلة إلى السقوط في المدينة. وهكذا تكوّنت لديهما، وللمرة الأولى، فكرة عن حجم أزمة البناء والسكن (هكذا كانت تسمّى) التي يعانون منها ويسكتون عنها، مع ذلك، من سنوات (يقولان بصوت منخفض): وهي معرفة كشفت لهما عن أنّ الناس يعيشون في مدينة على وشك الانهيار، في بلد ربعُ مبانيه تحتضر، والكثير منها يرتكز على عوارض ودعامات.

أمّا كلارا فقد أدرجت في خانة الـ «منقطعة»، بعد أن صعب على شركتها أن تواصل أعمالها المفتوحة، فلزمت، بموجب هذا التصنيف، بيتها مقابل 70% من راتبها، وهو مبلغ لم يلبث أن فقد قيمته أمام ارتفاع الأسعار، بعد أن باتت عملة العدوّ، التي لم يكن مصرحاً بامتلاكها، والتي تؤدي حيازتها إلى السجن لسنوات، تساوي 120 پيسو. وهكذا بات راتب كلارا يعادل ثلاثة دولارات. وبات الفرّوج في السوق السوداء يكلّف دولاراً أو دولاراً ونصف الدولار، بحسب حجمه. أي أنّ راتب كلارا الشهري يساوي فرّوجين...

صارت الخطابات السياسية، في وقت من الأوقات، تتكلّم عن مقاومة وطنيّة سمّوها «الخيار صفر»: بمعنى إفراغ المدن والإرسال بالأفراد إلى مناطق قرويّة ليعيشوا حالة من التقشّف شبيهة بتلك التي يعيشها السكان الأصليون الزارعون – الحاصدون (عصر حجري قديم أم حديث؟). إزاء تلك الأزمات المتراكمة، قرّر إرفينغ في سرّه، وبالاتفاق مع جويل، الرحيل، وإن لم يكن يدري، في تلك اللحظة، كيف ولا إلى أين.

حين اشتدت الأزمة الوطنيّة وتعمّقت، بداية عام 1992، التقى الأعضاء الباقون من الأخويّة، وفيهم فابيو وليوبا، اللذان راحا، في تلك الأوقات، يـزدادان انعزالاً وانهزاماً، في منزل (فونتانار) لإحياء مناسبة جديرة بالاحتفال. فقد منحت نقابة الأطباء في كاتالونيا داريّو منحة بحثيّة، مدفوعة التكاليف والمصاريف، للتخصّص في التقنيات الجراحيّة الجديدة وليقدّم

لامتحانات نيل التخصص من الدرجة الثانية في جراحة الأعصاب. كانت معجزة بكلّ المقاييس.

كان التقارب بين التاريخ المحتمل لسفر داريّو وذكرى عيد ميلاد كلارا الثانية والثلاثين هو ما بعث فيهم الهمّة لإحياء تقليدٍ شهد انحساره عام 1991، بعد أن أخمدها شبحُ إليسا المختفية وروحُ والتر المنتحر. لكنّ الوقتَ الذي مرّ، وضربة الحظ التي سنحت لداريّو، كانا يبرران ذلك الاحتفاء والاحتفال.

احتفال متواضع، وإن كان فيه الكثير من الخيال. فقد جاء داريّو بفراريج هزال كان يربّيها في باحة منزلهم في (فونتانار)، واستجلب جويل من (پينار دل ريّو) أرطالاً من القلقاس والبفرة والبطاطا الحلوة. وهكذا صنعوا، من هذه ومن اللحم والفراريج وزوجين من أذن الخنزير، استطاع هوراثيو شراءها، يخنة الآخياكو. آخياكو ولا شيء غير الآخياكو. بلا بيرة، وبقليل من النبيذ، المحلي؛ أمّا الرون فقد ظهرت زجاجة واحدة منه، وأخرج داريّو من صندوق الذكريات زجاجة من *وايت هورس*، وأقسم أنّ تلك هي آخر ما بقي لديهم من مؤونة الحرب. وحصل رمسيس، الذي صار يظهر، بسنواته العشر، مهارات فريدة في الحصول على ما يريد، من أبي أحد زملاء المدرسة على فيلم لكاميرا فابيو، وتكفّل، بعد أن درّبه جويل على استعمال آلة التصوير، بتسجيل شهادات تصويريّة لعيد ميلاد أمّه ولآخر صور أبيه معهم قبل رحيله. وهكذا احتفلوا وسكروا وغنّوا وتسلّوا لأنّهم كانوا في حاجة إلى أن يغنّوا ويتسلّوا ويسكروا، لكي لا يبكوا أو ينتحروا.

عقب أسبوعين، حين بدا سفر داريّو وشيكاً (أخيراً أرسلوا له تذكرة السفر!)، استطاع إرفينغ، وهو على حافة الإغماء، الوصول إلى بيت (فونتانار)، على ظهر درّاجته الصينيّة التي كان يستعملها آنذاك في تحركاته. فما كان ليسامح نفسه على أنّه فوّت فرصة توديع داريّو ولم يقدّم له هديّة خاصة بمناسبة سفره.

حين ألقى بنفسه على أوّل مقعد صادفه، علم إرفينغ أنّ داريّو لم يرجع بعدُ من جولته الأخيرة مع المعاملات والإجراءات قبل الحصول على الموافقات اللازمة للسفر. كانت كلارا وحدها. أمّا رمسيس وماركوس فقد

ذهبا بدراجتيهما إلى حيّ قريب ينعم، في تلك الساعة، بالكهرباء، ليشاهدا نقلاً تلفزيونياً لمباراة في كرة القدم. وبينما راح إرفينغ يقضم بسكوتاً ويشرب كأساً من الماء المحلّى بالسكّر، قدّمته كلارا له، أحسّ بالسكون الذي كان يطبق على البيت: لا كلام ولا محرّك ولا راديو تكسر بضوضائها وضجيجها تلك الأجواء التي بدت له أجواء مقبرة. يا لفوائد انقطاع الكهرباء. ويا لمضارّه!

على وسائد المقاعد المتآكلة التي في الشرفة، جلست كلارا وإرفينغ وحيدين في البيت الفسيح. كانت هي قد أعدّت الشاي بأوراق البرتقال، وأضافت إليه الكثير من السكّر، ليعين راكب الدراجة المجهد على استعادة قوته.

- حين كلمتَ داريّو، قلتَ له إنّك ستأتي له بهديّة... ماذا ستهديه؟ - قالت كلارا ولم تستطع كتم ابتسامتها، التي حاول إرفينغ، وقد استردّ طاقته، أن يبادلها إيّاها.

- ستفاجئين، حبيبتي... -بدأ يقول، بينما راح يخرج من جيب بنطاله الخلفي رزمة-. أمس الأوّل خرجت على درّاجتي من الورشة التي نصنع فيها تلك المقرميّة المريعة، وحين وصلتُ إلى منعطف الشارع... ماذا رأيتُ؟... جزداناً مرمياً في الشارع. أوقفتُ الدراجة، وتلفتّ في كلّ النواحي، فلم أرَ أحداً فأخذتُ الجزدان... فماذا كان في داخله؟ - وهنا انتهى من فتح ما كان ملفوفاً وحرّك أمام عين كلارا عدداً من الأوراق النقديّة من فئة عشرين دولاراً...

- إرفينغ!

- لقد ألقى الربّ أمامي بذلك الجزدان. وضعه لكي ألتقطه. هل تعرفين ماذا وجدتُ مع هذه الدولارات المئة والعشرين؟... وجدتُ صورة للعذراء ماريّا. لا بطاقة هويّة ولا ورقة ولا رقم هاتف... لا شيء!... فقط العذراء ومئة وعشرون دولاراً!...

ظلّت كلارا في دهشتها، لكنّ ذهنها سرعان ما استردّ قدرته على التفكير.

- والهديّة...؟

- الجزدان الذي عثرتُ عليه هو هديّة من الربّ، أرسلها إليّ عن طريق العذراء مباشرة، لذلك فسأهدي نصف المبلغ إلى داريّو لكي يضيفه إلى نقوده حين وصوله إلى إسبانيا.

- هل جننتَ؟ سيعطونه هناك راتباً وأنت تستطيع هنا بهذه النقود أن...

- كلارا! لقد تحدّثتُ مع جويل حول الموضوع ووافقني الرأي. بهذا المبلغ نستطيع أن نشتري أشياء لن تلبث أن تتحوّل، في يومين، إلى خراء يبتلعه المرحاض. خذي الستين دولاراً هذه وليستمتع داريّو بها في برشلونة.

أخذت كلارا الأوراق النقديّة الثلاث من إرفينغ ونظرت إليها بشراهة، وقد زاغ بصرها تقريباً. ثمّ رفعت عينيها إلى الصديق.

- إرفينغ... - ولم تجد الكلمات التي تناسب تلك الالتفاتة الكريمة التي باتت نادرة بين البشر.

حين عادت كلارا من غرفتها، جاءت بظرفين فيهما صور عيد الميلاد التي جاء بها رمسيس في اليوم السابق. سلّمت إرفينغ الظرف الأكبر. فتحه وبدأ يقلّب الصور.

- لا مستقبل لولدكِ في التصوير - قال وابتسم وهو يرى أنّ العديد من الصور الأربع والعشرين لم تؤخذ من الزاوية الصحيحة، فقد ظهر الأشخاص في بعض منها بلا رؤوس. راح إرفينغ يقلّب الصور، التي ظهر في بعضها اثنان أو ثلاثة أو قسمٌ أو جميع الذين حضروا الحفلة، ويتأمّلها بصمت، جاداً حيناً ومبتسماً أحياناً.

- صورة المجموعة هذه جيدة، أليس كذلك؟ - سألته كلارا.

- هي أفضلها.

- فعلاً... انظر هذا. - وأخرجت ورقة من الظرف الذي كان في يدها. كانت صورة للأخويّة التقطها والتر من سنتين، وتظهر فيها أيضاً إليسا وغيستي ولاپينتا. حين نظر إليها إرفينغ غمره الحزن وأحسّ بمخاوفه تعاوده.

- عجيب! - قال.

- قارن الآن الصورتين وقل شيئاً. أظنّ أنّ «عجيب» قليل بحقها.

نظر إرفينغ إلى الصورتين، وسرعان ما رفع يده ووضعها على فمه.

- اللعنة! ماذا أصابنا؟ - هتف.

لم يمضِ بين الصورتين إلّا عامان. لكنّهما شهدا من التوتّر والشدائد ما ترك كلّ ما يراه على الوجوه والنفوس من ندوب وقروح. ليس لأنّ إليسا حاضرة في هذه، غائبة في تلك، أو لأنّ ماركوس لم يكبر على قدر ما يكبر فيه الطفل بين السادسة والثامنة، بل بات مثل دودة جاحظة العينين بفم كبير تملأه أسنان كأسنان الحصان. ما كان غريباً وواضحاً هو التغيّر الذي بدا على وجوه الكبار في الصورتين. جميعهم تقريباً يبدون مبتسمين، لكنّ الوجوه اختلفت، فكأنّها منفاخ أفرغ من هوائه، فكلّ واحد من الظاهرين في الصورة الأحدث يبدو كأنّه فقد بين عشرين وأربعين رطلاً. وبدا برناردو محتقناً، وكانت عينا هوراثيو غائرتين في وجهه الممصوص، وبدا فستان ليوبا كأنّه كبر عليها، وبات كرش فابيو حفرة في بطنه، وبدا وجها إرفينغ وكلارا كأنّهما ميدان شهد معركة دامية. أمّا داريّو، فقد تحوّل شعره الأسود الكثيف المصفف إلى بقعة من شعر متغيّر في لونه متصحّر في كثافته. جويل الأسود هو الوحيد الذي يبدو نفسه في الصورتين، ربّما بسبب قدرة المقاومة التي تمنحها له جيناته... أمّا الآخرون فيقدّمون دلائل مقلقة على سنتين أضرّتا، ليس بالمظهر فحسب، بل بالكثير من آمال شباب ما عادوا شباباً، لا مظهراً ولا واقعاً.

أحسّ إرفينغ، الذي بات بكّاءً، منذ مروره بالشرطة، بدمعه يسيل على وجهه المتجهم ووجنتيه الغائرتين.

- محزنة مأساتنا! - قال.

- أنا أيضاً شعرتُ برغبة في البكاء حين قارنتُ بين الصور. ما أفظع ما جرى لنا!

هزّ إرفينغ رأسه مؤكداً.

- في هذه الصورة -حرّك الصورة الأحدث- تنقص إليسا ولاپينتا والسافلة غيستي، ورمسيس...

- لأنّ والتر ناقص.

– فعلاً. لأنّ والتر ناقص.

– كم من الأمور حدثت في سنتين!

– فعلاً...، قبل أيّام كنتُ أفكّر... إن وضعت إليسا حمل بطنها، فلا بدّ أنّ ابنها يبلغ الآن سنة ونصف السنة. هل تراها وضعت بنتاً أم ولداً؟

– أنا أيضاً كنتُ أفكّر –قالت كلارا–. والتر انتحر. وإليسا اختفت، وبدأ الانهيار. أم إنّ الانهيار بدأ أولاً ثمّ...؟

– إليسا لا تغيب عن بالي. أحاول أحياناً أن أتصوّر كيف تعيش وأين، لكنّي لا أستطيع...

– أمّا أنا، فقد نغّصتْ عليّ حياتي –قالت كلارا–. أم إنّها أنقذتها؟ سأحكي لك شيئاً قبل أن أصارحك بشيء آخر. لكنّي أطلب منك ألّا تخبر أحداً بذلك...

– دعكِ من الألغاز، يا امرأة... أنتِ تعلمين أنّي لم أخبر الشرطة بأنّ داريّو كان على علم بخطط والتر للهرب مع التشيكي، رغم خوفي وارتفاع ضغطي. ولم يعلموا بذلك إلّا عن طريق زوجك. ولم أكن أنا من قال إنّ بين إليسا ووالتر علاقة، هذا إذا كان هناك من علاقة...

– عذراً، إرفينغ... فالجنون ينتقل أيضاً بالعدوى.

أومأ إرفينغ موافقاً.

– والخوف يفترس الروح...، كما قال لا أدري من... هيّا. تكلّمي...

– يوم التقطت هذه الصورة –وأظهرت له صورة عام 1990–... تبادلتُ أنا وإليسا القبلات...

– أعرف ذلك! – قال إرفينغ ووضع راحة يده على جبهته، ونظرت إليه كلارا وقد رسمت بحاجبيها علامة استفهام.

– هل أخبرتك هي؟ –نفى إرفينغ وتلعثمت كلارا–. هل قال لك ماركوس شيئاً؟ – نفى إرفينغ بهزّ رأسه بحركة أشدّ.

– ماركوس؟

– نعم. لأنّه دخل إلى الغرفة حين كنّا على تلك الحال ولا أدري ما الذي شاهده... فكيف عرفت إذن؟

- عرفت لأنّي عرفت. من وجهكِ ومن وجهها... حدّقي في هذه الصورة، حبيبتي...

- هل يبدو ذلك واضحاً عليّ؟

- أنا لاحظته...، ولكن تذكّري أنّ لي ميزة.

- يا إلهي -قالت كلارا-. كانت أجمل ليلة وأسوأ ليلة في حياتي... وحين اختفت...، تصوّر. حين اعترفت أمامي لبرناردو بأنّ حملها لم يكن منه، حسبتُ أنّ الأمور ستتعقّد، وظننتُ أنّ إليسا ستطلب منّي أن تأتي لتسكن معي، لا أدري ما الذي فكّرت فيه. كنتُ خائفة. خائفة جداً... أنتَ تعرف كيف كانت إليسا...

- إنّها قادرة على فعل أيّ شيء...

- ما لم أتصوّره هو أن يتعقّد كلّ شيء كما تعقّد. بل لقد فكّرتُ في البداية أنّ إليسا اختفت بسبب تلك الحادثة...

- لا. لا أظنّ ذلك... بسبب ذلك؟... إليسا دائماً هي إليسا... ومؤكد أنّها ما زالت كذلك، أينما كانت... أنتِ تعرفين كم أحبّها... لكنّي أفكّر أحياناً أنّ في داخلها شيطاناً. لم نعرفها جيداً -أنهى إرفينغ حكمه-. وما الشيء الآخر الذي أردتِ قوله لي؟

جالت كلارا بنظرها، في فعل غريزي تعرفه آخر أعصابها وأشدها بطئاً. إنّها تريد أن تتأكّد من أنّ لا أحد في المكان سواهما، لكنّ دافع الخوف ونوبات الجنون لا تمتثل لضابط في العادة وأعراضُها سريعة. وتنتقل بالعدوى.

- داريّو... سوف يرحل...

- سوف يرحل؟ - تلفّظ إرفينغ الكلمتين اللتين ترددتا في رأسه كالصراخ. فليس لتينك الكلمتين في كوبا إلّا قراءة واحدة: سوف يرحل.

- نعم... سيسافر... وسيبقى في إسبانيا.

- لا أريد أن أرحل. أنا لا أريد أن أرحل - قال إرفينغ.
- ماذا تقول؟ -سألته كلارا-. لن ترحل؟
- بالطبع سأرحل. لكنّي لا أريد. وليس الأمر سواء.

قضى إرفينغ اليوم الأخير من حياته السابقة في بيت (فونتانار)، قريباً من المطار، الذي سينطلق منه، في تلك الليلة من عام 1996، نحو مستقبل مجهولٍ، وإن كان أقلّ غشاوة من حاضره. مستقبل يعد بالحريّة، وإن كان مليئاً بالظلمة والصراعات والآلام والشعور بالذنب وسواها من المخاوف. هل سيتحمّل الغربة؟ هل سيتغّلب على الحنين الذي بات يشعر به وهو بعدُ لم يتغرّب؟

أما البقيّة المتهالكة من شلّة كانت كبيرة ثمّ باتت عيّنة أخيرة من سلالة مهددة بالانقراض، فقد صعّبت مسار هذا الوداع الآخر وهذا الفراق. صعبته وهوّنته، في آن معاً، بعد أن باتا مطلباً لتعبٍ لا يمكن تحمّله ولا التراجع عنه. لقد عاش إرفينغ تجربة فراق داريو وهوراثيو وفابيو وليوبا، وفي ظروف متباينة، فودّعهم بصخب مرّة وبصمت أخرى. وعانى اختفاء إليسا التراجيدي وانتحار والتر، وكان لذلك كلّه طعم انفراط العقود ونهايات الفصول التي تشكّل، بمجموعها، خاتمة قصّة جماعيّة.

مع ذلك، لم يبقَ في ذهنه من يوم وداعه البسيط، بحضور كلارا وجويل وبرناردو، غير الخوف: خوف من ألّا يدعوه يرحل، وخوف من أن يدعوه يرحل؛ خوف من رغبته في العودة وخوف من عجزه عن العودة، بل خوف من نوبات الإسهال العصبي الذي يفاجئه بها قولونه المتهيّج، وفصول انفلات بطنه قبل أن ترتفع الطائرة التي ستخرجه من البلد خروجاً يقدّر أنّه سيكون نهائياً.

كان إرفينغ قد خطط لتلك الرحلة طوال أربع سنوات، وفكّر في شتّى الوسائل ومختلف السبل لتنفيذها، مع أنّه لم يسبق له أن فكّر جدّيّاً في الرحيل إلى أيّ مكان، قبل الشرخ الدراماتيكي الذي حدث في حياته وحياة أفراد أخويّة (فونتانار). صحيح أنّ فكرة السفر أغرته على الدوام، كما تغري أيّ كائن بشري طبيعي لديه رغبة فكريّة وحاجة معرفيّة للسفر والاطلاع، ولكن ما أبعد السفرَ عن التغرّب. فهذا شيء وذاك شيء آخر. أمّا المسافة الفاصلة بين الهجرة والترخيص بـ «خروج نهائي»، ينقلك من صفة المواطن إلى صفة البدون، فمسافة مرعبة دونها متاهة الصحراء.

وشاع في روح إرفينغ مزيجٌ متفجّر من السعادة والحزن، بثّ فيه عزيمة تتجاوز الانتماء والاجتثاث، وتتعدّى الأسرة والأصدقاء: بثّ فيه تصميماً على أن يعيش بلا خوف.

ولمّا كانت صباحات الأحد تروق لإرفينغ، فقد قرّر أن تكون ساعاته ساعات استرخاء وخلوة. أمّا المكان الذي اختاره لممارسة متعته تلك فهو متنزه الـ (ريتيرو).[41]

بعد أن وصل جويل إلى مدريد، نهاية عام 1999، وبدأ العمل، بعد عدة أشهر، وبوساطة من صهره، مشرفاً في مصلحة الهاتف في حكومة مدريد المحليّة، ودّع الشريكان المصممة الأندلسيّة اللطيفة السحاقيّة (بكى إرفينغ وماكارينا لحظة الوداع، وكلاهما ميالٌ إلى المشاهد الدرامية، كما يقتضي طبعهما وطبيعتهما) وسكنا شقّة متواضعة في شارع (سانتا بريجيدا)، في حي (چويكا). ما كانت الشقة تكبر الإستوديو إلا قليلاً: حمّام صغير، وغرفة واسعة، ومساحة لا بأس بها للمطبخ والمطعم والصالة، وبالكون صغير يطلّ على الشارع. وسرعان ما استطاعا، إرفينغ بذكائه وجويل بمهارة يديه، أن يحوّلا ذلك المكان الصغير إلى شقّة تشرح النفس وتفي بالغرض وتؤدي كلّ وظيفة يحتاجانها (استغلّا السقيفة ليخزنا فيها الكتبَ والكراسي وصناديق

41- **Retiro** مساحة خضراء كبيرة في وسط مدريد. تقع في وسطها بحيرة سياحيّة، تقطعها طرقات ومسالكُ للمشاة، وهي عامرة بالحدائق والتماثيل والمعالم السياحية.

الملابس الشتويّة، بواسطة منظومة من بكرة وأسلاك فولاذيّة) وحوّرا المساحة التي تجمع المطبخ والمطعم والصالة لتكون مكاناً لاستقبال الأصدقاء، من كوبيين وإسبان، الذين طالما زاروهما وساعدوا إرفينغ على مقاومة مشاعر الحنين، وجويل على التخفيف من الكآبة الموروثة التي تعتاد الأسودَ المزروع في غير أرضه.

يخرج إرفينغ، صباح كلّ أحد، من شارع (سانتا بريجيدا) الصغير -لا يتجاوز طوله المئة متر- ليصل، بعد طريق متعرّج وهادئ، إلى شارع (باركيّو)، على مستوى (لاس إنفانتيس)، ليجد نفسه في شارع (الكالا)، قريباً من (ثيبيليس). يخرج من دون أن يعنيه إن كان على جويل أن يذهب إلى عمله أم سيمكث في البيت، كما يقتضي جدول عمله. في بار من بارات ساحة (باثكيث دي ميبّا)، يتناول قطعة كرواسان وأصابع الچورّو، بعد أن يغمّسها في القهوة بالحليب، ثمّ يشتري طبعة الأحد من جريدة (الپاييس) من كشك ساحة (الريّ). يقطع، والجريدة تحت إبطه، وطعم القهوة في فمه، جادة (ريكوليتوس) أو (الپرادو)، ويصعد الطلعة وينظر إلى بوابة (الكالا) - التي تنتصب *هناك، هناك*، يدندن دائماً[42] - ويدخل في المتنزّه من تقاطع شارع (الكالا) بشارع ألفونسو الثاني عشر.

لقد وجد إرفينغ في ذلك المتنزه المدريدي مكانه المفضّل: فانطلاقاً من بحيرته الكبيرة، يتقدم عبر الجادة التي لم يسمّوها «جادة كوبا» اعتباطاً، ليصل إلى ساحة صغيرة، تشغل وسطها نافورة *الملاك الساقط*، حيث تنهض منحوتة بورونزية دراماتيكيّة، مستوحاة من مجموعة *لاوكون وأبناؤه* الكلاسيكيّة، ومهداة إلى الشيطان. الشيطان بشحمه ولحمه. هناك، كان يجلس، صباحات الصيف، عند دكة مركونة حيث تحميه الأشجار الوارفة الظلال من الشمس. أمّا في الشتاء، فكان يختار الجلوس على دكّة أخرى، يستمتع عندها بدفء الشمس، وهو يتأمّل مرورَ الناسِ والوقتِ والأفكار. ينشر صفحات ملحق الجريدة الكبير، يقلّبها، ثمّ يبدأ بقراءة الافتتاحيّة، وربّما

42- ثمّة إشارة إلى أغنية عن (بوابة الكالا)، اشتهرت في منتصف الثمانينيات وأدتها المغنية الإسبانية آنا بيلين.

عرّج على بعض التعليقات الإخبارية. فمعظم الأخبار المرعبة لن تعود مرعبة بعد مرور يوم واحد عليها، لأنّ أخباراً أخرى مرعبة ستزيحها وتحلّ مكانها، فهكذا باتت الحياة في العالم.

قبل قراءة الجريدة، أو أثناءها، يسرح فكر إرفينغ في تأمّل *الملاك الساقط*، وهو عملٌ أنجزه النحّات ريكاردو بيلفير عام 1885، ورُفع على قاعدة لا تتناسب والتمثال الذي رفع عليها، صمّمها المهندس فرانثيسكو خارينيو. أمّا ما يجتذبه في التمثال فهو جرعة الدراما وحركة المجموعة ووجه الملاك المرعوب، لحظة يُلقى به في النار بسبب غروره، بعد أن حكم عليه بالسكن في الظلمة؛ وقيّدت الأفاعي ذراعيه، والتفّت على ساقيه لتزيد من ألمه وشعوره بالندم على ما فرّط إذ بالغ في تقدير قدراته. ويشدّ انتباهه أيضاً شكلُ جناحي الملاك المندفعين، أحدهما صوب السماء التي خسرها، والآخر نحو جوف الأرض التي لعنته؛ ووجوهُ الوحوش الشيطانيّة التي تحيط بالقاعدة المثمّنة، وهي تمج الماء من أفواهها نحو البركة.

وهكذا يوفّر انطباعٌ غامضٌ، وشائن، بصورة من الصور، لإرفينغ فرصة تأمّل قصّة إبليس. ثمّة مغناطيس، أو رسالة غامضة، تريد أن تبلّغه شيئاً لا يمتلك هو الوسائل اللازمة لفكّ مستغلقه، لكنّه يخمّن أنّ هناك ما يدعوه وينادي عليه. لم يكن إرفينغ متديّناً، لذلك استبعد أن يكون السبب ارتباطات روحيّة، وإن كان يؤكّد أنّ النحاتين الفرنسيين وضعوا، في ناحية من نواحي التمثال، الرقم 666، الرقم الشيطاني الأكبر -كلّف العثور عليه إرفينغ بعض الوقت-، ومن المعلوم أنّ النافورة تقع على ارتفاع ستمئة وستة وستين متراً عن مستوى سطح البحر. أمّا هو فقد كان يفضّل أن تكون جمالية النصب هي سبب جاذبيّته، أو العلاقة الخفيّة التي عقدها بين التمثال وبين قصيدة من قصائد ليثاما ليما قرأها، في وقت من الأوقات، من دون أن يدرك رموزها. مع ذلك، فقد كانت هناك قناعة تثير قلقه تخبره بأنّ هناك عنصراً غائباً، معلومةً أكبر قدرة على السحر، في ذلك الميل والتواصل الشخصي بين رمزٍ يمثّل أعلى درجات الخيانة ودرسٍ يمثّل أشدّ أنواع العقوبة؛ بينه هو وبين ومفهوم خسارة السماء والبوء بالعذاب الأبدي: لأنّ تيهاً أبديّاً بين الرجال هو، كما قرأ، العقوبة الحقيقيّة التي يتلقّاها منفيّو السماء. حتّى قيام الساعة.

كان ذهن إرفينغ، وهو يتأمّل النصب البرونزي، يتجوّل ويتنقّل بين تأمّلات وأفكار ترافقه، أو بالأحرى تطارده. إنّه يرى أنّ تجربته المدريديّة أكثر من مُرضية، بعد أن تكللت بوصول حبيب عمره، جويل، وبصداقات نمت على امتداد سنوات، مع كوبيين وإسبان، بل مع أشخاص من أصولٍ أخرى، كان يشعر بينهم بالراحة حتّى بات يعدّهم بين أصدقائه الحقيقيين. واستطاع أن يتعرّف على أماكن لطالما تمنى رؤيتها وحلم: برلين وجنيف؛ باريس وآكس أون بروفانس؛ شاطئ كاتالونيا، حيث بيت داريّو الثاني، وحيث له، هو وجويل، مكان يمضيان فيه، إن أرادا، نهاية الأسبوع، ولا سيّما حين تتحوّل مدريد في فصل الصيف إلى تنّور. أمّا بالقرب منه وعلى مرمى حجر من بيته، فتقع طلعة (مويانو)، حيث يستطيع، بنقود قليلة، أن يشتري كتب الأدب المستعملة التي أراد قراءتها، بل التي لم يكن يعرف أنّه أراد قراءتها. ومن وراء طلعة (مويانو) مدريد. كلّ مدريد.

مع ذلك، لم يفارقه الإحساس بأنّه يقيم في مكان غريب، ويعيش في الزمن الخطأ. كان يشعر بأنّ صفة المنفي أو المهاجر أو المشرّد -لا فرق عنده بين هذه الصفات ما دامت النتيجة واحدة-، المحروم من التخطيط، ولو لعودة قصيرة، قضت عليه بحياة مجزأة مقطعة، يستطيع فيها أن يتصوّر مستقبلاً، لكنّه لا يستطيع فيها أن يتخلّص من الماضي الذي جاء به إلى هناك ليكون من كان وما كان وكيف كان. لم تفارقه قناعة اللامنتمي إطلاقاً.

عانى إرفينغ، منذ خروجه من كوبا، من وسواس المرض ومن شعورٍ بالتباعد ما بين جسمه الشبعان (في چويكا، في مدريد) وروحه الضائعة (في مطهر الملائكة الساقطين الأبدي). صحيح أنّه تجاوز الكثير من مخاوفه، وبات واثقاً من أنّه صار في منجاة من الكثير منها، لكنّ عجزه عن التكيّف وعدم توفره على الموارد التي تؤهله للتملك كانا يؤلمانه وينغّصان عليه عيشته. كان يغبط داريّو الذي ما انفكّ يصرّح بأنّه يشعر بأنّه بات أقرب مثابة من كتالونيا وأبعد عن التفكير في كوبا. أو هوراثيو، الذي راح يعلن أنّه بات مواطناً من پويرتوريكو. أمّا هو، فما كان يشغل باله هو البحثُ عن تعريف لمفاتيح تكشف عن الغريب الطارئ الذي لم يجد، في

يوم من الأيام، ضرورة لزرعه في ما هو خصوصي ثابت فيه، ببساطة، لأنّها تولد معك، ومع الولادة تولد مقاومتُك لها أو العملُ بالضدّ منها.

ولم يخض إرفينغ في الكراهية. ربّما بسبب طبعه في السباحة ضد التيّار. ولم يكن قادراً على البحث عن متهمين أو التعريف بهم، ولا على كيل التهم، كما يفعل بعض مواطنيه المنفيين، الشكائين دائماً والناقمين أبداً، بسبب ما عانوه من خسائر وأصيبوا به من جراح، واقعاً أو توهماً. ولطالما رأى في صراخهم وتشدّقهم استراتيجيّة دفاعيّة لمواجهة الشعور بفقدان الجذور؛ وربّما رآها، في مناسبات أخرى، سبيلاً للتكسب بالعذابات التي عانوا منها فعلاً أو توهماً، شأن ما فعلته تلك الكاتبة، التي لفّقت، تعويضاً عن فقر قريحتها، ولكي تشقّ لنفسها طريقاً تمرّ من خلاله، مظالم ادعت أنها تعرضت لها، وهي التي تمتعت -هو يعرف والجميع يعرفون-، قبل رحيلها الاختياري، بامتيازات السلطات الكوبية، داخل كوبا وخارجها، بل إنّ السلطات، ويا للمهزلة، هي من ساعدتها للخروج إلى المنفى.

أمّا هو، فكان يسعى إلى تأمّل نقاط الرضا والاستمتاع بما كسب، بصباحات أيام الأحد مثلاً، ليهرب، هكذا، من استياء مُبرّر وضيقٍ مشروع. لكنّه لن يجد في الحزن والشكوى حلّاً لأيّ شيء، بل سيمرضه الحزنُ، وستمرضه الشكوى، وإن كان يشعر، في أعمق أعماقه، بأنّه محاصر بحزن يضيّق عليه الخناق (لا ينفتح إلّا أحياناً مع جويل، أو في تعليق مع داريّو، أو في رسالة يكتبها إلى كلارا وإلى هوراثيو، والآن إلى برناردو، الذي عاد إلى الحياة): تلك الحرارة ليست حرارته، أمّا أصدقاؤه الجدد فهم جدد (أو من مرتبة ثانية). هم ليسوا *أصدقاءه*، وخساراته في أصدقائه لا يمكن إصلاحها ولا تعويضها، فما عادت ثمار المانجو والأفوكادو التي يأكلها ترضيه. ثمّ يعود ليسأل نفسه: ماذا جرى لهم؟ لماذا سقطوا في حالة مؤسفة من الرضا والسخط؟

ذات صباحٍ قائظ من صباحات تمّوز 2004، وبعد ثمانية أعوام تقريباً على إقامته في مدريد، وأعوام عدّة من ممارسة ذلك الطقس المحبب إلى نفسه صباح كلّ أحد، قرّر، لسبب ما أو من دون سبب، أن يخصّص وقتاً أطول لتأمّل *الملاك الساقط* والتحليق قليلاً في تأملاته وأفكاره، بعد أن وصلته

من كوبا أخبارٌ عن تدهورٍ في صحة أمّه وشطحاتٍ في عقل أخته. هل عليه أن يعود؟ هل سيتحمّل العودة؟ كان على إرفينغ، وهو لائذ بمقعده الظليل، أن يبقي على رأسه ضمن زاوية تسمح له بملاحظة التمثال. وفي لحظة من اللحظات، ولسبب ما (لا بدّ طبعاً من سبب)، مال برأسه وخفض عينيه. هل كان جذباً مغناطيسيّا؟ أم تقاطعاً بين موجات دماغية متشابهة؟ أم لعبة من ألعاب القدر؟

رآها هناك، في الطرف الآخر من النافورة. شعر بقلبه ينطّ من موضعه: نعم. صحيح أنّه لم يرها منذ خمسة عشر عاماً تقريباً، لكنّه واثق أنّها هي. فالمرأة الشقراء، التي تقف عند *الملاك الساقط*، تمدّ ذراعها إلى فتاة مراهقة داكنة الشعر، وقبالتهما رجل جسيم أصلع مبتسم، يلتقط لهما صورة... إنّها إليسا كورّيا.

تسارعت دقاتُ قلبه. نهض من مكانه، من دون أن يرفع عينيه عن الثلاثي الذي عاد ينظر إلى التمثال، قبالته تقريباً، وبينهم النافورة. أحسّ بقلبه ينبض في صدغيه، علامة ارتفاع ضغطه. خمّن، أو أراد أن يخمّن، ووصل إلى تحليل المشهد: إليسا ورجل ومراهقة جميلة، سوداء الشعر مكتنزة الشفتين. هل هي ابنتها؟ هل هي هدية الربّ؟ يكاد لا يفهم ما يحدث ولا ما كان يريده، أو ما كان عليه أن يفعل أو يحتاج أن يفعله. وقف عاجزاً عن فعل ما كان فكّر وتصوّر وحلم بفعله طوال سنوات إن هو عاد والتقى إليسا. وأخيراً استطاع أن يتقدم خطوة إلى الأمام، دون أن يكفّ عن النظر إلى الأشخاص الثلاثة.

في تلك اللحظة (لحظة واحدة لا غيرها. زمن لا قياس له) خفضت المرأة عينيها من تمثال *الملاك الساقط* إلى مستوى البشر، والتقت نظرات إرفينغ بنظرات من لا يمكن إلّا أن تكون حبيبته، إليسا. ابتسم إرفينغ، وقد وضع وجهه بين يديه، ويكاد يركض صوبها. لكنّ المرأة الشقراء، على الطرف الآخر من النافورة، حرّكت برأسها، في إشارة نفي ونهي. ثمّ كرّرت الحركة، لكي لا تدع أمامه مجالاً للشك. وأبعدت نظرها. كفّ إرفينغ عن التبسّم، بينما كان سمعه يوشك أن ينفجر.

عندها استدارت إليسا، نعم، إنّها إليسا، فتاته وحياته، وراحت تبتعد،

يتبعها الرجل الأصلع الجسيم، الذي بسط ذراعه اليمنى على كتفي المراهقة، صاحبة الشعر الأسود الفاحم، بملامحها التي بدت له مألوفة. وسرعان ما اختلط الثلاثي بين زوّار الـ(ريتيرو) ثمّ تبخروا في البعد وفي انعكاسات ضوء الشمس المدريديّة. فصّ ملح وذاب. تراجع إرفينغ، وهو في حالة من الصدمة، وسقط على الدكة التي كان يجلس عليها. لقد رأى إليسا، صديقة روحه وسنده في أصعب أيّامه، لكنّها صدّته ومنعته. فهل كان صاحياً؟... «هل أتذكّر أنّني استيقظتُ، وأنا نائم هنا ساعة ما، ورأيتُ إليسا بقربي؟»[43]...

عند قدميه، قرأ في طبعة الأحد من جريدة *الپاييس*، المطويّة من الوسط: اليونان تفوز بكأس أوروبا. وتحته عنوان ثانوي يقول: «اليونانيّون كافحوا، على قلب رجل واحد. صمدوا في الشوط الأوّل، وفي الشوط الثاني أطاحوا بالبرتغال».

43- أبيات من قصيدة رعوية للشاعر غارثيلاسو دي لا بيغا (1498-1536) عنوانها «شكوى الراعين اللذيذة».

4

ابنة بلا أبوين

حتى الحادي عشر من أيلول 2001 كانت آديلا تسير وفق نمط معينٍ من الحياة. لكنّ الفتاة المراهقة بدأت، في التاسعة ودقيقتين من صباح ذلك اليوم، وكان عمرها آنذاك أحد عشر عاماً وأربعة أشهر، تسير وفق نمط حياة أخرى، باتت، منذ ذلك الحين، حياتها. في ذلك الصباح اجتاحها إحساسٌ خطيرٌ بالخوف ممّا لا قِبلَ لنا بالتحكّم فيه، بغزو جحافلَ جرارة من الألم والموت حيث لم يكن من قبلُ غير السكينة والبراءة. بل لقد تعلّمت كيف تكره وكيف تشعر بالسخط و بالعجز، وأرادت أن تهرب، دون أن تدري كيف ولا إلى أين.

كان أبوها، برونو، قد خرج إلى عمله قبل الثامنة، فقد كان موعد أوّل مرضاه عند الثامنة والنصف في عيادته الكائنة في (تريبيكا)، في منهاتن السفلى. أمّا أمّها، لوريتا، فكانت خرجت للتوّ من الحمّام، فهي ليست في عجلة من أمرها، لأنّ اليوم هو الثلاثاء، ومناوباتها في العيادة البيطريّة تبدأ بعد الثانية عشرة، وتستمرّ حتّى منتصف الليل. أمّا آديلا، فقد كانت جلبت، من مكتبة المدرسة، الكتب التي تحتاجها لعمل البحث المطلوب منها، وهو الأول الذي تقدمه في ذلك الكورس.

وضعت لوريتا على النار إناء القهوة، للمرّة الثانية ذلك الصباح، وكانت آديلا تنتظر القهوة لتنصرف إلى الحجرة الصغيرة التي يستخدمها أبوها مكتباً له، حين بدأت تجتاح الحيّ، صعوداً من الشارع حتّى الشقّة، في الطابق الثالث من مبنى شارع 568 ويست و149 ستريت، في هاميلتون هايتس،

أصواتٌ غير مألوفة في شدّتها وحدّتها. الناس يصرخون، بالإنكليزيّة وبالإسبانيّة، يتساءلون ويسألون عمّا يحدث ويدعون إلى فتح التلفزيون.

- *ماذا يجري بحق الجحيم لهؤلاء المجانين الآن* [بالإنكليزيّة]... أقسمُ لكِ، كوسي، هؤلاء الدومينيكانيون يدفعون بي إلى الجنون -تمتمت لوريتا وهي تضع الصدرية وتعدّل طيّاتها بيديها لتطلّ من البالكون الصغير. حين عادت إلى الصالة، تناولت الريموت *كونترول* وفتحت التلفزيون وبحثت عن قناة محليّة-. *أوووه، يا إلهي! أوووه، يا إلهي!* [بالإنكليزيّة] - صاحت الأم، فهرعت البنتُ إلى الصالة.

ظهر على شاشة التلفزيون برج مركز التجارة العالمي الشمالي وقد تحوّل إلى كتلة من لهب. راحت الأم وابنتها تنظران، ساكتتين، إلى الصور وتقرآن شريط الأخبار: حادث طيران. طائرة بوينغ ترتطم بالمبنى عند الساعة 8. 46 صباحاً.

- ولكن. ولكن... عمّ يتكلّم هؤلاء؟ [بالإنكليزيّة] - تساءلت لوريتا.

- آي، لوريتا. آي، لوريتا - قالت آديلا.

كانت الأم وابنتها المراهقة تتأمّلان، واقفتين، سقوط كلّ منطق... فيلم من أفلام هوليوود يتحوّل إلى واقع، حين وقعت عيونهما على صورٍ تفوق حدّ الخيال: من طرف الشاشة دخلت طائرة (طائرة أخرى!) اختفت في أحشاء البرج الجنوبي، لتثير سحابة من التراب سرعان ما انقلب إلى نار ولهب. شعرتا، وقد وضعت كل منهما يدها على فمها لتكتم صرختها، بأنّ ما يسقط ليس المنطق فحسب، بل التوازنات والمعتقدات وآخر حدود العقل. شعرت آديلا بخوف شديد. من الشارع كانت تصل صرخات «هجوم، هجوم». وبدأت الفتاة ترتجف وتبكي، وانساب خيط من البول من بين ساقيها. ما هذا الذي تراه؟ طائرات أخرى، قنابل، انفجارات؟ هل هي الحرب المنتظرة؟ هل هو الموت الموعود؟ وماذا عن أبيها؟ أين عساه يكون؟

عقب خمسة عشر عاماً، حين رأت آديلا الصورة التي وضعتها والدة ماركوس في صدر صفحتها على الفيس بوك، وتأكّد لها أنّ إليسا كورّيا هي

نفسها المرأة التي تدعوها لوريتا فتزبيرغ، والتي هي، بكلّ تأكيد -على الأقل، في نظرها-، أمّها، علمت أنّ حياتها بدأت تتخذ مساراً جديداً. فالمنطق يسقط من جديد، والعقل يضطرب، وعليها أن تتصدّى، من جديد، لمخاوفها وشكوكها. طائرة ارتطمت ببرج كيانها، هجمة طالت جوهر كينونتها.

زرقة لا متناهية. عاودت رفع بصرها. لا تتذكّر أنّها رأت السماء بتلك الزرقة الصافية، وبتلك القدرة على خلق الإحساس بتصوّر ما لا يحيط به بصرٌ ولا يتصوّره خيال: إنّه الكمال مجسّماً. إنّه تجسيد لمنزل الخالق المبدع. تلك السماء النظيفة هي من يستقبلها هذه المرّة ويبلّغها بأمرٍ، قد يكون سامياً، وقد يكون باعثاً على الطمأنينة فحسب، لم تتوفر لها الظروف بعدُ لتخمينه. لقد تكفّلت غاباتُ الصنوبر، في مرّات أخرى، والخلجانُ والجبالُ المكلّلة بالثلوج الدائمة، بالكشف لها عن ضعف الإنسان وضآلته أمام الطبيعة. تلك الضآلة البالغة إزاء عظمة الإبداع الإلهي، التي وصفها شاعر كوبا الأوّل والكبير خوسيه ماريّا إيريديا، وهو يتأمّل شلالات نياغارا، ورددتْ آديلا فتزبيرغ وصفه، قبل سنوات، منقوشاً على لوحة تذكاريّة وضعت تكريماً لحضوره وتراثه.

وها هي آديلا الآن، تحت سماء ساكنة ومقلقة، تخلّف وراءها مدينة (تاكوما) وتعبر جسر (ناروس) المزدوج، المعلّق فوق بوغاز البحر من ناحية مضيق (پيوجت). في تلك الأثناء، كانت إبرة الـ GPS في هاتفها الخليوي تشير عليها باتباع الطريق 16 لقطع شبه جزيرة (أولمبيكا) في خط موارب، للوصول إلى بلدة (غيغ هاربر)، إلى حيث ذهبت أكثر من مرّة لتناول العشاء مع أمّها في مطعم يقوم عند قناة خليج (هندرسون).

استطاعت آديلا أن تقود سيارتها حتّى (غيغ هاربر) مستعينة بذاكرتها وبعلامات الطريق. وتذكّرت أنّ عليها، عند الخروج من البلدة، أن تجتاز جسر (پوردي) الصغير، الواقع عند أحد منعطفات الخليج، وأن تواصل سيرها، عند شبه جزيرة (كي)، في الطريق 302، تاركة خلفها سوق الفواكه ومنتجات الولاية الذي كان يجذبها، لتلتفّ، من بعدُ، في ما يشكّل قوساً،

في الجادة 118 من نيويورك. من هناك، بحثت، مستعينة بنظام التموضع العالمي، عن الطريق إلى (منتير)، وحاولت أن ترى العلامة الأولى الدالة على الطريق نحو بلدة (ذي هوم)، التي طالما استدلّت بها لمعرفة اقترابها من ذي *سي بريز فارم*، المزرعة التي تقيم لوريتا فيها وتعمل منذ عشر سنوات. أو، بحسب قول أمّها، *مؤخرة العالم*، نظراً لانزوائه وبعده، فلا يصل إليه إلّا من عقد العزم على ذلك.

في زياراتها السابقة (آخر مرّة قبل سنتين، قبل أشهر من التعرّف على ماركوس)، كانت لوريتا تخفّ لاستقبالها في مطار (سي - تاك)، الذي يغطّي منطقة سياتيل وتاكوما، فقد كانت تدرك أنّ عليها أن تحمي ابنتها، التي ظلّت تعاني من صدمة ما رأته في الحادي عشر من أيلول: فكلّ طائرة تركبها كانت تبدو لها قنبلة طائرة، لذلك كانت تصل وهي في غاية الإرهاق، فكأنّها جاءت من مكان انطلاقها ركضاً. أمّا في تلك المرّة فلم ترَ آديلا شاحنة لوريتا الفورد الصغيرة العتيقة، فكان عليها أن تتدبّر أمرها. كانت الفتاة، في ذلك اليوم، قد تحمّلت مشقة الرحلة من ميامي مع توقف في دالاس لتبديل الطائرة، فضلاً عن أعباء التفكير في ما جاءت تسعى إلى معرفته.

لم تكن آديلا تمتلك القوّة ولا صفاءَ الذهن اللازمين للكلام مع لوريتا ليلة رأت الصورة التي التقطت يوم 21 كانون الثاني 1990، والتي زاد من عنصر التشويق فيها أنّ من التقطها وُجد ميتاً بعد أيّام من ذلك، تلك الصورة التي تظهر فيها أمّها، حاملاً بها، ومعها زوجها، الذي يفترض أنّه أبوها البيولوجي، محاطين بأصدقائهما المقربين، فقرّرت الانتظار حتى صباح اليوم التالي. لكنّ هاتف لوريتا كان مغلقاً. وعاودت، كلّ ساعة أو ساعتين، محاولاتها، لكنّ النتيجة ظلّت هي هي. اتصلت مساءً بأبيها، برونو. لم تكلمه عمّا اكتشفته، لكنّها سألته إن كان يعرف طريقة للاتصال بلوريتا: هاتف المزرعة أو رقم مس ميلر، صاحبة المزرعة. عبثاً. فما عاد الاتصال بينه وبين زوجته السابقة إلّا متفرقاً متباعداً. لكنّ أباها لاحظ أنّ أمراً مهماً يشغل بال ابنته.

- هل أنتِ بخير يا ابنتي؟ - سألها الرجل، الذي رأت فيه، حتّى ذلك الحين، أباها.

– متعبة قليلاً...

– ولماذا أنتِ مهتمّة بالعثور على أمّك؟ أنت تعرفينها..

– لا. لا أعرفها، لذلك أريد أن أكلّمها. سأتصل بك، أبي، حين أجدها. –كادت كلمة «أبي» تتبعثر في فمها، وأحسّت كأن الحوار يكويها–. وعليّ أن أتكلّم معك أيضاً. لكنّ الأمر ليس مستعجلاً. – أغلقت الهاتف وانفجرت بالبكاء.

لم تفكّر آديلا أكثر، بل بحثت عن تذكرة سفر بالطائرة إلى (سي – تاك) صباح اليوم التالي وأبلغت ماركوس بقرارها بالسفر للبحث عن أجوبة. اقترح الشاب عليها بدائل للعثور على رقم هاتف مزرعة الخيل، أو أن يتصل هو بأمّه في هاڤانا ويسألها إن كان يمكنها أن تسلّط الضوء على ذلك الموضوع الغامض، أو بهوراثيو في (سان خوان)، أو بإرفينغ في مدريد. لكنّ آديلا منعته: فالمسألة تخصّها هي وأمّها... هي وأمّها فقط.

اتصلت بالجامعة وطلبت من مسؤولتها إجازة بدون راتب لمدة أسبوع. ثمّ راحت تعدّ العدّة للسفر إلى الشمال، حيث درجة الحرارة في الليل، بحسب ما رأت في الإنترنت، ما زالت ربيعيّة لا تتجاوز العشر درجات مئويّة.

من باب الغرفة، كان ماركوس يراها وهي تبحث وتحزم حقائبها.

– بمناسبة الصورة... أتذكّر إحدى آخر المرّات التي رأيتُ فيها إليسا، هناك في كوبا... هي تظهر في الصورة وقد ضمّدت إحدى أصابعها... أمّي ضمّدتها لها، في الطابق العلوي من بيتنا. أغمضُ الآن عينيّ فأراهما، الواحدة قبالة الأخرى، قريبتين جداً بعضهما من بعض... لقد نسيتُ ذلك...

فتح ماركوس عينيه وهزّ رأسه كأنّه يطرد عن ذاكرته شيئاً.

– وكيف كانت إليسا تلك؟ كيف تتذكّرها؟

– لا أدري، آديلا. قلتُ لكِ إنّ عمري كان آنذاك ست سنوات... لم تكن شقراء مثل لوريتا، كان فيها شيء مختلف، ولذلك لم أربط بينها وبين الصورة التي لديك... وكيف لي أنّ أفكّر أنّ امرأة اسمها لوريتا هي إليسا التي عرفتها قبل لا أدري كم سنة؟ أمّي والعم هوراثيو وأبي... أعتقد أنّ عليك أن تكلميهم. كانوا يتكلّمون عن إليسا دائماً... أو اسألي برونو مباشرة...

- لا. سأتكلّم معها أولاً.
- وإن تبيّن أنّ إليسا تشبه أمّك لكنّها ليست هي؟
- إنّها هي، ماركوس. وهي تعلم جيداً من تكون أنتَ... لقد أخبرتك بذلك.
- وماذا لو أنّ حادثاً وقع لها ولذلك فهي لا تردّ على الهاتف؟
- لا. لم يحدث لها شيء. أنا أعرف.
- وماذا لو أنّها ليست في المزرعة؟
- سأسافر للبحث عنها... وكفّ أنتَ عن أسئلتك. سأذهب إلى هناك وكفى.
- حسنا... ولكن سأقول لك شيئاً... -تردد ماركوس-. برناردو، زوج إليسا، لم يكن يخلف... وقد سمعتُ أنّ حملَ إليسا لم يكن منه.
حاولت آديلا أن تهضم المعلومة. تأخّرت للحظات.
- ممن، إذن؟
- لا أدري. أعتقد أن لا أحد يعلم. أظنّ... يمكنني أن أتّصل... إن شئتِ.
- لا. لا. رجاءً. أشعر الآن بأنّي ابنة لا أحد.
راحت آديلا، وفق الـ GPS، تتقدّم عبر طريق (فيپوند)، التي تسير بمحاذاة أحد بوغازات البحر وتقرّبها من المكان الذي تقصده. وأكّدت ذكرى المكان الذي زارته مرّات عديدة، وطالما أمضت فيه أسبوعاً كاملاً أثناء إجازات صيفيّة سابقة، صدق معلومات القمر الصناعي، إلى أن رأت بوابة المزرعة المعدنيّة، عند منعطف حاد يرسم طريق (فيپوند) حتّى منتهاه في خليج (مينتر). أحسّت بالراحة.
لطالما منح ذلك المكان آديلا إحساساً بالسلام والتوازن. فتوليفة الحقول، وغابات الصنوبر والشوح والأرز، وبوغاز البحر، الذي ينزل من مضيق (خوان دي فوكا)، قريباً من الحدود مع كندا، والمنشآت الملحقة بالبيت، والإسطبلات، ومخازن الحبوب والعلف، بسقوفها التي غطتها الطحالب الدائمة، ترسم مشهداً يوحي بالتناسق والانسجام، ويشيع في النفس السكينة والاطمئنان. كانت لوريتا تقول إنّ لتلك البقعة، التي تختزن

في أعماقها معادنَ كثيرة مجهولة، وتقع بالقرب من قمّة (تاهوما)، «الجبل الإله»، قدراتٍ مغناطيسيّة خاصّة، قوى خفيّة، وإن كانت محسوسة، قادرة على التأثير في أمزجة الناس ونفوسهم. ولمّا كانت تلك المزرعة قريبة من البحر، ولمّا كان اسم أوّل حصان فحلٍ اقتنته مس ميلر، قبل أربعين سنة، هو The Sea Breeze [نسيم البحر]، فقد أُطلق على المزرعة الاسم نفسه.

منذ عقد السبعينيّات، باتت المزرعة، وكانت آنذاك خربة تقريباً، ملكاً لشابة من شيكاغو، تعشق الخيل، وأرملة للمرة الثانية، في الستينيات من عمرها، يدعوها الجميع «سنيوريتا» ميلر.

كانت مس ميلر، وهي صاحبة سجلّ من التمرد والثقافة المضادة، في الستينيات والسبعينيّات، قد انتقلت مع والديها المحاميين إلى الساحل الغربي من الولايات المتحدة، حيث ارتبطت بنشطاء في مجال الحقوق المدنيّة والشباب المناهضين للحرب في فيتنام، وشاركت في ثقافة الهيپيز واستمتعت بحفلات شواطئ كاليفورنيا الموسيقيّة، حيث دخّنت -كما تروي- الماريجوانا وتعاطت المهلوسات بكثرة. وحين قرّر خطيبها، آنذاك، الهروب إلى كندا، ليتجنّب استدعاءه إلى الخدمة العسكريّة، وجدت الفتاة، وكانت آنذاك تحمل لقب ساندرز، في ذلك المكان ملجأ مؤقتاً، فهو مكان معزول، على هامش الحضارة، متقادم متداع، لكنّه على مرمى حجر من الحدود الكنديّة. وربّما كانت الجاذبيّة المدفونة تحت تراب ذلك المكان هي ما أبقاها هناك، حيث سكنت في كوخ ملحق بالبناء السكني الرئيس، أجّره لها المالكون الأصليون مقابل دولارات قليلة.

لم تجتز مس ميلر الحدود يوماً. ولم تتلقّ عن حبيبها إلّا خبراً واحداً، وأخيراً، عقب شهرين من هروبه. أبلغوها أنّه قتل في شجار له، في فانكوفر، مع فيتنامي يبيع المخدرات. عندها، قررت مارغريت ساندرز، وقد صدمها الخبر، وخاب ظنّها في أفكارها وشعاراتها، أن تسمّي نفسها مس ميلر، ثمّ بدأت توفّر المال اللازم لشراء العقار. وساعدها والداها، المحاميان الثريان المرتبطان بعالم الاستعراض، اللذان أغدقا لها في العطاء لإبعاد ابنتهما المتمردة، التي ارتبطت بمجموعات عنفٍ من المتعصبين لنيويورك، لتستقرّ في منطقة نائية، بعيداً عن مكمن الخطر.

وهكذا أقامت مس ميلر، وقد تزوّجت من الشاب الإنكليزي توم فوستر، المولع بالخيل مثلها، والمحبط مثلها، في ذلك المكان الجميل البعيد، بيتاً ريفيّاً أساسه الاتحاد بالطبيعة وبالكون. في تلك الأثناء، وجدت كنزها الأعظم في فرسين فتيتين، جُلبتا بعد حصان الاستيلاد سي فريز، الذي أتى به توم فوستر من مدينة مانتشستر الإنكليزيّة. حيوانات مضمونة لأنّها نماذج أصيلة من سلالة كليفيلاند الكستنائية التي صارت تقلّ وتندر، بعد أن ظلّت، لقرنين من الزمان، مصدراً للخيول التي يستعملها التاج البريطاني لسحب عرباته الملكيّة.

دخلت آديلا الطريق الحجريّة بسيارة الجيب التي اكترتها، وهي تحرص على أن تتجنّب الديوك الروميّة التي راحت تصيح، بعد أن أحسّت بدخول شخصٍ غريب. أوقفت السيارة قرب الطريق المحاذية للإسطبلات وعنابر العلف. أحاط بها عطرُ الطبيعة -أعشابٌ وغاباتٌ وبحرٌ وحيواناتٌ ومخلفاتٌ عضويّة- فكأنّه يعانقها. عندها رأت ريك آدمز، المدرّب الشاب الوسيم، الذي يعمل في المزرعة مع أمّها، خارجاً من الحظائر. كان يتبع ريك (لطالما بدا لها شبيهاً ببراد پيت في فيلم "نادي القتال") كلبان عظيمان من نوع لابرادور، بنظراتهما المألوفة التي توحي بالرقة والطيبة.

تذكّرها ريك فابتسم لها. حين رأته لأوّل مرّة، تولّد لدى آديلا شك بأنّ راعي البقر ريك على علاقة بأمّها، على الرغم من فارق العمر بينهما، وعلى الرغم من أنّ له زوجة وأولاداً في (غيغ هاربر). كانت التحيّة وديّة.

– ماذا تفعلين هنا؟ – سألها ريك، وكأن هذا السؤال هو السؤال الطبيعي.

– وماذا عساي أفعل؟... جئتُ لأزور أمّي...

– ولكن ألا تعلمين...؟

– أعلم ماذا؟

– أنّها ذهبت من يومين...

– وأين ذهبت؟ ومتى ستعود؟

ابتسم ريك وهزّ رأسه. ثمّة مشكلة.

– يا إلهي... تعالي، لنشرب فنجان قهوة – دعاها وفتح الطريق نحو «الضيعة»، كما اعتادوا تسمية الأكواخ الأربعة التي شيّدت خلف الإسطبلات، ليقيم فيها العاملون الدائمون في المزرعة، وبضمنهم لوريتا، التي خصص لها أكبرُ تلك الأكواخ وأكثرها حظاً من متطلبات الراحة. تعلم آديلا أنّ مس ميلر عرضت على أمّها الإقامة في جناح كان مخصصاً للضيوف، ظلّ شاغراً بعد وفاة زوجها، لكنّ لوريتا فضّلت أن يكون لها مكانها الخاص.

رأت آديلا العمّال في الإسطبلات وفي ميدان التدريب. وعرفت منهم المكسيكي أندريس والهندي واپو. كانا بدآ كلاهما العمل في المزرعة قبل وصول لوريتا، وكان واپو، وهو وريث هنود رُحّل، هو من أكّد للبيطريّة أنّ أسلافه كانوا يقولون إنّ المكان الذي باتت تشغله المزرعة كان مغناطيسيّاً: فيزياوياً وعاطفيّاً. حيّاها المكسيكي بالإسبانيّة، وحاول واپو تقليده. وابتسم الاثنان.

أدخلها ريك إلى الكوخ، قدّم لها كرسياً وبدأ يجهّز عدّة تحضير القهوة.

– أخبرتني لوريتا أنّها تكلّمتْ معكِ... وحدثتكِ عن حالة رينغو.

– هل قتلتموه؟ هل قتلته هي؟

– ألم تكلمكِ عن ذلك؟... نعم، قتلته هي. لم تشأ أن أقوم أنا بذلك... كان رينغو المسكين يعاني. مع مشاكله وسنّه... وما كان من حلّ آخر.

شمّت آديلا رائحة القهوة، بعد أن تعلمت، منذ أن انتقلت إلى ميامي وبدأت تشرب السمّ الأسود الذي اعتاد الكوبيون تناوله، أنّ القهوة سائل لا طعم له ولا رائحة.

– ومتى كان ذلك؟

– من ثلاثة أيّام...

– نفس اليوم الذي كلّمتني فيه... سنة ونصف وهي لا تتصل بي... حاولت بعد ذلك أن أتكلّم معها، لكنّ هاتفها كان مغلقاً.

– لم تكن تريد الكلام مع أحد. موضوع رينغو أثّر فيها كثيراً. لم تكفّ عن القول إنّ الحصان كان منها بمنزلة الولد.

– وهذا ما قالته لي...

– ثمّ تكلّمت مع مس ميلر... هل تعرفين من كم سنة وأمّك تشتغل هنا؟

- اثنتي عشرة سنة - قالت آديلا.

- إحدى عشرة سنة... ومنذ تسع سنوات لم تتمتّع بأيّة إجازة. لم تذهب طوال تلك السنين أبعد من سياتل أو پورتلاند، ودائماً لدواعي العمل أو حضور المعارض، ودائماً مع مس ميلر... وقد طلبت من صاحبة المزرعة بعض الوقت لتذهب بعيداً، وسمحت لها مس ميلر بأن تأخذ ما يلزمها منه...

- كم؟

- أظنّ أنّهما لم تتكلما عمّا يلزمها من الوقت. ما يلزمها، أليس كذلك؟

- وأين؟

- لوريتا لا تعرف. أو لم تشأ أن تقول... على الأقل لي. أحياناً تقول إنّها تريد الذهاب إلى ألاسكا. حكت أنّها تعرّفت على شخصٍ مّا في حياة سابقة عاشتها، أنت تعرفين كيف تتكلّم، رجل كان كونتاً أو شيئاً من هذا القبيل، وإنّه كلّمها عن حلمه بالسفر إلى ألاسكا. لذلك أقول إنّها ربّما ذهبت إلى هناك...

- من دون هاتف؟

- من دون هاتفها. إنّه فوق المنضدة في كوخها. حملتْ معها حقيبتي ظهر والشاحنة الصغيرة. ألم تتصل بأبيك؟

- لا - قالت آديلا.

إلى حالتها المعنوية المنكسرة التي لازمتها في الأيام الأخيرة، أضيف إحساسٌ بالكراهية والضياع. إنّها ترى أنّ لوريتا لا تهرب من حزنها لفقد حصانٍ كانت مولعة به، بل تهرب من ابنتها المخدوعة بها، كما هربت، من قبل، من إليسا كورّيا وغيرها وغيرها. الله أعلم.

- هل استخرجتْ أمّي جواز سفر؟... كان لديها جواز حين ذهبنا إلى إسبانيا، لكنّي لا أعرف إن كانت جددته. هي لم تسافر معي ومع أبي إلى الأرجنتين...

- أظنّ أنّها استخرجت جوازاً آخر قبل سنتين أو ثلاث سنوات. فلربّما سافرت إلى التبت أو إلى اليابان، وأنت تعرفينها... ما أغرب الأماكن التي تحلم بالذهاب إليها: ألاسكا، التبت، اليابان. على أيّة حال، تكلمي مع مس ميلر... في (تاكوما) يسكن معلمها الروحي، المستنير شاك -اقترح عليها

ريك- ربّما يعلم شيئاً إن كانت سافرت إلى اليابان... فهي، في الآونة الأخيرة، تتفقه في البوذيّة والتأمّل.

- ألم تخبركَ بشيء عن وجهتها؟ -هزّ ريك رأسه نافياً، وهو يأخذ رشفة من فنجان قهوته-. ولا من باب العلاقة التي بينكما؟

- ومن قال لك إنّ بيننا علاقة؟ - ابتسم ريك.

- انطباعاتي...

- انطباعاتكِ في غير محلّها... عزيزتي

- لا شيء مستبعد على لوريتا... إذن، لم تخبرك بشيء؟

- سألتني إن كنتُ قادراً على العناية بالمزرعة. وقالت لي إنّها تحتاج إلى أن تكون وحيدة... يوم سافرت، جئتُ لوداعها، وحين دخلتُ كانت في الحمّام. رأيتُ بعض الحاجات على المنضدة، ورأيتُ جواز سفرها في محفظة. لكنّي استغربتُ حين رأيتُ جواز سفر آخر... جواز سفر كوبياً، أحمر... فأثارني الفضول، لأنّي لم أكن رأيتُ جوازاً كوبياً، وبدأتُ أقلب أوراقه...

- باسم من كان؟

- فعلاً دققتُ في ذلك... إليسا ل. إليسا لوريتا؟ واسم عائلتها كوبي... طبعاً، لأنّها عزباء.

- هل تذكر اسم العائلة.

- لا، لكنّه لم يبد لي غريباً... لقب كوبي.. لوريتا في الصورة لا تشبه لوريتا.. شكلها مختلف.

- أصغر عمراً؟

- بالطبع، أصغر عمراً. ولكن...، لا أدري، بدت مختلفة.

- أظنّ أنّ اسمها لم يكن لوريتا ولم تكن شقراء -قالت آديلا، ونظرت حولها. شيء ما تحرّك، داخلها أوخارجها- ريك، أريد أن أمضي يوماً أو يومين هنا، في كوخ أمّي، فهل أطلب الإذنَ منك أم من مس ميلر؟

رأت آديلا الهاتف النقّال وسط الطاولة، منزوعَ البطارية وشريحة الذاكرة. إلى جنبه، صليبٌ خشبي تعرّفت عليه: عمل يدوي ملوّن من المكسيك، كانت أمّها تتخذ منه تميمة، واعتادت أن تضعه في مكان عملها أو في غرفتها. ما من قدح. ما من فنجان. ما من كسرة خبز أو أثرٍ رطب. ما من أثر يدلّ على حياة أو عجلة: ليس على الطاولة النظيفة غير هاتف نزعت بطاريته وشريحة ذاكرته، وغير تعويذتها، وكفى بذلك دلالة ورسالة: لا أريدُ أن أكلّم أحداً، لا أريد أن يكلّمني أحد، لا أريد أن يبحث أحدٌ عنّي، ما من ماضٍ. فعمّن أبحثُ إذن؟ عن لوريتا فتزبيرغ، أم عن إليسا كورّيا، أم عن لوريتا آغيرّي بوديس؟ عن إليسا إل.، الذي ربّما يعني لوريتا؟ فممّ تهرب؟ وممّن؟ ولماذا؟ وإلى أين؟

شعرت الفتاة بمزيج التوتر والخوف والغضب والحيرة الذي رافقها لثلاثة أيّام، يتمكّن منها. التقطت الصليبَ وتوجهت إلى الفراش. وجدته مرتباً، بشراشف نظيفة، كأنّه ينتظرها. استلقت على المرتبة. خلعت جزمتها، ووضعت الوسادة التي تحمل رائحة لوريتا على وجهها، محاولة كبح رغبتها بالبكاء ممّا بها من الغضب والعجز. نامت والصليب بين يديها.

حين استيقظت، بعد ساعات، كان ليلُ الشمال المبكّر قد لفّ كلّ شيء بظلمته. أشعلت مصباح القراءة المعلّق فوق مقدمة السرير وذهبت إلى الحمّام. كانت تشعر بعطش شديد، كمن يجفّ حلقه من أثر الكحول. اجتازت الصالون، الذي كان المطعم والمطبخ أيضاً. هناك، رأت ورقة مرّرها أحدٌ من تحت الباب: إنّه ريك يخبرها بأن مس ميلر تدعوها لتناول العشاء عند السابعة مساء. نظرت آديلا إلى ساعتها: السادسة وأربعون دقيقة. لا وقت يكفي للاستحمام، لكنّها تحتاج إلى إزالة ما بها من وسخٍ وتعب. فآثرت الحمّام

على الوصول إلى الموعد في الساعة المحددة. فما أحوجها إلى طرح ما على كاهلها من أحمالٍ وأثقال. وتمنّت ألّا يكون العشاء من سمك السلمون الذي طالما رأته يسبح في تلك البركة، وتمنّت ألّا يكون من تلك الأسماك التي تتكدّس في أحواض تربية الأسماك القريبة، والتي تتغذّى حتّى على خرائها.

كان ريك، الذي استحمّ وارتدى قميصاً نظيفاً، ينتظرها قرب باب البيت. ابتسم لها حين وصلت ناحيته وسألها عن حالها. أفضل، قالت له. فتح الباب. كانت آديلا تعرف البيت، فسارت وراءه، عبر المدخل ثمّ عبر المطبخ. عند طاولة الكراسي الثمانية، المغطاة بشرشف من القماش، رأت مس ميلر جالسة، وقد أسدلت شعرها الأبيض على كتفيها ورسمت على وجهها ابتسامة المرأة المنعّمة الراضية. ربّما كانت ترتدي الفستان نفسه الذي ارتدته حين زارت أمّها قبل سنتين أو أربع سنوات. نهضت مس ميلر، التي باتت مزرعتها تساوي الملايين، فاقتربت آديلا لتقبل الخدّ المترهل الذي قربته تلك منها كما يُقرّبُ القربان.

قدّم الشرابُ ورحّبت مس ميلر بها وشربت نخبها. ثمّ أشارت عليها بالجلوس على الكرسي الذي على يسارها، بينما احتل ريك الكرسي الذي على يمينها.

بحثت الآنسة ميلر في واحد من جيوبها وأخرجت ظرفاً مطوياً مدّت يدها به إلى آديلا.

– طلبت أمّك منّي أن أعطيكَ هذا في حال أتيتِ إلى هنا.

– شكراً – قالت آديلا. رأت اسمها مكتوباً على الظرف وترددت إن كان عليها أن تفتحه. أومأت لها الآنسة ميلر مشيرة عليها بفتحه. في داخل الظرف شيكٌ باسمها كتب عليه مبلغ أربعين ألف دولار. لم يبدُ على آديلا ما يعكس المفاجأة.

كان العشاء نباتيّاً صرفاً، بل خُضَريّا، فلا جبنة ولا زبدة، بعد أن باتت مس ميلر أكثر تشدداً في مسألة الأكل. وتذكرت آديلا ماركوس وولعه الموروث باللحم، وتذكّرت أنّها لم تتصل به. ماذا عسى خطيبها يفعل الآن في (هياليه) القائظة؟ هل اتصل بأمّه؟

– وماذا ستفعلين إذن؟ – سألتها مس ميلر، بينما هم يشربون الكأس الثانية من النبيذ، بعد انتهاء الجولة الأولى من الكلام.

– أريدُ أن أجدها. أحتاج إلى الحديث معها –كرّرت آديلا–. لا أدري ماذا أفعل... هل أستطيع البقاء يومين هنا قبل أن أعود؟

– وهل تعتقدين أنّها ستعود خلال هذين اليومين؟ –سألت المرأة–. يمكنك البقاء ما شئتِ، طبعاً، لكني لا أظنّ أنّ لوريتا ستعود إلى (مينتر) خلال يومين.

– شكراً، مس ميلر... ولكن، هل قالت لكِ شيئاً؟ هل لمّحت بشيء عن وجهتها؟

– قالت ما سمعتِه. قالت إنّها في حاجة إلى إجازة، وهي تستحقّ تلك الإجازة، بالطبع... أنا أردتُ أن يتولّى ريك أو البيطري أمرَ رينغو، وقد بدا أنّها وافقت على ذلك، لكنّها سرعان ما غيّرت رأيها. أمّك امرأة شجاعة، آديلا. هي من النساء القادرات على مواجهة صعوبات الحياة. مع ذلك فقد أثّر موضوع رينغو كثيراً فيها.

أومأت الفتاة برأسها، ونظرت إلى ريك، فحرّضته نظرتها على الكلام.

– كانت لوريتا تشارك في مشروع «ماء نظيف» لتنقية ماء السقي من المواد الضارّة، وتروّج له في كلّ المنطقة. قبل شهرين أتتْ بموسيقي إنكليزي يؤدي أغنيات البيتلز، ونظّمت حفلة لدعم المشروع... كانت تريد أيضاً أن ترفع شكوى ضدّ أحواض تربية السلمون. كانت مشغولة جداً بذلك.

– شيء طبيعي فيها –قالت آديلا–. إذن... هل هذا يعني أنّ سفرها كان بسبب رينغو؟

– صحيح – أجابت مس ميلر، بلا تردد.

– أنا لستُ متأكداً من ذلك –قال ريك–. لم أرَ لوريتا قلقة أو مضطربة بذلك القدر. لا أدري...، هذا هو انطباعي.

لاحظت آديلا في نظرة مس ميلر إلى ريك ما أكّد لها أنّ أمّها، بسنواتها الست والخمسين، على علاقة بذلك الشاب الذي لا يكبر ماركوس، في

ما يبدو، إلّا بسنتين. وبدا لها أنّها تركته كما تركت من قبله برونو فتزبيرغ، وحبيبتها كوسي، وفتاة كوبيّة تدعى إليسا ل. كورّيا.

لا بدّ أنّها حكت لريك، وهما في الفراش أو في الإسطبلات أو في جولاتهما في (تاكوما) للتسوّق أو العشاء في أحد المطاعم، عن بعض المسائل. فعن ماذا حكت له؟ هل حكت له عن ماضيها في كوبا؟ فمن عساها كانت، ومن كان يعرفها؟ أنهت آديلا كأس نبيذها وتصنّعت الابتسام.

بعد العشاء، رافق ريك آديلا إلى حيث دفنوا رينغو، قريباً من *سي بريز*، أبيه، و *پالوما*، أمّه. حكى لها ريك أنّ لوريا تشهد الدفن، وأنّه هو من دفن الكلب، بمساعدة واپو وأندريس.

– بقيت معه برهة بعد موته. وحين تركته، قصّت خصلة من عرفه وغطّت رأسه ببطانيّة –قال ريك–. هي ترى أنّ الخيول، فضلاً عن قوّة ذاكرتها وحدّة ذكائها، شديدة الإحساس.

– دائما كانت تقول إنّ رينغو مميّز. أو إنّ فيه شيئاً مميّزاً.

– كان مميزاً – أكّد *الكاوبوي*.

بادرت آديلا، بعد انصراف ريك، إلى الاتصال بماركوس، على الرغم من فارق التوقيت، وعلى الرغم من معنويّاتها المترديّة. كان من حسن الحظ أنّ فريقه المفضّل خاض، تلك الليلة، مباراة مهمّة، وما كان لماركوس أن يفوّت مباراة لفريق حاز نجمه الدوكي إرنانِدث معه، ولثلاث مرّات متوالية، كأس السلسلة العالمية للرابطات الكبرى. قدّمت له آديلا ملخصاً بما تمّ معها، وأخبرته أنّها ستبقى يومين آخرين في (تاكوما)، فما زال أمامها أن تتحقّق من موضوع آخر.

– ولكن لا تتأخري... اتصل بي العم هوراثيو... يبدو أنّ أمراً ما سيقع، لأنه سيأتي غداً وسيمكث أيّاماً في ميامي. سألتقيه، بالطبع، وأظنّ أنّكِ راغبة أيضاً في مقابلته، أليس كذلك؟

– أظنّ ذلك –قالت–. هل سألته عن أمّي؟

– طلبتِ منّي ألا أسأله...، لا له ولا لأمّي. مع أنّ هوراثيو رأى الصورة وتكلمنا قليلاً عن ذلك... رآها أيضاً إرفينغ، وكتب تعليقاً مطولاً في صفحة

أمّي... آديلا، هم رأوا الصورة، فما المشكلة في أن أسألهم عما يعرفونه عن إليسا؟

– لا أدري، لا أريد... هل لك أن تحترم إرادتي؟ أحتاج أن أتكلّم معها... أن أسمع منها لماذا فعلتْ ما فعلتْ، وما الذي فعلته بالأمر البسيط... أريد أن أسمع منها مباشرة.

– حسناً. كما تريدين... هل تعلمين أنّكِ تبدين، هكذا، أقرب إلى الأمريكيّة. ولو كنتِ كوبية خالصة لملأت الدنيا ضجيجاً وصراخاً؟...

– ماركوس...

– صدقيني. اسمعي. ألم تشتاقي إليّ؟

– لكّني لم أتركك إلّا هذا الصباح!

– أمّا أنا فأشتاق إليك كثيراً... يااااه! يا لها من ضربة! – صرخ ماركوس، فقررت آديلا أن تتركه مع مباراته، على أن تعاود الكلام معه عن شيكها وشكوكها.

أطالت قيلولتها حتى بدا لها أنّها لن تنام ليلتها بسهولة، وإن كان التوقيت قارب، في حساب جسمها، منتصف الليل بتوقيت الساحل الشرقي. ومع علمها بأنها تقدم على اقتراف ما يقرب من الذنب، فقد بحثت في حقيبة ظهرها عن علبة السجائر التي اشترتها من مطار ميامي، وخرجت، بعد أن حملت هاتفها، إلى ليل خليج (مينتر) البهيم، تبحث عن مكان يناسب تلويث رئتيها. قررت أن تسير في منحدر بين الأشجار، يقود إلى بوغاز البحر الذي يشكّل رافداً يصبّ في خليج (هندرسمون) ومن ثمّ في المحيط الهادئ. جلست على حجرٍ هناك، تلفها عتمة تسمح لعينيها بالإبحار في سماء مليئة بالنجوم، ويملأ سمعها صوت التيّار وهو في مدّه. تعلم آديلا أنّ أسماك السلمون البالغة تدخل مع ماء المحيط من خلال الرافد، ممتثلة لغريزة تحملها على السباحة مئات الأميال، باحثة عن موطنها، حيث تضع بيوضها في مياه هادئة، لتكون مهداً يناسب صغارها. أمّا الأسماك التي تعود من غربتها عودة الابن الضال مدفوعة بغريزة الانتماء فتقفز محاولة تجاوز الموانع بينما ظهورها الورديّة تبرق تحت ضوء القمر. في اليوم التالي، حين

سينحسر المدّ، ستتسلل هذه الأسماك نفسها نحو البحر المفتوح وسيبقى بعضها، وقد أعياه مسير الأيّام كثيرة، محاصراً، فتفاجئه حركات المدّ في الخليج، وعندها يصبح فريسة سهلة للدببة ولقمة سائغة للنسور.

أشعلت آديلا سيجارة، وتأكّدت من وجود تغطية لللآي فون الذي معها. اتصلت بالشبكة وتنقلت بين صفحة ماركوس وصفحة أمّها، وعادت تنظر إلى الصورة التي نغّصت عليها عيشتها.

تحت الصورة تلك وجدت تعليقاتٍ قليلة ومختصرة، بعضها لا يتعدى الـ*لايك*، كما فعل هوراثيو، أو رموز التعجّب أو الفزع، كما فعل داريّو. نزلتْ فوجدت ما كتبه إرفينغ، صديق كلارا. لقد بدا كأنّ ألف سنة، وليس ستاً وعشرين، مرّت بين صورته عام 1990 وصورته الآن.

> آي، كلارا، حبيبة قلبي، أهنئكِ على أنّك فتحتِ صفحة على الفيس بوك، وأنتِ المهندسة التي تعيش في عصر ما قبل التاريخ، والمعادية لكلّ المعلوماتيّة. ولكن لماذا اخترتِ أن تبدئي بهذا الوابل من الذكريات، بينما ما يناسب المغتربين هو أن ينسوا؟ (أظنّ أنّ العيش قريباً أيضاً يستدعي النسيان أحياناً) ما أكثر ما مرّ من السنين! وما أشدّ الحنين! وما أقسى صورة آخر ليلة لنا مجتمعين، بينما نعيش الآن شتاتنا! ما الذي جرى لنا؟ ولماذا؟ ومن يتحمّل الذنب؟ وهل ينفع أن نلقي الذنب على أحد؟... قسم هنا وقسم هناك، قسمٌ صعد إلى السماء وقسم ينتظر، وإليسا... أين عساها تكون حبيبتي إليسا؟؟ إليسا، حياتي، ليتك تقرأين هذا بينما تقطفين من دوني الزهور... أعلم أنّك حيّة. أعلم. وأنتِ تعلمين أنّني أعلم، فقد أخبرني بذلك ملاكٌ ساقط. أتريدين أن أصرّح لك بشيء؟ أظنّ أنّي بتُّ مستعداً لأغفر لك كلّ شيء. كلّ شيء. سأتفهم أسبابك، حتى إذا لم أفهمها. هل تعرفين لماذا؟ لأني أحببتك وما زلت. أنت تعرفين ذلك... وأحبّك أيضاً، كلارا. وأنتَ، برناردو، حبيبي، اعتنِ بنفسك، فكلّ شيء سينتهي على ما يرام... حتّى أنتَ، هوراثيو، رغم أنّكَ لم تفكر أن

تتصل بي، لأنّكَ فالصو مثل الورقة النقديّة التي عليها صورة
أليثيا ألونصو![44]

قرأت آديلا التعليق مرتين، فرأت في طياته الكثير من الرموز. ملاك ساقط؟ ماذا تعرف هي عن ملاك ساقط؟... فعاودتها فكرة أنّ إليسا كانت لها حياة أخرى، مليئة بالصداقات والخفايا والأسرار التي تسعى أمّها، وبعد ستة وعشرين عاماً، إلى حجبها عنها والإبقاء عليها طيّ الكتمان. فلماذا حجبتها عنها، ولماذا تواصل السكوتَ عليها؟ كانت أمها وأمّ ماركوس صديقتين حميمتين، وقد التقيا، هو وهي، غير عالمين بتلك الرابطة، وتحابا. أدركت آديلا أنّ العالم، كما اعتاد الكوبيون القول، صغير بحجم منديل. أو هو، كما كانت أمّها تحبّ أن تصفه، مستلهمة مبادئ البوذيين: صغير بحجم منقار الطير. صغير كالمنديل أو كالمنقار، لكنّه يسير بتقدير وقدر، وله أبعادٌ وعواقب.

44- يشير إلى إصدارات تذكارية من العملة الكوبية تحمل صورة راقصة الباليه الكوبية أليثيا ألونصو (1920–2019) بمناسبة الذكرى المئوية لميلادها.

ماذا تُراه رأى؟ هل رأى ما ظنّ أنّه رآه؟ ماركوس لا يريد أن يطيل التفكير. فالتفكير يحرق دمه ويحطّم أعصابه. لقد عاش دائماً لا يلتفت إلّا إلى ما هو قريب، إحساسٌ اكتسبه في طفولته، فليس عليه أن يفكّر بطعامٍ غير الذي سيأكله في يومه، أمّا التفكير في ما سيأكله غداً فوقته غداً. فالتفكير الكثير يعني تعباً للرأس واستهلاكاً للأعصاب. لكنّ قسماً من أركان حياته وأعمدة وجوده تحرّك مع الصورة التي عرضتها أمّه على صفحتها في الفيسبوك.

منذ أن ودّع آديلا ذلك الصباح وهو غير مرتاح، ثمّ تضاعف ضغط الهواجس والشكوك في رأسه طوال النهار. ما عساه رأى؟ لم يستطع أن يركّز في عمله. وعند العصر، ركض ورمى وقفز، أثناء تمارينه مع فريقه، كأنّه يستعد لبطولة، لكنّه لم يكن يبتغي، في الواقع، غير تعذيب جسمه وإرهاق بدنه وإضعاف ذهنه. مرّ بحانة (سانتا وتيتو) ليأخذ عشاء تلك الليلة، وهو بالقميص الذي نتنت رائحته، فلا وقت لديه ولا مزاج. استحمّ وغسل قميصه. وأكل، وشرب علبتين من البيرة. فرّش أسنانه ثمّ فتح التلفزيون، وبدأ يشاهد، بذهن شارد، مباراة في البيسبول. أخرج سيجارة الماريجوانا التي باعه إياها السلفادوري الذي يعمل في ورشة (ناريثون). فقد زال كلّ حظر وكلّ منع. دخنها داخل البيت، وعيناه مسمرتان على شاشة التلفزيون، وقدماه على الطاولة، حيث استقرّت قطعة الخشب التي انتشلتها آديلا من بين أمواج البحر، ذات يوم. كانت قطعة صقيلة، تشبه رأسَ سلحفاة أو قضيباً ضخماً. في تلك اللحظة ازداد شعوره بالفراغ الذي خلّفه غياب فتاته.

أخذ هاتفه وطلب من شخصٍ يؤمن اتصالاتٍ رخيصة مع كوبا أن يوصله برقم أمّه. فأمّنوا له اتصالاً لمدة نصف ساعة، كلّفه ثمانية دولارات.

حين سمع الرنّة التي تعلمه بأن قراصنة الهاتف أمّنوا له الاتصال

المطلوب، تردّد في فتح الخط. فهو يعلم أنّه موشكٌ على الإخلاف بوعده لخطيبته. لكنّه يريد أن يعرف. لا من أجل آديلا، بل من أجله هو.

ذهبت إيقاعات الأسئلة المعتادة الأولى. سأل أمّه عن صحتها، فقالت له إنّها بخير، سوى أنّها ما زالت تشكو ألماً في ركبتها اليمنى... طلبوا منها إيكو، وستذهب لإجرائه إلى مستشفى الكسور القريب، حيث تعمل إحدى زميلات داريّو. وسألها إن كانوا وصفوا لها دواء غير متوفر في كوبا، لكي يبحث لها عنه في (هياليه)، حيث تباع الأدوية، أحياناً، حتّى من دون وصفة طبية، أو لكي يطلبه من أبيه، في برشلونة.

أمّا مَن كان في أسوأ حال فهو برناردو، قالت له أمّه، فسيروم مثبطات الخلايا يسبب له أعراضاً قويّة تبلغ حدّ الالتهاب (العصب والبروستات وسواها)، على الرغم من أنّه ترك الشرب منذ وقتٍ طويل. وهكذا قرّر برناردو ألّا يأخذ المزيد من السيروم، لكنّ كلارا، العالمة بما ينطوي عليه ذلك القرار، لم تكن لتتركه يفعل ما بدا له، فتعهّدت له بالعناية به على خير ما تستطيع، فحالته تسير من سيئ إلى أسوأ.

– ألهذا السبب طلب منه إرفينغ، في ما كتب، أن يعتني بصحته؟ – سألها ماركوس.

– لا أدري –قالت كلارا بحزم–. هو لا يعلم شيئاً عن تدهور وضعه.

– مامي... هل حاله سيئة إلى هذا الحد؟

– يأخذ علاجاً، لا تقلق... أنا لستُ خائفة عليه.

– أعجب لولعكم هذا بالمعميات والألغاز!... سيترك السيروم أم لن يتركه؟... أوكي، أوكي. بلّغيه تحياتي وقبلاتي... وسأبعث لكم بشيء من النقود لتتغذيا جيداً ولتطلبا سيارة تستقلانها إذا لزم الأمر...

– لا تقلق. لا داعي لذلك...

– بلى، مامي. فأنتما تحتاجان ذلك دائماً...

– أوكي... –ثمّ رفعت صوتها: برناردو، ماركوس يبعث لك بقبلاته... برناردو يبعث لك مثلها...، ماذا؟... – توقفت كلارا عن الكلام– يقول

برناردو إذا... إذا رأيتَ أوباما، فاسأله لماذا لم يزرني حين جاء إلى كوبا... آه، ويقول إنّك لم تعلّق على الصورة التي وضعناها في الفيسبوك...

في تلك اللحظة، قرّر ماركوس، وهو بعدُ لا يدري أيعلق على الصورة أم لا، أن يستغلّ الفرصة ليصل إلى معرفة ما أراد معرفته دائماً وتجنبه. حكت له أمّه كيف عثرت على الصورة، عقب أشهر من رحلة إرفينغ وهوراثيو وداريّو ورمسيس لزيارة برناردو المريض، وكانت هي من سأل ماركوس إن كان يذكر اليوم الذي التقطت فيه تلك الصورة.

– أتذكّر أنّ والتر التقط صوراً كثيرة... أم إنّي أتذكر ذلك اعتماداً على قصّتك التي قصصتها عليّ...

– وما قلتَه عن فابيولا؟

– صحيح، صحيح... أنّها كانت في المرحاض!

وضحكت الأم وضحك ولدها.

– أتعلمين، مامي، أنّي رأيتُ في هذه الصورة شيئاً ذكّرني بحادثة لست متأكداً منها، أو أظنّ أنّي لست متأكداً منها. أو نعم...، لا أدري...

– ما هي، ولدي؟

أغمض ماركوس عينيه

– هل برناردو قريب منك؟

– لماذا...؟

– مامي. إصبع إليسا ملفوفة بضماد...

صمتت كلارا

– نعم، لأنّها جرحت إصبعها وهي تقشّر البطاطا، أتذكّر ذلك.

– مامي... وأنتِ وضعتِ لها الضماد؟

– صحيح... أنا وضعته لها.

– في غرفة نومك؟

صمتت كلارا ثانية. وأطالت الصمت.

– لا أذكر ذلك...

ملأ ماركوس رئتيه بالهواء قبل أن يغطس في البئر التي تلحّ عليه، من يومين، إلحاحاً خبيثاً.

– أمّا أنا فأظنّ أنّي أتذكّر. أتذكّر أنّي دخلتُ في الغرفة وكنتما هناك، أنتِ وإليسا، وكنتِ أنتِ تمسكين بيدها... فماذا رأيتُ غير ذلك، مامي؟

– رأيتَ أنّي كنتُ أداوي إليسا. – وصل الردّ في الحال. صمت ماركوس.

– فلماذا أظنّ أنّي رأيتُ شيئاً آخر؟...

– وماذا رأيتَ؟

– بل قولي لي أنتِ... لا تجعليني...

لم يكن الشاب يمتلك الجرأة الكافية ليطلق سؤاله. تأخرت أمّه في الردّ عليه: ردّت عليه، ولكن بصوت منخفض، بنبرة من يتخيّر كلماته وينتقيها، وعندها استنتج الجواب.

– فقد رأيتنا، إذن؟

هزّ ماركوس رأسه عدة مرّات قبل أن يرد.

– ذلك المشهد انمحى من ذاكرتي... ولا أدري لماذا عاد. رأيتكما تقبلان بعضكما بعضاً، مامي. تقبلان بعضكما بعضاً...

كان صمت كلارا من الطول أنّ ماركوس شعر بأنّه كان قاسياً، وأنّه تخطّى حدود الخصوصيّة الحمر.

– رجاءً ماركوس. تلك كانت... لحظة، لا أدري، لحظة ضعف. شيء من تلك الأشياء الغريبة التي تقع لأيّة واحدة... هل تظنّ أنّ بيّ شذوذاً؟

– لا، مامي، لا أظنّ ولا يهمّني، أنتِ أمّي وأنا أحبّك كما أحببتك دائماً... أحبّك أكثر من أيّ شخص في العالم، لكن... بعد ذلك اختفت إليسا. هل تظنين أنّ ما وقع بينكما له علاقة باختفائها؟

أطرقت كلارا

– لماذا تسألني هذا السؤال؟

انتظر الابنُ أيضاً قبل الردّ. فقد ضربت كلارا على وترٍ حسّاس: هل يخالف إرادة آديلا ويكشف لأمّه عن أنّه عثر على إليسا، التي باتت لوريتا، أمّ خطيبته؟

– لسبب لا أستطيع أن أخبرك به الآن... لكنّ ما ستقولينه لي يمكن أن يساعدني على معرفته...

– لا تستطيع أن تخبرني به؟ ولتعرف ماذا؟

– قلتُ لك إنّه شيء أحتاج إلى معرفته! – رفع ماركوس من نبرة صوته.

– ماركوس، ليس لك الحقّ في ذلك...

– عذراً، مامي. أعرف أنّي لا أملك الحق... عذراً، أرجوكِ... لا أريد أن أتدخّل في حياتك الخاصّة، أعرف أنّكِ قلقة بشأن برناردو، وأنتِ هناك، وحدكِ معه... لكنّي أريد أن تخبريني إن كان لما حدث بينك وبين إليسا صلة باختفائها...؟ وبموت والتر؟

والتزمت كلارا الصمت من جديد، في ذلك الحوار المتقطع المؤلم. تسلّح ماركوس بالصبر وانتظر جواب أمّه.

– دعكَ من والتر... فلا علاقة لهذا بهذا... اسمع، ماركوس. إليسا كانت شخصيّة بالغة التعقيد... ووراءها مشاكل كثيرة...

– الحمل، مثلاً.

– حملٌ معقّد... برناردو لا يخلّف، لا يستطيع و...

– هل أنتِ متأكّدة مئة بالمئة من أنّها لم تحمل من برناردو؟

– مئة بالمئة لا... وهو أيضاً غير متأكد...

– وهل كان برناردو يعلم أنّ الحمل ليس منه؟ هل كنتم تعلمون أنّه لا يخلّف؟

شعر ماركوس بأنّه يخوض في ميدانٍ يزداد غموضاً، حيث قطع اللعب في غير موضعها، وحيث لا وجود لحركات منطقية وقانونيّة.

– أراد في البداية أن يصدّق أنّ الحمل منه –قالت كلارا–. كان يصرّح بذلك... قال لي مرّة إنّه واثق من أنه والد الجنين.

– وإليسا؟ ماذا كانت تقول؟... بسبب علاقتكما...

– لم تكن بيننا أيّة علاقة! –احتجّت كلارا–. حدث ذلك مرّة... لم نكن غير صديقتين. ليس أكثر...

– أوكي. أوكي... وهي، ألم تحكِ لكِ شيئاً؟

– قالت لي إنّ حملها هدية من الربّ. معجزة... قالت ذلك للجميع... وهو ما يقوله إرفينغ أيضاً، وهو الذي يعلم كلّ شيء عن كلّ واحد منّا.

ودّ ماركوس لو أنّ لديه سيجارة ماريجوانا أخرى. أو على الأقل سيجارة من تبغٍ أسود. كان الفضول يأكله. لكنّه لم يكن يستطيع كبح جماح نفسه.

– وهل خطر ببال أحدكم أنّ والتر انتحر لسبب ذي صلة بإليسا أو شيء من هذا القبيل؟...

– خطر ذلك ببالنا... خصوصاً بعد أن اعتقلوا إرفينغ، لأنّهم ظنّوا أنّ له صلة بالحادث.

– نعم، أذكر ذلك... وماذا جرى؟

– أوقفوا إرفينغ عدة أيّام، ثمّ أطلقوا سراحه، بعد أن وجدوا أن لا صلة له بانتحار والتر... موضوع والتر كان انتحاراً. شيء غريب، لكنّه انتحر... ثمّ وقع حادث اختفاء إليسا.

– وهل هناك من فكّر في أنّ إليسا...، لا أدري... متورطة في ذلك الانتحار؟

– لا أفهمك، يا بنيّ. متورطة في الانتحار؟... لا صلة لإليسا بانتحار والتر. لا إليسا ولا سواها. والتر كان نصفَ مجنون...

– حسناً... أعرف أنّكم لم تعرفوا شيئاً بعد ذلك عن موضوع إليسا، أليس كذلك؟

– لا. لم نسمع شيئاً عنها. أنا على الأقل...

– إن كانت حيّة، أم ميتة، أم متوارية عن الأنظار؟

– لا... لا شيء.

أحسّ ماركوس بشيء من الارتياح.

– إرفينغ يقول إنّها على قيد الحياة، في مكان ما... فماذا ترين؟ لا تحدثيني عمّا قلتموه حينها أو ما سمعتُه أنا منكم وأنتم تتكلمون عن الموضوع... قولي لي ما تعتقدين حقاً... قولي لي الحقيقة، أرجوكِ... لا أريد أن أعرف عن طريق إرفينغ أو هوراثيو... ولا عن طريق أبي، بالطبع...

تنهّدت كلارا بصوت مسموع.

- لا. لا تكلّم داريّو بذلك، رجاءً... لا تكلّم أحداً.

- بالطبع لا، مامي. لا تقلقي... هذا شيء بيني وبينك.

- طيب، إليسا اعترفت لبرناردو بأنّ حملها ليس منه... قالت له أمام داريّو وأمامي، ثمّ أخبر برناردو الجميع بذلك... لكنّ إليسا لم تقل يوماً ممّن حملت.

- عجباً! -هتف ماركوس-... ومن هو الوالد في رأيك؟ في من تشكّون، أنتِ أو إرفينغ أو أبي؟ وماذا يقول برناردو؟

- يا ولدي!

- مامي...

- نظنّ أنّه هوراثيو... أو والتر. أو آخر...

تأخر ماركوس لحظاتٍ ليهضم المعلومة. من تكون إليسا هذه؟ هل هي شيطان؟

- ما أغرب هذا! -كان ذلك كلّ ما استطاع النطق به-. من أيّ واحد من الاثنين أو من لا أحد منهما؟

- نعم. حسناً. هوراثيو... هوراثيو قال لإرفينغ إنّه عاشرها، لكنّه لا يمكن أن يكون من سبّب لها الحمل...

- ماذا تقولين، مامي؟

- ماركيتوس. أنا متأكدّة، لا أدري لماذا، لكنّي متأكدة من أنّ إليسا حيّة في مكان ما. منذ ستة وعشرين عاماً وأنا أحمل هذه الفكرة هنا... هنا في مخّي. هل تدري لماذا؟... إرفينغ قال إنّها على قيد الحياة لأنّه يظنّ أنّه رآها، ذات مرّة، في مدريد، لكنّ إرفينغ قضى عمره وهو يرى أشباحاً... لكنّه لم يستطع الحديث معها... ما أريده منك، ولدي، هو أن تقول لي، حين تستطيع، ما لا تريد الآن أن تقوله لي. هل تعلم إن كانت إليسا حيّة أم ميّتة؟

كرّست آديلا شطراً من الليل لتبحث وتنقّب في الكوخ الذي سكنته لوريتا فتزبيرغ طوال أكثر من عشر سنوات. لكنّها لا تعرف بماذا حشت حقيبتها، مع ذلك فقد رأت في قلة ما وجدته من متعلقات شخصيّة دلالة ومعنى. فهي لم تترك في المكان غير الصليب الخشبي. بدا لها الكوخ، الذي عرفته من قبلُ وسكنت فيه، مكان إقامة عابرة. لم تجد على رف الكتب غير مجلدات عن البيطرة، جاءت بها لوريتا من نيويورك، ومجلات ومنشورات عن البيئة، وكتيبات رخيصة عن اليوغا والبوذيّة. ما من رواية، مع أنّها تذكر أنّ أمّها كانت تقرأ رواياتٍ لكتابها المفضلين من مثل فيليپ روث وپول أوستر وجون فانتي وإلمور ليونارد. بالقرب من الخزانة جزمتان قديمتان، وفي داخل الخزانة غياراتٌ قليلة من ملابس العمل، وزوجٌ من الفساتين الرسمية، قديمة في موضتها، اشترتها من حوانيت «جيش الخلاص» للملابس المستعملة، ولطالما كانت معجبة بها. لا ملابس داخليّة ولا عطور ولا كريمات ولا زينة نسائية في أماكنها التي تعرفها. وتعلم آديلا أنّ أمّها لم تهتمّ يوماً بزينة ولا بحلي، وإن كانت تمتلك بعضها، وقد رأتها، وهي بعدُ صغيرة، تضع كريماً مرطباً لليدين والذراعين، لأنّ بشرتها كانت تتحسس من القفّازات والغسيل الدائم، بسبب تعاملها المباشر مع الحيوانات، فضلاً عن صبغ للشعر، وطوق من الفضّة، له حلقات منقوشة، كان هديّة جاء لها به برونو فتزبيرغ من الأرجنتين، حين زارت آديلا وأبوها ذلك البلد الجنوبي.

في المطبخ، القليل من الأدوات والقليل من المواد: قهوة. زهورات. كيس من حبوب الكينوا وعلبتان من الفاصوليا المطبوخة المكسيكيّة المنتهية الصلاحيّة. في زياراتها السابقة، كانت لوريتا تأخذ ابنتها إلى (غيغ هاربر) أو إلى (تاكوما)، لتناول العشاء، أمّا الغداء فكانتا تتناولان، مع بقيّة العمّال،

الأطباق التي تعدّها مس ميلر وميكيلا، العاملة اليونانيّة والطباخة الماهرة، ذات الطبع الحاد. في الدروج، شراشف ومناشف وبطانيات ولحف، طويت جيداً، وبدا أنّها لم تمسّ منذ وقت طويل.

في الكوخ ما من تلفزيون ولا راديو، وتعلمُ آديلا أنّ ذلك جزءٌ من رغبة لوريا في الابتعاد عن العالم، منذ أن تركت نيويورك. ولكن، ألم تكلمها أمّها مرّة عن مسلسلة ذي *واير*؟ وبدا لآديلا أنّ لوريتا أخذت معها حاسوبها المحمول، ومن المؤكّد أنّها أخذت معها بقيّة مقتنياتها المهمّة، التي قدّرت خطورتها ودلالتها، فكّرت الشابّة: الوثائق الشخصيّة والصور والرسائل وعدّة الزينة والنظافة والأدوية وجوازات السفر التي رآها ريك. وربّما ألقت بذلك كلّه في البحر، لتبدأ، من دون أعباء تجرّها ولا أثقال تنوء بحملها، رحلتها الجديدة التي طالما تكلمت عنها، والمغامرة التي قالت إنّها مستعدة لخوضها، تلك الولادة الجديدة التي كانت تحاول بلوغها منذ أن تقرّبت من البوذيّة، تذكّرت البنت. هل هي رحلة روحيّة؟ عمّ تبحث؟ ماذا تنشد؟ أن تشعر خفيفة، طليقة، محرّرة من كلّ قيد، من كلّ ماضٍ وجذر. كانت كلمات حريّة وfreedom شائعة في قاموسها. وهل تحتاج في رحلتها تلك إلى جواز السفر؟ هل في مقدورها أن تعود مثل أسماك السلمون إلى منشئها وإن كلّفتها تلك العودة حياتها؟

هرِمة مُختالة، جاذبة طاردة، ودودة عنيدة، غريبة قريبة. هكذا بدت لها هاڤانا. كلّ ذلك مجتمعاً. بدت لها مكاناً فيه كلّ المكوّنات اللازمة لتلبية الكثير من تطلّعاتها، ولملء روحها، في الوقت نفسه، همّاً وأسئلة. كان ذلك ما انتظرت أن تجده، وكان ذلك، أيضاً، عكسَ ما تصوّرت وجوده، طوال سنوات. كانت تفهم كلّ كلمةٍ من كلمات رسائلها إليها، لكنّها لم تكن تفهم الكثير من العبارات. الناس الذين رأتهم في الشوارع، الأشخاص الذين تعرّفت عليهم في الجامعة، البشر الذين قاموا لها بالواجب في بيت الضيافة الذي استأجره الأستاذ الذي نظّم الرحلة، كلّ هؤلاء بدوا لها قريبين وغريبين، معروفين تقريباً أو خياليين تماماً، كائنات بشريّة اعتياديّة أو فضائية محتملة. لم تعرف قط من كان يكذب ومن كان يصدق. ولم تعرف، بالطبع، لماذا يكذبون ولماذا يصدقون. مع ذلك، فقد تولّدت في داخلها قناعة بأنّ جنسيتها الأمريكيّة لا تشكّل وصمة في بلد تعاملت معه حكومة بلدها بعدوانية واضحة منكرة، من وجهة نظرها. هل من المعقول ألّا يكرهها أحد في تلك الأرض المنحوسة التي اعتادت أمّها أن تحكي عنها؟

يمكن لمن عاش أعوام عمرها السبعة عشر الأولى في مدينة كبيرة كنيويورك، أن ينظر إلى هاڤانا المليئة بالمتناقضات، على أنّها مدينة ذات سلوك فريد، لكنّه مفهوم. لكنّ الواقع الذي لمسته أو ظنّت أنّها لمسته، هناك عام 2010، مشفوعاً بأحكام مسبقة وصور نمطيّة تدعم وتدين، وقراءاتٍ أدبيّة، ومحاضراتٍ أكاديميّة وخرافاتٍ حضريّة، أظهر لها مشهداً عاماً فيه من الخصوصيّة أنّه بدا عصيّاً على محاولاتها لفك شفراته. لقد بدت لها بقعة تعيش في موازاة بقاع الأرض، وكوكباً لا يمكن فهمه إلا بالعيش فيه – على

الرغم من أنّها، حين حدّثت ماركوس عن تلك التجربة، بعد ذلك بأعوام، أعرب لها عن شكّه حتّى في تلك الإمكانيّة.

كان أحد أساتذة الدراسات الكوبيّة في جامعة فلوريدا الدوليّة قد خطط للقيام بتلك الرحلة الأكاديميّة، التي انضمّ إليها عشرون طالباً من اختصاص العلوم الإنسانيّة الذي تدرسه آديلا. لم تبلّغ الفتاة أمّها بقرارِها إلّا بعد أن أتمّوا ترتيب برنامج الزيارة وحصلوا على تأشيرات الدخول وتذاكر السفر. ثمّ أبلغتها وهي تتوقّع منها ردّة فعل عنيفة. لكنّ لوريتا فاجأت ابنتها، ربّما بتأثير من أجواء مزرعة الخيول المسترخية والتقرّب من البوذيّة وبلوغها الخمسين، حين سألتها همساً عمّا ستفعله في كوبا... حسناً، كوسي، بما أنّكَ عزمتِ على السفر... فاستمتعي. ولم تدرِ آديلا بماذا تجيب: فهل ما تحاوله التعرّفُ على ماضٍ مجهول سرقته أمّها منها؟ هل هو إشباع لفضول فكري وإنساني؟ هل هو للعثور على شيء يخصّها تريد أن تكتشفه بنفسها؟

كانت لوريتا قد أوضحت لها أنّها لا تعرف شيئاً عن عائلتها، من سنوات، هذا على افتراض أنّهم ما زالوا على قيد الحياة ويعيشون في كوبا، وذكّرتها بأنّ أسرتها الصغيرة لم يبق منها أحد: فوالداها –جدّا آديلا الكوبيان الشبحان– ماتا في حادث طريق، حين كانت لوريتا في الجامعة، ومات جدّاها لأمّها، اللذان كفلاها، من أكثر من عشرين سنة، بعد خروجها من الجزيرة بقليل، وكانت تلك آخر صلة شخصيّة لها بمسقط رأسها، كررت عليها القول. أمّا بيت جدّيها المتوفين فقد استولت عليه الدولة لغياب الوارثين، وقد علمت أنّهم حوّلوه إلى مكاتبَ عبثت بالبيت، كما يحدث دائماً، ونبشته نبشاً. وكلمتها عن مركز دراستها المتوسطة ثانويّة (البيدادو)، ومكانها المفضّل، كافتريا اسمها (الكاراميل)، لكنّها لم تكن متأكّدة من أنّها تريد أن تجلب لها ابنتها صوراً لهما لترى حالهما بعد عشرين سنة. لقد أبلغتها، في أكثر من مناسبة، أنّ البلد الذي في خيالها هو أفضل من الذي ستراه، ونبّهتها إلى أن تتجنّب المقارنات. وبهذا التنبيه أغلقت الموضوع.

وحين سألها ماركوس، عقب سنوات، عن التجربة التي عاشتها في كوبا، ضحكت آديلا وهي تعدّ الأماكن والمعلومات التي يمكن أن تظهر في أيّ دليل سياحي: مدينة (ترينيداد) الكولونياليّة، كوكتيل الدايكيري في حانة

(فلوريديتا)، تلال (پينار دل ريّو) ومزارع التبغ فيها، منزل همنغواي، مركز هاڤانا القديم المتهالك وجمال (البيدادو)، الحي الذي عاشت فيه لوريتا ودرست، كما هي حال كلارا، أمّ ماركوس. ثمّ إنّ آديلا كلمته عن أنّ جميع الكوبيين الذين تعرفت عليهم، ممّن تقلّ أعمارهم عن تسعين عاماً، حاولوا معها، وهو ما بدا لماركوس منطقياً. أنتِ لذيذة، وأجنبيّة، حبيبتي، قال لها.

مع ذلك، فقد أجرت آديلا تحرّياتٍ أخرى وحظيت بلقاءاتٍ أخرى، أبانت لها عن معلومات أثارت قلقها، لأنّها لم تكن قادرة على أن تحدد أبعادها الحقيقيّة. فقد لمست مقدار الصعوبة للعثور على معلومات في بلد يدير ظهره تماماً تقريباً للعالم الرقمي، حيث يتحوّل كلّ شيء (حتى قراءة بعض الصحف في بعض المكتبات العامة القديمة) إلى سرّ من أسرار الدولة. استطاعت، مع ذلك، وبفضل جهود الأستاذ المرافق، الاطلاع على بعض سجلات وزارة التعليم العالي، حيث تأكّد لها صدقُ كلام أمّها في ما يتعلّق بالفوضى التي تعمّ كلّ ركن من أركان الجزيرة: لم تجد، في قوائم خريجي كليّة الطب البيطري في جامعة هاڤانا لعام *1982*، اسم لوريتا آغيرّي بوديس. هل يعقل أن يبلغ الإهمال والتقصير هذا الحد؟ ربّما نعم، قال لها أستاذها المرافق. أم إنّهم سحبوا الشهادة منها لأنّها هربت؟ في كوبا كلّ شيء جائز، قال لها ماركوس في ما بعد، ولتأكيد استنتاجها، روى لها كيف تبخّر لاعبه المفضّل الدوكي إرنانِدث مدنياً ورياضياً. في النظام الاشتراكيّ -ختم الشاب كلامه- لا تعرفين الماضي الذي ينتظرك.

طوالَ أشهر كثيرة، تحركت التجاربُ التي عاشتها أثناء إقامتها الكوبيّة، ومعها غيابُ الإشارات إلى حياة أمّها هناك، كالتوربين في رأسها. لكنّ كثرة الأحكام الشائعة والخيوط الضائعة أعانتها على أن يبدو إخفاقها في العثور على ما يكشف لها عن أصل أمّها البعيد، ومعه شيء من أصلها هي، كأنه خيبة أخرى من خيبات أملٍ كثيرة سواها.

مع ذلك، فإن عجز آديلا عن فهم التركيبة الكوبيّة وعن فهم نفسها، منحها دفعة أخيرة: فلدى عودتها من الجزيرة، اتخذت الفتاة قراراً يتجاوز إتمام دراستها الجامعية الأوليّة. لقد قرّرت أن تحصل على الدكتوراه وتتخصّص في معرفة سياقٍ وتحاول فتحَ شقوقٍ تدخل من خلالها في ذلك العالم

الموازي الذي ينتمي إليه جزءٌ منها. فبدراسة أصول البلد، ربّما ستفهم أصولها.

لعلّ ما عانته آديلا من مشاعر مربكة، واندفاعها لاتخاذ قرارات حاسمة، هو ما جعلها لا تقلق لغياب اسم لوريتا من سجل الخريجين، وعجزها عن تحديد مكان لها في البلد، وإن فكّرت، في ما بعد، أنّ الأمر كان جديراً بقلقها. لن تقوّم آديلا قوّة اندفاعها وضعفَ قدرتها على ملاحظة ازدواجية البشر إلّا حين تظهر الحقيقة ويسطع نورُها. ذلك النور الذي باتت تعيش تحته، والذي ما كانت إضاءته الساخنة تسمح لها إلّا برؤية وجوهٍ فقدت ملامحها وقسماتها.

ترشح الموسيقى العذبة، والجُمل ذات النبرات الطويلة والمؤثرة، من بين جدران المعبد الخشبيّة حتّى تبلغ الباب. شاك المستنير وتلامذته منغمسون في تأملاتهم، في كنيسة (هونغوانجي) البوذيّة في (تاكوما)، حيث تلتقي أكبر *سانغا* بوذيّة في المدينة. رحّبت المرأة التي جلست عند مدخل الكنيسة، بين بوابة وبين موظفة استقبال، بآديلا. وجهٌ رائق مطمئن، لا ينبئ عن سنّ ولا سنين. ثمّ بيّنت لها أنّ في مقدورها، إن أرادت التأمّل، أن تدخل إلى الصالة، على الرحب والسعة، ومن دون أن تدفع رسوم الدخول. فسلام الروح والطاقة الإيجابيّة موفوران، وفي متناول الجميع، أضافت. فردّت عليها آديلا بأنّها جاءت لرؤية السيد شاك والحديث معه، وأنّها تفضّل الانتظار عند الباب. وسألت إن كان في مقدورها أن تدخّن، إن لم يكن هناك ما يزعج، فردّت عليها المرأة البوذيّة بأنّ هناك ما يزعج، فعدلت الفتاة عن الفكرة.

وسألت آديلا نفسها إن كانت اللحظة مناسبة للاتصال ببرونو فتزبيرغ، الرجل الذي كشفت الأدلّة الجديدة عن أنّه ليس أباها البايولوجي. فكم يعرف برونو، وكم لا يعرف؟ فقد كانت آديلا لا تعلّق أملاً كبيراً على أن يستطيع ذلك المستنير، أو «مرشد الطريق»، أن يرشدها إلى الطريق الذي سلكته أمّها.

عقب ساعة من الانتظار، انتهى أعضاء *السانغا* من جلسة التأمّل وبدأوا يخرجون من المعبد. كان عدد النساء يفوق عدد الرجال، وكانوا جميعهم يتجاوزون الأربعين من العمر، بل قد يبلغ بعضهم الثمانين: ناسٌ خبروا الحياة ثمّ اكتشفوا أنّهم يحتاجون إلى علاقة أفضل مع عالمهم ويرغبون في ترميم حياة لا يرتضونها. شعرت آديلا بأنّها تغبطهم لما رأته على

وجوههم المسترخية من طمأنينة وشحنت به نفوسهم من طاقة إيجابيّة. كانت وجوه محظوظين، وجدوا الطريق الصحيح واكتشفوا (أو أنّهم في طريقهم لاكتشاف) أن لا حقيقة نبيلة واحدة، بل أربع حقائق نبيلة، قادرة على أن تخفف عنهم وتريحهم، وتريح الكون، الذي تمسّ حاجته للحقائق والترميمات والطاقات المتجددة. انتظرت حتى أبلغتها المرأة ذات الوجه الرائق المطمئن بأنّ في إمكانها الدخول، لأنّ المستنير في انتظارها.

دخلت آديلا إلى صالة طليت جدرانها بالأبيض، وغطّت أرضيّتها سجادة خضراء تشبه العشب الإنكليزيّ. في أحد الأركان، وضع تمثال برونزي اللون، طوله متر ونصف المتر، يمثّل بوذا وهو في وضعيّة التأمّل. رأت كراسيّ مطوية ومركونة عند الحائط، ربّما ليجلس عليها المتأملون الذين يصعب عليهم الجلوس بوضعيّة اللوتس. على طاولة فرشت بملاءة بيضاء، وضع إبريق القهوة وصينيتان فيهما بسكوت. وشاعت في الأجواء رائحة طيبة، وإن لم ترَ ثمّة مجمرة ولا مبخرة. في مؤخرة الصالة، جلس الرجلُ أمام شبّاكٍ غطّته ستارة يتسلل منها ضوء خافت. كان رداؤه البرتقالي ورأسه الحليق، الذي له شكل المصباح، يضفيان عليه مظهرَ المتوهّج، أكثر من صورة المستنير. خلعت آديلا حذاءها وتقدّمت من مرشد الطريق، وحين باتت قريبة منه، استطاعت أن تكوّن صورة واضحة عن مظهره: رجل أبيض البشرة، يناهز الخمسين، منتظم التقاطيع، وإن ظهرت على الجانب الأيمن من وجهه ندبة غامقة تمتدّ من صدغه حتّى فكّه.

– مساء الخير وعذراً عن الإزعاج – قالت، حين اقتربت منه.

– *أوم شانتي* [السلام] –حيّاها ودعاها إلى الجلوس قبالته، على الأرضيّة المفروشة–. ما من إزعاج... أم إنّك تفضّلين الجلوس على كرسي.

لم تتردد آديلا، بل جلست على الأرض محاولة تقليد مضيفها في جلسته.

– جئت لأنّي أحاول العثور على مكان أمّي... هي من أتباعك.

– لوريتا – قال المعلّم.

أومأت آديلا موافقة.

– أنا أسكن في فلوريدا وجئت لأزورها. قيل لي إنّها أخذت إجازة قبل

ثلاثة أيّام ولا أحد يعلم بالوجهة التي اتخذتها... ربّما حضرتك... علمتُ أنّكما قريبان بعضكما من بعض. كانت تكلّمني عن رغبتها في السفر إلى اليابان أو التبت أو، أظن، إلى ألاسكا.

ابتسم المستنير، فانكمشت الندبة التي على وجهه وكشفت عن أسنان مكتملة العدد.

– فعلاً. كانت تريد السفر إلى اليابان... إلى كيوتو، لزيارة معبد الألف إله في (سانخوسانجن – دو)... أعجوبة من أعاجيب الإيمان والعبقريّة البشريّة... لوريتا امرأة قويّة الشخصيّة. لطالما تكلمنا... عن فلسفتنا. كانت شديدة الرغبة في التعلّم.... في التغلّب على الجهل. أتعلمين؟

– آسفة، لا أعرف الكثير عن البوذيّة. هي تتكلّم عن التحرّر...، عن رحلات روحيّة... ألم تخبرك عن سبب رحيلها أو عن وجهتها؟

ابتسم الرجل من جديد.

– لا. جاءت لتقول لي إنّها راحلة فحسب. لم أسألها عن وجهتها أو إن كانت ستعود. لم أرَ أنّ من حقي أن أسألها، فلكلّ خصوصياته... لكنّي أستطيع أن أقول لك إنّ لوريتا اعترفت لي، عدة مرّات، برغبتها في أن تبدأ حياة جديدة. لم تكلمني عن ولادة بوذيّة جديدة، بل كانت تكلمني عن هذه الحياة، عن تغيير في هذه الحياة... وقد ينطوي هذا على قرارٍ بالرحيل. إلى اليابان، إلى التبت. أو إلى سياتل، قريباً من هنا. أو بالبقاء والامتناع عن الحركة...

– ألم تكن مرتاحة في *ذي سي بريز*؟

– بلى... كانت تقول إنّها وجدت هناك خير مكانٍ يمنحها التوازن في العالم... لكنّها لم تكن مرتاحة في داخلها، مع نفسها. ثمّ جاء مرضُ الحصان وموته...

– رينغو

– رينغو –أومأ الرجل–. تكلمنا عن الموضوع بالهاتف. عدّة مرات. كان ذلك قاسياً عليها... المعاناة قاسية دائماً.

– وهل حكتْ لكَ عن حياتها الماضية؟ ففي حياتها تلك أمرٌ خطير يخصّني ويخصّها.

مرّر المعلّم راحتي يديه على فخذيه حتى بلغ بهما ركبتيه. وكرر حركته تلك عدة مرات قبل أن يتكلّم.

- شيء خطير؟

- نعم. بالنسبة إليّ... وإليها أيضاً، على ما أظنّ.

عاود الرجل دعكَ فخذيه.

- لا أرى أنّي أخون ثقة لوريتا ولا أنتهك خصوصياتها. أنتِ ابنتها و... لوريتا حكت لي، مرّة، أنّها واثقة من أنّها عاشت تجسيدات أخرى. هناك أدعياء دجالون كثيرون يكلمونك عن هذا النوع من التجارب، لكنّ هناك أشخاصاً آخرين متميّزين، مؤهلين لهذا النوع من الإدراك... هل كذبتْ عليّ؟ لا. لا أظنّ... أو ربّما كذبتْ وأتقنت الكذبة... -توقف الرجل-. هي تعتقد أنّها، في واحدة من تلك الحيوات، كانت على صلة بموت شخصٍ ما... حكت لي أنّها أمضت سنواتها الثلاثين الأولى، لكنّ كارما شريرة، هي من صنعها جزئياً، جعلتها تدفع الثمن بأن بدأت حياة جديدة...، هذه التي تحياها.

- موت شخص؟... هل كانت تتكلّم عن كوبا؟ - أرادت آديلا أن تحدّد المعلومة. في الحيوات الواقعيّة أو الوهميّة التي عاشتها لوريتا، بين حقائق ممكنة وتصوّرات مفترضة، كانت تطفو تلك المعلومة المقلقة، المتصلة، ربّما، بما كانت الفتاة تعرفه وتكتشفه في حياة أمّها. فهل تهربُ بسبب فعل مبرم، لا رجوع عنه ولا تراجع، من مثل التسبب في قتل شخص؟ ألم ينتحر؟ ولكن، لماذا؟ وهل لكلّ ذلك صلة بقطيعتها مع كوبا وقطعها لأيّة صلة بماضيها؟ أين الصدق وأين الكذب في ما ترويه لوريتا عن «حيواتها» الأخرى؟ إنّ آديلا لتشعر بالعجز عن تحديد أيّ شيء.

- لم تقل لي غير أنّها جاءت من كوبا وأنّها تفضل ألّا تتكلّم عن بلدها. فالكلام عن كوبا يؤلمها. وأنّها دفنته... أقصد دفنت بلدها... ومع بلدها، ماضيها. وذلك يمكن أن يكون موقفاً حكيماً. حكمة بوذا العظمى هي أنّ السبيل الوحيد للتحرر من المعاناة هو التحرر من الرغبة؛ أمّا السبيل إلى بلوغ ذلك فهو تمرين العقل على أن يتقبّل الواقع ويعيشه كما هو. أعرف

أنّ ذلك ليس سهلاً... إحدى أهمّ حالات النسيان التي أشار إليها بوذا هي نسيان الماضي: ألّا تعود لتعيش الماضي، لأنّك عشته وانتهيت منه، بخيره وشره، ولأنّه مضى وانقضى وما عدتَ قادراً على فعل شيء. وألّا تحاول، أيضاً، أن تخطط للمستقبل...، فالمستقبل يعني أنّه ما زال بظهر الغيب، ومحاولة استشرافه ستكون مصدر قلق، والقلق يولّد معاناة. لذلك شجّعتُ لوريتا على سلوك هذا الطريق، شجعتها على أن تبدأ رحلتها الروحيّة... كانت تسألني دائماً إن كان ما يؤذيها هي الذكريات أم الحنين أم الشعور بالذنب. أم الخوف. وتلك مسألة، لأنّ الكوبيين اعتادوا الخوف والِفوه... -توقّف المعلّم وانتظرتْ آديلا-. سألتُها مرّة عن ذلك، فالتأمل يساعدنا على التخلّص من كلّ تلك الأثقال... قالت لي إنّها ما زالت تنوء بحملها، وتريد أن تتحرّر منه، وإنّها ما كانت تجد من طريقة لذلك، قبل اكتشاف تعاليم بوذا، غير الرفض والامتناع، والعنف، أحياناً...

أومأت آديلا برأسها

- لا أظنّ أنّ بوذا استطاع أن يساعدها كثيراً.

ابتسم المستنير.

- أمّا أنا فأظنّ أنّه ساعدها... حين أفكّر في الأمر، أرى أنّ موقفها ناتج، ربّما، عن ردّة فعل نحو المنفى... في كلّ المنافي عنصر صادم. الكثيرون يرون في الخروج من بلادهم والوصول إلى بلاد أخرى خروجاً من الحياة إلى أخرى مختلفة، بدأوها وعليهم أن يتعلّموا بناءها من البداية، وقد يكون هذا مصدر كثيرٍ من المشاكل النفسيّة والذهنيّة... هل تتصورين أنّي شككتُ أحياناً في أنّ لورينا جاءت من كوبا...

- لماذا؟

- عشتُ في فلوريدا وأعرف شيئاً عن الكوبيين. في حياتي الأخرى... -قال، وأشار إلى الندبة التي تقطع طارف وجهه-. أمّك لا تشبههم.

- لأنّ هناك أنواعاً كثيرة من الكوبيين... ألم تكلّمكَ عنّي؟

- عنكِ...، قالت لي إنّها تحبّك كثيراً...

- ثمّ ماذا؟

– وتخاف عليك كثيراً... لكنّ لوريتا كانت تحدثني عن مشاعر، من دون قصص، لذلك لا أعرف سبب خوفها عليك... كما لم تكلمني عن علاقتها بموت شخص... لقد حكيتُ لك، التأمّل يساعدها على تحسين مشاعرها. التأمّل مفيد لتغيير توجّه طاقاتنا، وكنتُ مسروراً لمدّ يد العون لها. أعتقد أنّ أمّك تسعى إلى التغلّب على جهلها، وإن لم تكن تطمح إلى بلوغ الحكمة. ربّما فقدت الطموح. لكنّها تبحث عن التحرّر. العثور على ذروة الحاضر وكماله. وتحلم بتلك الرحلة الروحيّة...

هزّت آديلا رأسها بإلحاح أشدّ. يبدو أنّ الصورة التي رسمتها أمّها لنفسها وقدمتها إلى ذلك الرجل، الذي تثق به وتستلسم إليه روحياً، هي صورتها الشائعة المألوفة. على الأقلّ، إلى الحد الذي تظنّ آديلا أنّها تعرفها. فقد سمعتها تقول، أكثر من مرّة، إنّ الشيء الوحيد الذي لا تندم عليه هو كونها أمّاً: أمّا البقيّة، فتتمنّى لو استطاعت تغييرها. بل لقد اعتادت أن تقول إنّها، هي نفسها، ثمرة خطأ فادح. ولطالما ردّدت كلمة الحرية، *freedom*. فهل اختارت المنفى من أجل ذلك؟

– علاقتي مع أمّي معقدة... وأظنّ أنّكَ عرفتها خيراً منّي... إذن؟ ما من خيط؟

– آسف، يا فتاتي، لا أملك أيّ خيط يقودك إلى مسعاك... فقد حدّثتك كثيراً، وسمعتِ جيداً كلّ ما قلتُه لك.

عادت آديلا لتومئ برأسها موافقة. فكم يعرفُ ذلك الرجل وكم يتكتم؟ فكلّ ما أبداه من حجج وأفكارٍ وحكم بدا لها درعاً يرفعه في وجهها للتملّص من أسئلتها. وترددت في أن تطرح سؤالاً بدأ يقلقها:

– وهل ترى حضرتك أنّ الولادة البوذيّة الثانية، ومن أجل بلوغ واحدة من حيواتها الأخرى، قد... لا أدري... هل تعتقد أنّ لوريتا قد تفكّر في الانتحار؟

عاود المستنير الابتسام. قدّرتْ آديلا أنّ ابتسامته صادقة، فشعرت بالارتياح.

– أرى أنّك لا تعرفين أمّك إلّا قليلاً. فلو كنتُ مكانكِ لما طرحتُ هذا

السؤال. لا عن لوريتا. هي ترى نفسها ناجية، باقية على قيد الحياة. ولئن جرجرت وراءها جهلاً وحزناً وخطأً... أو أخطاء... فستحملها حتى النهاية، أو حتى التخلص منها. لا أرى أنّ لوريتا فتزبيرغ تفكّر في نهايتها الماديّة الجسديّة. ربّما تفكّر في نهايات أخرى، ولكن، ليس في ما تسألينني عنه.

فكّرت آديلا في كلمات «مرشد الطريق».

– وهل تظنّ أنّها عادت إلى كوبا؟ – قالت، بعد أن خطر ذلك الاحتمال فجأة ببالها.

– ممكن: كلّ شيء ممكن.

– وماذا لو أنّها أرادت الهروب من نفسها؟ وماذا لو أنّها أمضت حياتها هاربة؟ ألم تتعب من طول ما هربت من دون أن تتحرر؟ فرُبّ ملاحقات لا مهرب منها!!

– أعود وأكرّر: كلّ شيء ممكن –قال الرجل ذو الندبة والرداء البرتقالي، وعاد يفرك فخذيه قبل أن يضيف–: مهما سرتِ ومهما ابتعدتِ، فجحيمك سيرافقكِ. يمكنك أن تتخلّصي من أحمالك، أن تحظي بحياة أفضل، في مكان أفضل، أن تتجنّبي الطاقات السلبيّة. سراط بوذا سراط مستقيم. البعض يؤمنون بالرب وبالسماء، ويؤمن آخرون بمجتمع المساواة... لكنّ أمام الجميع عقاباً وذنوباً لا تمّحي، ويمكنك، إن أردتِ، أن تتعايشي معها. هذا ما قلته للوريتا في المرّة الأولى التي دار الكلام بيننا...

عادت آديلا إلى المزرعة بلا إجاباتٍ على الكثير من أسئلتها، أو ربّما عادت بكلّ الأجوبة، فكّرتْ. عادت وعبارات المستنير ترنّ في أذنيها. لكنّها عادت أيضاً باستنتاج مفاده أنّ المستنير يعلم أكثر ممّا قال. فيا له من مراوغ!

كان الوقتُ ما زال وقتَ عمل، لكنّها ركنت سيارة الجيب التي اكترتها، دون أن يراها أحد. تذكّرت أنّها همّت، قبل ساعات، أن تدخّن سيجارة. فبحثت عن طريق الغابة الذي يؤدي إلى بوغاز البحر. كان المدّ في أدنى درجاته، وكانت النوارس منهمكة بالبحث عن صيدها من سمك ومحار. نظرت آديلا إلى السماء، الصافية دائماً، فرأت نسرينِ يفردان أجنحتهما ويبحثان عن السلمون الجانح على الشاطئ. ورأت، وهي تدخّن، والأفكار

تملأ رأسها، أنّ الوقت ليس مناسباً للحديث مع برونو فتزبيرغ. مع أنّ خلوة غابة الشمال توحي بحياة بالغة البساطة، بالغة القسوة، بالغة الصدق، مأساويّة التوازن، حيث يحتلّ كلّ واحدٍ مكانه، في منظومة تحافظ على منطقها الجوهري، فقد شعرت بأنّها تقف على خير منصّة أتيحت لها لتقفز منها إلى الهاوية. إنّها كالنسر الذي رأته ينزل، وفق دوره في منظومة الطبيعة، نحو الماء ثمّ يحلّق وبين مخالبه سمكة سلمون عظيمة. أم إنّها هي سمكة السلمون؟ هل هي واقعة تحت تأثير سحر المكان الأخّاذ؟ هل انتفعت أمّها أيضاً من ذلك الإحساس، في ذلك الركن الهادئ من العالم الذي عدّته جنتها، وحيث بات من السهل عليها الاتصال بالطبيعة وبالخلود؟ أم إنّها نقلت إلى إليسا كورّيا كلّ أحزانها وأحمالها وخطاياها، جهنّمها التي تهرب منها منذ ستة وعشرين عاماً؟

– بابا! هل يمكنني الكلام معك؟

– طبعاً، ولكن... إذا لم يكن الأمر مستعجلاً، فسأتّصل بك بعد عشر دقائق. أوكي؟

– أوكي.

تخيّلتْ آديلا ما قد يفعله برونو فيتزبريغ في تلك المهلة. فالساعة في نيويورك السابعة ليلاً، وربّما هو عائد من عمله. منذ أن كان يعيش وحده، اعتاد أن يعرّج، إن لم يكن راغباً في الطبخ، بالمطعم الدومينيكاني الكائن في شارع (ويست *157*) و(برودواي)، حيث يبيعون كريات البطاطا والكبب والفطائر والرز والفاصوليا الحمراء. ثمّ إنّ امرأة دومينيكانيّة، ماريسلي، أربعينيّة، عظيمة المؤخرة، تفخر بنعومة شعرها، الذي تعالجه بالمواد الكيماويّة، تعمل هناك، وتشكّ آديلا (تضاعف الشكّ منذ أن رأت الفياغرا في صندوق أدويته) أنّها تمنح برونو ما هو أكثر من الطعام لمعدته. وقد يشتري الرجل أحياناً المواد من حانوت في شارع *149* وبرودواي، ويحضّر لنفسه طبقاً من لحم البقر أو الخنزير، بعد أن سمح لنفسه، من سنوات، بما حُرّم على أجداده اليهود من طعام وشراب. كان مكانه المفضّل في الحي «الحديقة العامّة»، وهي قطعة أرض صغيرة، مزروعة بالأشجار، فيها دكّات

وطاولات خشبيّة، حيث يمكنه، حين يخلو المكان من لاعبي الدومينو، الاستماع إلى زقزقة العصافير في مانهاتن الضاجّة الصاخبة. وقد يجلس هناك ليشرب جرعة (أو اثنتين أو ثلاثاً...) من الرون مع ابن بلده إدغاردو سغيليا وصديقه، الممثل الدومينيكاني فريدي خينيبرا.

في منطقة (ويست هارلم)، حيث يسكن برونو منذ أكثر من ثلاثين سنة، وحيث نشأت آديلا، لم يكن الأصل الأرجنتيني أو الدومينيكاني أو الكوبي يعني امتيازاً لأحد ولا سُبّة: فجيرانه، من بيض وسود وآسيويين ولاتينيين، ينتمون إلى جميع أقطار العالم، ويشعر كلّ واحد منهم بأنّ ذلك المكان هو نصيبه من العالم. لكنّ الحالة تتغيّر حين تحيي الأكثريّة الدومينيكانية واحداً من احتفالاتها وتغزو إيقاعات الميرنغي شوارع الحيّ، حينها يتمنّى الآخرون لو أنّهم اختفوا، أو لو أنّ جميع الدومينيكانيين اختفوا من وجه الأرض. فهل من المنطقي أن يشعر برونو فتزبيرغ بالوحدة بين كلّ تلك الصحبة؟ هذا ما تظنّه آديلا، وهي تألمُ لوحدة الرجل الذي كان، حتّى ساعات مضت، أباها، والذي ما زالت تحبّه كأنّه أبوها. إنّه، كما قالت، أعزّ شخصٍ على قلبها، أمّا ماركوس فتحبه بطريقة أخرى. فكم يعرف وكم لا يعرف برونو فتزبيرغ؟ هل يعرف من هو أبوها الحقيقي؟ وأخرجتها أبواق هاتفها النقّال من أفكارها وفتحت الخط.

- اعذريني، بنيّتي، كنتُ خارج البيت - قال الرجل.

- ماذا كنت تفعل؟

- آتي بوجبة العشاء... الدومينيكان أعدّوا اليوم تيساً مشويّاً...

- أنتَ تحب الطريقة التي تحضّر بها ماريسلي التيس...

- لأنّه يناسب *المالباك* الذي لديّ... سيأتي إدغاردو السمين وفريدي المجنون ليأكلا معي... ليتك تستطيعين أن تأتي أنتِ أيضاً، حبيبتي... كم أنا مشتاق لك!

- وأنت تعرف كم أحبّك، أليس كذلك؟

- طبعاً أعرف...

- لكنّك تعرف أنّي أحبّك حبّاً حقيقياً حقيقياً... وأتمنّى أن أكون معك.

صمت الرجل. ثمّ أجاب.

- أعرف... أعرف... ماذا جرى، صغيرتي؟

لم تلبث آديلا أن قفزت نحو المجهول.

- أريد أن تخبرني عمّن تكون إليسا كورّيا. وأن تقول لي لماذا، إن لم تكن أبي البايولوجي، لم تبلّغاني، لا أنتَ ولا هي، بأيّ شيء. ذهبتُ لأراها، لكنّها اختفت... كعادتها.

ظلّ برونو فتزبيرغ صامتاً حتّى خشيت آديلا أن تكون المكالمة انقطعت.

- أبي؟... أبي؟

- أنا هنا، حبيبتي... انتظري... حانت اللحظة، إذن. وكما يحدث عادة، تختفي أمّك وتترك الآخرين في حيرة من أمرهم... تهرب وتظنّ أنّها، بهروبها، تحلّ المشكلة... ترمي بالقذارة على المروحة وتنتظر أن تعيدها المروحة لها هواء بارداً... آديلا، بنيّتي، لا نستطيع الكلام عن الموضوع هكذا... سأتصل بك لاحقاً لأخبرك بساعة وصولي غداً إلى مطار (تاكوما).

أمضت آديلا ليلتها ونهار اليوم التالي تفكّر في ما يمكن أن يقول لها برونو فتزبيرغ. كانت خائفة، لكنّها تريد معرفة الحقيقة: فهكذا فقط تلقي بالضوء على مسالك حياتها الماضية الوعرة، وتتمكّن، ربّما، من ترتيب حياتها المستقبليّة. بحثت في دليل (تاكوما)، وهي تفكّر في مكان محايد يناسب والدها، عن مطعم أرجنتيني أصحابه أرجنتينيون، وحجزت لهما طاولة على الساعة السابعة مساء.

في الطريق بين المطار والمدينة، لم تشأ آديلا أن تفتح مع برونو مواضيع مهمّة، فاكتفت بسؤاله عن عمله، وعن تقاعده القريب، وعن رغبته في العودة، بعد أكثر من عشر سنوات، إلى ذلك البلد البعيد الذي يسمونه الأرجنتين، الذي غادره بعدما رأى من قدرة البشر على خلق الرعب، ولم يعد إليه إلّا بصحبة آديلا، حين كانت مراهقة، في زيارة دامت أسبوعين. وكم يتمنّى برونو أن تكون آديلا في رفقته ثانية، إن هو عاد إلى الأرجنتين.

- لكنّي خائف من كلّ شيء... وأظنّ أنّ خوفي تعاظم -قال الرجل-. ما عدتُ أشعر بأنّي من تلك الديار، المشكلة أنّي لا أستطيع أن أنتمي إلى سواها. هناك موتاي، وهم أكثر من أهلي الأحياء: قتل العسكرُ أبي ثمّ أخي وابن عمّي. ثمّ ماتت أختي، عمّتك مارتينا، بعد أن تعب قلبها، المسكينة. أمّا عمّتك القرطبية فما زالت حيّة ترزق. هل تذكرينها؟ تلك التي تمطّ لسانها فتطيل الكلمات. لقد بلغت التسعين... آي، طفلتي، يا لها من مشكلة... هنا، أنا لا أعرف من أين أنا. وهذا ما سيحصل هناك أيضاً. أنا متأكّد.

- يحدث هذا لي أيضاً أحياناً... أفهم وضعك، أمّا وضعي؟

أراد أصحابُ المطعم من تسميته (لا پامپا)[45] إضفاء الطابع التقليديّ الشعبي عليه. لكنّ برونو لم يكن مطمئناً، رغم الضمانات التي قدّمتها آديلا.

- چي[46]... هل هذا اللحم أرجنتيني بحقّ؟ - سأل برونو الغارسون حين اقترب، بلكنة أهل بوينوس آيريس.

- مضمون، يا صديقي - قال النادل، وهو رجل من سنّ برونو.

- هل أنتَ من بوينوس آيريس؟

- من (لا بوكا)...

- هذا ما خمّنته... لكنّي أحذّرك بأنّي من مشجّعي الريڤر... لنرَ... فليس صحيحاً، إذن، أنّ الحكومة تمنع، منذ خمسة عشر عاماً، استيراد اللحم الأرجنتيني؟

ابتسم الغارسون. وفكّر برونو أنّ العنصر الأرجنتيني الوحيد في ذلك المكان هو الغارسون.

- إن كنتَ تعرف، فلماذا تسأل؟ هل أنت ساذج أم إنّك لم تسمع بأنّ كلّ شيء في هذا البلد مغشوش؟... المهم، كن على ثقة من أنّ هذا اللحم هو الأفضل في المدينة. ليس أرجنتينياً، لكنّه لا يختلف عن الأرجنتيني في شيء.

- إن أقسمتَ لي بروح أمّك...

ابتسم الغارسون ثانية، ورأت آديلا أنّها تشهد كوميديا من أعوام الأربعين.

- وأقسم لكَ بذكرى غارديل، وبيد مارادونا، وبالپاپا فرانسيس! ويا له من پاپا!... إنّه خير لحم في المدينة...

- فأتِ لنا بطبق مشويّات لشخصين... وأكثر منها... فأنا على لحم بطني منذ أفطرتُ.

- چوريثو ومورثيّا؟

45- **La Pampa** واحدة من محافظات الأرجنتين.

46- **Che** كلمة تطلق على من كان أصله أرجنتيني.

- نعم. ولكن لا تأتِ لنا بالچونچيلين[47]...، حتّى لو ضمنتها لها وأقسمتَ لي بـ... هات لنا زجاجة من *مالبيك دي مندوثا*. الأقوى، ولا يهمّ السعر.

ابتسم الغارسون ونظر إلى آديلا. فربّما ظنّ أنّ العجوز أوقع الجميلة ذات الشفتين المكتنزتين في شباكه، لكنّ برونو قرأ أفكاره وخبثه.

- هذه الفتاة هي ابنتي... هيا، أيّها الأسود، تحرّك...

- كالطلقة!!

ضحكت آديلا وضحك الغارسون وجاراهما برونو في الضحك.

- يبدو أنّ الأرجنتينيين حين يلتقون تلتهب فيهم الروح الأرجنتينيّة. أليس كذلك؟

- هذه كارثة وطنيّة. ولكن لاحظي: لو طلب من أرجنتيني أن يذمّ شخصين، فإنّ ثاني هذين الشخصين أرجنتيني مثله. أمّا من يبدأ به فهو الأوروغواني، عدوّه اللدود...

- أتمنى حقاً أن أعود معك ذات مرّة...

هزّ برونو رأسه وتنهّد.

- طبعاً. لا بدّ أن نذهب...، مع أنّ البلد بات صفيحة زبالة -قال، وأغمض عينيه، وضغط على جفنيه بإبهامه وسبّابته. أنزل يده، ثمّ تكلّم-: صغيرتي، منذ ستة وعشرين عاماً وأنا أجهّز نفسي للكلام الذي سأقوله. عدّلت ونمّقت وحذفت وأضفت... ومنذ أمسِ وأنا أراجع الصيغة الأخيرة التي استقرّت في رأسي. إنّها رواية مؤلمة، لكنّها الوحيدة الحقيقيّة التي أستطيع تأليفها، وإن كانت مليئة بالفراغات. أمّا الحقيقة التي أعرفها، بحكم عملي، فهي أنّ أمّك تكذب وتحتال. تفعل ذلك لا إرادياً. هذا هو، حبيبتي، تشخيص حالتها السريريّ.

47- (الچوريثو) هو النقانق المعمولة من لحم الخنزير. (المورثيّا) هي المعمولة من دمه. أمّا (الچوچيلين) فهي المصارين تحشى بالفلفل والثوم.

كان برونو فتزبيرغ، مساء السادس من نيسان، مدعوّاً، كبقيّة من حضروا مؤتمر جامعة (نورث إيسترن يونيفرستي) في بوسطن، إلى جولة في مواقع تاريخيّة في المدينة التي منها اندلعت إحدى شرارات ثورة الاستقلال الأمريكيّة. خُطّط للجولة أن تشمل مباني شيّدت من نيّف وثلاثمئة عام. وحين همّ الزوّار بالصعود إلى الحافلة، رأى برونو أنّ تلك الحقبة التاريخية القصيرة لا تستحق أن يتحمّل من أجلها برودة الطقس تلك، فاختار أن يذهب إلى متحف الفنون الجميلة الشهير، الذي طالما أجّل زيارته، على تعدد سفراته إلى بوسطن. كان يعلم، كما يعلم الجميع، أنّ بين معروضات المتحف النيوكلاسيكي الرائع واحدة من أهمّ مجموعات الفن الفرنسيّ في القرن التاسع عشر، ولا سيّما القريبة من التيّار الانطباعي، وهي الحقبة الفنيّة الأقرب إلى نفسه، التي جعلت من متحف (أورسي) متحفه المفضّل. لقد بدا له أنّ مشاهدة أكثر من ثلاثين لوحة لمونيه ورسوم ومنحوتات لديغاس وأعمال ليرنوار وميليه وغوغان دفعة واحدة أفضلُ استثمار لوقته، فضلاً عن تجنّبه الهواء البارد القادم من شمال الأطلسي.

حمل جمعٌ من الأحداث والمصادفات برونو فتزبيرغ على أن يطوف، عصر ذلك اليوم، في أجنحة الفن الأوروبيّ، ليعثر، وهو في حالة تأمّل واستغراق، بفتاة كستنائيّة الشعر، متدثرة بمعطف أحمرَ من الصوف ضاقَ على بطنها التي علت وارتفعت.

كانت هي المبادرة بالحديث. صرّحت بتعليق، بدا عرضيّاً، أبدت فيه إعجابها بحريّة توظيف الألوان والتركيبة التي تعتمدها اللوحات، وبفيض مشاعر الحياة المنبعثة منها. ثمّ تبادلا كلمتين من الإعجاب برينوار. حين سمع لكنتها، ظنّ أنّها بريطانيّة، وحين سألها عن أصلها، أجابت: «لستُ

من أيّ مكان». بتلك الإجابة المحسوبة الغامضة، التي استظرفها برونو إذ رآها كأنّها مأخوذة من إحدى شخصيّات غارثيّا ماركِث حين وصوله إلى (ماكوندا)، بدا اللقاء كأنه بلغ نهايته. بلا نتائج.

تهيأ برونو لمواصلة تجواله، بعد أن ابتسم لردّ الفتاة الشابة، لكنّه قرأ أنّ لوحة رينوار تلك، *حفل غداء على قارب*، تعرض في متحف الفنون الجميلة في بوسطن، معارة من متحف فيليپه كولكشن في واشنطن، وإن أقسم أنّه شاهدها في متحف (أورسي) بباريس. عاد إلى اللوحة، فتبيّن له أنّه لم يرها من قبل في أيّ متحف، بل لقد توهمها لوحة *رقص في مولان دو لا غاليت*، وهي لوحة شهيرة أخرى من لوحات رينوار كان شاهدها في المتحف الباريسي.

كلّ ما حدث في الدقائق التي أعقبت ردّ الفتاة الحامل وسبقت اكتشاف الرجل توهّمه بشأن لوحة رينوار، والطريقة التي حوّلت لقاءً عرضياً بين شخصين أمام لوحة فنيّة إلى حدثٍ قاد إلى ما قاد إليه، جعل برونو يتساءل عمّا كان سيحدث له ولتلك المرأة ولذلك المخلوق الذي كان في بطنها لو أنّه لم يقّرر الانفصال عن زملائه في الجولة التاريخيّة والذهاب، بدلاً من ذلك، لزيارة المتحف؟ ولو أنّ متحف فيليپه كوليكشن لم يكن أعار، لأيّ سبب من الأسباب، *حفل غداء على قارب* إلى متحف الفنون الجميلة في بوسطن؟ ولو أنّه لم يعد ليتحقق من المعلومة التي كتبت على اللوحة التي لم تكن يوماً من الأيام من مقتنيات متحف (أورسي)؟ تتضارب أفكاره وتتلاطم، وهو يتساءل إن كان سيقع شيء أو لا لو أنّه لم يسمع الفتاة الشابة الحامل، صاحبة المعطف الأحمر الضيق، وهي تقول، بعد أن ابتعد للمرة الثانية عن اللوحة وعن صالة العرض:

– أترى المرأة المتكئة على الدرابزين؟ هي أنا.

أحسّ برونو بتيّار يسري في قفاه. التفتَ ونظر إلى المرأة الحامل، ثمّ نظر إلى اللوحة وابتسم. إنّ في زعم امرأة شابة تعيش عام *1990* أنّها تظهر في لوحة رسمت قبل مئة وعشر سنوات، تدقيقاً في التفاصيل أكثر منه سخريّة أو تعبيراً عن حالة من الجنون – لذلك مال برونو، وهو العارف بالنفس

البشريّة، إلى الاحتمال الأوّل، بعد أن نظر إلى الفتاة بتمعّن وتحقق من أنّها تشبه، فعلاً، صورة الفتاة التي تظهر في لوحة الفنان الفرنسي.

– لا تنظر إليّ هكذا، سيّدي... ألا تؤمن حضرتك بالتجسّد؟... تلك الشابة هي أنا، في حياتي السابقة، وأولئك الرجال والنساء كانوا أصدقائي في تلك الحياة وقد صادفتُ الكثيرين منهم في هذه الحياة التي أعيشها.

رأى برونو، وقد استلطف الفكرة، أن يجاريها.

– وهل تذكرين حضرتك حيواتك السابقة؟

– باللحظة والدقيقة...

– لا شكّ أنّ ذلك فظيع –قرّر أن يستدرجها في الكلام–. أنتِ مثل فونيس، بطل بورخيس، صاحب الذاكرة القويّة... وما كان اسمك في حياتك السابقة؟

أطرقت الفتاة لحظات قبل أن تجيب.

– ألين...، مثل اسم الفتاة التي أصبحت، في ما بعد، زوجة رينوار.

– وما اسمك الآن، في هذه الحياة أو التجسّد؟

عادت الفتاة تفكّر.

– لوريتا أغيرّي بوديس.

– بهذا الاسم وهذين اللقبين لا تبدين فرنسيّة خالصة...

– غير مهمّ... ففي كلّ تجسّد، أو، بالأحرى، في كلّ حياة جديدة يكون الواحد ما هو، لا ما كان.

– فأنت بهذا اللقب، وفي هذه الحياة، تتكلمين الإسبانيّة؟

ابتسمت لوريتا.

– نعم –قالت وقد غيّرت لغتها–. وحضرتك؟

– أتكلمها أيضاً. وأعرف من أين أنا: أنا أرجنتيني. وإن لم أكن أمارس انتمائي –قال وابتسم–. واسمي برونو فتزبيرغ و... لا فكرة عندي إن كنتُ نتاج تجسد جديد أم ميلاد آخر...

وطافت لوريتا، بصحبة برونو، بقيّة الصالات المخصصة للانطباعيين، فعلّقا على الرقّة في لوحات ديغا، والنقاء في لوحات مونيه، والحيويّة في فرشاة ڤان كوخ، والغموض المفرح الذي تشيعه ألوان سيزان، وحين شعرت لوليتا بالتعب، قبلت دعوة برونو لتناول قهوة في مطعم المتحف. نعم، إنّها تحتاج إلى الراحة، بعدما ازدادت قدماها انتفاخاً، وازدادت حاجتها إلى الدخول إلى الحمّام. حالتي فظيعة، قالت، وهي تضع يدها على بطنها وتبلّغ بأنّها في شهرها السابع.

جلسا عند إحدى الطاولات، والقهوة بينهما. تكلما برهة عن الانطباعيّة (معلوماتها عنها أكثر من معلوماته)، وعن البوذيّة وعن الولادة الجديدة (كلاهما يعرفان عن ذلك ما هو أساس)، وهنا اقترح برونو، حين لم يجد ما يفعله، أن يتناولا العشاء في ذلك المطعم. دام حوارهما أكثر من ساعتين، فهم المحلل النفسي الأرجنتيني منه أنّها ولدت في كوبا وأمضت عدّة سنوات في لندن، حيث حضرت دورات في الفن التشكيلي وزارت العديد من متاحفها الرائعة. اعترفت له لوريتا أيضاً بأنّها كانت، قبل شهر من ذلك الوقت، في الولايات المتحدة، في ضيافة صديقة إنكليزيّة تعدّ هناك رسالتها للدكتوراه في هارفرد.

- وزوجك؟

- ليس عندي زوج.

- وهذه؟ - أشار إلى بطنها.

- إنتاج مستقل - قالت.

- هل هو أحد الأصدقاء في لوحة رينوار؟ - أضاف، وضحكا.

- ربّما - أضافت.

في ليل الشمال المبكّر، حين خرج الاثنان إلى الشارع، كان المطر يهطل خفيفاً. في نيسان ذاك، في بوسطن، ما كان الربيع يبين عن نفسه إلا قليلاً، فالطقس ما زال بارداً، والأشجار ما زالت عارية، بانتظار إشارة البدء بالتوريق والتوريد. وقرر برونو، وكان فندقه لا يبعد إلّا مربعين سكنيين عن المتحف، أن يطلب سيارة أجرة تقلّ لوريتا حتّى مكان سكنها، فقد كانت حالتها لا

تسمح لها بالمشي في تلك الشوارع الزلقة. حين افترقا، طلبت منه لوريتا رقم هاتفه، ووعدته بالاتصال به إن هي زارت نيويورك. أمّا برونو فتزبيرغ فقد خرج بما هو أقلّ تحديداً، وأكثر مدعاة للقلق: انطباع بأنّه عثر بشخصيّة خرجت من لوحة رينوار. فصورة لوريتا أغيرّي بوديس، الملقبة بـ«ألين»، موجودة في ذاكرته، لكنّها دخانيّة ضبابيّة. إنّه يرى صورة كاملة، لكنّها غير واضحة المعالم، غير مكتملة. لها جمال فريد، لكن من العسير تحديد معالمه. إحساسٌ بأنّ المرأة قد تكون حقيقيّة، وقد تكون مخلوقاً هارباً من صورة أو من لوحة. وثقة بأنّه لن يعود إلى رؤيتها إلّا في لوحة من لوحات رينوار.

عقب ستة أشهر، وكان الوقت خريفاً، كان متحف (المتروپوليتان) في نيويورك يعرض مجموعة خاصّة من لوحات الانطباعيّين. كان برونو فتزبيرغ، الذي ما عاد يفكر إلّا قليلاً في تلك المرأة اللطيفة المثقفة، والحامل المتحذلقة، التي تعرّف عليها في بوسطن، ينتظر اليوم المناسب لزيارة المعرض. وفي مساء 8 تشرين الأوّل، تلقّى مكالمة من لوريتا أغيرّي بوديس، تبلغه بأنّها ستصل إلى نيويوك لتزور معرض (المتروپوليتان)، وتسأله إن كان يرغب في مرافقتها. اتفقا على اللقاء عند الثالثة، أمام درج المتحف، وأبلغها برونو أنّه سيبكر في الذهاب لشراء التذاكر ليتجنّب هكذا طابور الانتظار.

في حمّالة لها هيئة فانيلة، حملت لوريتا ابنتها، ذات الأشهر الأربعة: «أقدّم لكَ آديلا»، قالت له. طفلة جميلة، صحيحة الجسم، واسعة العينين، سوداواها، مرسومة الشفتين. تبادل برونو ولوريتا قبلة التحيّة على الخدّين، فكأنّهما حددا مستوى العلاقة التي بلغاها في لقائهما الوحيد، وشعر برونو فتزبيرغ بأنّه كان ينتظر، على غير علم منه، وبشوق لم يكتشفه إلّا في تلك اللحظة، لقاءً ثانياً غير مؤكد بتلك المرأة الغامضة. لا بدّ أنّه ابتلع الطُعم وعلق بالسنّارة، حتّى إذا ما رأى لوريتا، أحسّ بشدّ قويّ في الخيط. ومع أنّ برونو كان راغباً في الكلام، لم يتكلما، طوال طوافهما بصالات المعرض، إلّا قليلاً. علّقا على اللوحات، وفوجئ برونو ثانية بغزارة معلومات لوريتا عن الانطباعيين، وبأنّها تميل إلى مونيه ورينوار وماني، وتنفر -هذا ما قالته- من غوغان. أمّا ڤان كوخ، فيعجبها منه اللوحات التي تصوّر الأشخاص

والسماء، ويعجبها من سيزان مأساويّة ألوانه. وسرعان ما علم أنّها لم تدرس الفنون التشكيليّة فحسب، بل مارست الفروسيّة، أثناء سنوات إقامتها بلندن، بينما اختارت، وهي في كوبا، أن تدرس الطب البيطري. لم يفهم برونو كيف أنّ شابّة من كوبا الثوريّة، وليست من الهاربين، استطاعت أن تمضي سنوات في لندن وتركب الخيل. فاكتفت لوريتا بالقول بأنّ كوبا أكثر تعقيداً ممّا يُرفع فيها من الشعارات، وأنّها تفضّل عدم الخوض في هذا الموضوع: لذلك لجأت إلى الولايات المتحدة. «هل هربتِ من كوبا؟». «نعم هربتُ... وآديلا في بطني».

حين خرجا من المتحف، اقترحت لوريتا على برونو الذهاب إلى بناية (داكوتا)، حيث سكن جون لينون وحيث قُتل. لم يفطن برونو إلى أنّ يوم 9 تشرين الأوّل هو ذكرى ميلاد عضو البيتلز السابق، وأنّ لوريتا أرادت زيارة المكان ووضع زهرة على الرصيف القريب من جبل الزهور والشموع المنتصب تكريماً للرجل الذي قال، ذات مرّة، إنّ السعادة مسدّسٌ ساخن.

أخذ برونو بلوريتا وابنتها إلى مطعم *بلو سموك*، حيث له طاولة محجوزة باسمه دائماً. هناك تناولا عشاءهما، ورضعت آديلا، بين طبق العشاء الأوّل والثاني، من صدر أمّها، فتذكر برونو النكتة التي تقول: «ليتكِ، صغيرتي، تأكلين من طعامي وآكل أنا من طعامك». عند العاشرة ليلاً، دخلوا في شقّة برونو في (ويست هارلم)، حيث نام برونو ولوريتا معاً، للمرة الأولى، بلا كحول ولا كلام ولا توضيحات، وحيث نشأت آديلا لاحقاً.

في الأيام التي أعقبت ذلك اللقاء، وبينما كانت لوريتا تتعاقد للعمل في عيادة بيطريّة في بروكلين، وكان ذلك هو سبب حضورها إلى نيويورك، اكتشف برونو أنّه مربوط إلى علاقة تشبع رغباته وخياله، ومنجذبٌ إلى امرأة غامضة وطفلة جميلة، في علاقة لم يعرف لها مثيلاً.

مع مرور الأيّام وترسّخ العلاقة، كشفت لوريا لحبيبها بعضاً ممّا ظنّه، لسنوات، حقائق، وتفسيرات لموضوع لوريتا أغيرّي بوديس، التي هي، في حقيقتها، إليسا لوثيندا كورّيا -لوثيندا هو لقب جدتها، وقد اختصرته إلى الحرف (ل) منذ طفولتها-. حكت له إليسا أنّها اضطرت إلى إخفاء اسمها

لكي تستطيع الخروج من كوبا بجواز يحمل اسم لوريتا، وفيه فيزا إنكليزيّة، كان أبوها قد استخرجه لها، قبل ذلك الوقت بسنين. بذلك الجواز (القانوني من جميع النواحي، عدا الاسم الذي غيّرته) وصلت إلى بوسطن، حيث طلبت اللجوء السياسي في الولايات المتحدة الأمريكيّة. أمّا سبب حيازتها تلك الوثيقة المزوّرة فيعود إلى أنّ أباها كان موظفاً كبيراً في المخابرات الكوبيّة، وكان يؤدي عمله تحت غطاء الملحق التجاري في السفارة الكوبيّة. وحكت له أنّها عاشت في لندن، ست سنوات، جنباً إلى جنب مع أطفال بريطانيين يدرسون الرسم ويمارسون الفروسيّة (مثل الصديقة التي استضافتها في بوسطن). وقد رتّب الأب أمر حصوله، هو وزوجته وابنته، على جوازات بديلة، بأسماء بديلة، تحسباً لهربهم من الأراضي البريطانية، إن اقتضت الضرورة ذلك.

قبل عام من ذلك، خضع أبوها (ظلماً، حسب إليسا) لتحقيق شمل العشرات من كبار رجال الجيش والشرطة، في تهمٍ وصلت إلى حدّ الخيانة. ومع أنّ تهمة لم توجّه إليه، ولم يظهر اسمه في أيّةِ محاكمةٍ، فقد جرّد أبوها من رتبته وأجبر على الإقامة في بيته، بعيداً عن أيّ نشاط رسمي (خطر ببال برونو أنّهم لم يرأفوا به إلّا مقابل اعترافاتٍ تدين رفاقه السابقين، أو صفقاتٍ سريّة أخرى، تجري عادة في مثل هذه الأوساط والأجواء). أمّا أبو آديلا الصغيرة، وهو ضابطٌ شاب في مصلحة مكافحة التجسس، واسمه رافائيل سواريث دل بيّار، فقد رمى بنفسه من الطابق الثامن، بعد أن أحسّ بدنوّ ساعة اعتقاله.

حين أتمّتْ لوريتا سرد تلك الوقائع، طلبت من برونو ألّا يعاود الحديث معها عن القصّة المرعبة التي تحاول نسيانها، ولا عن حياةٍ وعلاقاتٍ لا تريد الحفاظ عليها، ولا عن وجود ما عاد وجودها، وجودٌ لا تحرص فيه إلّا على ابنتها. ابنة بلا أب، بلا وطن، بلا ماضٍ أسريّ تحاول أن تمنحه وجوداً بعيداً، قدر الإمكان، عن قصّة مشحونة بفصول الولاءات المشوّشة والخيانات الحقيقية أو المشكوك فيها، والتي قطعت كلّ خيط يربطها بها، بل لقد تخلّت فيها حتّى عن اسمها، ورفضت استحضار كلّ ما يذكرها به، وتحمّل تبعات كلّ ما يبعث فيها الشوق والحنين إليها. وهي إن صارحت برونو بماضيها

وحكت له قصّتها فلأنّه يستحقّ أن يعرف ماضيها قبل أن يقدم على اتخاذ قراره النهائي، هذا إذا كتب لهما أن يتعايشا ويتشاركا السكن والحياة.

فكم صدّق برونو فتزبيرغ من تلك القصّة الغريبة التي بدت، إذا ما نظر إليها من بعيد، من قصص جون لو كاريه؟[48]. مع ذلك، فقد صدّق برونو كلّ حكاياتها. أو أنّه أراد أن يصدّق كلّ ما قالت. نحن الآن في الأسابيع الأخيرة من عام *1990*، الأخبار التي ترد من الاتحاد السوفييتي وعنه مقلقة وتكشف عن حالة الاحتضار التي يمرّ بها ذلك البلد ونظامه السياسي، بينما بدأ ينكشف عن بلدان المنظومة الاشتراكيّة السابقة ما كان خافياً من جرائم وفساد ومراقبات ورقابة حديدية. من بين تلك القصص، التي تبلغ أحياناً درجة المأساة، تلك المتصلة بالدسائس وشبكات التجسس والمراقبة التي مارسها الـ كي جي بي وتلميذه النجيب (شتازي) الألماني الشرقي. أو فظائع شرطة تشاوتشيسكو السريّة في رومانيا. قصص ووقائع مجنونة لن يتورّع إيان فلمنغ[49] عن شرائها ليهديها إلى جيمس بوند، أو إلى جورج أورويل ليضمّنها روايته *1984* (وهو كتاب لوريتا المفضّل)، أو لتنشر على صفحة الحوادث في الجرائد. أراد برونو أن يصدّقها لأنّ في داخله، وبعيداً عن ألاعيب السياسيين وشبكات التجسس وفصول الخيانة المبرمجة، كانت تتحرّك قوّة أشدّ قوّة وفتكاً: فقد وقع في غرام إليسا كورّيا، أو لوريتا أغيرّي بوديس، وبات يسعى إلى العيش معها. ومع أنّ فطنته المهنيّة نبّهته إلى أنّ تلك المرأة شريرة، فإنّ كفّة مشاعره وعاطفته هي التي مالت.

عقب عدة أسابيع، وفي إحدى محاكم المدينة، وضع برونو خاتم الزواج في إصبع إليسا كورّيا ميراندا، الملقبة بلوريتا أغيرّي بوديس أو ألين، وصارت تعرف بلوريتا فتزبيرغ، ومن ثمّ باتت ابنتها تدعي قانوناً آديلا فتزبيرغ، ابنة برونو ولوريتا، وقيّد اسمها في سجل مواليد 27 مايس 1990.

ليس لبرونو فتزبيرغ أن ينكر أنّه عاش سعيداً مع زوجته وابنته طوال

48- **John Le Carré** (1931–2020). روائي إنكليزي عمل في جهاز الأمن البريطاني واشتهر برواياته عن الحرب الباردة وقصص التجسس.

49- **Ian Fleming** (1908–1964). كاتب وصحفي بريطاني. مؤلف سلسلة مغامرات جيمس بوند.

سنوات. بل لقد شعر بالرضا لتمكنه من أن يوفر لتلك البنت أجواء صالحة عاشت فيها صفراً من أحمال ماضي أمّها البائس والمأساوي. لذلك لم يشعر بذنب ولا بتأنيب من أنّه خدع آديلا. فقد تصرّف وهو مقتنع بأنّه يفعل ما هو في مصلحتها، بل ظلّ يرى، بعد خمسة وعشرين عاماً، وهو يقف أمام الشابة التي اكتشفت جزءاً من الحقيقة -أم جزءاً من الكذبة الكبرى؟-، ويكشف عن أسرار كبيرة عتّم عليها طوال سنوات، أنّه فعل الصحيح، وأنّه ينتظر أن تتفهمه ابنته - فآديلا ابنته، وإن لم يكن دمه يجري في عروقها. لم يكن برونو يطمح إلى أن تسامحه آديلا سواريث دل بيّار كورّيا، المدعوة قانوناً آديلا فتزبيرغ، المقيمة في نيويورك، فما كان من شيء يستدعي طلب المسامحة. كلّ ما يريده هو أن تتفهم موقفه، وأن تظلّ، إن استطاعت، ترى فيه أباها، وتحبّه كما تحبّ أيّة ابنة أباها.



ما كان ماركوس يرى في نفسه كائناً بسيطاً، وإن كان عاشقاً للبساطة والتوازن. ولئن عاش في شبابه حياة مجنونة، لم يكن يحسب فيها حساباً لشيء، فبسبب المحيط الذي كان يصعّب أيّ تجانس وانسجام. لكنّ المهندس ماركوس مارتينِث، أو الوشق أو ماندراك الساحر، كان، في الواقع، يعشق الاستقرار، وإن لم يكن بلغه بعد.

ربّما كان طبعه هو ما بات يدفعه إلى الخروج من حفرة الشك والحيرة التي سقط فيها، والتي زاد من عمقها وصعّب عليه، بالتالي، الخروج منها أنّه لا يجد ما يمسك به أو يقبض عليه، ناهيك عن رغبته في الفهم، تلك الرغبة التي تكبحه مرّة وتدفعه مرات، وافتضاح سرٍ يجعله في حالة تفكير دائم يثقل كاهله ويغرقه في حالة نفسيّة وبيلة. ثمّ إنّه يريد أن يحمي آديلا من صدمة تنذر بزحزحتها من مكانها، هذا إذا لم تكن قد زحزحتها. لذلك لم يكن من سبيل أمامه غير أن يعلم ويفهم، ثمّ يمسك بزمام هذا العلم وذاك الفهم، ليتحكّم به ويصرّفه.

في اليوم التالي لمكالمته مع أمّه، ومع علمه بأنّه يخالف، مدفوعاً بالحاجة، رغبة من رغبات آديلا، فتح حاسوبه على الصورة المنشورة على الفيسبوك وضغط على رقم هوراثيو، في سان خوان. وبعد تبادل عبارات التحيّة، دخل ماركوس مباشرة في الموضوع الذي يقلقه.

- وأخيراً ستأتي إلى هنا غداً؟

- نعم. سأبقى يومين. سنلتقي، أليس كذلك؟

- طبعاً. أنتظر قدومك... اسمع، عمّو هوراثيو، ما رأيكَ بصورة المجموعة التي نشرتها مامي؟

– جعلتني أفكّر في الكثير من الأمور... أمور تعجبني وأخرى لا أريد حتّى تذكرها.

– مثل ماذا؟

– كثيرة –تنهّد هوراثيو–. موت والتر... مرض برناردو... الجنون الذي عشته... حكايات ذلك العهد. ما كنتُه وما أنا عليه. فأنا أنظر إلى نفسي فيبدو لي كأنّي أرى شخصاً آخر. لا أدري إن كان من الأفضل...

– لماذا تقول ذلك؟ فأمورك جيدة...

– ليس عليّ أن أشكو من شيء. أعيش عيشة راضية. أفعل ما يروق لي. لا أندم على شيء تقريباً. وقد أحاطني الربّ بعنايته... هل تعرف أنّي، حين أخذنا هذه الصورة، لم أكن أؤمن بالرب؟

– وهل تؤمن به الآن؟

– أظنّ ذلك. لا أدري بالضبط... وإن كنتُ أذهب إلى الكنيسة. الفيزياء تفسّر كلّ شيء تقريباً. لكنّها لا تفسّر كلّ شيء.

– والدين أيضاً لا يفسّر كلّ شيء... هو يساعد، لكنّه لا يفسّر. هل تعلم أنّ رمسيس تديّن قبل خروجه من كوبا؟

– أخبرتني أمّك بذلك. لم أصدّق ما قالته. ولكن يبدو أنّ التدين بات موضة هناك: الكلّ يريد أن يؤمن بشيء. كلارا والمسكين برناردو باتا أيضاً مؤمنين.

– مع أنّ الكثير من الناس ما عادوا يؤمنون بشيء.

– حين أتحدّث مع من زاروا كوبا، يبدو لي كأنّهم كانوا في بلد آخر. أنا، في المرات التي ذهبت فيها إلى هناك، شعرت أيضاً كالضائع.

– لأنّه بلد آخر... كم ولداً لديك؟ واعذر لي جهلي.

– ابنتان. التوأمتان... أنت تعرف ذلك.

– أكيد؟

– أكيد... ماذا بك، يا فتى؟

كان ماركوس قد حرّك فأر حاسوبه المحمول المساعد، ونقر على زر الإرسال وأطلق في الفضاء السيبراني صورة اختارها.

- انظر في حاسوبك إلى الصورة التي أرسلتُها للتو...

فتح هوراثيو، وهو في بيته المريح، في مجمّع (سان خوان) السكني، يطرق سمعَه نقيق الضفادع، بريده، ونقر على رسالة ماركوس ثمّ على الصورة المرسلة.

- ها هي. خطيبتك آديلا - قال الرجل.

- ألا تعلّق بشيء؟ - سأله ماركوس.

- هل تريد أن أقول لك إنّ خطيبتك رائعة؟

- بل قل لي ما ترى!... قل لي إنّ لك ابنة أخرى. أو قل لي، على الأقلّ، إنّي مجنون.

- أنتَ مجنون... اسمع، من الأفضل أن نتكلّم غداً.

- سأنتظرك، بقفّاز مفتوح، لكي أتلقّاك وأنتَ طائر... وأرجوك ألّا تأتيني بحكايات وقصص!

- ماركوس، لا أراك أحمقَ ولا جاهلاً...، فقل لي، هل تعرف ما معنى الحقيقة؟

- الحقيقة هي الحقيقة. هي نقيض الكذب.

- هذا جيد... الحقيقة هي ما يؤمن به الواحد. أنّ الربّ موجود، مثلاً... لن أقول لك إلّا ما أؤمن به. ولكن تذكّر أنّ المفيد ليس حلو المذاق دائماً.

انتهت آديلا من حشر متعلقاتها في حقيبتها اليدوية، الموضوعة على السرير، حين تذكّرت أنّها نسيت فرشاة أسنانها في الحمّام. وحين وقفت قبالة المغسلة، تطلّعت، من جديد، إلى المرآة، وعادت لتسأل نفسها عمّن تكون.

5

كوينتِس هواراتيوس

لكلّ فعلٍ ردّة فعل مساوية له في القوة ومعاكسة له في الاتجاه

• قانون نيوتن الثالث

ولد كنتين هوراثيو في هاڤانا، في 8 تشرين الثاني 1958، وتلقّى، عند التعميد، هذا الاسم لأنّ أباه كان معجباً بكوينتس هوراتيوس[50] وقصائده ورسائله، ولا سيّما *رسالة إلى البيزونيس*، ورسالته الشهيرة في *فن الشعر*. أمّا أبوه هذا، ريناتو فوركيه، الماسوني، ذو الفكر الحرّ، المجاز في المحاسبة، الذي يعمل موظفاً في شركة استيراد أمريكيّة، مقرها في هاڤانا، ويكسب من وظيفته تلك راتباً ممتازاً، فقد ترك كوبا، يوم 8 كانون الثاني 1960، قاصداً الولايات المتحدة، في ما خطط له أن يكون رحلة قصيرة لحين هدوء الأحوال وعودة الحياة إلى مجراها الطبيعي، وهو شيء لا بدّ أن يحدث... لا بدّ أن يحدث، كان يردد[51]. ترك زوجته إسليندا وابنتهما لاورا (4 سنوات) والصغير هوراثيو، ومعهم من المال ما قدّر أنّه يكفيهم للعيش سنتين. فهو يفارقهم لأجلٍ محدود، ولأنّه في الزوجة من غلبة اللون الغامق (غير الفاتح)

50- **Quitus Horatius** أو هوراس (68-8 ق. م). شاعر روما على عهد أغسطس قيصر.

51- إشارة إلى أوضاع كوبا بعد انتصار الثورة عام 1959 وبوادر تدهور العلاقة مع الولايات المتحدة.

ما يكفي لكي تبدو في نظر الأمريكان سوداء، وفي ذلك ما يعرّضها لمواقف مؤلمة قد تؤدي إلى تهميش اجتماعي وتمييز عنصري. ترك أيضاً مكتبته العزيزة، التي تضمّ أربعين أو خمسين كتاباً، الكثير منها في الأدب اللاتيني: سيزار، بلوتاركو، *إنياذة* فيرجيل، ولم يحمل معه إلى المنفى، الذي ما كان يراه منفى، إلّا أعمال هوراتيوس.

لكنّ الرياح جرت خلاف ما اشتهت سفنه: طالت إقامته، وصارت الشهورُ سنيناً، فاستأجر شقّة في ميامي حيث وجد، بفضل إنكليزيّته، وظيفة في اختصاصه. مع ذلك، قرّر مواصلة الانتظار، ورأى ألّا يعود إلى كوبا حتّى تستعيد الحياة هناك «مجراها الطبيعي». كان ريناتو، الذي درس في الولايات المتحدة مطلع الخمسينيات، يرى في الشيوعيّة انحرافاً سياسيّاً، وكان يفكّر أنّه لن يجد، في ظلّ نظام شيوعي، غير طريقتين: السجن أو الإعدام. حتّى لو اختار أن يكون رجلاً مسالماً.

قرّر الزوجان، طوال عشر سنوات، الحفاظ على الرابطة بينهما: رسائل، قد تتأخر أو لا تصل؛ ومكالمات تلفونيّة صعبة ومتباعدة، إلى أن طال الفراق واقتنعا بعبثيّة القرار وعقم المحاولة.

أمّا الفتى هوراثيو فقد امتثل لتعليمات أبيه البعيد، وأنجز نشاطاتٍ غير مألوفة في كوبا آنذاك، فأخذ دروساً في الإنكليزيّة مع مدرسين خصوصيين، وأخرى في الاختزال والكتابة على الآلة الطابعة وتاريخ الولايات المتحدة الأمريكيّة، لتكون له عوناً إنّ عنّ له أن يهاجر. ونشأ هوراثيو على صورة أبيه التي صوّرتها له أمّه، وهي تقرأ، وتعيد قراءة، كلّ رسالة من رسائله، ولا سيّما العبارات التي يخاطبه بها وينصحه ويوصيه، أو التي يسأل فيها عن سير دراسته وتعليمه. إلى أن استسلم ريناتو فوركيه، في لحظة من اللحظات، لوضعه وتقبّل حالة اللاجئ الذي تصعب عودته إلى بلده. ثمّ اختفى. وهكذا تحوّل الأب إلى كائن خفيّ، لكنّه محسوس. راح حضوره يبهت وصورته تخفت، فلم يحتفظ ولده بأيّة ذكرى حيّة عنه، سوى صور تذكّر بحياته في كوبا وسنواته الأولى في المهجر.

حين صمت الأبُ نهائياً -نهاية الستينيّات-، بدا هوراثيو سعيداً بذلك

الاختفاء، فها هو، أخيراً، يستطيع أن يردّ بـ (نعم) على سؤالهم المعتاد، في الاستمارات المدرسيّة، عن إن كان له أقارب في الخارج: (الأب – الولايات المتحدة)، لكنّه استطاع أن يضيف، وهو لا يكذب، أنّه (لا) اتصال له به، كما ينتظر من طالب شاب ثوري. فالمهاجرون مجردون من جنسيتهم، والوطن، الذي تجسّده العمليّة الثوريّة، يجب أن يكون على الدوام فوق كلّ اعتبار، ومقدماً على الأهل والعيال.

حين خرج هوراثيو عام 1994 إلى الولايات المتحدة، سأل عن أبيه بين الكوبيين القدامى المقيمين في ميامي، وخصوصاً بين الماسونيين من أمثاله. تذكره العديدون منهم، لكنّ أحداً منهم لم يكن يعرف بمكانه. مع ذلك، فقد عثر هوراثيو، بعد وقت قصير، على ما دلّه على أبيه، ذلك الشبح الغامض، الذي كان يحبّ الأدب اللاتيني بقدر ما كان ينفر من الفكر الشيوعي: قبر منزو في مقبرة (تامپا)، وضع في طرفه شاهدٌ حُفر عليه شعار الماسونيّة، وكتب عليه ما يؤكد انّ ريناتو فوركيه سانجِث، الأب والزوج العزيز، والأخ الماسوني، توفي في مايس 1994، عن أربعة وستين عاماً. أي قبل ثلاثة أشهر من خروج هوراثيو من كوبا وشروعه بالبحث عن أبيه في المنفى. أبُو مَن وزوجُ مَن؟ وعزيزٌ على مَن؟ أسف هوراثيو، وهو الفيزيائي التجريبي، الذي يحاول دائماً معرفة أصل الأفعال التي تولّد ردود الأفعال، لأنّ وقتا قصيراً هو ما فصل بينه وبين أن يعرف كيف ولماذا أعجب أبوه بالشاعر اللاتيني، وليتحقق من أنّ أباه، حين غادر الجزيرة، كان مقتنعاً، فعلاً، بأنّه سيعود إلى عائلته حالما تعود الحياة إلى «مجراها الطبيعي». لكنّه لن يعرف إن كان أبوه ترك زوجته وهو يحبّها أم وهو يبغضها؟ لأنّه أراد حمايتها أم لأنّه كان يخجل منها... ومن ولده الخلاسي ظاهراً؟ كان يتمنّى معرفة الحقيقة، لكنّه رأى أنّه من الخير ألّا يغوص في تفاصيل حياة أبيه في المنفى، ويتحقق من أنّه، كما ظنّ حين قرأ شاهد القبر، أقام عائلة أخرى وأتى بإخوة آخرين.

أحسّ الابن، وهو يقف أمام القبر، برغبة في البكاء، ثمّ برغبة في ركل القبر: مزيج متلاطم من الحب والكراهية والحقد والشعور بالعار. مثلَ ذرّات جنّ جنونها بعد أن ضلّت مدارها.

أمّا هوراثيو فكان يعرف معنى أن تسير الحياة في مجراها الطبيعي، لأنّ حياته سارت على ما يهوى ويريد. فالعالم، في عين رجل مثله، بمعامل ذكاء عالٍ، وتفكير منظّم، يسير وفق قوانين حتميّة التنفيذ، وهو -أو يجب أن يكون- منظومة منطقيّة مبنية على أسباب ونتائج، وأفعال تترتّب عليها ردود أفعال. حالة تتخذ كلمات دائماً، وأبداً، وممكن أو *مستحيل*، و*بالضرورة* فيها معان دقيقة وقيم مطلقة على العموم، لكي لا توصمَ بالشموليّة والإطلاق، كما يقال في العادة. وهو يعلم ذلك جيداً، لأنّ وجوده كان معركة دائمة وعقيمة مع سلوك الطبيعة -وبضمنها الطبيعة البشريّة- الذي يتصف *بفوضى واضطراب* دائمين، يخوضها كلّ يوم من أجل ترسيخ وتوجيه حالة من *التوازن*.

ربّما ولج هوراثيو، اعتماداً على ذكائه المعهود، عالم الفيزياء تلبية لذلك المطلب الحيويّ، على الرغم من أنّ ميله الحقيقي كان فلسفة قدماء الإغريق العظام. لكنّ اختيار الفلسفة في بلد حار وسطحي وقدري، والكلام عمّا هو غير ملموس وما هو ضروري، يمكن أن يؤدي به إلى الخروج العملي والوجودي نهائياً عمّا هو طبيعي. ثمّ إنّ كثرة التفكير، في مكان تشيع فيه آيديولوجيّة لها مبادئ منزّلة قاطعة، وقواعد يفرضها التاريخ، ليست مجدية ولا صحيّة.

كانت الأيام والأسابيع التي تلت انتحار والتر، والتي زادها غياب إليسا تعقيداً وغموضاً، أوقاتَ قلق وجزع لهوراثيو. وفي غمرة تلك الأحداث، جاء اختفاء خطيبته غيستي، ورشوح كلام عن أنّها كانت تتجسس على الأخويّة بتكليف من الشرطة، ما أضاف إلى حالته المعنوية سوءاً على سوء، وشوّش على الحقيقة، التي طالما صرّح بأنّه لا يستطيع العيش من دونها.

لذلك راح يبحث عن أدلّة تسمح له بفهم ما كان يحدث من حوله، وما فعل أو ما لم يفعل، ممّا يمكن أن يقف وراء تلك الحوادث المزلزلة المزعزعة. هل هو تأثير الفعل وردّة الفعل الكلاسيكي؟ هل هو مبدأ الأسباب والنتائج؟

لا شكّ أنّ الخوف الذي أثاره فيهم الكلام عن مراقبة خضعوا لها، أثّر فيه، وإن لم يكن بحجم الخوف الذي أصاب إرفينغ أو داريّو، علاوة على ما أصاب والتر منه. مع ذلك، لم يقلق القول بأنّ غيستي تعمل للشرطة هوراثيو إلّا قليلاً، بل لقد كذّبه واستبعده منذ البداية. لكنّ الثابت هو أنّ غياب غيستي قد خفف عن هوراثيو وأراحه، وإن لم يصرّح به، فالفتاة، على الرغم من جسمها المثير وجمالها الأخّاذ، ينقصها الخيال في أدائها الجنسي، بل يمكن أن يقال إنّ أداءها، استناداً إلى خبرته الواسعة في الموضوع، غير مُرضٍ. وتساءل هوراثيو إن كانت ممارسة الجنس معه جزءاً من مهمتها التجسسيّة، ولهذا كانت معاشرتها سمجة فجّة؟ وإذا كانت مهمّة يقتضيها عملها، فهل كانت تتقاضى عنها مخصصاتِ خدمة ليليّة وأجورَ ساعات إضافيّة؟

لم يقلقه ولم يقلق أصدقاءه مقدارُ ما يمكن أن يكون ما تحققت منه الفتاة وبلّغت من معلومات عنه وعن بقيّة أفراد الأخويّة. فلقد تعلّم، هو وهم وجميع أبناء جيلهم تقريباً، ومنذ صغرهم، كيف يتكلمون ومتى يتكلّمون (كان هوراثيو، الذي ترك فيه نفيُ أبيه أثراً كبيراً، خبيراً في الموضوع)، على الرغم من أنّهم لم يستطيعوا يوماً ضمان طينة المحاور ونوايا السامع. مع ذلك، كان معظمهم يحاولون أن يتصرّفوا –استطاع بعضهم بلوغ هذا الهدف– بطريقة طبيعيّة ويسمحون لأنفسهم بالكلام وإبداء الرأي والاختلاف، حتى خارج نطاق المسموح به، دون أن يقتربوا من حدود ما يعاقب عليه القانون (ما لم يقرّر «أحدٌ» خلاف ذلك، وهو شيء وارد، لأنّ السياسة تتحرّك مثل عِلم غير منضبط، ولأنّ ماكنة السيطرة تعمل وفق آليّة حركة دائمة، بلا حدود مرسومة، وبشهيّة مفتوحة).

ما عدا ذلك، كانت المجموعة بريئة في تقديراتها للواقع السياسي – الاجتماعي ولا يمكن أن يقال عن أفرادها، باستثناء كلمات متهورة من والتر، أو نفثة سكران من برناردو، أو نكتة من إرفينغ أو تعليق لاذع من إليسا، إلّا ما يعرفه الجميع عنهم، الذي هو جزءٌ من حياتهم وسلوكهم. وما أقلّ

التجاذبات السياسيّة والخلافات بين أعضائها! وفي ذلك ما يجعل هوراثيو في شكّ ممّا ينسب من وظيفة بوليسيّة إلى غيستي، فلماذا تراقب الفتاة رجالاً عاديين، لا يستحقّون ذلك المجهود، لأنّ شؤونهم وشجونهم في متناول أيّ راغب في معرفتها؟ وهل عناصر «جيش التجسس على المواطن» (كما يسميهم أورويل) من الكثرة أنّهم يستطيعون أن يفرّغوا لمراقبة هؤلاء عنصراً محترفاً براتب ثابت ويوم عمل كامل؟

طلب هوراثيو من أصدقائه أن ينسوا موضوع غيستي، ثمّ خرج، ومن دون أن يخبر أحداً، في طلبها، فهو يريد أن يطّلع على الحقيقة... *حقيقتها*.

خرج عصراً، وقطع المدينة حتّى حدودها الغربيّة، حيث مباني حي (سان أغوسطين). كان هوراثيو قد رافق غيستي إلى هناك مرّتين، دائماً في وقت متأخر من الليل، لذلك لم تعنه حاسة تحديد الاتجاه القويّة عنده، على أن يحدّد مكانه في تلك المتاهة من البلوكات الكونكريتيّة المتشابهة. وبعد السؤال والاستفسار، وصل إلى طابق خامس افترض أنّه سكن غيستي. في تلك اللحظة فقط علم أنّ اسم غيستي لم يكن غيستي، بل ماريا خيورخينا، وفوجئ: فهل غيستي هو اسمها الحركي؟ كان هوراثيو يعلم أنّ الفتاة تعيش مع أبيها، لكنّ امرأة في الخمسين كانت هي من فتح له الباب. أخبرته بأنّ ماريّا خيورخينا ما عادت تسكن هناك: لقد انتقلت مع صاحبها للسكن في الطرف الآخر من المدينة، إلى حيّ (آلامار)، الذي لا يقلّ عن هذا الحي قبحاً وزحمة. إنّها لا تعرف عنوانها، ولا تريد أن تعرفه. لكنّها ستعود، قالت المرأة، لن تلبث أن تعود، حين يهجرها صاحبها، كما حدث لها مرّات ومرّات. ولمّا استوضح هوراثيو عن موضوع اسمها، ردّت عليه المرأة بأنّ غيستي اتخذت من ذلك اللقب اسماً لتبدو مودرن. القحبة. أضافت المرأة وأغلقت الباب.

همّ هوراثيو بأن يغادر (سان أغسطين)، مجروحاً في كرامته (إذ لم يكن غير واحدٍ في قائمة غيستي الطويلة من الرجال)، لكنّه رأى أنّه قد يعثر على الفتاة في الشركة التي قالت إنّها تعمل فيها (واحدة من الشركات المكلّفة بمنشآت دورة الألعاب الأمريكيّة لعام 1991). وفي اليوم التالي وصل إلى مكاتب الشركة، فإذا بهم لم يسمعوا بغيستي، أمّا ماريّا خيورخينا، المساعدة الاقتصاديّة، فهم يعرفونها حقّ المعرفة.

وقف هوراثيو عند الناصية، ينتظر انتهاء الدوام وخروج الفتاة من المبنى. وأخيراً رآها (عيناها المندهشتان دائماً ومؤخرتها الرائعة ونهداها الناهدان). أحسّ بيديه تتعرّقان. هل هو خائف من كشف الحقيقة بعد أن حانت ساعة الحقيقة؟ أراد الانصراف، لكنّه لم يستطع. حاول أن يركض، فالتفتت الفتاة حين شعرتْ باقتراب العدّاء. وبدت عيناها أكثر اندهاشاً حين رأت خطيبها السابق.

– ماذا تفعل هنا؟ ماذا تريد؟ – قالت بغضبٍ لم تحسن مداراته.

– أردت أن أسألكِ... – بدأ هوراثيو، لكنّها قاطعته.

– ليس لكَ عندي شيء... اغربْ عن وجهي... بسببكم اعتقلوني، واعتقلوا أخي بتهمة سيجارتين من الماريجوانا... يا لكم من مجانين... سافلين، لا أريد أن أعرف شيئاً عنكم، فما أنتم إلا جمع من القواويد والمخنثين.مكتبة سُر مَن قرأ

– ماذا قلتِ لهم، غيستي؟ – قال هوراثو لها بنبرة توسّل.

– أخبرتهم بكلّ شيء. قلتُ لهم ما خطر ببالي وما لم يخطر! ادعى أحدكم أنّي زعمتُ أنّي من الشرطة و... وقد زاد هذا في غضب الشرطة لأنّي، قالوا، انتحلت صفة شرطيّة...

– لم أفهم. والتر كان يقول إنّك...

– فإذن ذلك المجنون القذر الذي انتحر هو من قال ذلك عنّي!... وصدّقتموه... يا لكم من حثالة! انصرف!

– فأنتِ إذن...؟

– قلتُ لك اغربْ عن وجهي! – صرخت به وانطلقت مبتعدة عنه، فلاحظ أنّ عمّال الشركة كانوا يرمقونه بنظراتهم.

وبعد نصف ساعة، دخل هوراثيو إلى بار (لوس پرّيتوس)، في فندق (كولونيا)، الذي له فيه ذكريات يصعب وصفها بالحلوة أو المرّة. دخل ليشرب بيرة –ويا لها من معجزة–. هناك قرّر أن يحذف فصل غيستي من حياته وحياة الأخويّة، وأن يلفّه بغطاء ثقيل من الصمت. كان يشعر بالذنب وبالخجل، ويحسّ بجرح قاتل في كرامته. فمن المعيب أن تستغلّه امرأة شهيّة الجسم، سيئة الأداء ليكون معبراً إلى الكثير من خصوصيّات أصدقائه.

امرأة كانت أقرب إلى المومس منها إلى المُخبرة. امرأة قادرة على أن تمطركَ بوابل من السباب والشتائم في ثانية واحدة. أمّا المسؤول عن الجريمة -قال له إرفينغ- فهو سوءُ أداء ذكره. إذن. إن لم تكن غيستي هي المبلّغة، فمن كان المبلّغ؟ والتر؟ شخصٌ آخر منهم؟... فابيو؟... وهكذا تجمعت لدى هوراثيو أسبابٌ أخرى لكي يصرف النظر عن موضوع غيستي برمّته.

أمّا اختفاء إليسا المفاجئ والغامض فقد قاد هوراثيو إلى أفكار ومتاهات أكثر تعقيداً وأقرب إلى القبول. فقد يكون هو نفسه متورطاً في ما حدث لها، بغضّ النظر عن سبب اختفائها وأبعاده: فهل كان إخفاءً أم هروباً أم جريمة قتل لم يُعثر فيها على الجثّة؟

كانت مشكلة هوراثيو الكبرى أنّه، ما إن رآها في ثانويّة (البيدادو)، حتّى أحسّ بانجذاب شديدٍ نحوها. ربّما لأنّها كانت أقوى شخصيّة وأشدّ جرأة منه ومن جميع من عرفهنّ آنذاك تقريباً؛ ورُبّما لأنّه لمس في نظراتها وحركاتها شهوانيّة غريبة؛ وربّما لأنّ إليسا كانت تحظى بتعليم وثقافة يفوقان ما لديه منهما، وتمتلكُ معارف وعلوماً لم تكن شائعة في تلك الأوقات (الفن الانطباعي!). وبلغ من قدرتها الفطريّة على المخادعة وبرودة الأعصاب، أنّها اختارت برناردو، الوسيم الذكيّ الوجيه، وضربت صفحاً عن الخلاسي الجائع، الذي ليس له أبٌ متنفذ ولا بيت في (ألتاهاڤانا)، ولا سيّارة يُمضي بها نهايات الأسبوع، ولا إجازات مؤكدة يقضيها في بيوت خاصة في (بارادير و).

ومع مرور السنين، ومع وفرة الغزوات الجنسيّة والمغامرات المظفرة، تراجعت رغبات هوراثيو نحوها مفسحة الطريق لصداقة التزمت حالة توازنٍ ثابتٍ ودافئ. تراجعت، لكنّها لم تفنَ ولم تختفِ (الطاقة لا تفنى، بل تتحوّل من شكل إلى آخر). لكنّ شيطان إليسا صحا، في لحظة توتّر ديناميكي، صحا ووقع ما كان له أن يقع، بطريقة ما، وفي وقت ما.

كان هوراثيو، وقتها، قد بدأ علاقته مع غيستي، التي كانت تصغر أعضاء الأخويّة المؤسسين بسبعة أعوام أو ثمانية. وشعر هؤلاء جميعهم، نساءً ورجالاً، بالتحدّي الذي يمثله حضور تلك الشقراء الكوبيّة، صاحبة العينين

الزرقاوين القوقازيتين، والرمشين المنفرجين دائماً، والردفين اللذين يشبهان ردفي سوداء ماندينغية[52]. ومع أنّ هوراثيو لم يكن يستمتع كثيراً مع غيستي، فقد احتفظ بالعلاقة معها مدفوعاً بنظرة الآخرين إليها ورأيهم في ما يجب أن تكون عليه العلاقة مع شابة جذّابة مثلها. لكنّه سيندم على أنّه ساير الكوبيين في طبعهم إذ يقدّمون ما يراه الآخرون على ما يرونه هم.

في ذلك المساء القائظ الرطب، في أوائل أيلول 1989، خرج هوراثيو من الجامعة، التي كان فيها، بعد خمس سنوات من الدرس والمثابرة، وبعد أن صنع له ملفاً أكاديمياً لامعاً، أصغر أساتذة كليّة الفيزياء سنّاً. ولما لم يكن يجد ما يفعله غير محاضراته في الفيزياء التجريبيّة، فقد بدأ بالتحضير لنيل الدكتوراه في حقله المفضّل: علم المواد. لقد قرّر هوراثيو، في ذلك المساء، وقد فاض عليه الوقت وأتعبه الحرّ والكسل، أن يتناول زجاجتين من البيرة -إن واتاه الحظ وظفر بهما- في بار (لوس پرّيتوس) القريب، الذي يلوذ به الكثيرون. لكنّه اختار، قبل الذهاب إلى البار، أن يعرّج على مكتبة (L y 27) ليسأل إن كان وصلهم جديد من الكتب التي تهمّه. هناك التقى بإليسا.

لم يكونا قد التقيا منذ أيّام. تبادلا السلام بالودّ المعتاد. قالت له إنّها في سبيلها إلى شقّة زميلة لها في العمل كُلّفت برعاية بقرات ترعى في سهول كاماغوي (أنا لا أمزح، قالت إليسا، فالبقر في كوبا بات نوعاً مهدداً بالانقراض. وبلغ من إعجاب هوراثيو بالعبارة أن اقتبسها)، وقد تعهّدت هي لزميلتها تلك بإطعام القط الذي تركته في شقّتها. وبينما هما يتحادثان، سارا قريباً من رفوف المكتبة، لكنّهما لم يعثرا على كتاب يجذبهما، فتذكّرا قراءتهما، بالسرّ تقريباً، لكتب (أورويل) و(كونديرا) و(كابريرا إنفانته) و(بورّوز). ولمّا لم يكونا في عجلة من أمرهما، فقد قادتهما حرارة الطقس والرغبة في الكلام إلى أن يعبرا الشارع ليبحثا عن البيرة التي دعاها هوراثيو لتتناولها معه. شيء ما كان يحدث ويهيئ الأجواء، ففي العتمة الباردة المخيّمة على البار، الخالي تقريباً من الزبائن، في ذلك العصر القائظ، جلسا عند طاولة منزوية وسمعا من الغارسون المبتسم بأنّ طلبهما متوفر: بيرة باردة.

52- إشارة إلى قبائل الماندينغي الأفريقيّة التي تسكن الأراضي القريبة من مالي.

لو لم تخط إليسا الخطوة الأولى، هل كان تجرّأ هو وخطاها؟ لطالما أجاب هوراثيو على سؤاله ذاك بالنفي. لكنّ ذلك السؤال لم يبدأ يلحّ عليه إلّا حين انتحر والتر وحين اختفت إليسا بعد ذلك بقليل. لذلك صار يشكّ في قيمة إجاباته المبنيّة على الأحكام المسبقة، بل وفي مدى أثر أفعاله. مهما يكن من الأمر، فالصحيح هو أنّ الشياطينَ انفلتت من عقالها بعد انتهائهما من تناول زجاجة البيرة الثانية، إذ غمرهما إحساسٌ، لا بالسكر والانتشاء، بل بالخدر والاسترخاء.

سرقهما الوقتُ وهما يتحادثان عن خطورة الوضع الذي يشهده البلد. لم يكن قد مرّ وقت طويل على النظر في القضيّة الأولى والثانية من محاكمات عام 1989[53]، التي انتهت بأحكام وصلت إلى الإعدام، والتي أجبر والد إليسا المتنفّذ نتيجتها، ولسبب ما تجهله -كانت تتجنّب الكلام عن الموضوع-، على الإقامة في بيته، ربّما لعقوبة صدرت بحقه، أو لأنّه ما زال قيد التحقيق. في تلك الأثناء، كانت درجات حرارة السياسة تتصاعد في ألمانيا الديموقراطية على نحو يثير الدهشة، وأفسح غورباتشوف، في الاتحاد السوفييتي، المجال أمام تململٍ تراكم وكُبت طوال سبعة عقود، باتت تتردّد أصداؤه على صفحات مجلات من مثل *سبوتنيك* وأحداث موسكو (منع تداولهما في الجزيرة). وتكلما بالطبع عن أمور تافهة من بينها (وقد انتهيا من الزجاجة الثانية) علاقة هوراثيو بغيستي، ممّا أثار ذلك ضحك إليسا، التي وصفت غيستي بصاحبة المؤخرة البلهاء. في تلك الأثناء، أتاهما الغارسون اللطيف بالزجاجة الثالثة. نظرت إليسا إلى هوراثيو، قبل أن تشرب من زجاجتها:

- أما زلتَ تشتهيني؟

فوجئ هوراثيو، وظنّ أنّه لم يسمع سؤالها جيداً. ولا سيّما بسبب استعمالها *ما زلتَ*.

53- إشارة إلى محاكمة الجنرال أرنالدو توماس أوتشوا وعدد من ضباط الجيش ووزارة الداخلية بتهمة الارتباط بشبكات تجارة الكوكايين الكولومبية. صدر عليه وعلى عدد من الضباط الحكم بالإعدام في حزيران 1989.

- ماذا قلتِ، إليسا؟ - قال وهو يحاول تجميع أفكاره.

- ما سمعتَ،... منذ سنوات وأنت تشتهيني، ولا أدري إن كنتَ ما زلت راغباً بي... في السابق، كنتَ تحبُّ الناضجات، لكنّك الآن تفضّل الشابات...

- لا تلعبي بعقلي، إليسا - قال وتناول جرعة طويلة من البيرة.

يعلمُ هوراثيو أنّ تلك الرغبة لم تفارقه يوماً، وإن أضمرَ في نفسه استحالة تحققها، وربّما انتظر تحققها، ولكنّه نسيها تقريباً بعد أن نال منه اليأس. ثمّ إنّ إليسا زوجة برناردو، صديقه، ونساء الأصدقاء، بموجب أخلاقيات هوراثيو، لا يقعن ضمن أهدافه المرشحة، بل يتحوّلن إلى جزء من المنظر فحسب.

- ظننتُ أنّك أكثر انسجاماً وثباتاً - قالت.

- ثبات؟

- نعم، ثبات... في الفيزياء، الثبات يرتبط بالتجانس والانسجام...، أليس كذلك؟

ابتسم هوراثيو

- لا، ليس كذلك... لكنّ قولك يعجبني.

- أمّا في الحياة، فالحال هي هذه... فلو كنتَ ثابتاً منسجماً، فهذا يعني أنّك ما زلتَ راغباً. فأنا أعرف أنّك، ومنذ سنوات، وضعت ذلك هنا - قالت ومسّتْ بإصبعها جبين هوراثيو، لتطلق العاصفة في الحال: أنزلت يدها المفتوحة على وجه الرجل، وطافت بها في رقبته وصدره ثمّ وضعتها على فخذه. تابع هوراثيو حركة ذراعها وغزاه إحساس قويّ بالخطر، غزا جسمه قبل أن يصل إلى دماغه فيعبث بتلافيفه وحجراته.

في عتمة البار، سكتا عن الكلام، وراحا يتبادلان القبلات الساخنة والمداعبات الناريّة. ومن فوق بنطاله، راحت إليسا تداعب عضوه، وابتسمت حين تحققت من حجمه وتماسكه، فقابلها هو بأن أطلق العنان لأصابعه لتسيح في الغابة.

- هل تحمل واقياً ذكريّاً؟

- أنا لا أخرج من دونه - وأشار هوراثيو إلى محفظته.

في شقة زميلة العمل القريبة، استمتع الاثنان بجولة أولى، شابتها العجلة واللهفة. حاول هوراثيو أن يكون المبادر، لكنّ إليسا أحسنت التحكّم بغريمها حتّى أحالت الفعلَ تلاحماً بين جسدين. حين نهضت وبدأت ترتدي ملابسها، لاحظ ازرقاقاً في ذراعها، سألها، فأجابته بأنّه ضريبة المهنة: رفسة حصان كانت تعالجه. وسرعان ما نسي هوراثيو ذلك الحوار. أو ظنّ أنّه نسيه.

بعد يومين، كان اللقاءُ مُرضياً لكليهما، وخصوصاً هوراثيو. سايرها... جاراها، فاكتشف مهاراتها واستمتع بتحررها: ألبسته الواقي الذكري وهي تداعب بيضتيه وتدغدغ منطقة الشرج لتثيره. وانتفض من اللذة مرتين، بقيتا في مخيلته لتذكره بتلك الأمسية التي كانت علامة فارقة في تجربته الجنسية العريضة. وحين تمكّن منهما التعبُ، تجاذبا أطراف الحديث حول التجربة التي أوشكا على إنجازها. صحيح أنّه أحسّ بالفرح، لكنّه أحسّ أيضاً بالذنب (في حقّ برناردو)، إذ استعملته إليسا أداة بيدها؛ وصحيح أنّه أحسّ بالشبع، لكنّه كان طامعاً في المزيد. مع ذلك، فقد أدرك الرجل أنّه بات على شفا هاوية لا قاع لها، وأنّ الخطوة التالية قد تعني سقطة قاتلة، وإن بدت أسباب الموت متعددة. لكنّه وضع تقرير المستقبل بين يدي إليسا، وحتّى إشعار آخر.

– هل أراكِ بعد غدٍ؟ – سألها حين بدأت، وهي بعدُ عارية، تملأ وعاء الطعام للقط.

– إذا رغبتَ – قالت وهي تنحني أمام الوعاء.

– وهل يردّ الكريم إلّا اللئيم! – قال، وانقضّ عليها، وهي على تلك الوضعيّة، وقد فرجت ما بين ساقيها، وراح يدعكُ ذكره، ويحرّكه، صعوداً ونزولاً، في أخدود العِجان الأملس المثير، حتّى خطت هي خطوات إلى الأمام لتبعده عنها.

– كفاكَ ما نلتَ اليوم، فلا تكن طماعاً... هيّا اغتسل وارتدِ ملابسك وانتظرني تحت – قالت وقبّلته، وهي تدفعه نحو الحمّام.

في الطريق إلى موقف الحافلة، في شارع 23، تمنّى هوراثيو لو أنّه حمل إليسا بين ذراعيه. حين وصل إلى الطريق الذي عليها أن تسلكه، توادعا بالقبلة المعتادة بين الأصدقاء. وبعد دقيقتين، شعر بالضيق يغمره لغياب

تلك المرأة، وانتبه إلى أنّه نسيَ ساعته في شقة صديقة إليسا. أغمض عينيه واستطاع أن يرى ساعته القديمة من نوع *باتيك فيليبي*، التي ورثها من أبيه، موضوعة على المنضدة الملحقة بالسرير، بالقرب من عمود المصباح البرونزي. وقال لنفسه يطمئنها إنّه، في المرّة القادمة، سيستعيد تلك الساعة، التي تحمل معها الزمنَ والذكرى.

وكما اتفقا، فقد انتظر هوراثيو، بعد يومين، إليسا عند الدرج المؤدّي إلى الشقة. غربت الشمس، وحلّ الليل، واشتدّت لهفة هوراثيو، لكنّ إليسا لم تصل. وحين وجد أنّ الانتظار طال وأنّ الصبر نفد، نظر، وهو ينزل إلى الشارع، إلى شرفة شقة صديقة إليسا واستغرب إذ رأى بابها مفتوحاً ونورها مضاءً. فهل كانت إليسا هناك طوال الوقت، بينما أنفق هو العصر كلّه كالأبله منتظراً يتحرّق شوقاً ورغبة؟ صعد إلى الشقة وطرق بابها. وما كان أشدّ دهشته حين فتحت الباب امرأة لا يعرفها... إنّها المرأة نفسها التي رآها تدخل البناية قبل ساعة تحمل حقيبة على ظهرها. ظلّ هوراثيو صامتاً ذاهلاً. بادرته المرأة:

– تفضّل.

– معذرة، مساء الخير... أنا... معذرة –وحين كان موشكاً على أن يستدير ليتخلّص من ذلك الموقف المحرج، شعر بجذبٍ يجبره على التوقف. لقد اتخذ قراراً ينطوي على مغامرة، ولن يلبث أن يعلم أنّه قرارٌ مهلك–. أنا صديق زميلتكِ إليسا و... قبل كم يوم، رافقتها لإصلاح تسريب في الحمام، وهناك نسيت ساعتي. إنّها ساعة من نوع *باتيك فيليبي*، مربعة، سيرُها مستهلك، وهو من جلد التمساح و...

هزّت من بدا أنّها صاحبة الشقّة رأسها.

– ما اسم حضرتك؟

– هوراثيو...، لماذا؟

– انتظر لحظة –قالت واستدارت، ثمّ عادت تحمل هاتفاً وقد لصقت سماعته على أذنها–. إليسا؟... نعم، أنا... إليسا... هل تعرفين شخصاً يدعى هوراثيو؟... نعم... إنّه هنا وجاء يبحث عن ساعته التي تركها في

بيتي... لا... لا. لا تشرحي لي شيئاً... قلتُ لك لا، إليسا!... سنتكلم غداً. - ووضعت السماعة وقد بدا عليها الاستياء.

أحسّ هوراثيو، وهو عند عتبة الباب، بالعرق يتصبب من جبهته ويسيل على خدّيه، وشعر بمعدته تعصره وبكيس خصيتيه يتغضّن. هل ارتكب حماقة؟ وما مداها وعواقبها؟ استدارت صاحبة البيت وغابت في الداخل بضع ثوان، ثمّ عادت وهي تحمل كيساً صغيراً من النايلون.

- في الكيس ساعتك... وولاعتك... كانت تحت السرير -قالت، وسلّمته الكيس، وأضافت-: طاب مساؤك. - وأغلقت الباب في وجهه.

خرج إلى الشارع، لكنّه لم يفتح الكيس. كان يشعر بحرارة الخجل تنبعث من وجهه، وأحسّ في فمه بطعم نزواته المرّ. سار حتى الناصية، فتح الكيس تحت عمود الإنارة العامة في الشارع. رأى الساعة ومعها ولاعة طويلة سميكة. أخرج ولاعة البنزين فشعر بشيء يتوقّف في داخله: أسطوانتان ملتصقتان، بلون أمغر باهت، عليها بقع من لونها الذهبي الأصلي، ونقش على جانبها اسم والتر.

حين وصل إلى بيته، وقد تجاوزت الساعة التاسعة مساءً، أحسّ هوراثيو كأنّ إحباطاته تراجعت، وغضبه انحسر. غمره شعور بالراحة، على الرغم من الرغبة التي كانت تجتاحه حتى قبل ساعة من الوقت. إنّ من الأفضل ألّا تعاود إليسا الظهور في حياته، وألّا يركب صعباً مهلكاً من قبيل الوقوع في حبّها. لقد بات يمتلك كلّ الأسباب التي تردعه عن سلوك ذلك الطريق. بل لقد بدأ، في غمرة ذلك الخليط من الهياج والبرود، من التوتر والاسترخاء، يشعر بالحاجة إلى الترفيه عن نفسه والتنفيس، فاتصل بغيستي، التي هرعت لمساعدته، فوجد فيها خيرَ نجدة ومعين.

مرّت ثلاثة أسابيع، عاد بعدها للقاء إليسا، وكانت في صحبة برناردو. لم يبد على تصرفاتها أنّ شيئاً بينهما حدث، ولا لقاءً وقع، ولا علاقاتٍ نارية استعرت. قضي الأمر وأسدل الستار. ارتياح.

وبعد أشهر قليلة، اختفت إليسا، وحين أجرى حساباته وأخرج استنتاجاته بدا له اختفاؤها وبدت له عواقبه كارثيّة *بالضرورة*. فبرناردو لم يكن قادراً

على الإنجاب، وهو استعمل الواقي الذكري في المرتين الوحيدتين اللتين التقاها...، فإليسا، إذن، كانت تعاشر رجلاً آخر في ذات الأيام التي كانت تعاشره هو فيها. ولا بدّ أنّ ذلك الرجل، المسؤول عن حملها، هو والتر، صاحب الولّاعة التي ظهرت تحت السرير، حيث ضاجع هوراثيو، في أمسيتين من حياته، تلك المرأة التي تبخرت.

منذ البداية، لم يصدّق هوراثيو قصّة انتحار والتر. رغم الأدلة التي باتت بحوزة الشرطة والاستنتاجات التي توصّلت إليها. إذ لم تبدُ له حياة الفقيد المضطربة، التي تتجاوز في غرابتها حدود ما هو طبيعي؛ ولا جنونُه، ولا شعوره بالملاحقة؛ ولا خيبة أمله المزعومة في إبداعه وحياته وفنّه، ولا افتراض مسؤوليته عن حمل إليسا، أسباباً كافية لكي يقرر أن يزهق روحه بيده. لا بدّ من وجود شيء آخرَ به تكتمل أركان الانتحار، شيء لم يكتشفه (أو لم يتذكره) لا هوراثيو ولا بقيّة أعضاء الأخويّة، ولا حتّى الشرطة. أم إنّ والتر كان أكثر جنوناً ممّا كان يبدو، أو مخموراً، أو ملاحقاً، إلى درجة أنه اختار ذلك الطريق؟

ولكن. إن لم يكن والتر مات منتحراً، فمن عساه يكون من رمى به من شاهق؟ هل من الممكن تصديق رواية الشرطة عن قفل باب سطح البناية المغلق من الداخل؟ كان في تلك المعلومة ما زاد من جرعة الرعب في الحادثة: لقد ألقى به شخصٌ يعرفه والتر ويثق به ويصعد معه إلى السطح. ولكن، إن كان صحيحاً أنّ أحداً ما ألقى به من شاهق، فلماذا أغلق هذا الشخصُ القفل من الداخل وأضاف إلى أدلّة الجريمة دليلاً، بينما كانت فرضيّة الانتحار أمراً وارداً؟ أم إنّ حكاية القفل قصة اختلقتها الشرطة لتسخين الأجواء والكشف على المزيد من المعلومات؟ ولماذا كانت الشرطة متأكّدة من أنّ والتر سقط من السطح وليس من شقّة تقع في الطابق الأخير أو قبل الأخير أو قبل قبل الأخير؟ هل لمجرّد أنّهم وجدوا ما دلّ على وجوده في ذلك المكان؟

مع تلك الأسئلة التي تتقاطع وتلغي إحداها الأخرى، في غياب الأجوبة المقنعة، أصرّ هوراثيو على مواصلة البحث عن قرينة تقوده إلى اكتشاف

يحتاجه لكنّه يخشاه. فإن كان والتر عاشر إليسا، كما أبان عن ذلك العثور على ولاعته، وسبّب لها الحمل (لا برناردو ولا هوراثيو)، ففي تلك العلاقة قد يكمن أصلُ اختفاء إليسا (حية؟ ميتة؟) وربّما نهاية والتر (منتحراً أو قتيلاً؟).

وكما كان متوقعاً، فقد اتجهت شكوكه، أوّل ما اتجهت، صوب برناردو. ففي إدمان الرجل، واحتمالِ اكتشافه العلاقة بين امرأته ووالتر، والإهانةِ التي ألحقتها به إليسا، أسبابٌ أكثر من كافية لارتكابه فعلاً من ذلك الوزن. لكنّ طبعَ برناردو اللين وتساهلَه في مسألة الكرامة والثبات -كما قد تقول إليسا- يجعل من الصعب التفكير في قدرته على الإتيان بعملٍ على ذلك القدر من الوحشيّة. وهذا كان رأيُ الشرطة، التي اقتنعت بحجّة برناردو لإثبات غيابه عن مسرح الحادث المفترض، ليلة انتحار والتر. ثمّ أكّدت إفادة إليسا حجّته. أم إنّ برناردو هو من أكّد حجّة غياب إليسا، التي اختفت حين شعرت بأنّ خطر سير التحقيقات يتهددها؟

وتوصّل هوراثيو، في تحريات أخرى، إلى معلومات مهمّة، أثار بعضها شكوكه وقلقه، معلومات جعلت من والتر يبدو لأصدقائه عالماً غامضاً يصعب استكشافه والغور في خفاياه. من بين تلك المعلومات علاقته، أثناء إقامته في أكاديميّة الفنون التشكيليّة في موسكو، بشابّة أنغوليّة رائعة الجمال، ابنة سياسي كبير من زعماء ذلك البلد الأفريقي. حملت البنتُ من تلك العلاقة ثمّ ماتت أثناء عملية إجهاض شبه سريّة (أو سريّة) يبدو أنّ والتر أجبرها على إجرائها في أحد مشافي موسكو. وقد روى رسّام تعرّف على والتر في الأكاديمية لهوراثيو أنّ السلطات السوفييتيّة لملمت الموضوع وطمطمته -وهي الخبيرة في اللملمة والطمطمة-، خوفاً من أن يؤدي الكشف عنه إلى أزمة دبلوماسيّة. وكانت تلك الحادثة هي ما جعل مسؤولي الطلبة الكوبيين في الاتحاد السوفييتي يقررون حرمان والتر من منحته الدراسية وإعادته إلى كوبا، على الرغم من أنّ السبب لم يذكر في إضبارة المطرود - ربّما أيضاً بطلب من السوفييت، الحريصين على محو كلّ ما يدل على تلك الحقيقة.

وقادته معلومة أخرى، حول علاقة لوالتر بشخصٍ يزعم أنّه يتاجر

بالماريجوانا، إلى القرار بالبحث في هذا الاتجاه، وتوصل إلى أنّ والتر كان على علاقة بشخص اعتقل بتهمة المتاجرة بمخدرات (كوكايين أيضاً؟) يزوّده بها رجل آخر يحصل عليها، بطريق ما، من مستودع المخدرات المصادرة. فهل كشف المعتقل عن اسم المزوّد وأسماء الوكلاء، وأورد في المحاكمة ذكراً لوالتر؟ تلك كانت تهمة أكثر من ممكنة.

لقد انتفع هوراثيو من تلك الاكتشافات الخطيرة والتفاصيل الصغيرة ليكوّن صورة أوضح وأتمّ عن الرجل الذي ظنّ أنّه يعرفه جيداً، ثمّ تبيّن له عمق غموضه وبُعد غوره. ربّما كان والتر الغامض، فكّر هوراثيو، على حقّ (بعض الحق) حين كان يظنّ أنّ أحداً ما يتعقبه ويراقبه (من عساه يكون، إذا استبعدنا غيستي اللعينة؟). ولكن، إذا كانت الشرطة تتعقّب والتر وتراقبه...، أليس من المنطقي أن تعرف عنه أكثر ممّا يعرفه عنه هوراثيو وأصدقاؤه؟ ولماذا لم يحملها ما تعرفه عنه على ترجيح فرضيّة الانتحار وغلق التحقيق؟ أليس من الممكن أنّ يكون هوراثيو يسعى وراء سراب؟

استوقف هوراثيو واحد من الأسئلة التي طالما ألحّت عليه: كم كان يعلم هو وأصدقاؤه عن ماضي والتر، وعن الكثير من شؤون حاضره؟ هل صحيح أنّه كان يتعاطى الكوكايين، وهو أمرٌ صعبٌ في كوبا؟ كم كان يصدق، وكم كان يكذب في أفكاره المضطربة والجريئة، ومحاولته توريط داريّو في خططه بالهرب، واختفائه المتكرر، المبرر أو غير المبرر، واعترافاته بتعاطيه الماريجوانا (أم إنّه قال إنّه يتعاطى المخدرات؟)، وأكاذيبه عن ماضيه، وشكواه الدائمة من أنّه يتعرض للمراقبة (من طرف غيستي) والملاحقة (مِن طرف مَن؟)... وشعر هوراثيو بخيار يحاصره ويضيّق الخناق عليه: ألا يمكن أن يكون والتر هو الجاسوس الحقيقي الذي كان مندسّاً بينهم؟ ثمّ شعر بوطأة سؤال آخر: هل كانت إليسا تعرف بتلك القصّة المريبة المربكة؟ ولم يلبث هوراثيو أن وجد نفسه في مواجهة جدار لا يستطيع اجتيازه ولا الالتفاف حوله ولا، بالطبع، اختراقه. وأخيراً قرّرَ أن يستلّ سيفه. لكنّه لم يكسره.

كلّ شيء يدلّ على أنّ الأرمجدون[54] قد يقع في أيّة لحظة.

كلّ شيء ينقص. إلّا الوقت. ما أقسى الوقت، وما أقدره على الانقباض والانبساط، وهذه هي النسبيّة: يتباعد الوقتُ بين طعام وطعام مثل صحراء واسعة شاسعة، لا تدري، أحياناً، إن كان في الإمكان قطعها؛ فترات القطع الكهربائي تتحوّل إلى انتظار أبدي؛ ساعات الانتقال المرهق من منطقة إلى أخرى، إن اخترت الانتقال على الدرّاجة الهوائيّة الصينيّة، أم الانتظار القاتل إن اخترتَ أن تنتظر واسطة نقل عموميّة. أمّا ساعات الدوام في الدوائر والمصانع وأيّة مصلحة من المصالح فقد تقلّصت، حالها حال البرامج في قناتي التلفزيون الوحيدتين في البلد ودور السينما، إن كان ما يزال من عروض. حتى العروض التي تنظمها المدارس قلّصت. والنتيجة أنّ الجميعَ ربح وقتاً، وإن كان ربحاً لا ترى فيه الأغلبيّة ما يُغني ولا ما يُسمن، لأنّه وقتٌ خاوٍ أو منحرف، مشوّه، فكأنّه يمرّ من خلال إحدى ساعات دالي الذائبة[55].

لقد بات عدد الأشياء المفقودة أو الناقصة أو المختفية من الكثرة أنّ الناس ما عادوا يفتقدونها، فكأنّها لم توجد أصلا ولم تخلق، وكأنّهم لم يعرفوها ولم يسمعوا بها، بينما صاروا يسرفون في إنفاق شيء متوفّر ولكن لا يمكن خزنه ولا استرداده، بل لا يمكن، في الكثير من الأحيان، حتّى استخدامه استخداماً رشيداً: إنّه الوقت الدبق، الذي يتحرّك بالتصوير البطيء، فلا يلوح

54- تظهر في الكتب المقدسة للإشارة إلى قيام الساعة ونهاية العالم.

55- تصوّر لوحة «إصرار الذاكرة» أو «ثبات الذاكرة» *La persistencia de la memoria* لسلفادور دالي (1904-1989) عدداً من الساعات ذائبة ومائعة، تعبيراً عن نسبيّة الزمن وإشارة إلى نظرية آينشتاين.

له من حلٍّ ولا تبدو له من إمكانيّة على ضبط ساعته أو توقعاته. وقت مُصرّ على خلق إحساس تاريخي مديد بالتعب.

مع ذلك، فقد وجد هوراثيو في ذلك الوقت الطويل المملّ ما عاد عليه بالنفع: كان مناسبة عملَ أثناءها بجدّ في إعداد إطروحته في علوم الفيزياء لنيل الدكتوراه في علم المواد. وكان له في ذلك ما أنقذه من الجنون ومن حالة اليأس التي تضافرت الظروف والأجواء على خلقها. استعد، حينئذٍ، لتوسيع دراسة حول أشباه الموصلات كان بدأها حين كان مساعد باحث في سنوات دراسة الليسانس. فانكبّ على إعداد تلك الدراسة وكتابتها بكلّ شغف وحماس، ووظف لذلك كلّ ذكائه ونبوغه. أخذ العملُ منه ما يقرب من سنتين، نسي أثناءها مشاكل الحياة ونسي العالمَ المحيط به، بل لقد التفت إلى الأجهزة اللازمة لتجاربه، وهي أجهزة سوفييتيّة وألمانيّة مستهلكة من كثرة الاستعمال وسوئه، فأعاد إليها الحياة بمواد جلبها من أجهزة أخرى أسوأ حالاً. وبلغ به اجتهاده أنّه أنجز أطروحته في ربيع 1992، في ما يكاد أن يكون وقتاً قياسياً.

حين سلّم أطروحته، بُهت عميد الكليّة، وسرعان ما تحوّل تعجّبه إلى تأثّر إذ وجد، مع الأطروحة، مقالتين (يسميهما هوراثيو «ديكارتات» عمله في الدكتوراه) أجيز نشرهما في مجلات جامعيّة في المكسيك وإسبانيا. وتعهّد رئيسُ لجنة المناقشة للطالب، بعد الاطلاع على أطروحته المؤلفة من ثلاثمئة صفحة، وبعد التحقق من أنّ الطالب اجتاز امتحاني الفلسفة الماركسيّة واللغة الإنكليزيّة، بأنّه سيطلب، من اللجنة الوطنية للشهادات العلميّة، دراسة العمل وتقويمه. البحث ممتاز، قال، بل هو خير ما قدم من بحوث في السنوات الأخيرة، وأكّد أنّ الجميع سيجيزونه. وهكذا كان. وهكذا نال هوراثيو، في الأيام الأخيرة من السداسي الأوّل من السنة الدراسيّة 92/ 93، الدكتوراه في علوم الفيزياء من جامعة هاڤانا. وبلغ حماس رئيس اللجنة أنّه اقترح على هوراثيو أن ينضمّ إلى فريق العمل الذي يترأسه هو، والذي خطط لإنجاز العديد من الدراسات عن أشباه الموصّلات بالتعاون مع جامعات برازيليّة، وفي البرازيل.

وهكذا وجد هوراثيو، الغارق في العوز وضياع الأفق وانقطاع الكهرباء

والشعور الوطني بالتعب، أنّ حصوله على الدكتوراه وأحلامه الوليدة في السفر والاستكشاف والهرب وتجاوز المحنة، مدّته بضوءٍ أبقى عليه نشيطاً مُلهماً لأشهر، لكنّ ذلك الضوء سرعان ما بدأ بالخفوت والاحتضار.

اعتاد هوراثيو أن يمضي بضعَ ساعاتٍ من وقته، الذي ظلّ يفيض عليه حتّى بعد حصوله على الدكتوراه، بالجلوس عند سور الماليكون [34]، ليتأمّل البحر أو، إن استفاقت خلاياه العصبيّة من سباتها، ليفكّر. ينظر إلى البحر غيرَ واثقٍ من أنّ ألوانه وكثافته وصفاته هي نفسها قبل ثلاث سنوات أو أربع، أو قبل ثلاثة قرون أو أربعة. ثمّ ينمو في داخله الإحساسُ بالطوق المحكم، الذي توحي به تلك الرقعة المائيّة، فيقوّي فيه معنى الانغلاق والاختناق: إنّه دليل تغيّر فيزيائي وكيميائي كبير، بل هو أوضحُ دليلٍ على عزلةٍ قانونيّة وجغرافيّة وروحية لا يمكن تجاوزها أو الخروج منها.

صارت الأيـام التي أمضاها في إعـداد أطروحته، مشتغلاً ساعات وساعات في مختبر الكليّة أو معتكفاً في المكتبة المركزيّة، تبدو له بعيدة، فكأنّ من عاشها شخصٌ آخر غيره. أمّا حلمه الذي ولد مع قناعته بأنّه بات نافعاً، بدلالة ضمّه إلى مشروع التعاون الأكاديمي مع البرازيل، وفي البرازيل (ما أكثر ما حلم! وما أجملَ ما تصوّر عليه مستقبله العلمي!)، فقد انتهى بخيبة أمل كبيرة. إذ لم يقع الاختيار عليه، بعد أن كان الجميع يرون فيه المرشح المثالي: زملاؤه في القسم والعميد ورئيس لجنة الدكتوراه. فقد حسم متنفذ في الوزارة الموضوع ورشّح «بالاسم» استاذاً مخضرماً من جامعة (كاماغوي)، حاصلاً على الكثير من التكريمات وكتب الشكر، وله الكثير من الأنشطة الحزبيّة، والعديد من الكتب والمطبوعات السالمة فكرياً. ومع خيبة الأمل تلك التي أصابت مشروعه العلمي والشخصي، وصلت إلى هوراثيو رسالة رسمية مواسية تعده بأنّه سيكون على رأس قائمة المرشحين في أيّة فرصة قادمة. ولكن، أيّة فرصة والشلل يحيط به من كلّ ناحية؟ - سأل هوراثيو نفسه.

وحملت التحديات الذهنيّة هوراثيو على أن يبدأ، فور انتهائه من مناقشة إطروحته، بدراسة اليونانيّة القديمة، فقد كان مولعاً بعوالم الفلسفة والفيزياء. لكنّ ما أسماه هو بأنتروبيا المحيط أو التحوّل البيئي (حرارة وظلمة وجوع وغياب أفق) كان أقوى منه، فتغلّب عليه وكسره. لقد تمكّن إحساسٌ بالهزيمة وشعورٌ بالإرهاق من معنويات الفيزيائي النشيط وشلّه، كما يفعل بالبلد وناسه أجمعين. لذلك صار هوراثيو يذهب إلى الماليكون، لينظر إلى البحر وليسأل نفسه ذلك السؤال الأبدي: ما الذي جرى لنا؟ ثمّ ينظر إلى البحر، ثمّ يتلفّت إلى ما حوله ليرى المدينة تتصدّع، وتزداد ظلمة وانحطاطاً وتنهار. ثمّ يعاود النظر إلى البحر، وحالما يغمره الإحساس بفراغ كئيب، يستولي عليه خمولٌ كوني (من الكلمة اليونانيّة kosmo التي تعني القانون أو الكون المنظّم، وهو المفهوم المعاكس لمفهوم chaos أو الفوضى). ثم يعود وينظر إلى البحر ويتحداه: سأنتصر عليك، يقول له، ويصرخ في وجه الأمواج، حين تمكنه قوته من الصراخ. وينظر إلى البحر مراراً، ويحلم بشيء غامض، مشوّش، يقع في الضفة الأخرى من ذلك البحر نفسه، ويقول لنفسه: أنا في الرابعة والثلاثين، وليس في الرابعة والثمانين: سأقاوم، لن أصاب بالجنون، لن... ثمّ يعود ليسأل نفسه: ما الذي جرى لنا؟ ويردّ هو على سؤاله. أطرشان يتحاوران: عليّ أن أرحل، عليّ أن أرحل، لن أصاب بالجنون.

إنّها الأيام الأولى من 1994. سقط هوراثيو في حفرة في الشارع وهو يقود دراجته الهوائيّة. وغطّى الدم الذي نزف من جبهته أصابعه. لعن الدنيا ولعن أمّه التي ولدته وفكّر أنّه ما عاد يتحمّل المزيد. واتخذ قراره بالرحيل، بأيّة طريقة وبأيّ ثمن: فالحياة واحدة، وهو يريد أن يحياها، لا أن يضيّعها بين خيبة أملٍ وجنونٍ وحفرةٍ من حفر الشارع، حيث سقط وجرح وفقد آخر آماله. وقاده التفكير إلى تذكّر حالة داريّو: فإمّا الرحيل وإمّا الجنون.

وبعد أسبوعين، كانت بانتظار هوراثيو مهمّة عظيمة. ركب دراجته الصينيّة الثقيلة قاصداً (فونتانار)، فاليوم هو 21 كانون الثاني، ذكرى ميلاد كلارا الرابعة والثلاثون. لكنّ ما رآه في ذلك اليوم كان أصدق صورة للكوارث التي تتحدّث عنها الكتب السماويّة. إذ لم يبقَ من الأصدقاء الذين كانوا يأتلفون طوال سنوات للاحتفال بصداقتهم وشبابهم وآمالهم، غير بقايا

محطّمة. فبعد انتحار والتر واختفاء إليسا بأشهر، أعلن داريّو عن لجوئه في إسبانيا حالما وطئت قدماه أرضها، وإن كان سافر إليها للتخصّص فحسب. وفي نهاية عام 1992، زاغ فابيو وليوبا، المؤتمنان المتفائلان الملتزمان حزبيّاً. سافرا ضمن وفد رسمي، لحضور مؤتمر في بوينوس آيريس، لكنّهما لم يحضرا جلسة واحدة من جلسات المؤتمر، بل اختفيا، بمساعدة ابن عمّ ليوبا، المقيم في الأرجنتين، وتركا ابنتهما فابيولا بعد أن وعدا بإخراجها من البلد حين يكون ذلك ممكناً، فهما يعلمان أنّ عقوبة الهاربين هو وقوع الحجز على أقاربهم لأعوام.

واحتفل الباقون بالمناسبة: حضر إرفينغ وجويل، بعد أن صعدا في حافلة لعمال المطار بعد أن دفعا للسائق؛ وبرناردو، وكان مقيماً من عدة أيّام في بيت كلارا، في إحدى محاولاته للإقلاع عن الكحول، بعد أن امتقع لون وجهه واختفت من جرّائه آلاف من خلاياه العصبيّة؛ وجاء هوراثيو على ظهر دراجته الهوائية التي أقام معها علاقة قوامها الحب - الكراهية. لقد بات الخلاسي الشاب، الدكتور في الفيزياء، الوسيم المنسجم الثابت، خلاسياً نحيلاً كئيباً متردداً، أحرقت الشمسُ بشرته، وعلت جبهته ندبة، وركن إلى حالة غير مألوفة فيه وطويلة من الانقطاع عن النساء. وكانت هناك، بالطبع، كلارا، المحتفى بها، متقوقعة مثل رخوية قابعة في صدفتها، تعيل البيت الذي كانت في أوقات أخرى تنفر منه، وتعمل المستحيل لإقامة أود ولديها رمسيس وماركوس، اللذين باتا صبيين على عتبة المراهقة، لا يشبعان من الأكل ولا يكفّان عن النموّ، حتّى باتا طويلين أهيفين كالقصب.

بالموارد القليلة، استطاع الباقون من الشلّة أن يأتوا بكروكيتات مجهولة الحشوة (مساهمة من هوراثيو) وبسكوتٍ مطليّ بعجينة مليئة بالخردل (صنع يد جويل) وسَلطة باردة من السباغيتي وخيوط من لحم الدجاج (إعداد إرفينغ). وفوجئ الجميع بنقانق مكسيكيّة وجبنة هولنديّة، وقطع من بورك التامال، وطنجرة من البطاطا الحلوة، جمعتها كلارا بنفسها من الحقل، ورشّتها بعصير النارنج. وبلغ فرحهم حدّه إذ رأوا زجاجتين من الرون. كانت كلارا هي من جلبت معظم تلك المنتجات العجيبة الفريدة للاحتفاء بأصدقائها، وأنفقت في شرائها خُمس المبلغ الذي أرسله لها داريّو بمناسبة

نهاية العام وعيد ميلادها: مائتا دولار! (أنفقت كلارا بقيّة المبلغ، بحكمتها المعهودة، على إطعام ولديها، وقدّرت أنّ المبلغ قد يكفي، بعد شدّ الحزام جيداً على البطن،... كم يكفي؟ ستة أشهر؟ ثمانية؟... حتّى يفيق داريّو من نومه ثانية).

ومنّى أعضاءُ الأخويّة المبعثرة أنفسَهم، إذ رأوا تلك الطيبات، بوليمة فاخرة، وأمضوا سهرة امتدّت حتّى الفجر، بعد أن علّق برناردو علاجاً التزمه منذ ستة أيام، وذهب إلى مكان يعرفه، يباع فيه شراب وطني يكوي الحنجرة، لكنّه يبعث في شاربه القوّة والنشوة. ولما كان الوقتُ هو الشيءَ الوحيد الذي يفيض عليهم، فقد استلقوا جميعهم، بعد أن لعبت الخمرة برؤوسهم، على ما وجدوه من سرر وأرائك ومراتب. ناموا على وقع السكر والشكوى، بل على وقع الأفراح التي قرّبهم منها، على الرغم من كلّ شيء، شبابهم المتقهقر وقدرة المقاومة لديهم.

وقبل أن يدخلوا في حالة السبات التي حملهم إليها الطعامُ الذي تنافسوا في ازدراده والشرابُ الذي جدّوا في عبّه، قدّم هوراثيو أحد تشخيصاته الدوريّة على حياته وحياة الأشخاص الذين تقاسم معهم سنواتٍ وهموماً. تذكّر أوقاتاً من الاندفاع والأحلام، كانوا فيها طاقاتٍ تتفجّر وتستعدّ لتمنح المجتمع وتمنح نفسها ثمارَ جهودهم ومعارفهم. في ذلك الماضي، الذي بدا ساحراً، بل خيالياً، رأى أشخاصاً فيهم من الاندفاع والحيويّة ما يجعلهم يبدون الآن في نظره قمّة في البراءة والنقاء والصدق. بل لقد بدت له كلّ واحدة من زلاتهم أو إساءاتهم مكوناً اعتيادياً من مكونات الوجود: الغيرة والخوف والخيانة والطموح، وحتّى حالات التخفّي أو الخداع (ما حدث مع إليسا، حتى موضوع والتر، المخبر المزعوم). واستحضر صورة كائناتٍ كانت تبدو سعيدة، بل كانت سعيدة، مجتمعة في هذا الترّاس نفسه، شبابٍ لم يكن أيّ منهم، حتّى أكثرهم عدوانيّة وتمرّداً وخيالاً، يتصوّر مبلغ ما وصلوا إليه من التشتت والسقوط في أجواء اليأس والخمول والكآبة التي لاحت علاماتها وبدأت طلائعها.

- ما الذي جرى لنا؟ - انبثق السؤال من أعمق أعماق روحه.

نظرت كلارا، ونظر برناردو وإرفينغ وجويل، إلى هوراثيو، فكأنّهم ينظرون إلى فضائيٍ يسأل عن الكوكب الذي هبط صحنُه الطائرُ عليه بعد أن أضاع مداره.

– ما بك، هوراثيو؟ – سألت كلارا، وهزّ الآخرون رؤوسهم داعمين، وقد استغربوا السؤال.

عندها، رفع برناردو كأسه، لكنّ إشارة من مخّه حذّرته من أنّه بتلك الجرعة سيتجاوز حدود الكحول المساميّة ليدخل في اللاوعي الأثيري. وضع الكأس بحذر على الطاولة وابتسم، قبل أن يقول.

– جرى لنا كلّ ما يخطر على بالك، هوراثيو....

– اخفضوا أصواتكم، رجاءً – قال إرفينغ.

– جرى كلّ شيء –واصل برناردو الكلام–، ومن دون إذن منّا. بات نومنا أرقاً وكوابيس. ما جرى لنا هو أنّنا خسرنا. مصير جيل بأكمله –قال، وحمل كأسه بيد مرتعشة، وأفرغ في جوفه كلّ ما فيها–. هكذا هي حالنا، رفاقي وإخوتي في النضال: من هزيمة إلى أخرى... حتّى النصر النهائي!

– كفاك، برناردو، وكفّ أيضاً عن الشرب! – قال إرفينغ، أم كان الخوفَ الذي فيه؟

– لكنّي سأشرب وأشرب... –همهم برناردو–. أمّا أنتَ، يا هوراثيو، فكفّ عن الشكوى. فالخراء لا يحيط بنا من كلّ ناحية، بل يملأنا... خراؤنا. وخراؤك، يا من أوقعتَ امرأتي في شباكك.

خيّم صمتٌ حزين حتّى بادر هوراثيو، الذي مال بنظراته نحو الباحة، إلى كسره.

– لا تنفكّ توجه إليّ هذا الكلام، برناردو. فعلاً، أنا سافلٌ... أنا رجل منحط...

– اذهب إلى الجحيم – همهم برناردو.

– نعم. عليّ أن أنصرف. أن أذهب، وإن كان إلى الجحيم.

– نعم، انصرف، هيّا. – صرخ برناردو به، وحاول النهوض. أمّا هوراثيو فاكتفى بتحريك رأسه، فكأنّه لم يسمع شيئاً، وكأنّ الآخر قال ما قال بلغة

لا يفهمها. بل لقد تمنى لو أنّ برناردو استطاع النهوض ليضربه، فقد كان يستحقّ أن يُضرب.

– وإلى أين ستذهب في هذه الساعة؟

نظر هوراثيو إلى صديقه، وهزّ رأسه بالنفي.

– ما لك لا تفهم الكلام، إرفينغ؟... هل شلّ الجوعُ تفكيرك، أم إنّك سكران كهذا البائس الذي يعجز حتّى عن أن يبصق في وجهي؟... عليّ أن أنصرف من البلد. عليّ أن أرحل!

في صيف عام 1994، باتت الأزمة أزمتين. في تلك السنة اتخذ هوراثيو قراره الذي لم يفكّر يوماً في اتخاذه، ربّما لأنّه كان يقصد مخالفة سلوك أبيه. لكنّ ذلك القرار بات هاجساً مرهقاً بعد أن شغل كلّ تفكيره حتّى أدّى به إلى حالة من الهوس، بل من الجنون: الرحيل... الرحيل...

من حوله، بلغ يأسُ الكثيرين حدّه، وفاض؛ وبدأ ينمو ويندفع بسرعة نحو وجهة مّا أو نحو المجهول. عشراتٌ من طالبي اللجوء في الولايات المتحدة أو في بلاد الواق واق، لا فرق، اقتحموا سفارتين أوروبيتين، بعد أن رُفض طلبهم بالخروج من الجزيرة. ثمّ بدأ فصلُ اختطاف المراكب التي كانت تصل، أحياناً، إلى الشواطئ الأمريكيّة محمّلة باليائسين، وقد تتيه، أو تَغرق (أو بالأحرى، تُغرق) مخلّفة عشراتٍ من الضحايا لا يشار إليهم، لكنّهم موجودون. ويزداد الخطر، لكنّ اللهفة لا تتراجع. ثمّ جاء فصل سرقة اللنشات والقوارب تحت تهديد السلاح، في مشاهد عنفٍ عارم، خلّف المزيدَ من الضحايا.

اليوم هو 5 آب. الأجواء ملتهبة وساخنة. لا أجواء الأنواء فحسب، بل أجواء الشارع، الذي كان يشبه في سخونته طنجرة على النار. أعلنت بعض إذاعات فلوريدا عن قرب إقلاع أسطول من السفن باتجاه شواطئ هاڤانا لنقل الكوبيين الراغبين في الهجرة. وسرعان ما تحوّل الخبر أو الإشاعة، الذي لم يكلّف أحدٌ نفسه التحقق منه، إلى خيط من البارود قطع المدينة طولاً وعرضاً، وزاد من سرعته اليأسُ واستعدادُ الكثيرين لتقبله. ثمّ وجد الشرارة الكفيلة بإحداث الانفجار.

وهكذا راح الناسُ، بين واثقٍ من ظهور المراكب المنقذة، وراغبٍ في التحقق من صحة الأخبار، وحريصٍ على حضور المشهد، يندفعون

إلى الشوارع باحثين عن ماليكونٍ لم يروا في أفقه، ولن يروا، أيّ مركبٍ منقذ. وقعوا في حيرة من أمرهم، وأحسّ الكثيرون منهم بمزيجٍ من اليأس والعجز والتعب والغضب يغزو نفوسهم ويتمكّن منهم. صراخ من فريق يتبعه صراخٌ من فريق آخر. وتنتهز الحجارة الفرصة، فتنطلق صوبَ واجهات المحلات، وفيها ما يُسلب ويُنهب. وتجد الشرطة نفسها عاجزة عن التصدّي لتلك الحشود فتتراجع، ويبدو أنّ عناصرها تلقوا أوامر بالانسحاب وترك المهمّة لوحدات الردّ السريع التي خرجت، بثياب العمّال والهراوات أو قضبان الحديد، لتواجه الغوغاء، وهكذا وقعت مواجهة شُجّت فيها رؤوس، وكُسرت أذرع وضلوع، وجدعت أنوف، وفقئت عيون، ثمّ بدأت حملة اعتقالات. وصرخ أحدهم فجأة بأنّ فيديل قادم، فارتفعت أصواتٌ محتجّة، سرعان ما ضاعت بين أصوات أخرى تهتف بحياة القائد. وأخيراً، تفرّق المحتجّون واختفوا، لكنّ التوتر استمرّ: الطاقة لا تفنى، فكّر هوراثيو، بل تتحوّل.

بعد خمسة أيام، نزعت الحكومة الفلينة من رأس الزجاجة حين أعلنت، رسميّا هذه المرّة، أنّ حدود البلاد باتت مفتوحة أمام من يرغب في الخروج، فليخرج كلّ من أراد الخروج. فهل بات المستحيل حقيقة واقعة بمرسوم حكومي؟

وهكذا دوّت إشارة الانطلاق، فامتلأت شواطئ شمال الجزيرة، من يوم صدور المرسوم، وبقدرة قادر -هي في الواقع ردّة فعل اليائس المتلهف-، بأغرب ما يخطر على البال من أشياء عائمة، مميّزة وغير مميّزة. لم يبقَ أيٌّ من مراكب البلد القليلة راسياً، وراح كلّ من وجد له مكاناً فيها يجدّف. وصُنعت في الحال قواربُ من صفائح معدنيّة، أو من إطاراتٍ مطاطيّة، أو من ألواحٍ قديمة ومن قطع الفلّين، وألقي بها في البحر لتسير بقوّة محرّكٍ أعيد إلى الخدمة، أو شراعٍ معمول من شراشف مهلهلة، أو مجاديفَ ارتجلت ارتجالاً، أو بدفعِ تيارات البحر أو إيمانٍ بإرادة سماويّة. كان الناسُ يركضون، في هرجٍ ومرجٍ، بين أطراف الشاطئ، ليشتروا مكاناً في تلك الأشياء العائمة أو ليطالبوا به أو ليشحذوه، وكان فيهم من جاء، فحسب، ليودّع الركبَ المرتحل. أمّا لنشات حرس الشواطئ المرعبة، التي لطالما سدّت الطريق

أمام كلّ محاولة للهرب، فقد ظلّت ساكنة في أرصفتها، وظلّت الشرطة على الهامش، لا تتدخّل إلّا لفظ عراك.

كانت آمالُ المُبحرين المغامرين معلّقة على نجدة سريعة يتلقونها، في المياه الدوليّة، من حرس الشواطئ الأمريكان، الذين وجدوا أنفسهم، أيضاً، غارقين في ذلك الطوفان البشري الذي نزعت عنه فلينة زجاجة الشمبانيا، بعد أن رُجّت الزجاجة رجّاً، فما عادت تستطيع له احتواء.

حين سمع هوراثيو بخبر فتح الحدود، لم يتردّد، لحظة واحدة، فقد سبق له أن دوّر الفكرة في رأسه. في عصر ذلك اليوم، حشر في حقيبة الظهر القليل من الحاجيات (من بينها كتاب *المبادئ الرياضيّة للفلسفة الطبيعيّة*، وهو من مكتبة والده، وولاعة والتر الروسيّة التي علم، بعد اثنين وعشرين عاماً، سبب احتفاظه بها) وانطلق إلى بلدة (كوخيمار)، حيث راح الناسُ يتجمعون، ومن حيث بدأ انطلاق المراكب والقوارب. كان زميل سابق له في الجامعة، فيزيائي مثله، طفران مثله، ينتظره في بيته. وانطلق الاثنان لزيارة قريب لهذا الصديق كان يجهّز مركبَ صيد قديماً يملكه. وبدأ الصديقان العارفان بمبادئ حفظ الطاقة، وقوانين الميكانيك والإنتروبيا، العالمان بطبيعة أيّة آلة توليد للطاقة أو أحداث للحركة، بإعادة تأهيل المحرّك المتهالك وإصلاح عيوبه وتعديل موضعه ليكسبوا مكاناً على مكانه ويضيفوا إلى حيّزه حيّزاً، وهكذا انطلق المركب بركّابه الثمانية (بزيادة راكبين على حمولته)، وسط سعال المحرّك الناقه وانفجارات الديزل المغشوش، من ضفاف نهر (كوخيمار) عند غروب شمس السابع عشر من آب.

بعد يومين، وبينما كانت الحكومة الأمريكيّة تعلن عن أنّ القوارب التي جرى اعتراضها في أعالي البحر ستقاد إلى قواعد عسكريّة أمريكيّة، مثل قاعدة بنما وقاعدة غوانتانامو، كان هوراثيو ورفاقه يدخلون، بعد أن انتشلهم يختٌ سياحي أنزِل عليهم من السماء، في مخيّم أقيم في (هومستيد)، إلى الجنوب من فلوريدا، حيث بدأوا إجراءات الحصول على صفة اللاجئ في الولايات المتحدة الأمريكيّة. رأى هوراثيو، وهو يمرّ من أمام كابينات المكاتب، على الطرف الآخر من سياج معدني، مجموعة من السود، علم في ما بعد أنّهم من هاييتي. كانوا ينظرون إلى الكوبيين، فكأنّهم ينظرون إلى

كائنات فريدة، صامتين مذعنين مُسلّمين وهم يرون أنّ طلبات الواصلين حديثاً تقبل بسرعة لمجرد أنّهم كوبيون، على الرغم من أنّهم سودُ البشرة مثلهم.

في تلك الليلة، شعر هوراثيو، وهو مستلقٍ على السرير الذي خصّص له في مركز اللجوء، بدفق الأدرينالين يفارق بدنه بعد أن ظلّ مقيماً فيه طوال خمسة أيّام لم يذق فيها طعاماً ولا نوماً. وعندها بكى، بعد أن انفجر في داخله غضبٌ وحزن، ووقع فريسة الإعياء. رأى في منامه أنّه مع أبيه، وإن لاحظ شبهاً كبيراً بين صورة والده وأشهر صورة للقديس لاثارو الذي يوقّره الكوبيون: شيخٌ مثخنٌ بالقروح، يتكئ على عكازين وتحيط به كلاب لا تلطع دماملِه بل تكشّر عن أنيابها لكلّ من يقترب من المجذوم المقروح. خلف القديس والكلاب يسير رجالٌ يشبهون الهايتيين الذين رآهم ذلك المساء، سوى أنّ وجوه هؤلاء السود خالية من العيون. حين أفاق هوراثيو مفزوعاً، خامره شعور بأنّه لن يلتقي أباه ولن يستطيع أن يطرح عليه الأسئلة التي تلحّ عليه من سنوات.

في (تامپا)، في الساحل الغربي من فلوريدا، تعرّف هوراثيو على ماريسا، التي كانت تعمل في شركة للاتصالات، مقرها نيويورك، ثمّ كلفت بالانتقال للعمل هناك. امرأة شابة من پويرتوريكو، في الثامنة والعشرين من عمرها، عزباء، متخصصة بالمعلوماتية، لها شخصيّة قويّة كفيلة بردع منافسيها، وضحكةٌ تشيع الفرح والتفاؤل، أمّا عيناها السوداوان فتعكسان غموضاً يتمنّى أيّ رجلٍ من الرجال أن يعرف كنهه ويفكّ لغزه.

ورأى هوراثيو أنّ لقاءه بماريسا تمّ بقدرٍ لطيف شاء أن يرتب حياته في الغربة، وينظم وجوده في المنفى، ليتجاوز، بذلك، حالة الاضطراب والفوضى. لم يكن قد مرّ عليه أكثر من ثلاثة أسابيع في (تامپا)، ولم يكن يعرفُ بعدُ أنّ أباه مدفون في تلك المدينة، حين أرسلت الدائرة الاتحاديّة به، بعد أن تأكّد لها أنّه يجيد الإنكليزيّة، للعمل في إحدى وكالات تأجير السيّارات وقدّمت له التسهيلات اللازمة لاستئجار شقة صغيرة.

وسرعان ما وجد هوراثيو نفسه محاطاً بسيارات جديدة وقويّة وبرّاقة، وهو الذي لم يمتلك يوماً سيارة، بل لم يحلم بامتلاكها. وبروح الباحث فيه، خصّص كلّ الوقت الممكن يومياً، بعد انتهائه من تنظيف المكاتب ورمي الأوساخ ونفض الغبار عن السيارات المعروضة وتلميعها، لدراسة الموديلات المعروضة وقربها من أذواق الزبائن المفترضين، وقراءة الكتيبات والنشرات الفنيّة. ووجد في ذكائه وتخصصه -كان يعرف مبادئ العجلات وأسرار عملها وفاعليتها-، وفي تمكّنه من القراءة بالإنكليزية، بل والتعبير بها بالدقة المطلوبة، ما نقله، في زمن قياسي، من عمله البسيط ذاك الذي اختاره له مكتب مساعدة اللاجئين ليملأ شاغراً تركه قبله لاجئ كوبي آخر.

يومَ تسلّم هوراثيو عمله الجديد في مقر الإدارة، وكيلاً لكراء السيارات، شهد دخولاً عاصفاً لشابّة سمراء ترتدي بدلة موظفة إداريّة. كانت الفتاة، وهي تحمل في يدها أوراق عقد، تشكو محتدّة، بالإنكليزيّة، من أنّ السيارة التي استأجرتها شركتُها ليست هي السيارة التي سلّموها لها في اليوم السابق في المطار. كانت تتحرّك فتنسدل خصلة سوداء من شعرها على عينها اليسرى فتغطيها. قالت إنّ شركتها زبون دائم عندهم، وإنّها هي نفسها تسافر كلّ شهر إلى (تامپا)، وإنّها... وانبرى زميل لهوراثيو في المكتب لسيل كلماتها، فطلب منها ألا تقلق، فسيتكفّل زميله بتلبية طلبها وحلّ الإشكال، ثمّ أومأ إلى هوراثيو بأن ينظر في الأمر.

قرأ هوراثيو بنود العقد، وهو يسير مع الفتاة إلى موقف السيارات، ويطمئنها، على الرغم من أنّ السيارة التي سلّمت لهم تتوافق والمواصفات المذكورة في ذلك العقد. فربّما ارتكبت شركتها في نيويورك خطأً ما و...

- Sorry, were you come from? - سألته الفتاة، ربّما لأنّ لكنة هوراثيو أثارت انتباهها.

- I'm Cuban.

- هااا، هذا ما ظننتُه... ومتى وصلتَ؟ - قالت بالإسبانية، وهي تبتسم.

- منذ شهرين... ونصف.

- هل أنتَ من لاجئي القوارب؟

- نعم. وصلنا في مركب...

- يا إلهي، أنتم مجانين! - صاحت.

- نعم. لقد جنّنونا... أنتِ تتكلمين الإسبانية جيداً...

- طبعاً، فأنا من پويرتوريكو... ألا يبدو عليّ ذلك؟

ابتسم هوراثيو، نظر إليها ثمّ قال:

- الواقع هو أنّكِ... لا أدري، بهذا القناع الذي تضعين...

ابتسمت.

- ووالدي كوبي، مثلك... خرج من كوبا قبل ثلاثين سنة... في قارب! مثلك...

في تلك اللحظة أحسّ هوراثيو بأنّ الإله الذي استجارت به الفتاة في وقت من الأوقات يطلّ برأسه من غيمة في السماء، مستعداً ربّما ليمسّ جبينه بيده.

وبينما راح الاثنان يبحثان عن السيّارة التي وقع عليها اختيار هوراثيو (وهي السيارة التي كانت الفتاة تريدها)، حكى لماريسا بعض تفاصيل رحلته في القارب ودراسته الجامعيّة ومعرفته باللغة الإنكليزيّة التي أهّلته للترقية في عمله. حدّثها أيضاً عن المخاوف التي رافقت تكيّفه مع حياته الجديدة («عليكِ هنا أن تتعلمي كلّ شيء من البداية. فالأبواب هنا تفتح نحو الخارج؛ بينما تفتح في كوبا نحو الداخل»). وقبل أن تنطلق الفتاة في سيارتها المستأجرة، دعته للعشاء معها، لتشكره على لطفه، ولتطلعه على جانبٍ من المدينة التي شهدت قصّة طويلة في تاريخ المنفيين الكوبيين: ففيها عمل جدّها الأكبر، وكان من هاڤانا، في زراعة التبغ وفي قيادة الزوارق، كما حدّثها أبوها. وفي (إيڤور سيتي) سمعهم يتكلمون عن مارتي، وهناك صافح الپاپا. أحداث مشوّقة. أليس كذلك؟

عقب يومين، حين توادعا أمام وكالة السيارات، كان كلّ منهما يشعر بأنّه، ومن دون سابق علم ولا تخطيط، يبحث عن الآخر. وكانت هي من أقدمت على الخطوة الحاسمة.

– سجّلْ رقم هاتفي، فربّما احتجتَه... أنا آتي يومين أو ثلاثة إلى هنا. سأراك حين أعود وستعطيني هذه السيارة نفسها وستحكي لي عن وضعك هنا. اتفقنا؟

بعد ثلاثة أشهر، وفي كانون الثاني 1995، وصل هوراثيو إلى نيويورك. كان البردُ قارساً، ففكّر أنّه لن يستطيع العيش في ذلك المكان الصاخب المضطرب البارد. لكنّ مزيجاً قوياً، تقف وراءه حاجته إلى الحنان، فضلاً عن غريزة البقاء، جعلاه يعيد النظر في خياراته: في منطقة (كوينز) التجاريّة كانت بانتظاره امرأة شابة جميلة المظهر بسيطة الملبس، منحته الأمل في بناء حياته، فكأنّها خرجت من مصباح علاء الدين. وقد كان، وهو ابن الخامسة والثلاثين، راغباً في بناء حياته. في تطبيعها، إن كان من مجال للتطبيع.

منذ ذلك الوقت، آمن هوراثيو بأنّ الصدفة هي ما جمع بين شابة إداريّة من بويرتوريكو، ابنة مهاجر كوبي وحفيدة مزارع تبغ من (تامپا)، وسيّارة اختيرتْ اختياراً صحيحاً، لكنّها لم ترق لمستأجرها، وخبث زميل له في العمل رمى به إلى التهلكة، لكي تتشكّل توليفة من الظروف دفعته في دروب لم يتخيّل أنّه سيسلكها.

كانت التوليفة من القوّة والتجانس أنّ هوراثيو فوركيه تحوّل، بعد عام من ذلك اللقاء، إلى زوج ماريسا مارتينِث، وبعد ثلاثة أعوام، إلى والد بنتين توأمين: ألبا وأورورا. وهكذا بدأ المهاجر الكوبي كينتين هوراثيو فوركيه، بعد خمس سنوات، وبفضل دعم زوجته، واعتراف الأكاديمية الأمريكيّة بشهادته الكوبية، وذكائه، عمله أستاذاً مساعداً للفيزياء في جامعة بويرتوريكو، بعقد أوّلي مدته ستة أشهر قابل للتجديد. صحيح أنّه ولج طريقاً حجريّاً، لكنّه طريق سالك، لذلك لم يلبث، وبعد عشر سنوات من خروجه من بلده، أن نال الأستاذيّة في جامعة (ريّو پيدراس).

كان يروق لهوراثيو أن يحكي قصّة الانطباع الأوّل الذي سمع أنّه تكوّن لدى والد زوجته عن مدينة سان خوان، عاصمة پويرتوريكو، حين وصل إليها أوّلَ مرّة.

كان في استقبال المهاجر فيليپه مارتينِث، وعمره آنذاك أربعة وعشرون عاماً، في المطار، صديقٌ له درس معه في مدرسة الرهبان المريميين في هاڤانا. لقد قرّر هذا الصديق أن يُطلع ضيفه على جانب من العاصمة، قبل أن يأخذه إلى بيته. أمّا فيليپه، الهافاني القحّ، فكان، حين هربه من جزيرته، وهو طالب في السنة الرابعة من كليّة الهندسية، يعرف أكثر ممّا يعرف بيته، نواديَ (لا رامپا) الليليّة، ودورَ السينما الستين في هاڤانا، وأنوارَ ملهى (تروپيكانا)، وزوايا كهوف شاطئ (ماريياناو) المعتمة الآثمة، حيث رقصُ الخلاسيات البرونزيّات ونقرُ الأسطورة (چوري)، عازف الطبلة الذي ترك بصمته على المئات من جدران المدينة. لذلك تأمّل شوارع (سان خوان)، ودورَ السينما المتواضعة فيها، ومطاعم (ريو پييدراس)، وبناياتها العتيقة المتآكلة، ببرود، ولم يعلّق بشيء تقريباً. وحين انتهيا من الجولة، سأله الصديق، وهما يستعدان لتناول طبق الموفوغون بالچيچارّون في حانة من حانات سان خوان القديمة، عن انطباعه ورأيه في ما رآه، فردّ عليه الزائر:

- وجدتها جميلة. إنّها تشبه (بولوندرون). - حزّ في نفس الصديق أن يشبّه ضيفه عاصمة بلده ببلدة منسيّة من بلدات سهل (ماتانثاس).

ولئن بدت الحكاية طريفة لهوراثيو، فلأنّه، وجد سان خوان تشبه (بولوندرون) فعلاً. صحيح أنّه وصل ولا عمل لديه، وصحيح أنّه ترك هاڤانا وقد بهتت جاذبيتها وانطفأت فتنتها، لكنّ ظنّه في رؤية مدينة تلبّي طموحاته قد خاب: مخازن تبيع كلّ بضاعة، وباعة متجولون ما عدتَ تجدهم حتّى في

هاڤانا، ومجمّعات سكنيّة منغلقة، لكنّها ليست كتلك التي زهت بها، في وقت من الأوقات، هاڤانا، مدينته التي ساءت حالها، وشهد بنفسه انحسار مدّها.

إنّ لاستياء هوراثيو ممّا رأى من سوء عمران أصولاً كوبيّة، وإن كان ذا أبعاد عالميّة. حتّى نيويوك بدتْ لابن هاڤانا مسكونة بالفوضى والقذارة والابتذال: محلاتها التي تقدّم، في وسط برودواي وشارع 42، عروضاً إباحيّة؛ وجحور (ديوس) التي تغصّ بالمشرّدين المكدسين عند بوابات بناياتها الشامخة، بتصاميمها المُرهقة، المزدحمة بزنوج توحي وجوههم بِشرٍ يفوق ذاك الذي يتصف به السودُ في حيّه الهاڤاني. أمّا عن ميامي، فحدّث ولا حرج! تلك المدينة التي دخل عن طريقها إلى الولايات المتحدة، والتي لا يمكن، ولن يكون ممكناً، أن تكون مكانه. بل إنّه، كلّما اضطر إلى زيارتها، تذكّر القناعة القديمة التي تولّدت لديه أثناء الأيام القليلة التي أمضاها هناك عام 1994. فحين وصل إلى ميامي، أرادوا أن يُسكنوه في حي يقطنه السود، بدا له كأنّه خارج من أعماق العالم الثالث (بيوت من دون نوافذ. ناس يتعاطون المخدرات عند ناصية الشارع. نساء يطبخن في ما كانت حدائق بيوت) فهرب مرعوباً بعد أن علم بإمكانية السفر إلى (تامپا). ولطالما أحسّ، وهو في ميامي، بأنّه يدور في حلقات بلا نهاية، ويطوف في حيّ بلا حدود (فونتانار أو ألتاهاڤانا عملاقتان) يضيع في الروتين، بلا شخصيّة، فكلّ زاوية من زواياه تقليد لسابقتها: محطة وقود. مطعم (ماكدونالدز). صيدلية (والغرينز). ثمّ محطة وقود أخرى ومطعم (ويندز) وصيدليّة (سي ڤي إس). ثمّ محطة وقود ثالثة ومطعم (تاكوس بيل) و(كنتاكي فريد چيكين) في الثالث... ليبدأ دورة جديدة مع انتهاء الدورة الأولى، وهو حريص على ألّا يتيه لينتهي به المطاف في حي السود الخانق.

مع ذلك، ما كان يضايقه حقاً هو منظر المدينة الكالح، حتّى في الأجواء المشمسة، فكأنّها مطليّة بورنيش كثيف، حتّى الكوبيون المهاجرون يبدون فيه مصنفين حسب الفترات فحسب الطبقات الاقتصاديّة -التاريخيّون، مهاجرو مارييل، لاجئو القوارب- بينما ترسخ في نفوسهم روح التعصّب وغياب روح التسامح التي يدّعون أنّهم هربوا منها. أجواء يشيع فيها ميل لتطرف لم يغيّروا من صبغته السياسيّة إلّا قليلاً. مع ذلك، ما كان من شيء يزعجه قدر سماعه شكوى الكثيرين من أولئك المهاجرين (ومن ضمنهم مفقودون

وصلوا مع مهاجري مارييل) الذين كان يعربون، تأكيداً لدناءتهم، عن قلقهم من موجة جديدة من الهجرة تحمل إليهم أعواناً لنظام كاسترو متسترين بصفة مهاجرين. ومع أنّه كان يرى أنّ في مقدوره العيش هناك، رغم تلك الأجواء، فإنّ المكان لم يبدُ له مكانه المناسب. لكنّ الواقع هو أنّ هوراثيو ما كان يرى أنّ له مكاناً.

واقترحت عليه ماريسا الانتقال إلى پويرتوريكو، فهناك يستطيع معادلة شهاداته والعمل في الجامعة، كما كان في كوبا. لكنّ امرأة الإدارة النشيطة، تكلّمت أولاً مع والدها، فيليپه مارتينِث، المهندس وصاحب العلاقات الوثيقة بالدوائر الأكاديميّة، وطلبت منه أن يسأل أصدقاءه الكوبيين الأساتذة وحتى العمداء في جامعة پويرتوريكو، أو في جامعة Iupi، كما اعتادوا تسميتها بالإنكليزيّة، عن إمكانية أن يعمل هوراثيو في الجامعة. وقد دفعها الردّ المتفائل الذي وصلها من سان خوان (قد لا يكون التعيين سهلاً، لكنّه ممكن، أجاب فيليپه مارتينِث) إلى أن تطلب الانتقال في شركتها. وهكذا عادت ماريسا، وهي تحمل لقب زوجها، فوركيه، ذلك الكوبي الصاعد والدكتور في الفيزياء، إلى بيت أبيها وإلى جزيرتها الأم، على الرغم من أنّها ضحّت بربع راتبها الشهري. لكنّ العريسين وجدا في انعتاقهما من شتاء نيويورك القاسي، عام 1996، مكسبهما الأكبر ومكافأتهما الأعظم، شأنهما شأن حيوانين مداريين.

ووجد هوراثيو، كما وجد حموه، في پويرتوريكو، الفضاءَ الذي سيسمح له بإعادة بناء مستقبله؛ ورُزق، كما رزق حموه، ببنتين پويرتوريكيتين من زوجته الپويرتوريكيّة. وكما عانى فيليپه مارتينِث من عواقب الرحيل عن وطنه، فقد عانى هوراثيو، ولأسباب مشابهة، من تلك العواقب. فكلا الرجلين، اللذين طالما كافحا من أجل الخروج من كوبا، وهجرا أجواءها وغامرا بحياتهما من أجل عبور مضيق فلوريدا، كانا يعانيان من جرح لا علاج له: حالة من الكينونة لا رجوع إليها، حياة معلّقة في الهواء، جذور مكشوفة (مجتثّة)، مع ميل شديد لتصوّر ماضٍ مجيد (مبالغ فيه دائماً تقريباً) تملأه ليالي العربدة والشراب والموسيقى والنساء الفاتنات، وأيام التعلّم والنمو. كانا أكثر من لاجئين، كانا لاجئين أبديين، يتغذيان على ذاكرة المشاعر وعلى وهمٍ جميل في العودة. حيين أو ميتين.

راح هوراثيو يتطلّع إلى ساعته، وهو جالس بباب بيت أخته لاورا، على حافة كرسي حديدي، (هو، في الواقع، كرسي بالاسم، إذ لا يستطيع أحد الجلوس عليه). وأخيراً، وصل ماركوس. كان يرتدي الأبيض، على عادته، ويضع على رأسه برنيطة زرقاء من تلك التي يلبسها أمريكيو نيويورك. وصل متأخراً عشر دقائق عن الموعد:

– ما أدراك بما يفعله طريق پالميتو السريع! – صرخ ماركوس من نافذة شاحنته الصغيرة.

– وهذه البرنيطة...؟

– نفسها. التي أهديتنيها أنتَ...

– قبل ثلاث عشرة سنة. حين ذهبتُ لدفن أمّي – قال هوراثيو، وهو متأثّر لما يعنيه له ولماركوس أن يحتفظ ابن صديقيه كلارا وداريو بتلك الهدية طوال كلّ تلك السنين.

عاد الشابُ والرجلُ الذي شهد ولادته للقاء بعضهما بعضاً للمرة الثانية منذ أن خرج ماركوس من كوبا، قبل عشر سنين. في اللقاء الأوّل، بعد أيام قليلة من وصول الفتى، أراد هوراثيو أن يظهر مدى حبّه للفتى وعظم تضحيته، فسافر إلى ميامي المقيتة للترحيب بماركوس وتقديم كلّ دعمٍ ممكنٍ له.

دهش ماركوس إذ وجد أنّ هوراثيو، وهو في السادسة والخمسين، يحتفظ بكلّ شعرة من شعرات رأسه السوداء القويّة (هل هو فعل صبغة *كليرول فور مين*، كما يفعل الكثيرون في ميامي؟) وأنّه، خلافاً لأمّه كلارا وأبيه داريّو، وحتّى إرفينغ المزهوّ بجسمه، لم يسمن رطلاً واحداً بالقياس إلى صورة (فونتانار) الجماعية التي التقطت للأخويّة قبل ست وعشرين سنة. أمّا هوراثيو، فقد صعب عليه أن يوفّق بين صورة الشاب الوسيم

النشيط، ذي الاثنتين والثلاثين سنة، وصورة الطفل النحيف المندفع، ذي العشر سنوات، الذي يتذكره وقد كوت الشمس وجهه، مرتدياً برنيطة البيسبول وقفاز ضارب الكرة الأعسر، أو صورة الفتى السريع الذي لم يحظَ برؤيته إلا قليلاً في زيارتيه إلى الجزيرة قبل عدة سنوات. لكنّ الذكاء الذي يشعّ في نظرة ماركوس أعادته إلى صور الذكرى، فانصهر الرجلان، في عناق حار، بل لقد تبادلا القبلات، فقد كان كلاهما سعيداً بذلك اللقاء على الرغم من العاصفة التي كانت بوادرها تلوح في الأفق.

كان هوراثيو قد وصل إلى ميامي صباح ذلك اليوم، وأقام، كعادته، في بيت أخته لاورا. لم تكن علاقته بأخته جيدة، لكنّه كان يذهب إلى بيتها ويقيم عندها حفاظاً على الحد الأدنى من الصلة بها، ولأنّه كان يحبّ ولديها، اللذين يكبران ابنتيه بسنوات. أمّا ابنتاه وابنا عمتهما فكانوا متحابين، وينتهزون أيّة مناسبة للقاء، في ميامي أو في سان خوان أو حتّى في متنزه (ديزني أورلاندو) في نيويورك، حين كانوا أطفالاً، أو في لندن، حين باتوا مراهقين.

بعد تناول القهوة المقررة التي دعتهما إليها شقيقة هوراثيو –وكانت هي من استضافت ماركوس يوم وصوله إلى فلوريدا–، ودّع الرجلان العائلة وذهبا في شاحنة ماركوس الصغيرة إلى مطعم يقدّم أطباقاً بيروفيّة، اعتاد هوراثيو تناول طعامه فيه أثناء زياراته المتباعدة إلى المدينة.

في الطريق تبادلا آخر المستجدات في حياتهما. لم يعترف ماركوس لهوراثيو باكتشاف آديلا، ولم يعترف له، بالتالي، بمن تكون خطيبته، بل أخبره بأنّ الفتاة سافرت لزيارة أمّها، لوريتا، التي تسكن في أطراف أطراف (تاكوما). في مؤخرة العالم، قال الاثنان. أمّا هوراثيو فقد اعترف له، وهو يحاول أن يغطّي على فضوله المتنامي –لوريتا؟ من تكون لوريتا هذه، أمّ آديلا؟– بأنّه جاء إلى ميامي بحجّة المشاركة في مؤتمر جامعي (المؤتمر كان معقوداً، لكنّه لم يحضره إلّا لوقت قصير، وفي اليوم التالي)، لكنّه يريد، في الواقع، التعرّف على آديلا الشهيرة، ويحاول استيضاح الجنون الذي حكى له ماركوس عنه، والذي أبقى عليه، منذ ذلك الوقت، مؤرقاً مشوّش البال. لكنّ ماركوس كان يحتاج إلى زمان ومكان، لذلك تجنّب، في تلك اللحظة، الخوض في ذلك الموضوع.

– إذن، أنتَ لم تأتِ إلى ميامي منذ سنتين تقريباً؟ – سأل ماركوس، مستغرباً.

– أنتَ تعرف أنّني لا آتي إلى هنا أبداً تقريباً... أم إنّك تظنّ أنّني أتيتُ ولم أبلغكَ؟

– لا أدري... الناس تخرج من كوبا وتصبح أغرب من الغرابة.

– أنا لستُ مثل داريّو... فما زلتُ أنا نفسي، لم أتغيّر.

– هذا ما تظنّه أنت –ردّ عليه ماركوس–. على فكرة، هل وصلتك أخبار عن برناردو؟

– أيّة أخبار؟

– إن كانت حاله سيئة؟... أمي لا تخبرني بكلّ شيء.

– يبدو أنّه بدأ يسدّد فاتورة حياته العوجاء.

– لكنّ ما به شيء أخطر...

– أخطر من السرطان؟... فهو أسوأ حالاً، إذن؟ ماذا تقول أمّك؟

– أمي لا تقول لي شيئاً...

– أمّك تريدُ أن تحميكَ. كلارا تريد أن تحمي الجميع... وهي تعلم أنّكَ تحبّ المسكين برناردو.

– لا تقلْ مسكين، رجاءً. أنتَ، لا.

– حسناً... لقد أخطأتُ في حقّه. لكنّه سامحني وغفر لي خطأي.

في المطعم، اختارا الجلوس عند طاولة منزوية، قريباً من حاجز زجاجي يطلّ على صفّ من ورود الجهنّميّة. نظرا في القائمة ووافق ماركوس هوراثيو في ما اختار: في الطبق الأوّل سيأكلان طبقاً من السمك ثمّ يتبعانه بحساء الروبيان، وهو لذيذ في ذلك المطعم، كما أكّد هوراثيو، كالذي يقدمونه في ليما. الكمية كبيرة، وإن لم تشبع فيمكننا أن نطلب المزيد منها. أمّا الشراب، فقد طلبا نبيذ (ماركيز دي كاثاريس)، وهو أفضل القليل المذكور في القائمة، وإن لم يبلغ قدر الأطباق وجودتها.

قدّم الشراب، فبدأ هوراثيو الكلام.

- أوكي ماركوس الصغير... ماذا قلتَ لي حين أريتني صورة آديلا؟

هزّ ماركوس رأسه، لكنّه ردّ على السؤال ضمن ما خطط وبرمج.

- قل لي أولاً... من هي إليسا؟

ابتسم الخلاسيّ فأبان عن أسنان كاملة سليمة، لكنّ ابتسامته سرعان ما انطفأت.

- لماذا تسألني هذا السؤال؟

- لأنّي أريد أن أسمع الجواب....

- أوكي... في هذه اللحظة، أظنّ أنّي لا أعرف الجواب... كانت على الدوام امرأة غريبة الأطوار... وأنت تعرف هذا. وتعرف أشياء أخرى... لكنّ سؤالك يقلقني... ما الذي جرى؟ إليسا؟

- نعم، إليسا... من هي...؟ - ألحّ ماركوس.

- لا أعرف. صدقني. منذ سنوات وأنا أسأل هذا السؤال... هل طرحت هذا السؤال على كلارا؟

- نعم سألتها...

- وماذا قالت؟

لم يكن ماركوس راغباً في الابتسام، لكنّه ابتسم.

- لفّت ودارت، مثلك... قالت إنّها ظنّت في وقت من الأوقات أنّها تعرف كلّ شيء عنها، ثمّ اكتشفت أنّها لا تدري إن كان ظنّها في محلّه.

- ولماذا تظنّ أنّي أعرف أكثر؟

دوّر ماركوس في رأسه الردود الممكنة. هل يعلم هوراثيو بما جرى بين إليسا وأمّه؟ في تلك اللحظة قرّر ألّا يضيع في الأمور الجانبية، فحسبه أنّه سيفتح، بما كان يهمّ أن يقوله، صندوق پاندورا. لا، ما من خيار أمامه.

- لأنّك نمتَ معها. ولأنّها حملتْ منك...

هزّ هوراثيو رأسه بالنفي، ثمّ شرب كأسه من النبيذ.

- من قال لك هذا؟

– لم يقله لي أحد – ردّ ماركوس محاولاً أن يُبعد الشبهة عن أمّه، لكنّه أدرك، في تلك اللحظة، خطأه: كان عليه أيضاً أن يسأل إرفينغ، العارف بكلّ شيء، وحتّى أباه، داريّو، وهو العضو في الأخويّة القديمة والشاهد على كلّ خفاياها وكواليسها. لقد شوّشه حرصه على تلبية طلبات آديلا والحفاظ على أسرار كلارا.

– نمتُ معها...، لكنّها لم تحمل منّي... أمر غريب –واصل هوراثيو الكلام–. طبعاً. غريب جداً، مع أنّنا ميالون إلى الثرثرة والقيل والقال، ويعجبنا أن نتحدّث عن كلّ ما نفعل وما علينا أن نفعل، تقع فجأة أمور نسكتُ عنها. أنا نفسي تكتمتُ على بعض تلك الأمور... فقد تحدث، في بعض الأحيان، أمور خطيرة... صارحني، ماركوس، من قال لك إنّي نمت مع إليسا وأنّها حملت منّي؟

– قلتُ لك لا أحد.

– لا تحرق أعصابي، ماركوس. من المؤكّد أنّك سمعت هذا الكلام في بيتك.

– إن كنتُ سمعتُه، فلا أذكر. أقسم لك بأقدس شيء عندي.

– وما هو أقدس شيء عندك؟

ابتسم ماركوس. نعم، فذلك الرجل ما زال هو هو، الفيزيائي المنطقي والبارد، الرجل الذي طالما أراد أن يفهم كلّ شيء. الأسباب والنتائج. الفعل وردّة الفعل. القوانين الواجبة التحقق. الحقيقة.

– أظنّ أنّها أمّي. فمنذ أن رحل أبي سعت أمّي لتربينا أنا ورمسيس في أصعب الظروف. أذكر كم كانت تفرح كلّما أرسلتَ بعض الدولارات لتشتري لنا شيئاً نحتاجه. اشترت لي *ووكمان*، من تلك التي تعمل بالكاسيتات. واشترت لرمسيس كاميرا، أمّا ما كان يرسله أبي لنا فكانت تنفقه على الطعام.

– كان عليّ أن أبعث لكم أكثر – تأسّف هوراثيو.

– لا. ما كان عليك... هي تشكر لك مساعدتك دائماً. وأنا أيضاً... واغفر لي أنّي قلتُ إنّ الناس يتغيّرون حين يخرجون من كوبا. أنتَ حافظتَ

على أخلاقك، على الأقل معنا... وعدت إلى كوبا مرتين أو ثلاث مرات، لتزورنا.

- ليس بالضبط. فالمرة الأولى عدتُ لأحضر دفن أمّي، ثمّ عدتُ لأساعد لاورا وزوجها على الخروج... وهذه المرة ذهبتُ لأزور برناردو...

- أنتَ وإرفينغ...، بالمقارنة مع أبي، تفوزان بالضربة القاضية، وفي الجولة الأولى.

- لا أظنّ ذلك. صحيح أنّ الواحد منّا يتغيّر كثيراً، وليس إلى الأحسن دائماً، حتّى لو نال عيشة أفضل...

- صحيح -وافقه ماركوس-. ولكن، لم تجبني. كيف حدث ما بينك وبين إليسا؟

أتت الغارسونة بطبق السمك، وانتهز هوراثيو التوقّف ليتساءل: أين يريد ماركوس الوصول؟

- نمتُ مرتين معها. والأصح أنّها هي من نامت معي. ثمّ حدثت أمور، تبيّن أنّها حامل وأنّها تريد المولود. عندها اعترفتْ لإرفينغ بما جرى بيني وبينها... وسرعان ما تتابعت الأحداث وعلم الجميع بالأمر، حتّى برناردو. كارثة. ما زلتُ أشعر بالخجل... أفكّر في برناردو وأتمنّى لو هشّمتُ رأسي ركلاً... لكنّي أقسمُ لك أنّها كانت هي من فتح ذلك الباب. أقسم له بحياة ابنتيّ. هل قلتُ لكَ إنّ برناردو غفر لي خطأي؟

- ومتى نمتما مع بعضكما؟

- وهل هذا مهم؟

- طبعاً... فعليه يعتمد ما حدث لاحقاً. الإعصار فلورا، الذي يأتي ويروح ويقضي على كلّ شيء، كما كانت أمّي تقول.

- في أيلول 1989... مرتين، لا أكثر!

فهم هوراثيو قصد ماركوس حين راح هذا يعدّ الأشهر على أصابعه على مرأى منه.

- أيلول، تشرين الأوّل، تشرين الثاني، كانون الأوّل 89، كانون الثاني

90، شباط، آذار، أبريل، أيار: تسعة أشهر. آديلا ولدت نهاية أيّار 1990... طيب، وذلك ما تقوله لوريتا فتزبيرغ ويقوله قيد نفوسها و...

- دعكَ من هذا الحساب، فقد استعملتُ الواقي الذكري في المرتين... فأنا أحمله دائماً معي، من باب الاحتياط -قال، وسحب محفظة نقوده من جيب بنطاله الخلفي وأخرج من إحدى طيّاتها علبة فيها واقيان-. دائماً، ولكن... عن أيّة سخافات نتكلّم؟ من تكون لوريتا هذه، ومن هي خطيبتك؟ أرى أنّك ستقول لي إنّ لوريتا وإليسا...

- أعجبُ لكَ! ألا ترى ذلك؟ ألا تنظر إلى وجهك في المرآة؟

مسح هوراثيو وجهه بيده ثمّ أبعد عنه كأس النبيذ.

- ماركوس، اسمعني. هل أنتَ متأكّد من أنّ أمّ آديلا هي إليسا وليست لوريتا فتزبيرغ؟

- ستقتلني آديلا إن علمتْ بذلك... نعم، أنا متأكّد. لوريتا فتزبيرغ هي إليسا كورّيا...

- لوريتا هي إليسا؟ -بدا هوراثيو ملاكماً أصابه ارتجاج دماغيّ-. أم خطيبتك؟

هزّ الشابُ رأسه موافقاً، أمّا هوراثيو فقد أطرق صامتاً. نظر إلى ماركوس، نظر إلى كأس النبيذ، نظر إلى زهور الجهنمية جنب زجاج المطعم.

- وما الذي جمعك مع ابنة إليسا...؟

- هذا يسمى اقتران فلكي. -حاول ماركوس أن يبتسم-. كارما...، أظن.

- وآديلا لا تدري أنّ أمّها كان اسمها إليسا كورّيا؟

- لا... عرفتْها دائماً باسم لوريتا... لوريتا فتزبيرغ منذ أن تزوجت هنا في الولايات المتحدة من برونو فتزبيرغ، الرجل الذي ظنّت آديلا دائماً أنّه أبوها...

- عجباً! -همهم هوراثيو-. رأسي يؤلمني... وماذا أخبرت إليسا آديلا عن كلّ تلك القصّة؟

- لا شيء.

- كيف تقول لا شيء، ماركوس؟

- حين رأت آديلا صوركم وعلمت من تكون أمّها، ذهبت لتقابلها في مزرعة في (تاكوما)، حيث تعمل لوريتا... وكانت هذه قد رحلت.

- إلى أين؟

- لا أحد يعرف...، اختفت.

ابتسم هوراثيو:

- عرفتُها...! هذه هي إليسا، تضرم النار ثمّ ترحل...

- إذن، ألا يبدو لك واضحاً أنّك...؟

- ليست الأمور بهذه البساطة، ماركوس -قاطعه هوراثيو-. بل هي أقرب إلى الغموض، إن أردنا تخفيف الوصف... اسمع، مع أنّ إليسا نفت أنّها أغرت والتر ونامت معه بينما كانت تنام معي، فأنا أعلم أنّ ذلك حقيقة -قال هوراثيو وحشر يده في جيب بنطلونه ووضع على الطاولة ولّاعة بدت لماركوس تحفة أثريّة. لقد احتفظ هوراثيو بالولاعة طوال ست وعشرين سنة، ربّما، فكّر، ليعرضها في تلك اللحظة-. نامت معه بينما كانت تنام معي... وربّما نامت مع آخر وآخرين...

- وما علاقة والتر بهذا...؟ - وأشار ماركوس إلى الولّاعة.

- اقرأ ما كتب عليها...

رفع ماركوس الولاعة فرأى على جانبها حروفاً.

- هذه حروف روسيّة، أليس كذلك؟ ماذا كتب؟

- لا يهمّ ما كتب... ما يهمّ هو اللغة التي كتبت بها... الولاعة كانت لوالتر، جلبها من موسكو ونسيها أو أضاعها في البيت الذي واعدتني إليسا فيه. وواعدت فيه والتر. وإذا كنتُ استعملتُ الواقي الذكري، دائماً...

أظهر هوراثيو راحتي يديه، خاليتين.

- ولكن... -كان ماركوس يحاول أن يدوّر في رأسه المعلومة التي يمكنها أن تزحزح كلّ افتراضاته وبعضاً من قناعاته-. والتر كان نصف أشقر،

وإليسا كانت بيضاء، وأنت نصف خلاسي و،... يا إلهي، عمّي، هل يجب عليّ أن أريك صورة آديلا ثانية؟

أفرغ هوراثيو كأسه في جوفه.

- كانت إليسا تقول إنّ حملها هديّة من الربّ... معجزة... إنّها حملت من دون خطيئة... وكوبا مليئة بالخلاسيين من مثلي...

- أنا ما زلتُ أظنّ أنّ حملها كان معجزة من صنعكَ. وقد بات سهلًا أن نعرف، من شعرة أو من عيّنة من مخاط إن كان يوسف النجّار أبًا عيسى وإن كنتَ أنتَ أبًا آديلا. هناك شيء اسمه DNA و... - أخرج ماركوس من جيب قميصه ظرفاً من النايلون، في داخله شعرة سوداء.

- ماركوس، اسمع، لا تحرق لي أعصابي... لن أجري أيّ اختبار... اسمع، قبل حوالي خمسة عشر عاماً رأى إرفينغ إليسا في مدريد، وكانت بصحبتها صبيّة هي، في ما يبدو، فتاتكَ آديلا...، يومها، أدخل السافلُ الشيطانَ في رأسي. قال لي إنّ البنتَ تشبهني كثيراً... لكنّي أعرف، أو أظنّ، أنّ لا صلة لي بابنة إليسا، وحاولتُ أن أنزع من رأسي تلك الفكرة... لكنّي وجدتُ الشيطان يترصدني ويقضّ مضجعي... أكثر من عشر سنوات... ولكن، هل تعلم ماذا يعني أن تكون خطيبتك ابنتي؟ وما علاقة ذلك بانتحار والتر أو موته؟ وبقرار إليسا بالرحيل والاختفاء؟ والأدهى منه، علاقة ذلك بحياتي إن كانت آديلا ابنتي فعلاً؟ هل عندك فكرة عمّا يعني ذلك كلّه؟

- نعم. أو لا.

- مصيبة كبرى.

- بل المصيبة الكبرى... اسمع! آديلا ستصلُ غداً. فلماذا لا نلتقي ثلاثتنا ونتكلّم؟

وهو في الحادية عشرة، وكان، بعد داريّو، أشطر تلامذة مدرسة كارلوس مانويل دي ثيسپِدِس الابتدائيّة، انصرف كينتين هوراثيو، بعد أن بدأ يدرس الفيزياء في المدرسة، إلى مطالعة كتاب أبيه الضخم *الأصول الرياضيّة للفلسفة الطبيعيّة*، لإسحاق نيوتن، في طبعة ضخمة صدرت في بلنسية عام 1932. وكانت تلك القراءة هي ما رسم مسار حياته.

لقد استطاع الفتى الذكيّ، منذ ذلك الوقت، وعلى الرغم من صغر سنّه، أن يستنتج، كما استنتج نيوتن، أنّ فهم عمل الكون يستدعي صياغة ملاحظات العالَم المادي في نظريات عامّة.

حين نشر نيوتن كتابه، في عام 1687، عقب سقوط التفاحة على رأسه (سقطت أم لم تسقط؟)، ذلك الكتاب الذي غيّر تاريخ العلم، بل الإنسانيّة، طرح نظرية عامة للحركة تصلح لتفسير جميع حركات الأجسام الكونية والتنبؤ بها. وبرهن على ثلاث معادلات رياضيّة. لقد سمع هوراثيو عن قوانين نيوتن الشهيرة لأوّل مرّة من مدرّس الفيزياء وهو في الصف السابع.

بفضل استنتاجات نيوتن الثلاثة تلك، التي كان على أحد مّا أن يصوغها، لأنّها موجودة واقعاً، بات العالم أسهل وأعقد في الوقت نفسه. فإن عرفتَ قياس الكتلة، وعرفتَ اتجاه الشيء وسرعته؛ وأخذتَ في الحسبان القوى القادرة على أن تؤثر فيه (الجاذبيّة والاحتكاك)، فسيكون في مقدورك أن تعرف أين سيصل، وكيف سيصل، بل ومتى سيصل. فأنتَ في ظرف يسمح لك بالتنبؤ بحركته. بل إنّك، بعون من نيوتن، تستطيع أن تفسّر ما تظنّه معجزة. معجزة؟ هديّة من الربّ؟ تأثيرات أقوى قوانين نيوتن؟

عند العاشرة صباحاً، أخذ هوراثيو، وقد أحاطت بعينيه الهالات السودُ،

الحافلة التي حملته إلى المختبر الإكلينيكي التابع لمركز (كيندال) الإقليمي الطبّي، حيث حصل، بمجرد أن فتحت مكاتب المختبر، على موعد لكي يجروا له تحليلاً لحمضه النووي، وتحليلاً آخر لشعرة مأخوذة من آديلا فتزبيرغ، كان ماركوس قد أعطاه إياها في الليلة البارحة. كان الفيزيائي يعلم أن ما يقوم به هو الفعل الممكن الوحيد اللازم للكشف نهائياً عن ذلك اللغز: فإمّا أن يتحرر من الذنب الذي ما انفكّ يلحّ عليه، وإمّا أن يتحمل وزره. أن ينسى كلّ شيء أو يتحمّل مسؤوليّة أصرّ، حتى الليلة البارحة، على اعتبارها سخافة كبيرة، على الرغم من الشبه الكبير الذي أشار إليه إرفينغ وماركوس.

أمضى الرجل ليله مسهداً، يحاول، المرة تلو المرة، أن يستعيد مشاهد اللقاءين اللذين جمعاه بإليسا، قبل سبع وعشرين سنة. كم امتزجا، كم التحما، كم شعرا بالعار وبالنشوة، أيّ وضعٍ هجوميّ اتخذته إليسا. كان كلّ شيء مرتباً زمنيّاً ودرامياً ممّا مكّنه من أنْ يستخرجه من خزين ذكرياته ومحفوظات ذاكرته. يذكر أنّه استعمل الواقي الذكري، وشعر بالانتصاب، بل إنّه يتذكّر كيف ألبسته إليسا الواقي الذكري، في واحدة من مآثرها، بفمها، بينما كان هو مشغولاً بمداعبة مواضعَ أخرى.

عند العشاء، أكّد ماركوس له أنّ درجة الأمان في الواقي الذكري تصل إلى 99.8%، وذكّره، وهو يضحك، بحلقة من مسلسلة فريندز، حيث تحمل راشيل من روس بسبب هامش الـ0.2% الباقي الذي يضعونه بحروف صغيرة على علبة الواقي الذكري. اشتدّ القلقُ في رأس هوراثيو فأمر ماركوس بالسكوت، لكنّه لم يكفّ عن التفكير، ولا عن استحضار الأحداث، من وصوله معها إلى الشقّة، إلى المداعبات، إلى اللهفة إلى الإجراءات الاحترازيّة التي اتخذاها.

حين فاجأه النعاس وأوشك أن ينام، بعد الثالثة فجراً، خرج سهمٌ من ظلمة ذاكرته يبحث عن هدف. رأى هوراثيو ردفي إليسا، جسمها الذي انحنى لإطعام قطّ صاحبة الشقّة. رأى بروز الفرج المشعر، ونجمة الشرج الغامقة. ورأى نفسه وهو يقترب من ذينك الردفين. وتذكّر كيف باعد ما بينهما بيديه، وسمع ضحكة المرأة، صوتها، وهي تطلب منه أن يلزم نفسه، أن يذهب ليستحمّ، قالت له شيئاً ما، وشمّت ذاكرته رائحة ما سال وما تدفّق.

فاستعاد اللذة التي شعر بها وهو يمسك بعضوه ويمرّره ما بين الشرج، الذي بات يقع تحت مرمى نظره، والفرج، الذي ما عاد سهلاً عليه أن يرى شفرتيه من زاويته المرتفعة العالية، وإن أحسّ برطوبته ودبقه عن طريق الحشفة المستنفرة. هل اغتسل قبل ذلك الفعل الذي لم يدم غير دقيقة واحدة؟ هل من الممكن أن تكون قطرة واحدة من سائله سقطت ثمّ انزلقت على السطح المنحني لتبلغ المكان الخطأ وتحقق قانون الجاذبيّة الذي لا يقبل الخطأ؟ هل من الممكن أنّ بعض الخلايا المستميتة المستقتلة اتجهت منجذبة وسابحة نحو مركز الوجود ثمّ تقدمت بما يكفي لإحداث معجزة اللقاء بين الحيمن الماكر والبويضة المتلهفة؟ معجزة؟ هدية من الربّ؟ كانت الهالات السود المحيطة بعينيه، حين دخل مختبر المستشفى، تشي بأرق وسهاد.

بعد ثلاث ساعات، وبينما كانت الطائرة القادمة من دالاس، حاملة بين ركابها آديلا، تهبط في مطار ميامي، كان هوراثيو يأخذ مكانه في الطائرة التي ستعيده إلى سان خوان. أغلق الفيزيائي الذي تمنّى أن يكون فيلسوفاً عينيه وحاول أن يسترخي وقال لنفسه: المكتوب مكتوب.

6

القديسة كلارا...
كلارا الأصدقاء

من الحاجز الذي يفصل صالة المطار عن متاهة الأشرطة والسيور والأعمدة التي تقود إلى نقاط التفتيش، ردّدتْ كلارا في قلبها عبارة «احفظه يا ربّ» وهي ترى ولدها يبتعد، وتحسّ قرصاً في معدتها وضيقاً في صدرها. راقبت ماركوس، والغصّة تخنقها، وهو يسلّم جوازه وتذكرة سفره إلى ضابط الحدود، الذي تفحصهما وقرأهما وتحقق منهما، طوال دقيقتين أو ثلاث دقائق (هل تدوم الدقائق دائماً الوقت نفسه؟ كم؟ كم دامت تلك الدقائق العصيبة؟). وتنفست الصعداء حين رأت الضابط يعيد إلى ابنها أوراقه ويرشده إلى الناحية التي عليه أن يسلكها. في تلك اللحظة، التفت ماركوس، مبتسماً، بالثقة الطبيعيّة والعفويّة فيه، التي تبعث الخوف في نفس كلارا، ولوّح لأمّه مودّعاً. ورفع، في الحال، من صدره السلسلة الذهبيّة التي تحمل صورة العذراء، والتي كانت كلارا قد نزعتها من رقبتها وعلقتها في رقبته. اجتاز الشابُ الحاجز: الحاجز نفسه التي رأتْ زوجها وابنها الأكبر يجتازانه في مناسبتين سابقتين، وفي المطار نفسه، ولكن بديكورات وصالات مختلفة. أمّا الشعور فذاته: شعور بالضيق. شعور من يودّع عزيزاً يرحل، ربّما إلى غير رجعة. وثقة بأنّ كلّ رحلة من دون عودة تحمل قطعة من حياتها، فلذة من جسمها، الذي بات يتضاءل ويضمر بعد كلّ شلوٍ يقطع وكلّ طرفٍ يبتر.

صار ممكناً، بفضل التصاميم الجديدة التي أدخلت على المطار، متابعة

سير المسافر. ولمّا كان المسافر في تلك المرّة هو ماركوس، سويداء القلب وحبّة العين، فقد ظلّت كلارا في مكانها، ترفع نفسها بالوقوف على رؤوس أصابعها لترى ولدها وهو يجتاز النقطة الأمنيّة، وترى، أو تتصور أنّها ترى ابتسامته وهو يجتاز، بين عشرات المسافرين، جهاز الكشف، وتراه، أو تتصوّر أنّها تراه، وهو يلوّح بذراعه مودعاً. هذه المرة، على نحو أوسع وأخير. كان ظهره آخر ما رأت كلارا، يحمل حقيبته، ليضيع في السلالم التي تقود إلى بوابات الصعود إلى الطائرة.

ظلّت المرأة، وقلبُها يدق، في مكانها، بضع دقائق، لا تدري كم عددها وكم طالت. كانت تشعر بالحزن يغمر روحها، ولطالما كان للحزن مطرحٌ ومكان في نفسها، لكنّ ضميرها كان مرتاحاً، وهي ترى ولدها، الغالي على قلبها، يلج عالماً لا تبلغ حتّى هي غوره ومداه، عالماً يجعله بمنجاة من المخاطر التي تهددته في سنواته الأخيرة: السجن لتجاوزاته، الجنون بسبب مخاوفه وقلقه، وحتّى الموت بسبب محاولاته الخطيرة للهرب. شكرت كلارا الربّ، الذي آمنت به منذ سنوات، وتوسلت إليه أن يكلأ ولدها برعايته ولطفه. دائماً، يا إلهي! أن يجد البيتَ الذي يتمناه، والسيارة التي يشتهيها، والحبّ والزوجة والولد، وأن ينعم بالسعادة!

وتذكرت مواقفَ رحيل أخرى. رحيل إلى المنفى. رحيل من خرجوا كالهاربين في أعوام الستين، بعد أن فقدوا أعمالهم وأموالهم ومواطنتهم، بعد أن أمضى الكثيرون منهم شهوراً من العمل في مزارع القصب، كالسجناء. رحيل من ركبوا اللنشات التي وصلت إلى ميناء مارييل عام 1980، والذين أهانتهم الحشود ووصفتهم بالمنبوذين والساقطين والقاذورات والمومسات، بل لقد تعرّض بعضهم للضرب على يد جموع الثوريين الناقمين. لكنّها كانت محظوظة حين لم يمرّ زوجها ولا ولداها الاثنان بذلك الفصل المهين، وحين خرج عزيز قلبها ماركوس من البلد كأنّه خارج ليستجمّ ويسيح. حمداً لك يا ربّ!

ثمّ سمعت النداء الأخير للمسافرين على طائرة الخطوط الجويّة المكسيكيّة المتجهة إلى مكسيكو سيتي، عندها غادرت مكانها واجتازت الممرّ المؤدي إلى بوابات الخروج. بحثت بنظرها عن برناردو فلمحته

جالساً على المقعد الوحيد الباقي في صف من الكراسي. رأته، وهو في طريقه نحو نهايات الخمسين، ما زال جذّاباً، ذا وسامة هادئة وقابلية متجددة على إشاعة سكينة ساعدته على أن يصالح نفسه وظروف حياته، على الرغم من مشاكله الصحيّة.

- لنشاهد من هنا الطائرة وهي تطير - أمرته كلارا حين باتت بقربه.

- من هنا لا يُرى شيء. سيخرجون الآن من هذا الذي يبدو كالنفق - قال لها برناردو، وهو يسير وراءها.

- أعرف هذا، برناردو... ولكن يمكن رؤية الطائرة. أريد أن أشاهد إقلاعها.

- ها هي تلك، كلارا. ها هي تنطلق... اهدأي.

- أريد أن أراها - أصرّت المرأة، وكانت مضطربة، وواصلت التقدم بحثاً عن الممر الذي ينزل نحو مخرج البناية المركزيّة ومن حيث يمكن رؤية الطائرات المتوقفة في ذلك الجناح من المطار.

انتظرت كلارا وبرناردو، وهما متكئان على الدرابزين، مثل تمثالين من الملح، وقد أمسك أحدهما بيد الآخر، حتى تحرّكت طائرة الخطوط الجويّة المكسيكيّة. تابعا مناورة الطائرة، التي بدت مثل لعبة موجهة عن بُعد. تحركت ثانية لتختفي في منعطف المدرج قبل أن تظهر ثانية وقد ارتفعت وباتت مستعدة للابتعاد والاختفاء بين الغيوم.

- هل تعلمين -قال برناردو- أنّي ما زلتُ أجهل كيف تستطيع هذه الأشياء الطيران؟

أومأت كلارا رأسها.

- وأنا ما زلتُ لا أفهم كيف تحمّلتُ أن ينتزع منّي كلّ هؤلاء... عمري أربعة وخمسون عاماً وأشعر أنّي عشتُ ألف عام... هيّا بنا. آآآاي، برناردو، كم أشعر بالرغبة في البكاء...

برحيل داريّو، الذي بدا أنّه سيكون نهائياً، تلقّت كلارا ضربة صعب عليها النهوض منها. كانت، في نظرها، بتراً، وإن شعرت بعدها بشيء من الراحة.

شعرت بالحريّة. ولكن، ماذا عساها تفعل بالحريّة؟ وسرعان ما اكتشفت أنّ تلك الحريّة يمكن أن تصبّ في إنارة وعيها، وهو ما كسبته من شعورها المفاجئ بالحريّة، بعد ابتعاد الرجل الذي ارتبطت به وعاشت معه منذ خواتيم مراهقتها. أحسّت كلارا، وهي في الثانية والثلاثين، بميلاد أفق جديد، لم تكن تنتظره، يحثّها على أن تتعرّف على نفسها، أفق سرعان ما بدا لها كاشفاً ومرشداً، حتّى وهو يطرح أمامها من علامات الاستفهام المحيّرة أكثر ممّا يعطيها من الأجوبة الشافية.

رحل داريّو من دون ضجيج، مُدارياً، قدر استطاعته، على أعباء التوتر والخوف التي كانت تثقل عليه. رحل متخفيّاً تقريباً، يلفّه شعورُ الهارب الذي كان يحمله، وصفة الهارب التي كان عليها واقعاً. كان قراره هو السفرَ بلا عودة. وهو قرارٌ تكتم عليه، ثمّ لم يلبث أن بات هاجساً وهوساً، مع علمه، هو وشريكة خمسة عشر عاماً من عمره، بعاقبة قراره: لأنّه، هكذا، سيدخل في خانة الهارب المنشق، وسيوصم بالخيانة، شأنه شأن الجندي الذي يهرب من المعركة وينضمّ إلى صفوف الأعداء، وسيصنّف ضمن عديمي الجنسيّة، سياسيّاً وقانونيّاً. سيفقد كل حقوق المواطنة، وبضمنها حقه في جنسيته ووظيفته، وحقه في العودة لزيارة بلده لمدّة قد تصل إلى سبع سنين أو عشر سنين أو ألف سنة، إلى أن يرفع «أحدٌ ما» عنه الحظر أو أن تقوم الساعة بوقوع الأرمجدون [54]، الذي طالما تكلّم عنه هوراثيو. أمّا عن أسرته، التي ستتحوّل إلى مجموعة من الرهائن أو المتهمين بحكم القرابة، فسيعني ذلك منعهم من السفر للالتحاق به طوال السنوات القادمة الخمسة آلاف أو الألفين.

كان داريّو وكلارا يدركان أنّ ذلك يعني نهاية العِشرة بينهما، وسعيَ كلّ منهما إلى أن يعيد بناء حياة جديدة، يبدأها داريو من الصفر، معتمداً على ذكائه وغياب التصوّر والبعد؛ وتبدأها كلارا بناءً على أطلال وجودها المستهلك الذي أرهقه التعب والعوز، علاوة عن مسؤولياتها التي باتت تنوء بها، للمرّة الأولى في حياتها، من دون سند ولا معين. وحدها. بداية شيء. نهاية أشياء.

ولأنّهما كانا مدركين لكلّ ما يغامران به ويراهنان عليه، فقد كان الفراق، ضمن أجوائه الحزينة، أخفَّ وطأة عليهما، فتقبّلا واعيين أسبابه، وتقبلا مدركين نتائجه... أمّا الولدان، ردّد الأب الشاعرُ بالذنب، مع نفسه، فسيفهمان مع الوقت، بل سيشكران لي ما فعلتُ، وإن قرّرا، يوماً ما، أن يسافرا أو يهاجرا، فسأمدّ لهما يد العون، لأنّي سأظلّ والدهما. هكذا كان يحاول أن يطرد عن تفكيره شعوره بالأنانيّة والتقصير في حقّ أسرته،، مهما قال عن سعيه لتحقيق ذاته في هذه الحياة التي لا حياة له بعدها.

وتقبلت كلارا، صامتة مستسلمة، كلّ ما ترتّب على ذلك من نتائج، فهي تعلم، خيراً من غيرها، ما دعا الرجل إلى اتخاذ قراره: حاجته للابتعاد عن حفرة العنف والفقر المرعبة التي نشأ فيها ثمّ خرج منها، والسير قدماً والصعود والارتقاء، دون النظر إلى الخلف. حتّى لو كان في ذلك ابتعاده عن ولديه، اللذين ما من شيء في العالم يعدل حبّه لهما.

في الأشهر التي تلت سفر داريّو، الذي تحدد أجله في آذار 1992، حين كانت الأزمة الوطنيّة قد اشتدّت، واختفت أكثرُ الحاجات مساساً، اكتشفت كلارا في نفسها قوة ما كانت تظنّ أنّها تتوفر عليها. لقد صيّرها شعورها بالمسؤوليّة عن إعالة ولديها محارِبة مستعدة لخوض أيّة معركة تكفل لها بقاءها معهما على قيد الحياة. ولمّا كانت الشركة الهندسيّة التي عملت فيها قد أغلقت عمليّاً أبوابها منذ أن انتهت من منشآت الألعاب الأمريكيّة لعام 1991 –لم تكن جيدة البناء وإن بدت تفي بالغرض، فقد تعجّلوا إنجازها ليتعجلوا الاحتفال بها؛ عيوبٌ يعرف بها الجميع تقريباً، لكنّ أحداً لا يجرؤ على التصريح بها–، فقد انتقلت كلارا إلى صفة موظفة «موقوفة»، بمعنى أنّها لا تفعل شيئاً، مقابل مرتب مخفّض، لا يتناسب والارتفاع الحاد في تكاليف الحياة.

وبينما انصرف الآخرون إلى الشكوى وهدر الوقت، راحت المهندسة كلارا چاپله دونياته، التي ولدت على سرير من ذهب، ربّما لتنشئ حياة ترفٍ أخرى، تعمل بكلّ طاقتها بحثاً عن موارد تنقذها وأولادَها من الموت جوعاً. فطافت بدرّاجتها الهوائيّة على المزارع المجاورة تشتري المانجو والأفوكادو والجوافة والپاپايا، وتبيعها لاحقاً في الشارع؛ ومع ندرة الغاز والكهرباء، صارت تجمع الخشب من مستوعبات القمامة لتحضّر حلوى الفاكهة وتعبئها وتبيعها عند مدخل مستشفى الكسور القريب من بيتها، أو أمام محطة البنزين، حين كان البنزين متوفراً؛ وانتزعت، بمساعدة هوراثيو، آخر برغي في سيّارة داريّو وباعتها قطعاً إلى ميكانيكيي المنطقة، قبل أن يحضر رجالُ الحكومة لمصادرتها، بعد أحد عشر شهراً وتسعة وعشرين يوماً من سفره، حين بات هروبه رسمياًّ، بل لقد عادت إلى الجُنينة، التي كانت في الأصل حديقة مفروشة بالعشب الأخضر، تعتني بها وتستثمرها، فوسّعتها، بمساعدة إرفينغ وجويل وولديها، ونوّعت محاصيلها، بعد أن بذرت فيها من كلّ صنفٍ قوي وكريمٍ، فنما القرع والبطاطس الحلوة والپاپايا والموز، بعد أن سمّدتها إيماناً وسقتها مثابرة.

وأتتْ بكلب دوبرمان ليحرس الجنينة المزهرة المثمرة من كلّ من تسوّل له نفسه سرقة قرعها وموزها. كلب فتيّ، هزيل ونشيط، سليمُ الذنب، سليمُ الأذنين، رأته كلارا مرتين قرب المستشفى، هائماً يبحث عن طعام يعزّ وجوده، فاستنتجت أنّ أصحابه ربّما تخلّصوا منه بعد أن بات عبئاً عليهم. وفي المرة الثالثة، قدمت كلارا له من الخبز بالكروكيت الذي كانت تبيعه، فالتهمها في لقمتين ثمّ نظر إليها، فكأنّه يطمع في المزيد. تأثرت من نظرته، إذ بدا عليه أنّه لا يفهم حركة العالم (أو إلّا ما هو جوهري: فالعالم يتحرّك على أسوأ ما يكون)، وأعطته كسرة أخرى. لم تتردّد في اتخاذ القرار، فاصطحبت الكلب ليكون حارساً على حقلها. ولإضفاء صفة الوحشيّة على الكلب الوديع، فقد أسماه ماركوس دينجر وتكفّل بالعناية به وإطعامه طوال سنوات عمر الكلب الاثنتي عشرة (منذ أشهره الأولى فضّل النوم على كنبة الصالون) حتى مماته، أعمى ومن دون أسنان، في حضن ماركوس، وقد بات شاباً.

وبذلت كلارا نشاطاً لا يفتر إلّا حين ترى أن لا قبلَ لها بالسير في طريق

مظلم لا تبشّر بنهايته أشدّ الخطابات تفاؤلاً ولا أكثرها تحريضاً على روح الكفاح والتضحية والمقاومة والثقة والإيمان. في لحظات الضعف تلك، تفتقد المرأة وجودَ الرجل الذي أمضت معه سنوات طويلة، والوحيد الذي قاسمته الفراش في حياتها. مع ذلك، فربما عزّاها، في ساعات الشدّة تلك، شعورها بالسلام الذي بدأت تعيشه منذ رحل الزوج، زوجها. لقد تضافرت فصول الشجار الذي كان ينشب بينهما، مع أجواءُ التوتر التي خيّمت منذ أن تعثرت خططه، ثمّ طيلة وقت انتظاره واستعداده للسفر، مع تراجع رغبتها الجنسية، لكي تأخذ عزلتها منحى لطيفاً متدرجاً. وهكذا بدأت كلارا تستمتع بذلك المكسب المؤلم، وهي التي تعبت وكافحت في سبيل ألّا تعيش وحيدة.

أحدث موت والتر واختفاء إليسا هزّتين قويتين أربكتاها، وظلّتا، ولوقت طويل، تلاحقانها مثل علامات استفهام قاطعة لم تجد لها، على الرغم من تفسيرات أصدقائها الكثيرة (ربّما لأنّها كانت كثيرة) ردوداً مقنعة. إذ لا يمكن أن ينتج حدثان على ذلك القدر من القسوة، عن فكرة على ذلك القدر من الفظاعة، وقرارٍ اتخذ في لحظة يأس. وكان في التقارب الزمني بين الواقعتين، والشكّ في وجود علاقة حميمة بين المنتحر والهاربة، ما أثار الشكّ في أنّ والتر هو من تسبب في حمل إليسا، وفي أنّ إليسا هي من تسبّب في انتحار والتر، ما صبّ الكثير من الزيت على تلك النار التي فقدت مع الوقت حرارتها، لكنّها لم تخمد.

كان من أثر ضغط الأفكار على كلارا، طوال شهور، أنّ إليسا ظهرت لها في المنام: أحلام مختلفة الحبكة، مختلفة المواقف، تظهر في بعضها قبل اختفائها، وتظهر، في بعضها الآخر، وقد اختفت وعادت. أحلام بعضها حلوٌ، يكشف عن تمرّد عقلها الباطن، فقد كانت تستيقظ وقد تعرّق جسمها وترطّب مهبلها، وبعضها مُرٌّ، تشيع فيه الغيرة القاسية والرغبة العارمة في الاستحواذ. حالات من الهذيان والهوس لم تروِها لأحد، لأنّها، كما قالت لنفسها غير مرّة، فيضُ عقل عاشق أو مجنون. ولطالما سألت كلارا نفسها، في أسحار الأرق تلك، وهي تداعب جسمها: هل أنا شاذّة؟ وكيف أكون شاذّة من دون أن أذوق للشذوذ طعماً لسنوات طويلة من حياتي؟ وكيف أكون شاذّة إن لم تكن تجتذبني النساء؟ هل كان تراجع علاقتها الجنسيّة مع

داريّو تعبيراً عن شذوذ جنسي ظاهر، ما لبثت أن باتت متمردة، أم كان إعياءً جزيئيا طبيعياً، كما يحدث للمعدن حين ينكسر؟ فما أشدّ تأثير إليسا عليها، فقد أربكتها وهي حاضرة، ثمّ، حين اختفت، خلّفت فيها شعوراً مرهقاً بالفقد والفراغ لم يخلّفه فيها غياب الزوج!

حين سقطت في تلك الحالة، وصارت تسأل نفسها عن حقيقة طبعها وميولها، حاولت كلارا أن تتذكّر مناسبتي الحمل المتقاربتين اللتين مرّت بهما، وتذكرت أنّ أنوثتها بلغت، أثناءهما، أعلى درجاتها وأوضحها. فمع الراحة النفسيّة التي رافقت الحمل، انطلقت رغبتها الجنسيّة، أثناء أشهر الاضطراب الهورموني تلك، إلى درجة أنّها طالما دعت داريّو إلى مشاركتها الرغبة والفعل. كانت تشعر بأنّ رغبتها الجنسية تجد اكتمالها وذروتها، وهو ما لم تكن تناله في الظروف الاعتياديّة إلّا نادراً. بل لقد بلغت حاجتها إلى داريّو، واستمتاعها بأدائه، أن فاجأتها آلام المخاض بماركوس وهي منحنية على السرير، بساقين منفرجتين، وزوجها من خلفها. فهل تعقل أن تكون تلك المرأة الجامحة هي نفسها التي عادت، بعد الوضع، إلى روتينها الجنسي الخامل، والتي بدأت مع مرور السنين لا تشعر إلا بانجذاب قليل أو معدوم إلى زوجها، بينما بدأت تميل أكثر فأكثر إلى صديقتها التي رافقتها وقتاً طويلاً؟ من أنا، ما أنا؟، أنهت تساؤلاتِها.

عقب ست سنوات من رحيل داريّـو، بلغت كلارا استجابة جسديّة وعاطفيّة مُرضية لاحتياجاتها الحميمة. كانت في الثامنة والثلاثين، وكانت تشعر بتعب شديد. تنظر إلى المرآة فترى نفسها وقد شاخت، بل سمنت، وإن كانت، في الواقع، فقدت العديد من الكيلوغرامات بسبب مشاويرها وسوء تغذيتها. بدأت شعرات بيضٌ تخالط سوادَ شعرها، وما عادت تذكر المرّة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى صالونٍ حقيقي لتتزيّن بمنتجات حقيقيّة. أمّا ملابسها فجميعها سابقة لعام 1990، بل لم يدخل في خزانة ملابسها، منذ ذلك الوقت، لباس داخلي واحد... ومنذ أن اختلى بها زوجها للمرة الأخيرة، قبل يومين من سفره (مسايرة لرغبته هو أكثر من استجابة لرغبتها هي، وانطلاقاً من تضامن أكثر منه انجذاباً)، لم ترقد مع رجل طوال ست سنوات. أمّا مداعباتها لنفسها فقد راحت تتباعد حتى نسيت متى فعلت ذلك

آخر مرّة... عندها تملكها شعورٌ طاغٍ بأنّها ما زالت قادرة على أن تحبّ رجلاً؛ بل إنّها مقتنعة بأنّها، بناءً على ما تشعر به، تحبّه فعلاً.

وسايرت كلارا ذلك التيّار اللطيف اللذيذ: أحبّت بطريقة أخرى وفي ظروف أخرى، أكبر سنّاً، ولكن بقدرة على الاستجابة ما زالت فاعلة، فقد اكتشفت أنّ أليافها الحسيّة، الراقدة الخاملة، منذ وقت طويل، ما زالت حيّة، وما زالت بها قدرة على منح اللذة والشعور بها، لا من مواقعة أنثى أخرى، كما فعلت في بعض أحلامها، بل من ذكرٍ حقيقي، تداعبه ويداعبها وصولاً إلى النشوة المبتغاة. كانت تلك هي الفترة التي اكتشفت فيها كلارا أيضاً السكينة التي يأتي بها الإيمان بربّ تنتظر منه العزاء والسلوى اللتين تفتقدهما. ولمّا كانت تحتاج ذلك وتتمنّاه وتستطيعه... فقد عادت لتشعر بأنّ أحداً ما يرافقها ويملأ عليها وحدتها.



في 21 كانون الثاني 1995 أحيا ولدا كلارا واثنان من أصدقائها ذكرى ميلادها الخامس والثلاثين، بعد أن أصرّ إرفينغ، ومعه جويل، على أن يقطعا المسافة الطويلة التي تفصل بين (الثيرّو) و(فونتانار)، حاملين زجاجتين من النبيذ الرخيص، ليحتفلا مع الباقين بما احتفلوا به دائماً: سنة أخرى من الحياةِ، بين الباقين على قيد الحياة، والصداقةِ، بين القادرين على التعبير عن الصداقة.

لكنّ كلارا وجدت نفسها في حيرة من أمرها: فإن هم أكلوا الدجاجة الوحيدة الباقية أكلة واحدة، فماذا سيأكلون طيلة أسبوع؟ (كانت الدجاجة هي كلّ ما تبقّى من المعونة القليلة التي أرسلها لهم داريّو لنهاية العام). ولّما سمع رمسيس شكوى أمّه، جاءها، عشيّة الاحتفال، ليعرض عليها:

– مامي، أريد أن أقول لك شيئاً – قال، وقد ظهرت على صوته علاماتُ البلوغ: بما أنّ المناسبة تخصّك أنتِ، فقد قررتُ أن تكون وجبة هذا الاحتفال واحداً من أرانبي.

منذ ثلاث سنوات، رتّب الفتى، في فناء الحديقة، حظيرة لتربية الأرانب، التي راح يبيعها بسعر مجزٍ. لكنّ رمسيس، كما كانت كلارا تقول، كان يستمتع بكسب النقود أكثر من استمتاعه بإنفاقها، وهو طبعٌ أتاه من أبيه، وقد ينفق، ولكن ليستثمر في ما يعود عليه بمكسب أكبر، كما فعل مع معزة اشتراها، ولمّا حملت ووضعت، باعها مع سخلتها بثلاثة أمثال ما كلّفته؛ وكما فعل مع ماكينة طحن حبوب اشتراها بقروش، شبه عاطلة وبموتور محترق، فصلّح الموتور وزيّته وطلاه، ثمّ وضع الماكنة في خدمة أرانبه، بل صار يبيع منتوجها من الحبوب المطحونة إلى حقول تربية الدجاج والخنازير والأرانب في المنطقة، ليضيف إلى أرباحه أرباحاً.

كان رمسيس يبيع أرانبه إلى مربين آخرين، أو إلى ناس يشترونها ليأكلوها، لذلك لم يذق هو ولا أسرته، طوال السنوات الثلاث التي أمضاها في تربيتها، من طعمها شيئاً. لذلك، وجد إرفينغ وجويل نفسهما، حين وصلا، منتصف النهار، أمام مشكلة حقيقيّة: فالأرنب الموعود ما زال حيّاً، إذ لم تكن كلارا ولا رمسيس ولا ماركوس، يتجرأون على ذبحه.

اتجه إرفينغ من فوره إلى حيث الأرانب، يتبعه دينجر، لكنّه عاد، بعد خمس دقائق، وهو يهزّ رأسه محبطاً والسكين بيده نظيفة برّاقة.

– أظنّ أنّنا اليوم لن نأكل أرنباً – قال.

نظر جويل إلى صاحبه بغضبٍ انتبهت كلارا إليه. غضب ينمّ عن أنّه سيقود إلى الحلّ.

– هذا ما تفعله دائماً، إرفينغ! –صرخ جويل، وانتزع من يده السكين وسأله عن الأرنب المقصود. بعد عشرين دقيقة، كان جويل يغسل البدن المستطيل المسلوخ الوردي بعد قطع رأسه وبتر أطرافه، وهو يقول–: هل تريد أن أطبخه لكَ أيضاً؟

لم يبقَ من يخنة الأرنب التي أعدّها إرفينغ إلا العظام، التي كانت من حصّة دينجر. وبعد أن شبعت البطون وهدأت، ودّع رمسيس وماركوس أمهما وأصدقاءها: ذهب رمسيس لمعاينة ديوك مصارعة جيء بها من (پينار دل ريّو)، وفي باله أن يشتري واحداً يكون نواة لمجموعة منها يربّيها، أو لبيعه إلى هواة تلك اللعبة، بينما خرج ماركوس ليلعب مع أصدقائه قبل حلول الظلام. في تلك الليلة قرّر ماركوس أن يسدّد ضربة كيلومتريّة، كما يقولون، سيذكرها على أنّها لحظة من اللحظات المجيدة في حياته.

مع زجاجة النبيذ الثانية على النصف، والسكون الذي خلّفه انصراف الأولاد، والتراخي الذي دبّ فيهم، سألت كلارا إرفينغ عن برناردو، الذي قال لها إنّه يحمل أخباراً عنه.

– هل من الضروري أن نتكلّم في هذا الموضوع الآن، وأنا في أتمّ راحة واسترخاء؟ – سأل إرفينغ. هزّت كلارا رأسها بالإيجاب.

– وعن مواضيع أخرى...

– أيّة مواضيع؟

– أخبرني أنت أولاً، هل رأيتَ برناردو؟ ماذا جرى له؟

نظر إرفينغ إلى جويل، الذي ردّ على نظراته قائلاً:

– لا تنظر إليّ... أم إنّ عليّ أن أذبح أرنباً آخر؟

– حسناً. حسناً –بادر إرفينغ موجهاً كلامه إلى كلارا–. قبل أيّام مررنا ببيته في (ألتاهاڤانا) و... علمنا أنّه ما عاد يسكن هناك.

– ماذا تقول؟

حكى لها إرفينغ عمّا قد تكون السقطة قبل الأخيرة لبرناردو قبل نهايته صريع الكحول:

– ذهبنا إلى المخزن الذي يورّد لنا حبال المكرمية، في شارع (پيرلا)، قريباً من بيته. وشئت أن أنتهز الفرصة لأزوره وأخبره بموعدنا هنا. طرقتُ الباب ففتحت لي امرأة لا أعرفها. وحين سألتُها عن برناردو قالت لي إنّه ما عاد يسكن هناك. قالت إنّهم تبادلوا السكن معه...

– برناردو قايض سكنه؟ ومن يكون هؤلاء؟ – لم تصدّق كلارا ما سمعت. فبيت (ألتاهاڤانا)، الذي آلت ملكيته إلى والدي برناردو بعد هجرة مالكيه الأصليين إلى كوستاريكا، بيت كبيرٌ له باحة رحبة وبوابة كبيرة ونوافذ عريضة من الزجاج الملوّن. قايضه بماذا؟

– أعطوه شقة في (سانوس سواريث). أنا بقيتُ كما أنتِ الآن، مشدوهاً، لم أفهم شيئاً، لكنّي استنتجتُ ما وقع: برناردو بات يسكن في شقّة تقع في الطابق الثاني... ومعه من المال ما يكفي للشرب خمس سنوات، على افتراض أنّ ما لديه، من حياة أو مال، سيدوم خمس سنوات. لأنّي أقدّر أنّ هؤلاء الناس دفعوا له مبلغاً جيداً مقابل البيت الكبير الذي حصلوا عليه...

– عجباً!... وهل ذهبتَ لزيارته؟

– لا. لا أريد. وماذا سأقول له أكثر ممّا قلناه جميعنا له؟ برناردو انتهى.

– لكنّ هذا غير ممكن. لمَ لمْ تخبرني؟... يجب أن يلغي الصفقة. لقد استغلوه... ضحكوا عليه...

- إن تراجعتِ عن الصفقة، فسيقوم برناردو بأخرى غيرها الشهر القادم. ألا تفهمين، كلارا؟ ما يريده برناردو هو أن يموت... ولكي يموت، فهو يحتاج إلى المال وإلى الكحول، ولن يمنعه أحدٌ من ذلك. كان في الأساس شبه ضائع، ثمّ جاءت إليسا لتكمّل عليه، فما عاد راغباً في الحياة... هو لا يريد أن يعيش... وأرى أنّ ليس من حقنا أن نمنعه من أن ينتحر.

أومأت كلارا موافقة، وإن رفضت كلامه في داخلها. أمّا جويل فبادر قائلاً:

- إرفينغ. أقسم لكَ أنّي لا أتحمّل تفلسفك حين تقول «هو لا يريد أن يعيش» أو «ليس من حقنا»... ما يجب علينا هو أن نحمل برناردو ركلاً إلى أحد المصحّات...

- ندخله مرّة أخرى؟ -سخر إرفينغ-. أنا أتفلسف؟

واصلت كلارا هزّ رأسها مؤيدة وداعمة.

- لا يمكن أن ندعه وشأنه... علينا أن نفعل شيئاً. أوافق على ما يقوله جويل... ولكن من دون ركل. فالمسألة... ما الذي جرى لنا؟ وإلى أين نسير؟

غادرت كلارا غرفة الطعام، وقطعت الصالة المجاورة، لتختفي وراء الجدار الذي يعزل ما كان مكتبَ والديها ومكتبهما، هي وداريّو، من بعدهما. ثمّ عادت تحمل ظرفاً.

- اقرأ هذا -وناولت إرفينغ الظرف-. بصوت عالٍ، لكي يسمعك جويل. ولكي أسمع ما كتب مرة ثانية، علّني أفهم...

- ما هذا؟ وصيّة داريّو؟

- يا ريت -ردّت كلارا- فربّما ترك لنا إرثاً...

نظر إليها إرفينغ مرتاباً ورفع بصره حين قرأ اسم المرسِل وعنوانه.

- وأخيراً كتبا؟

- اقرأ...

- «بوينوس آيريس. 22 كانون الأوّل 1994. عزيزتي كلارا، كلارا الأصدقاء: أردت، في اليوم الأخير من السنة، ويوم ميلادك، أن أكتب لك.

تعرفين أني لا أحبّ الكتابة، ولا الكلام الكثير. ليوبا تقول إنّ فكري مبنيّ على خطوط متقاطعة ومقاييس محسوبة، ولذلك أيضاً لم أستطع أن أكون رساماً أو فناناً، كما تمنيت، وكان عليّ أن أقبل بالهندسة. وأظنّ أنّها الحقيقة. بل هي الحقيقة، بلا شك.

«كان من حقّ هذه الرسالة أن تبدأ، كما جميع الرسائل، هكذا: كلارا، أتمنى أن تكوني، حين تسلّم هذه الرسالة، بخير أنتِ ورمسيس وماركوس. وأن يكون إرفينغ وجويل وهوراثيو وبرناردو، الذين ما زلتِ، بلا شكّ، ترينهم، بخير أيضاً».

– فابيو هنا لا يعلم أنّ هوراثيو سافر قبل ستة أشهر – قاطعته كلارا.

– هل لكَ أن تخبرني ثانية بتاريخ الرسالة؟ – طلب جويل.

– الثاني والعشرون من الشهر الماضي، قبل شهر تقريباً. متّى وصلت، كلارا؟

– أمس. استمرّ في القراءة.

– «وأن يكون صديقي العزيز والفالصو داريّو –واصل إرفينغ القراءة– هناك في كاتالونياه، أيضاً بخير... وأقولُ لكِ، طبعاً، كما هو الواجب في جميع الرسائل، إننا بخير...، لكنّي لا أريد أن أكذب عليك. أنا لستُ بخير. بل في أسوأ حال. ولا أقصد الصحة. لا. فلن أموت (مبدئياً)، لأنّ مرضي آخرُ مختلف. مرض حقير، مرض لا تجدينه في هذا القحف الذي يروق لزوجك فتحه: الرأس أو جوزة الهند أو الجمجمة أو القرعة. أنا أعاني، على قولة جدّتي، من «مرض الفراق»: فراق ابنتي فابيولا الذي يعذّبني، لا أدري كيف استطعنا أن نتركها؛ فراقكم أنتم، أصدقائي الذين ابتعدنا، أنا وليوبا، عنكم، من دون وداع، خشية أن يكتشفوا أمرنا وتفشل خطتنا، بل فراق الأشياء التي آمنتُ بها وما عدت أؤمن بها، وإن أقلقني أن أعود يوماً لأبحث عن أشياء أخرى أؤمن بها، لأنّه من الصعب ألّا يؤمن المرء بشيء. فراق عالمٍ كنتُ فيه من أكون، عالم أعرف فيه من أكون، ثمّ أكتشف أنّي في عالم آخر لا أعرف فيه ما سأكون. عجباً، أليس كذلك؟ (لاحظي مدى غفلتي وأنا أكتب الرسالة، فقد لاحظتُ، وأنا أبيّضها، أنّي تأخرتُ ثلاثة أيام في كتابتها، لأنّي

أشعر دائماً بأنّ هناك ما ينقص، وأعلم أنّ ما زال لدي الكثير لأقوله. مع ذلك، فهذه هي صيغتها الأخيرة، وعلى هذه الصورة سأرسلها).

«طيّب. أحكي لكِ: منذ أن وصلنا إلى بوينوس آيريس استضافنا أوسكار، وهو ابن عم ليوبا، وهو يعيش هنا منذ عشرين سنة. نسكن في الإستوديو الذي كان يتخذ منه مكاناً لعمله، وهو حجرة في فناء بيته، لها حمام مستقل وتدفئة وكلّ شيء. لكنّنا، وعلى الرغم من لطف أوسكار وزوجته كاميلا، نزلنا ونحن نعلم أنّنا ضيوف عابرون.

«منذ وصلنا، قبل أربعة عشر شهراً، فعلنا وسعنا للحصول على عمل وترتيب وضعنا، لكنّ الأمور هنا ليست بالسهولة المرجوّة. فلكي تجدي عملاً تحتاجين إلى شخص مستعد لأن يوفر لك عقداً. بهذا العقد تحصلين على استقلالك وحريتك: إذ تستطيعين، وقتها، أن تحصلي على بطاقة الإقامة وأن «ترتّبي وضعك» (تلك العبارة التي لا أكفّ عن تكرارها يومياً تعلّمتها هنا)... المشكلة هي أنّ صاحب العمل لا يوفر لك العقد إلا بعد حصولك على بطاقة الإقامة، وهكذا تدخلين في حلقة مفرغة. صحيح أنّنا سمعنا بذلك، بل وخطر ببالنا أنّنا، ربّما، لن نمارس مهنتنا في الهندسة وتصميم الخرائط، لكنّنا لم نكن نتصوّر أنّ الأمر سيكون على تلك الدرجة من الصعوبة. ننجز بعض التصاميم، ونتقاضى عنها مبالغ جيدة، ولكن، خارج نطاق القانون. لقد وعدنا أحد أصدقاء أوسكار، وهو صاحب مكتب هندسي، أن يتعاقد معنا، وهكذا نستطيع العمل بصورة قانونيّة، كلاعبي البيسبول، الذين يلعبون كلّ يوم. يا إلهي! أيّة فوضى هذه... كم أشتاق إلى البيسبول!

«حالما نحصل على تلك الأوراق وعلى المزيد من المال سننتقل إلى بيت مستقل. أمّا إجراءات تصديق الشهادات، فهي صعبة، لكنّها ممكنة. فإن أتممناها، فسنسترد صفتنا الحقيقيّة، صفة المهندس الحقيقيّة. المشكلة هي أنّ الواحد منّا يتمنّى أن تجري الأمور على نحو أسرع، وإن تركب الحياة على السكة، فيمكن دفعها صوب هذه الناحية أو تلك. هل تفهمينني؟ مثلاً، نحن الآن نعمل في مشروع يقيمونه في موقع ميناء المدينة القديم، (پويرتو ماديرو)، من حيث تخرج العبّارات المتجهة إلى مونتفيديو، لأنّ هذا الجانب

من نهر (ريو دي لا پلاتا) يشبه البحر، وإن بدا، من لون مائه البنّي، نهراً. إنّه بناء من اثني عشر طابقاً، ويعمل في المشروع صديقٌ لصديق أوسكار، يدفع لنا لقاء عملنا هناك مشرفين أو معلمي بناء، لأنّنا أمهرُ (نعرف أكثر) من معلّم البناء، لكنّهم يدفعون لنا أقلّ ممّا يدفعون لمعلّم البناء المحلّي، لكنّنا سعداء بهذا المبلغ إلى أن... نرتّب أوضاعنا!»

– وهل كان على هذين أن يرحلا؟ – سألت كلارا.

– طبعاً– قال جويل، ووافقه إرفينغ، لكنّه واصل القراءة.

– «عن بوينوس آيريس أقول لكِ إنّها مدينة رائعة. نخرج في أوقات الفراغ، حين يكون هناك فراغ طبعاً، في نزهة، تطول، أحياناً، فنبتعد عن مركز المدينة، ونأخذ (لا أقول «نركب»، لأنّ «نركب» في اللهجة الأرجنتينية معناه «نضاجع») المترو أو أيّة واسطة نقل جماعيّة، وهي الغواغوا عندنا (هنا «غواغوا» تعني «طفلة»: تصوّري أن تقولي ركبتُ *طفلة*!)» –لم يستطع إرفينغ أن يكتم ابتسامته وعلّق: هنا تجاوزنا ذلك، فما عدنا نستطيع حتّى أن نأخذ حافلة، وواصل الكلام–: «واكتشفنا أشياء، مثل أنّ في الرقم 348 من شارع (كورّينتس) لا يوجد طابق ثان داخلي، كما تقول أغنية التانغو التي يغنّيها غارديل، لا يوجد شيء: هناك حائط فقط وعليه ذلك الرقم».[56]

– أيّ غشّ هذا وأيّ احتيال! – قال جويل.

– «ومع ذلك، ففي ذلك الشارع مكتباتٌ فخمة، تفتح حتّى منتصف الليل، ويقدمون لك فيها القهوة، وقد أعجبتني مكتبة اسمها: (كلاسيكا أي مودرنا)، لا تقع في شارع (كورّينتِس) بل في شارع (كايّاو)، لكنّها رائعة أيضاً، وفيها كلّ الكتب التي تتمنّين أنتِ وهوراثيو قراءتها... بعد شارع (كورّينتس) يأتي شارع (لاباّيه)، حيث دور السينما التي تعرض الأفلام الجديدة، وحيث المسارح التي تعرض مسرحيات ما زالت ملصقاتها مرفوعة من عشر سنوات أو أكثر (نحن طبعاً لسنا في وضع يسمح لنا بمشاهدة أيّة واحدة منها). أمّا شارع (كايّاو)، الذي كلّمتك عنه، والذي يتقاطع مع شارع (كورّينتس)،

56– يشير إلى تانغو شهير للمغنّي الأرجنتيني– الفرنسي كارلو غارديل (1890–1935)، وكان يعرف بملك التانغو، عنوانها «تحت الضوء الخافت» *A media luz*.

ففيه لا أدري كم مطعماً للبيتزا، بيتزا بالجبنة من تلك التي تأكل أصابعك من ورائها، والمتوفرة دائماً، فليس عليك أن تنتظر ساعتين في الطابور. من شارع (كايّاو) نزولاً تصل إلى (لا ريكوليتا)، وهو حيّ الأثرياء هنا، فيه تقع المقبرة التي دفنت فيها إيفيتا بيرون والكثيرون من المشاهير (سارمينتو، مؤلف *الحضارة أو البربرية*، هل تذكرين؟)، وقريباً منه بار اسمه (لا بييلا)، يقال إنّ خورخي لويس بورخيس كان يتردّد عليه.

«ونحن نتجوّل في بوينوس أيريس ونزور تلك الأماكن الجميلة (في الضواحي، طبعاً، هناك مناطق فقيرة يعيش الناسُ فيها عيشة العدم)، وهي أماكن يبدو فيها كلّ شيء طبيعياً، سألنا أنفسنا كيف يمكن للناس هنا، أن يعيشوا في هذه المدينة الكبيرة الرائعة، المليئة بالمكتبات ودور السينما والمسارح وصالات الرقص، وهم مسكونون بهاجس أن يتعرضوا للخطف أو التعذيب أو حتّى القتل، أو أن يعيشوا على هذه الحال أعواماً وأعواماً. أقصد، حتّى سنوات قليلة مضت. هل تذكرين فيلم لويس براندوني *هناك رجال تحت*[57]، حيث يظهر مجهولون، يراهم البطل، الذي لم يقترف ذنباً، واقفين تحت بيته، فيخرأ على نفسه لأنّه يظنّ أنّهم جاءوا ليعتقلوه؟ فالخوف الذي ساد هنا فظيع، بل إنّه ينسينا مخاوفنا التي عشناها هناك، لأنّها لم تكن شيئاً بالمقارنة مع ما جرى هنا، رغم أنّني أزداد قناعة بأنّ تلك الفظائع ما كان لها أن تجري أصلاً. الشعور بالخوف ينغّص عليك حياتك. وإشاعة الخوف تحطّ من قدر من يشيعه. هل هذا من كلام مارتي؟... وما أكثر ما قال مارتي... »

– هل كان هذا خائفاً أيضاً؟ – أنزل إرفينغ الأوراق ونظر نحو الفناء، حيث حلّ المساء.

– هذا ما يقوله –قالت كلارا–. سترى...

– كان على الدوام يبدو واثقاً، وهو ملتفّ بالعلم الأحمر، وقد رفع قبضته عالياً وراح يبشّر بمستقبل مشرق...

57– *Hay unos tipos abajo*. فيلم أرجنتيني يصوّر حال البلاد أثناء الدكتاتوريّة العسكريّة بين عامي 1976 و1983. أمّا لويس براندوني **Luis Brandoni** فهو ممثل ونائب في البرلمان الأرجنتيني.

- ولماذا عليه أن يقارن بين خوفٍ وخوف؟ -تساءل جويل، دون بلوغ درجة طرح السؤال، لأنّه ردّ على سؤاله-: كلّ خوف، مهما كان نوعه، فظيع.

- هل تذكرون كيف أنّه كاد أن يخرأ على نفسه من الخوف حين علم أنّ غيستي يمكن أن تكون مخبرة؟ - تذكّر إرفينغ.

- غيستي... أكاد أنساها، على الرغم من كلّ ما جرى -اعترف جويل، ثمّ قال وهو يرى إرفينغ ينظر إليه-. أنا لستُ مثلكَ...

- قحبة ابنة قحبة! -همهم إرفينغ- وهوراثيو الذي ينفي ذلك ويقول إنّ ذلك غير ممكن! إذا كنتُ رأيتها في ذلك المكان المرعب حيث...

- كفاكما كلاماً في الموضوع... واصل القراءة، إرفينغ، فقد وصلتَ إلى المفيد - حثّته كلارا.

- هل هناك ما هو مفيد؟... حسناً. أواصل القراءة...

- «حسناً، مارتي كتب كلاماً كهذا: "خير لي أن أكون أجنبياً في الغربة من أن أكون غريباً في وطني. وخير لي أن أكون أجنبيّاً من أن أكون عبداً في وطني"... ما أعظم الرسول!»[58]

- عظيم - قال جويل.

- ماذا جرى لفابيو؟ هل يقول إنّه هنا كان يشعر كأنّه عبد؟ فابيو؟ -أخذ إرفينغ نفساً عدة مرات قبل أن يواصل القراءة-. أقسم بروح أمّي أنّي لا أفهم شيئاً.

- هناك أشخاص يصابون بالجنون حين يرحلون عن الجزيرة -قال جويل ووافقه الآخرون-. وهو الآن يقول إنّه كان معتقلاً سياسياً...

نظرتْ كلارا إلى جويل: فقد كانت تحب الأحكام التي تكتسي صفة البديهيّات.

- «شيء غريبٌ يحدث لنا، ونحن نتجوّل (بصفة أجانب) في بوينوس آيريس، فلطالما اكتشفنا معالم جديدة، وهو أمرٌ منطقي، لكنّ الغريب هو أنّنا

58- من الألقاب التي تطلق على خوسيه مارتي لقب «رسول الاستقلال» و«المعلّم» و«البطل الوطني».

لا نشعر إطلاقاً (وقد تكلمنا عن ذلك ووجدنا أنّه أمرٌ يحدث لكلينا) أنّها ستكون ذات يوم ملكنا. أو بكلمات أخرى: ما نراه نراه في مكانه، أمّا نحن، فالمكان ليس مكاننا. نحن هنا كالأشباح، غير موجودين، أو غير منظورين ولا مرئيين، لن ينادي أحدٌ علينا ليسألنا كيف أحوالنا وإلى أين نسير وماذا نفعل، ولن يسألني أيّ صديق عمّن فاز البارحة في المباراة. لسنا في ذاكرة أحد وليس أحد في ذاكرتنا. نحن كائنون وغير كائنين في آن معاً، وستمرّ سنون طويلة قبل أن نكون شيئاً أكبر من الطيف. لا أدري إن كنتِ فهمتني، ما يهمّ هو أن تعلمي هذا: نحن هنا لسنا ما كنّا عليه هناك.

«طيب، إن كنتُ أكتبُ إليك، بعد عشرة أشهر، رسالة ثانية، ومطولة، فليس لكي أحكي لك عن الأشياء التي ذكرتُها لك، وإن أردتُ، في الواقع، أن أذكرها لك، بل لأنّي أردتُ أن أعتذر منك. أو، في الواقع، من جميع الأصدقاء».

توقف إرفينغ عن القراءة.

– ما هذا الذي يقول؟

– طلبتُ منكَ أن تواصل القراءة فحسب.

– آآآي، يا أمّي – همهم إرفينغ، وعاد ينظر في الرسالة.

– «لأنّنا إن ابتعدنا عنكم، وما عدنا نراكِ بعد ما جرى لوالتر ثمّ لإليسا، فلأنّ وكيل الوزارة المسؤول عنّا استدعى ليوبا، بعد شهر تقريباً من اختفاء إليسا، إلى مكتبه، وحين وصلت، وجدتْ شخصاً آخر، لم يقل لها من هو، لكنّ ليوبا عرفتْ في الحال من يكون، أو ما يكون. سألها عن مسائل تتصل بوالتر وإليسا وداريّو وعلاقته بدبلوماسي تشيكي، وعن هوراثيو...، وعنكِ أيضاً، كلارا. سألها ألف سؤال. تقول إنّ الرجل كان يعرف كلّ شيء عن الجميع. بالتفصيل. وإنّه، حين همّ بالانصراف، قال لها إنّ علينا أن نحاذر من صداقاتنا، فالأوضاع الصعبة التي يمرّ بها البلد لا تسمح بأيّ تراخٍ... » –بلع إرفينغ ريقه وتمتم بعبارة «يا إلهي»، وزفر ليستجمع قوته، ثمّ واصل القراءة–: «لن يسمحوا بأيّ تراخٍ».

– منذ سنوات وأنا لا أسمع بهذه الكلمة! – هتف جويل.

– فظيع، أليس كذلك؟ التراخي الذي يتهمون به الجميع...

– أنا كنتُ ملكَ التراخي، ولولا موضوع إليسا... ألم يسألوا ليوبا عنّي؟... ما أغرب ذلك...

– تقول إنّه يعرف كلّ شيء عنّا –قاطعتْه كلارا–. وماذا تراهم يعرفون عنّا؟

– كنتُ أعلم دائماً أنّ لديهم إضبارة عنّي. أرأيتم؟... طيب، دعوني أكمل، لم يبقَ إلّا القليل – طلب إرفينغ، وبعد أن قلب الورقة عاود القراءة.

– «لا تتصوري كيف كان شعوري حين قصّتْ ليوبا عليّ ما سمعت. تمنيتُ لو بحثتُ عن ذلك الرجل لأسأله كيف له أن يقول ما قال؟ ومن يحسب نفسه؟ ولماذا حدّث ليوبا بذلك كلّه أمام مسؤولنا؟ وهل كان ذلك لفتَ نظر أم تهديداً؟... لكنّ ليوبا، المرعوبة، طلبت منّي ألّا نكبّر الموضوع. فمن الممكن أن يكون أكبر.

«تصوّري، لم أخبر بما سأقول أحداً، بل لم أخبر به ليوبا، إلّا بعد وقت طويل، أنّي كنتُ أخشى من ذلك، لأنّ والتر، وقبل شهرين أو ثلاثة من موته، قال لي إنّ شخصاً يعرفه (لم يقل لي من هو، ولم أسأله أنا، بل لم أشأ في تلك اللحظة أن أصدّق والتر)، قال له أن يحاذر في تصرفاته لأنّهم «يترصدونك ويلاحقونك». هذا ما قاله لي والتر، وانظري ماذا فعل. أظنّ أنّه، على الرغم من تبجحه، وتظاهره بأنّه متمرّد، كان خوّافاً. أو نصف مجنون، أو أكثر من مجنون... ».

– هذه حقيقة –قالت كلارا–. والتر قال ذلك لداريّو... كانت تجري أمور غريبة لوالتر...

– أواصل –قال إرفينغ وهو يهزّ رأسه موافقاً كلارا على ما قالته–. «ولذلك، فحين تكلّم ذلك الرجل مع ليوبا، قرّرنا الابتعاد عنكم. صحيح أنّنا تألمنا للقرار، لكنّنا لم نجد بدّاً من ذلك، وأظنّ أنّ أيّ واحد كان سيفعل ما فعلنا... أليس كذلك؟... عزيزتي كلارا، أرجو أن تفهمي قصدي، أقصد قصدنا. ما كان في اليد حيلة، لأنّنا بدأنا نشعر كأنّ هناك رجالاً يجلسون تحتنا. هكذا. وخصوصاً ليوبا، هي تبدو قويّة، لكنّها ليست كذلك. المسكينة، بدأت

تعاني من اضطرابات في النوم، وما زالت. إنّه الخوف، كما تعلمين... لم نفكّر إن كنّا مخطئين أو مصيبين، قرّرنا البقاء هنا، بل لقد تركنا فابيو لا هناك حتّى لا أدري متى، وإن كنّا نأمل ألا يكون لوقت طويل، لا تعلمين كم نشتاق إليها. فهل تصفحين عنّا؟... أرجو ذلك. وأرجو أن يصفح عنّا بقيّة الأصدقاء.

«في هذه الأثناء، من هنا، حيث ما زلنا في وضعيّة غير قانونيّة، وسنظل مختفين لوقت طويل، أو ربّما لا، وحتّى نستطيع أن نبني شيئاً... حسناً، فأنا لا أحسن الكتابة، كما ترين، وأتلبّك دائماً، بل أشعر بأنّي كارثة... من هنا، نبعث لكِ بقبلاتنا وبأطيب أمنياتنا في هذا العام، ونتمنّى أن يكون يوم ميلادك سعيداً، كما تستحقين، مع ولديك وأصدقائنا. قبلاتنا. فابيو».

طوى إرفينغ الأوراق الثلاث. وبدا جويل مثل حيوان في قفص. أمّا كلارا، الجالسة على مقعدها، فقد ظلّت تنظر إلى الأرض. أعاد إرفينغ الورقات إلى الظرف وقال، حين سلّمه إلى كلارا:

– يا له من سافل وابن قحبة!... أتعلمون؟ كلّ ما قاله كذب. لقد اخترعه اختراعاً...

– ولماذا يخترعه؟ هل يكذب حين يخبرنا بأنّ أحداً ينمّ علينا ويبلّغ عنّا؟ غيستي، والتر، ما أدراني... لا. فابيو ما كان في حاجة إلى أن يكتب لي ولا أن يخترع شيئاً...

– بلى، كلارا، بلى. كان يحتاج... فخير له أن يلصق التهمة بأحد من أن يكون هو المذنب. فمن بيننا جميعاً، كانا هما الأكثر شعوراً بالخوف لأنّهما ما كانا يتحملان أن يفقدا المكاسب الحقيرة التي يمتلكانها، وموقعهما الذي يحسبانه مهماً. وحين وجدا أنّ المكاسب تنضب وأنّ السيارة الروسيّة لم تكن أكثر من تنكٍ متهالك، لا تحسن غير ابتلاع البنزين، وأنّهما ليسا مهمين ولا شيء... رحلا. هذا كلّ ما في الأمر. وهكذا هو كلّ مستهتر، كلارا، حالهما حال أمثالهما ممّن يقضون حياتهم وهم ينشدون الأمميّة، وحين يضيق الحذاء على أقدامهم يطيرون... لقد أدركتُ ذلك دائماً، دائماً! وأنا الآن واثق من أنّهما هما من كان يشي بنا ويبلّغ عنّا! وها هما يقولان إنّهما رحلا لأنّ رجلاً من رجال الأمن أخافهما... يا لهما من كذّابين...

استمعت كلارا إلى إرفينغ دون أن تدري ما تردّ به. فهل هو محقّ في بعض ما قال؟ وإن كان محقاً أم غير محق، فكيف السبيل إلى معرفة ذلك؟ دورة أخرى للناعور الدوّار أبداً، المستعدّ دائماً لشحنهم بأسوأ الأسباب والدوافع: لماذا يقع هذا لهم؟ لماذا لهم فقط؟

عقب أربعة أشهر، وفي أيار كوبيّ لاهب ممطر، تلقّت كلارا مكالمة من شقيقة فابيو، ماريّا دل كارمن، تعلمها، وهي موجوعة مفجوعة، بالخبر الذي ترك، وإلى الأبد، اتهامات إرفينغ معلّقة، وترك كلّ ما ورد في رسالة فابيو من حقائق مفترضة وادعاءات مزعومة حول أسباب كتابته تلك الرسالة و، بالتالي، وراء انشقاقه هو وزوجته وهروبهما، في مهبّ الريح. فلقد لقي المهندسان ذات المصير الذي لقيه والدا كلارا المهندسان: لقد قتل فابيو وليوبا في بوينوس آيريس، حين تفككت السقالة التي رفعت في شاهق عمارة كانت في طور البناء، ليقضي المهندسان، اللذان ما كانا يعملان مهندسين ولا يتقاضيان أجرة مهندسين، عند مبزل كبير يجرف مياهاً داكنة: ولما لم تكن وضعيّة أيّ منهما قانونية، فلم يشملهما تأمين ولا تعويض. فكأنّهما غير موجودين. نعم، فكّرت كلارا، لقد قضى صديقاها القديمان بعد أن باتا، في بلاد الغربة، غير قانونيين، بل غير موجودين، وهذا هو الأسوأ.

رآهما برناردو، وهو على سريره في المستشفى. طفرت الدموعُ من عينيه، وصدرت سعلة أجبرته على رفع كمّامة الأوكسجين. اقتربت كلارا وإرفينغ صامتين، كلّ منهما من أحد جانبي السرير. أمسك بيدهما وداعبت كلارا صدره الذي لم يستره قميص البيجاما، الأصغر نمرتين من النمرة المناسبة لجسمه، على الرغم من هزاله ونحوله.

– آي، برناردو، برناردو – تمتمت كلارا وهي تجفف دموع عينيه اللتين احتقنتا من أثر الدم واستنشاق الغاز. ترجاهما برناردو، بما بقي من صفاء في ذهنه، أن يتكرما عليه بشيء واحد: ألّا يوجّها إليه أيّ لوم.

فهو نفسه لا يدري ما الذي جرى، ولا كيف، لكنّه يفترض أنّ ما أنقذ حياته شيئان: مشيئة الربّ وبروستات الرجل الذي يسكن الشقة المجاورة. جارٌ أرسلته السماء، شمّ رائحة الغاز تملأ حمّامه، بينما كان يُفرغ، عند الثالثة فجراً، مثانته. خفّ الرجلُ إلى مطبخه، حيث تحقق من أنّ مفاتيح طبّاخه مغلقة. ثمّ خرج إلى الممرّ، يشمشم كالكلب، حتّى اكتشف أنّ مصدر الرائحة هو الشقة المجاورة، حيث يسكن، منذ عدة أشهر، ذلك السكّير. كانت المصابيح مضاءة في داخلها. طرق الباب، ثمّ ركله ونادى على من في الداخل. لم يتلقّ جواباً. فتح الجار في الشقة الثالثة الباب بعد أن أقلقه الضجيج، وسأل عمّا يحدث، فطلب منه الثاني المساعدة. ثمّة تسريب للغاز في الشقة الأولى وما من ردّ على نداءاته وطرقه، قال، ثمّ عاد إلى ركل الباب ليؤكّد قوله. يبدو أنّ انفجاراً سيحدث!

وقرّر الجاران إنقاذ حياة جارهما: دفعا وركلا حتى أسقطا القفل من مكانه ودخلا الشقة فوجدا نار الطباخ موقدة، وعليها طنجرة يتصاعد منها الدخان. أمّا السكّير الذي شاء نصيبهم التعيس أن يأتي به ليكون جارهما،

فقد كان ملقياً على الكنبة وهو على شفا الموت اختناقاً، أو أنّه كان ميتاً من الغاز الذي استنشقه والكحول الذي جرى في دمه.

حين حاول استعادة تصوّر المشهد الذي وجده عليه منقذاه، أكّد برناردو أنّه لا يتذكّر ممّا حدث شيئاً. بل إنّه ليقسم على أنّه، في تلك الليلة، على الأقلّ، كان من انفصاله عن واقعه أنّه لم يفكر قطّ في الانتحار، كما جرى له مرات كثيرة، وفي ليال كثيرة، ولا سيما، في ساعات الفجر التي تفاجئه برائحة كريهة يمتزج فيها القيء بالكحول بالبول بالعرق، في فراشه، أو عند بوابة أيّ محلّ في المدينة. أما تلك الليلة فلا. فلماذا وضع طنجرة ملأى بالماء على النار، حتّى إذا غلى الماء وفار أخمد نارَ الطبّاخ؟ لا يعرف برناردو الجواب ولن يعرفه. ولا يتذكر أيضاً أنّ عامل البار الحقير، في شارع (لاكريه)، تركه، حين أغلق البار، عند بابه، وبيده علبة الرون مملوءة إلى النصف. قريباً من برناردو، وعند الباب نفسه، كان تشانكليتا، ألدّ خصومه بين روّاد البار، يغط في نومه. فأنّى لبرناردو أن يتذكّر كيف وصل إلى بيته ودخل؟ أمّا آخر ما يتذكره فيعود إلى منتصف نهار اليوم السابق، حين أخرج من خزانته بعض الأوراق النقديّة التي تلقاها عن صفقة مقايضة بيته بشقّة شارع (لا سولا).

كان تدهور حالة برناردو سقوطاً حراً توقّع أصدقاؤه أنه سينتهي على أسوأ ما تكون النهاية. فلئن اشتهر في سنواته الجامعيّة بقدرته على الشرب دون أن يؤثر ذلك في ذكائه، فقد تحوّل إدمانه، مع الوقت، إلى مصدر قلقٍ حاولت إليسا، بعد ما رأت من خطره، أن تعالجه، فأدخلته مرتين في مصحّ للمدمنين، لكنّ مفعول العلاج لم يدم إلّا شهرين، عاد بعدهما إلى الشرب وإلى الانتكاس.

يعلم أصدقاءُ برناردو أنّ إقباله على الشرب ازداد منذ أعلنت إليسا عن حملها، ومنذ أن باتت لديه قناعة بأنّ المولود المنتظر ليس ولده، ليس لأنّه في ظرف لا يسمح له بالإنجاب، بل لأنّه لم يكن يواقع زوجته إلّا قليلاً. وزاد موتُ والتر، وهو فصل كان يرفض الحديث عنه، بسبب سوء علاقته الشخصية بالفقيد، واختفاءُ إليسا، بعد ذلك مباشرة، من إقباله على الشرب، فسقط في هاوية لم يحظ أثناءها إلّا باستراحة وجيزة، مرتين أو ثلاث مرّات، دخل أثناءها ثانية في المصح الاستشفائي، لكنّه فرّط بالعلاج لينتكس من

جديد. كان انتقالاً باتجاه الجحيم، أدّى به إلى أن يفقد عمله وحاسوبه ومجموعة أسطواناته وأشرطته الموسيقيّة، ثمّ السيارة التي كان ورثها عن أبويه، وأخيراً بيته الرائع وجزءاً من المال الذي عادت عليه به تلك الصفقة، حتّى تحوّل، حين وصل إلى المستشفى، فجر 18 أيلول 1995، وعليه علامات الاختناق والتسمم الحكولي والتنفسي، إلى كائن رمادي الجلد، ذي عينين لونهما أقرب إلى الحمرة منه إلى الخضرة، وشفتين متشققتين. كان في قاع الهاوية.

في اليوم التالي لزيارة الأصدقاء، بعد خروجه من المصح، أذعن برناردو لِما قررت كلارا وقرّر إرفينغ وجويل: سينتقل للسكن، ولوقت غير محدد، في (فونتانار)، ثمّ سيعود إلى مصح آخر ليتلقى فيه علاجاً نفسيّاً وآخر خاصاً بالإدمان. أقسم برناردو، يومها، أمام الربّ، الذي قال إنّه أنقذه، وعاهد أصدقاءه بألّا يتقرّب ثانية من الشيطان الذي يقبع في زجاجة الرون.

حصل إرفينغ على ترخيص بإدخال برناردو في مصحّ افتتح في الضواحي لعلاج حالات الإدمان. أمّا «الواسطة» فكانت موظفاً يعمل في وزارة الصحة، زامل والدي برناردو، حين كان والداه متنفذين. ولمّا لم يكن برناردو قادراً على تسديد نفقات الإقامة والعلاج بالدولار، فقد اضطر إلى الانتظار أسبوعين للحصول على سرير شاغر. وقرّر، وقد صارت لديه قناعة بأنّ الربّ أرسل إليه آخر قوارب النجاة، أن يقاوم نزوعه إلى الكحول، وألّا يتناول غير مضادات القلق التي وصفت له حين خروجه من المصحّ.

كانت كلارا، حينئذٍ، شاهدة على انتقال برناردو إلى حالة جديدة قوامها الاعتدالُ والالتزام. تنزل صباحَ كلّ يوم لتحضّر إفطار ولديها ممّا تيسّر: قطعة من الخبز، دائماً، مع الحليب، أحياناً، ولبن الصويا –كان ماركوس يبصقه، خفية، في صحن دينجر، الذي يلتهم كلّ شيء–، وقد تقدمُ لهما مثلجاتٍ ذائبة، أو بيضة لكلّ واحدٍ منهما إن توفر بيضُ الحصّة التموينيّة، بل كانوا يسمحون لأنفسهم بتناول إصبع من *الهوت دوغ* ما دام المددُ القادم من داريّو، الذي بات يأتيهم أيضاً، بين الحين والحين، من هوراثيو، وفيه 40% مخصصة لإرفينغ وجويل.

في ضياء الفجر الخافت، ترى كلارا برناردو جالساً في الشرفة الخلفيّة، ساكناً أحياناً، ومحرّكاً صدره إلى الأمام والخلف، أحياناً أخرى، فكأنّه حفارة بئر نفطيّة. يهرش ذراعيه ورقبته بأظافره التي قضمها بأسنانه وسلخ جلدها، بل أدماها. يتعرّق أحياناً. بدأت بقعٌ زرق تظهر على جلده الرمادي، فكأنّه موشكٌ على الاختناق. وتراه كلّ صباح وقد وضع الكتاب المقدّس في حضنه، مفتوحاً أو مغلقاً، وهو من مقتنياته القليلة التي طلب من إرفينغ وجويل أن يأتياه بها من شقّته في شارع (لا سولا). سيكون الكتابُ المقدّس رفيقه في أصعب أيّام جهاده لاسترداد إنسانيّته.

تذهب كلارا إلى الفناء لتسقي الجنينة وتطعم الأرانب والديوك، فيتبعها ليساعدها، وإن أخفق، مراراً، في مسعاه، إذ يستغرق عادة ويتيه في الموضوعين أو الثلاثة التي باتت هاجساً فيه ووسواساً.

– هل تعلمين ما هي أكبرُ مشاكلي؟... –يسألها أحياناً، ثمّ يسود الصمت–. الوقت. الوقت نما عندي وتضخّم حتّى بات نهاري بلا نهاية... حين أكون سكران، أجد النهارَ أقصر، أمّا الآن فأراه طويلاً ومتعباً، أقسم لكِ. أتمنى وصولَ الليل لكي أنام، وحين أنام لا أغفو أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات، ثمّ أصحو وقد زال النعاسُ منّي... فيصيبني الرعب، لأنّي أعرف أنّ ذلك يعني وقتاً مضافاً سأقضيه في التفكير، ويوماً آخر أطولَ يتحتّم عليّ أن أقضيه.

– ستشفى وسيمكنك الاستمتاع بوقتك الذي يفيض الآن عليك – تقول له كلارا.

– ستظهر مشكلة أخرى، إذ لن أجدَ ما أفعله. فالسيبرانيّة التي امتهنها باتت من الماضي. فرّطتُ في بيتي. لا زوجة عندي، ولا أولاد. بلغتُ السادسة والثلاثين، لكنّي أشعر كأني شيخ طاعن في السن. داخلي خاوٍ ولا أدري كيف السبيل إلى ملئه، لأنّي لا أدري إن كان ثمّة ما أملأ داخلي به. – وينخرط بالبكاء أحياناً.

– لا بأس عليك، برناردو... حين ستتعافى ستجد ما تملأ به حياتك –قالت كلارا–. انظر إليّ، بعد خمس سنوات من العمل في كليّة الهندسة،

أزرع البطاطس وأطعم الأرانب... أمّا أنتَ وهوراثيو وداريّو فقد كنتم على الدوام متميزين. لذلك تجد داريّو طبيباً، ويعادل الآن شهادة تخصصه، وهوراثيو يصادف النجاح أيضاً، وهو ذاهب للعيش في پويرتوريكو. فكيف لا تنجح أنتَ؟

- ما يخفّف عنّي أنّي اكتشفت أنّ الربّ موجود. هل تذكرين الحلقات الدراسيّة في الثانويّة والجامعة حول الإلحاد العلمي؟ -كانت كلارا تهزّ رأسها موافقة على كلّ كلامه، أمّا إرفينغ وجويل فكانا يشاركان في تلك الحوارات ويهزّان رأسيهما، ويتندران أحياناً-. أنا أصدّق كلّ شيء، لأنّي كنت مقتنعاً بأني ملحد، أو لاأدري. لكنّ الحقيقة هي أنّي اكتشفتُ أنّ موضوع الإلحاد لم يكن عن قناعة، بل لغياب الإيمان. أمّا الآن فأنا أعلم أنّ الربّ موجود...

- وهل لديك الدليل؟ - كان إرفينغ هو، في العادة، من يطرح عليه هذه الأسئلة لإثارته.

- دليلي هو أنّي حاولتُ قتلَ نفسي بشتّى الوسائل، وكنتُ على وشكِ أن أزهق روحي حتّى من دون أن أفكّر في الانتحار، مع ذلك ما زلتُ حيّاً... فهل تريد دليلاً أوضح من هذا؟

- وأنت ترى أنّ الربّ هو من أنقذكَ يوم تسربّ الغاز من مطبخك؟ أي أنّه أرسل أحد ملائكته أو شيروبيما مجنحاً ورديّ الطيز؟

- لا تكثر من تفاهاتك... من أنقذني هم جيراني. لكنّ الربّ كان من أرسلهم... لا تظنّوا أنّي مجنون، وإن بدوتُ مجنوناً وبدا كلامي خطرفة. أعرف أنّ الكحول قضى على نصف خلاياي العصبيّة، وأنا الآن أفكّر بما تبقّى لديّ منها، وأظنّ أنّ الأمور تمضي لأنّ عليها أن تمضي، ونحن عاجزون عن تغيير ما هو مقدّر. شيء ما. أحدٌ مّا يرتّب الأمورَ في العالم...

- أو يخرّب نظامها -قال جويل-. انظر مبلغ ما في العالم من فوضى...

- فعلاً -أضاف إرفينغ-. هل قرأتم عّما يجري في يوغسلافيا؟ وما قولكم في الاتحاد السوفييتي المُنحلّ والمافيا الروسيّة؟

- على رسلكَ، إرفينغ. أنتَ تخلط بين الأشياء... أنا أعلم أنّ الأمرين

مختلفان، وعلى الرغم من غياب التفسير، فإنّ غياب التفسير يتأتّى من تلك القوة العليا التي لا تحتاج إلى تفسير. فما يقع له أن يقع. هكذا يقول اليهود: ما سيكون سيكون.

– هكذا الأمور تكون سهلة، برناردو. لا تفلقني...

– فلماذا لا تتقبلها، إذن، إن كانت سهلة، كما تقول؟

– لأني لا أؤمن بالربّ. ولا أظنّ أنّه موجود...

– وهل يضايقكَ أنّي أؤمن بوجود الربّ؟

– بالطبع لا. إنّما أستثيرك. أو لا... حسناً، أنا مسرور حقا أنّ تجد الربّ يقف إلى جنبك وأنّه لم ينقذك من موت محقق فحسب، بل إنّه يساعدك على أن تحيا. فوسط القذارات التي تحيط بنا من كلّ جانب، لا شكّ أنّ ما يقع لك هو من بركات السماء.

– هو كذلك... وهذا هو السرّ... تذكرون أنّي طالما أحببتُ الدخول إلى الكنائس والجلوس فيها أنظر وأتطلّع –هزّت كلارا رأسها موافقة، وهزّ إرفينغ رأسه أيضاً، بينما ظلّ جويل ساكناً لأنّه لا يعرف كلّ تفاصيل حياة برناردو–. حين سافرتُ إلى المكسيك، استمتعتُ بزيارة الكنائس، وهي هناك تغصّ بالناس دائماً، وفيها تماثيل قديسين كالأحياء، والكثير من النذور. وحين كنتُ في موسكو، زرتُ بعض ما بقي منها، رأيتُ فيها عدداً قليلاً من كبار السنّ، لكنّها جميلة، كتلك التي رأيتها في المكسيك، وإن كانت، بالطبع، مختلفة. وأظنّ الآن أنّ الكنائس تستهويني، لأنّ شيئاً ما كان يرقد في داخلي، ولأنّ قوة شريرة كانت تمنعني من الخروج والبحث عن إرادتي الحقيقيّة في الإيمان.

– تقصد الشيطان؟ – سأله جويل يوماً ما.

– الشيطان هو رمز الشرّ. لا أكثر. لذلك فمن السهل أن نلصق به كلّ خطأ. ولكن هناك ما هو أكثر من الشيطان بكثير. هناك البشر... قرأتُ مرّة أنّ المانويين يدعون إلى أن يكون العالمُ ميدان معركة بين الخير والشر. هم يرون أنّ قوّة شريرة هي من أوجد المادة، بينما أوجدت قوة خيّرة الروح. والبشر عالقون بين قطبي رحى، وعليهم أن يختاروا... بين هؤلاء الأشخاص يقف

الرجال الذين يستغلوننا ويقهروننا ويجبروننا على فعل ما يريدون والتفكير وفق ما يشاؤون. أعرف من هؤلاء الكثيرين، ولستُ في حاجة إلى أن أكون مانوياً لكي أميّزهم وأتعرّف عليهم... وهناك أيضاً الأفراد العاديون الذين يحملون الشرّ في داخلهم ويتصرّفون وفقه. أفراد مثل والتر. أفراد مثل إليسا... شيطانيّ الخاصين... أتظنّون أنّي ما زلتُ سكرانَ وأخطرف؟

طالت إقامة برناردو في مصحّ علاج الإدمان أكثر ممّا توقع الأطباء، لأنّ هؤلاء الأطباء لم يصرّحوا لإرفينغ وكلارا، في البداية، إلاّ بانطباعهم الأوّلي، لكنّهم، سرعان ما اكتشفوا أنّ علّته تستدعي الإبقاء عليه في المصحّ لوقت أطول حتّى يتأكّدوا من أنّ العلاج الذي يداوم عليه فعّال ناجعٌ.

- هل أصابه الجنون؟ - سأل إرفينغ مستفهماً. ضحك الطبيب النفسي.

- لا. أبداً. صديقك واقع تحت تأثير صدمة بدنيّة ونفسيّة. عقل الإنسان لغز كبير، وهو يلجأ أحياناً إلى آليّات بالغة التعقيد لكي يقاوم الصدمات.

حين اقترب موعدُ خروجه من المصحّ، نبّه الأطباءُ، وقد بدوا مطمئنين إلى العلاج، إلى أنّ على المريض أن يسير وفق نمطٍ من الحياة منظم قدر الإمكان لتفادي الاختلالات العاطفيّة. فهل تتوفر الشروط التي تضمن هذا الاستقرار العاطفي وتؤمّنه؟ وردّت عليهم كلارا بأنّ تلك الشروط متوفرة: إنّها تتعهّد بتوفير كلّ ما في وسعها لضمان الاستقرار المنشود. ستأخذ برناردو إلى بيتها، حيث ستؤمن له، هي وولداها، أجواء طبيعيّة، أو أقرب ما تكون إلى الطبيعيّة، بل والعائليّة، ضمن فوضى الحياة التي تسود من عدة سنوات.

حين عادوا ببرناردو إلى بيت كلارا في (فونتانار)، بداية كانون الأوّل، فوجئ رمسيس وماركوس ودهشا: فالرجل الذي اعتادا رؤيته سكرانَ كئيباً مهلهلَ الثياب ثرثاراً، يصحو من نوبة عنف ليسقط في نوبة اكتئاب، أو رؤيته هائماً متسكعاً مثل زومبي هزيل، أو سماعه يهرف بكلام غريب، بات شخصاً أصحّ بدناً وأرتبَ هنداماً وأهدأ طبعاً. بل إنّه يمارس تمارين رياضيّة صباح كلّ يوم، ويذهب صباح كلّ يوم أحد إلى كنيسة (كالاباثار) لحضور القدّاس

(برفقة كلارا، الحريصة على الإبقاء عليه تحت المراقبة). رجل يقرأ في الكتاب المقدّس وفي كتب المعلوماتيّة، ويتصل بأصدقائه القدامى باحثاً عن عملٍ أو ساعياً للعودة إلى عمله. مع ذلك، وتجنباً لوسوسات النفس ووساوس الشيطان، فقد قرّرت كلارا والأولاد وإرفينغ أن تكون احتفالات أعياد الميلاد ونهاية العام في أضيق نطاق (أرسل داريّو، هذه المرة، المعونة المالية الضرورية في وقتها)، وبلا كحول ولا صخب، على الرغم من اعتراض برناردو، الذي تعهد لهم بأنّه لن يقرب الشراب، حتى لو شربوا أمامه: فهو عازم على ألّا يعود إلى النار برجليه.

في ليلة آخر السنة، حين انصرف رمسيس وماركوس ليبحثا عمّا يسلّيهما في حفلة أقيمت في بيت خطيبة رمسيس، في حي (بويروس) القريب، جلس الأربعة الباقون من الأخويّة في الباحة، مقابل جنينة كلارا، لاستقبال عام 1996، الذي لا بدّ -هذا ما كانوا يتمنون- أن يكون خيراً (أو أقل سوءاً، على الأقل) من هذا الفظيع الذي يوشكون على الانتهاء منه. ألحّ برناردو على كلارا أن تبرّد زجاجة السيدرا لتشربها هي وإرفينغ وجويل نخب العام الجديد، بينما سيشرب هو الماء على أمل أن يعوّضه أحدٌ ما عنه، في حياة أخرى، خمراً.

– أنا لا أهذي... بل أعلم يقيناً أنّي سأجد حياة أخرى. ولا أقصد الحياة في السماء، ولا أقصد أنّي سأرى الماءَ وهو يصير نبيذاً... أنا أتكلّم عن الباقي من حياتي هنا... ستأتي عليّ أوقاتٌ أفضل. سأنعم بحياة أفضل. أشعر بذلك هنا – ووضع يده على صدره.

– هذا إحساسٌ جميل -قال إرفينغ-. لأنّنا، نحن الملحدين، نستطيع أن نلمس ذلك ونراه...

– استهزئ ما بدا لك أن تستهزئ، أيّها السافل.

– لا أستطيع أن أصدّق أنّكَ تؤمن بأنّ العذراوات يحبلن من ملائكة، وبأنّ القديس بطرس يحمل مفاتيح السماء وسواها من الحكايات...

– لأنّي لا أؤمن بما تقول. أنا أرى أنّ هناك قوّة علويّة اسمها الربّ، جوهرٌ له إرادة وقوّة فائقتان. هذا ما أؤمن به.

- لكنك تقرأ كثيراً في الكتاب المقدس - قال جويل.

- لأنّ فيه حقيقة. سوى أنّها حقيقة تروى مشفّرة، انطلاقاً من حكمة بعض الذين عرفوا الحقيقة حين كان العالم أبسط، وإن كان ناسُه مثلنا: نفس الرذائل، ونفس الفضائل، ونفس الحاجة إلى السند والدعم. -بدا برناردو مقتنعاً باكتشافه، فقرّر الآخرون احترام قناعاته. فهل تركه الخمرُ شبه مخمور؟-. انظروا، منذ أن دخلتُ إلى المصحّ، وفي الأسابيع التي عشتها هنا، قرّرتُ أن أفكّر كثيراً في ما كانت عليه حياتي وفي ما يمكن أن تكون عليه، فهل تعرفون ما الذي اكتشفتُ؟

- اكتشفتَ أنّنا نسير من هزيمة إلى هزيمة... - ردّد إرفينغ عبارة برناردو المفضلة.

- أنّنا غبار *في الريح*؟ - قالت كلارا.

- فوق ذلك، طبعاً... -نظر برناردو إلى يديه-. لقد أتعبتني تلك الحسابات. هل تعرفون السبب؟ السببُ هو ما ذكرتُ لكم، أو ما أردتُ أن أخبركم بأنّي اكتشفتُه. فأرجو أن تدعوني أتكلّم من دون تعليقات. -نظر إليهم وركّز نظره في إرفينغ، الذي رسم علامة السكوت على شفتيه: ولا كلمة-. لقد اكتشفتُ أنّني كنتُ أسكر، وكنتُ، ومنذ أكثر من عشر سنوات، أمضي من الوقت غائباً أكثر ممّا أمضيه صاحياً، لأنّي لم أكن أريد أن أفكّر. أمّا لماذا ما كنتُ أريد أن أفكّر، فلأنّي، من دون شراب، قد أقع فريسة حالة مرعبة، لأنّ شخصاً مثلي لا يجد ما يستمسك به أو يستعصم. فقدت كلّ شيء تقريباً، ما عدا وفاءكم، أنتم وداريّو، وحتى وفاء فابيو، فابيو المسكين... هل تعلمون أنّ فابيو أراد يوماً أن يربطني إلى شجرة، كما فعلوا بالكولونيل أورليانو بويندّيا[59]، لكي يمنعني من الذهاب إلى الحانة والشرب؟... أعترف أنّي كنتُ المسؤول الوحيد عن بعض خساراتي. لكنّي أتّهم آخرين كثيرين بمسؤوليتهم عن خسارات أخرى وقعت لي. والدي ووالدتي، مثلاً، لم يهتمّا بي، وهما اللذان كانا يستعرضان، طوال سنين، روحهما الثوريّة. إلى

59- **Aureliano Buendía** إحدى شخصيات رواية غابرييل غارثيا ماركث: مئة عام من الوحدة.

أن قُصت أجنحتهما بسبب غطرستهما وتعاليهما على المحيطين بهما، فضلاً عن فسادهما من أجل ترّهات، من المال وغير المال: مئة دولار أو مئتين من مخصصات السفر، أكثر من ذلك بقليل من البنزين، استغلال النفوذ مقابل هدايا أو رحلات. هل تعرفون لماذا أرسلتني المؤسسة التي كنتُ أعمل فيها إلى المكسيك وأنا آخر من التحق للعمل فيها؟... لم يبلغ علمكم شيء عن ذلك قط. كان يرعبني التفكير في الاعتراف بذلك، لذلك أرى الدهشة ترتسم على وجوهكم وأنا أحكي لكم كيف أنّ هذين البائسين، اللذين قضيا غرقاً في مشاعر الكراهية والمرارة، كانا على النقيض ممّا كانا يصرحان به ويبشران على رؤوس الأشهاد، ومن مبادئ البطاقة الحمراء التي كانا يحملانها... أمّا الأدهى فهو سماعهما، أو سماع أمثالهما، وهم يتفاخرون بما يفعلون ويمتلكون، ثمّ يلبسون قناع الشيوعيين المخلصين ويمشون على الأرض ليدوسوا بأقدامهم رقبة كلّ بائس معدوم. لذلك ماتا منبوذين، كريهَيْن كارهَيْن. بين الناس مثلهما لا وجود للإخلاص، فكلّ واحد منهم يأكل الآخر، وبينهم، يخرأ أصحاب الفوق على رؤوس أصحاب التحت.

– برناردو، أنتَ لستَ مضطراً إلى قول كلّ ذلك – نبّهته كلارا، وهي تعلم أنّ ذلك الاعتراف قد يقود إلى أمور خطيرة ونتائج أليمة.

– نعم، كلارا. هل تريدين أن أعترف لراهبٍ لا أعرفه، قد يكون، هو الآخر، سافلاً، ليصف لي صلوات للندم وابتهالاتٍ للتوبة؟ لن أصرّح بما في داخلي إلّا لكم وأمامكم... لأنّي من أمثال أبي وأمّي رأيتُ الكثير وسمعتُ عن الكثير، وحين تعرّفتُ على حمي، روبرتو كورّيا المتنفذ، وجدتُ فيه جرعة زائدة من كلّ ذلك... لم أعرف شخصاً مستهتراً وابن قحبة أصيلاً في هذا البلد من وزن ذلك الداهية العجوز. كان من السوء أن أورث امرأته، أمّ إليسا، الجنون. نغّص عليها حياتها، وإن كانت هي أيضاً بذيئة سيئة الطبع والسلوك. بل لقد أساء إلى نفسه، ولذلك أفرغ رصاصة من مسدسه في رأسه، ولا أراه الآن إلّا يهيم على وجهه في جهنّم، يحمل كرباجاً ويعمل مساعداً لإبليس، يذيق المرّ لمن عنّ له أن يذيقه المر، فذلك كان شغله في الحياة الدنيا: التنغيص على الناس. تفرّغ لي، فنغّص على ابنته وأنا معها. وعلى الرغم من أنّ إليسا حاولت الهرب من عالم الخداع والغطرسة الذي

كان أبوها يعيشه، بشعاراته الحماسية وميدالياته، فقد طالها ذلك العالم وأثّر عليها. فكبرت وتكبّرت، وبدأت ترى نفسها وقد صارت شيئاً، كما يقال الآن... وهكذا تحوّلت إليسا، المتمردة والمخلصة إلى امرأة تتلاعب بعقول الناس حتّى انتهى بها المطاف إلى فعل ما فعلت... لا تنظروا إليّ هكذا! ألم تكن تتلاعب، ألم تكن تأمر وتنهى؟... أنا أعي ما أقول... لذلك لم أصل إلى معرفة ما كان بين إليسا ووالتر. لا أقصد أنّهما ناما معاً أم لم يناما، أو أنّه المسؤول عن حملها أم لا. بل لطالما استبعدتُ ذلك ونفيته، ولطالما قلتُ في نفسي إنّهما لم يبلغا هذا الحدّ، وإن كنتُ فكرتُ في احتمال وقوع ذلك، على الرغم من أنّكَ، إرفينغ، تنفي وقوع شيء بينهما، لأنّ إليسا أقسمت لك ولطالما صدّقتَ ما تقول. لا. أنا أتكلّم عن موضوع أكثر غموضاً، لم أكشف لكم عنه قط، موضوع له صلة بهما وبوالد إليسا... وبي أنا. لم أصب بالجنون كما حدث لداريّو، ولا أبحث عن مبررات لشيء أو لأحد...، فأنا أعلم أنّ ثمّة علاقة كانت تربط بينهما، علاقة لم أستطع الوقوف عليها، لكنّي متأكد من أنّ لها صلة بكلّ ما جرى.

– عذراً، برناردو، ما عدتُ أفهم... هل جرى شيء بينهما قاد إلى انتحار والتر؟

– لم أقل ذلك، إرفينغ. لا تسئ فهمي... قلتُ إنّ علاقة مّا كانت بين والتر وروبرتو كوريّا، وأعرف أنّ إليسا كانت متورطة فيها.

رفع إرفينغ يده.

– انتظر... أتذكّر أنّ إليسا قدّمتْ والدها إلى والتر لأنّ روبرتو كان يريد أن يسألَ عن إحدى اللوحات. كان يريد أن يعرف إن كانت أصليّة أم مقلدة.

– لا. هذا كان قبل ذلك. هذا كان حين انضمّ والتر إلينا. أنا أتكلّم عن موضوع آخر، عن نوع آخر من العلاقة –أوضح برناردو–. أتكلّم عن العلاقة التي كانت بينهما حين وقعت حادثة والتر.

– حين أطاحوا بروبرتو كورّيا؟ – سأل جويل.

– نعم... إليسا لم تكن تريد أن تعلم شيئاً عمّا فعل أبوها، ولا إلى أيّ حدّ كان متورطاً في فضيحة المخدرات والدولارات التي كشف عنها عام 89.

أعتقد أنّها كانت تخجل من كلّ ذلك. في جزء من ذلك الفصل القذر ظهر وجه والتر، وربّما أحسّت بأنّ الموضوع من الخطورة أنّها، حين انتحر والتر، قررت أن تتوارى عن الأنظار. ثمّ ألقت، للتمويه، بالخراء على المروحة... وقد أصابني جزءٌ من ذلك الخراء. بلعتُ خرائي بسبب ضعفي، أو لأنّي لم أشأ أن أبدو ضعيفاً، أو لا أدري...، أو لأنّها كانت تتحكّم بي وتتلاعب... أمّا الباقي من جبل الخراء فقد غطاهم... حدثت أشياء لم أعلم بها، وأشياء أخرى أعرفها، لكنّي لن أصرّح بها، حتّى لو عذّبوني و... فقد صرّحتُ بالكثير، وقد آن الأوان لكي أصمت، فما عدتُ ذلك البرناردو الذي كنته...

في تلك الليلة الأخيرة من عام 1995، بدا كأنّ إرفينغ وكلارا تقبّلا أقوال برناردو من دون اعتراض، فقد كانا يبيّتان حماية الصديق ودعمه في جهده لبلوغ التحوّل المنشود. لذلك لم يشككا في ما أدلى به في اعترافاته: ولكن، أيّ دور لعب برناردو في تلك القصّة المتداخلة؟ أيّ نوع من العلاقة كانت بين والتر ووالد إليسا غير علاقة الرسام الخبير بتقويم لوحة من اللوحات؟ هل يصحّ ما حكاه فابيو من أنّ والتر كان يخضع للمراقبة؟ ومَن كان يراقبه؟ ولماذا؟ وعلى أيّ جزء من تلك القصّة قال برناردو إنّه يتكتّم حتّى لو عذّبوه؟ هل هو الجزء الذي يفسّر كلّ معمي ويكشف كلّ مستور؟ على الرغم من أنّهما لا يعرفان إلّا القليل عن وساخة عوالم السلطات العميقة، فقد كانا يعلمان جيداً طول مجساتها ومبلغ إحاطتها وقدرتها على أن يأتوا بك، حتّى من دون أن تستفزّهم. ثمّ يغطوك بالخراء، كما كان برناردو يقول.

– أعلمُ أنّ إليسا بدأت تبتعد عن والتر المخادع –اكتفى إرفينغ بالقول–. هي تعلم أنّه ماكر إلى درجة أنّه قادر حتّى على الهروب من المشكلة التي وقعت له تلك السنة مع الأمن... أذكر جيداً حين خرجتُ من السجن، بعد أيّام من توقيفي، وحكيتُ لها ما جرى لي هناك...، قالت لي إنّها خائفة أيضاً. لكنّها لم تخبرني بالسبب... لقد أقسمتْ لي أنها لم تنم مع والتر. طبعاً أنا صدقتها، برناردو، فهي ليست مضطرة إلى الكذب عليّ...

– الحمل يؤثر كثيراً على النساء الحوامل و... إليسا كانت مشوّشة –تدخلت كلارا–. أظنّ أنّها كانت خائفة من أن تصاب بالجنون، كأمّها، المسكينة... هل ما زالت أمّها حيّة؟

- لا أدري -ردّ برناردو-. كانت مجنونة تماماً...

- يا إلهي -قالت كلارا، ثمّ واصلت-. ما لا أفهمه، برناردو، هو لماذا لم تنفصلا و... صحيح أنّك كنتَ تحبّها، ولكن، إن كان ذلك الحبّ يكلّفك كثيراً...

- ولا أنا أفهم ذلك الآن. في وقتها كنتُ ضائعاً إلى درجة أنّي تركت لها الخيار. لا أدري لماذا، وكان من الأفضل لها أن تختصر الطريق وتنتهي من المشكلة، على الأقل معي، وألّا تورطني في خططها. إن كانت تنام مع آخر، أو مع آخرين... يا له من لغز... لا أدري... ما أتأسّف له، وكانت تلك هي البداية، هو أنّني لن أتمكن من اكتشاف تلك الحقيقة أو سواها -قال برناردو-. المشكلة هي إن كان هناك من جواب على سؤالنا، فحتّى إليسا لا تعرفه كاملاً. ولم يعرفه والتر... أظنّ أنّ من كان يمتلك الجواب هو روبرتو كورّيا.

- لماذا لا تنسى الحكاية وترتاح؟ -تدخل جويل أخيراً، متقدماً بالكلام على كلارا وإرفينغ-، فالرجل مات وشبع موتاً، فليذهب، هو وإليسا ووالتر، إلى الجحيم...

نظر برناردو إلى جويل وابتسم.

- أنتَ على حق دائماً، صديقي... أما وقد حكيتُ لكم الحكاية...، فقد انتهى الكلام. لن أعود إلى تلك الحكايات، بل سأحاول نسيانها... سأضيفها إلى قائمة ممنوعاتي، وسأبدأ، بعد عشر دقائق، مع دخولنا عام 1996، حياة جديدة...

- صحيح. لم أنتبه - قال إرفينغ.

- هذه السنة ستكون سنة خير -أضاف برناردو-. ونحن نستحق أن نعيشها.

أخرج جويل شراب السيدرا من البرّاد وفتح فلينته. صبّ ثلاث كؤوس، بينما جلبت كلارا كأساً من الماء لبرناردو. أطلق أحد الجيران عياراً نارياً ترحيباً بالعام الجديد، وشرب المحتفلون الأربعة نخب العام الجديد، وتبادلوا العناق والقبلات، وتمنّوا أن يكون عاماً سعيداً.

بعد أيّام، علّقت كلارا وإرفينغ، في خلوة بينهما، على اعترافات برناردو،

ووصلا إلى الاستنتاج بأنّ المنطق يفترض أنّ الرجل الذي هجرته إليسا وخدعته وأهانته يحتاج إلى أن يقيم جداراً من الحجج، الحقيقيّة ربّما، وغير المكتملة أحياناً، لا لحماية المرأة، بل ليستند إليها في المهمة الشاقة التي تنتظره لإعادة بناء حياته. إنّ قربه من فلسفة الخطيئة والذنب والافتداء يساهم، بالطبع، في تغذية رؤيته عن أحداث ومواقفَ لطالما أسهمت في شعوره بالمهانة: فالعالم ميدان صراع بين الخير والشرّ، والشر أتاه من الخارج. صحيح أنّه كان ضحيته، لكنّه كان في مصلحته ومن أجل نجاته، ونجاة الأصدقاء الآخرين أيضاً، بمن فيهم الموتى. هكذا فلسف برناردو الأمر في ما يبدو.

بعد أسبوعين من بداية 1996، حانت لإرفينغ فرصة للسفر والابتعاد عن خوفه. وكانت تلك بداية الخير المنتظر في ذلك العام.

ما إن تلقّى الخبر، حتّى اتصل بكلارا، التي كانت تنتظر اتصاله طوال الصباح. أبلغها أنّ لعبة الدعوة التي أرسلها إليه داريو لحضور ندوة عن الرسم الهندسي في مدريد قد انطلت على القنصليّة الإسبانية، وأنّهم منحوه الفيزا المباركة التي طالما حلم بها وعانى من أجل الحصول عليها! كان يصرخ كالمجنون. فرحت كلارا لفرح الصديق، لكنّها شعرت أيضاً بالحزن لاقتراب أجل فراقٍ آخر يضاف إلى قائمة انكساراتها العاطفية.

أمرٌ مفروغ منه أن العوائق أمامهم ستكون كسباقاتِ الموانع. بعد أن حسب إرفينغ ما معهما، هو وجويل، من نقود، وجد أنّ المبلغ، مع التقشّف والتقتير، لا يغطّي إلّا نصف تكلفة أرخص تذكرة تمكّنت صديقةٌ لصديقة جويل، لها معرفة بشركة *إير يوروپ*، أن تشتريها مسبقاً: ما زال أمامه أن يدفع، في ظرف أيّام، البقيّة الباقية من ثمن التذكرة: 310 دولارات من أصل 749 دولاراً. فكّر أولاً في بيع ما لديه، وهو يعلم أنّ ما لديه لا يكفي. جاءته دَفعة أمل أولى من برناردو: مئة دولار من المال المتبقي من صفقة مقايضة بيته. وفكر أن يستدين مئة دولار من كلّ من هوراثيو وداريّو، وهو مبلغٌ بدا للجميع معقولاً ومقبولاً.

وبينما كان برناردو وإرفينغ وكلارا جالسين في غرفة الطعام، يراجعون الحسبة، ويسجلون ما يمكن أن يباع من أغراض إرفينغ، ويتباحثون في أمر القرض المستعجل الذي عليه أن يطلبه، وقع ما عدّوه معجزة. ترك رمسيس الصالون، وكان مشغولاً بحلّ مسائل رياضيّة أعانه فيها برناردو، ثمّ عاد وفي يده ظرفٌ سلّمه إلى إرفينغ:

- حوّل هذا المبلغ إلى دولارات. إنّه مكسبي من تجارتي في الأرانب والديوك... أظنّ أنّه يعادل مئة دولار... يحلّ لك جزءاً من المشكلة. وربّما يبقى لك منه شيء ساعة وصولك إلى إسبانيا.

لم تفهم كلارا وإرفينغ مُراد الصبيّ، حتّى أخذ إرفينغ الظرف وأخرج منه رزمة من الأوراق النقديّة المستهلكة. عندها أحسّ الجميع بالمفاجأة. لم يدرِ إرفينغ كيف يتصرّف، لكنّ ردّه كان متوقعاً.

- رمسيس... أشكرك من كلّ قلبي، عزيزي، لكنّي لا أقدر أن آخذ منك النقود. احتفظ بها، أرجوك... - قال ومدّ يده بالظرف إلى الصبي وهو ينهض.

- لن آخذها منك، إرفينغ. هي لك. - أدار رمسيس ظهره وعاد إلى حيث كان يجلس.

- ولكن... يا ولدي - حاولت كلارا أن تشرح له، فتدخل برناردو.

- كلارا، إرفينغ... ما بكما؟ تطلبان قرضاً من هوراثيو وداريّو وترفضان هدية من رمسيس؟ أرجوكما، لا تكلماه كما تكلمان طفلاً صغيراً، عمره خمسة عشر عاماً وهو يدرك ما يفعله.

- لكنّ ذلك ليس عدلاً، برناردو -عاد إرفينغ وقال-. النقود تلزمه...

- كلّ ما يلزمه الآن تتكفّل به أمّه. السكن وثلاث وجبات طعام في اليوم وملابس نظيفة يذهب بها إلى المدرسة... ماذا كان لدينا حين كنّا في الثانويّة؟ هل فشلنا بسبب ذلك؟ ما كان ينقصني شيء. كنتُ أملك كلّ شيء و... مع ذلك فشلت، ولكن بسبب أمور أخرى وأخطر تعرفونها. ثمّ إنّ عليكم أن تضعوا في حسابكم أنّ رمسيس ليس داريّو. رمسيس هو ابنُ داريّو وكلارا.

أثّر كلامُ برناردو فيهما ولم يجيبا إلّا بأنّ ليس على الصبيّ أن يحلّ لهم مشاكلهم. مع ذلك، فقد شعرت كلارا بالفخر يملأها، واجتاح إرفينغ دفقٌ من المشاعر أراد التعبير عنها.

- شكراً، رمسيس - ثمّ أحاط بوجه الفتى بيديه وطبع قبلة على جبهته.

- لا عليك، إرفينغ - تمتم الفتى، وتصنّع الانشغال بفكّ لغز عملية حسابية في المثلثات.

كانت كلارا تسأل نفسها، وبها تأثر لقرب رحيل إرفينغ، يبلغ أعمق أعماق روحها، عمّا جعل الكثيرين من القريبين إلى قلبها يختارون الرحيل: زوجها ثمّ فابيو و ليوبا و، بعدهم بقليل، هوراثيو. والآن جاء دور إرفينغ، الذي سيلتحق به جويل في أقرب فرصة ممكنة. وإليسا؟ إليسا أيضاً؟ أكيد.

لماذا يقرّر هؤلاء، بعد أن عاشوا في ألفة وتقارب، متمسكين بعالمهم وانتمائهم، عازمين على التميز في حياتهم، والتفوق في أعمالهم، التي بدأوها في بلدهم، أن يذهبوا إلى أرضٍ لن يكونوا فيها ما كانوا؟ هذا ما فكّرت فيه هي، وهذا ما أحسّ به فابيو. أرضٌ ما كانوا فيها، ولن يكونوا، سوى أفرادٍ يعاد غرسهم، لكنّ الكثير من جذورهم ستظلّ مكشوفة في الهواء. أم إنّهم سيصبحون شيئاً آخر، ليس فيه رائحة الأجانب أو اللاجئين أو غير النظاميين أو المنفيين أو عديمي الجنسيّة؟

ألم يعتنق العديدون منهم، تتذكّر كلارا، ومنذ شبابهم، إيديولوجيّة الدولة، وساروا مع التيّار، وارتقوا سلالمه ودرجاته، من عضوية الشبيبة الشيوعيّة إلى عضوية الحزب، كما هي حال داريّو، وحال ليوبا وفابيو؟ ولطالما اعترف داريّو بأنّ شخصاً مثله ما كان لينال، في مكان آخر، ما ناله هو في كوبا. أمّا عن ثبات ليوبا وفابيو على المبدأ وعقائدهما ونضالهما فحدّث ولا حرج. ثمّ تخلّوا، فجأة، عن عقيدتهم أو عن تصديق أنّهم كانوا يؤمنون أو أنّهم كانوا يحملون الآخرين على أن يصدقوا بأنّهم يؤمنون... وها قد بات بعضهم في الولايات المتحدة، كما هي حال صاحب المبادئ هوراثيو، الذي تبرأ ثلاث مرات من أبيه بسبب لجوئه إلى الولايات المتحدة. وماذا عن إليسا؟ إليسا التي طالما كلّمتهم، حين وصلت من لندن، عن وحشيّة مجتمعات الاستهلاك وجنونها -تلك كانت كلماتها-، حيث الإنسان ذئبٌ

يفترس أخاه الإنسان، وحيث القلّة تستغلّ الكثرة الكاثرة. وتذكرت كيف أنّهم جميعاً كانوا يهزّون رؤوسهم موافقين على ما تقول، إذ تبدو مبادئها لهم مشروعة، وكذلك استنتاجاتها.

تعلم كلارا، قدر ما تسعفها معرفتها بأصدقائها المقربين -أو ما تعتقد أنّها معرفة جيدة بهم-، أنّ أيّاً من أولئك الأصدقاء لم يكن كائناً سياسياً في جوهره، على الرغم من أنّ السياسة أثّرت في كلّ واحدة من جزيئات البلد وساكنيه، طوعاً أم كرهاً. وباستثناء ليوبا وفابيو، لم يطمح الآخرون، ربّما، يوماً إلى سلطةٍ أو نجاحٍ اقتصادي أو كسبٍ يسمح لهم بالعيش كالأثرياء. فلماذا يرحلون؟ كلّهم كانوا يدركون أنّهم لن يصلوا، بجهودهم ونبوغهم، إلى الثراء، ولا إلى النفوذ الحقيقي، على افتراض أنّ هذه هي الطموحات التي كانت تعتمل في صدورهم وتحرّكهم...

كانت كلارا تتفهّم دوافع كلّ واحد منهم، وتتفهم تطلّعهم إلى الثراء. تفهم أسباب داريّو الشخصيّة في الحاجة إلى الابتعاد عن الواقع الذي كان عليه. وتفهم أسباب فابيو وليوبا، اللذين أبانا عن نفاق ثابت وانتهازية تلهث وراء حبّ الظهور والفوز بقطعة من كعكة النفوذ والمنافع، ثمّ لم يلبثا أن تعبا، بعد أن انهارا أمام مصاعب الحياة. أمّا هوراثيو فلا بدّ أنّ ما حرّكه، بحسب كلارا، هو تمرّده وبرمه ذو المنشأ الوجودي. فقد كان يحتاج، حاجته إلى الأوكسجين، إلى فضاءٍ يساعده على التفكير والاعتقاد والعمل، وهي متطلبات أساسيّة تلخّص أسلوبه الذي تطغى عليه العقلانيّة في تفسير الحياة. أمّا خيار العزيز على قلبها، إرفينغ، فليس لديها ما تعلّق به عليه إلّا القليل: لقد هرب من مرضه المزمن، الخوف، على الرغم من أنّه كان خائفاً حتّى وهو يهرب، وهو ما جعل كلارا ترى فيه، ضمن ظرفه هذا ومرضه هذا، الأشجع بين الجميع.

وألحّ الشطرُ الآخرُ من السؤال أيضاً على تفكيرها، وربّما شوّش على استنتاجاتها: فلماذا بقي الآخرون، إذن؟ لماذا رحل كثيرون وبقي مئات الآلاف؟ لماذا لم يرحل برناردو؟ ولم ترحل هي وآخرون مثلها؟ قنع البعض بنصيبه ووضع ثقته بالمستقبل (وإن اختلف أولئك القانعون والواثقون في آرائهم ووقعت بينهم، من حين لآخر، خلافات وأزمات)، وأبدى آخرون

تكاسلاً، بينما حرص آخرون على ممتلكاتهم وتشبّثوا بها، وهكذا. كانت أمامها جميعُ ألوان الطيف، المرئيّة وغير المرئيّة، الحقيقيّة والمزيفة.

لا شكّ أنّ زلّات برناردو الشخصيّة وعثراته أضعفت من اندفاعه الضعيفِ أصلاً، وتركته ثقيلاً مطمئناً إلى ما عنده: إلى الكحول، في البداية، ثمّ إلى ربّه الفريد، كما يؤكد، المتمرّد، شبه المانوي، الأقرب إلى الماديّ منه إلى الروحانيّ. بل إنّها، هي نفسها، لم تكن متأكدة تماماً من أنّها ستظلّ في مكانها حيث ولداها وبيتها وذاكرتها وثلاثون سنة ونيّف من حياتها: فهل كان ما يربطها إلى البيت هي حياة الحلزون وإحساسه، أم هي جاذبيّة الصخرة الممغنطة، التي جيء بها من أقدس بقعة على سطح الجزيرة، ودفنت في أساس البيت الذي طالما أرادت أن تهرب منه؟ ربّما. لكنّها بقيت أيضاً، لأنّها كانت تشعر، كلّما أحسّت تعباً أو ضيقاً، بأنّ من الأسهل عليها أن تقاوم وتصمد من أن تعيد البناء. كان يخيفها أن تجد نفسها مضطرّة إلى أن تكون شيئاً آخر، في مكان آخر، وإن توفّر في المكان الجديد كلّ ما يعوزها. كان خوفها ذاك يربطها إلى الأرض، ويشلّ حركتها. لكنّها، بالمقابل، كانت تثق بأنّ الأمورَ إلى تغيّر، والحياة إلى تحسّن: لأنّ الذين قاوموا وبقوا وعانوا يستحقون ما نالوا، بعد أن فازوا وكسبوا، لمصلحة أنفسهم ولمصلحة أبنائهم.

بدا لها مفترقُ الطريق الذي وجد جيلها نفسه أمامه بالغَ المأساويّة، شديد القسوة، بل غير مستحق (أم كان مستحقاً؟). إذ لم يصادف أن اشتمل البلدُ على ذلك الجمع الغفير من الناس التوّاقين إلى التطور، الأنقياء المؤمنين المتمتعين بمزايا المجتمع، الذين يقدّمون، ربّما بسبب ذلك، فروض الطاعة المطلوبة، والتنازلات الكثيرة على جميع الصعد الفرديّة والمجتمعيّة: فتخلّوا عن ماديّات، وعن معتقداتٍ «منحرفة»، وعن اختلافات سياسيّة، وعن أولويات شخصيّة على أوسع طيف. تنازلات تمسّ حرية الإيمان والمعتقد وإطلاق الشعر وممارسة الجنس الشرجي والامتناع عن مشاهدة تمثيلية The Mamas and the Papas في التلفزيون لأنّ «أحداً ما» رأى أن موسيقاها مضرة بالأيديولوجيّة ففرض عليهم الحماية بمرسوم، من دون أن يطالب أحدٌ بها.

ومع التنازلات جاء القبول بالتضحيات: مواسم حصاد القصب. أشغال

الحقل. الطوابير. القتال والموت في حروب بعيدة. رضي الكثيرون منهم، أو جميعهم تقريباً -هكذا رأته كلارا- بنمط الحياة الذي تقرر لهم، وآمنوا به، وعملوا على تحسينه، وساهم فيه الكثيرون منهم دون أن يظهروا أدنى تململ، مؤمنين ومقتنعين بضرورة الإجماع المنظّم الذي سيصلون من خلاله، ذات يوم، كما قال برناردو، إلى النصر النهائي. أو إلى نهاية التاريخ في مجتمعٍ كامل، عالم المساواة الباهر العظيم.

لكنّ تخلخلاً في توازنٍ قلق، كانوا يرونه حالة طبيعيّة اعتادوها وأدمنوها، زحزحهم عن مواضعهم، وجعل الكثيرين منهم ينظر إلى حياته وإلى العالم بطريقة أخرى. بمنظار آخر. شرخٌ عميق شتّتهم في جميع الاتجاهات، بعد عقودٍ من السير في اتجاه واحد، ليسلكوا الطريق الذي رسمه وحدده لهم آخرون. ساروا فيه، دائماً تقريباً من دون تردّد، وأيّ ترددٍ حين لا مكان لغير الطاعة! لذلك أيضاً أرادت كلارا، واستطاعت، أن تفهم موقف المغادرين، حتّى موقف من نزع منهم قِناعه وتخلّى عن قناعاته وعقائده وانتماءاته ليتبنّى أخرى جديدة، ربّما مناقضة، وفي ذلك خيرُ تجسيد للطبيعة البشريّة في جوانبها الاجتماعيّة: الحرباويّة. الخيانة. الانتهازيّة. أو أصدق صور التحوّل الناشئة عن بلوغ الإحباط وخيبة الأمل... وأرادت طبعاً، واستطاعت، أن تفهم فعل الذين قرروا، لأيّ سببٍ مهما كان، عن قناعة أم عن غير قناعة، البقاءَ، ورضوا بحياتهم البائسة نوعاً ما، المُعادة المكررة، بشدّتها ومصاعبها أو بسعادتها المعلنة، حتى إنّهم ليرفعون رايات الثقة بحياة في مركز العالم الأفضل، الذي يدينون له بالفضل والوفاء.

باتت تفهمهم جميعاً وتتفهمهم: الرافضين والموافقين والمترددين. تتفهم الذين لا ينظرون إلى الوراء، كما تتفهم الذين يديرون رأسهم ويألمون لِما يرون، ويجاهرون بألمهم. أو يسكتون. تتفهم المثابرين والمتحمسين، قدر تفهمها للمتعبين والصامتين والصارخين والمنقادين إلى الجمود.

لم تكن كلارا ترى في نفسها كائناً سياسياً، مثل إليسا، ولا فيلسوفة جوهريّة، مثل هوراثيو، ولا رصاصة تبحث عن هدفها، مثل داريّو، بل لم تكن ترى في نفسها ناسكة متزهدة، كما هو الآن برناردو الجديد. ربّما كان التعقيد الدراماتيكي الذي اتسمت به لحظة نضجهم الحياتي والمهني، هو

ما يفسّر قراراتهم ويجعلهم موضع تقدير وتفهم من طرفها. فقد رأت في ذلك التعقيد البداية الحقيقية للحرية الجوهريّة للنوع الذي خلق العالم الاجتماعي: حق كلّ شخص في الاختيار. وجوب احترام خيارات الآخرين. حرية امتلاك الصوت والتصريح بما يعتمل في الرأس (مع أو ضد). المطالبة باحترام قرارات أيّ شخص، من دون حدود غير الحد الوحيد الذي تفرضه الحدود، حيث لا تتحوّل إرادة البعض إلى تجاوز على خيارات البعض الآخر، وحيث لا تؤدي المصلحة الفردية أو الجمعيّة إلى ضرر فردي أو جمعي يلحق بآخرين. هذا ما دعت إليه الوصايا العشر التي نزلت في جبل سيناء، ونصّ عليه العقد الاجتماعي الذي نظّم (أو حاول أن ينظّم) شريعة الغاب وقانون الأقوى.

هل يمكن أن تسير كلّ الأمور بهذه السهولة؟ لا. بالطبع. فالأمور لم تسر ولن تسير بهذه السهولة. فعلى الدوام هناك آخرون، هنا أو هناك، الآن وقبل الآن، يدّعون أنّ عقيدتهم هي الحقيقيّة، ولا عقيدة غير عقيدتهم، يتولون السلطة بحكم ما يملكون من مال أو قوة أو كراهيّة، ويهاجمون من هذا الخندق أو من ذاك، من الداخل أو من الخارج، من لا يرون العالم من خلال زاويتهم ومنظورهم. ولن نعدم العرّافين المكلفين بالمطالبة بأن ينظر إلى المجتمع من منظورهم أو أن يكون الآخرون عُمياً صُمّاً بُكماً. وينصرف هؤلاء المستنيرون المزعومون، كما انصرفوا (هنا وهناك، طبعاً) إلى الاعتداء على الآبقين المارقين، وتشويه سمعتهم وشتمهم، وإلى تقسيم الكون إلى منتصرين ومهزومين تاريخيين.

وأخيراً، انظر ما حدث. فعلاً، فقد كان كلّ شيء سهلاً: فإمّا أن تتبعني وتدعمني أو أهاجمك. إما أن تقبل بما أقول أو أنّك تحكم على نفسك بالرفض. ببساطة أشدّ: أسود أو أبيض، كما يقول برناردو: معي أو عليّ، مع الحق أو مع الجنون، مع الخير أو مع الشرّ، مع أهل صور أو مع أهل طروادة. هنا وأيضاً هناك. وصلنا إلى هذا الحدّ وصارت بقيّة السبل الممكنة غير ممكنة وغير مقبولة في نظر التيارات الأصوليّة المهيمنة التي يعيشون بينها. أن تكون أو ألّا تكون: تلك كانت الحكمة التي صار الجميع تقريباً يطبقونها، في كلّ مكان، للتحكّم بمن يشكّلون هدفاً لتطبيقها.

على هذه الطريقة المقلقة وهذا النحو، فكّرت كلارا في الموضوع وفهمته عام 1996. وما كان لها، بكل تأكيد، أن تفهم الموضوع بالطريقة نفسها عام 1986، حين كانت تعيش واقعاً مختلفاً، بل كانت ستفزع لو أنّها قابلت شخصاً يحمل تلك المبادئ التي تحملها هي الآن، وربّما كانت ستصفه بالمتمرد من دون قضيّة، أو بالمنحرف أيديولوجياً. ولن تفهمه ربّما بالطريقة ذاتها عام 2006 لأنّ العالم يتحرّك، والناس يتغيّرون، وسيقول لها ولداها إنهما لا يريدان أن يكونا مثلها. فنحن لا ننزل إلى النهر مرتين، وإلا أصابنا الملل، وإلّا بات بئراً عكرة الماء. وماذا لو بلغت عام 2016؟ أو 2026 بتصميم لا يتصوّره حتّى أشهر كتّاب الخيال العلمي؟

ولكن، لا فهمها ولا تبريراتها ولا قناعاتها أنقذتها من الجراح التي تعرضت لها. لأنّ كلارا 1996 كانت تعلم أنّها ستعاني (وقد عانت حقيقة) من غياب صديقٍ مثل إرفينغ، ترك فراغاً في حياتها كلّفها ملؤه الكثيرَ من الوقت. وربّما لن تملأه أبداً. فراغ يمكن وصفه بأنّه كلّي، لا متناهٍ، عازم على أن يشعرها بأنّها فقدت العكازات التي لم تجد أفضل منها وأقوى. لذلك أعلنت، عصر يوم وداعه، حين اجتمعوا في بيت (فونتانار)، أنّها تفضّل ألّا ترافقه إلى المطار، محتجّة بإفساح المجال له ولجويل ليكونا وحدهما، وإن كانت في الحقيقة تعاني من شعور لا تستطيع التصريح به، شعور بالعجز عن تحمّل لحظة فراق أخرى.

ما زالت كلارا لا تدري أن الحياة تخبئ لها مزيداً من التفتت والتشتت، وإن تصوّرت ذلك ورأته يلوح في الأفق. لذلك تعانقت المرأة مع أعزّ أصدقائها، وتبادلت معه القبلات، وبكيا، وتعاهدا بالتكاتب والتخاطب، ولعنا الظروف التي أوصلتهما إلى تلك اللحظات المؤلمة. لماذا تسافر؟ لماذا لا تظلّ معي؟ ماذا سأفعل مع وحدتي؟، كانت تودّ لو سألته، لكنّها تعلم جيداً أنّها لا تستطيع، لا حقّ لها في طرح تلك الأسئلة عليه، لأنّها تعرف الأجوبة والواجب يقتضي تقبّلها والقبول بها.

حين استدعيت كلارا للعودة إلى وظيفتها، لم يكن قد مرّ على سفر إرفينغ إلّا شهران. لقد وجدت كلارا في تلك الدعوة ما أدخل الراحة على نفسها، ولأسباب عدّة. صحيح أنّ عودتها إلى عملها لن تحلّ مشكلتها الماديّة، لكنّ كلارا وجدت نفسها، وقد أنعشها الشعور بقيمتها وتحقق ذاتها، منصرفة إلى مهمات ضروريّة، كتحديث خزانة ملابسها، التي تجمّدت من سنوات، والطلب من خيّاطة أن تجري بعض التعديلات على فساتينها، بما يوافق التصاميم الحديثة. ذهبت أيضاً إلى الصالون لقصّ شعرها وتصفيفه وصبغه، للمرة الأولى في حياتها، ولإخفاء الشعرات البيض التي بدأت تظهر في السنوات الأخيرة. نفضت الغبار عن الكتب والكراسات والمحاضرات، وأخرجت خلاياها العصبيّة لتتشمّس. لقد أحسّت كلارا كأنّها تستردّ شيئاً من اعتبارها، بل لقد تجرأت أن تنظر إلى وجهها في المرآة من جديد.

وأحدثت عودة كلارا إلى عملها حركة منطقيّة في التوازن الذي كانت الحالة في البيت قد استقرّت عليه. لذلك، توصّل ساكنوه، بعد اجتماع عائلي، شارك فيه برناردو، العضو العامل الرابع، إلى اتفاق لوضع دعائم عيشهم المشترك في (فونتانار)، فعودة كلارا إلى تقاضي راتبها كاملاً لم يحلّ الأزمة الماليّة، التي تفاقمت منذ أن بدأ داريّو علاقته بشابة كاتالانيّة اسمها مونتسرّات، بدا أنّ دأبها هو شفط أمواله وشغله عن مسؤولياته تجاه عائلته.

لمّا وجد برناردو أنّ من الأجزى له مادياً أن ينصرف إلى تصليح الحواسيب وتنصيب البرامج في المنازل، ليكون وقته هكذا ملكه، فقد قسّم وقته بين العناية بالديوك والأرانب صباحاً، وزراعة قطعة الأرض وسقيها عصراً. وتعهّد ماركوس لأخيه رمسيس أن يمدّ لهم يد العون كلّما استطاع المساعدة. أمّا رمسيس، الذي كان اختار الدراسة في إعداديّة تقع خارج

المدينة، فقد باع الطاحونة ونصف حظيرته من الحيوانات ليشتري حاسوبه الشخصي الأوّل من جارٍ له يعمل طيّاراً في الخطوط الجويّة الكوبيّة.

في أشهر الصيف تلك، من عام 1996، بدأ الناس يشعرون بأنّ تحسناً بدأ يطرأ على حياتهم، على الرغم من أنّ الكثير من الأزمات ظلّت على حالها. لقد تباعدت فترات انقطاع الكهرباء، وصار في مقدور المزارعين أن يبيعوا منتجاتهم في الأسواق التي أعيد فتحها، وبات ممكناً شراء بعض تلك المنتجات إن كان لديك ما يكفي من نقود. وهكذا بدأ يشيع منطق جديد مفاده: كلّما زاد مالك، تحسّن مستوى معيشتك.

ووجدت كلارا في برناردو سنداً ودعماً، وهي التي باتت تحتاج إلى كلّ سند ودعم. لكنّ التعاضد والتقارب والاحتياجات الروحيّة والعاطفية بدأت، حال ولادتها، تحدث صدوعاً في الجدار (حلزون كلارا)، حتى إذا عادت كلارا، عصر يوم، من صالون الحلاقة بشعر مصفف وقصّة أنيقة، وقد ارتدت تنورة أعيد إصلاحها، تكشف عن ركبتيها وتؤشر بوضوح خطوط الردفين والوركين، لم يجد برناردو بدّاً من أن يطلق مشاعره، التي كانت، حتى تلك اللحظة، تنمو بتكتّم وتحفظ.

- كم تبدين جميلة، كلارا!

فردّت هي:

- شكراً...، وبما أنّي لستُ جميلة، فالشكرُ لك مضاعف.

وهكذا باتت أوراقُ اللعب مطروحة على الطاولة. ولم يبق إلّا أن ترفع واحدة ليبدأ الدست.

في ذلك الأحد من أواخر ربيع 1997، قام إرفينغ بجولته الصباحية الأولى في متنزه الـ (ريتيرو) المدريديّ. سار في جادّة كوبا واكتشف تمثال *الملاك الساقط* الذي أحسّ تجاهه بانجذاب غريب، لا يعرف إن كان مبعثه روحيّاً أم جمالياً، أم إنّ الطبيعتين تضافرتا وأثرتا فيه معاً.

وبعد ستّ ساعات، وفي صباح هاڤانا الصافي، قرّر برناردو وكلارا، بعد خروجهما من كنيسة (كالاباثار)، حيث حضرا قدّاس الأحد، ألّا يعودا إلى البيت حيث الحيوانات والزرع والطبخ والتنظيف والحواسيب. قرّرا أن يتجولا في متنزه (لينين) القريب، الذي لم يزوراه من سنين. ولمّا كان رمسيس وماركوس قد ذهبا لقضاء نهاية الأسبوع في بيت خطيبة رمسيس الجديدة، في (لاس پلاياس دل استه)، فقد وجدت كلارا نفسها في حلّ من طبخ ما تملأ به بطون المراهقين الجوعى دائماً، واقترحت على برناردو التجوّل، لأنّها كانت راغبة فيه. أم كانت تبحث عن شيء آخر؟

وكما عانى البلد كلّه من آثار تلك العشريّة الصعبة، عانى متنزه (لينين). ففقدت حدائقه رونقها، وخلت مطاعمه ومقاهيه من خدماتها، وبات حوض السمك فيه أثراً بعد عين، بينما ما عاد المسرح العائم إلّا ذكرى لتلك الليلة التي أحياها جوان مانويل سرّات[60]. مع ذلك، فقد كان في نموّ البنايات نموّاً عشوائياً ما منح الرئة الجنوبيّة الكبيرة للمدينة طابعاً إنسانياً، وصار السير في الطرق المعبّدة أو المرور بالأرض المعشبة أو المشجرة يشيع إحساساً بالسلام في بلد عاش حرباً طويلة شرسة ومدمرة، وإن لم يشتعل فيها بارودٌ ولم تنفجر فيها قنبلة.

60- **Joan Manuel Serrat** (1943). مغن ومؤلف كتلاني إسباني شهير. زار كوبا عام 1973 وأقام فيها الحفلة التي يشار هنا إليها.

سارا قريباً من كيلومتر واحد في المتنزه. حينها، قررا أن يجلسا قريباً من غابة من قصبٍ له، حين يحركه النسيم، حفيف يشبه تنفس حيوان نائم مسترخٍ.

تجاذبا، وهما في الطريق، أطراف حديثٍ دار عن شؤون عامّة. تكلّمت كلارا عن صعوبة البدء بمشاريع جديدة في شركتها، وعن العلاقة العاطفيّة الجديدة التي يمرّ بها رمسيس، وتمنّت أن تجدد طلاء البيت. أمّا برناردو فقد حكى لها عن نيته البدء بتمارين رياضيّة أكثر، لأنّ وزنه في ازدياد، وركبتيه صارتا تؤلمانه، وأبدى عزمه على الانضمام إلى مجموعة من الشباب يلعبون كرّة السلّة في فضاء أهّلوه ساحة للعب، وإن كان عليه أن ينتبه، لأنّ سنواته الأربعين تقريباً لها حكمها.

– ها نحن نشيخ – قال.

– ما عدنا شباباً – أوضحت. وابتسما.

تحت أعواد القصب، ظلّ الاثنان صامتين، لدقائق طويلة، ينعمان بالظلّ وبرودة النسيم. ينظران إلى الحدائق التي باتت شبه جرداء، ويشعران بالاسترخاء، بعد أن غمرهما إحساس جميل بأنهما حيّان نشيطان. وكان من شدّة ذلك الإحساس، الذي لم يتذوقا طعمه طوال سنوات، أن كلارا أرادت أن تعبّر عنه على طريقتها.

– فيمَ تفكّر؟

ابتسم، قبل أن ينظر إليها.

– أتدرين أنّي كنتُ أريد أن أسألك نفس السؤال؟

– لكنّي سألتُك أولاً.

– أوكي. أوكي... كنتُ أفكّر... في أنّي أشعر بالارتياح. وفي أنّي ما أشعر بالارتياح إلا بفضلك.

– بفضلي؟

– لأنّكِ أنتِ من أنقذني.

– ألم يكن الربّ؟

– كان هو من ألهم الفكرة، المشروع. لكنّكِ أنتِ كنتِ من نفّذهما

وحوّلهما إلى واقع... وإنّي لأقسمُ لكِ بأنّي لن أتراجع عمّا ابتدأتُه. لذلك فأنتِ لستِ مضطرة إلى الذهاب معي إلى الكنيسة إن لم تكوني راغبة في الذهاب. لا حاجة بي لأن تواصلي رعايتك لي...

- لكنّي توقفتُ عن الاعتناء بك منذ زمن. أمّا سبب ذهابي إلى الكنيسة، فلأنّي أرغب في ذلك.

- لم أكن أجرؤ على سؤالك عن الموضوع... هل أنتِ تؤمنين حقاً بالربّ؟

- أظنّ ذلك، أحياناً، وهذا هو المهم. أذهب إلى الكنيسة لأنّي أحبّ أن أكون معكَ ومع أناس يؤمنون بشيء، لا يهمّ إن كانوا على خطأ أم على صواب. شعرتُ بالحاجة إلى الإيمان بشيء. والمرأة التي تجلس الآن معك مؤمنة، برناردو. مؤمنة بك... وبأنّك لن تتراجع عمّا بدأتَ به.

ورسم على شفتيه ابتسامة أعرض من سابقتها.

- هذا لا يعني أنّك مؤمنة، بل ساذجة. والساذج هنا هو أنا...

وابتسمت هي، هذه المرة.

- ألا ترى أنّنا نهذر؟

- أبداً... نحن نتكلّم عن أمور بالغة الأهمية تتصل بالإيمان بالربّ وبالناس وبالنفس... أنتِ تقولين إنّك تؤمنين بي، فهل تعرفين بمَ أؤمن أنا؟

- بالقادرعلى كلّ شيء، الذي بيده الحلّ والعقد.

- صحيح، ولكني أراه الآن بصورة أخرى... أراه على شكل طريق...

- نحو السماء؟ نحو الجنّة؟

- نعم، ولكن على الأرض. بعض الناس محظوظون لأنّهم يعثرون على هذا الطريق، بينما لا يجده آخرون. لقد اكتشفتُ أنّني ما كنتُ أعلم حتّى بوجود هذا الطريق، مع أنّه كان دائماً أمامي.

- عمّ تتكلّم الآن؟

رفع برناردو نظره إلى رؤوس القصب، ثمّ خفضه نحو المرج، وقرّر أن ينظر إلى كلارا.

- أتكلّم عن أنّي أعتقد أنّ كلّ ما جرى كان مرسوماً لكي نصل أنا وأنتِ

إلى هذا المكان، اليوم، وليس في يوم آخر، اليوم، وفي هذه الساعة، لكي نفكّر كلانا في شيء واحد. لأنّنا الآن نفكّر في شيء واحد.

– وكيف لك أن تعلم بما أفكّر فيه الآن؟

– لا أدري، كلارا. لكنّي أشعر به – قال ووضع يده اليمنى على ذقن المرأة وراح يقرّب وجهه ليطبع على شفتيها قبلة.

كانت كلارا تعلم، بلا شكّ، بما سيقع، لكنّها لم تتصور وقوعه بالصورة التي وقع فيها، ولا تطوّره بالطريقة التي تطوّر بها، اعتباراً من تلك اللحظة (كم تدوم اللحظة؟)، التي تذوّقت فيها رضابه وتذوّق طعمَ رضابها. دقّ قلبها بإيقاع كانت نسيته. أم هو إيقاع جديد؟ ومع أنّها كانت مقتنعة بأنّها ما زالت قادرة على بذل الحبّ ومنحه، فقد ظلّت، لوقت طويل، في شكّ من قدرتها على تلقيه وتقبّله. لقد أحبّت أصدقاءها، لكنّ أصدقاءها هجروها. أحبّت ولديها، لكنّها تعلم أنّهما سيحبّان، ذات يوم، أشخاصاً آخرين، وأنّهما لن يلبثا أن يهجراها أيضاً. أحبّت داريّو، وإن ظنّت دائماً أنّه أحبّها لا لشخصها، بل لمالها ومكانتها. وأحبّت إليسا، هي متأكّدة من أنّها أحبّت المرأة، لكنّها كانت تخاف دائماً ألّا تلقى منها ما يقابل حبّها ويشبهه، فقد كانت ترى فيها امرأة عاجزة عن أن تحبّ. وأحبّت والديها. ولكن، هل أحبّها والداها؟ وأحبّت جدّها وجدّتها، ولكن، هل أحبّاها حقيقة أم تكفلا بها فحسب؟ وتأتيها الأجوبة الممكنة غامضة مشوّشة، بل إنّ بعضها يأتي ليؤلمها. وها هي تكتشف، وهي على عتبة الأربعين، وبعد شعور طويل بالوحدة والخذلان والتعب، وبعد أن صارت تشكّ في أحاسيسها الجنسيّة ورغباتها، منجمَ الحبّ الذهبي الأكثر إرضاءً وإشباعاً. نعم، إنّها تكتشف ما يمكنها أن تدعوه بحبّ حياتها: ذلك الحبّ الذي يعطي ويتلقّى، يبذل ويُكافأ، بنفس القدر، وإن كان من دون حساب ولا وزن. الحبّ الذي تعيشه بلا مخاوف ولا صدمات، لأنّه يفاجئك ويفتح أمامك الطريق نحو الجنة على الأرض: ذلك الحيّز المادي والذهني الصغير الذي لا يتسع لأكثر من كائنين مفعمين بالرغبة في الحياة والعيش بعضهما من أجل بعض، وبعضهما في بعض. شخصان كانا يجدان نفسيهما مكسورين مهزومين، ثمّ يكتشفان، بالتشارك والتقارب، أنّهما ما زالا قادرين على الكفاح ومعاودة المسير.

تخيّم على المكان رائحة الزهور الذابلة والأبخرة البشريّة، وتسود فيه أجواء الحزن والوحدة والموت. أحسّت كلارا بغثيان ذكّرها بأسابيع حملها الأولى بولديها. عادت ونظرت، متوترة متلهفة، إلى الساعة. لم تبقَ على الموعد المحدد لنقل الجثمان إلى المقبرة غير ساعة وهوراثيو لم يصل بعد. وضعت يدها على كتف برناردو، وبنظرة منها أشارت إليه بأن يتبعها إلى الخارج.

- أراكِ شاحبة...

- هذه الرائحة تكاد تقتلني -قالت، وشهقت وزفرت عدة مرّات، وعاودت النظر إلى الساعة-. والحر... بقي أقلّ من ساعة، وهوراثيو لم يصل...

- سيصل. اهدئي -قال الرجل، وداعب خدّها-. تعالي واستريحي هنا - أمرها وأشار إليها بالجلوس عند الجدار الذي يفصل مدخل سيارات الجنائز، الذي كان له أن يكون حديقة مزروعة بالأشجار والورود،، لكنّه بات مكبّاً لأعقاب السجائر والعلب الفارغة والأوراق المحيطة بشجيرة الجهنمية البائسة، العازمة على التزهير، رغم كلّ المصائب.

لم يكن مبعثُ قلق كلارا الضيقَ وحده ورائحة الموت وحدَها. لكنّ لقاءَ برناردو وهوراثيو قد يكون كفيلاً بإشعال ذلك البارود الرطب، على الرغم ممّا مرّ من السنين، وما طرأ من تغيّر على الطباع. مع ذلك، كان يطمئنها أنّها شهدت مدى انشغال بال برناردو حين تدهورت صحة والدة هوراثيو، وأنّه لم يتكلّم ثانية، منذ أن تعهد له، حين ودّعه عام 1995، عن الأوقات العصيبة التي سبقت اختفاء إليسا، ومعها حملها المثيرُ للجدل. لقد بدا كأنّ سقوطه

المدوّي في الهاوية، ثمّ عودته، بمعجزة تقريباً، إلى الحياة، أغلقت الجرح الكبير، وبدا برناردو الجديد في عينها، ليس رجلاً صالحاً فحسب، بل أفضل الرجال. إنّها أسرار الحياة. إنّها أعماق الروح الإنسانيّة السحيقة.

ظهر التاكسي الذي جاء بهوراثيو من المطار ولمّا يبق غير ثلاثين دقيقة على الموعد الذي حدده مسؤولو مكتب الدفن (ليس لديهم حجرة تبريد لحفظ الجثمان، وفي الساعة الخامسة ينصرف الدفّانون، لأنّ هؤلاء لا ينتظرون). رأته كلارا وبرناردو من السور الذي استندا إليه. حين رأت كلارا الصديق الذي غاب سبع سنوات يقترب منهما، انهارت، وانخرطت في بكاء مرّ مؤثر. عانقها هوراثيو، بينما انهمرت على خدوده دموعه الأولى حزناً على أمّه، التي كانوا يتوقعون موتها بعد ما عانت في الأيام الأخيرة. ثمّ اقترب من برناردو وعانقه، وسرت بين الاثنين همهمات مواساة وشكر.

قبل أشهر، كانت شقيقته لاورا قد أبلغته عن سوء حال أمهما ودنّو أجلها، لكنّ أجلها لم يكن قريباً بالقدر الذي ظنّوا، فوجد هوراثيو الوقت اللازم ليطلب من السلطات القنصليّة الكوبيّة المعتمدة في واشنطن جوازاً يحمل تأشيرة سفر تسمح له بالدخول إلى بلده، وهو تصريح لا يمنح إلّا بعد أن يقرّر «أحدٌ» إن كان المنفي يستحقه أم لا، استناداً إلى مواقفه وانتماءاته (السياسيّة، خاصة) قبل خروجه من كوبا وبعده. ولم يتسلّم هوراثيو الجواز إلّا قبل ستة أيّام من وفاة أمّه، فبادر من فوره إلى إتمام إجراءات السفر إلى ما كان ذات يوم بلده. وسافر.

في المدفن العائلي من مقبرة (كولون)، كانت المراسيم مختصرة، ولم يحضرها إلّا بعض صديقات الفقيدة وجيرانها وبعض زملاء لاورا وزوجها وأصدقاؤهما والأصدقاء الوحيدون الذين بقوا لهوراثيو في الجزيرة: كلارا وبرناردو وماركوس، أمّا رمسيس، فكان خارج هاڤانا، في معسكرٍ نظّم للشباب، استعداداً للخدمة العسكريّة.

بعد الأعوام السبعة التي أمضاها هوراثيو بعيداً عن أهله وأصدقائه، قرّر أن يمضي الليلة الأولى مع شقيقته، علّه يؤسس لاستقرار في علاقتهما المتوترة. لازمه شعورٌ بالذنب تجاه أمّه، إذ لم يكن معها في أيّامها الأخيرة.

وكانت تعليقات أخته المبطنة وتلميحاتها تزيده سواداً وسوداويّة. ولم يكن يجد، للدفاع عن نفسه أمام نفسه، غير جواب وحيد، لكنّه مفحم: فهو لم يقصّر في مساعدة أمّه في سنوات مرضها وشيخوختها، بالنقود والأدوية، وكان في ذلك ما خفّف من آلامها ووفر لها الغذاء في بلد ما زال يشكو من شحّة في كلّ شيء، ونقصٍ في الموارد. ومع أنّه لم يشكُ يوماً من ذلك، فقد كانت معوناته، المرسلة من نيويورك أو من سان خوان، تؤثر، في كثير من الأحيان، على نفقاته هو. وكان من حسن حظه أنّ ماريسا ساعدته بتفهمها ودعمها، وأنّ والدها، فيليپه مارتينِث، صار يمدّ له يد العون، منذ أن ولدت البنتان التوأمان عام 1998 وزادت نفقات العائلة.

كان هوراثيو خطط للبقاء خمسة أيام في كوبا، لأنّ وفاة أمّه فاجأه وهو في غمرة أوّل فصل دراسي له، أستاذاً متعاقداً، في جامعة پويرتوريكو، حيث ينتظر أن يثبّت لاحقاً ويرقّى.

لذلك لم يعرّج بـ(فونتانار) إلّا في الليلة الثانية من عودته، ليدعو كلارا وبرناردو وماركوس إلى أحد المطاعم الخاصّة التي ظهرت منتصفَ الثمانينيّات واستطاعت أن تشقّ طريقها وتقاوم ضغوط الإرادات السياسية التي ما كانت تنظر بعين الرضا إلى وجود خيارات كتلك في دولة الكادحين من عمّالٍ وفلاحين. كان برناردو هو صاحب فكرة الذهاب إلى ذلك المطعم، فقد علم بوجوده في (رانتشو بويرو)، قريباً من منزل كلارا، وسمع كثيراً عن أطباقه الجيدة واللذيذة. قبل خروجهم من البيت في (فونتانار)، أمضوا الوقت في الحديث عن الظرف المحزن الذي اضطر هوراثيو إلى زيارة وطنه. ثمّ استأنفوا ذلك الكلام في الدقائق الأولى، بعد وصولهم إلى المطعم. شكر هوراثيو لأصدقائه وقفتهم مع أمّه وشقيقته ودعمهم لهما. وردّوا عليه بأنّ تضامنهم معه، وتضامنه هو مع كلارا، إذ مدّ لها يد العون في أزمتها، هو واجب ومسؤوليّة نشأت في سنواتٍ من الألفة والتعايش الوثيقين، على الرغم من الأزمات التي لم يتطرق إلى ذكرها أيّ واحد منهم، كما طلبت كلارا.

في أجواء الاسترخاء تلك، قصّ هوراثيو حكاية عثوره على قبر أبيه، واسترجع ذكريات طفولته ومراهقته، وكم عانى لكونه ابن رجلٍ جُرّد من

جنسيّته وصار يوصف بأنّه دودة[61]. كانت تلك المرّة الأولى التي يكشف فيها عن تفاصيل لا تعرف بها إلّا ماريسا.

طلب ماركوس، بعد أن التهم طبقه من كفتة الخنزير المخلوطة بالرز والفاصوليا وشرائح الموز والقلقاس المغلي، وأعقبه بعلبتين من شراب مرطّب، الإذن من عمّه هوراثيو وانصرف ليعاين مباراة في بيت زميل له يسكن في المنطقة. ذكّرته كلارا بأنّ لديه مدرسة في اليوم التالي، وسأله برناردو عن الفريقين اللذين يلعبان، وأراد هوراثيو أن يعرف أين وصل في تدريباته في البيسبول، ثمّ أخرج له، من حقيبة ظهره، قبعة فريق *يانكيز* - *نيويورك*. أخذ ماركوس الهدية بعد أن ملأته المفاجأة والفرحة، ولبسها وهو يصرخ cool.

- شكراً، عمّاه... وما أدراك أنّي من مشجعي *يانكيز*؟

- أخبرني الدوكي - قال هوراثيو، وابتسم. كانت تلك المرة الأولى التي يبتسم فيها تلك الليلة.

سأل هوراثيو برناردو إن لم يكن يمانع أن يشربا، هو وكلارا، كأساً من النبيذ، فأجابه برناردو بأنّ الشرب ما عاد يغريه، وإن كان ما يزال يغبط من يستطيعه، كما يغبط روّاد الفضاء. حينئذٍ طلب هوراثيو زجاجة من نبيذ شيليّ أحمر رخيصٍ لكنّه مقبول.

- فأنا أحتاج إلى شرب شيء -قال وهو يجرّب النبيذ-. منذ أن وصلتُ وأنا أشعر كأنّ رأسي منفصل عن جسمي. وكأنّي لا أعرف من أكون.

- هل لأنّك ذهبتَ؟ أم لأنّك عدتَ؟ أم لأنّك ذهبت وعدت؟ - أمطرته كلارا.

- كان عليّ أن أذهب، كلارا... تتذكرون حال البلد حين ذهبتُ، وحالي حين رحلتُ... أمّا الآن، فأنا والبلد ننعم بشيء من الهدوء، أليس كذلك؟ لكن، لديّ إحساس غريب... حين علمتُ بموت أمّي، شعرتُ، للمرة الأولى، بأنّي ما عدتُ ابن أحد، وهذا يجعلني أشعر بأني أبدأ مرحلة جديدة من حياتي. شيء ما انتهى. كانت تشغل حيزاً كبيراً في حياتي، وأنتم تعرفون ذلك. وقد عاش داريّو ذلك معي...

61- تطلق كلمة *Gusano* في كوبا على من هرب من الجزيرة وطلب اللجوء السياسي.

– لطالما غبطك داريّو على أنّ لك أمّاً كأمّك... مع ذلك، فأنت رجل محظوظ، ولديك الآن زوجتك وبناتك –قالت كلارا–. ولديك عمل تحبّه.

– صحيح، لكنّي أيضاً فقدتُ الكثير.

– لا تقلّب المواجع –تدخل برناردو–. كلّنا فقدنا الكثير. هذا قدرنا جميعاً.

ابتسم هوراثيو وقال:

– ولكن انظر إلى ما كسبتَه –قال، وأخذ بيد كلارا–. من كان يتصوّر؟ كم أنا سعيد من أجلكما...

– كان لا بدّ أن أكسب شيئاً... بعد أن... من بعد الوقت الطويل الصعب الذي أمضيته في الجحيم.

واختار الجميع الصمت حين رأوا أن الموضوع قد ينساق نحو الفوضى الكونيّة.

– أمس الأوّل، حين أخذتُ الطائرة من سان خوان إلى ميامي، شعرت بالألم –قال هوراثيو–. بدأتُ أحسب ما ضاع منّي، وتذكرتُ كيف عشتُ السنوات الأخيرة هنا، على حافة الجنون، صفراً من أيّ سندٍ، أدفع ثمن أخطائي... –قال، وركّز نظره على برناردو–. تأسفتُ على أنّي لم أستطع أن أعرف والدي، ولا أن أكون، في النهاية، إلى جنب أمّي، وكانت المسكينة خاسرة أخرى، أمّي التي أدين لها بالكثير... شعرتُ بضيق كبير... أحسستُ بأني تعيس، حينئذ، بدا أنّ الربّ الذي صرتَ تؤمن به، برناردو، دبّر لي أمراً. فالمرأة التي كانت تجلس إلى جانبي، وكانت فتاة جميلة في الثلاثين، طلبت منّي أن أسمح لها بالمرور والذهاب إلى الحمّام. حين خرجت، تركت على مقعدها أوراقاً مطبوعة كانت تقرأها، نظرت إلى تلك الأوراق. كانت هي، أو أحد ما، قد أشّر على فقرات من النص تشير إلى أشياء إلى أنّ في العالم مئتين وخمسين مليون طفل تقريباً، تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات وأربع عشرة سنة، يعملون في ظروف قاسية؛ وأنّ مئتي مليون من هؤلاء الأطفال يسكنون الشوارع؛ وأنّ في العالم مليارين وثمانمئة مليون شخص، نعم، مليارين وثمانمئة مليون، يواجهون خطر الجوع، ومليارا وثلاثمئة مليون

من الفقراء و... عاودتُ قراءة تلك الأرقام المرعبة، التي يسمع الواحد بها في كلّ حين، وأحياناً تدخل من أذن وتخرج من الأخرى، بملايينها الكثيرة، ومليارتها التي هي أرقام بلا وجوه، لكنّهم أشخاص مثلنا، وإن كانوا أكثر فقراً منّا بكثير...، وعادت الفتاة من الحمّام. لماذا كان عليّ أن أقرأ تلك الأرقام المخيفة في تلك اللحظة؟ هل هناك من دبّر لي ذلك؟ شعرتُ بضيق في صدري وفجأة تذكّرتُ حادثتين...: تذكرتُ نظرة ذلك الرجل الهاييتي الذي رأيتُه في معسكر للاجئين، حين وصولي إلى الولايات المتحدة. كان ينظر إليّ كأنّه ينظر إلى إنسان مميّز: محظوظ، لأنّي قادم من كوبا، وليس من هايتي، مثله. وتذكرتُ أنّي لم أنم يوماً واحداً من دون طعام، وأنّي استطعتُ، في هذا البلد نفسه، الذي نحن فيه الآن، أن أصبح دكتوراً في العلوم، وهو ما ساعدني كثيراً حين سافرتُ. وحصلت لديّ القناعة أنّنا، نحن الذين نقول عن أنفسنا أنّنا خسرنا، لأنّنا خسرنا فعلاً، محظوظون أيضاً... رغم كلّ شيء، أليس كذلك؟

أحسّ الجميع بوقع تأمّلاتُ هوراثيو عليهم. نظروا إلى صحونهم فوق الطاولة وقد فاض فيها الطعام بعد أن لم تتسع له أجوافهم (يا لفرحة دينجر بما فاض من طعام). وهنا تنبّهت كلارا إلى أنّها لا تذكر متى ذهبت آخر مرّة إلى مطعم. وفكّرت في جوع السنوات الأخيرة وجوع الكثيرين ممن يحيطون بها، وتذكّرت ما فعلته لكي لا يعاني أولادها ما عانته، وأنّ ولديها عملا كالرجال، ليخففا العبء عليها، فزرعا الموز والبطاطا، وربّيا الأرانب والدجاج، وحملا معها أكياس المانجو والأفوكادو، وجمعا الحطب حيثما وجداه لتعمل هي المربيات التي كانت تبيعها في ما بعد لآخرين يسكتون بها جوعهم.

– من هذه الفوضى التي تتكلّم عنها، هوراثيو، نلنا جميعنا نصيبنا. ربّما بقدر أقلّ، لكنّنا ذقنا المرّ أيضاً – قالت، وعادت لتشرب من كأسها.

– صحيح. معكِ حق –وافقها الرأي–. بالمناسبة، اتصل بي إرفينغ ليعزيني... من منكم أبلغه بالخبر؟

تبادلت كلارا وبرناردو النظرات ونفيا أن يكونا هما. وأحسّا بالتقصير.

كانا يستطيعان بطريقة من الطرق أن يمررا رسالة له ولداريّو، لكنّهما لم يفعلا.

– إرفينغ لا تعوزه وسيلة لمعرفة أيّ شيء – حاول برناردو أن يجد السبب.

– يعرف كلّ شيء... ويعثر بكلّ شيء –قال، وأضاف–: ألم تسمعوا أنّه رأى إليسا قبل مدّة؟

عمّ يتكلّم هوراثيو؟ ولماذا يتطرق إلى ذكر إليسا وقد طلبت منه كلارا ألا يورد لها أمام برناردو ذكراً؟ حتى لو أقسم له برناردو بأنّه تجاوز موضوع العلاقة بين هوراثيو وبين من كانت، حتى ذلك الوقت، امرأته، فليس الزمن، ولا كلّ ما جرى، بقادرين على محو الدناءة من ذلك الفعل الدنيء. الجرح لن يندمل، وأيّ تذكير به كفيل بأن ينكأه ويحرّك المواجع الدفينة.

سأل برناردو، وقد أثار سؤال هوراثيو فضوله أكثر ممّا أثار ذكرياته وما لحق به من إهانة:

– تقول إنّ إرفينغ رأى إليسا؟ في إسبانيا؟

خفض هوراثيو نظره، فأدركت كلارا أنّه أحسّ بخطئه، وأنّ اضطرابه وتشوّش فكره هما ما دفعه في طريق ما كان عليه سلوكه.

– قصّة غريبة – قال أخيراً، وبدأ يقصّ عليهم ما قال إرفينغ إنّه جرى له، قبل أشهر، عند تمثال *الملاك الساقط*، في متنزه (ريتيرو) بمدريد. لكنّ هوراثيو احتاط كي لا يقع في دائرة التخمين المرهق الذي ما انفكّ يضايقه منذ أن أيقظ إرفينغ شكوكه، على الرغم من غرابة ما روى: فالمرأة التي رآها إرفينغ في مدريد لا يمكن إلّا أن تكون إليسا، بلحمها وشحمها، رغم أنّها منعته من الاقتراب منها. وكانت معها صبيّة، سمراءُ البشرة، سوداءُ الشعر، غليظة الشفتين، وأنّ إرفينغ كاد أن يصيح، وهو يخبره بمقدار الشبه بينها وبين كينتين هوراثيو فوركيه.

في نيسان المشرق المضيء، حين لا قرّ ولا حرّ، حين لا إعصار يهدد ولا رياح تتوعّد، تطرح أشجار المانجو باكورة ثمارها وتزهر البونسيانات. هديّة من الطبيعة، يجب حمايتها من إيقاع الحياة المتسارع وتوتّراتها. فنيسان، في المناطق المداريّة، ليس بالشهر الأقسى بين الشهور.

لطالما وعت كلارا جمالَ ساعات فجر نيسان، ولطالما استمتعت بها وسُرّت. اعتادت أن تجلس في الشرفة، مع فنجان كبير من القهوة والسيجارة الوحيدة التي التزمت بتدخينها كلّ يوم، لتمتّع ناظريها برؤية الضوء الوليد وهو يفسح لنفسه الطريق في العتمة المتراجعة، حتّى يبدأ شعاع الشمس المتوهّج بالارتسام على الأفق الشرقي، ليصبغ سماءً تبدو على العموم خالية من الغيوم.

حتّى في أوقات الشدّة والأزمات، حين كانت تكافح من أجل كسب قوت يومها، وحين كانت تستيقظ وهي تنوء بتعب متراكم لا يكسر شوكته نومٌ ولا استراحة، كانت كلارا تحرص على دقائق الفجر السحرية الخمس عشرة أو العشرين تلك (وخصوصاً في نيسان) لتستمتع بالجانب المشرق من الوحدة، في شعور من الانسجام يبثّ في بدنها قوّة ونشاطاً، مبعثهما السلام الروحي. وبدأت، في لحظة مّا، تفكّر في أنّ الربّ، لو كان هناك ما يمثله ويمثّل جماله وقدرته، فلا خير من فجر نيساني في جزيرة حظيت بأنّها ولدت فيها، وفيها عاشت، وفيها ستموت.

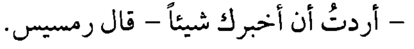
مضت السنوات الأولى من القرن الجديد بطيئة، مسربلة بالأغلال، لتؤسس لنمطٍ جديد من الحياة، لا يلوح في أفقه حلّ للأزمات ولا توفر للخدمات، في اقتصادٍ وطني له انعكاس مباشر على اقتصاد الأسرة، على الرغم من أنّ الأزمنة الصعبة، التي شهدت غياباً في الكهرباء وشحّة في

الطعام والنقل والآمال، بدت كأنّها باتت من الماضي. مع ذلك، فمنذ أن استأنفت كلارا عملها، واستردّت حياة الأنثى الناضجة المُرضية، شهدت تغييراتٍ حملت لها الكثيرَ من الراحة، إذ بدت متصالحة مع نفسها، راضية عن نصيبها، تحظى باستقرار يسمح لها، وهي في صحبة دينجر، الذي بات عجوزاً أعمى، بالاستمتاع بساعات الفجر النيسانيّة. فها هما ولداها بالقرب منها، منكبين على دراستهما. وها هو برناردو، الذي رأت فيه خير عشيق ورفيق، إلى جانبها. وها هو بيتها، ملجأهم الدافئ، وقد صبغوه بالكلس الملوّن بالأخضر، بعد أن حمل كلّ واحد من ساكنيه فرشته وعدّته. لم يكن فجر 18 نيسان 2004 ذاك، إذن، استثناءً على المشهد الذي اعتادته.

بدأت الشمسُ تطلّ من بين النخلات الملكيّة الباسقة المغروسة في الأفق المنظور. وبدأت كلارا، وقد شربت قهوتها ودخّنت سيجارتها، تتهيأ لمواجهة يوم جديد. يوم آخر.

وبينما كانت تحمّصُ الخبز الذي سينقعه الثلاثة الباقون بحليب الإفطار -صار لديهم حليب، مسحوق، لكنّه حليب- وتعدّ ثاني إبريق للقهوة في ذلك الصباح -ما زال لديهم قهوة تكفيهم-، سمعت على خشب الدرج وقعَ نزول أوّل الفاطرين كلّ صباح، كارلوس، الذي بدا أنّه قدّم موعدَ خروجه ربع ساعة إلى مدرسته التي يمضي فيها عامه الدراسي الأخير. لكنّها فوجئت برمسيس، الذي دخل إلى المطبخ، وهو يرتدي الشورت والبلوفر القديمين اللذين اعتاد ارتداءهما للنوم. التهمَ ما وجده أمامه وخرج طيراناً إلى الجامعة.

- كأنّك سقطتَ من فراشك! - قالت له متعجبة. فابتسم رمسيس. قرفص الفتى ليداعب أذني دينجر، ذلك الكلب الذي يعشقه ويبالغ في تدليله كلّما تقدمت به السنّ، فيرتاح هذا لمداعباته. ثمّ رشف مباشرة من إناء القهوة.


- أردتُ أن أخبرك شيئاً - قال رمسيس.

- هل ستتناول إفطارك؟ - سألته.

- بعدين...

- متى تبدأ دروسك؟



صمتَ رمسيس.

– عن هذا أردتُ أن أكلمك. فأنا لن أذهب اليوم إلى الجامعة...

– هل لديك عمل؟

هزّ رمسيس رأسه بالنفي.

– هلا تركتِني أتكلّم؟

فهمت كلارا نبرة ابنها وأدركت أنّ شيئاً مهماً يحدث. همّت أن تسأله، لكنّها أمسكت عن الكلام.

– أردتُ أن أقول لك إنّني لن أذهب إلى الجامعة بعد الآن...، انتظري، انتظري –بادر الفتى حين رأى أمّه تستعدّ للردّ–. سأطلب تعليق الدراسة. لأنّي قرّرتُ السفر.

حسبت كلارا، أو أرادت ذلك، أنّها لم تفهم كلام ابنها، أو أنّ سمعها لم يسعفها، وإن كانت تعلم أنّها سمعت بوضوح وفهمت جيداً ما قال.

–...

– مامي. إن أنهيت الجامعة فعليّ أن أنتظر سنتين أو ثلاث سنوات، على الأقل، لكي يسمحوا لي بالخروج من البلد. أمّا إذا لم أكمل دراستي وأتخرّج، ففي مقدوري أن أخرج حين أشاء. فهذا هو الوقتُ المناسب. وعليّ أن أسافر الآن.

نظرت كلارا إلى ولدها ثمّ حرفت نظرها نحو الباحة التي شهدت الكثير طوال سنوات كثيرة.

– هل خططتَ لذلك مع أبيك؟

– نعم، وقد وعد بمساعدتي.

– ولماذا لم تخبرني...؟

– لأنّي كنتُ أنتظر اللحظة المناسبة... لم أرد أن تشغلي بالك ونحن بعدُ في البداية.

أومأت كلارا برأسها، وعادت تنظر نحو الباحة. أحسّت بشيء يضيع في رأسها أو في جسمها. سند يسقط فيحدث فيها شعوراً بالفقد ويوّلد فراغاً ويغيّر جوهر الفجر النيساني. فهي تعلم جيداً أنها لا حقّ لها في أن تلوم، ولا

أن تسأل عن الدوافع والأسباب، فالأسباب قد تكون كثيرة، ويمكن أن تكون جميعها موجِبة. وما رمسيس إلا واحدٌ من كثيرين أقدموا على اتخاذ مثل هذا القرار. الفارق الوحيد هو أنّ رمسيس هو ولدها، وهو فتى ناجح ومسؤول ومتزن. بدأت رائحة الخبز تخرج من المحمصة.

- وكيف ستسافر؟ من أين؟ وإلى أين؟ - سألته، بينما كانت تضع شرائح الخبز في الصحن وتطفئ جهاز القهوة بعد أن بدأ الماء بالغليان وغزا عطر القهوة المطبخ.

- لا أعرف، مامي.

- وهل فكّرت مليّاً بالأمر، رمسيس؟ لم يبق أمامك إلا سنة واحدة لكي تتخرّج.

- وسأتخرّج. لا أدري أين ولا كيف، لكنّي سأنهي دراستي وأحصل على الشهادة. أقسم لك على ذلك... لكنّي لا أعرف الآن لأنّي أريد أن أسافر. هل تعلمين لماذا؟

- لأنّك تريد أن تنعم بحياة أفضل، أليس كذلك؟

- هذا أحد الأسباب... لكن أريد أن أسافر لأنّي حين أتخرّج هنا فسيمنحوني درجة مهندس، وهي درجة تشبه تقريباً الدرجة التي تحملينها، ومن نفس الجامعة التي تخرجتِ منها و... لأنّي لا أريد أن تكون حياتي، وقد تجاوزتُ الأربعين، كحياتك.

- ماذا تقول؟...

- اعذري لي صراحتي. عفواً، مامي. أنتِ أحسن أمّ يمكن للواحد أن يحظى بها، فقد فكّرتِ دائماً في الآخرين قبل أن تفكري في نفسك، وأعطيت لهم حتّى ما لا تملكين...، أنتِ أفضل من عرفت من البشر. لكنّ حياتك كانت كارثة...

- ما هذا الذي تقول! -صرخت كلارا، بعد أن لم تستطع أن تكتم ردّة فعلها-. بأيّ حق تقول هذا؟

- بالطبع، أنا لا أملك الحق في أن أقرّر حياتك. وأنتِ أيضاً لا تملكين

الحق في أن تقرري حياتي. الأمر بسيط... ماذا كان سيحلّ بنا لو أنّ أبي النذل لم يرسل لنا ما تسميه أنتِ «طوق النجاة»؟ ولو أنّ هوراثيو، وحتى المسكين إرفينغ، لم يتذكرا، بين الحين والحين، أنّنا موجودون؟ -شعرت كلارا بأنّ ولدها يرجمها بحقائق دامغة تفوق الحجارة ثقلاً وإيلاماً-. ما أطلبه منكِ هو ألّا تحوّلي الموضوع إلى تراجيديا وأن تظلّي على حبّك لي وأن تعذريني إن تفوّهتُ بما كان عليّ ألّا أتفوّه به... أعرف أنّك ستتألمين، أنتِ الآن تعانين، لكنّك ستفهمينني. وستدعمينني، لأنّكِ أنتِ، وأنتِ أمّي. أليس كذلك، مامي؟

7
كليمةُ الخيول

ما أطولَ ما ستنوءُ بهذا الحِمل [...]

• پول ماكارتني

رسمت الغيمة خطاً أفقياً، بدا كأنّه خُطّ بجرّة غير دقيقة ولا رشيقة، ربّما تأكيداً لصفتها الخاطفة العابرة، الكونيّة والجوهريّة. امتزج بياضُ الخطّ ببياض الثلوج الدائمة الجاثمة، في ما يشبه استقراراً مزعزعاً على قمّة الجبل الذي يقولون إنّه الربّ. في الأعلى، وإلى تحت، وفي الجوانب، ضاع غطاءُ السماء الأزرق الصافي في المجهول السحيق ليكشف عن كثافةٍ غامرةٍ لا يصوّرها إلّا ما هو مطلق وإلّا ما هو أبدي. أوراق الأشجار التي تكسو الأرض البكر، عند الضفة الغربية من بوغاز البحر في مضيق (پوجيت)، تبدو ملوّنة بأشدّ درجات اللون جرأة في سيزان وأقوى صور العاطفة في ڤان كوخ: من البنفسجي إلى الأحمر، ومن البرتقالي إلى الأزرق، جميع درجات الأخضر والأمغر الممكنة، ليتضاعف على صفحة الماء الساكنة، فكأنّه ينعكس على مرآة فضيّة عملاقة.

كان المشهد، بعظمته التي تذكّر بأصل العالم ونشأته، من شدّة التأثير أنّه يبدو كأنه صُمّم لإحداث تلك الصدمة التحذيريّة التي تلقتها لوريتا فتزبيرغ، والتي ستتلقاها ابنتُها، بعد ذلك الوقت بسنوات، وفي نفس ذلك المكان. وها هي الآن هناك، وقد تخلّت عن الربّ منذ وقت بعيد، وربّما لم تعرفه

قط، تقف أمام صُنعه وإبداعه، أو كما فكّر أوائلُ الخلق، أمام *تاهوما*. وها هي ترى أنّ ذلك هو المكان الذي سعت إلى أن تكون فيه.

أنفقت ثمانية أيّام لتنتقل من نيويورك إلى ذلك الركن القصيّ من العالم، الذي استقبلها بمشهدٍ أراد أن يبلّغها رسالة مودة وسلام وتجانس، بإشاراتٍ واضحة حرّكت، من وفرتها، مشاعرَها. ثمانية أيّام قطعت أثناءها آلاف الكيلومترات، متجهة صوب الغرب، بصمت، أو، متنقّلة من إذاعات محليّة إلى إذاعات محليّة أخرى، تضيع في الأثير، لتحلّ محلّها إذاعات محليّة أخرى. تأكل في مطاعم الطريق، وتبول في محطات الوقود، وتبيتُ في موتيلات سائقي الشاحنات. ثمانية أيّام، من دون رفقة غير الهموم، هاربة، من جديد، من دون عجلة، ولكن بهدف محدد، فكأنّ الهربَ قدرُها المحتوم.

ما كانت تحمل أثناء رحلتها، التي بدأتها من وكالة (أونيون سيتي) لبيع السيارات المستعملة، من متاع جمعته طوال سبعة وأربعين عاماً غير حقيبتي ملابس وصندوق كتب وثلاثة أغراض أو أربعة، فضلاً عن هاتفٍ محمول مطفأ وحساباتٍ مصرفية ناضبة مغلقة. لكنّها كانت تشعر بالراحة، لأنّها على يقينٍ من أنّ لا أحد يعلم بمكانها ولا بمقصدها. لا أحد في العالم، حتّى هي نفسها، كان يعلم، حتّى قبل دقائق، إن كانت ستصل إلى حيث عزمت الوصول وماذا سيحدث إن أفلحت في الوصول.

لذلك، أدركت لوريتا فتزبيرغ، وهي أمام ذلك المشهد المؤثر الأخّاذ، مشهد جبل (رينييه)، أو (تاهوما)، أو جبل الربّ، بأمتاره الأربعة آلاف وأربعمائة، أنّها وصلت إلى المكان الذي كانت تطلبه والذي ستمكث فيه، لحين تعاود الهروب. فقد نبّه بوذا إلى ذلك، وهي تعرف ما نبّه إليه بوذا: للكون ثلاث حقائق كبرى: كلّ شيء يتغيّر؛ لا حال تدوم؛ لا شيء يمنح الرضا كاملاً، سواء أكان فوق سطح الأرض الواسعة، أو في قلب الإنسان الصغير.

كانت لوريتا قد تعرّفت على مارغريت ميلر في كانون الأوّل 2001 في مزرعة للخيول تقع شمال ولاية نيويورك، حين طلب منها مديرُ العيادة التي تعمل فيها أن تسافر إلى هناك لتفحص حصاناً فحلاً من سلالة كليفيلاند باي معروضاً للبيع بمبلغ كبير. صحيح أنّ لوريا كانت تعمل لقاء مرتّب شهري بصفة مساعد طبيب، إذ لم تعادل شهادتها ولم يعترف بها، لكنّها كانت المكلفة بالعناية بخيول الزبائن (وبعضهم من أصحاب الخيول التي تقطع إسفلتَ المناطق القريبة من السنترال پارك في حلقات اغترابيّة حالمة بالحقول والمروج). وكما كان يحدث في مرّات سابقة، ستعاين لوريتا الحيوان، وسيوقعُ الطبيب المسؤول التقرير، وتتسلّم هي مكافأتها، لأنّ الأمر يتعلق ببيع وشراء.

لم يسبق للبيطريّة أن رأت حصاناً من سلالة كليفيلاند باي، فقليل من مربي الخيول والأطباء تعاملوا مع حصان من تلك السلالة العريقة، التي بدا أنّها مهددة بالانقراض. لقد استخدمت خيول هذه السلالة لجرّ الأحمال في أوقات الحرب والسلم، ولم ينقذها من الانقراض إلّا مظهرها الارستقراطي، إذ استخدمتها العائلة المالكة الإنكليزية، طوال قرنين من الزمان، في جرّ عرباتها الفخمة. وهكذا دامت خدمتها ودام تكاثرها. مع ذلك، لم يبق من تلك السلالة في العالم إلّا بضعة آلاف رأس.

وصلت لوريتا إلى المزرعة بعد العاشرة صباحاً. وبعد أن قدّمت نفسها، رافقها صاحبُ المزرعة إلى الإسطبل، حيث الحصانُ المقصود. أوضح لها الرجلُ، وهما في الطريق، أنّ الحصان يبلغ العاشرة، وأنّه بصحة ممتازة، لكنّه قرّر بيعه لأنّ مس مارغريت ميلر، وهي صاحبة مزرعة في ضواحي (تاكوما)، قدمت له عرضاً مغرياً. فالكليفيلاند باي، واسمه رينغو *ستار*، هو ابنُ سي

بريز، الفحل الذي جِيء به من إنكلترا، واستخدمته مارغاريت ميلر وزوجها البريطاني، قبل سنوات، في مشروعهما لتربية خيول من تلك السلالة، وجنيا من تلك التجارة، في ما يبدو، أرباحاً طائلة. كان لـ رينغو هذا، الذي بيع وهو بعدُ مهرٌ، رغماً عن السيدة ميلر، أن يصبحَ أجمل ما خلّف سي بريز من ذريّة، وإن أضاف مالكه الحالي على ذلك الوصف وصفه له بأنّه غاية في النزق وحدّة الطبع، وهي صفات غير مألوفة في تلك السلالة المتميزة حِملاً وجرياً وقفزاً.

– ثمّ إنّه يعلم أنّه جميل –أضاف صاحب المزرعة–، لذلك تجدين فيه أنفة وخيلاء. وهو بالغ الذكاء، وإن تصرّف أحياناً على مزاجه. ستحبينه أو ستكرهينه. أو سيحبّك هو أو سيكرهك –أضاف، وأشار نحو حظيرةٍ صنعت جدرانها من خشب الصنوبر وسقفها من بلاط صخري–، وتلك الخارجة من الإسطبل هي السيدة مارغريت ميلر... لا أعرف لماذا تحبّ أن يدعوها مس ميلر.

وجّهت لوريتا، التي كانت تكتفي بهزّ رأسها وهي تسمع ما يقوله الرجل، نظرها نحو المرأة التي أطلّت برأسها من الإسطبل. بدت امرأة قويّة، تناهز الخمسين، أو تربو عليها بقليل، فقد كان يصعّب تحديد سنّها فستانُ الجينز الذي ترتديه، والجزمة غير المتناسقة التي تحتذيها، وشعرُها الطويل المتناثر غير المصبوغ، والشريط المتدلي من عنقها ويحمل في نهايته رمز السلام والمحبّة.

– مس ميلر –قال صاحب المزرعة، وأشار إلى لوريتا–، ها هي البيطريّة...

تقرّبت لوريتا وقدّمت نفسها:

– لوريتا فتزبيرغ.

– مارغريت ميلر، متزوجة مرتين...، ولكن ناديني مس ميلر – قالت وابتسمت.

– سأرافقكما – قال صاحب المزرعة. ودخلوا ثلاثتهم في الإسطبل، حيث تلقّت لوريتا تلك الرائحة التي تعرفها وتحبّها. وسرعان ما تعرّفت البيطريّة على حصان الكليفيلاند باي، بلونه الكستنائي الغامق، وغرته التي علتها نجمة بيضاء.

اقتربت لوريتا من الحصان وابتسمت له. كان جميلاً فعلاً. ونظر هو إليها أيضاً، وحدّق فيها حتّى شعرت المرأة، التي عرفت الكثير من الخيول وتعاملت معها، طوال أكثر من عشرين عاماً من العمل، بالاضطراب: كان لذلك الحصان

نظرة نديّة وبرّاقة، أثرٌ من حزن، وإن كانت له قوّة من يتمتّع بذكاء فريد. وجدت لوريتا أنّ عينيه تتكلّمان، وشعرت، في الحال، بأنّها تفهم لغته.

- مرحباً، أيّها الشاب الجميل - حيّته. وقبل أن تمدّ يدها لتداعبه، مسّته بسبابتها اليمنى في النجمة البيضاء التي بين عينيه. ثمّ فتحت يدَها ومرّرتْ راحتَها على أحد جانبي رأسه لتفسحَ له ليشمّها. مدّ الحصان رقبته وراح يشمّ رأس الضيفة، ثمّ عاد إلى يدها، ثمّ وضع، بعد تردّد، جحفلتيه عليها، فكأنّه يريد أن يقبلها. فابتسمت لوريتا ثانية، وبدت راضية، ثمّ خفضت يدها من ناحية ذقنه لتمرّرها على رقبته، وتعود بها أدراجها إلى حيث النجمة البيضاء.

- ماذا ترين؟ - سألتْها مس ميلر، من خلفها.

استمرت لوريتا تداعب رينغو..

- إنّه متوتر ويعاني من الجفاف، شفتاه يابستان. يشعرُ بقلق. لاحظي كيف يتنفّس... إنّه الهلع.

- وما دلالة ذلك؟

- دلالته أنّه ليس مرتاحاً. كالطفل بين غرباء.

- وماذا يلزمه؟

- يلزمه ماءٌ بأملاح مرطّبة، ويلزمه... حبّ... أنصحكما بإخراجه من هنا -قالت-. هذا المكان لا يروق له...

- حسناً... باشري مهمّتك، وحدّثيني عن انطباعاتك الثانية -اقترحت عليها مس ميلر، ثمّ التفتت إلى صاحب المزرعة:- من فضلك، هلّا تركتنا معه، أنا والدكتورة؟

ابتسم الرجل وتمتم بما يوحي بأنّه غير مرتاح للطلب، ثمّ غادر الإسطبل. وابتسمت لوريتا أيضاً: تلك المرأة تبدو مستعدة للعراك وإن حملت في رقبتها شريطاً يدعو إلى الحبّ والسلام.

- هلا ذكرتِني، دكتورة، باسمك، من فضلك؟

- لوريتا فتزبيرغ. وأنا لست دكتورة. كنتُ دكتورة في حياة أخرى.

- هل أستطيع أن أدعوك لوريتا فحسب؟

- طبعاً.

– شكراً، لوريتا... اسمعي... هل تعرفين كم طلبوا منّي سعراً لهذا الحصان؟

– مالاً كثيراً – أجابت لوريتا، وهي تحضّر المحلول المرطب.

– صحيح. لكنّي أراه مناسباً لأعقد الصفقة مع صاحبه الآن. فالحصان بلغ للتو، ويبدو سليماً معافى، ولا عيب فيه... ثمّ إنّه سليل خير خيولي، سي بريز، الذي كان له موقع خاص عندي... لقد قررتُ شراءه، إلّا إذا أقنعتني بخلاف ذلك. هل تعرفين لماذا؟

– لأنّ في رينغو شيئاً خاصاً. لأنّه خاص.

ابتسمت مس ميلر وهي تهزّ رأسها موافقة.

– إنّه خاص –أكّدت المرأة–. على الأقل، في نظري...

ستشرح مس ميلر للوريتا لاحقاً أنّها لم ترَ لذلك الحصان نظيراً، طوال ثلاثين سنة أمضتها في تجارة الخيول، كانت أثناءها واحدة من قلائل تخصصوا في تلك السلالة.

– ولماذا بعتموه؟

– لم أشأ بيعه، لكنّنا كنّا نحتاج المال. الآن لديّ المال، وأريد أن أستعيده... هل تريدين أن أخرج لتفحصيه؟

– يمكنك البقاء... شرط ألّا تتحركي ولا تتكلمي...

– وهو كذلك – قالت مس ميلر. تراجعت، عدة خطوات، وجلست على دكّة قريبة من مدخل الإسطبل، على مسافة خمسة عشر متراً من كابينة الحصان.

فتحت لوريتا البوابة الصغيرة ودخلت إلى حيث رينغو، وهي تحمل وعاءً نظيفاً مع الماء المدعّم بالأملاح. تحرّك الحصان نحو أحد أركان الحجرة، وبدأت هي تكلّمه بصوت منخفض لكنّه مسموع، فكأنّها تصلّي. دام الأمر دقائق. أبعدت الإناء القديم، وأزاحت العلف اليابس، ثمّ صبّت الماءَ في الإناء النظيف. حين صارت المرأة والحصان أخيراً وجهاً لوجه، وبعد مداعبات أخرى ونظرات متبادلة، تكشّف حجم السحر ومفعوله: خفض الكليفيلاند باي رأسه وراح يعبّ من المحلول الذي أمامه. وحين شرب نصف ما في

الوعاء، نظر إلى لوريتا، التي واصلت الكلام معه. قرّب جبهته من جبهتها ومسّ برأسه رأسها. ظلّا، هي وهو، لدقائق على تلك الحال، بينما واصلت لوريتا دردشتها وواصل هو نفخه وتحريك شفتيه، وقطرات الماء تتصبّب منهما. إنسان وحيوان متحدان، بعيدان لاهيان عن العالم، أو لائذان بعالم آخر هما فيه كلّ سكانه وقاطنيه. وستحكي مس ميلر كيف أنّها كانت، في تلك اللحظات، شاهدة على حالة تصريح بالحب لم تر لها نظيراً. وستصف لوريتا تلك التجربة، بعد سنوات، بأنّها كانت لقاءً سحرياً بين روحين توأمين، لم يكن يعوزهما غير اللقاء ليؤسسا بينهما أجمل تواصل وأبلغ خطاب.

عقب ساعتين، حين انتهت المالكة الجديدة للحصان من قراءة التقرير الذي كتبته البيطريّة، والذي ستحمله إلى مدير العيادة للتصديق عليه وضمّه إلى ملف الحصان، رافقت لوريتا، لتودّع الحصان، ثمّ لتوصلها إلى حيث تركت سيارتها. حكت لها مس ميلر شيئاً عن شبابها المضطرب، الذي ظلّت تحمل لقبها، مس ميلر، وتعلّق رمز السلام والحب على صدرها، تكريماً له وتعبيراً عن حنينها إليه. أمّا لوريتا، فقد حكت لها عن أيّامها في لندن، حيث تعلّمت الفروسيّة وتعلّقت بالخيول، ذلك الحبّ الذي قادها إلى دراسة البيطرة في كوبا، على الرغم من أنّها لم تستطع أن تعمل في الولايات المتحدة وفق ما تؤهلها له شهادتها. وقبل أن تتوادعا، سلّمتها مس ميلر قصاصة من الورق.

- لديك هنا عنواني ورقم هاتفي... أنا أسكن في الطرف الآخر من البلاد، في إحدى زوايا العالم تقريباً. وأنت تسكنين في نيويورك، وهي مركز الكون... ولكن من يدري! فإن أردتِ مرة أن تزوريني، فمرحباً بك. المكان الذي أعيش فيه هادئ وجميل، وهو عندي، على الأقل، أفضل مكان للعيش. قد يجدر بك أن تعرفيه... وإن أردت مرّة أن تأتي للعمل معي أو للعناية بـ رينغو أو بخيولي الأخرى... فستكونين موضع ترحيب أيضاً.

- شكراً جزيلاً، مس ميلر. ما أجمل أن يكون لنا خيار كهذا! شكراً.

- على الرحب والسعة... أنا من عليّ أن أشكرك لأني رأيتُ اليوم بفضلك ما رأيت... أنتِ امرأة فريدة وموهوبة.

- هذه مهنتي. الفريد الوحيد هنا هو رينغو. وأنا سعيدة جداً أنّه سيعيش مع شخص مثل حضرتك...

- أعدكِ أنّي سأوليه من العناية ما يستحق.

- وأنا أعدكِ أنّي سآتي ذات يوم لزيارتكما، أنتِ ورينغو. ذات يوم... أوصيكِ بأن تعطيه الكثير من الماء - قالت لوريتا، ومدّت يدها لتصافح يد المرأة القويّة، المرأة نفسها التي ستستقبلها، بعد خمس سنوات، برفقة حصان من سلالة كليفيلاند باي، بنجمة بيضاء مطبوعة على غرته، عند مدخل مزرعة تقع عند أطراف (تاكوما) اسمها ذي بريز سي *فارم*.

في الأيام التي تلت وصول لوريتا إلى *ذي بريز سي فارم* واستقرارها فيه، فكّرت كثيراً في الحجج التي يمكن أن تسوقها لابنتها لتبرير رحيلها المفاجئ، إذ لم تودّع أحداً، ولم تبلّغ به أحداً، حتّى حبيبتها كوسي. لطالما تجنّبت لوريتا إعطاء أيّ تفسير مقنع، لأنّها نفسها لم تكن تمتلك ذلك التفسير المقنع. لكنّ عثور المرأة، المستعدة دائماً لحرق كلّ مراكبها، على ما بدا أنّه مكانها في الكون، وجنّتها، في ذلك المكان المشحون بالجاذبيّة والمغناطيسيّة –بين غاباتٍ من أشجار الأرز والمخروطيّات المعمّرة، وبحورٍ عجيبة من صعودٍ وهبوط، وجبالٍ مغروسة في السماء، حيث يخيّم السكون، محاطة بستةٍ من خيول الكليفيلاند باي، تهيم حبّاً بواحد منها–، كان مكسباً إضافيّاً، لم تحسب، ساعة رحيلها، أنّها ستناله. كان كارمتها. نتائج الأسباب. ومع أنّها، في مكالماتها التلفونية مع ابنتها، علّلت قرارها بنفورها من فوضى المدينة، ولوّحت بالتعويض الذي وجدته في ذلك المكان الجميل، وألمحت إلى الراتب الذي يعلو على كلّ راتب تقاضته في حياتها، فإنّها كانت تغطّي على السبب الحقيقي الذي دفعها إلى القيام بتلك الحركة: رغبتها في الابتعاد عن الأجواء التي عاشتها طوال ستة عشر عاماً من حياتها. حفرة خرجت منها كما يخرج من الأعماق غوّاص على شفا الاختناق، باحثاً عن الأوكسجين.

في عام 2005، أي قبل عام من رحيل لوريتا، وقع الانفصال بينها وبين برونو فتزبيرغ. فكّت الشراكة بسلالة، بعد أن أصابها من الاستهلاك ما أصابها، ربّما لعجز لوريتا عن البقاء مخلصة وفيّة. ومع أنّ لوريتا لم تعترف بذلك قطّ، فقد كان برونو على علم بأنّها على علاقة برجل آخر، وربّما بعدّة رجال، ولوقت غير محدد. ويكاد يجزم أنّ من بين هؤلاء الرجال مدير العيادة التي كانت تعمل فيها. مع ذلك، فإنّ مغامراتها تلك لم تكن هي السبب: بل

كانت، في الواقع، حاجتها الغريزيّة للتمرّد وكسر التوازنات، وإن هدّت، في تقدّمها، أعمدة وأسقطت قواعد. وقد وجدت في حياتها مع برونو فتزبيرغ قيداً يجدر بها أن تتخلّص منه.

كان الاتفاقُ مُرضياً للطرفين: تظلّ آديلا مع أبيها في (ويست هارلم)، حيث يتوفر لها كلّ شيء، فضلاً عن قرب المدرسة التي ستنهي فيها دراستها الثانويّة، وهما ميزتان لن تجدهما في شقة (أونيون سيتي) حيث ستقيم لوريتا. ثمّ إنّ لوريتا وبرونو يطمحان إلى أن تتمكّن البنت، وقد أبدت نضجاً مبكّراً، وذكاءً ومثابرة يُضرب بهما المثل، من الدخول إلى جامعة كولومبيا، وتتهيأ لدراسة الحقوق وتبدأ حياتها المستقلّة.

وارتاحت لوريتا لهذا الاتفاق. ووجدت فيه آديلا خيرَ الحلول، إذ لم ترد أن تنتقل من بيتها ولا من حيّها، حيث أماكنها وصداقاتها، وحيث قاعات الرقص التي ترتادها، والساحات التي تلعب فيها السوفتبول كلّ يوم أحد. يا لميولك، كوسي، ويا لذوقك. المهم ألّا تتجاوزي حدودكِ ولا تحقني بدنك بأشياء غريبة...

وحافظت لوريتا، طوالَ عام من الزمان، على علاقات متحضرة مع زوجها السابق، وعلى أفضل علاقة ممكنة مع ابنتها. تزورهما ثلاث مرات أو أربعاً كلّ أسبوع، بل تطبخ أحياناً للجميع. وكانت، حين يواتيها المزاج، ترتّب غرفة ابنتها وتغسل ملابسها، وقد تخصص وقتاً إضافياً لمعاونتها في تحضير واجباتها المدرسيّة الكثيرة، والبحث في الشبكة العنكبوتيّة عن برامج مساعدات حكوميّة أو فيدراليّة للشباب من أمثالها، ممن حصلوا على ما حصلت عليه من تقديرات أكاديميّة. كان إيقاع الحياة الأسريّة الجديد يبدو طبيعيّاً إلى درجة أنّ لوريتا نفسها تقبّلت فكرة أن تتوزّع ساعات حياتها بين عملها في العيادة وترددها على ابنتها، في ذهابٍ وإياب يوميّ في المترو والباص، بين أونيون سيتي ومانهاتن. لكنّها كانت، في داخلها، (أو ليس بعيداً عن داخلها) تعلم أنّها تضحك على نفسها.

أمّا إحساسها بالحاجة إلى التحرّك، فقد ظهر بكلّ قوته ذات ليلة، وكانت مكلّفة بالمناوبة في العيادة. كانت في السادسة والأربعين، وقد بدأت تعاني

من نوبات انقطاع الطمث المبكّر. لقد رأت أنّ مرتبها الشهري ثابت لا يتغيّر (لم تفلح العلاقة التي أقامتها مع مديرها في رفع راتبها)، ولا يسمح لها بالاستمتاع بمغريات العيش في نيويورك الصاخبة. وممّا زاد من فزعها، آنذاك، تنامي ميول كوسي نحو كلّ ما هو كوبي، وإحساسُها هي نفسها بأنّها غير راضية عن نفسها، وهي حالة وجودية لا قبل لها بها، لأنّها قادرة على أن تخرجَ إلى السطح أسوأ ما في طبعها وأخلاقها. كانت الحياة تستدعي منها استدارة بقطر 360 درجة لكي تكون هي نفسها. ولذلك عزمت على الاتجاه لغزو *غربها البعيد البعيد*، دون أن تقلّب الفكرة كثيراً في رأسها.

عقب أسبوعين من وصولها إلى *ذي سي بريز فارم*، فعّلت هاتفها الخليوي، بعد أن وجدت مكالمات فائتة ورسائل نصيّة كثيرة من آديلا، ورسائل من برونو ومن آخر من صادقته من الرجال (شيف مطبخ نمساوي يمتلك حيتين ويمارس اليوغا مثلها). ثمّ اتصلت بابنتها وأبلغتها بمكانها الجديد، لكنّها لم تشر إلى أسباب وجودها هناك إلّا تلميحاً.

تعلم لوريتا أنّه ليس في مقدور شخص مثلها، يحمل على عاتقه ما تحمله، الكشفُ عن كلّ أسباب هروبها: فهل تهرب لأنّها تريد أن تجد نفسها؟ أم لأنّها تجد الراحة بين حيوانات تشكر لها صنيعها وعطفها أكثر ممّا تجده بين بشرٍ لا يفتأون يطالبونها بأن تحذر وأن تفي وأن تُخلص وأن تلتزم؟ أم لأنّ لوريتا فتزبيرغ ما عادت مرتاحة للوريتا فتزبيرغ، ولا للحياة التي تحياها، ولا للأجواء المحيطة بها، تماماً كما حدث لإليسا كورّيا، قبل أعوام، حين وجدت نفسها وقد سئمت من إليسا كورّيا والعالم الخطير المتفسّخ الذي تعيش فيه، ولذلك تقدم، ومن جديد، على بدء حالة تجسّدٍ جديد؟ أو، بعبارة أدقّ، حالة ولادة جديدة حقيقيّة.

توفي دان كارلسون، زوج مس ميلر الثاني، حين لم يكن مرّ عام واحد على بدء لوريتا عملها في ذي سي بريز. جلطة مفاجئة أصابت الرجل القويّ الجسم اللطيف الطبع وتركته في غيبوبة دامت خمسة أيّام، لم يخرجه منها إلّا الموت.

كان دان كارلسون، طوال اثني عشر عاماً، رفيق مارغريت ميلر، التي كانت ترمّلت بعد وفاة وزجها ووالد ابنتيها، توماس فوستر، في حادث طريقٍ، أعقب شجاراً عنيفاً وقع له مع صديقه جاك دانييل. مع توماس، وهو إنكليزي، يعشق الخيل ويمتلك ثروة شخصيّة صغيرة، استطاعت مارغاريت ميلر، في نهاية أعوام السبعين المضطربة، أن تقيم ما بات يعرف بـ ذي سي بريز، حين استقدما من إنكلترا أوّل حصانٍ من سلالة الكليفيلاند باي.

قبل خمس سنوات من زواجها الأوّل، الذي تمّ عام 1972، كانت الشابة مارغريت ساندرز، ذات الثلاثة والعشرين عاماً، قد فقدت من كان، وسيظلّ إلى الأبد، رجل حياتها: روبرت ميلر، أو بوب، المتمرّد، الذي عاشت معه أربع سنوات من جنون الشباب. حكت مس ميلر أنّ بوب رفض المشاركة في حرب فيتنام، التي كانت تزداد وحشيّة وضراوة، وفرّ إلى كندا، حيث انهى القدر العاثر حياته على يد فيتنامي يتاجر بالمخدرات. واتخذت مارغريت ساندرز، الأرملة التي لم تتزوّج، من لقب حبيبها الفقيد، ميلر لقباً لها، وحملت صفة مس لأنّها كانت عزباء واقعاً. ومنذ ذلك الحين طلبت من كلّ من عرفها أن يناديها بـ مس ميلر، بينما قدّمت نفسها، في المعاملات القانونيّة -وحتى الموت- على أنّها مارغريت ميلر، *المرأة القاتلة*،التي لن تلبث أن تخلّف وراءها، طوال حياتها، ضحايا وصرعى، من عشاق وأزواج.

ومع رحيل دان كارلسون، غطّت مس ميلر، المتيقظة دوماً، النشيطة أبداً،

في ما يشبه السبات، فكأنّها عافت كلّ ما يحيط بها، حتى مزرعتها الرائعة. لم توافق على أن تنتقل ابنتاها للعيش معها (وصفتهما ذات مرّة بأنّهما فتاتان برجوازيتان)، ولم توافق، بالطبع، على فكرتهما في أن تترك بيتها الريفي لتعيش في شيكاغو أو في بيتسبورغ، حيث الشقّة الفخمة التي تسكنها كلّ واحدة منهما، وحيث حياة الترف التي تعيشها كلّ واحدة منهما مع زوجها المحامي الناجح.

ووجدت لوريتا فتزبيرغ في الأزمة المحدقة بالمزرعة مناسبة لإظهار براعتها في الإدارة والقيادة. ضمّت إلى العمال القدامى الدائمين الهنديّ پويّالوپ واپو والمكسيكي أندريس، وبثّت في الجميع حماساً من حماسها، فانصرفوا للعناية بالمزرعة، تملأهم العزيمة وروحُ التنظيم. كانت ترى في إنقاذ المزرعة إنقاذاً لها، بعد أن قرّرت أنّ المكان هو مكانها من العالم. وتعاقدت مع *الكاوبوي* ريك، ليساعدها في العناية بالخيول وتدريبها (لم يشملا رينغو بالعقد) ويتكفّل بالمزاوجة بينها وسحب المني منها، وهي عمليات شاقة وخطيرة. أمّا هي فاختارت أن تعنى بالجوانب المالية والطبية واللوجستيّة.

في تلك الأوقات، في صيف 2007، زارت آديلا لوريتا في *ذي سي بريز فارم*، للمرة الأولى، وكان ذلك قبل انتقالها إلى جنوب فلوريدا للدراسة في جامعة فلوريدا الدوليّة. حين التقت الأم ابنتها في مطار سياتل – تاكوما، كان قد مرّ عام كامل على فراقهما، وقد لمست كلّ واحدةٍ منهما مدى التغيّر الذي طرأ عليهما خلال ذلك الوقت. فلقد باتت آديلا، بأعوامها السبعة عشر، وفي أشهر قليلة، امرأة جميلة، متناسقة الوجه متناسبة الملامح: فشفتاها المكتنزتان أغلظتا وتماسكتا، وصارتا أشدّ سمرة من بشرتها، وما كان ينقصهما غير قليل من اللمعان لإبراز جمالهما اللاتيني؛ أمّا وركاها وردفاها فما عادت وركي الطفلة المراهقة المكوّرة وردفيها، بل برزت لتكون مستقراً لقامتها، التي ضاقت ونحفت لتكون ملعباً لنهدين صغيرين مدببين.

– كم أنتِ جميلة، كوسي! – هتفت أمّها حين رأتها.

أمّا آديلا فقد وجدت أمامها امرأة تقف على أعتاب الخمسين، أشدّ نحافة وأشدّ سمرة وأكثر عضلاتٍ وأتمّ جسماً، وقد بدت الراحة في بريق عينيها.

– وأنتِ على أحسن حال... قالت آديلا، بعد أن تحررت من طوق ذراعي أمّها.

– شكراً و... انزعي عنكِ الخوف... فأنتِ الآن على اليابسة – ابتسمت لوريتا، وهي تعلم بأمر الخوف الذي يحدثها في البنت، ومنذ عدة سنوات، السفر بالطائرة.

في الطريق، تكلمتا عمّا جدّ على حياتهما وما مرّ، دون الدخول في الخصوصيّات. تكلمت لوريتا عن الوضع المعقد الذي تعيشه المزرعة منذ أن توفي زوج مس ميلر، رغم أنّها أفلحت في السيطرة عليه، ثمّ إنّ صاحبة المزرعة بدأت تستعيد طاقتها المعهودة، وما أكثر ما تحتاج إلى ذلك، نظراً إلى برودة الشتاء هناك. أمّا آديلا فلم تكلّم أمّها إلّا عن أبيها، برونو، وعن شدّة اشتياقها لها (بالغت في ذلك قليلاً) ولعونها الغذائيّ والتعليميّ والصحيّ، وتجنّبت كيل أيّ لوم على طريقتها في الرحيل، لتتجنّب ردّ أمّها على ذلك بخصوص قرارها هي بالدراسة في فلوريدا بدلاً من نيويورك. لا شكّ أنّهما ستجدان متسعاً من الوقتِ للنقاش، بل لشدّ شعر كل منهما للأخرى.

كانت بوابة المزرعة مشرّعة، لأنّهم كانوا ينتظرون وصولهما، لذلك قادت لوريتا الشاحنة الصغيرة حتى وصلت قريباً من الكوخ الذي أهّلته مس ميلر سكناً للوريتا، بعد أن كان مكتباً للفقيد توماس فوستر. وتأمّلت آديلا ذاهلة المكان بمبانيه الوظيفيّة المتناسقة، التي بدت كأنّها طليت حديثاً، ومجالاته المزروعة بالعشب، حيث تجول ديوك روميّة وأحصنة صغيرة، تبدو لعباً من الصوف، وكلبان من سلالة لابرادور الكنديّة، ضمن حدود الغابات الكثيفة المحيطة. كان الانطباع الأوّل الذي تولّد لدى لوريتا فتزبيرغ، وهي تنظر إلى تلك الجنّة، طاغياً جذاباً، كما اعتادت هي أن تصفه.

– اتركي أشياءكِ في السيارة... – أمرتها لوريتا، وسارت آديلا خلفها صوب منطقة المنشآت المرتفعة المعمولة من الخشب والقرميد، حيث ستجد، كما حسبت، إسطبلات الخيول.

من داخل البيت خرج المكسيكي أندريس والهندي واپو لاستقبالهما. كانا سعيدين بزيارة ابنة لوريتا، التي سألتهما مبتسمة، وذراعها على كتف ابنتها:

– أبدو على خير حال، أليس كذلك؟

ظلّت ذراعُها ممدودة على كتف ابنتها وهي تخبرها بأنّ الموظف الآخر، ريك آدمز، سيأتي حين ينتهي من عمله. ثمّ أخذتها إلى داخل الإسطبل، حيث أطلّت رؤوسُ أربع أفراس وفحل صغير يدعى كور، لأنّ بقعة تشبه القلب رسمت على صدره. كانت كلّها من سلالة الكليفيلاند باي. سمعت الحيوانات الجلبة، فراحت، وقد استبدّ بها الفضول، تبحث عن مدربتها وتحاول تمييز صوتٍ بدا غريباً عليها. قدّمت لوريا الحيوانات لابنتها، داعية كلاً باسمه، ومتوقفة بين الحين والحين عند هذا الحصان أو تلك الفرس لتعلّق بشيء عنه، أو لتداعبه. كانت المدربة، وهي تتكلّم، تشير إلى دورها في ذلك المشروع، وتشير، من حين لآخر، وبلكنة british، إلى سيّد مغرورٍ مزاجي (تدعوه sir)، لأنّه يدرك أنّه الأبهى والأجمل في العالم، لذلك فهو يعمل بأصله ويتصرّف تصرّف الارستقراطي.

لم تنتظر آديلا توضيحاتٍ، بل خفّت لتطلّ من كوّة الكابينة الأخيرة، الأوسع، التي فتح بابها على أرض مكشوفة مسوّرة تكمّل الكابينات. ولما كان رينغو يدير ظهره، لم تستطع آديلا أن تشاهد غير ردفيه العظيمين، المكورين القويين، وذيله الأسود اللمّاع، البارز بإزاء لون جلده الأبيض الضارب إلى الصفرة، الذي مررت عليه الفرشاة حديثاً.

– ما قولك في هذا البرنس؟ – قالت لوريتا حين وصلت إلى حيث ابنتها.

ظلّ الحصان ساكناً، كأنّه لم يسمع شيئاً.

– اليوم ليس يومه، لا، لا... –أضافت لوريتا، وعندها رفس الحصان أربع رفسات خفيفة–. أنتَ مستاء لأنّهم لم يخرجوك اليوم في جولة... ولكن، ولكن... ألا يسمح سير رينغو باستقبال ضيف؟ – سألت، وأشارت على آديلا بأن تقول شيئاً.

– مساء الخير، سيّد رينغو –قالت آديلا. وسقط الحصان في الفخ حين سمع الصوت الغريب، فأدار رأسه ليعرض جبهته المتوجة بالنجمة البيضاء التي تنير وجهه وروحه–. مرحباً. مرحباً...

حرّك الفحلُ جحفلتيه قبل أن يتحرّك ويقترب، بأنفة المتعجرف، من سياج الكابينة ويقرّب رأسه من رأس آديلا ويشمّها مجتهداً مدركاً.

– أنتِ رأيتِ صوره...، لكنّي أقدّمه لك الآن بلحمه وشحمه... رينغو *ستار*... ملك المزرعة.

عند انتهاء العصر، وبعد أن لفّت لوريتا بالحصان في الحقل المجاور لميدان التدريب، امتطت آديلا للمرة الأولى صهوة الحصان الذي نازعها حبّ أمّها، وكسب السباق.

لم تتفاجأ لوريتا إذ اقتربت ميكيلا، العاملة اليونانيّة، من المضمار لتسلّم على آديلا ولتبلّغهما بأنّ مس ميلر تنتظرهما على العشاء، وبأنّها كلّفتها أن تحضّر، بهذه المناسبة، طبق *السوفلاكي*[62] التي تشتهر به جزيرة كريت اليونانيّة.

وبينما راحت لوريتا وابنتها تستحمّان وتتهيآن لدعوة العشاء، حدّثت الأم ابنتها عن الاقترانات الكونيّة التي حملتها إلى ذلك المكان، وكررت الكلام في الموضوع، فكأنّها تحتاج إلى أن يكون الأمرُ واضحاً: إنّها واثقة من أنّها عثرت على المكان الذي لم تشعر براحة كالتي تشعر بها فيه. وأنّ جزءاً كبيراً من تلك القناعة يعود إلى وجود رينغو. فقد انعقدت بينها وبين الحيوان علاقة يصعب على لوريتا تفسيرها، لكنّها وصفت أثرها بأنّه ضرب من الاتحاد الروحي. فكأنّهما كتب عليهما، هي والحصان، أن يلتقيا ويتكاملا ويصبح كلّ منهما بالنسبة للآخر ما سمّته بتوأم روحه. وهل إنّ رينغو كان، في حيوات أخرى، شخصاً استثنائياً؟

لم تكن المرة الأولى التي تسمع آديلا أمّها تتحدث عن علاقات يصعب شرحها، أو علاقات يصعب على الآخرين فهمُها. منذ سنوات، بدأت لوريتا تتقرّب من البوذيّة، وفزعت آديلا، في البداية، حين قالت لها أمّها إنّ لديها انطباعاً بأنّها عاشت حيوات أخرى (كيف؟ على شكل شبح أم على هيئة روح هائمة؟ فكّرت، وهي طفلة) وإحساساً واضحاً بأنّها محكوم عليها بأنها ستعيش حيوات أخرى في أزمنة أخرى إلى أن يحطّ بها المقام في النيرڤانا[63]. إنّها لا تعرف بالضبط كيف وقعت لها تجسداتها السابقة، ولا أين، بل تؤكّد

62– قطع من اللحم المشوي على السيخ مع الخضار.

63– في البوذيّة، النيرڤانا **Nirvana** هي حالة الخلاص النهائي من التجسّد والعودة إلى الحياة في أشخاص آخرين.

أنّ تلك الحالات تفاجئها كومضاتٍ وصحواتٍ في ذاكرة نائمة، وحين تحاول آديلا إيقاظ تلك الذاكرة بالمعنى الواقعي المثير للتساؤل -الماضي المحدد، الذي عاشته أمّها في ذلك البلد القريب البعيد الذي يسمّى كوبا-، اعتادت لوريتا أن تردّ عليها، جادة، بأنّها لا تتذكر من تلك الحياة شيئاً، ولا تريد أن تتذكر، بل لا تحتاج أن تتذكر شيئاً.

عند السابعة، دخلت المرأتان في البيت الكبير. ومن دون أن تنتظرا أن يتلقاهما أحد، سارت لوريتا، تتبعها آديلا، نحو صالة صمّمت جدرانها من الزجاج، تطلّ على الناحية المشجرة من المزرعة، ومن بعدها بقليل، بوغاز خليج (مينتر).

كانت مس ميلر تجلس على أريكة الجلد الخضراء الوثيرة، ووراءها صالة الطعام وأمامها لوحة الزجاج، فكأنّها ترقب منها جنّتها. على المنضدة الوسطيّة، التي أمامها، تستقرّ زجاجة عليها نقوش. زجاجة من شراب *تسيكوديا* وكأسان. أمّا الكأس الثالثة فكانت في يدها اليمنى، مملوءة على النصف بعرق العنب الذي يدعونه أيضاً *راكي*، والذي، قالت مس ميلر، إنّها واحدة من خمسة أشخاص غير متحدرين من أصول يونانية يشربونه في واشنطن، بعد أن جربته وأحبته بتأثير من ميكيلا الشاطرة، التي تستجلبه من جزيرتها اليونانيّة.

– مساء الخير، عزيزتي – قالت لوريتا. فدارت المرأة رأسها ثمّ نهضت من أريكتها.

– مساء الخير...

– مساء الخير، مس ميلر... يسعدني لقاؤك وشكراً على الدعوة – قالت آديلا، ومدّت يدها لمصافحة المضيّفة، التي تقرّبت من الفتاة وقبّلتها في خدّها، وهي تثني على جمالها. بدت صورة تلك السيّدة، بأعوامها التي تربو على الستين، إيجابية في نظر آديلا، على الرغم ممّا عانت. كانت ترتدي فستاناً وتسدل شعرها، الأقرب إلى الأبيض منه إلى الكستنائي، على كتفيها.

– وشكراً لكما على قبولها... اليوم سأجلس للمرة الأولى، من أشهر، هنا -قالت، وأشارت نحو غرفة الطعام، حيث المائدة التي تتسع لثمانية

مدعوين، مغطاة بشرشفٍ وعليها ثلاثة أطقم من الصحون والكؤوس والمناديل-. وأظنّك تعرفين السبب...

- نعم، وأنا آسفة جداً - قالت آديلا.

- شكراً. لكنّنا لن نتطرق اليوم إلى أمور محزنة... -قالت المرأة وغيّرت في الحال مسار الحديث-. ذكرت لي أمّك أنك جئتِ لزيارتها، وأنك ستذهبين إلى فلوريدا للدراسة... أتدرين، أنا طفت كل أنحاء هذا البلد تقريباً لكنّي لم أذهب إلى فلوريدا؟ ولماذا اخترتِ الدراسة هناك؟

حاولت آديلا، وكانت تتمنى لو أنهنّ خضن في موضوع آخر، أن تبسط جوابها وتختصره: المنحة المغرية، واهتمامها بكوبا والدراسات المتعلقة بأمريكا اللاتينيّة، ورغبتها في التعرّف على عالم يبدو أكثر تعقيداً ممّا يوصف به عادة. عندها تدخلت لوريتا، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة.

- مس ميلر، ألا تدعيننا إلى كأسٍ من *التسيكوديا*؟

كانت السهرة وديّة والعشاءُ لذيذاً. واستمتعت آديلا، التي لم تشرب غير زجاجة من البيرة أو كأس من النبيذ، وهي تحسّ سعادة أثيليّة خفيفة أحدثتها رائحة العرق القويّة التي قالت مس ميلر إنّه يناسب الأطباق اليونانيّة. أثنت النسوة الثلاث على طبخ ميكيلا وتولدت لدى لوريتا قناعة، صرّحت بها لآديلا لاحقاً، بأنّ مس ميلر خرجت من الطرف الأشد ظلمة من النفق الذي ألقى بها فيه موت دان كارلسون، وعادت لتكون المرأة التي كانت دائماً: لطيفة محدّثة لبقة محبّة للحياة، مع ميل إلى التسلّط (آمرة، قالت بالإسبانيّة).

ظلّت آديلا تستغرب سلوكَ أمّها المهذّب، فقد لمست مبلغ الفائدة التي عاد بها عليها انتقالها إلى ذلك الركن القصيّ في الشمال الغربي الأمريكي، واستمتعت، خلال الأيام الثلاثة الأخرى التي أمضتها في ذي سي *بريز*، من صيف عام 2007، بأمتن علاقة مع أمّها وأكثرها استرخاءً. وتعاملت لوريتا، المنصرفة إلى مسؤولياتها، مع آديلا على أنّها جزء من فريقها، وأحسّت البنت بالارتياح لتلك المعاملة. لقد ارتدت ملابسَ عمل أمّها، وحشرت قدميها في جزمة تشبه جزمة العسكر، أتت لها بها مس ميلر، لتعمل، بتوجيه من لوريتا وريك، في إطعام الخيول وحمل الروث وفرش الإسطبلات بالحصى، بل

لقد تشرّفت بتحميم رينغو وتنظيف حوافره وتمشيط عرفه وذيله، صباح اليوم السابق لسفرها، بعد أن تجولت، وهي على ظهر الفرس الطيّعة *ماما كاس*، مع لوريتا، التي امتطت رينغو.

أثناء تلك الزيارة القصيرة، وبينما كانت لوريتا تنهي واجباتها، نزلت مس ميلر وآديلا، عصراً، إلى بوغاز خليج (مينتر) الذي يحدّ المزرعة من جهة الشمال. وقد وجدت الفتاة النيويوركيّة في صعود المدّ وانحساره، وتقافز سمك السلمون، وتحليق النسور الملكيّة، وانقضاض النوارس الصيّادة، اكتشافاتٍ حقيقيّة أثارت إعجابها وذهولها. أمّا مس ميلر فراحت تحكي للبنت شذراتٍ من سيرتها المضطربة حتى الخامسة والعشرين من عمرها، والتي تغيّرت على إثر وفاة حبيبها بوب، وتحوّلت إلى شخص آخر، بعد أن أقامت مملكتها الصغيرة في *ذي سي بريز*، بمساعدة زوجيها المرحومين. أمّا الصورة التي قدّمتها للبنت الشابة عن لوريتا، فكانت تختلف، في أوجه كثيرة، عن الصورة التي تعرفها البنت، وما زالت، عن أمّها.

– لوريتا لا تتكلّم كثيراً عن نفسها –قالت مس ميلر–. جاءت إلى هنا لأنّها أرادت أن تغيّر نمط حياتها، لكنّ ذلك هو الظاهر. بين نيويورك وعيادة بيطريّة، وبين خليج (مينتر) ومزرعة للخيول، مسافة لا يمكن للجغرافيا قياسها. ليس بسبب الجغرافيا فحسب، بل بسبب اتجاهات الحياة الممكنة. هناك يعيش الواحد قلقاً على المستقبل؛ أمّا هنا فلا يشغله غيرُ اليوم الذي هو فيه، وأحوال الطقس، حاضر مكرر، بل يبدو أبدياً أحياناً، مثل هذا البحر، مثل هذه الجبال، مثل هذه الغابات وإيقاعاتها... أعرف أيضاً أنّ أمّك تقول عن هذا المكان إنّه خير مكان سكنته، وهو كلام يسهل شرحه. أنا شعرتُ بالشيء نفسه قبل أربعين سنة وما زلت أشعر به حتّى الآن. لذلك فأنا حين أسافر، وقد سافرت كثيراً إلى أوروبا وآسيا (كان زوجي الأوّل يحب الجزر اليونانيّة ولذلك تجدين ميكيلا هنا منذ ثلاثين سنة)، لا ألبث ان أشعر بالرغبة في العودة، وبسرعة، لأنّ بي فضولاً للتعرّف على عوالم أخرى... أمّا أمّك فهي، حسب علمي، لا ترغب في ترك هذا المكان. فمنذ أن تعاقدت مع ريك وهي لا تخرج ولو إلى سياتل. لا تذهب إلّا إلى (تاكوما) أحياناً لحضور جلسات التأمّل... هل تعلمين؟ أظنّ أنّنا بتنا صديقتين حقيقيتين، ولولاها ما استطعتُ

أن أتجاوز محنة وفاة زوجي. لكنّ تلك الصداقة لا تمنحني الحقّ في سؤالها عمّا تبحث عنه هنا، وعمّا وجدته هنا، أكثر من تلك الأشياء الواضحة التي أخبرتك عنها. ولم أسألها، طبعاً، عن سبب مجيئها. فهذا شيء يخصّها، هو سرّها، وربّما كنزها... والأسرار تُكتم، والكنوز تدفن، وكلّما حسُن دفنها كان أفضل. إنّها لا تريد أن تغيّر أشياء في حياتها، بل تحتاج إلى تغيير تلك الأشياء. وأنا أعرف ما أقوله لك...

لمّا كان موعد إقلاع طائرة العودة إلى نيويورك هو التاسعة والنصف مساءً، فقد ودّعت آديلا، بالقبلات والعناق، مس ميلر والعاملين في المزرعة، المكسيكي أندريس والهندي واپو و*الكاوبوي* ريك –شخص ودود، بهيّ الطلعة، فيه شبه كبير بالممثل براد بيت–، بينما كانت لوريتا تضع حقيبتها في الشاحنة الصغيرة وتركل الإطارات لتتحقق من امتلائها بالهواء. خططت لوريتا أن تتناول العشاء مع ابنتها في أحد مطاعم (غيغ هاربر)، قبالة البحر، قبل أن تحملها إلى المطار.

جلستا إلى طاولة تطلّ على الخليج، واختارتا طبق البكلاء المشوي، وطلبت لوريتا كأساً من النبيذ الأبيض. وتكلمتا مرّة أخرى عن تماثل مس ميلر للشفاء، وحكت لها لوريتا عن أنّ صاحبة المزرعة اعترفت لها أنّها، وبعد سنوات طويلة، عادت إلى تدخين الماريجوانا ودعتها إلى أن تجرّبها، لكنّها لم تشأ ذلك: فهي لم تجرّب غير السجائر في شبابها وجرعة من الكحول، لأنها تخشاهما، وتعلم أنّ تلك البدايات البسيطة، التي ننظر إليها على أنّها لهو بريء، يمكن أن تقود إلى عواقب وخيمة. سألت آديلا أمّها إن كانت لها علاقة بـ*الكاوبوي* ريك، فابتسمت لوريتا وهزّت رأسها نافية، وأكّدت لها أنّها ما عادت مهتمّة بتلك الأمور. وبينما كانتا تنتظران الطبق الأخير، نظرت آديلا إلى ساعتها، لتتأكّد من أنّ أمامهما وقتاً كافياً، لكنّ تلك الحركة كانت كافية لتحريك ساكن.

– لا تقلقي، كوسي. ما زال أمامنا وقت... ستذهبين إلى نيويورك، لا تقلقي... ولن تلبثي أن تكتشفي أنّكِ تغامرين بمستقبلك.

– من فضلك، لوريتا. ما الداعي إلى هذا الكلام؟ سأدرس في جامعة

معتبرة كالأخريات وكفى -قالت آديلا، وهي غير راغبة في الانجرار إلى جدل عقيم، بعد ما استمتعت بقربها من أمّها وإقامتها في ذلك المكان الجميل-. لننهِ لقاءنا على خير، رجاءً...

- لطالما سألتُ نفسي... فلا أجد لسؤالي جواباً؟ ما الذي يدور في رأسك الجميل، كوسي حبيبتي؟ - واصلت لوريتا الكلام.

زفرت آديلا، في ما بدت جولة من توتّر ونقاش حاد. بل لقد بدا أنّ أجواء المزرعة الروحيّة ليس فيها من القوّة ما يكفي لتغيير طبع لوريتا.

- أنا أيضاً أريد أن أطرح عليكِ سؤالاً... ماذا يدور في رأس أمّ تترك ابنتها ذات الخمس عشرة سنة من دون أن تبلغ أحداً عن وجهتها ولا عن سبب قرارها؟ كم مرّة سألتِني عن أبي؟ هل تريدين أن تعرفي بم شعرتُ حيث رحلتِ؟... أنتِ، صديقة البيئة والديمقراطية والإنسانيّة...، أنتِ، يا من تكلمين الخيل وتقولين إنّ لها روحاً وعاطفة... دعكِ من الخيل وأجيبيني...، هل يهمّكِ أحد غير نفسك؟

- أنتِ تعلمين أنّكِ أغلى عليّ من كلّ شيء. فلا تقارني مصيبتي بمصيبتك، آديلا. أنا لا أستطيع الخروج من الحفرة والزحف إلّا بصعوبة. ولطالما جررتُ نفسي لأخرج من الحفر... أمّا أنتِ، ففي مقدورك أن تطالي السماء... ولكن ليس في ميامي المتخلفة التي تزخر بالكوبيين... ألم أحذرك وأقل لكِ إنّ من يسلك طريق الخراء لن يشمّ غير الخراء؟ ألا ترينَ أنّ رائحة الخيل تغطيني...

- ما الذي فعله لك الكوبيون لتري فيهم هذا الرأي؟ هل لك أن تخبريني بالذي عملوه لك؟

- قلتُ لكِ ألفَ مرّة... كوبا بلد ملعون، وعلينا، نحن الكوبيين، تظهر أسوأ مظاهر لعنته. نحن ناس نؤثر الكراهية والحسد على التقدّم بما نمتلك. ألا ترين أنّنا نرفع المثل القائل إنّ على الأعور أن يكون سعيداً ما دام جاره أعمى؟ بلد يفكّر، من أقصاه إلى أقصاه، بهذه الطريقة...

- لكنّي لا أرى ذلك، لوريتا.

- لأنّ الحظ حالفك ولم تولدي في كوبا ولم تعيشي هناك إلّا نصف

عمرك. لا أقصد البلد بأكمله، ولا كلّ واحد من ملايينه. لا. المشكلة أنّ المؤثرين والنافذين هناك هم الأكثر تطرفاً، هم الذين يصرخون ويرفعون الرايات والأعلام... هم السافلون الذين يتغذون على الكراهية والحسد. وهم كثيرون، صدقيني. وفي ميامي، يألف البعضُ هوانَ الحال والتخلّف. ولا شكّ أنّك ستتسممين في تلك البيئة المسمومة... هل تعلمين لماذا لدينا رئيس كالذي لدينا؟... السبب هم الكوبيون...

– هناك أشرارٌ في كلّ مكان، ومنافقون... وهناك أيضاً رجال عاديون، بل طيبون، أليس كذلك؟

– صحيح. وقد تعرّفتُ على بعض هؤلاء الطيبين وأحببتُهم وأحبّوني. بل لقد قام بعضهم من أجلي بأشياء بالغة... التعقيد.

– مع أفكارك هذه، صرتُ أفهمك أقلّ...

– ما ينقصك أن تفهميه هو أنّني كافحتُ طويلاً لأنقذك ممّا مررتُ به أنا. أنتِ لا تعلمين بالأشياء التي فعلتُها.

– فعلاً. لا أعلم... فما هي الأشياء الفظيعة التي مرّت بك؟ هل لما تقولين علاقة بالشيوعيّة؟

– يا ريت –ردّت لوريتا–. سيكون من الأسهل إلقاء اللوم في كلّ ما حدث على الشيوعيّة... لكنّي طالما قلتُ إنّ الشيوعيّة ليست السبب، بل هي النتيجة. النتيجة التي يمكن أن تضفي خطورة على بعض الأمور، ولأسباب عدّة، لكنّ الطبيعة البشريّة هي ذاتها، وفي أيّة منظومة، لأنّها أبديّة... شيء من الأشياء القليلة الأبديّة... أمّا ما هو موجود في أصل كلّ شيء فهو الغرور، أشدّ صور التعالي زيفاً، والقادر على فعل الشرّ الذي يتجاوز كلّ تعالٍ وكلّ تكبّر... إنّه مرض وطني.

– وهل تعرفين هذه الأشياء، أمّي، لأنّك كوبيّة؟ لأنّ هذه هي صفتك أيضاً؟ ولهذا خدعتِ أبي وسئمتِ منّي وأدرتِ ظهركِ؟ – قالت آديلا، وأحسّت من طريقة نظر أمّها إليها أنّها ربّما تجاوزت في كلامها، وإن كانت أمّها تستحقّ سماع ما سمعت.

أبعدت لوريتا طبق الحلوى الذي أمامها. فعليها أن تردّ على ما قالته

ابنتها. لديها العديد من الخيارات، لكنّها فكّرت في أشد الردود إيلاماً، وإن لم يكن ما تنتظره آديلا، الردّ الذي يحمل في طياته تفسيراً للكثير من الأشياء، والذي لن تصرّح لها به إلّا حين تقوم الساعة.

– آديلا فتزبيرغ –بدأت، وهي تتعمّد تحديد خطابها–، أنتِ لا تمتلكين أيّ حق في الحكم عليّ. أنتِ لا تعرفين شيئاً عن حياتي، حقاً. ولم تري غير قمّة جبل الجليد...

– أريني البقيّة، أوَلستِ أمّي؟ – قاطعتها آديلا.

– لو أنّي تفوّهتُ بنصف أو بربع ما قلتِه، لكان ابن القحبة والدي لطمني ولكانت السافلة أمّي صفّقت لي، بعد أن أنشد الاثنان النشيد الوطني أو طقطوقة *لاغوانتاناميرا*... كم أكره *لا غوانتاناميرا[6]*!... لا، لن أصرّح بالمزيد... أنتِ محظوظة، وكلّ ما أريده منك هو ألا تسيئي استغلال ذلك. وهل تدرين لماذا؟ لأنّي أحبّك، آديلا. ربّما لم أكن الأم التي تمنيتِها، لكنّي أحبّك، ومن أجلك فعلتُ الكثير، بل أقدمتُ على فعل أمور فظيعة.

– لا أريدكِ أن تعرضي عليّ حساباتك، رجاءً! أنا لا أطيق ذلك!... ولا تشرحي لي أنّنا أفضل من البقيّة! فما نحن إلّا قذارة وخراء! – صرخت آديلا، ونهضت. التفت عدد من رواد المطعم نحو المرأتين متسائلين عمّا قالتاه وبأيّة لغة قالتاه؟

ظلّت لوريتا جالسة، ولم ترفع نظرها لتتابع آديلا وهي تخرج. أغمضت عينيها لحظة ثمّ قرّبت صحن الحلوى منها، ولوّحت، بعد الملعقة الثانية، طالبة أن يحضروا لها الحساب. عادت إلى طبقها وهي تسأل نفسها عمّا جعلها تتكلّم... ولماذا لم تضع لزيارة ابنتها نهاية سعيدة بعد أن أفلحت في التقرب منها؟ هل صحيح مبدأ بوذا القائل بأن لا شيء يمنحك رضاً كاملاً؟ أمّا هي فما كانت ترى ذلك الرأي، بل كانت تتقدّم دائماً وتتصرّف كما العقرب حين تقتل نفسها بغرز إبرتها في بدنها: كائن بشري يدينه طبعه الأصيل فيه. فهي، في النهاية، ومهما هربت من الجميع، ومن نفسها، ومهما أنكرت وارتدّت وتراجعت، فلن تخرج من جلد إليسا كورّيا، تلك الكوبيّة التي كانت، وستظل، مهما فعلت ومهما بذلت من جهد. مثل كارما، مثل اللعنة التي تعزوها، ساعة تصنّف الذنوب وتوزّعها، إلى أصلها الوطنيّ أيضاً.

بعد عشر دقائق خرجت من المطعم. بحثت عن ابنتها في ضياء الصيف الشمالي المديد، لكنّها لم تر آديلا. عندها أدركت لوريتا ما حدث. اقتربت من شاحنتها الصغيرة فلم تجد حقيبة آديلا. لقد انصرفت البنت، أمّا كيف وبأيّة واسطة، فعلم ذلك عند الربّ. ما يهم هو أنّ آديلا هي ابنتها. قالت لنفسها. وهنا رنّ الهاتف معلناً عن وصول رسالة. قرأت: «ما أكثر ما تكلّف محبّتك، لوريتا فتزبيرغ!».

أصرّت مس ميلر على أنّ الاحتفال بالخمسين الأولى من حياة لوريتا، في 20 نيسان 2009، حدثٌ مهم. أمّا لوريتا فلم تكن ترى لبلوغها ذلك الرقم المخيف من معنى غير أنّه توثيق لدخولها الشوط الأخير من حياتها، وإشارة إلى أنّها، وعلى الرغم من كلّ شيء، أنفقت تلك السنوات على أفضل نحو ممكن. أمّا الظرف الذي أجبرها على الانتقال إلى *ذي سي بريز فارم* والعثور هناك على مكانها في العالم فقد كان هدية غير منتظرة تحاول الاستمتاع بها كلّ يومٍ وكلّ ساعة، كما يدعو بوذا.

قبل موعد المناسبة بأسبوعين، حلّت آديلا ضيفة على لوريتا. لقد انتهزت الفتاة نهاية أسبوع طويلة، ضمن إجازة الأسبوع المقدّس، لتسافر إلى (تاكوما)، للمرة الأولى بعد النقاش المرير الذي مرّ عليه عامان، والذي تواصل على خطوط الهاتف، نزولاً وصعوداً، عدّة أشهر، إلى أن قرّرت لوريتا التظاهر بقبول الهزيمة. ومع أنّ الاثنتين كانتا تعلمان أنّ في علاقتهما الكثير من النقاط المعلّقة، فقد مضت الأيام الأربعة من الزيارة على خير ولم تتطرق الأم ولا ابنتها إلى خلافاتهما، بل تصرفتا تصرّفاً طبيعياً ودوداً، كما تمنتا، أحياناً، أن تكون العلاقة بينهما دائمة.

ولكي تبرهن لوريتا على صدق نواياها، فقد سمحت لآديلا بركوب رينغو في نزهته اليوميّة. صحيح أنّ الكليفيلاند باي الرائع يسير نحو سنته العشرين، لكنّه ما زال يحتفظ بفحولته، ويدرّ من سائله دوريّاً ما يبيعونه بسعر جيد أو يخزنونه في مصرف المني في (تاكوما)، ليؤمن، في موسم الربيع، الحملَ لجزءٍ من أفراس المزرعة، بينما يتكفّل خليفته الفتيّ كور بتلقيح بعض الإناث. اعتادوا، في موسم التزاوج، أن ينقلوا الإناث إلى مزرعة مجاورة لكي لا يشمّ الفحولُ رائحة الطمث التي تقلقها. ثمّ يُحمل رينغو

وكور في اليوم المعلوم إلى حظيرة تلبّي متطلبات التزاوج وظروفه. مع ذلك فقد بدا رينغو، ذلك اليوم، هادئاً؛ وبدت نظرته أعمق وأشدّ سوداويّة، وقد تناثرت على عرفه الأسود حشائشُ بيض؛ فبدا كأنّه وتوأم روحه متوافقان حتّى في ما جدّ على مظهرهما من جديد.

ودّعت لوريتا ابنتها في مطار (سياتل - تاكوما) وهي تشعر براحة كبيرة ورضا عميق إذ تمكنت من أن تتحكّم بأعصابها حين حكت لها آديلا عن دراستها في الجامعة وخططها في التعمق في حقلها وطموحها لعمل الماستر، وحتّى الدكتوراه، في جنوب فلوريدا. مضى وقت طويل على استبعادها فكرة التخصص بالقانون والحقوق (كما كانت أمّها تتمنّى)، فهي تميل إلى دراسات أمريكا اللاتينيّة وترغب في التخصص بالثقافة الكوبية التي تعشقها. كانت لوريتا تشعر بأنّ ابنتها تستفزّها حين تلحّ في الضرب على ذلك الوتر الحسّاس، لكنّها قاومت وكظمت، حتّى عندما اعترفت لها آديلا بأنّها تعرّفت على كولومبي، وأنّها الآن متعلقة بآخر كوبيّ. يا للكارثة، آديلا فتزبيرغ!، قالت في سرّها، لكنّها أمسكت وسكتت. بل لم تنفجر حتّى حين قالت لها آديلا إنّها تنوي القيام برحلة علمية إلى كوبا! أتراها تشيخ وتبرد مثل حصانها؟، سألت نفسها. أم إنّ تحكمها في نفسها هو نتيجة تعمقها وارتقائها في مراتب المعرفة البوذيّة وتأثيرات مرشد طريقها الجديد ومعلمها المستنير شاك؟

تعلمُ البيطريّة جيداً أنّ السنوات الأخيرة التي عاشتها في المزرعة أحدثت تغييراتٍ كبيرة في طبعها ونظرتها إلى العالم، وإن لم ترَ فيها تغييراتٍ خطيرة. قبل عشرين سنة، كانت إليسا كورّيا تجتاز أحلكَ لحظات حياتها، إذ كانت تنوء بحملٍ على ظهرها وحملٍ في بطنها، لكنّها انطلقت في مغامرة غير محسوبة. ولو أنّ شخصاً قال لها، يومها، إنّ الجنّة موجودة وإنّها في طريقها إلى اكتشافها، لمَا صدقته. ولو أنّ ذلك الشخص تجرأ أكثر وأكّد لها، وقد تحوّلت إلى امرأة تدعى لوريتا فتزبيرغ، أنّها ستجد نفسها في مزرعة للخيول تقع في *نهاية اللامكان*، محاطة بجبالٍ مكلّلة بالثلج، وبحارٍ متجمدة وغاباتٍ كثيفة، تكلّم فيها حصاناً أكثر ممّا تكلّم أشخاصاً، لبصقت في وجهه ونعتته بالنصّاب، أو لصلبته ووصفته بالنبيّ الدجّال.

في تلك السنوات الثلاث، تأكّد للوريتا أنّ العثور على الطيبة صعب، لكنّه ليس مستحيلاً، وتأكّد لها أيضاً أنّها كانت محظوظة إذ صادفت الطيبة مرّاتٍ عدّة، ولها في توافقها الروحي مع مس ميلر ما يثبت ذلك، ولذلك كانت تشعر بامتنان كبير نحو تلك المرأة، شبيه بالامتنان الذي ما زالت تشعر به نحو بعض الأشخاص الذين التقتهم في ماضيها الكوبي، الذي أغلقت عليه بإحكام وطمرته.

على أنّ أكثر ما كان يرضي لوريتا شعورُها بأنّها، في ذلك المكان، ومع مرور الوقت، تتحرر من شياطينها. بل لقد صارت، من بُعدها عنهم، أنّها تنسى، أحياناً، ولأيّام، حياتها السابقة، وتشعر بأنّها قويّة مطلقة السراح. صار في مقدورها ألّا تفكّر في ماضيها، ألّا يطنّ في أذنها اسم كوبا، أو فكرة كوبا، أو حياتها في كوبا، ألّا تشعر بأيّ شيء يربطها إلى الماضي، عدا ابنتها. أمّا عن الحاضر، فقد بدأت تركّز على ما هو داخل مزرعة الخيل، وهو مكسبها الحقيقي وربحها، والمعجزة المنقذة. شعور من الرضا تدين به إلى حصانٍ ترعاه، وتعاليمَ تلقتها من بوذا، وامرأةٍ كريمة، فريدة من نوعها، وفي إنسانيتها، تدعوها إلى العشاء في مطعم إيطالي، هو الأفخر في (تاكوما)، حسب قولها، لتحيي ذكرى ميلادها الخمسين.

ولكي تأخذ راحتها في الشرب، قرّرت صاحبة المزرعة الذهاب بالتكسي. كان الطعام، الذي أعدّه طبّاخ إيطالي من نابولي، أكثر من لذيذ، فنبيذ *الپينو نوار*، المصنوع في كاليفورنيا، ممتاز، والشمبانيا الفرنسيّة أصليّة. وجرى الحديث مسترسلاً وذكيّاً بين لوريتا ومس ميلر، التي ارتدت فستاناً أسود بسيطاً، لا يجاري الموضة ولا يبتعد عن الأناقة، وتدلّت من فوقه حلية السلام والحب، مربوطة بشريط جديد. فقد اجترّت المرأة الستينيّة ذكرياتها عن بلوغها الخمسين، حين كانت ما تزال تمتلك قوّة تصارع بها العالم. لكنّ موت دان كارلسون، اعترفت، كان ضربة قاصمة. أمّا لوريتا، فقد عبّرت لها عن مبلغ سعادتها بالعيش في ذي سي بريز، ووصفت لها كيف أنّ العالم ينحصرُ، أحياناً، في مزرعة، فلا ينقصك شيء ولا تشكين فيه من شيء.

وصارت المرأتان، بفعل ما شربتا من النبيذ والشمبانيا، وكأسي الغراپا، اللتين وضعتا نقطة النهاية للعشاء، ميالتين للثرثرة، وباتتا أكثر انطلاقاً

وتحرراً. سارتا حتى حدائق متحف التماثيل الزجاجيّة، حيث دختنا سجائر كانت مس ميلر طلبتها من النادل الإيطالي بعد أن أغدقت عليه.

حين أشرف الليل على الانتصاف، ركبت الاثنتان سيارة التكسي التي أعادتهما إلى (مينتر). كان الطقس بارداً فطلبت مس ميلر من السائق أن يشعل التدفئة. ووجدت مس ميلر ولوريتا في شوارع المدينة الخالية وسمائها الماطرة، وفي عرض الأضوية وأسلاك جسر (ناروز) المعلّقة، وفي ظلال الغابات القريبة المعتمة، التي يقطعها نور ينبعث من بيت قريب من ضفة مضيق (پوغيت)، ما أغرقهما في صمت تأمّلي. وبينما كانت السيارة تطوف بهما شبه الجزيرة الأولمبيّة باتجاه (غيغ هاربر)، أحسّت لوريتا بيد دافئة تربت على ساقها، في منتصف المسافة بين ركبتها وفخذها. ربّما أقرب إلى الإعلى منها إلى الأسفل... لم تضطرب لوريتا، بل لم تلتفت، لكنّ جيشاً من الأحاسيس تحشّد في داخلها وراح ينتظر متربصاً.

لا تتذكر لوريتا إن كانت فكّرت، وفي ماذا فكّرت، وكم فكّرت (هل كانت تتمنّى تلك اليد وما سيأتي بعدها؟ هل كانت تنتظرها؟ هل كانت تحتاجها؟). في تلك اللحظة أحسّت بحرارة يد مس ميلر وقد أصبحت قبساً من نار، وأحسّت، وبصرها شاخص في نافذة السيارة، وهي تضع يدها فوق يد رفيقتها ثمّ تتحرك بها نحو مركز الجاذبيّة، الذي كان، حتى دقائق قليلة، هامداً خامداً. شعرت بمداعبة خفيفة لطيفة، وبرعشة تسري في بدنها، ثمّ برطوبة سريعة غامرة. عندها فقط أدارت المرأة الخمسينيّة رأسها، وغابت، هي وتلك الستينيّة، الجالسة معها في المقعد الخلفي من التكسي، في قبلة ساخنة انتقل فيها الرضابُ الممزوج بطعم الشراب في الاتجاهين، فشعرتا بالحيويّة، وأوشكتا على بلوغ حالة النشوة والرضا. أمّا الكلام والتفسيرات فتركتاه إلى وقت لاحق.

ومع أنّ مس ميلر -باتت لوريتا تناديها *ماغ*- عرضت عليها أن تنتقل للسكن في البيت الكبير، حيث تبيت في الكثير من الليالي، فقد فضّلت لوريتا أن تظلّ في مكانها. أبقت المرأتان، في الأسابيع الأولى، على العلاقة بينهما سراً، لكنّ العاملين سرعان ما لاحظوا ما يحدث بين المالكة والمدربّة، واستغربوا، وحق لهم أن يستغربوا.

طالما سألت لوريتا نفسها، في الأيام الأولى من التستّر والتخفّي تلك. فإحساسها بالقرب من مس ميلر واستمتاعها بجوارها وأحاديثها وذكائها، منذ وصولها إلى المزرعة، لا يعني بالضرورة انجذاباً من نوع آخر. في لحظة مّا من تلك الدردشات الكثيرة، تتذكر لوريتا أنّ مس ميلر حكت لها عن عجزها عن فهم علاقة المرأة بامرأة مثلها: فالإنسان الذكر، في نظرها، متممٌ ضروري، ليس بالمعنى الجنسيّ فحسب (فهمت منها أنّ دان كارلسون لم يؤدّ، في أواخر حياته، وظائفه الزوجية إلّا قليلاً)، بل بمعنى التعارض والتقابل والانقياد الأنثويّ النسبيّ الذي لطالما أشعرها بالرضا، على الرغم من صورة المرأة القويّة الواثقة التي تظهر بها.

أمّا لوريتا، فقد تذكّرت ما حدث لها قبل عشرين سنة مع صديقتها كلارا، تلك الواقعة التي لفّها ضباب ذاكرتها، كما حدث لكلّ ماضيها تقريباً. تذكرت كيف أنّها اقتنعت في النهاية بأنّ في جسمها وفي فكرها ميلاً مثليّاً ظاهراً قاهراً، لكنّه لم يقلّل من قدرتها على إرضاء الرجال، ولم يؤثر على حصّتها من المكافئ المعوّض الذي تناله منهم، في الجانب العضوي، على الأقل. فهل كانت شاذّة أم لم تكن؟

سلسلة طويلة من الحوادث، التي وصفتها بالمعقدة والغامضة، والتي وقعت منذ مزّقت، هي وكلارا، ستارة السيلوفان التي أطلتا منها على حميميّة

معقدة، هي ما حال دون تطوّر العلاقة التي كانت تلوح في الأفق. علاقة لطالما تمنتها، وهي تقرّ بذلك، بل وسعت إلى أن تكون كلارا هي البادئة فيها، كما حدث مع مس ميلر. الفارق الوحيد فيها هو أنّ العنصر المهيمن في روحها، الرجوليّ ربّما، على الرغم من إحساسها الأنثوي، لم يجد الوقت الكافي للنمو في حالة كلارا، بينما وجده في حالة مس ميلر.

- المشكلة أنّنا ثنائيتا الجنس، عزيزتي. -ضحكت مس ميلر حين سمعت شكوك صاحبتها-. ويعجبني أن تكوني أنتِ العنصر ألفا في هذا الذي فينا داخل الفراش وخارجه. فهل هو جنس ولذة فقط؟ صحبة وتكامل؟ أم إنّه... حبّ؟

جرت لعبة الجنس بين المرأتين في البداية باندفاع وتعطش قريبين من اندفاع الشباب وتعطّشهم. لكنّها راحت مع الشهور تستقرّ في حالة علاقة مُرضية تقوم على التكامل والتحرر من أيّ قيد. أم إنّ مس ميلر محقّة في ما ترى، وأنّ القضيّة تتجاوز الجنس إلى الحب؟ في خلوتهما، تتعرى المرأتان وتستلقيان على الفراش الإنكليزي الفاخر الواسع في مخدع مس ميلر، فتشعران بالمتعة والانتعاش. تتشاركان الماريجوانا (في الخمسين من عمرها، استطاعت وريتا أخيراً أن تجتاز حاجزاً طالما تردّدت في اجتيازه، بسبب الخوف أو بسبب تجارب سيئة)، تتفرجان على أفلام إباحية، تجربان هذه الحيلة أو تلك: تحشران أعضاء ذكريّة مطاطيّة، وتدهنان بالزبدة أو بزيت الزيتون اليوناني، أو تتبادلان الطلاء بالمربيات ثمّ اللطع. وتعترفان بأنّهما لم تبلغا يوماً لذة كتلك التي تبلغانها، ولم تجربا يوماً وسائل كتلك التي تجربانها، وتقرّان بأنّ الرجال الذين تعرفتا عليهم كانوا رجالاً وأقوياء وجسيمين، لكنّهم صفرٌ من الخيال والإبداع. كانوا فحولاً فحسب.

حتّى لو أعجبكِ رجالٌ قليلون، فلا يمكن أن تكون ميولك الجنسية مزدوجة بهذا القدر -يبدو أنّ مس ميلر عدّلت في ظرف أسابيع قليلة رأيها وأعادت حساباتها-: 70% من المغايرة و30% من الازدواجيّة؟

لم تبرح لوريتا كوخها تماماً، بل حوّلته إلى مكتبٍ لها ومكانٍ تلوذ به

أيّامَ تجبرها اضطرابات كارمتها على الاعتكاف، على الرغم من مشاعرها، إن كان ما تشعر به حبّاً. لكنّ لوريتا ظلّت تتناول وجبة الغداء مع عمّال المزرعة، وإن كانت تتعشّى دائماً مع مس ميلر، لتستريحا، بعد العشاء، في الصالة، لتناول كأس من *التسيكوديا*، والتفرّج، مثل أيّ زوجين مستقرين، على الأفلام والمسلسلات المفضّلة لديهما: *ذي واير* أو *الانحراف* أو *فارغو*، ذلك المسخ الذي صنعه الأخوان كوين. لكنّ المرأتين اعتادتا، قبل العشاء أو بعده، وقبل التفرّج على ما يقدمه التلفزيون أو بعده، أن تتكلما عن الحاضر، وقلّما تكلمتا عن الماضي، أمّا المستقبل فهو عندهما مستقبل المزرعة فحسب. أكثر من كانت تتكلّم عن الماضي مس ميلر، المغرمة باستحضار قصصها البطولية عن الثائرة المعادية للثقافة التي أصبحت صاحبة مزرعة وربّة عمل في واحدة من خبطات القدر وضربات الحظ (إنّها كارمتك، تصحح لها لوريتا). ولطالما أعربت عن رضاها عن حياتها السابقة وسعادتها بحياتها الحاضرة، المؤسسة على علاقتها مع لوريتا وعلى نموّ تجارتها في تربية الخيول الأصيلة.

أما صاحبتُها فكانت أقلّ ثرثرة، فما كانت تتكلّم إلّا عن ابنتها آديلا. لقد طلبتْ لوريتا من مس ميلر، منذ البداية، أن تُبقي على الفتاة بعيدة عن علاقتهما، ليس لأنّها تخجل منها أو تعدّها شيئاً غير مناسب، بل لأنّ علاقتها بآديلا علاقة شائكة، وهي لا تريد أن تزوّد البنت بحجج إضافية ضدّها. ما كان يقلق لوريتا ويزعجها ميول ابنتها إلى العوالم الكوبيّة التي انحدرت هي منها والتي طالما جاهدت لإبقائها بعيدة عنها.

– لكنّي كلّما سعيتُ إلى حمايتها وإبعادها عن تلك الأجواء، أصرّت هي على التقرّب منها والعيش فيها – قالت ذات ليلة شتوية معتمة وباردة، بعد أشهر من بدء علاقتها الحميمة تلك.

– لماذا تقولين «حمايتها»؟ –سألتها مس ميلر–. فكأنّك تحمينها من مرض.

– هو مرض، فعلاً. لأنّه عالم موبوء، ماغ، وأنا لا أريد أن تصيبها عدواه. في البداية، لم أكن أعرف ما العمل، لكنّي الآن أعرف أنّي أطبّق إحدى تعاليم بوذا: أنا أريد أن أحميها من المعاناة.

– ومعاناة أيضاً؟... لم تحكي لي قط عن ماضيك، الذي يبدو مؤلماً. ماذا فعلتْ لك كوبا؟

– حكيتُ لكِ كثيراً –ردّت عليها لوريتا–. لقد خرجت من كوبا وأنا حامل، نزلتُ في بوسطن مع صديقة إنكليزيّة وهناك تعرّفتُ على برونو. ثمّ غيّرت شخصيتي... وغيّرتُ كلّ شيء.

– وقبل ذلك؟... هل هربتِ لأنّكِ حملتِ من مخبرٍ أو من حارس أمن كوبي؟ هل هربتِ منه؟ هل صحيح أنّ مصلحة التجسس الكوبية هي واحدة من الأحسن في العالم؟

لم تشأ لوريتا أن تكذب على المرأة التي احتضنتها ووفرت لها السكن وأوكلت إليها رعاية رينغو ثم أعادت إليها فرحة الإحساس بالحياة بعد أن فقدته منذ سنوات كثيرة. لكنّها لم تكن راغبة في قول الحقيقة كاملة، في الوقت الحاضر، على الأقل. لذلك اكتفت بأن أطلعت صاحبتها على ما يعرفه برونو فتزبيرغ عن حياتها، وإن فصّلت فيها قليلاً وقلّلت من التحريف والبتر الذي أدخلته على روايتها عن الأحداث التي سرّبتها لابنتها. لكنّ مس ميلر كان لديها من الفطنة ما يكفي لكي تتبيّن مواطن القطع والبتر والنقص، حتّى حانت، ذات ليلة، لحظة كانت المرأتان فيها تستلقيان عاريتين على الفراش، حين شعرت لوريتا بأنّها مرغمة على أن تسرّب معلومة أخرى عن ماضيها، معلومة طبعت حياتها والمسارات التي حملتها حتّى ذلك السرير.

– سأحكي لك شيئاً لا يعرفه أحد، لا آديلا ولا برونو... أمّا أصدقائي القدامى فلم يطلعوا بالكاد عليه... سأحكيه لك اليوم مرة واحدة، ولن أكرر حكايته لأنّ مجرّد التفكير فيه يؤلمني ويؤذيني...

– ليس عليك، عزيزتي، أن تحكي لي شيئاً – علّقت مس ميلر.

– أفضّلُ أن تعلمي به. يجب أن تعلمي به...

– أرجوكِ...

– لا تخافي، ليس في الأمر ما يخيف... قليلاً فحسب... حين ينهار عالم، فهناك احتمالان: إعادة بنائه أو التخلّي عنه وبناء آخر جديد محلّه،

إن كان ذلك ممكناً. وكان هذا ما فعلته، أو ما حاولت أن أفعله. وكان لي في الخوف والألم والقرف ما دفعني إليه - بدأت لوريتا، وما كانت قادرة على التوقف. وكشفت لصاحبتها عن أنّها ليست لوريتا فتزبيرغ، ولا آغيرّي بوديس، بل إليسا، إليسا كورّيا، وأنّ والد آديلا لم يكن جاسوساً ولا مخبراً ولا شيئاً من هذا، بل هو واحدٌ من الأصدقاء، لا يهم ذكر اسمه، لكنّه كان صديقاً لها ولمن كان، آنذاك، زوجها الذي تبيّن أنّه كان غير قادر على الإنجاب. أمّا الحمل، فلم تكن تنتظره، بل وقع في ما يشبه المعجزة، وكان هو ما عقد الأمور. إذ لم تشأ أن تتخلّص منه، لأنّ هاجساً ما أشعرها بأنّه قد يكون فرصتها الوحيدة لتكون أمّاً في حياتها. ولأنّها كانت تشعر، يوماً بعد يوم، بانجذابٍ أقوى نحو كلارا، صديقتها المقربة منذ سنّ المراهقة. ثمّ إنّ ذاك الحمل لم يقوِّها، كما يحدث مع جميع النساء، بل لقد أشعرها بضعف لم تشعر به في حياتها...

لكنّ المأساة كانت تحمل في طياتها تفاصيلَ وتفرعاتٍ. فقبل أن يضع حملها بصمته المأساوية على حياتها، كانت لوريتا قد اكتشفت أنّ صديقاً آخر، قريباً ممّا كان أولئك الأصدقاء يدعونه الأخويّة، كان على علاقة غريبة مع والدها، روبرتو كورّيا. فوالتر رسّام بوهيمي صعلوك، إنسان فاشل، بينما كان أبوها، الدبلوماسي السابق، ثم مدير شركة مهمة طوال سنوات، رجلاً متنفذاً في الدولة. لقد أخطأت حين فكّرت، في لحظة ما، في والتر حين احتاج أبوها إلى من ينصحه بشأن لوحة رسمها فنّان كوبيّ متوفى، بدأت لوحاته تروج وأسعارها ترتفع، وكان والتر خبيراً بأعمال ذلك الفنّان.

كان من نتائج ذلك التقارب أن وجدت إليسا، ابنة روبرتو كوريّا، نفسها، وبقرار منها، بريء في لحظته، متورطة في شبكة للمتاجرة بالمخدرات وتهريب الأعمال الفنيّة، وواقعة تحت مراقبة حقيقيّة ومفترضة، ومتعرضة للابتزاز، بل والتهديد بالقتل. إنّها لتظنّ ظنّاً أنّ ترابط الأحداث وتشابك العلاقات الغامضة تلك هو ما حمل والتر على الانتحار، بل وما حمل أباها أيضاً على الانتحار، بعد وقت قصير، حين كانت هي قد خرجت من كوبا بجواز سفر عليه اسمٌ غير اسمها وفيزا بريطانيّة سارية المفعول. ومنذ ذلك الحين، لم يعرف أيّ من أصدقائها أو أقربائها شيئاً عنها. ولم يعرف أيّ منهم

من تكون آديلا ولا كيف هي. بل لم يعرف والد آديلا الحقيقي أنّه والدها. فقد قتلت لوريتا فتزبيرغ إليسا كورّيا ونثرت رمادَها في الريح.

– *غبار في الريح* –قالت، وهي تذكر برناردو–. من وقتها شعرتُ بأن عليّ أن أعيش في جلد إنسانة أخرى، وأن أخفي صفتي السابقة، وأن أجعل من آديلا ابنة لوريتا فتزبيرغ. ولكِ أن تتصوّري التوتر الذي أحدثه ذلك القرار. بتُّ في إنذارٍ دائم، وكيف لي أن أنسى أنّني شخص جديد، بماض أعيدت صياغته! لم أفكّر في التراجع. ولم أقم بأيّة مراجعة. كان لا بدّ من قطيعة نهائية مع الماضي...

– مسكينة...! –قالت مس ميلر همساً–. وهل كان عليك أن تفعلي ذلك؟

– في تلك اللحظة شعرتُ بأنّ عليّ أن أفعل ذلك. أمّا الآن، فلا أدري... وأظنّ أنّني سأفعله ثانية. كنتُ خائفة... هل ترين أنّي بالغتُ؟

– أرى أنّك دفعتِ ثمناً باهظاً...

– أو ربّما الثمن المناسب، لأنّ المقابل كان خروجي من مستنقع سقطتُ فيه أو رموا بي إليه... هل فهمتِ الآن لماذا تكتّمتُ على تلك القصّة التي تنبعث منها رائحة العفن والفساد؟ لماذا أتيتُ إلى هنا، حيث الأمانُ والاطمئنانُ، وحيث لا يمكن لأحدٍ أن يعثر عليّ، ولو بالصدفة، كما حدث لي قبل سنوات في مدريد؟

– أفهمك... –قالت الثانية، وانجرّت إلى دافع جارف، ضعفٍ غير معهودٍ فيها–. أفهم ما تقولين، فهناك أمور تفضّل الواحدة منّا نسيانها، أو تتناساها وتهرب منها. إنّه السبب نفسه الذي يجعلني أسكت عن أن بوب ميلر وافق، في النهاية، على الذهاب إلى فيتنام. نعم. أراد أن ينخرط في الجيش. كان يقول إنّه ليس من حقي أن أبعده عمّا يخوض فيه سواه من الرجال، ومنهم أصدقاؤه، ومنهم أخوه الفريد، الذي كان مثله الأعلى... كنتُ أنا من أجبرته تقريباً على ألا يذهب إلى الجيش، وعلى أن يسافر، بدلاً من ذلك، إلى كندا. كنتُ أريد حمايته، كما قلتِ أنتِ عن ابنتك... ثمّ... وبينما كان ينتظرني في فانكوفر، قتل شرّ قتلة وأغربها. ربّما ما كان سيقتل لو أنّه ذهب إلى فيتنام

وخاض الحرب... وشعرتُ بالذنب، وكان عليّ أن أعيش وأنا أنوءُ بذنب موت بوب...

بعد اعترافات تلك الليلة، اكتشفت المرأتان، وهما تتطلعان إلى بشرتهما، التي ما عادت صافية ولا مشدودة، أنّهما عاريتان عاطفياً، في خارجهما وفي داخلهما؛ أنّ لا أحد في العالم يعرف ماضيهما: لا ما كانتا ولا كيف كانتا؟ مخلوقتان أجبرهما العنفُ والخوفُ والقراراتُ الحاسمة اليائسة على تغيير حياتهما. لقد اعترفت لوريتا فيتزبيرغ ومارغريت ميلر بأنّهما هاربتان من ذنوبٍ اقترفتاها، وإن كانتا ما تزالان تنوءان بحملها.

ولكي تتسلّيا بما يناسب أحمال الضمير الباهظة تلك، فقد عادتا إلى شأنهما، وقرّرتا ألّا توردا، لا تلك الليلة ولا في أيّ وقت، ذكراً لماضٍ لا يستحقّ إلّا النسيان والدفن، ماضٍ مات وانقضى، كما مات والتر ماثيّاس وروبرتو كورّيا وبوب ميلر. ماضٍ طهّرته لوريتا فتزبيرغ من أحلك فصوله. ندبة لا تكشف إليسا كورّيا إلّا عن طرفٍ منها.

من بين مبادئ بوذا الكثيرة، كان المبدأ الأساس القائل إنّ فعلَ الخير في هذا العالم يؤدي إلى مثله، أكثر ما يؤثر في لوريتا. الشيء نفسه يقال، بالطبع، عن فعل الشر والأنانيّة والكراهية. فكلّ ما نفعله من خير أو شرّ نلقى مثله، نافعاً كان أم ضارّاً. ينتظره الواحد منّا أو لا يتصوّر وقوعه، لكنّه، في الحالتين، من صنع يده، أكان بوعي أم بلا وعي. الكثيرون يسمّون هذه السلسلة من الأسباب والنتائج حظاً، أو قدراً. لكنّنا نستطيع أن ندعوه *كارما*: أي السبب الذي يؤدي إلى عددٍ من النتائج التي، إن تتبعناها، لوجدناها، بصورة من الصور، منطقية ومتوقعة. باتت لوريتا، بفضل تلك التعاليم، تعرف جيداً أنّ المظلم يقود إلى مظلم، وأنّ المُشرق يولّدُ مشرقاً؛ وأن ما ليس بمظلم ولا مشرق لن يستطيع أن يقدم هذا ولا ذاك. هكذا هي الحياة، بسيطة ومعقدة، في آن معاً. لذلك فإنّ الغموض الذي يكتنف حياتها وطابع السريّة الذي يلفّها -وهي تعلم ذلك وتخشاه- سيقودانها، حتماً، إلى حالة من العتمة والغموض، على الرغم من الراحة التي باتت تحظى بها. فهل جاءها ذلك كلّه من صلتها برسّام لم ترَ فيه يوماً صديقاً حقيقياً، وبأبيها، تلك الشخصية الغامضة المقيمة في العتمة؟

وكما حدث لجيلها بأكمله، وهو جيلٌ نشأ على إلحادٍ رسمي صارم، فقد عاشت لوريتا السنوات الثلاثين الأولى من حياتها بعيدة عن أيّ توجّه روحاني، بعد أن اعتنقت وآمنت بالفكر القائل بأنّ الماديّة التاريخيّة الجدليّة هي المعيار العلمي الوحيد الصالح لتفسير الكون والمجتمع والتاريخ، بل لتفسير سلوك كلّ واحد من كائنات الأرض. وأنّ الأساس الاقتصادي هو ما يحدد البنية الفوقيّة؛ وأنّ صراع الطبقات هو ما يحرّك التاريخ؛ وأنّ الدين هو أفيون الشعوب، وسواها من الحقائق التي اتخذت صيغة القواعد والأوامر التي لا تقبل جدالاً ولا نقاشاً...

كانت، وهي المتحررة دائماً في أفكارها وخياراتها، واحدة من الفتيات الراديكاليّات المتطرفات في نقد الدين وانتقاده في الحلقات الدراسيّة التي نُظّمت إثر الكشف عن أنّ إحدى زميلات الدراسة، وكانت تشكو من مرض ما، ذهبت إلى جلسة «القدّيس» لتلقّي علاج بالطقوس والأدعية. تشانغو؟ أم يمايا؟ أم إليغوا؟ لا فرق. فما هذه الطقوس إلّا طقوس رجعية أفريقيّة جاء بها إلى كوبا السود الفقراء الذين استرقّهم الأغنياء الرأسماليون في الماضي. وأيّ عاقل يصدّق أنّ لهؤلاء القديسين البدائيين الروحانيين قدرة على أن يهبوا العافية لأحد، أو أن يحلّوا له مشكلة عائليّة أو مسألة قانونيّة، أو أن يكلأوه بحمايتهم ورعايتهم؟ لا شكّ أنّ تلك الزميلة، على الرغم من علاماتها الدراسية الممتازة وحسن سيرتها الاجتماعية، تعاني هشاشة في أيديولوجيّتها الفكريّة ورضوضاً في عقيدتها السياسيّة، وهي، لذلك، ليست جديرة بأن تكون طالبة قدوة. وكان من نتيجة مداخلة إليسا أنّ تلك الطالبة لم تحظَ بذلك التكريم. وروت مرّة عن أنّ شاباً رساماً طرد من المدرسة التي كان يعملُ فيها والتر، لأنّه كان يمارس اليوغا والتأمّل. أمّا الحجّة التي ساقوها فهي الضُعف البادي على إيمانه وعقيدته.

ربّما كان لها في تأطيرها وإعدادها ما أكسبها مناعة من أفكار الفلسفة المتعالية، لكنّ معرفتها بالبوذيّة، التي بدأتها انطلاقاً من مطالعة كتابين من تلك الممنوعة في كوبا، التي اعتاد هوراثيو أن يحصل عليها بطريقة من الطرق، كشفت لها، ومن دون الإقرار بوجود ربّ قادر على كلّ شيء، عن وجود طريقتين أخريين للإيمان بشيء موجود في المادة، لكنّه غيبيّ، يتمثّل هدفه الأكبر في معرفة الحقائق الكونيّة وتجاوز حدود قدراتنا الفرديّة، التي تستحقّ أن توصف بالجهل.

حدث في نيويورك، بعد هجمات 11 أيلول 2001 الإرهابية بأشهر، أنّها بدأت تشعر بانجذاب نحو زميل لها في العيادة كان يمارس، كما الرسام الشاب الكوبي المطرود، اليوغا والتأمّل. وهكذا دخلت لوريتا، التي كانت تفيض، آنذاك، سخطاً، في أوّل اتصالٍ لها بعالم ظلّت، لسنوات، تغازله. ومع أنّ نيويورك لم تكن المكان الأنسب للإيمان بفلسفة تدعو إلى السلام الداخلي، فقد انجرّت لوريتا، المحتاجة إلى أيّ شيء يريحها،

إلى إغراء زميلها، وبدأت تذهب، بين الحين والحين، إلى مركز التأمّل في ضاحية (روثرفورد) في نيوجيرسي، حيث يلتئم، مرة واحدة في الأسبوع، شملُ *سانغا* بوذيّة. ولم تلبث أن شعرت بالراحة لوجودها بين جمع من الأشخاص ضجروا من أنفسهم ونفروا من عالمهم، المفكك المضطرب، فقرّروا الابتعاد عن الفوضى المحيطة بهم، وتلك المستقرة في داخلهم، ليتنفسوا ويسترخوا ويطلقوا العنان لفكرهم ويتناولوا الشاي الأخضر، طوال ساعتين من الزمن، على الأقل.

حين استقرّ بلوريتا المقام في *ذي سي بريز*، كان قد مرّت أشهر على بلوغها واحداً من مظاهر تحقق قوّة كارمتها. كانت في تلك الأوقات تجتاز واحدة من أدقّ مراحل علاقتها مع آديلا، التي كانت تصرّ على السفر إلى جنوب فلوريدا والدراسة هناك. قرّرت لوريتا، في واحدة من سفراتها المتفرقة إلى (تاكوما)، وبالصدفة، ألا تسير بشاحنتها الصغيرة في الجادة الرئيسة، بل اختارت المرور في شارع فرعي. وكان من جرّاء ذلك القرار، البسيط في ظاهره، أن تمرّ من أمام معبد (هوانغوانجي) البوذي، القريب من مركز المدينة التاريخي. فقد كانت رأت إعلاناً عن محاضرة حول المبادئ الأخلاقيّة في الديانة البوذيّة، كان سيلقيها ذلك الأحد المستنير ستيفن كيم، وهو دكتور في الأديان واللغات الشرقيّة في جامعة (بيركيلي)، يتبعها تقديمُ المسؤول الجديد عن المعبد، المستنير، أيضاً، المدعو شاك.

وصلت لوريتا إلى المعبد، وهي ترتدي أفضل ملابسها، عند الساعة العاشرة صباحاً من يوم الأحد، فوجدته يغصّ بالحضور الذين جاءوا حتّى من (سياتل) ومن المدن الصغيرة القريبة، بعد أن عُرف الدكتور كيم وذاع صيته بين مريديه من الساحل الغربي. من المقعد الذي جلست عليه لوريتا، في نهاية القاعة، أصغت إلى كلمات الأستاذ النابه، التي لم تضف، في الواقع، جديداً على ما تعرفه عن أصول ذلك المفهوم اللطيف للحياة وجوهره، ذلك الدين الذي لا يتكلّم عن ربّ ولا عن رجال دين ولا عن حروب مقدّسة، بل يدعو إلى تنمية الشخصيّة وتطوير الذات وتخطّي الصعاب والأحزان واكتساب السلام الداخلي عن طريق معرفة الذات، فضلاً عن دعوته إلى علاقة تناسق وانسجام مع المجتمع ومع الطبيعة. أمّا أكثر ما اهتمّت به فهو

حديثه عن المصادر الفلسفيّة والدينيّة التي انتهل منها سيدهارتا غواتاما في رحلته الروحية الطويلة بحثاً عن السلام.

غمر لوريتا شعورٌ بالارتياح حين بدأ شاك، المستنير الجديد، بالكلام. رجلٌ جاوز الأربعين، أشقرُ الشعر أو باهته، وعلى خدّه الأيسر ندبة غامقة، يرتدي قميصاً طويلاً أبيض وبنطلوناً أبيض أيضاً يكسو قدميه الحافيتين. لقد راح ذلك الرجل، الخبير المجرّب، الذي لا يحمل ألقاباً ولا شهادات، يتكلّم عن أعاجيب التأمّل ويشيع -أو هكذا شعرت هي- إحساساً برجوع كلّ شيء، وهو ما شعرت لوريتا بتعاطف مثير معه.

- بتطبيقنا تعاليم بوذا نحمي أنفسنا من الألم والمعاناة -قال المستنير شاك بصوت عذب، وبنبرات لا تناسب مظهره البدائي-. لقد كشف بوذا لنا عن أنّ الحقائق الثلاث الحاكمة في العالم هي أن لا شيء دائم ولا شيءَ جوهري ولا شيء مُرضٍ تماماً. ونبهنا إلى أنّ معاناتنا ما هي إلّا نتيجة جهلنا بتلك المبادئ. اعتاد الناس على أن يبحثوا عن جوهر ثابت، مستقر: عمّا يدعونه هم بالاستقرار. وهو ما يتخذ أحياناً صورة الربّ أو الوطن أو المال: وكلّ ذلك خيالٌ في خيال. وهمٌ في وهم... وحين نرى أنّ تلك النعم لا ترضينا، نطمع في المزيد منها، ونبدأ نشعر بالتعاسة ونعاني...

«مشاكلنا تكمن في جهلنا. والجهل لا يزول إلّا بممارسة *الدارما*. أي الحماية. الحماية -كررها ثلاث مرّات، ولم تشكّ لوريتا في أنّ الرجل كان يوجّه كلامه إليها، إليها وحدها ربّما-. كلّنا نحتاج إليها لأننا ضعفاء، سريعو التأثّر، وإن حسبنا أنفسنا أقوياء. لذلك يلجأ الكثير من الناس الذين نعرفهم إلى السلاح... ولذلك انتهيت في حياتي السابقة معتقلاً في السجن، بعد أن حكم عليّ بجرائم بغيضة مقززة. تاجرتُ بمخدرات كان لها أن تقتل الكثير من الناس. كنتُ... -وفي تلك اللحظة تهدّج صوته، فغطّى وجهه بكلتا يديه، ثم واصل الكلام بحماس أشدّ-. نحن نعيش في مجتمع مريض يحول بيننا وبين رؤية ما هو جوهري. جودة الحياة لا تعتمد على الارتقاء المادي فحسب، بل على ما نحصل عليه من سلام وانسجام في داخلنا ونشيعه في محيطنا. نعم، جميعنا نحمل ذنوباً. جميعنا ارتكبنا أخطاء، وبعض تلك الأخطاء آذت آخرين، عن عمد أو عن غير عمد. لكن في مقدور

كلّ واحد منكم أن يعثر في داخله على ما هو أفضل، وأن يتطلّع إلى ولادة جديدة يقلّ فيها الجهل وتزداد الحقيقة.

«بالتأمّل، و*الدارما*، اكتشف غواتاما أنّ ثمّة سبيلاً للتحرّر. حريتنا تعتمد على قدرتنا على تقبّل الأشياء كما هي، وعلى أنّ الحياة لا معنى لها، وعلى أنّ من العبث محاولة البحث عن معنى لها. فإن عرفنا ذلك وتبنيناه فلن نعاني -قال، وقد ارتفعت طبقة صوته، وامتلأت عيناه ببريق غريب، واختتم كلامه-: *أوم شانتي*. - وجلس، ونظره كالضائع في المطلق، فكأنّه دخل في غيبوبة.

وانضمّت لوريتا، ذلك الأسبوع، إلى الجماعة البوذيّة وصارت تلتقي بهم في معبد (تاكوما) ذاك. كان معظم أعضاء *السانغا* من البالغين الذين تناهز أعمارهم الخمسين أو تتجاوزها بقليل. وراحت لوريتا تتعرّف عليهم وعلى قصصٍ وقعت لهم في حياتهم، كثير منها حزينة مؤلمة كما هي قصّة المعلّم شاك نفسه.

طلب المعلّم المستنير، في جلسة التأمّل الخامسة أو السادسة، من لوريتا أن تنتظره نهاية الجلسة. ولم تفاجأ هي بطلبه: فمنذ اللحظة الأولى كانت تعلم أنّ ذلك اللقاء سيقع.

جلس شاك ولوريتا عند بوابة المعبد، رغم برودة تلك الليلة الخريفيّة. أتى أحد معاوني المعلّم لهما بفنجانين من الشاي الأخضر الياباني الذي يفضله المستنير، ثمّ انسحب إلى داخل المعبد. قصّ الرجل، ذو الملامح الفظّة والندبة التي تعلّم خده الأيسر، على لوريتا، دون طلب منها ولا سؤال، شذراتٍ من ماضيه. حدثها عن اشتراكه في حرب الخليج، وكان رقيباً في سلاح المشاة. كم كان الموتُ حينها قريباً منه، ومع الموت الخوفُ والكراهية! وحكى لها عن تجربته مع المخدرات، وكيف أنّه فقد بسببها أهله وماله؛ وكلّمها عن صلاته بتجار المخدرات من الكوبيين والكولومبيين في ميامي، وكان من نتائجها تلك الندبة التي تقطع وجهه، ومروره بالسجن. خمس سنوات أمضاها في قاع الهاوية، أو أبعد من القاع، حاول الخروج منه بالدخول في مصحّة للمدمنين، حيث تعرّف على رجل فتح له باب الجماعة

بما حكى له عن تعاليم بوذا. وأمضى المستنير شاك نصف ساعة تقريباً وهو يحدث لوريتا عمّا صادفه في حياته الدنيا من صروف وأهوال، ثمّ قال لها إنّه ما حكى لها ذلك إلّا ليثبت لها أنّها، بقوّتها الداخلية، وبقوّة الروح التي فيها، تستطيع أن تجتاز كلّ الصعاب. حتّى وصمات الماضي. حتّى الأحمال التي ما انفكّت تثقل عليها، وكان مطلعاً عليها. نظرت إليه وهزّت رأسها وسكتت، لكنّها شعرت، وللمرة الأولى، منذ خروجها من كوبا، برغبة في الاعتراف.

كانت تلك بداية علاقة ساعدت لوريتا على اكتساب شعورٍ بالقرب من نفسها والتصالح معها. خامرها في الأشهر الأولى شكّ مُلحّ في أنّ الأمر سينتهي بها وبمرشدها في الفراش. لكنّ أيّاً منهما لم يقدم على تلك الخطوة، واستمتعت لوريتا برفقة الرجل الذي راح يساعدها على التقدّم بالطريقة التي كانت تحتاجها فعلاً: بأن يحررها من شياطينها. لذلك راحت لوريتا، من دون أن تغوص عميقاً في التفاصيل، تصرّح له بمخاوفها العصيّة، وأحقادها المستحكمة، وقصص حبها المؤلمة، ومسؤولياتها الأبديّة. تتقيأ الماضي فتشعر براحة الاستفراغ.

وحين بدأت علاقتها العاطفية بالمس ميلر، ولمست الخزين الكامن فيها، بعد أن ظنّته نافداً ناضباً، تقبلته على أنّه دليلُ نموّها الروحي. ولمّا تقبلت فكرة أن تعيش ابنتها حياتها، بالطريقة التي تبدو لها وتحلو، عزت ذلك إلى تحسّنٍ في داخلها. بل لقد أدركتْ، حين اقتنعت بأنّ السعادة قد تكون في الجلوس على السرج وترك مسؤولية تحديد إيقاع السير وخطه لـ رينغو، أنّها على وشك أن تنتهي من حلقة التأمل وتقترب من مرحلة الاستنارة والإلهام. لكنّها سرعان ما ستكتشف أنّ بوذا محقّ في ما رأى وفي ما قال: مهما بلغت قوّة النور الذي نحاول تسليطه، يبقى الظلام يولّد ظلاماً.

قبل ثمانية أيّام من ظهور صورة الأخويّة على صفحة كلارا في الفيسبوك، وحدوث العاصفة التي جاهدت لوريتا فتزبيرغ ستة وعشرين عاماً لمنع وقوعها، تأكّد لهذه أن لا توازنات أبديّة، بل لا إمكانية لبلوغ حالة النيرڤانا [63]. فالسرعة والفوضى هما اللتان ستفرضان نفسيهما في نهاية المطاف، كما علّمها هوراثيو، قبل ثلاثين سنة. فلكلّ فعل ردّة فعل. وما نحن إلّا ثمرة فوضى عارمة. نعيشُ في كاروسيل لا يتوقف، يحاول بقوة طرده المركزي أن يرمي بنا إلى الفضاء. مهما غذذنا السير ومهما ركضنا، فإنّ ماضينا، لا محال، يلاحقنا ويدركنا.

ألفت لوريتا تلك المخاوف منذ أن رأت خيوط الكارما تتداخل وتتقاطع مع قراراتٍ وحلول كثيرة، عشوائيّة في الظاهر، وصولاً إلى حمل ابنتها آديلا على التعرّف في ميامي على ماركوس مارتينِث چاپله، ماركيتوس الصغير الذي تعرفه، والوقوع في حبّه. عندها، بات ثابتاً لديها أنّ السور الذي ارتفع مع هروبها الأوّل والأخطر بدأ يتعرّض لهجومٍ سينتهي بهدّه وسقوطه.

لقد حرّك لقاؤها في متنزه (الريتيرو)، قبل خمسة عشر عاماً تقريباً، بمن كان صديقها الحميم، إرفينغ، مشاعرها، وأثارها الأسلوب الذي قرّرت أن تزوغ به منه، على الرغم من أنّ ذلك غذّى ثقتها في قدرتها على التكتّم، حماية لآديلا. وشكّلت رحلة آديلا إلى كوبا وإقامتها في هاڤانا إنذاراً خطيراً، لكنّ لوريتا سرعان ما أحسّت بالاطمئنان، حين عادت الفتاة من هناك خاوية الوفاض، بفضل ما خططت هي له بحقائقها المبتسرة وأكاذيبها الكبيرة. أمّا الآن، فإنّ الأجراس التي تعلن عن نهاية التوازن الحرج بدأت تدق. وممّا يزيد الطين بلّة والحال ألماً أن يكون رينغو، توأم روحها، هو أوّل القارعين على تلك الأجراس.

تعرف لوريتا الحصان جيداً وتقرأ وجهه من نظرة واحدة إليه.

وحين نظرت إليه صباحاً علمت أنّ ثمّة ما يسوء. بل ما يُقلق. كان رينغو يراوح في مكانه بقائمتيه الخلفيتين، كأنّه يؤدي مسيراً استعراضيّاً بطيئاً، بينما يحمل، المرة تلو المرة، مخطمه إلى كشحه، ثمّ يرفع جحفلتيه ليكشف عن أسنانه. أعراضٌ واضحة على أنّ الحيوان يعاني مغصاً وتشنجات مِعديّة. حالة تدعو فعلاً إلى القلق. منذ أيّام ولوريتا تعمل على أن يشرب الحصانُ كلّ الماء الذي يحتاجه لتجنّب إصابته بالجفاف. كان رينغو قد أتمّ السادسة والعشرين، وكانت هي تعلم أنّه لن يعيش أكثر من سنتين أخريين أو ثلاث أو أربع سنوات، على أحسن الأحوال، وإن كانت ترجّح الخيار الأطول نظراً لحالته البدنيّة الجيدة والعناية الدائمة التي يحظى بها. مع تقدم الحيوان بالسن، بدأ يظهر عليه تبدل في المزاج، فتراه نزقاً أحياناً، ووديعاً وهادئاً، أحياناً أخرى. وكانت قلّة إقباله على شرب الماء عرضاً آخر مقلقاً يدلّ على تدهورٍ في صحته.

كانت لوريتا تعلم، بخبرة البيطريّة، أنّ الحالة حرجة. حاولت أن تتقبلها بمهنيّة. أرادت، بكلامها معه وسؤاله عمّا يؤلمه ومداعبة وجهه وأذنيه ورقبته، أن تبعث له برسائل هدوء وتطمين كي تتمكن من إجراء فحص أوّلي له: وضعت أذنها على بطنه وتنفست مطمئنة حين تبيّنت حركة الأحشاء. ثمّ اختارت، قبل أن تجرّب علاجاً قوياً، أن تخرج بالحصان المريض إلى ميدان التدريب ليخبّ، في حركة دائرية، طوال ساعة من الوقت. بدأ العرق ينضح منه ويسيل على جلده الكستنائي. ثمّ استدعت ريك ليحممه، وأبقت عليه تحت المراقبة. وضعت له إناءً من سائل بارد ممزوج بمركب يساعد على الهضم ويعالج التشنجات، وسحبت كلّ الطعام. فإن استطاعت أمعاء الحصان طرح الكتلة الصلبة التي قد تكون سببَ المغص والتشنجات، فسيشفى بسرعة نسبيّة. إنّها تتمنّى ألا يكون الحصان يشكو من انسداد خطير سببه ضعف في وظيفة أمعائه.

ومع أنّ رينغو لم يقرّب مخطمه من كشحه بقيّة النهار، فقد عاد في الصباح التالي إلى تلك الحركة، وبقدر أكبر، وبدأ يضرب بقائمته على بطنه. شعرت لوريتا بالخوف. وعندها استعانت بمس ميلر وريك لتحشر في

فتحتي مخطمه أنبوباً يضخّ ماءً مخلوطاً بزيت معدني علّه يساعد في تحريك الكتلة، فقد لا تكون حركة الأمعاء كافية لفعل ذلك. أثار هدوءُ الحيوان وهم يمررون الأنبوب قلق لوريتا، ولاحظت انطفاءَ البريق في نظرته، وهي علامة لا يستطيع سواها أن يلحظها.

وبدا أن العلاج بالإماهة القسريّة جاء بنتائج مُرضية، فقد اختفت أعراض الضيق بعد ثلاثة أيّام، وعادت لوريا إلى سماع حركة أمعائه. وامتطت ذلك الصباح صهوته من جديد، ثمّ حمّمته وكلّمته. لكنها اعترفت، أثناء العشاء، لمس ميلر بهواجسها. حاولت مس ميلر التخفيف عنها فذكّرتها بقوّة الحصان وصحته وشيوع حالات المغص بين الخيول، فبدا عليها أنّها اطمأنّت، مع ذلك، فقد قرّرت أن تمضي ليلتها تلك في كوخها، فقد كانت محتاجة إلى أن تختلي بنفسها للتفكّر والتأمّل.

وجدت لوريتا الحصان، فجر اليوم الرابع، يتمرّغ على الأرض فأدركت سوء حالته. جسّت بطنه فشعرت فيها بتشنج وانتفاخ. ووضعت أذنها عليها فلم تسمع شيئاً. وكررت التنصّت بالسماعة واستنتجت تدهور الحالة: فإن توقف جهازه الهضمي عن العمل، فإنّ حالته حرجة. حرجة جداً.

حين بزغت الشمس وطلع النهار، دخلت مس ميلر إلى الإسطبل فوجدت لوريتا جالسة على مصطبة صغيرة، بالقرب من رينغو، تدلّك بطنه وعيناها دامعتان. خرجت لوريتا إلى ممر الإسطبل وعانقت صاحبة المزرعة من دون أن تتفوه بكلمة. فالظرف لا يسمح بكلام.

ومرّت الأيام الثلاثة اللاحقة حزينة كالحة، تمنّت لوريتا لو استطاعت أن تمحوها، لا من ذاكرتها فحسب، بل من الواقع.

ودفعها يأسُها إلى التفكير في خيارٍ آخر: كلّفت ريك بالذهاب إلى المدينة ليحضر أفضل بيطري فيها. أعاد الطبيب البيطري الفحوصات التي كانت لوريتا أجرتها، ففحص أسنان الحصان، وكانت بيضاً تقريباً، وتحسّس بطنه وفحصها بدقة. وأخيراً قرر أن يجري له غرزة في البطن. وحين انتهى البيطري من فحوصاته، خرج بالتشخيص ذاته: لقد توقفت أمعاء الحصان، ومعنى هذا أنّ أنسجتها وخلاياها لن تلبث أن تُصاب بالنَخَر وتموت. لم

ينصح الطبيب بعملية جراحيّة، لتقدم الحيوان في السن، ولأنّ النخر، على افتراض نجاح العملية، لن يلبث أن يعاود الظهور، وعندها تكون معاناته كبيرة، ولا يكون علاجه مجزياً. لم يكن أمامهم، في الواقع، إلّا بعض العلاجات، كان من بينها طقوسٌ أداها ساحر هندي جاء به وابو إلى المزرعة.

أمضت لوريتا، في جوار الحصان، ثلاثة أيام بلياليها. بل لقد أتت بسريرٍ إلى الإسطبل لتستلقي عليه حين يغلبها التعب وتنام، فقد كانت في حاجة إلى أن تستجمع قوتها، وتستردّ قدرتها على التركيز والتفكير في ما يتوجّب عليها فعله. في تلك الأثناء، كانت تحاول الإبقاء على المريض مخدّراً لكي لا يعاني. قد يحتاج الأمر إلى معجزة... في فجر اليوم الثالث على ذلك التشخيص، وهو الثامن على بداية المرض، بدأت بحثاً جديداً في الإنترنت، لكنّ الشبكة العنكبوتيّة لم تسعفها بحلول سحريّة للقرار الذي يتوجب عليها أن تتخذه، فكأنّ كارمتها المعتمة قرّرت إطفاء جميع الأنوار. أحسّت، وهي تبحر في الشبكة، برغبة في التقرّب من ابنتها، التي لم تتصل بها منذ أشهر، ولم تتكلّم معها منذ عدة أسابيع. دخلت على صفحة آديلا عبر حساب أنشأته باسم مختلف ومعلومات مزيّفة. ونقلها ذلك الرابط إلى آخر. وفجأة، وجدت، في حساب ماركوس، صورة الأخويّة التي كانت كلارا قد أنزلتها على الشبكة في الليلة السابقة.

في تلك اللحظة، وقع انهيار في تفكير لوريتا: فها هو السور يتداعى. ماذا عساها فاعلة؟ وكيف؟ لا بدّ أنّ آديلا رأت الصورة، ولا بدّ أنّها سألت ماركوس، ولا بدّ أنّها علمت طرفاً من الحقيقة التي تكتّمت عليها وأخفتها. وتمثّلت المرأة ما سيقع للحصان، وأدركت أنّ من الأفضل القفز إلى المجهول والارتطام بالقاع قبل بلوغ حالة الاحتضار. في ذلك الصباح، وبعد عام ونصف تقريباً من الصمت، عادت لوريتا فتزبيرغ، وقد تقمّصت دور إليسا كوريا، المستعدة لكلّ شيء، لتتصل بابنتها.

سمعتْ، وهي في حالة ترقّب، ودقاتُ قلبها تضرب في صدغيها، جرسَ الهاتف يدق سبع مرات أو ثماني، قبل أن تفتح آديلا الخط، على الطرف الآخر من البلاد.

- لوريتا؟ - سمعت سؤال آديلا، وإن كان يفترض أنّها تعرّفت على الرقم قبل فتح الخط. وشعرت لوريتا، حين سمعت السؤال، بالراحة، لأنّ نبرة آديلا تدلّ على أنّ القنبلة لم تنفجر بعد.

- آآاي كوسي. كيف حالك؟

واستعدّت لوريتا للتمثيل والتلفيق، فتكلّمت بالإسبانية. وبدا صوتها خشناً، كالمشروخ ممّا ينتظرها من توتّر وإحراج.

- بخير... في عملي... وصلتُ للتو... أنا بخير...

استنتجت لوريتا من تلعثم الفتاة أنّها تكذب، ولكن ليس في ما كانت تخشاه هي. لذلك قالت:

- أنا سعيدة بسماع أخبارك... أمّا أنا فعلى أسوأ حال...

- ألأجلِ هذا اتصلتِ بي؟ هل أنتِ مريضة؟ هل حدث لك شيء؟ كم الساعة عندكم؟

- الآن... السادسة وثماني عشرة دقيقة... ما زال الوقت مظلماً...، والجو بارداً... لا، لستُ مريضة... وقد اتصلتُ بك لأنّي أمّكِ ولأنّي أحبّكِ، كوسي، وأحتاج إلى الكلام معك. فهل هذا ممكن؟

- طبعاً، طبعاً... قلتِ إنّك لستِ مريضة؟ فما بك، لوريتا؟

- وأمورِكِ مع خطيبك؟ - سألتها، وهي تحاول ترتيب أفكارها. فهل تتجرأ وتحسم الأمر؟

- ألم نتفق على أنكِ لا تريدين أن تعرفي شيئاً عنه؟ مؤكّد أنّكِ لم تتصلي لسؤالي عن هذا. تمام؟

شعرت لوريتا أنّها توشك على البكاء، فأطلقت زفرة طويلة وعميقة، كادت أن تصبح أنيناً. ها قد عاودها شعور المرأة الضعيفة الذي رافقها أثناء الحمل والخوف، قبل ربع قرن. كيف ستكون ردّة فعل ابنتها؟ ماذا عساها ستظنّ بها حين تعرف الحقيقة؟

- علينا أن نقتل رينغو - قالت أخيراً.

- عمّ تتكلمين، يا أمّي؟

- لا تطلبي منّي أن أكررَ ما قلتُ، كوسي.

أحسّت لوريتا بدموعها على خدّيها. وتشكّلت في مخيلتها صورة اللحظة التي ستسبق النهاية، فعضّت على شفتها وضغطت على حنكها حتّى شعرت بألم. ماذا ستظنّ ابنتها حين تعلم الحقيقة؟ وكيف السبيل إلى حكاية تلك القصّة؟

– ما به؟... لكنّك لم تقولي لي شيئاً في المكالمة الأخيرة... – قالت الفتاة، وهي تشعر بالخوف والتأثّر.

– مغص... آلام في البطن... منذ أيام ونحن نحاول معه... راجعنا أفضل بيطري هنا، وحصلنا قبل يومين على تشخيص نهائي لحالته. أجروا له غرزة في البطن... حالته خطيرة، وسنه لا تسمح بأيّة جراحة، فالعمل الجراحي خطير، لذلك لم نرد... أنا كنتُ أعرف، لكنّ البيطري أكّد لنا أنّه الحلّ الوحيد الممكن.

كانت آديلا، وهي في ميامي، تهضم المعلومات وتستوعبها.

– يا إلهي... وهل يتألم؟

– نعم... منذ أيام وهو يتألّم... أعطيته مخدراً قوياً.

فترة صمت أخرى.

– أما من علاج؟ أما من حلّ؟

– لا، فما من معجزة.

– كم سنّه الآن؟

– سنّه من سنّك... ستة وعشرون... إنّه عجوز، وإن لم يبد عليه ذلك...

فكّرت آديلا بالجواب وانتظرت قبل أن تقول:

– ساعديه، إذن، لوريتا.

زفرة أخرى من صدر المرأة. إنّها تعيش، في تلك اللحظة، أسوأ لحظات حياتها. عادت فعضّت شفتها قبل أن تتكلّم. لقد نسيت بوذا ونسيت تمارين التنفّس والاسترخاء.

– هذا هو ما سأفعله... ولكن لا أدري إن كان عليّ أن أفعل ذلك بنفسي أم أكلّف ريك أو البيطري للقيام به.

– افعلي ذلك أنتِ. وبلطف.

– نعم... يا لها من مهمّة قاسية!

– بالطبع... فأنتِ له بمنزلة الأمّ – قالت الشابة.

– هذه هي المشكلة... هذا هو أسوأ ما في الموضوع... أنتِ لا تفهمين معنى أن تكوني أمّاً ولا تستطيعين أن... لو تعلمين مقدار ما تستمتع به الأم ومقدار ما تعانيه.

– أنتِ عانيت كثيراً، أليس كذلك؟ فما الذي لم تستطيعي فعله؟ – سألت آديلا، وأدركت لوريتا أنّها ليست الوحيدة المتوترة.

لقد تضايقت ابنتها، وهو ما لم تكن تتمنى، على الأقل في تلك الساعة، حدوثه. كان البكاء على ابنتها، وعلى رينغو، وعلى حالها أمراً لا مفرّ منه. كان يخنقها. وأخيراً قالت:

– أردتُ فقط أن أخبركِ بذلك. وأن أطمئنّ عليك، وأن أقول لك إنّي أحبّك كثيراً، و... كوسي، لا أستطيع مواصلة الكلام. أظنّ أنّي ســ...

– I'm so sorry... – سمعتْ آديلا تقول بالإنكليزيّة، ثمّ أغلقت لوريتا الهاتف.

فتحت لوريتا هاتفها، وسحبت البطاقة. ثمّ ألقت بالجهاز على السرير حيث حاسوبها المحمول. ودخلت إلى حجرة رينغو في الإسطبل وهي تبكي. بدا على الحصان الهزال وأثر التخدير. كان مستلقياً على الأرض، لكنّه نظر إلى مدربته وحرّك شفته العليا، فكأنّه يحاول الابتسام لها وتطمينها. جثت المرأة بالقرب منه، فبدأ رينغو يعالج للنهوض، كأنّه سكران يسعى إلى بلوغ بيته. في تلك اللحظة، أدركتْ لوريتا أنّ رينغو يقدر على النهوض. أمّا كيف ولماذا، فقد يكون لغزاً، وقد يكون، ببساطة، لأنّه يحتاج إلى أن ينهض بكرامة. واستطاع أن ينهض. ساعدته لوريتا. وحين وقف على قوائمه الأربع، المشدودة المرتعشة، داعبت وجهه ورأسه، فأسند جبهته على جبهتها. وعلى تلك الحال بقيا لدقائق، حتّى ترنّح الحيوان، بعد أن أدركه التعب.

لم تكفّ لوريتا عن البكاء وهي تسند رينغو وتبقي عليه واقفاً. ذهبت، وهي تبكي، في طلب السرنجة المعدنيّة التي كان البيطري قد تركها جاهزة لتحقنه بها وتُجهز عليه. وقفت لوريتا، وحقنة الموت في يدها، عند أحد

جانبي رينغو، وأسندت رأسها على فكه. وهناك أحسّت بنفسه الحار الجاف وانتظرت أن تتوقف يداها عن الارتعاش. خفضت بيدها الأخرى رأسه وهمست بشيء في أذنه. ثمّ قبّلته في جبينه، وفي عينيه الدامعتين، اللتين ما عادتا برّاقتين، وفي جحفلتيه اليابستين، ثمّ غرزت الإبرة في مجرى الشريان السباتي. ألقت بالحقنة الفارغة بعيداً، وساعدت الحيوان الضخم على أن يجثو على قائمتيه الأماميتين، حتّى خانته الخلفيتان فسقط جانباً على أرضيّة الحظيرة، فأثار بسقطته أعواد القش. واستلقت لوريتا جانبه وعادت تهمس في أذنه، بينما بللت بدموعها وجهه. وظلّت تكلّمه حتّى بعد أن أغمض عينه الرطبة الحزينة، وحتّى حين اهتزّ هزّة خفيفة وتوقّف عن التنفس.

عشر دقائق. خمس عشرة دقيقة. عشرين. ظلّت لوريتا مستلقية تداعب رأس الحصان. بكت على رينغو؛ وبكت على عالم *ذي سي بريز فارم*، حيث وجدت، بفضل الحصان وبفضل مس ميلر، جنتها التي انهارت؛ بكت على حاضر لوريتا فتزبيرغ، وعلى ماضي إليسا كورّيا، وعلى مستقبل شخص ما زالت لا تعرف من ستكونه ولا متى ستكونه. وبكت على ما ستشعر به ابنتها، التي طالما تمنت أن تحميها. بكت وبكت وبكت حتّى نضب دمعها وجفت مآقيها.

وأخيراً نهضت، وقصّت خصلة من عُرف رينغو، وتناولت دثاره وقبلت النجمة التي في جبينه.

– وداعاً. يا أميري الغالي – همست وغطّت رأسه.

وخرجت. غادرت الإسطبل الذي قررت، في تلك اللحظة، أنّها لن تطأ أرضه ثانية. لم يعد أمامها من خيار غير هروب جديد. تلك كانت كارمتها. عاقبة أسبابها. الظلام الذي لا يولّد غير الظلام. وقرّرت أن تداوي الجرح الذي تحمله في ضميرها، قبل أن تختفي في العتمة.

دخلت إلى البيت الكبير، وبعد أن أبلغت مس ميلر بموت الحصان وبكت على كتفها، طلبت منها أن تجلس معها في الصالة. قالت لها إنّها سترحل، لا تدري إلى أين، ولا كم ستتأخّر، لكنّ عليها، قبل ذلك، أن تؤدي ديناً واجباً عليها، هو دين الشكر والمحبّة والحقيقة.

ما بدا مستحيلاً بدأ يتحقق. في كلّ ناحية. وعلى جميع الجبهات. جنّ جنون العالم. وتغيّرت القواعد. وتزعزع ما كان يبدو راسخاً. وتزحزح ما كان يُحسبُ ثابتاً. وحدثت معجزات. هدّ الألمان الديموقراطيون جدار برلين. أسقطوه حجراً حجراً. ولم يقف في وجههم أحد. لا شرطة تقمع، ولا جيش يطلق الرصاص. لم تظهر صور الدبابات السوفييتيّة وهي تجوب شوارع المدن كما ظهرت ذات يوم في شوارع بودابست وبراغ، لتغلق بالحديد والنار بوّاباتٍ وتطلعات إلى ما وُعدوا به وانتظروه: عالم المستضعفين المسحوقين. كسر الناسُ، في هذا الطرف من الحدود الفاصلة بين العالمين المتنافرين، الإيقاعَ المرسوم والوتيرة المتصاعدة للتاريخ، بحسب ما تنص عليه أدبيّات الماركسيّة التي يدرسونها في الجامعة. وها هم الناسُ يتبادلون العناق ويغنّون ولا أحد يقمعهم. وماذا بعد؟ هل بدأ العالم يتغيّر؟ أإلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ وماذا عن كوبا؟

في تشرين الثاني ذاك من عام 1989 فكّرت إليسا، مرّات ومرّات، وستفكر، لأسابيع وأشهر وسنوات، وسترى أنّ ما يحدث لها غير ممكن، بل مستحيل. لكنّ ردودَ فعل جسمها كانت تشير إلى أمرٍ مختلف. فتأخر الدورة الشهرية لا يدوم ثلاثة أسابيع؛ والتحسّس في حلمتي ثدييها ليس ناشئاً عن حساسيّة أو التهاب جلدي؛ ونفورُها أو انجذابها إلى بعض الروائح والأطعمة، وشعورها بالغثيان، لا يدلّ على هاجسٍ ذهنيّ أو هوسٍ عضوي. فكيف حدث ما حدث؟

حتّى القولُ بعقم برناردو يمكن أن يكون نتيجة خطأ في الفحوصات الطبيّة، ولكن، أليس حقيقة أنّ زوجها لم يباشرها في الأشهر الأخيرة إلا نادراً؟ فهل من المعقول أن يكون الرجلُ الذي لم تحمل منه في عزّ نشاطه

الجنسي قد استعاد قدرته، في المرّة الوحيدة التي ضاجعها فيها، أثناء فترة خصوبتها الأخيرة؟ يبقى هناك احتمالٌ واحد، وحيد وبعيد، لأنّها، في المرتين الوحيدتين اللتين نامت فيهما مع هوراثيو، اتخذت كافة الاحتياطات الواجبة، بل لقد تكفّلت هي نفسها بوضع الواقي الذكري لعشيرها. ولكنّها ليست زهرة متفتحة وضعت فراشة تائهة في مدقتها الطلعَ الملقّح المعلّق في أرجلها وأجنحتها وفمها... أعادت إليسا، طوال أيام -تحوّلت إلى سنين من علامات الاستفهام- بناءَ كلّ لحظة علقت بذاكرتها عن تفاصيل ما جرى في اللقاءين. أحد الأدلة المهمّة، التي لم تأخذها في الحسبان، هي أنّها كانت تمرّ، آنذاك، بأيامها المناسبة للدخول في الحمل. هذه المعلومة توضّح نصف المسألة. أمّا النصف الآخر، أو الأعظم، فربّما جاء في صورة قطرة محملة بالحيوانات المنويّة خرجت من ذكرٍ واستقرّت في مهبلٍ، لكي تنطلق، كما يحدث في سباق المسافات الطويلة، راكضة لتطوف في أرجاء رحمها، وتنزلق عبر ممرّ القنوات الملتوي إلى أن يستطيع الحيوان الأسرع الوصول إلى البيضة الناضجة المستقرة في المبيض واختراقها و...

وبلغ من دخول إليسا في تفاصيل كلّ دقيقة من الدقائق التي استغرقها اللقاءان أنّها تذكّرت نفسها عارية، بعد أن قامت من السرير، تسير نحو مطبخ شقّة صديقتها الصغيرة. كان القط، الذي ظهر في تلك اللحظة، يموء كالمجنون، وقد جذبته رائحة علبة السمك التي فتحها هوراثيو، قبل نصف ساعة، بطارف السكين بعد أن لم يعثر على فتاحة العلب. تناولت العلبة، وهي تشعر بنفور من رائحة السمك المحفوظ في صلصة الطماطم، شاهداً على ما تبقى من الاشتراكيّة. ثم انحنت لتصبّ محتواها في إناء من البلاستيك والانتهاء من تلك المسؤوليّة. وتذكرت أيضاً كيف استغلّ هوراثيو انحناءتها تلك وداهمها من الخلف، ممسكاً بوركيها، وراح يحرّك، بنعومة وتكرار، ذكره المنتصب، جيئة وذهابا، بين فتحتي الشرج والفرج... -ابتعد فأنا متسخة، قالت هي؛ ما زلتُ أشتهيكِ، قال لها، هيّا استحمّ، قالت له، وابتسمت-. فهل يمكن أن تكون قطرة معلّقة من إحليله انزلقت في حركة بايولوجيّة عظمى، لتبدأ، على وقع *متصاعد* من *بوليرو* راڤيل[64]، رحلة طويلة نحو خلق جديد؟

64- قطعة موسيقيّة شهيرة للفرنسي موريس رافيل (1875-1937).

لا شكّ أنّ ذلك هو ما حدث. إذ ما من تفسير آخر للحالة بعد أن مرّ، نهاية تشرين الثاني، موعدٌ آخرُ من مواعيد الدورة الشهريّة، معلناً عن حمل مدته عشرة أسابيع. ورأت إليسا، التي أدركت ما حصل، وإن لم تجد له تفسيراً، أنّ العالم الخارجي، إن كان تزحزح عن مكانه، فإنّ عالمها هي سقط في إعصار.

لم تحدّث أحداً بشيء، بل توجّهت إلى طبيب النسائيّة، وهو زميل دراسة سابق، ليجري لها عملية إجهاض. كان ذلك هو المخرج الوحيد في رأيها. لكنّ الطبيب ذكّرها بأنّ من يعاني مشكلة في الخلفة ليس برناردو وحده، فهي أيضاً تعاني تعقيداً في بنية جهازها التناسلي. طلب منها أن تفكّر في الأمر قليلاً، فالخطر قائم دائماً، وقد تكون تلك فرصتها الوحيدة للإنجاب. وأعطاها الطبيب موعداً أقصاه الأسبوع الثاني من شهر كانون الأوّل، لتجد وقتاً للتفكير ولاتخاذ القرار الحاسم بشأن الحمل. فهل ثمّة معجزة؟ هل من تدخّل سماوي (رغم خطاياها وذنوبها)؟ هل هو أوّل إخصابٍ لها في حياتها ولا شيء يضمن حدوثه ثانية؟... في اليوم الموعود، أخبرت طبيبها بأنّها ستبقي على حملها. وترجته أن يتكتّم على سرّ المهنة.

قد يكون الإعصار الذي يلوح في الأفق مدمّراً، لكنّها لا تخشاه، بل ستواجهه. فعلاقتها ببرناردو في حكم الميتة، بعد أن بات ذلك الشابُ الوسيم الذكي المندفع إنساناً مهزوزاً، وسكيراً يسير بخطى حثيثة نحو الإدمان. أمّا هوراثيو، فلن يخطر بباله أنه هو المتسبب في الحمل، بل قد يقطع علاقته بها، بعد أن خان صديقه... سيرى فيها مومساً تعاشر ثلاثة رجال مرّة واحدة: هو وبرناردو والمتسبب في حملها. خطرت ببالها جميع تلك الاحتمالات، لكنّها رأت أنّ في إمكانها أن تتعايش وتعيش. أمّا الآخرون –إرفينغ وكلارا، على وجه الخصوص– فلن يسببوا لها أيّة مشاكل: لن يدينوها إذ قرّرت أن يكون لها طفل من رجل لا يعرفونه... أو حتى من رجل يعرفونه. بل إنّها واثقة من أنّهما سيدعمانها ويقفان معها. صحيح أنّ العالمَ تزحزح عن مكانه، لكنّه لن يزول.

وهكذا قرّرت إليسا الاحتفاظ بحملها، وصارحت برناردو بما جرى وبما اعتزمت فعله. عندها حدث فصلٌ ثانٍ مهمّ في القصّة. سألها برناردو عن الفاعل، فرفضت أن تخبره. قالت له إنّها لن تصرّح بشيء، لا له ولا

لغيره، وأنّ كلّ ما تستطيع أن تقوله هو إنّه رجلٌ لا تعرفه هي تقريباً، وأنّ ما حدث يمكن وصفه بأنّه زلّة. وبعد صمتٍ طويل وبحثٍ عمّا يمكن أن يحفظ له شيئاً من كرامته المهانة، قال لها إنّه زوجها، وهو لا يرفض فكرة أن يكون والد من تحمل في بطنها، بل قد يكون مَن في بطنها ابنه فعلاً. ألم تتحدّث هي عن معجزة؟...

بدا كأنّ إليسا، بين تأثر وارتباك، لم تفهم ما قاله برناردو: أليس من الكرامة أن يواجه الحقيقة ويبتعد عن المرأة التي خانته وأهانته؟ هل هو ضعيف إلى هذا الحدّ؟ ما الذي أفسد عقله غير الكحول؟ مع ذلك، فإنّ جهله يشفع له: هو لا يهمّه من يكون الفاعل ما دامت هي لا تريد الكشف عن اسمه، لكن ما لا يستطيع أن يتصوّره هو أن يكون والد الطفل المنتظر هو أحد أصدقائه المقربين. وأبدت إليسا ردّة فعل غير مألوفة فيها، واعترفت بذنبها، بعد أن شعرت بالضعف، وأقرّت بدناءتها، بعد أن فوجئت بموقف زوجها، الذي برهن على مبلغ حبّه لها، وتصرّف تصرفَ الرجل الطيّب، حتّى وهو مدمنٌ ومهزوز ومهزوم. فيا له من رجل! يكاد يكون من عالم آخر. ولأنّ هوراثيو ما كان له أن يظنّ أنّه هو المسؤول عن الحمل...

أمّا والتر -غيّرت إليسا مسار خطابها ونبرتها-، فهو من أكثر الأشخاص غروراً وأنانيّة. بل لم ترَ أحداً من شاكلته في حياتها. كان، منذ شبابه المبكّر، يتحدّث عن نفسه وأفعاله منطلقاً من نبوغه ومن أفكاره العبقريّة وخططه ومخططاته. همجيّ كوبي متوّجٌ بهالة من مزاج ملعون ووقاحة قاتلة.

كان فابيو هو من جاء به إلى الأخويّة، لأنّ فابيو كان معجباً به إعجابه بڤان كوخ أو رينوار أو پيكاسو. ربّما لأنّ والتر كان الوقح الذي طالما تمنّى فابيو أن يكون مثله. ولمّا كانت إليسا ذلك الوقت معتدّة، هي الأخرى، بنفسها، وواثقة من ذاتها، فقد دخلت، هي والرسّام، في حالة من المنافسة والتعايش، وساعد على تلك الحالة معرفتهما بعالم الفنون التشكيليّة. لكنّ توازن القوى ذاك لم يدم طويلاً، وسرعان ما بدأت إليسا ترفضه، ليس بسبب اكتفائها بذاتها، بل لأنّها رأت أنّ غريمها يستند إلى غرور أجوف، وسلوك رسم له بعناية، وكانت ترى تفاصيله بوضوح: فمن ملابسه، الملطخة أحياناً بالزيت أو الأصباغ، إلى طريقته في الكلام. كلّ شيء فيه كان استعراضيّاً.

ستبدو لهم تلك الأزمنة لطيفة وغريبة وغير واقعيّة. أوقات رأت إليسا نفسها، أثناءها، شخصاً حقيقياً، مستعداً لرفض كلّ ما يراه غير حقيقي. كانت، آنذاك، مبدئيّة، وكانت تؤكّد على أن قولَ الحقيقة والعملَ بها هو الموقف الأخلاقي الثوري الوحيد المقبول. لقد تعلمت ذلك من الخطابات التي كان أبوها، ذلك الشخص الموثوق، يلقيها على الجماهير، واستنشقته من أجواء تلك الحقبة. لذلك لم تهمّها صداماتها مع العديد من زملاء الدراسة والأساتذة والقادة السياسيين، فقد كانت ترى أنّها على حقّ وتدافع عن الحقيقة. أمّا أصدقاؤها فقد كانوا يحترمونها ويعجبون بها، بل لقد كان فابيو وليوبا يغبطانها على صلابتها وقوّة شخصيتها، خلافاً لوالتر، الذي كان يستهزئ بها ويتندّر عليها: أوَتظنين أنّك ستحلّين مشكلة؟ كان يقول لها. وماذا ستغيّرين؟ تريدين أن يمنحوكِ ميدالية أم أن يعطوك ركلة في مؤخرتك؟ ربّما كان في موقف الرسّام ذاك، الذي يتراوح بين الوقاحة والواقعيّة، ما جعلهما يتعايشان، طوال وقت من الأوقات، في نوع من الانسجام البدائي الذي لا يتعدّى حدود تحمّل الآخر والسكوت عنه. وكان في أوقات التوازن والتعارض تلك حين حدّثها أبوها، روبرتو كورّيا، عن حاجته إلى من يفهم في أعمال سيرفاندو كابريرا [31] ليقوّم لوحة من لوحاته، وصلت إلى يده بطريقة من الطرق. وخطر ببال إليسا أن تعرّفه على والتر، الذي كان يتفاخر بقربه من المايسترو، الذي مات فقيراً معدماً، دون أن تعلم أنّها كانت توصل بالكهرباء سلكين من قطب واحد.

في منتصف الثمانينيّات، غاب والتر. دامت غيبته ثلاثة أعوام. دخل أولاً في مدرسة تحضيريّة، عند أطراف المدينة (درس اللغة الروسيّة والثقافة السوفييتيّة والكثير من الفلسفة الماركسيّة وتاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي)، ثمّ أقام في ما يدعونه بالإقامة السيبيريّة. وحين طردوه من الأكاديمية السوفييتيّة، عاد إلى أحضان الأخويّة، ليكتشفوا أنّه لم يتغيّر قيد شعرة: فإلى اعتداده بنفسه أضاف عجرفة تكتسي، أحياناً، عدوانيّة تتحوّل، أحياناً، إلى عنف بدني. بات شرساً متمرّداً ومنبوذاً يسعى إلى أن يكون مركز الانتباه، يتصرّف تصرّفاً بالغاً في عدوانيته ووقاحته، ويثير بطيشه الدهشة والاستغراب، ويعبّ بجرعة واحدة كأس الفودكا ثمّ يتجشأ كالتنين طالباً

كأساً أخرى. عاد كأنّه غطس في نهر ستيكس[65] ثمّ عاد من أعماقه وهو أشدّ قوّة. ولطالما تحدّث عن فنّان روسي نصف مجنون، يدعوه ليمونوف[66] (بعد سنوات علمت إليسا من يكون ذلك الفنّان، وقرأت كتاباً كاملاً عن حياته ورأت فيه حالة نفسيّة خطيرة)، باعتباره نموذج الفنّان الاشتراكي المتمرّد.

أمّا أسوأ ما في شخصيّة والتر أنّه كان إذا اكتشف ضعفك استغلّه وتغذّى عليه، وسحقك، ثمّ ضحك عليك ومنك، بدعوى أنّه يمزح، بعد أن يلصق شارة عدوانه وتجاوزه على ظهرك. يسيء معاملة من استطاع إساءة معاملته، ومتى شاء، حتّى بالفعل. يستهين بالفنانين الكوبيين من جيله، ويتكلّم بصوت مسموع عمّا لا يتجرأ أحد الكلام عنه، يصنّف نفسه بالبريسترويكي ويلعب بالنار... فهل كان مكلفاً بمهمّةٍ لاستفزاز الآخرين وتحريضهم على الكلام، ولهذا لم يتلقّ الركلة التي سددوها إلى مؤخرة آخرين (مثل الشاب الرسّام الذي كان يمارس اليوغا)، وتلك التي سددها هو نفسه إلى مؤخرة إليسا؟ هل كان يطمح إلى الحصول على ميدالية؟ ستعلم إليسا، في ما بعد، أنّ أشخاصاً مثله لن يحصلوا إلّا على المهانة والاحتقار.

لم تفهم إليسا وقتها سبب تقرّب والتر. وكانت تتساءل: هل يحتاجهم ليكونوا جمهوره؟ ثمّ تسأل نفسها: هل أرسل ليكون بينهم وقريباً منهم؟ ربّما...

لم يكن ما دعته كلارا وهوراثيو، طوال سنين، بالأخويّة غير إخوانيّة تضمّ أشخاصاً طيبين راغبين في تطوير أنفسهم، شباباً مطيعين، يساهمون في تسطير ملحمة تاريخيّة... وإن كان لا بدّ من الوصف، فإنّ الأسوأ بينهم هي إليسا المتمردة، ربّما بسبب اندفاعها وسجلّها الذي يروق لها، أحياناً، أن تستعرضه: عرفتْ وجرّبت ما لم يعرفه الآخرون ولم يحلموا به. تذكّرت، مثلاً، حفلة موسيقيّة للرولنغ ستونز حضرتها في ميدان الطرف الأغر. وزارت المسرح الذي عمل فيه شكسبير. وتأمّلت آثار (ستنوهنغ) الصخريّة العجيبة.

65- **Styx**. في الميثولوجيا الإغريقيّة أنّه يجري سبع مرّات حول عالم الأموات، وأنّ مياهه مسمومة ومسكونة بقوة تكسر أقوى الأشياء وأصلبها.

66- **Eduard Limónov** (1943-2020). كاتب وشاعر وسياسي روسي. أسس الحزب القومي البلشفيكي ثم حلّه لقلّة أنصاره، وأسس بدلاً عنه حزباً أسماه روسيا الجديدة.

واجتازت خطوط عبور المشاة في شارع (آبي رود). وفعلت وقالت، ولِمَ النكران، أشياء لامست حدود الخروج عن المألوف، لأنّها كانت تعلم أنّها تستند إلى جدار عظيم هو أبوها، روبرتو كورّيا، صاحب النفوذ الكبير والعلاقات الواسعة المتشعبة... ما كان لديها الكثير لتقوله عن ذلك الأب سوى أنّه العجرفة متمثلة في شخص، رجلٌ يمتلك سلطة لتدمير حيواتٍ وتخريب بيوت، ليس عن طريق السياسة فحسب. فربّ تعليق منه كفيل بتغيير مجرى حياة. ولطالما غيّر ولطالما خرّب. وكفى بما فعل لزوجته، والدة إليسا، مثالاً ودليلاً.

لقد دخل روبرتو كورّيا، بحكم وظيفته الجديدة في إدارة إحدى الشركات، والصلاحيات التي بات يمتلكها لاستيراد مختلف البضائع وتصديرها، في حلقة العملاء المكلفين بعمليات تجارية سرّيّة، الهدف منها التحايل على الحصار التجاري التي تفرضه الولايات المتحدة الأمريكية على كوبا. لكنّ أمر تلك العمليات انتهى في أيدٍ ما كان لها أن تمسّها. وصلت الأموال نظيفة في البداية، نوعاً ما، فاستحوذوا على بعضها (زجاجات ويسكي، أجهزة موسيقى حديثة)، وحين رأوا أنّ الطريقَ سالكة، طمعوا في المال وفي المنافع، فتضاعفت نسبة القذارة وعلت درجة التهريب حين بلغت حدّ الممنوع (أعمال فنيّة، عاج، ماس أنغولي)، قبل أن ينتهوا متاجرين بالمخدرات. وبلغت الأموال التي صنعوها من الكثرة والوفرة أن صاروا بمنجاة من أيّ عقاب، وكيف يعاقب قراصنة يعودون بكنوز.

لكنّ الفضيحة تفجّرت حين آن لها أن تنفجر، وانتهى فصلها الأوّل بإعدامات وأحكام بتهم تصل إلى حدّ الخيانة العظمى. من وراء الرؤوس الظاهرة، برزت عشرات الرؤوس المتورطة في جرائم متنوعة في طبيعتها ودرجاتها، فعوقب من عوقب بنقلٍ أو إقالة أو طرد، بينما فقد آخرون حظوتهم وباتوا خارج الثقة التي وضعت فيهم.

لم يُحاكم روبرتو كورّيا ولم توجّه له أيّة تهمة، بل جُرّد من منصبه، وأنزل من مرتبته، وحرم من امتيازاته، شأنه شأن كثيرين،... فهل تجاوزوا عن روبرتو كورّيا تجنباً للكشف عن عملية استخباراتيّة أكبر؟ أم لأنّ يديه لم تتلطّخا، فعلاً، كما أقسم هو لابنته، بتجارة المخدرات، وأنّ كلّ ما فعله هو

أنّه نفّذ الأوامر، وبذلك دفع وحده ثمن غفلته وعجزه عن إدراك ما كان يجري من حوله؟ أم إنّ الدبلوماسي الذي كان يتجسس على جميع الدبلوماسيين تقريباً ويطّلع على الكثير من الأسرار، تورّط في صفقات من تلك التي طالما عرضتها الأفلام أو الواقع الأمريكي؟ ذلك كان التفسير الذي رأت إليسا أنّه الأقرب إلى الواقع: ربّما كان روبرتو كورّيا قد أدلى بمعلومات تلصق التهمة بزملائه القدامى ليخرج هو بعقوبة لا تودي به إلى السجن. هل كان جاسوساً على الجواسيس؟ على أيّة حال، يبدو أنّ المتهمين في محاكمات عام 1989 [53] لم يشيروا إلى تورّط كورّيا في أعمالهم القذرة. فهل كان لأبيها صلة بهم أم لا؟ هل كان أبوها قريباً من المخدرات أم إنّه لم يتورّط بها قط؟ لم تكن إليسا تعلم شيئاً، ولن تعلم بتفاصيل أخرى عن شبكة فاسدة قرّرت الابتعاد عنها، لأنّ الكشف عن أيّة جزئية من جزئياتها كان يشعرها بالخجل والألم والنفور.

لا تعلم أيضاً كيف تسنّى لوالتر ماثيّاس وروبرتو كورّيا أن يعيدا الاتصال بينهما، ولا كيف تكوّنت بينهما علاقة لا يمكن وصفها إلّا بالوخيمة. يبدو أنّ والتر، الذي ازدادت حياته غموضاً، عرف بطريقة ما، أو تصوّر، أو قدّر، أنّ روبرتو كورّيا بات طيّعاً ليناً، فحاول استغلال ظروفه. وما أسوأ ما قدّر! لقد حاول، بكيلوغراماته الستين، وشمخرته الفارغة، مدفوعاً بمخاوفه ويأسه، الدخول في حلبة فيها مصارعٌ عظيم الوزن، يحمل كلّ أدوات المعركة، وله سجلّ طويل من جولات القتال...

اعترف والتر لأصدقائه، بعد عودته من الاتحاد السوفييتي، بأسلوبه المستهتر المعهود، بأنّه يدخّن الماريجوانا، بين الحين والحين، فيبلغ بها حالة ذهنيّة وإبداعيّة متميّزة. لم يكن العديدون منهم يصدقونه، وإن وجدوا كلامه ظريفاً ومثيراً للفضول. لكنّهم لم يجرّبوا التدخين، وإن علموا أنّ فابيو جرّبه، مرّة، مع والتر، نموذجه وقدوته. أمّا الآخرون، صالحو (فونتانار) فلا، لأنّهم يرون فيه إثماً لا يخطر لهم على بال.

ثمّ علموا من بعدُ، مذهولين مدهوشين، أنّ والتر كان يتعاطى الكوكايين أيضاً، وكان من النادر في كوبا، آنذاك، أن يتعاطاه أحد، بل كان صعباً الحصول عليه، وما كان يخطر ببال أحدٍ أن يعثر على غرام واحد منه في الجزيرة. حكى

لهم والتر، حين دارت الكؤوس بينهم ذات ليلة، أنّه بدأ يتعاطي الكوكايين في موسكو، مع أصدقائه من عرب أثرياء وبرازيليين ظرفاء وفرنسيين ليبراليين من أبناء شيوعيين، وشباب أفارقة من أبناء زعماء ودكتاتوريين من حلفاء الاتحاد السوفييتي. وعند عودته إلى كوبا، تمكّن من اكتشاف الطريق إليها، وهو طريق لن يلبث أن يفكّر (أو يعلم) أنّها تنتهي في حلقة روبرتو كورّيا.

حين انطلقت حملة التطهير، التي بلغت ذروتها في صيف عام 1989، أحسّ والتر أنّ النار قد تلوحه، فآثر الهرب. لكنّ الهرب في قارب مطاطي أو لنش، وفي أجواء المراقبة والتوتر تلك، كان أمراً يكاد يكون مستحيلاً. هنا بدأت جهوده للبحث عن طريقة للهرب، وقد حظيت رغبته تلك، في البداية، بتفهّم أصدقائه، الذين لم تكن لديهم فكرة عن دوافعه الحقيقيّة، فتقبّلوا قراره الذي رأوا فيه ردّة فعل على تمرّده واستيائه، أو تعبيراً عن جنونه ومعاناته ممّا يقرب من عقدة الاضطهاد. أمّا ما كان يملأ قلب والتر، في الواقع، فهو الخوف.

وبدأت عجلة المصيبة بالدوران حين طلب والتر من إليسا أن يلتقيا سرّاً. إنّه يريد أن يتكلّم معها حول موضوع مهمّ. حدث ذلك أيّام كانت إليسا مكلفة بإطعام قطّ زميلتها في العمل، وحين كانت شقة تلك الزميلة تحت تصرفها.

بدا والتر، يوم التقيا في الشقة، عصر أحد أيام أيلول من عام 1989، مضطرباً. فهل كان يحتاج جرعة من المخدرات، أم إنّه كان مفزوعاً فحسب؟ في تلك اللحظة، لم تكن إليسا تعلم إن كان بين والتر وأبيها علاقة غير تلك التي مدّت هي جسورها بينهما قبل سنوات. لكنّها لم تستبعد أن يكون والتر يحاول أن يستفزّها ويحرجها ويحرج أباها، لكي يؤمن له هذا طريقة للخروج من البلد. ولمّا كان طبعُ والتر وتاريخه يؤكدان سلوكه المستفز، ردّت عليه إليسا بأنّها لن تكلم أباها ولا غيرَ أبيها، وهددته إن هو عاد وضغط عليها فستشكوه إلى الشرطة أو إلى أيّة جهة كانت.

قاد تهديدُ إليسا والتر إلى ردّة فعل متهورة، فأمسك بها من ذراعيها، وهزّها ثمّ دفعها، وهو يتوعدها، إن تجرأت وشكته، بأنّه سيشكو أباها ويتهمه بالمتاجرة بالمخدرات: وأقسم أنّه سيقتلها إن هي عادت وهددته. ورمى بها

على السرير وخرج وهو يكيل لها الشتائم واللعنات... ثمّ عاد، وهو بعد هائجاً، وبين أصابعه المرتعشة سيجارة، ليسأل إليسا إن كانت رأت ولاعته. فصرخت به طالبة منه أن يخرج وألّا يريها وجهه ثانية.

على إثر تلك الحادثة، ارتكبت إليسا أسوأ أخطائها، إذ حكت لبرناردو، بعد أن سألها عن سبب الازرقاق الذي في ذراعيها، عمّا جرى لها مع والتر، فكأنّها أرادت أن تتخذ من الاعتراف تميمة وجُنّة. لكنّها لم تعِ أنّها، بفعلتها تلك، أطلقت الوحش الكامن في زوجها، وإن لم تقصد ذلك. وهكذا اندفع برناردو المدمن، البارد، الخامد، يطلب والتر، وواجهه وهدده بالقتل إن هو عاد إلى مسّ شعرة من زوجته. أمّا والتر فقد سخر من كلامه، وطلب منه أن يجرّب ذلك إن استطاع.

وكان أن تقرّب والتر من الأخويّة أكثر من أيّ وقت مضى. فهل كان ذلك جزءاً من مهمة كلّف بها، أم هو اليأس؟ حينها بدأ يطلب من داريّو أن يساعده في الحصول على فيزا، وراح يكرر على مسامع الجميع أنّهم مراقبون، بل لقد صرّح، في لحظة ما، بأنّ الشقراء غيستي مخبرة تعمل لمصلحة الشرطة، وصدّقه الكثيرون... ولكي يتمّ مهمته في إفساد كلّ شيء، افتعل شجاراً مع إرفينغ، كاد أن ينتهي بمصيبة أكبر. جرى ذلك كلّه على مرأى الجميع ومسمعهم، وكان مادة حديثهم.

وجرت أحداث جسيمة أخرى، لكنّها لم تبلغ علم الأصدقاء. كان أوّلها أنّ إليسا حكت لأبيها ما جرى لها مع والتر. احتدّ الأبُ، وأرغى وأزبد. وبعد يومين، كشف روبرتو كورّيا لابنته عن معلومة أثارت قلقها، ومفادها أنّ الشرطة تمسك بخناق والتر ماثيّاس منذ أعوام، لأنّها مطلعة على الكثير من سفالاته في موسكو. أخبرها أيضاً أنّ والتر بدأ يعمل مخبراً بائساً وواشياً قذراً، يبلّغ عن كلّ المحيطين به كسباً لرضا الشرطة وتكفيراً عمّا يدين به لها. مع ذلك، فقد طلب من ابنته ألا تغذّي نوازعه الشريرة وأن تبتعد عنه. لكنّ تلك الكلمات زرعت في قلب إليسا الحيرة، فقد كشفت عن أشياء، لكنّها لفّت أخرى سواها بالضباب والغموض.

أمّا الحدث الآخر الذي لم يعرفوا، ولن يعرفوا، عنه شيئاً، فقد حيكت

خيوطه ذات مساء، بعد ثلاثة أيّام من احتفالهم بعيد ميلاد كلارا عام 1990. عادت إليسا إلى بيت والديها فوجدت والتر يتجادل مع أبيها، وقد غطّى حاجبه الأيمن بلصقة للجروح. كانت عينه مزرقة. فوجئت إذ فهمت من أبيها أنّ ذلك الرجل حضر إلى البيت بدعوى أنّها طلبت منه الحضور. وأنّى لإليسا، بعد أن باتت تعرف ما تعرفه، أن ترسل بذلك البائس ليطلب من أبيها أن يساعده في الخروج من كوبا؟ صرخ روبرتو كورّيا متسائلاً، وصرخت إليسا نافية، وصرخ والتر كاشفاً عن أنّ روبرتو يأتي بالكوكايين ليتولّى أحد أعوانه بيعه في الشارع، بل لقد اشترى هو نفسه من ذلك الكوكايين. وتعالت الأصوات، وأمر روبرتو كورّيا والتر بالكفّ عن ترديد تلك السخافات، ونبّهه إلى أنّه لا يخشاه ولا يأبه لتهديداته، فكلامه لا يصدر إلا عن مجنون بائس. وطلب منه أن يخرج من بيته، وألّا يعود ثانية، وأقسم له أنّه سيفرغ رصاصة في رأسه، إن هو عاد، وأنّ أحداً لن يحاسبه، فالشرطة تعرف من هو والتر ماتيّاس، وتعرف تاريخه وسيرته: فلا قضيّة لواشٍ ولا شكاية لمخبر. قال له...

وتراشق الرجلان الشتائم. وتناثرت ألفاظ «ابن القحبة» و«لوطي» و«فاسد» و«جاسوس» و«حشّاش»، وخرج الأمر عن كلّ سيطرة. هجمت إليسا على والتر محاولة دفعه إلى خارج البيت، فضربها وأسقطها أرضاً، وفي بطنها ما في بطنها. فانبرى روبرتو كورّيا ليقول لوالتر، وهو يصوّب بمسدسه نحوه، إنّه إن لم يخرج من البيت فسيفرغ رصاصة في رأسه. ثمّ وضع فوهة المسدس على اللصقة التي على حاجبه وضربه هناك مرتين. فانخرط والتر بالبكاء وراح يستعطف ويستغفر...

ستعلم إليسا أنّ والتر تعارك، قبل ساعات من الفصل الذي وقع في بيتها، مع إرفينغ، ولذلك بدت عينه مزرقّة واللصقة على حاجبه. كانت تلك الليلة الأخيرة التي رأى فيها أحدٌ من الأخويّة والتر... رأته إليسا ومسدس أبيها مصوب إلى رأسه: كان السلكانِ اللذانِ قرّبت بينهما يطلقان شرراً.

ومرّ يومان، لم يسمع أثناءهما خبرٌ عن والتر، ظهر الرجلُ بعدهما جثة هامدة على الأرض، بعد أن حلّق من علوّ ثمانية عشر طابقاً. وهكذا انتهت حياة رجل كان الموت يتهدده من جهتين، بعد أن أربك حياة من احتضنوه وعاملوه معاملة الصديق، على الرغم من نزقه وسوء طبعه.

- هكذا أفسد الحياة على إليسا كورّيا. على إليسا كورّيا، خصوصاً - قالت إليسا، وهي تتكلّم بلسان لوريتا فتزبيرغ، وتستحضر، أمام مس ميلر، قصّة شخص تعرّفت عليه في واحدٍ من تجسداتها، في أزمنة بعيدة، غابرة، مغبرة. أزمنة مظلمة.

8

أنهارُ الحياة

لإليغوا واحد وعشرون طريقاً[67] وعددُ حلزوناتِه إحدى وعشرون.

• ناتاليا بوليفار

الأوريشات في كوبا

تصاميم جريئة لبرونليسكي. برج نواقيس لجوتو، جصّيات لجورجو فازاري، رخام أبيض لكارارا. تماثيل ومزججات لدوناتيللو. لمساتٌ من يد ميكائيل آنخلو. رافعات من تصميم ليوناردو. رخام أحمر من سيينا. مذابح كنائس من عمل لورنزو جبرتي، رسوم بريشة فدريكو زوكاري، وتماثيل أخرى من عمل توني دي كاماينو. رخام پراتو الأخضر. جبروت الكنيسة، آل ميديتشي، الإيمان والنبوغ الإنساني، ذهب، برونز، آجر: كلّ شيء جاهز لتأليف نشيد فريد مكرّس للجمال ولما هو غير مادي أو ملموس. انفجار لما هو فائق عجيب. هل أنا فعلاً هنا؟ هل ترى عيناي كلّ هذا حقاً؟ هل أعيش حياتي الحقيقية أم أعيش حلماً ووهماً؟ هل ظهر بصيصٌ من قضاء أو إشارة من قدر لكي تتحوّل بذرة زرعت في سولار يقع في شارع (پرسيبيرانثيا) الهافاني، حيث القاذورات المعمّرة والروائح النتنة، إلى زهرة أمام هذه الزهور الرائعة؟

67- **Eleggua** هو واحد من آلهة الديانة اليوروبية المنتشرة في منطقة الكاريبي.

راح داريّو يلتهم بعينيه منظر سانتا ماريّا دل فيوري، لكنّ تلك المعاينة المادّية وذلك الإدراك الحسّي لم يكونا كافيين لاستيعاب روعته. لم تكن المرة الأولى التي يتلقى فيها أحد تلك التأثيرات، التي تتركه في شك ممّا يراه: وقع له شبيه ذلك حين وقف أمام نصب *العائلة المقدّسة* لغاودي، بعد وصوله إلى برشلونة؛ وصعقته لوحات البوسكو وبيلاثكيث وروبنز وغوايا مجتمعة في متحف البرادو بحضورها المحسوس الملموس؛ وغرق في مشاعر قويّة تولدت لدى رؤية أصول الكثير من الأشياء حين زار جبل الزيتون وتأمّل غروب الشمس فوق أسوار القدس، أو بين أطلال البارثينون، أو أمام مجصصات (كنوسوس) الألفيّة. وأثار الطريق الملكي وعمودُ تراجان وكولسيوم روما دهشته قبل ذلك الوقت بثلاثة أيّام. مشاعر جعلته لا يكفّ عن التساؤل: هل أنا حقاً هنا؟ هل أنا من يقف هنا؟ وإن أضاف على نفسه، في ذلك اليوم، سؤالاً آخر: ألأجل هذا أنا موجود هنا؟

منذ خروجه من كوبا، قبل ثماني سنوات، بدأت حياة طبيب الأعصاب، في ربيع 1992 الحار، مرحلة سحريّة شبيهة بتلك التي جرت مع أليس حين اجتازت المرآة ودخلت إلى بلاد العجائب. وسرعان ما بدت له السنوات الثلاث والثلاثون الأولى من حياته في بلده، المحاط بالماء من جميع جوانبه، بعيدة، بل غريبة عنه. وبدا له أنّه تجاوزها وطوى صفحتها. ما أكثر تلك السنوات التي أمضاها، يوماً بعد يوم، لإخراج رأسه من وحل المستنقع بتحريك ذراعيه وساقيه، ساعياً إلى أن يتجنّب كلّ من يحاول أن يغرقه ثانية ويجبره على بلع القذارة التي خرج منها، والتي، ربّما، قدّر له أن ينتمي إليها ويقبع فيها دائماً: شأنه شأن الكائنات الأولى. وبقي التهديد بالعودة إلى جحيمه سيفاً مسلطاً على رقبته، وظلّ في حالة إنذار دائم، مستعداً للقتال، ساعة يحين وقتُ القتال، ومندفعاً نحو الأمام، في إصرارٍ على أن يصبح شخصاً آخر، دون أن يتخلّى عن أن يكون هو نفسه. *ولذلك* يقف هناك، أمام معجزة عظيمة من جمالٍ وأبّهةٍ في كاتدرائيّة الزهور. أمّا *لماذا* وقوفه هناك، فسيعلمه بعد ساعات، حين يشرب ما عدّه، في تلك اللحظة، أفضل إسبريسو شربه في حياته.

كانت امرأته قد رتّبت كلّ واحدةٍ من محطات رحلة الأيام التسعة تلك

إلى إيطاليا، التي أرادت لها أن تكون واحدة من هداياها لداريّو بمناسبة بلوغه الأربعين (أهدته أيضاً ساعة روليكس وقلم حبر مون بلان توسكانينياً وأشياء أخرى). في اليوم الأوّل من إقامتهما في فلورنسا، كانت مونتسي على وشك أن تُخرج داريّو جراً من الكاتدرائيّة لتواصل برنامج ذلك الصباح، الذي كان يشمل زيارة قصر (ستروتسي) وتنتهي عصراً بزيارة غاليري الأكاديميّة. وخصّصت اليوم التالي لغاليري (آفيتسي) الكبير والقصر القديم وقصر (پيتي)، بمتاحفه الخمسة، قبل الانطلاق، نهاية العصر، إلى المحطة الأخيرة من الرحلة، التي خططت لها أن تكون ليلتين رومانسيتين يمضيانهما في فينيسيا. ضحكت مونتسي لِما رأت من تعجّب داريّو ودهشته، إذ رأت فيه انفعالاً جمالياً صادراً عن رجل كاريبي لا يحمل تاريخاً طويلاً على ظهره، وإلّا، فأين تكمن الأسباب الخفيّة والمؤلمة التي استفزت زوجها؟

حين خرجا من قصر (ستروتسي)، نبّهت مونتسي داريّو إلى أنّهما ذاهبان لتناول الغداء في مطعم (اللاتينو)، الشهير بطبق *البستيك الفلورنسي*، حيث حجزت طاولة لهما. بعد أن تناول الزوجان الغداء، وأتيا على زجاجة من نبيذ برونيللو دي مونتالشينو، كلفتهما ثمانين دولاراً، وكأساً من العرق، قررا البحث عن مقهى يتناولان في تَرّاسه فنجاناً من الإسبريسو، يساعدهما على هضم *البستيك*، قبل الشروع في زيارة غاليري الأكاديميّة. يقع المقهى المختار على ضفاف نهر (آرنو)، قريباً من قنطرة (پونتي فيكيو) القديمة، ويسمح لهما موقعه بمنظر متميّز للمدينة التي سار في دروبها وطرقاتها دانتي وليوناردو وميكائيل آنجلو والكثيرون من آل ميديتسي. تلك المدينة التي وصفها داريّو بأنّها الأجمل في العالم، ووصف الإسبريسو الذي تناوله فيها بأنّه أفضل ما تذوقه من القهوة في حياته. في تلك اللحظة رأى ما لم يكن ينتظره ولا يقدر على تجنّب النظر إليه.

امرأة شقراء، يتراوح عمرها بين الثلاثين والخمسة والثلاثين عاماً، تسير في الشارع، متأبطة ذراع رجل أكبر منها بقليل، واضح أنّه إيطالي، حتّى في قبّة قميصه الأحمر المرفوعة. بدت المرأة أكثر امتلاءً، فقد تجمّعت بضعة من أرطال الشحم في ردفيها ووركيها، دون أن يؤثر ذلك في جاذبيّة جسمها وجماله، وفق مقاييس الجمال السائدة في مسقط رأسها. ما لم يتغيّر في تلك

المرأة، في السنوات العشر التي لم يرها داريّو فيها، هو تعبير الاستغراب الذي يضفيه على وجهها رفعُ حاجبيها، وعيناها اللتان تشبهان عيني دمية.

– مستحيل! – قال الرجل بالإسبانية ونهض، دون أن يشرح شيئاً لزوجته، التي نظرت إليه مستغربة. فتح طريقه بين موجة من السائحين اليابانيين، وتقدم من الإيطالي والشقراء، ليضع نفسه قبالتهما. نظر إليه الرجل باستغراب، لكنّ المرأة الشقراء ذات العينين المشدوهتين وسّعت من قطر دائرة جفنيها، فكأنّها خشيت أن تسقط مقلتاها الجاحظتان.

– داريوووو!!

– غيستي؟ تلعثمت، ثمّ سرعان ما تعانق الاثنان وطبع كلّ منها قبلة على خدّ الآخر، مرتين، على طريقة الأوروبيين.

– مستحيل! أكاد لا أصدّق! من كان يتصوّر! قالا كلاهما.

ودعا داريو غيستي وزوجَها، وهو إيطالي فعلاً، واسمه جوفاني (تدعوه هي *آموري*)، إلى أن يرافقاه لتناول فنجان من الإسبريسو. وقبل الزوجان الدعوة، وكان على الرجل الإيطالي والمرأة الكاتالانيّة أن يمضيا برهة من الوقت وهما يستمعان إلى حوارٍ لا يفقهان منه شيئاً. وجرى بين داريّو وغيستي حديثٌ مليء بالعواطف والحنين، ضاعت مونتسي وضاع جوفاني في تفاصيله، إذ كان يعوزهما الكثير لكي يعيشوا زماناً سبق ظهورهما في حياة كوبي وكوبية تعرفا بعضهما على بعض في حياة أخرى وزمان آخر، والتقيا في شارع من شوارع فلورنسا، بعد أن ابتعدا كثيراً عمّا كانا عليه وعمّا كانا سيكونان عليه لو أنّ حياتهما السابقة سارت في طريقها وعلى منوالها.

قصّ داريّو على غيستي تفاصيل خروجه من كوبا ووصوله إلى برشلونة، وحكى لها كيف ابتسم الحظ له بعد ذلك: فقد نال الدكتوراه من جامعة برشلونة، والتحق بالعمل في أحد مستشفيات المدينة، وتعرّف على مونتسي –وطبع على شفة زوجته قبلة خاطفة–. أمّا غيتسي، فقد حكت له كيف التقت جوفاني في كوبا، وقت الأزمة، قبل ست سنوات، وكيف رافقته إلى إيطاليا. قالت له إنّهما يسكنان الآن في (پراتو)، حيث يمتلك جوفاني مخبزة معروفة على نطاق توسكانا، وشهيرة بصناعة البسكوت الذي يؤكل مغموساً في

القهوة أو في المشروبات الكحولية الحلوة وقدّم داريّو لها عرضاً موجزاً بما صارت إليه حال كلّ واحد من المعارف المشتركين والأصدقاء، فبعضهم ما زال في كوبا (كلارا وأولادها)، بينما تفرّق آخرون في أنحاء العالم، كما هو حال هوراثيو، المقيم في سان خوان، عاصمة پويرتو ريكو، الذي بات أباً لفتاتين توأمتين. في تلك اللحظة، ضرب داريّو على وتر بدّل نغمة الحديث وأضفى على اللقاء العفوي طابعه الحقيقيّ.

– لم أتصوّر أنّكِ ستغادرين كوبا.

– ولم لا؟ أليس في إمكان أيّ واحد أن يغادرها؟ وقد رحل الكثيرون... الأمور باتت لا تطاق هناك... وإن كنتُ لم أتصوّركَ أنا أيضاً خارج كوبا – ردّت عليه–. كان لديك بيتٌ وسيارة وعائلة، ولطالما حمل إليكَ مرضاك الهدايا... وكنتَ عضواً في الحزب، أليس كذلك؟

– بلى...، كنتُ

– ولطالما قلتَ إنّكَ مدين للثورة بالكثير، وإنّك كنت فقيراً، لكنّك استطعتَ أن تدرس وتنجح... وفي النهاية لم ترحل، بل لقد هربت. أنا أيضاً لم أكن أتصوّر أنّك تفعل ذلك.

– فعلتُ ما فعله الآخرون –دافع عن نفسه–. أغلب من سافروا ولم يعودوا كانوا في الحزب، أو كانوا موضع ثقته، مثلي... ومثلك. فأنتِ كنتِ تعملين في الأمن، أليس كذلك؟ أم في الشرطة؟

ابتسمت المرأة دون أن تنطفئ في عينيها علاماتُ الدهشة.

– صديقك هوراثيو سألني السؤال نفسه... فهل صدقتموه؟ هذه كذبة اخترعها والتر، الذي بلغ به جنونه أن انتهى كما انتهى. لم أكن يوماً أيّ شيء... حسناً، كنتُ، وأنا طالبة في الابتدائية، في الكشافة. – وابتسمت وقلّدت تحيّة الكشّافة.

– لكنّ والتر أكّد أنّكِ انضممتِ إلينا لتراقبينا. أو لتراقبيه.

– أراقب والتر؟ ولماذا؟ والتر يفعل أيّ شيء حيث يريد. كان مجنوناً بائساً. ورسّاماً رديئاً... أليس كذلك؟

– وإرفينغ قال أيضاً إنّك كنت تعملين مع الشرطة.

– إرفينغ؟

– نعم. فقد رآك في البناية حيث اعتقلوه وحققوا معه. فبعد انتحار والتر... اعتقلوا المسكين إرفينغ هناك عدة أيّام، واستجوبوه...

– صحيح... كلمني هوراثيو عن ذلك.

– وقد قال إرفينغ إنه رآك في المكتب.

– رآني أنا؟ في المكتب؟... يا له من خوّاف مهزوز...

– لكنّه لا يكذب... ثمّ اختفيتِ بعد انتحار والتر.

– فهوراثيو، إذن، لم يحكِ لكم أنّهم استجوبوني أنا أيضاً في ذلك المركز؟ وأنّهم احتجزوا أخي، بعد ما جرى لوالتر، بسبب سيجارة من الماريجوانا؟ سيجارة وسنتا سجن!

– ماذا تقولين، غيستي؟

– ليس ما أقوله حكاية ملفقة... يا لسفالة هوراثيو... ألم يحكِ لكم شيئاً؟

كانت مونتسي وجوفاني يكتفيان بتحريك رأسيهما يمنة ويسرة فكأنّهما يتابعان مباراة بالتنس. ولم تلبث عيون الكاتلانيّة والإيطالي أن اكتسبت سعة الدهشة التي في عيني غيستي: فهل هما يتكلمان عن حوادث انتحار وتحقيقات جنائيّة وانتماءات حزبيّة وتجسس؟ عامان من السجن بسبب سيجارة ماريجوانا؟ وانعقد لسان مونتسي الثرثارة، وبدا جوفاني غير مرتاح في مقعده، وهو يدخّن سيگاره التوسكاني الذي بدأ يتهرأ شيئاً فشيئاً.

– هل تكلّمتَ مع هوراثيو؟ –ما عاد داريّو يفهم. إنّه لا يذكر أنّ هوراثيو ذكر غيستي ثانية–. ولماذا اختفيتِ دون أن تخبري أحداً؟

– لأنّ الأجواء كانت مكهربة، والجميع خائف، فقد كان في الموضوع شخص ميت، وليس ذلك بالأمر البسيط. بالطبع لا...

– لا طبعاً. لم يكن الأمر بسيطاً –أيّد داريّو كلامها–. والتر رفع الغطاء عن برميلٍ من الخراء. ولكن، من جاء بالخراء؟ ومن أين؟

- لا أدري... طيشُ والتر ومصائبُ إليسا... وكان ذلك يشغل بال هوراثيو. فبينه وبين برناردو وإليسا ووالتر إشكال، مشكلة عويصة. الشرطة جاءت، كما قلتُ لكَ، إلى بيتي. أخذوني إلى المركز ليسألوني عن بعض الأمور، ولم أكن مستعدة لأيّة مشاكل -قالت غيستي، وهزّت رأسها مؤكدة نفيها، ثمّ أمسكت بيد جوفاني وأبدت حركة فكأنّها تريد النهوض-. كم هو مؤلم ما حدث... حسناً، نحن...

- غيستي! لماذا حين أناديك باسمك ينظر زوجك إليّ باستغراب؟

نظر داريّو إلى جوفاني ثانية وابتسمت غيستي ثمّ نهضت.

- لأنّ غيستي اسم استخدمته هناك، وكان يعجبني لأنّه خفيفٌ على اللسان... ومَن يعجبها أن ينادوها ماريّا خيورخينا؟... أمّا *آموري* فيدعوني ماريّا...

- ألا يمكن أن يكون غيستي الاسم الذي كانوا يطلقونه عليكِ في عملك؟ أليس هذا ما يفعلونه دائماً حين يطلقون على المخبرين أسماءً مستعارة؟

- رجاااءً... هل ستعود إلى هذه الإسطوانة؟ لا أرغب في سماع هذا الكلام... أنتم دائماً مجانين. كلكم. وها أنا أرى أنّكم لم تتغيّروا وإن لبستم ساعات روليكس... بالمناسبة، هل ساعتك هذه أصليّة؟

هزّ داريّو رأسه نافياً. كان ما يزال جالساً. ربّما هو مجنون أو معتوه، كما تقول تلك المرأة، لكنّ تماسّاً مّا حدث، في تلك اللحظة، بين سلكين ولّدا شرارة كهربائيّة كانت كفيلة بإضاءة مساحة مظلمة من حياته وحياة أصدقائه. هل صحيح أنّ أحداً ما كان يراقبهم ويعرّيهم أمام الشرطة؟ أحدٌ قد يكون على صلة بالمصائب التي وقعت بداية عام 1990؟ هل يمكن أن يكون ذلك الأحد تلك المرأة التي بدت لهم على الدوام بسيطة مهمشة، بل حتّى بلهاء، تبخّرت فجأة، ثمّ ظهرت تتجوّل في فلورانسا مع زوجها الإيطالي، صاحب المخبزة الشهيرة؟ أم إنّ عليه أن يصدّق أنّها كانت ضحيّة العاصفة التي فجرها والتر؟

- كنتُ في شك ممّا قيل. بل لم أصدّق تلك الأقوال. أمّا الآن فأرى أنّكِ

كنتِ مخبرة فعلاً -قال داريّو، ونظر إلى جوفاني، ثمّ عاد ينظر إلى غيستي ليسألها-: وهل تقاعدتِ من عملك أم ما زلتِ تعملين مع الشرطة؟ ماذا قلتِ إنك تسمين الآن؟

- اسمع، داريّو. أنت مجنون... مجنون تماماً، مثل والتر... هيّا بنا *آموري!* لا أريد أن أضيّع وقتي مع هذا المجنون...

نهض داريّو. لقد صحا في داخل الرجل الذي شعر بأنّه خُدع، الطفلُ العنيفُ، وصحت طفولته البائسة. صحا الطفل الذي استذكر، في ذلك الصباح، فصول قدره ومصيره المضطرب، وهو يقف أمام كاتدرائية فلورانسا المهيبة. فها هي المرأة التي لا يعرف ما كان اسمها، تلك المرأة التي قد تكون تجسست عليهم طوال أشهر، تصفه، كما كانت تفعل أمّه، بالمجنون. مجنون. أنت مجنون. مجنون تماماً. فماذا تعرف هي عن حياته؟ وكم تعرف؟ حينها، وضعت مونتسي يدها على يده وضغطت عليها بقوّة، فكأنّها تعيده إلى واقع حياته الجديدة السعيدة.

- انصرفي -تمتم داريو، وقد شعر بالراحة لقدرته على التحكّم بأعصابه، وإن أحسّ بحاجة إلى التنفيس عمّا يعتمل في نفسه-. قد أكون منشقاً، وقد أكون مجنوناً...، أمّا أنتِ، فإن كنتِ مخبرة فعلاً، فما أنتِ إلّا سافلة وخائنة من الدرجة الأولى. ربّما لن أتحقق من ذلك أبداً... ولكن إن صدق ظنّي، وهذا هو ما أميل إليه وأظنّه، فاللعنة على أمّك، أيّتها الساقطة! -صرخ بالمرأة الشقراء، التي سارعت بالابتعاد، وهي تهزّ مؤخرتها المكوّرة الرائعة، وكلماته الأخيرة تنهال على ظهرها وعلى وجه الإيطالي المشدوه، الذي واصل النظر إلى داريّو (هل هو مجنون حقاً؟) وهو لا يفهم شيئاً تقريباً مما وقع في أغرب ساعات حياته، وبحضوره. ولكن، لا جوفاني ولا غيستي، استطاعا سماع كلمات داريّو الأخيرة-. اللعنة على أمّك، حتّى لو لم تكوني مخبرة، أيّتها السافلة!

أن يصبح كاتالانياً. أن يعيش ويفكّر كالكتالان. أن يتكلّم بالكاتلانيّة. أن يعاني أو يستمتع بكلّ مباراة يخوضها البارتسا. أن يتناول في الإفطار *الخبز والطماطم*. أن يمتدح *الفويه* والنقانق الكاتالانيّة، بصفته كاتالانيّاً أصيلاً. أن يكره الدولة الإسبانية الظالمة، بصفته كاتالانياً متطرفاً جمهوريّاً مطالباً بالاستقلال لوطنه وأرضه. أن يفكّر في أنّ الكاتالانيين العاملين النشطين غير ملزمين بأن ينفقوا على إسبان آخرين كسالى عاطلين. أن يكون كاتالانياً أكثر من الكاتالانيين وأن يخفي، حتّى عن نفسه، أصله المخجل، ويحاول، في الوقت نفسه، ألّا يقول، ولا حتّى لنفسه، وهو يعلم ذلك، أنّه لن يكون، في يوم من الأيّام، كاتالانياً حقيقياً (لا في نظره هو ولا في نظر الكاتالانيين المتطرفين الذين تنتمي إليهم مونتسي) وأنّه غير مهتمّ، في الحقيقة، بأن يقبلوه كاتالانياً: لأنّه، في الحقيقة، لا يريد إلّا أن يتحوّل إلى شيء آخر، أن يصبح داريّو آخر، لا يهمّ أن يصبح كاتالانياً أم أمريكيّاً، المهم أن يبتعد عن داريّو الأصلي. أن يدفن الماضي، أن ينصرف إلى حساب الأرباح، ولا يعود لحساب الخسائر. أن يهزم أيّ بصيصٍ من الشوق. أيّة طلّةٍ من الحنين. شوق؟ حنين؟ وما نفعُ الشوق؟ وما الجدوى من الحنين؟

أمّا الحظّ الذي رافقه (وجزء من الحظ المالُ والثروة)، بفضل ذكائه ومثابرته وعزيمته الحديديّة، فما هو إلّا مكافأة نالها بجدارة واستحقاق، ما انفكّ يقول. إنّه لا يرى في نفسه برجوازيّاً، لكنّه يعيش في بحبوحة البرجوازي المادية ووجاهته الاجتماعية، وهو ما يبعث في نفسه الفرح ويرسم على وجهه السرور: ولذلك فهو يستمتع ببيوته وسياراته ومقتنياته. وتملأه صفة الدكتور والبروفيسور، في كثير من الأحيان، بالزهو. فهو الدكتور، البروفيسور، المحترم والمطلوب، الذي يضع توقيعه على التقارير الطبيّة

والتواريخ الكلينيكيّة، بقلم *المون بلان*، المصمم لحساب توسكانياني. كلّ ذلك يملأه بالفخر والرضا، إنسانياً ومهنيّاً. ولكي يفهم الأسس التاريخيّة التي تكوّن أمّة من الأمم (كالأمّة الكاتالانيّة)، فقد راح، في تلك الأوقات، يقرأ ما كتبه ستالين عن القوميّات، وغرامشي[68] لكي يكتسب صفة المثقف الثوري. أو شيء من هذا القبيل.

حين يروق الجو والأجواء في بعض الليالي، يركب داريّو سيارته الفارهة BMW 2003، الأرقى والأمتن من الـ Cirtoën Xantia المقلقلة، والبعيدة كلّ البعد عن الـ LADA السوفييتية القديمة التي أعاد إليها الحياة، في حياته الكوبية. سيارة تقود نفسها بنفسها، وقد اعتاد، وهو يستمتع بالتجول فيها، أن يستمع إلى عملٍ أوبرالي من تلك التي حببتها إليه مونتسي. يرتاد مقاهي الميناء أو مقاهي بلاج (سيدجيس) ليروح عن نفسه ويبتعد عن سُلطة زوجته وميلها إلى التملّك («لا تبالغ في حبّك لي»[69]، يدندن أحياناً) ويتخلّص من توترات العمل. أمّا الأهم فهو أن يختلي بنفسه ويغرق في بحر أفكاره. كان اقترابُ موعد وصول ولده رمسيس، الذي لم يره منذ ما يقرب من خمسة عشر عاماً، يثيره لأنّه سيعيده إلى ماضيه الذي هرب منه، كما يهرب من وباء فتّاك.

كان داريّو يمضي ساعتين من وقته، يستمتع بالرون الكوبي وسيگار الهابانو، الذي يصل من الجزيرة (الجيد جيد، ولا يهمّ من أين يأتي)، وكان بعض مرضاه يصرّون على إهدائه إياه، كما حين كان في كوبا. يجلس عند طاولة، قبالة البحر المتوسط، يتأمّل نفسه ويراجع حالته، فكأنّه ما زال في حاجة إلى أن يقتنع بشيء. قائمة طويلة من المنجزات والنجاحات الباهرة، طوال عشر سنوات من منفاه، وإن اختفى وراءها جبلٌ من مثالب مادية وروحيّة، تملأ حياته المنصرمة القاسية. أمّا الآن، فهو يدخّن ويشرب، محتفياً بانتصاره.

منذ سنوات طويلة، اتخذ داريّو قراراً بأنّه لن يصرّح لأحد بتفاصيل نشأته

68- **Antonio Gramsci** (1891–1937). فيلسوف وماركسي ثوري إيطالي.

69- *No me quieras tanto* أغنية للثلاثي المكسيكي (لوس پانجوس) من ألبوم لهم صدر عام 1993.

البائسة. ولا لصديقه هوراثيو، الذي تعرّف عليه منذ طفولته ودلّه على الطريق إلى الخلاص؛ ولا لكلارا، زوجته طوال خمسة عشر عاماً، والتي فتحت له أبواب انتقاله الأوّل إلى عالم تملأه النظافة والضوء؛ ولا لولديه رمسيس وماركوس، اللذين كان من حظهما أن يولدا حيث ولدا؛ ولا، بالطبع، لمونتسي، التي تربّت في بيتِ عزّ وجاه: لم يحكِ لأحد، ولن يحكي تفاصيل خوفه ورعبه. طفولة عاشها تحت رحمة والدة تستسهل القسوة، وتكرهه، وترى فيه ثمرة ذلّها ومهانتها. علاوة على المرارة التي طالما تجرعها. مرارة سنوات عاشها في حجرة صغيرة، متصدعة الجدران مشققة السقف، محاطاً بحشد من الناس المحرومين المهمشين، رجال ونساء ينظرون إليه فلا يرونه، بل لا قدرة لديهم للعطف عليه والرثاء لحاله، بعد أن فقد الكثيرون منهم مفهوم العطف والرثاء، ببساطة لأنّهم ما كانوا يرون في الطفل غير كائن يسير على خطى أمّه وخطاهم، في فقرهم المادي والأخلاقي. وخصوصاً الأخلاقي.

مع بصيص الوعي الأول، الذي جعله يدرك وضعه ويقارن نفسه بالصبية الآخرين، مثل صديقه هوراثيو، راح داريّو يسأل نفسه عن سبب التعاسة التي هو فيها. تعرّضت أمّه، أولغا، للاغتصاب وهي في سن الرابعة عشرة، وحملت به. لم يعرف قط من كان أباه، وإن اعتاد أن يسمع أمّه تقول له إنّه «نسخة» من ابن القحبة أبيه. لم يفهم لماذا لم تسقطه الأم الجاهلة، ما دام ابن سفاح. لكنّه فكّر أنّ الأمرَ قد يتصلُ بذلك الجهل وبالخوف، أو بغياب المسؤوليّة.

أمّا الأدعى إلى الألم، فهو أنّ المرأة التي هُتك شرفها، كانت ترى ولدها، في شعور مردّه نشأتها البائسة العنيفة، تجسيداً لمصيبتها وأصلاً لبلائها، فتكيل له الصاع صاعين عنفاً ودناءة أصل. وما أكثر ما ضربته لأتفه سبب، أو من دون سبب، منذ أن بدأ يشعر بالألم، حتّى بات لا يشعر به. وما عاد يسمع الصراخ. وصار الجوع طبيعياً عنده، حتى صارت تكفي لإسكاته جرعة من الماء المخلوط بالسكر، وكسرة من الخبز، وما يفيض من طعام كانت هي تأتيه به من المطعم العمالي الذي كانت تعمل فيه. وهكذا دبغ كلّ فصل من فصول القسوة والتقشّف جلده وقوّته.

على أنّ الإهانة الأفظع والأعصى على النسيان كانت حين تعاقبه أمّه بتجريده من ملابسه وإجلاسه على دكّة في باحة السولار وتركه قابعاً هناك، تحت الشمس أو في الظلام، تحت وابل المطر أو في البرد، حتّى تنسى سبب العقوبة. أو حين تصفه، بأعلى صوتها، بالمجنون، وتسخر منه حين يصرّ على الذهاب إلى المدرسة ويترجاها أن تشتري له الزيّ المدرسي وألا تنظّف الطاولة بمنديل الكشافة: يا لك من مجنون، مجنون تماماً، كأبيك. كانت تلك الإهانة الأشد وقعاً عليه وإيلاماً له. إهانة تضرب على وتر حساس فيه فتجعله كالمجنون.

لكنّ داريّو وجد لوح النجاة في المرأة العجوز السوداء، وزوجها الإسباني العجوز -هكذا يتذكرهما داريّو، وإن لم يكن أيّ منهما بلغ الستين-، اللذين كانا يسكنان في الطابق الأخير من السولار. فعلاً، فقد وجد فيهما ما بعث فيه الأمل بوجود فضلة من الخير في العالم. أطعماه، حين حرمته أمّه من الطعام، وآوياه إذا ما أغلقت أمّه الباب وتركته في الشارع عارياً كالكلب الضال، واحتفظا له، طوال سنوات، بدفاتره وأقلامه التي كان يذهب بها إلى المدرسة القريبة.

ولمّا بلغ داريّو الثامنة من عمره، هبط عليه من السماء الخلاسيُّ المشعوذ، سائق الحافلة، لاثارو موروا. تقرّب من أمّه، ورفع عنه عقوبة التعرّي أمام الجمهور وحماه طوالَ السنوات الثلاث التي أمضاها قريباً منهم. كان ذلك الرجل قليلَ الكلام، عابسَ الوجه، وكان هو من وجهه إلى ممارسة الجودو وتعلّم فنونه وفلسفته. وكان هو أيضاً من قال له إنّه، أي داريّو، ابن كلاسيكي من أبناء الإله إليغوا، الإله الأفريقي الذي يحمي طرق الأرض الإحدى والعشرين، لأنّه يحمل مفاتيح القدر التي بها، قال، تفتح أبوابُ المصائب أو السعادة وتُغلق. أمّا المطلوب، فهو أن نتعلّم طريقة استخدامها.

وحين بلغ داريّو من العمر ما مكّنه من أن يحلل هويته وأصله، وما يمكن أن يكون عليه مستقبله، اكتشف أنّ حياته لم تكن صورة مستنسخة من حياة أمّه أو حياة جيرانه في السولار، ولا من حياة أصدقاء طفولته في الحارة، مثل پيپو، الذي أودعوه الإصلاحيّة، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، أو بيتو، الذي حكم عليه بالسجن ثلاثين سنة بتهمة القتل، ثمّ عاد إلى القتل، وهو ابن اثنتين

وعشرين، وكان ما زال في السجن. ربّما لأنّه كان يشعر في المدرسة بأنه في مأمن، لذلك كان يمضي معظم وقته في الصف أوالمكتبة المتواضعة؛ وربّما لأنّه كان يمتلك، ولأسباب جينيّة يصعب تفسيرها، قدرة على فهم الدرس وحفظه بمجرد سماعه، وقراءة المكتوب بمجرد تمرير بصره عليه؛ وربّما لأنّ المديرة الصارمة المهووسة بالانضباط، أشفقت عليه بعد ما رأت من نحول جسمه، وآثار الضرب البادية على بدنه، وتقطّع حذائه (وصل إلى الدرس ذات يوم وقد رتق حذاءه بسلك). ومنذ ذلك الوقت، صارت المديرة تأتي له بملابس أولادها وأحذيتهم التي ما عادت تناسب أعمارهم؛ ثمّ إنّه ولد في بلد يضمن حتّى للمشرّد مثله مدرسة ابتدائية جيدة، وثانويّة أفضل، ودخولاً إلى الجامعة، وهي فرص أحسن داريّو استغلالها والإفادة منها.

أمّا أعجب ما في داريّو فهي قدرته المبكرة على أن يعثر على خلاصِه في داخله (هل هي مفاتيح القدر التي يمتلكها أبناء إليغوّا؟)، وهو إحساسٌ مارسه عن وعيٍ وأكثرَ من ممارسته حتّى حالفه النجاحُ وتفوّق على أقرانه، من المرحلة الثالثة الابتدائيّة حتى تخرجه من كليّة الطب. وسرعان ما أضاف إلى تألّقه الأكاديميّ تألّقاً رياضياً وبدنيّاً، حتّى ما عاد أحدٌ يرغب في الدخول في شجارٍ مع ذلك «النحيف الشرس»، ليس لأنّه يتقن الجودو، بل لأنّه لم يكن يخاف ألماً يصيبه ولا دماً يسيل منه. كان رجلاً لا يقهر.

في مكتبة المدرسة الابتدائيّة الصغيرة، تعرّف داريّو على تلميذ غريب الأطوار، خلاسي فاتح اللون يُدعى هوراثيو. كان هوراثيو هذا يطالع الروايات وينفق ساعات العصر في تعلّم اللغة الإنكليزيّة والكتابة على الآلة الطابعة. بدأ داريّو يشارك هوراثيو قراءاته، ويراجع دروس اللغة التي كان الآخر يتلقاها، وسرعان ما تقوّت بينهما الصلة، وتعزّزت الصحبة. وتحوّل بيت الصديق، الذي كان يسكن مع أمّه وأخته، إلى ملاذه الآمن حين يعزّ عليه الملاذ. بيتٌ متواضع له حمّامه الخاص به، حيث تصول الصراصير وتجول. لقد لجأ داريّو إلى بيت صديقه غير مرّة، حين اشتدت العواصف، كتلك التي أدّت إلى انفصال أمّه عن الخلاسي المشعوذ سائق الحافلة، ووصل الأمر إلى أن حاولت أمّه ضربه فردّ عليها هو، دفاعاً عن النفس، ردّاً كسرَ عظمَ أنفها وولّد لديها القناعة بأنّها ما عادت تقدر عليه. وكان في ذلك بداية علاقة

تساهل ولين بينه وبين أمّه، التي لم يشعر تجاهها، بعد كلّ ما عاناه منها، بكراهية، لكنّه لم يستطع أن يصل إلى أن يحبّها ولا أن يغفر لها خطاياها.

كم من الطريق قطع؟ وعلى بُعد كم سنة ضوئيّة يقف الدكتور الذي يكتب بالمون بلان من الطفل الذي يقف عارياً في باحة السولار؟ وفي مقدور مَن أن ينتقده على أنّه ترك الجمل بما حمل، حين كان الانهيار وشيكاً، لكي يعيش كما صار يعيش، بل لكي يحاول أن يكون كاتالانياً ويتخلّى، وإلى الأبد، عن أصله وصفته الكوبيّة التي يحملها، والتي استطاع بفضلها أن يصبح طبيباً في ذلك البلد غير المتجانس الذي يدعى كوبا؟ يسأل نفسه، وهو يدخّن سيگاره الهافاني ويشرب الرون المصنوع في سانتياغو دي كوبا، ويشخص ببصره إلى البحر المتوسط، ويقول لنفسه إنّ في مقدوره أن يخدع الجميع، لكنّه لن يستطيع أن يخدع نفسه، لأنّه لن يستطيع أن يكون غير ما كان: وصولي متسلّق، قفز من المركب قبل غرقه. فكم هو محظوظ! وربّما وضعت الآلهة في جيبه مفاتيح القدر، فعلاً، فصارت لديه القوة اللازمة لفتح أشد الأبواب صعوبة على الفتح.

كان آخر ما رآه رمسيس مارتينِث چاپله، قبل أن ينغلق باب صالة المغادرين وراء ظهره، وجه أمه الغارق في الدموع. وبعد اثنتي عشرة ساعة، حين انفرجت أبواب مطار مدريد، كان أوّل من رأته عينا الشاب المهاجر هو إرفينغ، الذي لم تلبث دموعه أن خانته. ما كان أكبر الفارق بين المسرحين والمشهدين، زماناً ومكاناً (صعد الطائرة الجمعة ونزل منها السبت؛ وكانت درجة الحرارة في هاڤانا ستاً وعشرين، أمّا في مدريد، فعشر درجات، مرشحة للنزول)، بل في صفة رمسيس القانونيّة وفي جنسيته، مع ذلك فقد رافقه إحساسٌ غامض بأنّه لم يتحرّك من مكانه.

كان رمسيس قد أنفق أربعة عشر شهراً في معاملاتٍ وإجراءاتٍ ونفقاتٍ، قبل أن يتبلور قرارُه بالخروج من كوبا. قبل أن يقدّم طلباً لتأجيل دراسته في المرحلة الرابعة من معهد التكنولوجيا، قسم الهندسة الكهربائيّة، استشار أباه وسأله إن كان مستعداً لإرسال دعوة له، وفق إجراءات لمّ الشمل العائلي، وهو الإجراء الأضمن والأسرع، فردّ عليه داريّو، الذي طالما أحسّ بالذنب تجاه أسرته، بالإيجاب. لكنّ الرواح والمجيء بين وزارة التعليم وإدارة الهجرة الكوبيّة والقنصليّة الإسبانية كان، كالعادة، طويلاً وشاقاً، فهذه تطالبه بوثيقة رسميّة، وتلك تطلب منه ختماً أو توقيعاً أو تصديقاً، فكأنّ تلك الدوائر والمصالح تتضافر وتتآمر لتصعّب كلّ سفر تشمّ منه رائحة «الخروج النهائي من البلد».

وحين باتت الفيزا الإسبانية وتذكرة الطائرة، التي اشتراها من نقوده، في يده، بدأ رمسيس التحضير للسفر. اتصل إيفرينغ بكلارا ورمسيس ليبلغهما بأنّه سيكون في استقبال الفتى في مدريد، وأنّ رمسيس سيقيم، في الأيام العشرة الأولى، معه ومع جويل، في شقتهما الصغيرة، ليتعرّف على العاصمة،

ثمّ يواصل سفره بالقطار إلى برشلونة، وهي ترتيبات جرت بالاتفاق مع داريّو. وأبلغه أيضاً بأنّهما، هو وأباه اشتريا له معطفاً وأحذية وملافع رجالية، اختارها له بنفسه، مستفيداً من موسم التنزيلات الثاني. وأنهى المكالمة، بعد أن كرّر على مسامعه شعوره بالسعادة لأنّه سيلتقي رمسيس العزيز على قلبه.

حين وصل رمسيس، استقبله إرفينغ وجويل، ثمّ اصطحباه في جولة استطلاعية في (چويكا)، الحي الذي يسكنان فيه، لتناول البيرة أو النبيذ، في بار جويل المفضّل، في شارع (پيلايو). التزم رمسيس، طوال الجولة وطيلة الليل، موقف المتفرّج المنبهر من الأجواء الصاخبة الجديدة عليه. فكان يردّ، كلّما سأله إيرفينغ، السعيد بوجوده في ما بات محيطه، عن رأيه في ما يرى (المترو أو محلّ الحلويات أو البار أو ملفع الصوف) بوصف واحد لا يتغيّر: «جميل» و «جيد»، فهو لم يلبس ملفعاً في حياته ولا سترة بلون الشوكولا، ولم يركب المترو، ولم يشرب بيرة إلا وهو يخشى أن تنتهي فلا يعود لشربها إلا بعد حين. «جميل/ جيد»، فكأنّ الشاب لا يرى في ما أثار دهشة إرفينغ وإعجابه، يوم وصوله إلى مدريد، ما يثير دهشته وإعجابه.

ولمّا كان جويل مضطراً إلى الذهاب إلى عمله صباح الأحد، فقد قرّر إرفينغ تغيير إحدى فقرات برنامجه واصطحاب الزائر في جولته الأسبوعيّة المقررة إلى متنزه (ريتيرو)، ثمّ دعوته إلى الغداء في «متحف الجومبون» (يروق كثيراً للكوبيين القادمين حديثاً)، القريب من ميدان (پويرتا دل سول). نزل إرفينغ ورمسيس من جهة (فوينكارّال)، وخرجا من (غران بيّا)، ليواصلا السير عبر جادة (الكالا). التفا حول ميدان (ثيبيليس)، وألقايا نظرة على جادة (ريكوليتاس) وجادة (الپرادو)، ثمّ اجتازا (لا پويرتا دي الكالا) ودخلا في (ريتيرو). وظلّ رمسيس يردّ على كلّ سؤال يصدر من إرفينغ بعبارة الليلة الماضية نفسها: فكلّ شيء في نظره جيد وجميل.

واقترح إرفينغ على رمسيس أن يجلسا، ليستريحا ويستمتعا بدفء الشمس، حيث اعتاد هو الجلوس كلّ يوم أحد، عند الدكة المقابلة لنافورة *الملاك الساقط*. وراح يشرح لرمسيس شيئاً عن التمثال الذي يصوّر الشيطان، وعن أصل متنزه الـ (بوين ريتيرو) أو «الخلوة الممتعة». ثمّ استرسل في الحديث عن مدريد، حيث تسطع الشمس حتّى في صباحات الشتاء، المدينة

التي وجد فيها إرفينغ جنته التي كان يبحث عنها (ربّما هي أبرد شتاءً وأحرّ صيفاً ممّا يجب أن تكون عليه الجنة الحقيقيّة). وظلّ رمسيس يهزّ رأسه ويبتسم ويردّد بأنّ ما يراه جيّدٌ وجميل.

– ما لك تتكلّم كالمجانين؟ ماذا جرى لك، أيّها الفتى؟ ألا يثيرك شيء؟ ألا تريد شيئاً؟ بل لا يبدو عليك أنّك تشعر بالبرد...!

– بالطبع أشعر بالبرد، إرفينغ، وتؤثر فيّ هذه الأشياء... الجميلة. تذكّر أنّ عمري خمسة وعشرون عاماً وهذه أوّل مرّة أخرج فيها من بلد يتفتت وينهار...

– فما المشكلة إذن؟ هل بدأت تحنّ إلى كوبا؟

– أظنّ أنّي لن أحنّ أبداً. لم أخرج هاربا من شيء، ولا معقّداً من شيء، ولا حتّى ممّا مررنا به وأنا طفل... خرجتُ لأنّي أردتُ أن أخرج، ولا أدري إن كنتُ سأعود.

– لا تستبق الأحداث. ولا تقل «أبداً» ثانية –قال إرفينغ، وشعر بالحرج إذ أكثر من العبارات الجاهزة–. مهما بلغتَ من الراحة والرفاهيّة، فإنّ المنفى صعب.

– أنا أعرف ما أريد، إرفينغ، بل أظن أنّي أعرف كيف أبلغ هدفي... أنا لستُ منفيّاً، بل شخص يعيش في جانب آخر... أعلم أنّي سأشتاق إلى أمّي وإلى أخي وإلى برناردو، طبعاً، وللعجوز دينجر... لا أكثر، لأنّي أدرك أنّ ليس عندي هناك ما أشتاق إليه، وأعلمُ ما أريد أن أكسبه وأتلقاه. سأتعب كثيراً، لكنّي سأحصل على ما أريد. لذلك فضّلتُ ألّا أحمل أثقال الماضي، وقطعتُ، من سنة تقريباً، علاقتي بآخر فتاة عرفتها في كوبا... لن أكون مثلك، لن أكون مثلكم.

نظر إرفينغ إلى الشاب الذي كان شهد ولادته، ثمّ رآه يكبر، صبيّاً ثمّ مراهقاً، ثمّ افترق عنه، وفكّر في عمقِ كلماته. ها هو أمامه، رمسيس، الفتى الجاد، المنغلق، خلافاً لأخيه ماركوس. رمسيس، الذي طالما تمتّع بروح المسؤوليّة ووضع هدفه نصبَ عينيه. رمسيس المبادر للمساعدة، كما فعل حين قدّم لإيفرينغ ما لديه من مال مدخر ليتمكّن هذا من شراء تذكرة السفر.

مع ذلك، فقد تبيّن له، وهو يسمعه يدلي بإعلان المبادئ المحزن ذاك، أنّه لم يكن يعرف رمسيس حق المعرفة. تبين له أنّ لا أحد عرف رمسيس حق المعرفة. وأخافه أن يرى شاباً كوبياً يفكّر بتلك الطريقة. فما الذي جرى لكي يستطيع شاب مثل رمسيس أن يتكلّم ويفكر كما تكلّم رمسيس وفكّر؟ هل كان أبناء جيله في شبابهم على تلك الدرجة من البراغماتية وذلك القدر من البرود؟ وهل يحدث هذا في كوبا فقط أم في جميع أنحاء العالم؟

– أبوك سيساعدك... تمنّيتُ لو استطعتُ أن أقدم لك أكثر، لكنّي أعيش مع جويل على قدر حالنا. الحياة هنا ليست سهلة، كما يعتقد الكثيرون هناك... وها قد رأيت بنفسك و...

– وأنا أشكر ما فعلته من أجلي. أمّا أبي... فربّما يساعدني، ولكن يكفيه أنّه أخرجني من كوبا.

– أبوكَ نذلٌ، لكنّه يحبكم كثيراً.

– أعلم ذلك... ولن أظلّ معه سوى أيام قليلة. أعلم أنّي لا أستطيع العيش معه. وأصعب من العيش معه، العيش مع زوجته البلهاء.

وضحك إرفينغ.

– مونتسي إنسانة طيبة. مجنونة قليلاً، لكنّها كريمة، وليست بلهاء إطلاقاً... هي امرأة غريبة بعض الشيء ومنغمسة في الأعمال التجارية. لقد ساعدت داريّو كثيراً. وكلاهما مهووس بفكرة استقلال كاتالونيا، لكنهما ليسا خطرين ولا مُعديين، لأنّ الناس لا يعيرونهما بالاً –أضاف، وضحك–. ما أغرب أمر داريّو، خرج من كوبا، حيث السياسة هي كلّ شيء، وجاء إلى هنا ليتكلم أيضاً في السياسة... يا له من جنون.

– لا يهمّني كيف يفكران. هذا من حقهما. ولكن ليس لهما أن يحدّدا طريقة تفكيري. لم أقبل هذا حتّى من أمّي... وما كنتُ سأقبله من أحد في كوبا، وأنتَ تعلم أنّني اعتمدت على نفسي مادّياً، منذ كنتُ في العاشرة.

هزّ إرفينغ رأسه موافقاً، ثمّ قال:

– وهذا السوار الذي تضعه في معصمك؟... – سأل وقرّب يده ليرفع كُمّ المعطف ويكشف عن السلسلة التي انتظمت فيها حبّات من أزرق بروسيا والمرجان.

– قبل ستة أشهر أصبحتُ كاهناً. أوشوسي[70]... ساحر وعرّاف وصيّاد وسمّاك. صرتُ محارباً.

– لم أعرف بذلك...

– وأنا لا أجد سبباً للترويج.

– عجباً! في كوبا، صار الجميع يؤمنون. سابقاً ما كان في مقدور أحدٍ أن يؤمن بشيء. هل تؤمن بالمعجزات؟

– أنا لا أنتظر أيّة معجزة. لكنّ الإيمان يمنحك الثقة. أوشوسي يمنحني القوّة التي سأحتاجها. وربّما أصبحتُ كاهناً لهذا السبب.

هزّ إرفينغ، الذي لم يؤمن يوماً بشيء، رأسه، ونظر إلى تمثال *الملاك الساقط*. منذ أن تحققت له رؤية إليسا والمراهقة، التي كانت بالتأكيد ابنتها، صار، كلّما نظر إلى ذلك النصب البرونزي، يفكّر في تلك اللحظة البائسة حين قطعت صديقته المخلصة عليه طريق اللقاء من جديد. فهل يحاول رمسيس القطيعة مع كلّ شيء أيضاً؟

– أرى أحياناً أنّه من الأفضل أن تفعل ما تخطط لفعله في ذهنك. نسيان كلّ شيء والقطيعة مع كلّ شيء. لكنّي لا أستطيع أن أكفّ عن التفكير في كوبا. منذ عشر سنوات وأنا على هذه الحال...

– وهل ينفعك هذا في شيء؟

نظر إرفينغ إلى الشاب وتساءل إن كان الفتى قد وزن كلّ ذلك وقاسه فحسبه.

– لا. الواقع، لا... بل إنّي، أحياناً، أرى فيه لعنة... هل لي أن أعرف ما يدور في ذهنك؟

– ليس هذا سهلاً، رمسيس.

– حسبه أن يكون ممكناً...

– أنتَ واثق من نفسك.

70– **Ochosi** أو **Oshosi** وهو من آلهة الديانة اليوروبية التي شاعت في أفريقيا والكاريبي.

– رأسي وثقتي بنفسي هما رأسمالي وثروتي. هل متنا جوعاً حين تركنا أبي من دون مورد ولا مساعدة؟ فماذا سأخشى؟

– ألا تغفر لداريّو فعلته؟

– ليس عليّ أن أغفر له شيئاً. هو فعل ما رأى أنّه مضطر إلى فعله... ما كان يحتاج إلى فعله. كانت له مبرراته وأسبابه... ليست المسألة مسألة ذنب أو عفو، بل مسألة شعور بالمسؤوليّة، وهما أمران مختلفان، أليس كذلك؟

– صحيح –تمتم إرفينغ، وهو يشعر بالأسف لأنه فتح موضوعاً شائكاً في أجواء كان لها أن تكون خفيفة ومبهجة. ويعلم إرفينغ أنّ هناك من تسلّح بالكراهية وجعل منها استراتيجيّته للدفاع. وهناك، في المقابل، آخرون شعروا بالذنب لأنّهم تركوا وراءهم علاقاتٍ وذكرياتٍ وشراكاتٍ دون أن يمتلكوا ما يدافعون به عن أنفسهم غير التبريرات، الحقيقة أو الوهميّة. وهذه هي حاله هو. وهناك آخرون رحلوا عن كوبا ولم يرحلوا. وهناك غيرهم تصرفوا وفق قواعد مختلفة، كما هو حال داريّو وإليسا، في ما يبدو. فماذا عن رمسيس؟ لقد بدا له الشاب الراديكالي الواثق من نفسه مختلفاً عن والده، وعن هوراثيو، وعنه، وتوقع أن تكون صلته بكوبا مختلفة أيضاً... ستكون أقلّ إيلاماً. أمّا عنه هو، إرفينغ، فمن المؤكّد أنّه سيعود إلى التفكير، ومن دون أدوات ووسائل، في مَن كان رمسيس وكيف كان. أمّا ما يزيد الطين بلّة والتقويم تعقيداً أنّ من يقف أمامه كاهن! لقد بات جليّاً أنّه لن يفلح في قراءته وفهمه، مؤقتاً على الأقل، فرفع راية التسليم–. ها أنتَ تتكلم ثانية كالمجانين... هل جعتَ؟

نظر إليه رمسيس وقلّص فتحة عينيه، كأنّه يتفحصه.

– عجباً، إرفينغ، ما أغرب سؤالك!... ألا تدري أنّي جائع على طول!

حين فارق داريو ابنه رمسيس كان هذا طفلاً في العاشرة من عمره، بينما كان هو طبيباً شاباً في الثانية والثلاثين. لكنّ اللذين تعانقا في محطة القطار ببرشلونة كانا رجلين، في الخامسة والعشرين والسابعة والأربعين، على التوالي. رجلان لم يعرف أحدهما الآخر إلّا عن طريق رسائلَ وصورٍ ومكالماتٍ هاتفيّة، كانت قليلة، ثمّ تضاعفت في السنة والنصف الأخيرة، حين اعتزم الابن على الهجرة وشرع في إجراءات السفر. بكى داريّو، خجلاً، حين رأى ولده، وأمسك بيديه وجهه، وقبّله من خدّيه ومن جبينه وهو يردّد «يا إلهي، يا إلهي»، إذ شعر بوخزات ذنوبه وضميره. أمّا رمسيس فقد عانق رجلاً كهلاً، تدثر بسترة رياضيّة من الصوف الإسكتلندي، ممتلئَ الجسم، حليقَ الرأس، ولاحظت ذراعا الابن الفرقَ بين هذا الجسم الضخم وذلك النحيف الدقيق الذي عانقه ساعة وداعه، قبل خمسة عشر عاماً، ووصّاه بأن يعتني بأمّه وأخيه وبجنينة الدار.

أخضع الوالدُ ابنه، وهما في بار المحطّة، ثمّ وهما في سيارة داريّو الفارهة، في طريقهما إلى شقّته في (أيشامبل)، إلى استجوابٍ من الدرجة الثانية حين سأله عن انطباعاته الأولى عمّا رآه في إسبانيا، وردّ رمسيس على أسئلة أبيه بالطريقة ذاتها التي اتبعها مع إرفينغ. لذلك أخذ داريّو زمام الحديث وراح يتنقّل بين السياسة والسياحة، فكلّم ولده عن مطالب كاتالونيا المشروعة في الاستقلال، ثمّ عدد له مواطن الجمال في برشلونة، التي لن يلبث أن يتعرّف عليها بعد أن استطاع داريّو أن يحصل من إدارة المستشفى على إجازة لمدة أسبوع.

كانت مونتسي، التي ارتدت أجمل فساتينها وصفّفت شعرها وتزيّنت، تنتظرهما في الشقة الواسعة الفاخرة، التي يمكن، من صالونها، رؤية نهايات

برج كاتدرائية العائلة المقدسة. وبعد أن رحّبت سيدة البيت برمسيس وكرّرت عليه القول إنّه في بيته، أبلغته بأنّ هيلين، السيدة الرومانية المكلفة بالخدمة في المنزل، قد جهّزت مائدة الطعام. لكنّ مونتسي أرادت، قبل ذلك، أن تفرّجه على الشقة. فراحت تطلعه، وهي تمسك بذراع داريّو، على مرافقها ونواحيها، وصولاً إلى الغرفة التي ستكون غرفته، بحمامها الخاص وشرفتها الصغيرة التي تطلّ على الشارع، والتي يستطيع منها، إن مدّ عنقه قليلاً، أن يرى إبرتي المعبد الرائع، كما بيّنت له مونتسي بعد أن أطلقت ذراع زوجها.

- أنتَ لا تدخن، تمام؟

- لا أدخّن.

- هذا جيّد... لأنّي أتحسس من الدخان... ومن المدخنين - قالت والتفتت إلى زوجها، وابتسمت، ربّما راضية عن حسن تخلّصها.

ومرّ الأسبوع زاخراً بالجولات والرحلات القصيرة ودعوات العشاء، بل لقد شعروا، في بعض الأحيان، بالإرهاق. فقد أراد داريّو أن يستثمر إجازته على خير وجه. وهكذا تعرّف رمسيس على معالم المدينة، وحضر مباراة في الـ (كامپ نو)، وساح، مع أبيه وزوجة أبيه، في البلدات والمدن المطلّة على شواطئ (غرّاف) و(ماريسمه). وأمضى الجميع ليلتين في شقة (سيغور دل كالافيل)، مبعث فخر داريو ومونتسي. واشترى الزوجان لضيفهما ما قد يلزمه من ملابس وأحذية من (كورت إنغليس)، وأهدياه أوّل هاتف محمول اقتناه في حياته. أمّا هو فكان يلحّ عليهما في ألّا يشتريا له إلّا ما يحتاجه فعلاً، ويشكر لهما كلّ تلك الهدايا.

حاول الأب والابن، طيلة تلك الأيام، أن يتجنّبا، في ما يشبه الاتفاق الضمنيّ، التطرق إلى مسائل الماضي. مع ذلك، فقد اقتربا منها، أحياناً، ومسّاها مسّاً. وحرص داريّو على التعرف على ميول ابنه وخططه، وسأله كثيراً عن ماركوس، لكنّه لم يسأله عن السوار الذي في معصمه. وحين تطرقا إلى كلارا وبرناردو بدا على داريّو أنّه ما زال لا يستوعب الارتباط الذي وقع بينهما، وحين لاحظ رمسيس نبرة من السخرية في كلمات أبيه، قال له:

- ذلك هو أفضل ما جرى لهما في حياتهما. وأعتقد أنّ أمّي سعيدة

به، وهذا شيء أدين به إلى برناردو، وهو خير إنسان صادفته في حياتي، بعد أمّي، بالطبع.

وحاول رمسيس، من طرفه، أن يتعرّف على الرجل الذي تجسّدت فيه صورة أبيه الغابرة، الأب اللطيف النشيط، الذي لم يقسُ يوماً على ولديه ولم يعاقبهما، مهما أسرفا وشاغبا. لقد احتفظ الابن الشاب بانطباع حسن عن أبيه، على الرغم من طول السنين، وعلى الرغم من كلّ ما جرى، وقد حرصت كلارا على أن تظلّ تلك الصورة الحسنة حاضرة لديهما. لكنّه سرعان ما سيرى بُعد المسافة بين الذكرى الغابرة والحقيقة الحاضرة.

لقد بدا له ذلك الرجل، الذي كان يتكلّم بالكاتالانيّة حيث تقتضي المصلحة أن يتكلّم بها، صورة كاريكاتيريّة رديئة من أبيه. يخوض في موضوعات سياسيّة محليّة تقوده إلى الحديث عن ميوله وميول زوجته، القوميّة الجمهوريّة اليساريّة، فتبدو له استعراضاً مثيراً للسخريّة. أمّا نمط حياة الزوجين، فهو يعكس برجوازية لا تهضمها عقليّة رمسيس، الذي عاش حياة مليئة بالمبادئ والتضحيات. فأولئك الذين يسمون أنفسهم بالثوريين لا ينظفون مؤخرتهم، بعد التغوط، إلّا بأغلى ورق نرويجي يباع في الأسواق، ولا يشترون النبيذ إلّا من مكانٍ خاص من إقليم (لا ريوخا) الشهير بنبيذه، ولا يشترون زيت الزيتون إلّا ممّا تنتجه محافظة (خائين) الأندلسيّة، ولا يأكلون في البيت غير جامبون البلّوط الذي يحمل ماركة (إيسيدرو غونثالِث ريفيّا)، وهي واحدة من أغلى الماركات في إسبانيا، عدا عن أنّ (لا ريوخا) و(خائين) و(سالامنكا) والنرويج طبعاً، لا تقع ضمن أراضي كاتالونيا. مع ذلك، فقد قرّر الفتى ألّا يحكم، فلا هو يريد أن يحكم، ولا يرى أن من واجبه أن يحكم: أبوه ومونتسي يفكران بمخهما ويتصرفان وفق رغباتهما أو قناعاتهما. ثمّ إنّ أباه يبدو سعيداً، في الظاهر، على الأقل، بعد أن نال ما نال بفضل ذكائه، وكانت علاقته بمونتسي وعالمها خيرَ ما يمكن أن يصادفه رجل له ماضٍ بائس يذكّر ببعض أبطال روايات ديكنز.

في يوم الإجازة الأخير، اصطحب داريّو ابنه مساءً (اعتذرت مونتسي بصداع مفاجئ ألمّ بها) لتناول العشاء في مطعمٍ في المدينة الأولمبيّة، يمكن من صالته المضاءه تأمّل البحر المتوسط الواسع المدلهمّ ويخوت النزهة

الراسية في المرفأ. سُرّ رمسيس لاقتراب مرحلة الاسترخاء والهدوء من نهايتها، فليس لحياته أن تستمرّ في إجازة دائمة، لأنّ ما يحتاجه هو أن يكفّ عن الحركة ويهبط في حاضر يستشرف منه المستقبل، ولكن ليس قبل أن يغلق بعض حسابات الماضي المؤجلة.

طلب داريّو طبقاً من ثمار البحر، حيوانات حمر لم يسبق لرمسيس أن رآها. وطلب أيضاً نبيذ (البارينيو) الأبيض المثلّج، الذي ينظّف الحلق ويجهّزه للقمة التالية، وهو ترف له أن يغطّي نفقات عيشهم شهراً أو أكثر في بيتهم في (فونتانار). وعند انتهاء داريّو من العشاء ذكّر ولده أنّ إجازته توشك على الانتهاء، وأنّه سيعود في غده لينفق معظم ساعات يومه في المستشفى، فضلاً عن أيام العمليات الجراحيّة المرهقة، رغم توفر كل مستلزمات عمله داخل الجماجم وبين الحبال الشوكيّة والفقرات.

– لا أشكو طبعاً، فهذا عملي، وأنا أحبّه. ولذلك خرجتُ من كوبا – أكّد. لكنّه حرّك بكلماته تلك ما كان ساكناً.

– لكنّك كنتَ تفعل ذلك في كوبا.

– في كوبا بلغتُ سقف إمكانياتي، وكنتُ على وشك أن أتوقّف. بل أسوأ. انظر إلى أمّك، إلى برناردو. ولذلك خرج هوراثيو. وخرج المسكينان، ليوبا وفابيو...

– لكلّ أسبابه. ولا ألومهم.

– لأنّ كلّ شيء كان يسير من سيئ إلى أسوأ، والواحد منّا يعيش مرّة واحدة، رمسيس، وأنت تعرف ذلك... حياتي في كوبا كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، كما هي حركة البلد كلّه. كانت حياتي تجري في نفس البالوعة... في المستشفى، كنتُ أقرب إلى الجندي منّي إلى الطبيب. كنتُ مجنوناً ومحبطاً...

– محبط ممّ؟

– من حياتي... من اضطراي إلى الاعتماد دائماً على ما يقرّره الآخرون. نعم. تعبتُ...

– تعلم أنّي لا أحبّ الكلام في السياسة. ولم أحشر نفسي فيها يوماً،

بل لم أحبط من شيء فعلته. ولذلك أتفّهم موقف الذين آثروا البقاء هناك، يفعلون ما يرون أن من الواجب عليهم فعله... واسمح لي الآن أن أطرح عليك سؤالاً أريد أن أسمع جوابه منك... ويمكنك ألّا تردّ إن لم تشأ أن ترد. ما كانت مشكلتك مع مامي؟ أذكر أنّي كنتُ أراكما تتجادلان وتصرخان...

ظلّ داريّو صامتاً للحظات، ينظر إلى ولده. بدا كأنّه لا يريد أن يردّ على السؤال، فغمس أصابعه، الملطخة بما علق بها من طعامه البحري، في إناء من الماء الممزوج بالليمون، ثمّ مسحها بمناديل معطرة. شمّ أصابعه، ولمّا لم ترضه رائحتها، أخرج منديلاً معطراً آخر وراح يدعك أظافره. وعاد إلى شمّ أصابعه حتّى بدا راضياً عن النتيجة.

- لن أحكي لك بالطبع تفاصيل حياتي الحميمة... لقد فقدنا أنا وأمّك...، لنقل... الحبّ. نعيش معاً وننام على ذات السرير، لكنّنا ما عدنا نشعر بما يشعر به الزوج وزوجته؟

- لم تكلّمني مامي عن الموضوع. فإن عرضتَ عليّ رؤيتك فستكون الوحيدة التي أعرفها...

- وهل تريد أن أحكي لك؟

- هل كانت أمّي سبباً من أسباب سفرك؟

نظر داريّو ناحيةَ البحر.

- نعم. لم نكن سنستمر طويلاً. كنّا سائرين نحو الفراق...

- لأنّ الحبّ بينكما انتهى؟

- ولأشياء أخرى لم أفهمها جيداً ولن أشرحها لك. أشياء تحدث بين الزوج وزوجته. لكنّي أقول لك إنّي بدأتُ أشعر بأنّ كلارا ما عادت تحبّني. أحياناً أفكّر أنّها لم تحبّني قط. بمعنى الحب الحب... كما تحبّ الآن برناردو... لطالما تجادلنا، بل صرنا نؤذي أنفسنا، ثمّ إنّ هوسي بإنجاز الدكتوراه شغل فكري، وصارت لدي قناعة بأنّي قد أستطيع أن أعيد ترتيب حياتي، إن أنا رحلتُ.

- مع امرأة أخرى؟

- لم يكن في بالي امرأة محددة... لكنّي كنتُ أعلم أنّي إن بقيتُ في كوبا وافترقتُ عن أمّك فسيتوجب عليّ أن أترك بيت (فونتانار).

- وهل استمررت في العيش معها لكي لا تترك بيت (فونتانار)؟

- نعم -أقرّ داريّو-. قد يكون كلامي غريباً، ولكن هذه هي الحقيقة. لم أتركها، لأنّي لا أملك مكاناً أذهب إليه. أنتَ تعرف كيف هي الأمور هناك...

- أتخيّل ذلك... أو بالأحرى لا أتخيّل أن تعود إلى السولار الذي كانت جدّتي أولغا تسكن فيه.

- وكيف أعود إلى هناك؟ ربّما كنتُ قتلتُ نفسي قبل أن أعود إلى تلك القذارة وإلى الحالة التي كنتُ عليها، والتي هربتُ منها طوال حياتي.

- لأنّك كنتَ، آنذاك، طبيباً وجرّاحَ أعصاب.

- بل لأنّي أصبحتُ إنساناً، لا وحشاً، كما كنتُ... أو مجنوناً... اسمع، رمسيس، أتمنّى أن نتكلّم عنك لا عنّي، عمّا سنفعل. أرجوك، لا تسألني المزيد. تلك أمور مضت وانتهت.

- لكنّي أحتاج، قبل ذلك، أن أفهم بعض الأمور. عنك وعنّي وعمّا قرّرتَ فعله. لا لمحاسبتك والحكم عليك، أقسم لك. أريد أن أفهم، فحسب.

- لكي تفهم، عليك أن تعرف ما كانت عليه حياتي في ذلك السولار، مع تلك العجوز، التي تستحق الآن، لا شكّ، الاحترام والشفقة لأنّها امرأة طاعنة في السن، فجدّتك ما كان لها أن تعيش إلّا بفضل ما أرسله لها من نقود كلّ شهر، وها هي تعيش أفضل من ذي قبل... مع ذلك فلن تفهم، لأنّك، وإن بدأتَ، وأنت في العاشرة، تزرع البطاطا والموز، وتربّي الأرانب والديوك، وتأكل طبيخ الصويا البغيض، وكلّ ذلك مغامرة ولهو متعب، فإنّه لا يبلغ عشر ما عشتُه أنا وعانيته... يكفي أن تعرف أنّي صرتُ أفهم معنى أن تكون في الجحيم. أمّا ما كنتما، أنت وماركوس فيه، ومعكما كلارا، فهو من قبيل المَطهر، لا أكثر.

لاحظ رمسيس في نبرة أبيه سخطاً عميقاً وألماً داخلياً، ومفهوماً، فرمسيس كان مطلعاً على الأسباب، وإن لم يكن أبوه يتصوّر ذلك: تلك كانت حياته، وكان من حقّ داريّو أن يرى فيها أمراً يخصّه هو وحده.

- لنخرج إلى الشرفة - اقترح عليه أبوه وأمر الغارسون أن يأتي لهما بفنجانين من القهوة الثقيلة واثنين من الكاپوچينو بنكهة الأعشاب.

تناول الاثنان قهوتهما، وهما يجلسان عند الطاولة التي تشرف على البحر، تحت مظلّة واسعة تحميهما من رطوبة الليل. أشعل داريو سيگاره الكوبي الذي اختاره لتلك المناسبة.

- هل تعلم مونتسي أنّك تدخّن؟

- تعلم أنّي أدخّن من حين إلى حين. لكنّي أدخّن تبغاً جيداً، ومن الأفضل أن يكون كوبياً. الدومينيكاني جيد أيضاً...

ابتسم رمسيس وأومأ موافقاً.

- لم تسألني عن هذا؟ - قال الشاب، ورفع ذراعه اليسرى، ليريه سوارَ طقوسه الدينيّة.

- لاحظتُه، لكنّي لم أسألك لأنّ هذا من شأنك... وإن كنتُ أرى أنّ هذا كلّه خرافات وأساطير. صدقني إن قلتُ لك إنّي لا أتصوّر كلارا وبرناردو يصلّيان جاثيين ويؤمنان بأنّ البحر ينشقّ لكي يسير عليه الناس... هل تتصوّر البحرَ ينشقّ أمام سور الماليكون؟

- قد تكون خرافات وأساطير في نظر من لا يؤمن بها... ولكن... هل تعرف من هو عرّابي في الكهنوتيّة؟

- لا تقل لي إنّه برناردو، الذي بات معجباً بالفولكلور؟

- أبي! يبدو لي أنّك تغار منه... لا، ليس هو بالطبع. عرّابي هو لاثارو ماروا.

سمع داريو الاسم فاختفت ابتسامة السخرية من وجهه. لقد بلغته صرخة وصلت من أعماق سحيقة حين سمع باسم الخلاسي، سائق الحافلة والمشعوذ الذي كان زوج أمّه، الرجل الذي هبط من السماء لينقذه ويحميه من مهانة أمّه وعذابها، وزوّده بنصائح أثّرتْ كثيراً في سلوكه وطبعه.

- وهل ما زال حيّاً؟ - سأله.

- نعم. لكنّه تجاوز السبعين...

- وهل يعرف أنّك ابني؟

- يعرف... وقد حكى لي الكثير. فقد كان يظنّ أنّي مطلع عليها...

أحسّ داريّو بانقباض في صدره، فقد استحضر صورته وهو عارٍ في باحة السولار، الذي تخرج من بالوعاته الصراصير، وتردّد في أذنيه صوتُ الأعمى تيخيدور ومساعده لويس، ينطلق من الراديو بأعلى صوته، وهما يغنيان ذلك البوليرو الذي طارده لسنوات: «هجرتني في ظلمات الليل/ وتركتني من دون دليل... ». مع فارق أنّ مهانته كانت بادية لعيان ولده.

- جيّد -تمتم-. فها أنتَ تعلمُ وتفهم. منذ أن فطنتُ وأنا أكافح من أجل الهروب من حياتي التي كنتُ أحياها، وممّا كنتُ أرى أنّي سأحياها. لاثارو موروا رجل صالح، وقد مدّ لي يد العون لينتشلني من تلك الهاوية المرعبة. هوراثيو وأمّه علّماني معنى العائلة ومعنى الشخص المحترم. ثمّ ساعدتني كلارا، أمّك، وانتشلتني. وهذا فضلٌ سأظلّ أعترف به وأشكره لها طوال حياتي. لولاهم، لا أدري، لا أدري... أنا مدين لكلارا أيضاً أنّها وهبتني، ربّما من دون أن تكون مغرمة بي، ولدين هما أنت وماركوس.

- ولماذا تعتقد أنّها لم تكن تحبّك، مع أنّها أتت لك بولدين؟

- لن أردّ على هذا السؤال... يمكنك أن تسأل أمّك، أو قديسيكَ، إن كانوا قادرين على أن ينفعوك في شيء...

- المشكلة هي أنّي لا أفهم كيف يمكن لشخصٍ مرّ بما مررتَ به وعانى ما عانيته أن يتخلّى عن أسرته، وفي أحلك ظرف. أنا لا أتهمك، بل هو الواقع.

- نعم، الواقع. كان عليّ أن أسافر... كما كان عليك أن تسافر وتترك وراءك أمّك وأخاك.

هزّ رمسيس رأسه. لا أحدَ بمنجاة من اللوم.

- وأشكرك على أنّك ساعدتني. وحين احتجتُكَ، عدتَ لتكون أبي.

- كنتُ أباك دائماً، وسأظلّ أباك. على الرغم من أنّي لم أفعل دائماً ما كان عليّ أن أفعل، ولا أتصرّف، أحياناً، كما تريد أن أتصرّف...

- لم أقل هذا.

- لكنّ هذا هو ما تراه فيّ... وماذا ترى أيضاً؟

نظر رمسيس إلى أبيه، الذي كانت كلارا وبرناردو يؤكدان أنّه الرجل

الأكثر مثابرة وذكاءً وجنوناً من بين كلّ من عرفاهم، والذي أكّد لاثارو موروا له أنّه كان أقوى طفل عرفه في سنوات عمره الطويلة. فلا معنى، إذن، لأن يحاول خداعه أو التهرّب من سؤاله.

– سأبقى هنا في برشلونة لبعض الوقت حتّى أرتّب وضعي. وسأتحمل أفكار زوجتك وميولها القومية والجمهوريّة اليساريّة المناهضة للملكيّة، مع أنّها لا تشتري منديلها وأحذيتها إلّا من المحلات الشهيرة التي أخذتني إليها قبل أيام، ولا أعرف حتى أسماءها... سأتصل ببعض من كانوا أساتذتي في الجامعة ممن هاجروا من كوبا بعد أن ضاقوا ذرعاً ببلد لا يعرف حتّى الربّ متى تصلح أموره، وبات الناس يهربون حتى من نوافذه لأنّ ولاة أمره متمسكون بالحلول التي لم تجد يوماً نفعاً... سأبحث عن فرجة أحشر فيها نفسي وأنفذ منها لكي أصل إلى الهدف الذي أبتغيه. ولكي أعثر على هذه الفرجة أحتاج إلى الوقت وإلى أوراق رسميّة... ومن ثمّ سأتحرّك. سأتحرّك في حركة مستقيمة متناسقة، كما يقول نيوتن وهوراثيو: ولن أقف ما لم أصطدم بشيء... تذكّر شيئاً: حتى قبل أسبوع، لم نكن نعرف بعضنا تقريباً، لكنّي ولدك، أليس كذلك؟

– أنت ابني وسأساعدك.

– شكراً...، إذن انتهينا من الإجازات والعطل، ودقت ساعة العمل. وفّر لي عملاً، أيّ عمل يعود عليّ بمورد. ساعدني كي أسكن بمفردي، في غرفة صغيرة، مثل حجرة السولار، لا يهمّ، المهم أن أسكن بمفردي، وأعيش من عملي. مَن من أصدقائك يمكنه مساعدتي للحصول على أوراق الإقامة في أسرع وقت ممكن؟ عمري خمسة وعشرون عاماً وأريد أن أحصل على شهادة في الهندسة قبل أن أبلغ الثلاثين. فهل هذا كثير؟

نظر داريّو إلى ولده. كانت جمرة سيگاره قد انطفأت. عاد ينظر إلى ولده وإلى سيگاره، الذي تحوّل من لفافةٍ من ورق منتخب ومعطّر إلى قذيفة ناريّة نتنة الرائحة.

– لقد غشّوني. هذا السيگار ليس كوبياً... أبداً، أنت لا تطلب الكثير... رمسيس، صحيح أنّنا لا نعرف بعضنا جيداً، وصحيح أنّك تبدو لي، أحياناً، شخصاً غريباً، لكنّي متأكّد من أنّك ابني.

الصيف في (سيغور دي كالافيل) قائظ. تبزغ الشمس قبل السابعة صباحاً ولا تغرب إلّا عند العاشرة مساءً. عند انتصاف النهار، تتجاوز درجة الحرارة الثلاثين، ويرجّع رملُ البلاج صدى حرارتها. ويأتي الناسُ من شتى أنحاء كاتالونيا وإسبانيا، بل يأتون من شمال أوروبا ووسطها، ليستمتعوا هناك بالبحر وبالحرّ.

في بلاجاتٍ كبلاجات (سيغور دل كالافيل) تُسقط حرارةُ الشمس والجوّ كلّ حياء، فتبرز النهود، نضرة يانعة شامخة مدببة، أوعجوزاً ضاوية يابسة مثل أكياسٍ معلّقة هدلت حلمتاها وذبلت.

تمتلئ المطاعمُ ساعاتِ الغداء والعشاء، وتغصّ بالروّاد كلّما كانت أقربَ من البحر وأشرفتْ عليه تراساتُها المسقفة. مطاعم تقدّمُ معظمُها أطباقَ السمك والحبّار والأخطبوط وثمار البحر المختلفة، من جمبري وروبيان وكوكل وجراد بحرٍ وسلطعون وبرنقيل وأصدافٍ وكركند، جيءَ بها صباحاً من شواطئ كانتابريا، حيث المحيطُ هائجٌ، والصيد وفيرٌ ولذيذ.

يا له من مشهدٍ محكم التركيب. فألوان البحر والرمل والشمسيّات والأشرعة والمناطيد والمظلات، التي تظهر في السماء، بين الحين والحين، فضلاً عن أشجار النخيل والزهور، وحتى ألوان الإعلانات التجاريّة، تؤلّف سيمفونيّة فوضويّة، لكنّها جذّابة، وتسهم في خلق أجواء احتفاليّة مسترخية تشيع الراحة والانبساط، وتنشر رغد العيش الذي ينشده المصطافون ويدفعون من أجله الأموال. عالمٌ مفصّلٌ على القياس، من صنع الطبيعة وعمل الإنسان، منطقة من سعادةٍ وازدهار، لا يحدها حدّ، بعيداً عن منغّصات الحياة ومصائب العالم -من خوف وفقر وجوع وأوبئة وأزمات وحروب، قريبة أو بعيدة، وأخبار لا تملأ صفحات الجرائد-،

وحيث لا مجال للتفكير ما داموا يستمتعون بحظوظهم وامتيازاتهم الوطنيّة والجغرافيّة المتميّزة.

هناك، كلّ شيء يبدو كاملاً مكتملاً. هكذا رأى الدكتور داريّو مارتينِث المكان منذ المرّة الأولى التي زار فيها بلاجات (غرّاف) و(ماريسمه)، قبل ستة عشر عاماً، بعد وصوله بقليل هارباً من كوبا. رأى، ذات عصرٍ، قارباً يرسو في مرفأ (سيدجيس)، فتذكّر مشهداً لا ينساه من فيلم *الشمس الساطعة*، حين يصل آلان ديلون وموريس رونيه والرائعة ماري لافورغيه إلى مرسى القوارب وينزلون إلى حاجز الأمواج. يا له من مشهد. وتذكّر أنّ ديلون كان يلبس حذاء خفيفاً من دون جوارب، فقرّر، من تلك اللحظة، أن يفعل مثله كلّما ذهب إلى أرض من أراضي الأحلام تلك. أحلام الجانب اللطيف من العالم، الذي سيكون، منذ ذلك الوقت، عالمه.

وما زال داريّو يرى، ونحن في ذلك الصباح من آب 2008، أنّ ذلك العالم هو الأفضل، بينما يتحدّث المتطيرون عن قرب حدوث أزمة اقتصاديّة تعصف بالمنظومة، وقد تطيح بفقاعة الرفاهية الملوّنة تلك، ويعلنون عن آلاف الشباب الذين بدأوا يهاجرون من إسبانيا للبحث عن حياة أفضل أو، على الأقل، للحصول على عمل.

استلقى الرجل المحظوظ فوق الحصير المفروش على الرمل، ووضع على عينيه نظارات من زجاج عاكس كزجاج المرايا ليحميهما من أشعّة الشمس. نظر إلى يساره، وتطلّع لثوان إلى حبيبته مونتسي، المسترخية مثله، وقد غطّى المايوه مساحة صغيرة من جسمها، بينما عرّضت صدرها العظيم للهواء والشمس، فبدا نهداها كيسين من نسيج طريّ مائلين قليلاً نحو جنبي بدنها المتعافي. بشرة صافية بيضاء، سرعان ما ستعلوها حُمرة، وإن دهنتها بالكريمات لحمايتها.

ثمّ أدار الطبيب رأسه، بين رغبة وتظاهر بعكسها. وجّه نظره إلى يمينه، فإذا المشهدُ أجملُ وأمتع. فهناك لينا، «فتاة الفايكنغ»، الدنماركية الشقراء، التي تبلغ متراً وثمانين سنتمتراً طولاً، وواحداً وعشرين عاماً سنّاً. إنّها صاحبة ولده رمسيس: يا لها من مخلوقة! بشرة ناعمة، صقيلة مشدودة،

وأسنانٌ مصفوفة مرصوصة، تنبئ عن إنسان نعم بتغذية جيدة ومستدامة. كانت الفتاة تتشمّس أيضاً، مكشوفة النهدين، ولكن، شتّان بين هذين وتينك. فهنا لدينا بروزان فتيّان متراصان راسخان، يثير النظرُ إليهما رغبة جارفة في مداعبتهما ولمسهما وتذوّقهما. وما كان أشدّ رغبة داريّو، رغم سنواته الخمسين، وألبومه الكبير من مشاهد الصدور العارية المستلقية في بلاجات البحر المتوسط. بل لقد انعكست تلك الرغبة في تصلّبِ ذكره وسيلانِ قطرة من إحليله، حتى اضطرّ إلى أن يغطّي حضنه بمنشفته، بينما راح يستمتع بلحظات استمناءٍ ذكّرته بمثيلات لها اعتادها في مراهقته.

– ما هذه قذارة؟

فوجئ داريّو بالاستفهام الغريب، وحين حرف نظره عن نهدي الدنماركيّة، ورفع نظارته عن عينيه، أحسّ بعضوه يتراجع إلى حالته الطبيعيّة. رأى إرفينغ يقف، والشمس وراءه، وقد وضع يديه على خاصرتيه وبدا على وجهه الاستياء.

كان إرفينغ وجويل قد وصلا عصر اليوم السابق بدعوة من داريّو ومونتسي ليمضيا أسبوعاً في صحبتهما وصحبة رمسيس ولينا. فالطالبة الدنماركية المبعوثة ستعود إلى بلدها في ظرف أيّام، وسينتقل رمسيس، نهاية الشهر، ونهائياً تقريباً، إلى تولوز بفرنسا. وبينما كانوا يتناولون العشاء في سقيفة قريبة من البحر، أعرب إرفينغ عن رغبته في النزول إلى البحر، فنزع قميصه وخلع حذاءه، بعد أن أقسم له رمسيس أنّ ماء البحر معتدل الحرارة، فالفصل صيف، والشهر آب. ومن يعرف إرفينغ يعلم أنّه مغرم بالبحر. بل لقد صرّح منذ ذلك الصباح، وهو يعدّ الإفطار، بفرحته لأنّه سيستحمّ في البلاج، وأكّد أنّ لا شيء ينقص مدريد، لتكون أفضل مدينة في العالم، غير بلاجٍ كبلاج (سانتا ماريّا دل مار)، وكورنيشٍ كماليكون هافانا.

بعد العاشرة، تحرّك الجميع صوب البلاج، بحثٍّ وإلحاح من إرفينغ. فالماء لا شكّ ممتع في هذا الطقس الحار. وتحمّس إرفينغ حين رأى رمسيس وجويل ينطلقان جرياً على الرمل ويقفزان إلى البحر، يطرطشان ويصرخان ويسبحان. أمّا هو فأراد أولاً أن يحمي جسمه وبشرته بكريم

مونتسي الواقي -يا لها من شمس فظيعة، قالت مونتسي، وقد كشفت عن نهديها. وفضّل إرفينغ ألّا ينظر إليهما بسبب مستوى خياراته الجمالية-. وحين حزم أمره، أخيراً، وقرّر السير نحو الماء، راح يتنفس الهواء اللطيف ويشعر بدفقات الحرّ تصطدم ببشرته و...

– ماذا دهاك يا صاحبي؟ – قال داريّو، وقد أزعجه تردّد صاحبه.

– الماء بارد. وما من أحد يجرؤ على السباحة...

– آي، إرفينغ! لا تتفوه بسخافات. انظر إلى رمسيس وجويل، إنّهما يستمتعان بالسباحة، وانظر إلى كلّ هؤلاء البشر...

– لكنّ جويل ليس أسود، وهو بدين! -قال إرفينغ، ثمّ أضاف-: كيف تقول لي إنّ ماء هذا البلاج البارد رائع وأنتَ الذي سبحتَ في (باراديرو) وفي (سانتا ماريّا)، حيث المياه الدافئة اللذيذة؟ لا تحرق لي أعصابي، داريّو!... البلاجات هي بلاجات كوبا!

ابتسم داريّو ثمّ نهض، ينوء بثقل كيلوغراماته الزائدة وسنواته الخمسين، وأعاد وضع نظارته على عينيه وبسط ذراعه على كتف إرفينغ وأبعده مترين.

– سأنزلُ معك وسأريك تقنية الديناميكا الحراريّة التي أعتمدها – قال له داريّو.

– لن أنزل. صدقني أنا لا أفهم كيف يكون الماء بارداً في هذا الطقس الحار.

فاقترب داريّو من صديقه وقال له بصوت منخفض.

– اسمع. أعرف أنّ الموضوع يهمّك كثيراً... هل رأيتَ نهدي فتاة الفايكنغ؟

– ماذا تقول، داريّو! إنّها بمنزلة كنّتك... ثمّ إنّك كبرت على هذا الكلام...

– لكنّها لذيذة!... كم أغبط رمسيس! أقسمُ لك إنّي لو كنتُ مكانه لما تركتها ترحل، ولو اضطررتُ إلى ربطها بحبل! فهل هو أحمق إلى هذا الحد؟ يبدو أنّ أمّه وبرناردو أفسدا عقله...

انتظر رمسيس سنة ونصف السنة تقريباً للحصول على الوثائق الإسبانية والأوروبيّة التي يتطلبها ترتيب حياته بالطريقة التي خطط لها. لم يعرف بالجهود التي بذلتها مونتسي والكثيرون من أصدقائها لاختصار بيروقراطية الإسبان القاتلة وتسهيل حصوله على الرخص والوثائق الخاصة بالإقامة والعمل. وبناءً على نصيحة أستاذ له من الجامعة الكوبية، مقيم في بلنسية، فقد خصّص كلّ ما يستطيع من وقت لتعلّم اللغة الفرنسيّة، ثمّ قدّم، مع بداية السنة، طلباً إلى جامعة تولوز للحصول على أحد «كورسات التناوب»، التي توفّر تسجيلاً تسدّد رسومُه «مناوبة» بين الدراسة وعمل يستدعي الحصول عليه علامة معيّنة. وافقت الجامعة على طلبه بعد اطلاعها على المواد التي نجح فيها ودرجاته التي حصل عليها، بل لقد اعترفوا له ببعض المواد التي درسها، وأبلغوه بأنّ في مقدوره أن يحصل، في ظرف ثلاث سنوات، على شهادةٍ في تخصص أشباه الموصلات، وهو فرع يكثر الطلب عليه في ذلك الإقليم من فرنسا.

في تلك الأشهر عمل الشاب هنا وهناك ليؤمن معيشته واستقلاله. فكان يعمل، حتى الثالثة فجراً، غارسوناً في أحد البارات. ثمّ اشتغل مساعداً لدى كهربائي برتغالي، وعاملاً عند صبّاغٍ غرناطي، وكان، في تلك الأثناء، يساعد زملاء مونتسي في مواقع شركاتهم العقارية على شبكة الإنترنت. لم يشتكِ ولم يتبرّم، على الرغم من أجره القليل الذي ما كان يكفي إلّا لكراء غرفة صغيرة في حيّ (برثلونيتا) الشعبي، وللسفر، من حين إلى حين، إلى مدريد لمتابعة أوراقه والتعجيل فيها. أمّا حين يكون في مدريد، فكان يجد في الكنبة (المريحة الوثيرة) في شقة إرفينغ وجويل مكانه المفضّل، كحاله حين وصل إلى إسبانيا أوّل مرّة. وقد يلحّ على مضيّفيه بدعوتهم إلى مطعم يقدّم الوجبات الرخيصة، وإلى بار في شارع (پيلايو) لشرب قارورةٍ من البيرة أو كأسٍ من النبيذ. لم يسمعه أحد، طوال عام ونصف، يشكو أو يتكلّم بما يوحي بقلق أو يأس، ولم يسمعه أحد يصرّح بما يشي بحنين إلى ماضٍ مضى، ولم يعلم أحدٌ من المحيطين به أنّه كان يعزلُ كلّ شهر من موارده الضئيلة أربعين أو خمسين يورو ويرسل بها إلى أمّه وأخيه هناك، في كوبا.

في غمرة تلك الأعمال الشاقة والانتظار الطويل والمعاملات الرسمية

البطيئة والأخبار التي تتوقع أزمة في سوق العمل، وجد رمسيس ما أضفى توازناً جسدياً وعاطفيّاً على حياته حين ارتبط بعلاقة مع لينا، الشابة الدنماركيّة المقيمة في برشلونة، بعد حصولها على منحة دراسيّة ضمن برنامج (إيراسموس) الأوروبي. فتاة شقراء قويّة الجسم متعطشة للجنس وللمعرفة. التقيا في البار الذي كان يعمل هو فيه. تكلّمت معه بإسبانيّة بسيطة صحيحة كانت درستها في بلادها، وعلمت أنّ ذلك الشاب، صاحبَ الشعر المجعّد الأسود، والعينين اللتين تظللهما رموش طويلة، أنثوية تقريباً، كوبيّ، ونصف مهندس.

ولمّا كانت لينا تدرس أدبَ أمريكا اللاتينيّة المعاصر، وتعتزم مواصلة دراسته لنيل الدكتوراه، فقد كانت معلوماتها عن الحياة في كوبا واسعة. قرأت للعديد من أدبائها، وهي تفكّر أن تسافر إليها، مع ذلك، فقد كانت تشوب صورة كوبا في بالها سلسلة من الأحكام المسبقة، منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي، تتقاطع، أحياناً، وتتكامل، أحياناً أخرى.

في حواراتهما الأولى، سألت الفتاة رمسيس عمّا يدفع شاباً مثله إلى أن يترك دراسته ويشرع في التحضير لـ «رحلة نهائيّة عن بلده»؟ وما معنى ألّا يمنحوا الشاب، بعد تخرجه من الجامعة، رخصة للسفر إلّا إذا كان في مهمّة عمل رسميّة، إن هو أنجزها في كوبا، فلن يتقاضى عنها إلّا قدر ما تتقاضاه أمّه المهندسة شهرياً: عشرين أو ثلاثين دولاراً؟ إنّها لا تستوعب أيضاً كيف يستطيع الناس أن يعيشوا بالمرتّب الضئيل في بلدٍ تكلّف قنينة الزيت العاديّة فيه دولارين، وحيث نسي معظمُ سكّانه طعمَ اللحم (هل يوشك البقر على الانقراض؟)، لكنّهم، بالمقابل، لا يدفعون رسوماً عن الدراسة، ولا تتجاوز فاتورة الكهرباء عندهم أربعة دولارات (من دون إيركوندشن، طبعاً)، وتعريفة الهاتف دولارين (وكلّ ذلك باهظ في الدنمارك)؟، وأنّى للكثيرين أن يمتلكوا جهاز تبريد أو هاتفاً؟ أمّا الهاتف النقّال فلا وجود له تقريباً في كوبا، لأنّ «أحداً» قرّر أن يُحرم المواطن الكوبيّ منه ومن الدخول في الشبكة العنكبوتية، إلّا بصعوبة. وكيف لها أن تستوعب ألّا يحصل هذا المواطن على حاسوب شخصي، إلّا إذا أتى به من الخارج وحصل لإدخاله على تصريح الوزير أو من ينوب عنه، أو اشتراه من سوق الحواسيب السوداء،

حيث يتاجر الطيارون والمضيفات بالحواسيب والكلاسين والنقانق؟ أليس غريباً أيضاً، مع شحّة الطعام وضآلة الراتب الذي تدفعه الحكومة إلى 90% للمواطنين (لا يسّد الرمق باعتراف الحكومة)، ألّا يموت الناسُ من الجوع، بل يمارسون الرياضة لتخفيف وزنهم، ويحضر أكثر من مليون منهم مسيرة الأوّل من أيّار، لا للاحتجاج على الحكومة، كما يحدث في جميع أنحاء العالم، بل لتأييدها ودعمها؟ لا شيء غريب ولا مستغرب، فالنقابات في كوبا تدعم الحكومة على طول الخط (ما أغرب ذلك!)، ومن العمّال من يتفاخر بأنّه يعمل اثنتي عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة في اليوم، وهو دوام يدعونه «دوام الطوارئ»، كما كان يحدث للفلاحين وعمال المناجم الدنماركيين في القرن التاسع عشر. صحيح أنّ هؤلاء الكوبيين البسطاء يحظون برعاية طبيّة جيّدة ومجّانية، لكنّهم لا يجدون، في أغلب الأحيان، حبّة أسبرين في الصيدليات، مع ذلك تراهم يرقصون ويغنّون ويتطوعون للعمل ويردّدون شعارات ثوريّة تدين الحصار الأمريكي المجرم، ويطالبون بعودة بعض الأبطال، بينما تجدهم، أنفسهم تقريباً، يهربون من البلد بالقوارب، أو بغيرها، نحو الولايات المتحدة، أو نحو أيّ مكان، وقد يظلّون في كوبا، يعيشون على ما يسمّيه رمسيس بـ «الاختراع»، وليس في ذلك، بالطبع، ما يستحقون عليه أيّة براءة اختراع. لا. إنّ لينا لا تفهم شيئاً من كلّ ما سمعت ورأت: فكوبا بلد عجيب غريب... وافقها رمسيس على ما قالت، وردّ بجواب لم يشبع فضول الشابة:

- حال كوبا لا يفهمها حتى الربّ، ولا يصلحها حتّى الربّ... - قال، وهو غير راغب في الخوض في موضوع يثقل عليه، بعد أن اتخذ قراره، وهو بكامل وعيه، في أن يبني مستقبله وألّا ينظر إلّا إلى الأمام.

مع ذلك، وعلى الرغم من قراراته ومشاريعه، فقد تعلّم رمسيس، بفضل علاقته التي بدأها مع لينا، شيئاً مهماً: فمهما انطلق ونظره إلى الأمام، فإنّ انتماءه سيدوم ويبقى، شأنه شأن الحلزون الذي طالما تكلمت عنه أمّه: الحلزون الذي يحمل بيته على ظهره.

من بين مزايا انتمائه الكوبي الذي لا ينمحي طرائقه في ممارسة الجنس، التي كان يثير بها دهشة فتاة الفايكنغ، لأنّها طرائق تخالف الكثير من القوالب

الشماليّة التي اعتادتها الشابة الدنماركيّة (وهو ما حدث له قبل أشهر مع فتاة من أستورياس[71] ارتبط بها لوقت قصير)، وهي ثمرة تمرين عفوي بدأه وهو في الثالثة عشرة، وجوّده مع صديقة من سنّه، وسرّعت فيه شقيقتها الكبرى، كانت تبلغ الثامنة عشرة، وكانت تداعب نفسها حتّى بالخيار، فتلجه من قدّامها ومن ورائها، وقد قدمت ذلك العرض يوماً أمامه حين كان مراهقاً (ثمّ أكلت الخيارات بعد أن غسلتها ورشّت عليها الملح، فالحال في كوبا لا تسمح بالتفريط بشيء يؤكل).

لا يتذكّر رمسيس كم ضاجع من النساء، خلال السنوات العشر التي سبقت رحيله. نساء من كلّ لون وسنّ، بين الخامسة عشرة والأربعين، بل كانت بينهنّ واحدة في الثانية والخمسين. من بين أمتع علاقاته تلك التي دامت أشهراً مع فابيولا، ابنة ليوبا وفابيو، صديقي والديه، اللذين توفيا في بوينوس آيريس، وما كانت وقتها تلك الفابيولا صاحبة الأسنان الكبيرة والحاجبين الكثّين. كانت جميع تلك النسوة تقريباً مولعات بألعابه وحركاته الجنسية، فكأنّهنّ في منافسات رياضيّة للحصول على ميدالية أولمبيّة، وقد تعلّم رمسيس، حينها، أنّ الأقبح بينهنّ والأنحف هنّ الأحرص على ارتقاء منصّة الفوز.

هكذا كانت الوفرة الوطنيّة في ممارسة الجنس، كما وصفها شابٌ خلاسيٌ غامق اللون له وجه شيطان، التقاه رمسيس في برشلونة. كان يحكي لكلّ من صادفه أنّه، حين كان في كوبا، ما كان له من شاغلٍ غير مجامعة خطيبته ثلاث مرات أو أربعاً في اليوم (وقد يجامعها سبع مرات)، أمّا في إسبانيا، حيث بدأ يعمل ويتكسب، فما عاد يحظى بخطيبته إلّا عصر أيام الأحد، وما عاد يضاجعها إلّا مرتين، على الأكثر، وإلّا حين يكون هو وهي ساخنين على أشدّ ما تكون السخونة. ما أشدّ ما يحنّ إلى كوبا وإلى خطيبته التي لا تشبع!

وكانت علاقة رمسيس بالدنماركيّة هي ما أرسى، طوال عام كامل، قواعد

71- أستورياس **Asturias**واحد من أقاليم إسبانيا. يقع في الشمال الغربي، وعاصمته مدينة أوفييدو **Oviedo**.

الصداقة بينهما. صحيح أنّ أصول الاثنين وقواعدهما الفكريّة والثقافيّة لطالما تعارضت، لكنّ رمسيس فرض في السرير قوانينه التي تقبلتها طائعة، بعد أن تخلّت عن ثوابتها الأوروبيّة وشعاراته النسويّة. وممّا ساعدهما على التعايش قدرتُهما على التخاطب بلغة كانت الفتاة تتقنها، وإن فاتها فهم الكثير من تعبيراتها ومصطلحاتها. فلماذا يخاطبها رمسيس أحياناً بعبارة mi china [يا فتاتي الصينيّة = حبيبتي] مع أنّها ليست آسيويّة؟ ولماذا يتوعّدها بأنّه سيلتهم «رغيفها» أو سيقشّر «جوّافتها» وما هي بخبزٍ يُؤكل ولا فاكهةٍ تُقشّر؟ يتكلمان أحياناً بالفرنسيّة، فرمسيس يحتاج أن يتكلم بالفرنسيّة التي درسها، والتي كان يغتنم كلّ مناسبة لمطالعة ما كتب بها. مع ذلك، فقد كان لذكرياته العاطفيّة الأعمق منافذ مختلفة، وكانت ميوله، وهي أحياناً مسائل يوميّة عابرة، تسير في مسالك متوازية. حين بدآ العيش معاً في غرفة رمسيس (أصرّت الدنماركية على أن يدفعا إيجار الغرفة مناصفة)، اكتشف الفتى، مثلاً، أن لينا لا تغسل سراويلها الداخليّة، بل كانت تعمد إلى الذهاب، كلّ شهر، إلى مخازن H&M لتشتري خمس علب، في كلّ واحدة منها، ستة سروايل (فهي رخيصة في أسبانيا!)، وتستعمل كلّ يوم واحداً منها، ثمّ ترمي به، نهاية اليوم، في الزبالة. وأيّة امرأة في كوبا يخطر ببالها أن تفعل هذا! (وماذا عنه هو الذي طالما استعمل سروالاً داخلياً مرقّعاً! وماذا عن أمّه التي طالما ارتدت سروالاً أعادت إصلاح مطاطته!). وحين رآها ترقص السالسا، وتطبّق الدروس التي تلقتها في كوبنهاغن (على يد مدربة كوبيّة)، أدرك أنّ خصرها الأوروبي وسمعها الشمالي لا يمكنهما أن يستجيبا أو يلتقطا دقائق النغمات ولا شفرتها.

مع ذلك، ولأنّ رمسيس يؤمن بأنّه سيقضي حياته بلا جذور، باحثاً عن أيّ دعم وسند، فقد انتهز فضول الدنماركية الثقافي وبحبوحتها الماديّة وجاراها للتعرّف على بعض مظاهر العالم الذي يعيش فيه. رافقها، حين استطاع ذلك، في زياراتها لمتاحفَ ومعالمَ ومدنٍ أخرى في كاتالونيا وأراغون وبلاد الباسك. أعجبته سان سيباستيان وحلم بالإقامة فيها، إن سمحت له الظروف بذلك. وفي برشلونة، أقبل على شراء الكتب التي كان هوراثيو وإرفينغ ينصحانه باقتنائها، ودرس أعمال غاودي، وتضاعف اهتمامه بذلك

المهندس الكبير حين علم أنّ أصولَ ثروته بدأت في كوبا، حيث نمّاها أبوه، جوان غويل، الذي يبدو أنّه جمع أمواله من تجارة العبيد.

مع ذلك، فقد قامت، بين رمسيس ولينا، حواجز لم يستطيعا تجاوزها، ولم يسمح لهما الوقتُ، على طوله، بالتغلب عليها. وهكذا رافق رمسيس صديقته الجميلة الكريمة الذكيّة إلى مطار (ﭙرات)، بعد انتهاء زيارتهم إلى (سيغور دي كالافيل)، بصحبة أبيه ومونتسي وإرفينغ وجويل. توادعا، وجرت الدموع في عيونهما والأمنيات على لسانهما، ولكن من دون أمل ولا وعد بلقاء جديد بين الدنماركية التي تدرس أدب أمريكا اللاتينيّة والكوبي الذي أضاع جنسيته ووضع على جبهته بوصلة لا تؤشر إلّا نحو الأمام، الأمام من أيّة بقعة في الكون، لكي ينتهي، ربّما، في سان سيباستيان.

أمضى رمسيس الأسبوعَ الأخير من إقامته الكاتالانيّة في شقة داريّو ومونتسي. في ذات الغرفة التي شغلها حين وصوله إلى برشلونة، وضع حقيبته الكبيرة وأخرى مدولبة، وضع فيها كلّ متعلقاته، بما فيها المعطف والملافع التي أعطاه إياها إرفينغ حين استقبله في مطار باراخاس بمدريد، وبعض القمصان والكتب التي كان جلبها من كوبا أو اشتراها في إسبانيا.

في الليلة الأولى، وبعد أن تناول شرائح الميلانيز التي أعدّتها، إيلينا، الطبّاخة الرومانيّة العائدة مؤخراً من إجازة في بوخارست، استأذن رمسيس أباه وزوجة أبيه بالانصراف ليراجع بريده الإلكتروني ويكتب لأمّه.

فتح رمسيس حاسوبه المحمول، هدية مونتسي له، فوجد في بريده الإلكتروني رسالتين من صديقته الدنماركيّة. لم يفتحهما، بل حذفهما، كما فعل مع السابقات، فقد كان قرّر القطيعة مع ذلك الإدمان الذي من شأنه أن يؤثر فيه، وآثر أن تكون القطيعة نهائية، على طريقة ترك التدخين.

ثمّ فتح رسالة كانت أمّه قد كتبتها في ذلك اليوم وأرسلتها من حسابها، الذي باتت تستطيع مراجعته من مكان عملها.

ولدي الحبيب:

كلّما تذكرتُ أنّك ستسافر قريباً إلى فرنسا تعتريني الرجفة، وأنتَ تعرف كم أنا خوّافة. لا أكفّ عن الإعجاب بوسامتك، ومدى قوّتك في مواجهة الحياة، وهو أكثر ما يعجبني فيك، لأنّك تعرف دائماً ما تريد، وكيف تريد والسبيل إلى بلوغ ما تريد. طبعاً، فأنتَ، في النهاية، ابن أبيك (سلّمْ لي عليه وعلى مونتسي، التي أشكرها على كلّ ما فعلت من أجلك. بارك الربّ فيهما).

تعلم أنّي لا أقدر على الدخول إلى الإنترنت من مكان عملي، لذلك استطاع برناردو قبل أيام الدخول إليه من بيت شخص ذهب لينظّف حاسوبه من الفايروسات وينصّب له بعض البرامج. نزّل لي معلومات عن جامعة تولوز التي تقصد الدراسة فيها. كم أنتَ محظوظ، يا ولدي! فهمتُ ممّا قرأتُه في هذه الأوراق أنّ المستويات الجامعيّة عالية وصعبة (لكنّي أعرف أنّ ذلك لن يكون عائقاً أمامك)، أمّا ما اكتشفتُه فعلاً فهو أنّ في هذه المدينة أكثر من مئة ألف طالب جامعي، وأنّها تستقبل عدداً كبيراً من السكان الجدد كلّ عام، وأنّ فرص العمل فيها متوفرة لمن يحمل مؤهلات في تخصصات التكنولوجيا والمعلوماتيّة. وهذا كلّه تعلمه أنتَ أكثر منّي. وعليه فسوف تستطيع، في ظرف ثلاث سنوات، أن تحصل على الشهادة وتضمن الاستقرار، خصوصاً أنّك تقدمتَ كثيراً، كما قلتَ لي، في تعلّم الفرنسيّة. كم أنا سعيدة بكل ذلك، لأنّك تستحقّ كلّ هذا وأكثر. ليس لأنّك ذكيّ -أعتقد أنّك أذكى من داريّو- فحسب، بل لأنّ في داخلك من الاندفاع والقوة ما أغبطك عليه وأحسدك، وأنا أمّك التي ولدتك...

سأنقل لك الآن خبراً محزناً. هو خبرٌ متوقّع، لكنّه، مع ذلك، مؤلم... فقد مات، عصر أمس، دينجر. أخبرتك سابقاً أنّه مريض من أيّام. توقفت كليتاه عن العمل تقريباً، وقد حقنه صديق بيطري، كان صديقاً لإليسا، بالسيروم، وأظنّ أنّي كلمتك عنه، لكنّه نصحنا ألّا نعلّق الكثير من الأمل، فقد بلغ المسكين اثني عشر عاماً، وهي سنوات كثيرة على دوبرمان من سلالته. أمس الأوّل، حضر الطبيب لمعاينته، وقد كلمنا عن ضرورة قتله، لكنّ ماركوس رفض بشدّة، فأعطاه البيطري دواء ليبقي عليه مخدراً لكي لا يتألّم. وظلّ تحت أثر المخدّر حتّى مات أمسِ عصراً، راقداً على كنبة الصالون، في حضن أخيك. ولك أن تتصوّر كم بكى ماركوس... ثمّ دثّره بشرشف وذهب ليحفر قبراً في المكان الذي كنت تربّي أنتَ فيه أرانبك، ثمّ دفناه هناك، أنا وماركوس وبرناردو.

سامحني أن حكيتُ لك ذلك، لكنّي أعرف مدى حبّك لـدينجر. هل تذكر كم كنت تغضب حين يسخر أصدقاؤك منه لأنّه كان الدوبرمان الوحيد الذي له أذنان وذنب؟ وهل تذكر ما كانوا يقولونه لكَ حين تأخذه معك

لجلب الحشيش لأرانبك، وكيف يخافون حين يرون ملامحه العدوانية أحياناً وأنتَ تقول لهم إنّه من فصيلة مسالمة طيبة؟ وهل تذكر حين عدتَ ذات مرّة كالمجنون لأنّه ضاع منك بعد أن تعلّق قلبه بكلبة وسار وراءها...؟

وقرأ رمسيس الفقرات الأخيرة من المكتوب والدمع يضبّب عينيه. مسح دموعه بظاهر يده ثمّ كفّ عن القراءة وأجهش بالبكاء. لقد انهار وغلبته دموعه في لحظة، فقد كان الكلب جزءاً مهمّاً من حياتهم. وتذكّر صوراً له من الماضي، وتخيّل أخرى من حاضر غاب هو عنه. تصوّر ماركوس وهو يسقي دينجر المحتضر، وتصوّره وهو يحمله ميتاً ليدسه في التراب. وتمنّى لو أنّه كان هناك، معهم. لا لكي يشهد موت الكلب، بل لكي يكون هناك، حيث يجب أن يكون. ألا تراه يهرب ويهرب، ثمّ لا يلبث أن يعود القهقرى؟

سمع داريّو نحيبه، وهو يمرّ بغرفته، فأطلّ عليه.

– هل تبكي؟ –سأله، وهو يتقدّم نحوه. جفّف رمسيس دموعه وهزّ رأسه نافياً–. ماذا جرى؟ كلارا؟ ماركوس...؟

وهزّ رأسه ثانية بالنفي ثمّ أغلق غطاء الحاسوب.

– دينجر.

– الحمد للربّ! – صاح داريّو حين علم أنّ المكروه لم يصب ماركوس ولا زوجته السابقة ولا حتى برناردو.

– كيف تقول الحمد للربّ!

– اخفضْ صوتك، مونتسي نائمة... اسمعني. أنتَ كنت تعرف أنّ دينجر شاخ وهرم، وأنّه كان مشرفاً على الموت... حسناً، اعذر لي ما قلت... تعال، لنشرب شيئاً، فأنتَ تحتاج إلى ذلك. هيّا – قال له وقبّله من رأسه، كما كان يفعل معه حين كان طفلاً صغيراً. مسح رمسيس دموعه وجفف مخاطه، وسار خلف أبيه نحو الصالة. أخرج داريّو زجاجة من جوني *والكر* ووضعها على الطاولة الصغيرة التي في الشرفة، أمام رمسيس. ثمّ ذهب إلى المطبخ وعاد بكأسين وإناء ثلج.

– أعتذر ثانية عمّا قلتُ – قال داريّو.

- لا عليك.

حرّك داريّو الويسكي قليلاً في الكأس ثمّ تناول جرعة.

- هل تريد أن تكلّم كلارا؟ يمكنك استعمالُ هاتف البيت.

- شكراً. سأتصل بها، ولكن في ما بعد. الساعة الآن الرابعة، وربّما لم تصل بعدُ إلى البيت... ولم يعد بعدُ ماركوس.

عاد رمسيس يجفف دموعه. وعاد داريّو يشرب وهو ينظر إلى ابنه.

- هل تعلم أنّي أحلم أحياناً بأنّي في كوبا، هناك معهم في (فونتانار)؟

- وأنا أيضاً. دائماً.

- هذا شيء عظيم -وضع داريو يده على رأسه وهو يشير إلى ما في داخله-. يفعل ما يبدو له ويحلو، لا يغفر لنا ولا يتركنا في سلام. أسأل نفسي أحياناً إلى متى ستلاحقني ذكرياتي. إنّها قابعة هنا، بالمرصاد، يا لها من ابنة قحبة!... الأشياء الجيدة قابعة هنا أيضاً، ولماذا النكران! أرى في واحد من أحلامي أنّنا هناك، في بيتكَ...

- في بيتنا تقصد - صحّح له رمسيس.

- نعم... نجلس في الباحة. أحياناً أنت وماركوس، وأحياناً أخرى، كلّنا، شلّة أمّك...

- وهل هي أحلام أم كوابيس؟

- أحلام وكوابيس... وأعرف أنّي حلمتُ، لكنّي سرعان ما أنسى ما حدث في الحلم. أعتقد أنّها آلية من آليّات الدفاع. أنسى ما رأيت، لكنّ شيئاً يظلّ دائماً يدور ويدور... شيء شبيه بالتنويم المغناطيسي، لا أدري... فهل دفن جدّاك حقاً حجراً مغناطيسيّاً في أساس البيت؟ هل هو من تأثير ذلك المغناطيس؟

- لا أدري... ربّما لأنّك أمضيت سنين طويلة من حياتك هناك.

هزّ داريو رأسه مؤيداً، ونظر إلى أبرتي الكنيسة الشامختين، وكانتا بعدُ مضاءتين.

- وكان بعضها أجملَ سنوات حياتي. تأمّل. أعيش هنا منذ ستة عشر عاماً، فهل تعلم كم صديقاً عندي؟ ولا واحد. أعرف ناساً كثيرين، وقد

رأيتَ أنّنا تعشينا مع بعضهم، والتقينا بهم، بعضهم من المستشفى، أصدقاء مونتسي... لكنّهم ليسوا أصدقائي... أصدقائي هم إرفينغ وجويل وهوراثيو وبرناردو، والمرحومان فابيو وليونا... هنا لا أستطيع التحدث مع من أعرفهم عن عوائلهم، مثلاً، ولا عن الحلوى التي تصنعها أمّهاتهم، لأنّي لا أعرفهنّ. لم أذهب مع أيّ واحد منهم يوماً لحضور مباراة، وهم لا يعرفون من يكون راي بيثنته أنغلادا ولا أغوسطين ماركيتي[72]...

– أرى أنّك لم تذكر أمّي بين أصدقائك...

– كلارا شيء آخر. هي وهوراثيو مختلفان. لا أتكلّم عنهما أبداً، كما يفعل اليهود حين لا يذكرون اسم الربّ. هما مقدسان.

ابتسم رمسيس.

– كلام جميل... وماذا عن إليسا ووالتر؟

عبّ داريّو بقيّة كأسه.

– أتمنّى أن أشرب المزيد، ولكن لا. غداً لدي عمليتان... فاشرب أنتَ إن أردتَ... أمّا إليسا، فقد كانت امرأة معقدة الشخصيّة. أظنّ أنّي لم أستطع فهمها، على الرغم من أنّنا كنّا قريبين من بعض سنوات طويلة. أمّا من كانت ضعيفة تجاهها فهي كلارا... وكان ذلك يثير غيرتي. ما عدا ذلك، فإن إليسا لديها من الاستعداد لأن تهب دمها من أجلك قدر استعدادها للانقضاض عليك وحزّ عنقك وإراقة دمك. أمّا استعدادها للكذب وقدرتها على التلفيق، فحدّث ولا حرج... لا أدري. لا. لا أدري إن كانت صديقتي... أمّا والتر فقد ظلّ بالنسبة لي لغزاً.

– ولماذا انتحر؟

– لهذا السبب أيضاً. وإن قال هوراثيو أنّه لم ينتحر، وأنّ ما جرى له لم يكن حادثة، بل جريمة قتل... والتر شرير في داخله. ربّما بدا لطيفاً وظريفاً وكريماً، لكنّه كان قاسياً في داخله، خصوصاً مع الناس الذين يراهم أدنى

72- **Rey Vicente Anglada** و **Agustín Marquetti** من نجوم رياضة البيسبول في كوبا.

منه، الناس الذين يرى أنّه قادرٌ على سحقهم. وكان هذا أسوأ طباعه في نظري، ربّما لأنّي أتعاطف مع الضعفاء وأفهم المستضعفين، بسبب ما جرى لي وحكيتُ لك عنه. وكان متورطاً في أمور قذرة...

– تقصد حين كان في موسكو؟

– وغيرها...

– ألم تنسَ له شجاره من إرفينغ؟

– رغم أنّ إرفينغ هو من استفزّه. لقد تعمّد إرفينغ إثارة المشكلة دفاعاً عنّي أو لحمايتي. وقد رأيت، ذلك اليوم، الشيطان الذي كان في داخل والتر رأيَ العين. أظنّ أنّ الشيطان هو من قتل والتر.

– فهل انتحر، إذن، أم قُتل؟

– لا أدري، رمسيس. لا أدري... ولكن انظر، هناك قصة ربّما لها صلة بكلّ ما حدث. قصّة لا لا تعرفها أنتَ ولم تسمع بها، ولا يعرف بها أحد، لأنّي لم أحكها لأحد... هل تتذكر غيستي، خطيبة هوراثيو الشقراء؟

– طبعاً أتذكرها. الجاسوسة. قبل أيّام تذكّرها إرفينغ... كان ماركوس مغرماً بها.

– قبل عشر سنوات تقريباً التقيتُ بها في فلورانسا.

– هل غادرت كوبا هي أيضاً؟

– هذا ما سألتها عنه حين رأيتُها... أوقعت برجل إيطالي في شباكها وهي هناك معه.

– وهل تكلمتَ معها؟

– نعم... وقد لاحظتُ، وأنا أكلّمها، شيئاً غريباً، فتجرأتُ وسألتُها إن تجسست علينا فعلاً؟

– وماذا قالت؟ نفتْ بالطبع...

– طبعاً... المشكلة أنّي لا أمتلك أيّ دليل، لكنّي أظنّ أنّها حكت للشرطة عن بعض الأشياء. وإن فكّرتُ، أحياناً، بأنّها لم تكن جاسوسة، بل استغلّوها لتنقل لهم أشياء شاهدتها أو سمعتها...!

– عليك أن تحكي ذلك لهوراثيو وإرفينغ.

– هذه هي المشكلة. قالت لي إنّ هوراثيو يعلم بكلّ شيء، وإنّها ليست من كان يتجسس علينا... لكنّ هوراثيو لم يعاود الكلام عن غيستي، أظنّ أنّه فكّر أنّ من الأفضل نسيان الأمر برمّته. وهو محقّ في ذلك. يجب نسيان كلّ شيء ودفنه... –نظر داريّو إلى كأسه، حيث بقايا من الثلج، وصبّ عليها قليلاً من الويسكي–. ليس كلّ شيء... حين تتصل بهم في البيت، بلّغ أمّك وبرناردو تحياتي. وقل لماركوس إنّي سأكلمه نهاية الأسبوع. لم أكلّمه من شهرين.

هزّ رمسيس رأسه موافقاً.

– لماذا أنتَ هكذا، أبي؟

عبّ داريّو ما تبقى من الشراب قبل أن يردّ.

– لأنّي أحاول أن أحمي نفسي، لكنّي، وأنا أفعل ذلك، أفسد، أحياناً، كلّ شيء... لكنّي كنت أفكّر...، متى تسافر إلى تولوز؟

– الجمعة.

– ألا يمكنك الانتظار إلى السبت؟

– بلى، لماذا؟

– لأني فكّرتُ أن أوصلكَ إلى هناك بنفسي. سنذهب، أنا وأنتَ، في السيارة ونتناول الغداء في مكان رائع، ثمّ نستأجر غرفة في فندق صغير لننام القيلولة، فأنا أعشقها، كما تعلم، ثمّ نأخذ دوشاً ونواصل طريقنا إلى تولوز. هناك سنأكل ونشرب ونتصل بماركوس قبل أن أتركك لتبيت في الإقامة الجامعيّة وأعود أنا إلى الفندق. وفي الصباح سنتناول فطوراً حقيقياً من *كرواسان* حقيقي، ثمّ أعود لأكون هنا مساءً.

– لكنّها ساعات طويلة من قيادة السيارة.

– ستكون ساعات دردشة وبوح...

– إن شئت ذلك... لكنّ لطفكَ سيكلّفك يوروات كثيرة.

– لأجل هذا وجدت اليوروات... –ابتسم داريّو–. اسمع، سآخذك إلى

قبر أنطونيو ماتشادو... و.. فأنا أريد أن أحكي لك أشياء لا تتصوّرها بالتأكيد... أنت دخلتَ سلك الرهبنة. أوتشوسي، أليس كذلك؟ المحارب؟... لكنّك لا تعرف ابن أيّ قديس أنا. أمامي واحد وعشرون طريقاً، وأستطيع أن أفتحها وأغلقها كلها... فأنا ابن إليغوا ومعي كلّ مفاتيح القدر.

- وي؟

- لا وي ولا ويص. هذا أنا.

- تباً لك... من أين تتصل؟ هذا رقم إسباني...

- أكلمكَ من ساحتي... ساحة القديس ماركوس... فينيسيا. والهاتف هو هاتف آنسة إسبانية اصطدتها الليلة البارحة وقد أعارتني إيّاه لأتّصل بك.

- ولكن، ماذ تفعل في فينيسيا، ماركوس؟ هل خرجت من كوبا؟

- على رسلكَ. *ليس بعد، يا فتى* [بالإيطاليّة]... هكذا يقولون؟ أنا هنا سائح...

- كيف...؟

- قل لي، *صديقي* [بالانكليزيّة]، كيف حال ابن أخي؟ وأنتَ؟ و«المسكينة فابيولا»؟

- الطفل بخير. أمّا نحن فشغّالون... وأنتَ، كيف حالك؟

- على ما يرام. أستمتع كثيراً... اسمع، هل لديك متسع من الوقت؟... فالقصة طويلة.

نظر رمسيس إلى ساعته. كانت تشير إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقة صباحاً. لم يكن يُنظر إلى المحادثات الخاصة في أوقات العمل بعين الرضا في مختبر أبحاث البُنى غير المتجانسة لأشباه الموصلات، حيث كان قبل ثلاث سنوات أحد المختصين المكلفين بمعاملة نتائج التجارب التي يقوم بها الفيزيائيون ومقابلتها.

- هل أنت بخير حقاً؟ - كرّر رمسيس سؤاله.

- نعم، نعم...

- سأتصل بك بعد أربعين دقيقة، إذن. هل هذا رقمك؟

- نعم، هذا إذا تحمّلتُ تلك الإسبانية حتى ذلك الوقت، وإلّا فسأتصل بك من كابينة في الشارع. أوكي؟

- أوكي، سنتكلم. قبلاتي لك. اعتنِ بنفسك. سأكلّمك.

- قبلاتي، أخي.

أنهى رمسيس المكالمة وأعاد الهاتف إلى جيب سترته. نظر إلى جداول الأرقام والمعادلات والأعداد والتواريخ التي كانت تغطّي شاشة حاسوبه العريضة، والصورة المؤطرة، القريبة من الحاسوب، لفابيولا وهي تقبّل ابنها آدم، وتمتم بصوت منخفض: يا له من مجنون. حاول رمسيس أن يركّز انتباهه في عمله، مع علمه باستحالة المحاولة، بعد أن نظر إلى التاريخ والساعة في حافة الشاشة السفلى: 22 نيسان 2014، الحادية عشرة وأربع وعشرون دقيقة صباحاً.

9

شظايا قطعة المغناطيس

أعرفُ أنّ هناك جرحى مكلومين ينتظرون إشارة.
وماذا بقي أن أقول لكَ عن شيء لم تعشْه؟
وماذا بقي أن أحكي لكَ عن شيء لم تحلم به؟
• من أغنية لـ آنا بيلين

كيف عساه يكون؟ لا. لا، المسألة لا تكمن في هذا، أيّة حماقة هذه، لامَت نفسها. قد يكون شخصاً له ما للآخرين من صفات: رأس بعينين وفم، يتكلّم ويمشي وربّما يغنّي، ماذا يغنّي؟ يغنّي *الحياة بلون وردي* لبياف أم *كرة الثلج*؟... المهم، وهذا هو المهم حقاً والمهم جداً، أن يكون شخصاً لديه من الحظ أكثر ممّا لدى أولئك الملايين والملايين من البؤساء الذين ذكرهم هوراثيو ذات مرّة. فهي واثقة من أنّ نجم سعده معقود بجبينه: كان مرغوباً ومنتظراً، وسيكون محبوباً. سيمتلك كلّ ما على الإنسان أن يمتلكه ليكون كاملاً وجديراً بصفته. سيمتلك كلّ ما ناله ابناها، من الضروري الأساس، قليلاً كان أم كثيراً، بفضل البلد الذي ولدا على أرضه، ذلك البلد الذي يقسو أحياناً، ويغدق في العطاء أحياناً أخرى، وبفضل ما جاهدت هي من أجله وأمّنته لهما، حتّى في أشدّ الأيّام ضيقاً: طعام وسقف وأحذية وأمنٌ وحبّ. أمّا المنتظر فسينال ذلك وأكثر...

حينئذٍ، صحّحت سؤالها. فما كان عليها أن تسأل نفسها حوله هو: ما

عساه يكون؟ وكانت كلارا تعلم ما عساه يكون، مع ذلك، فقد كان يصعب عليها استيعاب الحالة، ويشقّ على نفسها القبول بها، على الرغم من منطق الحياة ووضوح الأدلة المادية وتوفر الحجج القانونيّة والجغرافيّة الدامغة. نعم. هو هذا. هو حفيدها، ابن ابنها، دم دمها، كما يقال، حِمض حِمضها النووي، وقد تقرّر أن يسمى آدم، على اسم أوّل مخلوق أو، على الأقل، أوّل رجل حمل اسماً. أم إن الأمر ليس كذلك؟ فقد كانت تعلم علم اليقين أنّ آدم مارتينِث فورنيس، حفيدها، فرنسي. *فرنسي*. وما لم تستطع كلارا، ولن تستطيع، الكفّ عن السؤال عنه هو كيف انتظمت أو تقاطعت طرق التاريخ والحياة لكي يكون سبط فابيو وليوبا، وحفيد داريّو وحفيدها، *فرنسيا*، ناهيك عن أن يُخلق ويولد.

هل كان لها دورٌ في أن يحصلَ ما حصل؟ هل ساعدت عليه؟ ومع أنّ المنطق يقتضي أنّ شيئاً مماثلاً تقريباً سيقع على أيّة حال (حين يولد لابنها، المقيم في فرنسا، ولدٌ في فرنسا، فهذا معناه أنّ حفيدها سيكون *فرنسيّا*)، لم تكفّ كلارا عن القول إنّها هي من رتّب لذلك التقاطع المعقد (لعبة كلاسيكيّة تقوم على فكرة السبب والنتيجة)، في إصرارٍ على أن توجّه حياة آدم مارتينِث فورنيس. فـ «ما من واقع غير الصدفة»، كما قرأت في أحد الكتب. ثمّ يلحّ عليها التفكير: فلعلّها ساعدت عليه لأمرٍ صالحٍ يحتاجون وقوعه. حدث سارٌ في غمرة قحط وجدبٍ وعقم وهزائم.

ارتبطت كلارا وبرناردو ورمسيس وماركوس، ومعهم، حتّى خروجهم من البلد، هوراثيو وإرفينغ وجويل بعلاقات دائمة، وإن لم تكن وطيدة، مع من دعوها في البداية بـ «فابيولا المسكينة». «فابيولا المسكينة» هذه، التي تصغر رمسيس بستّ سنوات، وتصغر ماركوس بأربع سنوات، كانت في الخامسة حين سافر والداها إلى الأرجنتين، وكانت في السابعة حين ماتا في ذلك الحادث الغريب، الشبيه بالحادث الذي قضى فيه والدا كلارا وانتحار والتر، فكأنّ المنيّة المستنسخة تلك كانت تلاحقهما لتوجّه مسار حياتهما نحو توافقات متقلبة ونهايات غريبة متقاربة. فهل هو الرجوع الأبديّ؟ هل هي الدورات التي لا تنكسر؟

حين غادر فابيو وليوبا كوبا، وقد بيّتا ألّا يعودا، على أن يُخرجا ابنتهما

من كوبا لاحقاً -بعد انتهاء المنع الذي يدوم ثلاث سنين أو أربعاً، وأحياناً أكثر-، بقيت فابيولا تحت رعاية عمّتها ماريّا دل كارمن وزوجها أرتورو، اللذين عاملاها معاملة بناتهما، مع دعم لا محدود من جدّها وجدّتها، العسكريين السابقين رفيعي الرتبة، اللذين اختارا أن يتقاعدا مبكراً.

وحاول الأصدقاء الذين ظلّوا في كوبا أن يبقوا على تواصلهم مع الفتاة بعد وفاة والديها، لكنّ الوقتَ طال، وأبعد السفرُ آخرين، فلم يواصل العلاقة معها إلا كلارا وبرناردو.

وكان من المنطقي أن تكون كلارا، على الرغم من نفورها من الاحتفال بعيد ميلادها، هي من أسس لتقليد الاحتفال بعيد ميلاد «فابيولا المسكينة»، حين كانت تصحب ولديها ومَن يستطيع من الأصدقاء لزيارة البنت وتقديم هديّة لها بالمناسبة. ثمّ مرّ الوقت، وصارت الفتاة تبدو لهم مراهقة فظّة، نحيفة كالقلم، تملأ أسنانها أسلاكُ الفولاذ، ثمّ بدت لهم شابة نحيفة، يضفي حاجباها الكثّان على عينيها عمقاً كعمق عيني الغجرية الاستوائيّة وغموضاً كغموضهما. لم ير رمسيس اللاذع في تلك الفابيولا، التي تنبأ لها جداها أن تكون ذكيّة كوالديها، إلّا فتاة ثقيلة الظلّ، سليطة اللسان، ناتئة الأسنان، كثّة الحاجبين.

حين أتمّت الفتاة الخامسة عشرة من عمرها، عام 2003، حضرت كلارا بصحبة جوقتها الاحتفال المعتاد، مع الكعكة الكبيرة من أجل التقاط الصور، وقدموا لها أيضاً ظرفاً فيه مائتان وأربعون دولاراً هو مجموع ما أرسله -بناءً على طلب كلارا- داريّو وإرفينغ ووراثيو وجويل.

منذ ذلك الحين، صاروا ينادونها بـفابيولا فحسب، وبدت صورتها جميلة، كزهرة في موسم تزهيرها. لكنّ اللقاءات مع البنت بدأت تتباعد، وإن لم تكفّ كلارا عن الاتصال بها عند اقتراب مناسبة عيد ميلادها، وزيارتها حين يصدف أن تمرّ بالقرب من مسكنها. وهكذا علمت كلارا بدخول فابيولا الجامعة لدراسة اللغة الفرنسية عام 2006، وكانت على علم أيضاً بتخرجها عام 2011 وحصولها على منحة دراسية مدتها سنتان من تلك التي يقدمها الاتحاد الأوروبي للطلبة المتميزين، ثمّ سفرها إلى فرنسا

للتخصص في الترجمة الفوريّة في السوربون. فهل شقّت كلارا الطريق أمام القدر حين زوّدت فابيولا برقم هاتف رمسيس، الذي كان يدرس ويعمل في تولوز، فربّما، قالت لها، احتاجت إلى الاتصال به أو طلب معلومة منه؟ لم تكن تقصد شيئاً، بل كانت مجرّد لفتة لم تحسب لها حسابا. حتّى إذا اختفت فابيولا من على شاشة رادارها الجغرافي، اختفت أيضاً من رأسها.

وبعد عام وبضعة أشهر، تلقّت كلارا مكالمة من ولدها يعلمها بأنّه وفابيولا، اللذين سبق لهما أن ارتبطا في كوبا بعلاقة قصيرة، يعيشان معاً. قال لها إنّهما التقيا في باريس قبل عام و «أعادا الارتباط»، حسب عبارة رمسيس، وإنّ الفتاة حصلت على إذن بالانتقال إلى جامعة تولوز، وإنّها حامل، وإنّها قرّرت أن تبقى معه في فرنسا، وإنّهما قرّرا أن يتزوّجا نهاية ذلك الأسبوع، وإنّهما يريدان، بالطبع، أن ينجبا طفلا. الحفيد الفرنسي أو الحفيدة الفرنسية. يا إلهي! رمسيس و «المسكينة فابيولا»، صاحبة الحاجبين الكثّين، اللذان كانت لهما قصة في كوبا، يلتقيان في فرنسا من جديد وسيأتيان لها بالحفيد العتيد!

بعد ثلاثة أشهر، راحت كلارا تعدّ العدّة للسفر إلى فرنسا، بين حماسٍ وقلق، وفي غمرة الشكوك والأسئلة التي زرعها سيلُ الأخبار والقرارات الواردة من ابنها. لقد رتّب رمسيس وفابيولا الأمر لكي تحضر كلارا ولادة حفيدها، الذي بات معلوماً أنّه سيكون ذكراً. كان التفكير في أوّل رحلة تقوم بها إلى خارج الجزيرة يزيد من قلقها، فهناك حقائقُ ستواجهها، وهناك لقاءاتٌ ستخرج عن نطاق سيطرتها، لكنّها، بالمقابل، ستعود إلى لقاء ابنها بعد سبع سنوات من الفراق، لتعيش معه فرحة الأبوّة وتشاركه لحظات استقبال ولده. هل سيتعلّم الحفيد الفرنسي كيف يسقط ثمار شجرة المانغا عن طريق رميها بحجر؟ وهل سيتعلّم كيف يحصد العشب ليطعم الأرانب، كما كان يفعل أبوه؟ وهل سيستمتع وهو يلعب البيسبول ويهيم كالصعلوك وقد تمزّقت ركبتاه واتسخت أذناه كما كان عمّه ماركوس؟

أنفقت الجدّة العتيدة أربعة أشهر لكي تحصل على إجازةٍ من الدائرة وترخيصٍ من الوزير، وجواز للسفر؛ وتتمكّن من تصديق الدعوة التي أرسلها لها رمسيس بأختامها الفرنسيّة، وإنجاز كافة الإجراءات الباقية،

لتستطيع في النهاية، وبعد حرق أعصاب ووقت، من الحصول على ما يعرف بالكارت الأبيض الذي يسمح لها بالسفر خارج البلد مدة أحد عشر شهراً وتسعة وعشرين يوماً، وهي مدة يدخل المسافر بعد انقضائها، إلى ما يعرف بـ «التعليق» وحالة الحرمان من العودة إلى الوطن.

وهكذا بدأت كلارا، والكارت الأبيض في يدها، بالسعي للحصول على الفيزا الفرنسيّة، وهو مسعى لا يقلّ صعوبة عن سابقه، إذ لا يمكن الحصول على الفيزا قبل قطع تذكرة مرجّعة على الخطوط الجوية الفرنسيّة حصراً، بتاريخ سفر وعودة لا يتجاوز الشهرين.

كان ماركوس وبرناردو بانتظار كلارا حين عادت منتصف النهار إلى البيت ومعها الجواز كاملاً جاهزاً وصالحاً للسفر. كان أمامها يومان على موعد رحلتها المقررة إلى باريس.

- ستتركيننا وتذهبين إلى فرنسا الجميلة! -صاح ماركوس، وهو يتصفّح جواز سفر أمّه-. كم أنتِ محظوظة! وهل ستعودين؟

- ماذا تقول يا فتى؟ بالطبع سأعود.

- إن استطعتِ تحمّل رمسيس الثقيل، فأرجوك ألّا تعودي - قال لها ماركوس.

- وأنا أيضاً أرجوك ذلك - قال برناردو.

- حسنا. إن لم يكن بقائي يهمكما، فسأظلّ هناك ربّما.

- طبعاً يهمّني... -قال برناردو ثمّ صمت-. طبعاً، كلارا... طبعاً يهمّني. وأنتِ تعلمين ذلك.

اقتربت من برناردو وأمسكت بوجهه وقبّلته.

- هيييه! هيييه - صاح بهما ماركوس.

- أنتَ تعلم أنّي لن أتركَك... -قالت لبرناردو، ثمّ التفتت نحو ماركوس ورفعت يدها فكأنّها تهمّ بضربه-. لكنّ هذا القرد بترهاته دائماً!

تناول ماركوس يد أمّه المرفوعة وقبّلها.

- يا لك من أم مجنونة! هل تتصورين المعمعة التي ستجدينها في

تولوز؟ هناك ستجدين أبي وامرأته الكاتالانية، ملتفين بعلم كاتالونيا، وستجدين إرفينغ وجويل، بل ربما ستجدين هوراثيو وماريسّا... هل تتصوّر، برناردو، الحدث الذي سيفوتنا؟ كم أتمنّى أن أكون معكِ!...

– سيكون حدثاً رائعاً، كلارا –قال لها برناردو، ثمّ عاود تقبيلها–. أنتِ تستحقين هذا، بعد كلّ ما عانيتِ. سترين ولدك... وحفيدك!

– حفيدي الفرنسي...

هزّت كلارا رأسها، ونظرت إلى الباحة التي نمت فيه البطاطا وأشجار الموز، وهي من حرث ما زرعه، قبل ربع قرن تقريباً، داريّو بمساعدة رمسيس وماركوس. هل سيتعلّم حفيدها الفرنسي زراعة البطاطا وغرس شجيرات الموز؟

– مررنا بكلّ شيء تقريباً. أفكر أحياناً فلا أفهم كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

– بسيطة –قال ماركوس–، وقال ما تعلم قوله بالفرنسيّة: C’est la via [هذه هي حال الدنيا]!

– نعم، الحياة... وهذه هي حياة ثلاثة أشخاص ستقرقر بطونهم لأنّ تنبلين، هما ولدي وزوجي، لم يضعا القدر المبارك على النار. وحين سأسافر، سيموتان، حتماً، من الجوع!

مع بداية عام 2015، أي بعد عامٍ تسرّب كما تتسرّب حفنة الرمل من بين الأصابع، حضر إلى بيت (فونتانار)، ياسيير، وهو أحدُ أصدقاء ماركوس أيّام البيسبول. كانت كلارا تعرفه منذ كان طفلاً (كانت تأمره، أحياناً، بالسكوت لأنّه اعتاد الكلام بصوتٍ عال). بعد أن قبلها وهنّأها بالعام الجديد، الذي بدا أنّه سيكون عام خير، وسألها عن أحوال الدجّال رمسيس في فرنسا، سلّمها مائة دولار أرسلها ماركوس، من (هياليه)، لتحتفل، هي وبرناردو، بعيد ميلادها السادس والخمسين. حين رأت كلارا النقود، أحسّت بانقباض في قلبها للفتة ولدها نحوها.

– ولكن، لماذا يفعل ماركوس هذا؟ لعلّه فهم من كلامي شيئاً لم أقصده... لقد وصل إلى هناك للتو، وليس لديه ما يكفيه من المال، فلماذا يبدد ماله هكذا...

– ألا تعرفين، خالتي، كيف هو ماركوس؟ -قال الشاب بصوت مرتفع-. ماندراك الساحر!...

– أعرف كيف هو، بالطبع أعرف. ولكن، كفّ عن أن تناديني بـ «خالتي»، واخفض صوتك، ولا تسمّ كارلوس بهذه الأسماء.

وسرعان ما نسيت كلارا ما أثار قلقها، فابتسمت لحامل الأمانة ودعته إلى فنجان من القهوة. حكى لها ياسيير شيئاً عن حياته: فقد ترك وظيفة الباحث الاجتماعي، وترك التزاماته في مراجعة مادتي التاريخ واللغة الإسبانية للطلاب في بيوتهم، وصار يعمل وكيل عقارات، فيكسب من المال ما لم يكسب مثله في حياته... لكنّ التجارة انهارت، فهناك دائماً من يأتي ليفسد الأمور ويخرّبها. فأيٌّ مِن أصدقاء كلارا كان يقول: اليوم رائعٌ، وسيأتي الآن أحدٌ ويفسده؟ وضحك الاثنان.

لكنّ كلارا، في يوم عيد ميلادها السادس والخمسين، لم تكن، حين تلقّت مكالمات تهنئة من ماركوس ورمسيس وهوراثيو وداريّو وإرفينغ وجويل، في مزاج يسمح لها بأيّ احتفال، فقد كلّمتهم وهي جالسة على كرسي بالقرب من السرير الذي كان برناردو يرقد عليه في المستشفى الذي أدخل إليه قبل المناسبة بثلاثة أيّام. ردّت عليهم من دون أن تبلغهم بذلك الظرف كي لا تعكّر على أحدٍ صفو يومه، إذ يكفيها ما بها هي من همّ.

من شهرين، بدأ برناردو يعاني مشاكل في صدره: سعال شديد وصعوبة في التنفّس، فضلاً عن تعبٍ وآلام في أنحاء الجسم، عُزيت إلى الأنفلونزا الناتجة عن تغيّر الفصول (أطلقوا عليها، في تلك السنة، اسم «كارينيوسا» [الحنون]، لأنّها تمسك بتلابيب المريض وتطحنه، من قدميه إلى رأسه، ثمّ لا تغادره). لكنّ الأعراض لم تخفّ، بل تفاقمت، وباتت، مع مرور الوقت، مقلقة: فقد برناردو الكثير من وزنه، وشحب وجهه، ولم يستمع لتوسلات كلارا بالذهاب إلى المستشفى إلّا حين لازمته الحمّى. وسرعان ما شخّص الأطباءُ إصابته بالتهاب رئوي حاد، وقرروا أن يمكث في المستشفى أيّاما ليحقنوه بمضادات حيوية حديثة لا تتوفر إلّا في بعض المراكز الصحيّة. ومع أنّ الأطباء أكّدوا لكلارا أنّ المريض سيتعافى في ظرف أيام، لكنّها لم تكن مطمئنة.

وأكّد برناردو أنّه يشعر بتحسّن، لكنّ كلارا اتصلت، من دون علمه، بابن خاله، الدكتور خوان غريغوريو كويباس، وهو طبيب أورام، وأبلغته بهواجسها. فتحرّك الغويو، وهكذا كانوا ينادونه، في الحال، ونقل المريض من المستشفى البلدي إلى مستشفى الأورام، الذي يعمل فيه. خضع برناردو هناك إلى فحوصات أدقّ. وفي يوم 6 شباط، استدعى الغويو كلارا ليبلغها بأن برناردو مصابٌ بسرطان في الرئة. قرّر الأطباء إجراء المزيد من الفحوصات، لكنّ التشخيص الأوليّ كان متحفظاً: الحلّ الوحيد هو إخضاعه لجرعات من الإشعاعات لتركيز الورم ومن ثمّ استئصاله، إذ لا يمكن الكشف الدقيق عن الحالة إلا بعد المداخلة الجراحيّة، عندها فقط يمكن للجسم وللمرض الخبيث إعطاء أحكام نهائيّة. وهكذا، فمن الأفضل الشروع بالعلاج في الحال.

- برناردو لم يلتفت إلى صحته، هذه هي المشكلة - قال الطبيب.

– ترك الشرب من عشرين سنة تقريباً... –قالت كلارا مدافعة–. وهو لا يدخن. فلماذا الرئتان؟

– هو لا يعاني من كبده، بل من رئتيه. قولي لي، ماذا نفعل؟

– ما تقررونه أنتم، بالطبع.

– أنا أكلّمك عن برناردو... نخبره أم ننتظر؟

– نخبره. فليس برناردو غبياً، وسيفهم من نفسه... سأخبره أنا بالموضوع... غداً.

تلقت كلارا الخبر برباطة جأشٍ فوجئت هي نفسها بها. ربّما لأنّ قلبها كان يحدّثها بقرب وقوع مصيبة. حين بقيت وحيدة عند مكتب الغويو، أحسّت بأولى علامات الانهيار والحاجة إلى الهرب من ذلك المكان الكئيب، حيث البلاط والأرضيات والأضواء وروائح المعقمات المقرفة، وحيث اعتاد الموتُ أن يكسب المعركة.

خرجت من المستشفى دون أن تعرّج إلى الحجرة التي أدخل إليها برناردو، وسارت على غير هدى حتّى وصلت إلى متنزه (ميدينا)، جانب شارع 25، حيث المدرسة الثانويّة التي التقى فيها، قبل أربعين سنة مضت، فتية قرّبت بينهم ميولٌ ودوافعُ من كلّ نوع، حتى شكلوا ما دعوه هم بالأخويّة. هناك تعرّفت على إليسا، تلك الشابة، ذات الشعر الكستنائي والميول القياديّة، التي جاءتهم، عند انتهاء السنة الأولى من الدراسة، ببرناردو، ذلك الشاب الوسيم، ذي العينين الفاتحتين، الطويل المثقّف، الفرح الذكي، وقدمته على أنّه خطيبها، لكنّه سرعان ما جذب إليه جميع الفتيات اللائي عرفنه.

بدت لها البناية، وكانت منيفة عريقة، وقد فقدت بريقها الذي احتفظت به حتى سنوات دراستها الثانويّة وارتباطها بداريّو، أذكى طلاب المدرسة، والرجل الذي ستعاشره، بعد أشهر قليلة من ذلك، وتعيش معه خمسة عشر عاماً وترزق منه بولدين هما عشقها الذي أضفى على حياتها رضاً وسعادة. ذانك الشابان اللذان ودعتهما والدموع تملأ عينيها، لينضمّا إلى قافلة المهاجرين الذين لاحقتهم الغربة وترصدهم الفراق.

وأحسّت كلارا وكأنّ كلّ واحدة من محطات حياتها تلك وومضات

ذاكرتها تبلغ مكاناً غائراً منزوياً من الزمان، ومن المكان، مثل شيفرات ومفاتيحَ من حياة أخرى ضائعة. وبدت لها بناية المدرسة، بجدرانها التي بهتت ألوانها وتآكلت نوافذها، صدى اللحظات الصعبة التي مرّ بها البلد، والتي مرّت بها هي. ضياع مقابل ضياع. لم يبقَ إلّا القليل من الأزمنة التي كانت تجتاز فيها بوابة المدرسة، بتنورتها الخاكيّة الزرقاء وقميصها البولستر الأبيض، وبذهن راضٍ عن حاضره، واثقٍ من مستقبله الواعد بالمشاريع والفرص. بل لم يبق شيء: فقد أتت السنين والحياةُ والتاريخُ على الكثير، ومحت الكثيرَ الكثير. بل لقد أصاب الذاكرة تحلّلٌ عام يصل أثره حتّى إلى احتمالات المستقبل.

لم يبقَ بين كلارا التي درست هناك، وكلارا التي تقف الآن هناك، من رابط إلّا القليل. وكان الكثير من ذلك الباقي القليل يشهد، في تلك اللحظة، أزمة تهدّد بالموت. وبدت الوحدة التي طالما تهرّبت منها، والعزلة التي صنعتها، بين جدران المدرسة، بمساعدة أصدقاء ومخبرين وعشاق، وجميعهم إخوان تقريباً، عازمتين على التهامها، في مطاردة لم تعرف الهدنة. فإليسا وداريّو وإرفينغ وهوراثيو باتوا بعيدين؛ وبات فابيو وليوبا ووالتر تحت التراب؛ أمّا رمسيس، فيعيش في عالمه، مع ولده الذي لن تراه يكبر، ولن تشهده وهو يربّي الأرانب والديكة؛ أمّا ماركوس، فينعم بالسعادة في (هياليه)، مع خطيبته، ابنة نيويورك، التي سلبته لبّه وفؤاده. وها هو برناردو، أملها الباقي، وخيطها الأخير المربوط إلى اليابسة، ملقى على السرير، في المستشفى، ينتظر أن تزوره وتخبره بأنّ احتمالات موته باتت أقوى من احتمالات بقائه على قيد الحياة، وهي التوّاقة إلى أن تنعم، في سنوات التردّي تلك، بقربه وحبّه وطيبة قلبه، لينتشلها من الوحدة الفلكيّة التي ستهبط عليها وتلتفّ حولها وتلتهمها، كما تفعل الزهرة آكلة اللحم.



يأبى الشتاء في مدريد أن يتراجع. لم تطلّ الشمسُ نهار ذاك الأحد من أواخر آذار. تدثّر إرفينغ من جديد بملفعه المورّد، فكأنّه يبحث عمّا يحميه، وحاول أن يغلق جاكيتته المبطنة حتّى أعلاها. فإلى متى سيلاحقه ذلك البرد اللعين ويعذبه؟

منذ وصول الشاب الكوبي إلى إسبانيا والشتاء هو عدوّه اللدود. صحيح أنّ حرّ مدريد الجاف قاسٍ في الصيف ومضرٌ، لكنّه يقلّل الإفرازات ويجفف الرشح ويحيله كتلاً من مخاطٍ مكثّف ومكوّر، من سخام ودم متجمّد. صحيح أنّه يحمل الدكتوراه في درجات الحرارة المرتفعة المرهقة، لكنّ البرد شيء آخر. بل كان يشعر، وهو يتجوّل في مدريد، مقوّس البدن، مثقلاً بالملابس، بآلام في رقبته وظهره، حتّى إذا بلغ مكاناً دافئاً، وشرع في نزع دثاره، وجد جسمه يتصبب عرقا فكأنّه انتهى للتو من الجري مسافة عشرة كيلومترات. وحين يهمّ بالخروج من المكان الدافئ، يصاب بالذعر إذ يجدُ البرد بانتظاره. ربّما يكمن السببُ في تقدّم العمر. وربّما كان دليلاً آخر على أنّ ذلك المكان الذي حلّ به، وحقّق فيه الكثير من آماله وأحلامه، ما زال، وبعد عشرين سنة طويلة، ليس مكانه. بل ما زال يقدّم له الدليل على أنّه ليس إلّا شبحاً هارباً لم يكن له، ولن يكون له، مكان.

رغم البرد، شعر إرفينغ، الغارق في معنوياته الهابطة، بأنّه أسيرُ وحدةٍ ورتابة تبقيان عليه مربوطا إلى شيء لا يستطيع تحديده. وجلس أخيراً قبالة *الملاك الحارس*، خلف شجرة لم تكن تمنع عنه الهواء إلّا قليلاً، حاسباً أنّ قفازيه الجلديين كفيلان بذلك. وعاود النظر إلى ساعة هاتفه المحمول، وقدّر أن الوقتَ لم يحن بعد. إنّها الواحدة بعد الظهر في مدريد، السابعة صباحاً حسب توقيت هافانا. هل نامت ليلتها؟ من الأفضل أن ينتظر ساعة

أخرى. فهل سيتحمّل انتظار ساعة أخرى؟ فعلى المكالمة التي ستجري بينهما يعتمد الكثيرُ، المهمُ والخطير، بل إنّ بعضه لا بدّ منه، وعليه أن يتخذ قراراتٍ تتعارض وتتقابل، قرارات تقلقه. وكما قال له رمسيس، قبل عشر سنوات، وفي ذلك المكان نفسه، فإنّ كلّ شيء يتلخّص في قضيّة تتصل بالمسؤوليّة. قد يراها آخرون مسألة ذنوب ومسامحة؛ أمّا عنده، فهي دائماً قضيّة مسؤوليّة.

كانت السنواتُ الأخيرة التي عاشها إرفينغ وعاشتها إسبانيا كلّها سنواتِ أزمة وتوترات. فقد دمّرَ انفجارُ الفقاعة العقاريّة، بحركة سقوط قطع الدومينو المتتابع، الاقتصاد بأكمله، وأثّر، بقدر أو بآخر، على حياة ملايين البشر، وكان هو واحداً منهم. لقد اضطرّت المطبعة التي كان يعمل فيها، وبعد أن استثمرت أموالاً طائلة في تقنيات جديدة، إلى التريّث في سداد ديونها بسبب تراجع الطلب، وقرّر صاحبها تسريحَ ربع عدد العاملين. وكان إرفينغ واحداً ممّن سُرّحوا. صحيح أنّ الراتب الذي تقاضاه طوال سنتين سمح له بالانتفاع من منظومة الضمان الخاص بالعاطلين، ومنحه شيئاً من الراحة، لكنّ ذلك لم يكن هو الحلّ، إذ بدا أنّ التعافي سيكون بطيئاً، وأنّ البلدَ لن يعود إلى حالة الوفرة السابقة، التي رأى فيها البعض ضرباً من الخيال، ورأى فيها كثيرون، وهو واحدٌ منهم، حقيقة واقعة.

لم تفلح جهوده في العثور على عمل دائم في الغرافيك والتصميم، وإن أفلح في الحصول على عقود مؤقتة ساعدته ماديّاً، لكنّها أبقت على مخاوفه الطبيعية التي يسببها أيّ عمل مؤقت. منذ ذلك الحين بدأت الهواجس ترصده وتثير قلقه وتعكّر عليه مزاجه. ولئن خشي، من قبلُ، الحاضرَ، فقد بات يخشى المستقبل الذي ما عاد يتصوّر كيف سيكون. كيف ستنتهي الأمور، وكيف سينتهي الأمر به هو؟ هل تراهم يشهدون الأزمة الأخيرة للنظام الرأسمالي القاسي والظالم، كما يحذّر المتشائمون؟ ويحاصره شعورٌ بالضعف، ويصوّر له أسوأ ما يمكن أن يقع لمهاجر عاطل، لا تؤهله سِنّه للمنافسة في سوق العمل. صورٌ تبعث على الخوف.

وفي غمرة يأسه، خطرت له فكرة طرحها على جويل. فكرة سبق للاجئين كوبيين آخرين أن قلّبوها في رأسهم ونفذوها. فلماذا لا يحملان حالهما

وينتقلان إلى الولايات المتحدة؟ رأى إرفينغ في ذلك أعلى مراتب اليأس، لذلك سرّه أن يعارض جويل الفكرة، بل أن يرفض مجرّد مناقشتها. فقد كان جويل يعلم أنّ في مقدورهما، بمنحة البطالة التي يتلقاها إرفينغ، وبالراتب الذي يتقاضاه هو من عمله في مكتب للهاتف، أن يعيشا عيشة كفاف. أمّا الولايات المتحدة، قال له، «فلا يغرّنك أنّ من يحكم فيها رئيس أسود»، فليست هي بالمكان المناسب للسود، حتى لو كانوا كوبيين، وخصوصاً إذا كانوا فقراء معدمين. فهل في مقدوره أن يعيش في حي من أحياء السود في ميامي بعد أن عاش معزّزاً مكرّماً في كوبا، وحظي بصفة المواطن الكاملة في مدريد المتنوعة الجامعة، التي تضجّ بالحركة ليلاً؟ وهل في مقدوره أن يبدأ من جديد ويتعلّم السياقة وهو ابنُ خمسين؟ وهل في مقدوره أن يتخلّى عمّا استطاع بناءه مادياً وترميمه عاطفياً؟ لا. إطلاقاً. قال جويل.

- فإن ساءت الأمور، يمكننا أن نعود إلى مناقشة الموضوع - قال جويل. لكنّي أقسم لك، يا إرفينغ، أنّي لا قِبَلَ لي بالبدء من الصفر، ولا أستطيع أن أتحمّل خسارة أخرى.

في نهاية عام 2014 ابتسم الحظ لإرفينغ، حين عرض عليه صديقُ صديقٍ من أصدقائه، أن يُدرّس في معهد للتصميم افتتحه مؤخراً. الراتب مُجزٍ، لكنّ الوظيفة، قال له، ستظلّ مؤقتة لحين نجاح المشروع. أخبره صديقُ الصديق أيضاً أنّ مدير المعهد قد يكلّفه بمهمّات أخرى لصالح بعض الدوائر التابعة لبلديّة مدريد، فيحصل، هكذا، على مورد إضافيّ.

كان إرفينغ قد استقرّ في عمله الجديد، حين اتصل به ماركوس ليبلغه بأنّ الأطباء شخّصوا إصابة برناردو بالسرطان. بيّن له خطوات العلاج والعملية الجراحية اللاحقة. فاتصل إرفينغ بكلارا، وفي اليوم نفسه، اتصل بها رمسيس وداريّو وهوراثيو، كلّ من مكانه، في تولوز وبرشلونة وسان خوان. استفهم إرفينغ منها، كما فعل الآخرون، عن التفاصيل، ولامها على أنّها لم تخبره من قبل، وسألها، كما سألها الآخرون، عمّا يلزم برناردو. الشفاء، ردّت عليه كلارا: ما يحتاجه هو الشفاء. لكنّ الجميع، شفعوا أمنياتهم بشيء من المال لتغطية ما ينتظرها وينتظره من نفقات.

بدأ إرفينغ، منذ نهاية شباط، بالاتصال بكلارا هاتفياً للاطمئنان على صحة برناردو. مرتين في الأسبوع، علاوة على الرسائل القصيرة اليوميّة. وتكلّم مع برناردو، عدة مرات، فوجده بين مستسلمٍ لمشيئة الربّ وواثق بكفاءة الأطباء. بل لقد اتفقا على مثلٍ يرددانه لينهيا به المكالمات بينهما: «الرجل السيئ لا يموت أبداً». يبدأه أحدهم فيتمّه الآخر.

منذ أن حصل إرفينغ على وظيفته الجديدة، صار يمضي ليله بهدوء. يفكّر في مرض برناردو ومستقبل كلارا. لكنّه لم يكن يفهم سبباً لردّه الموجز على جويل كلّما سأله هذا عن حالة برناردو. بالتأكيد لأنّه لا يريد الكلام عمّا يبدو نهاية مأساويّة مؤكدة، حتّى لو كان السائلُ هو جويل. فكأنّه يرى في السؤال تجاوزاً عليه، أو يجد فيه ما يشعره بالخجل. وتذكّر شيئاً مماثلاً حدث له حين سأله أحد معارفه، لدى عودته من زيارته الوحيدة إلى كوبا، عن حالة أمّه، فلم يردّ عليه إلّا بالعبارة المبهمة «هناك»، أو بالعبارة الكاذبة «بخير»، لقطع الطريق على أيّ استيضاح قد ينتهي بشعوره بالذنب والتقصير. فلطالما أدرك إرفينغ، الميّال بطبعه إلى الفرح، والمسكون، مع ذلك، بهاجس الضعف وبالخوف، أنّ صلات المودّة خيرُ ما يحمي كيانه من التبخّر، وحالته الطيفيّة من التلاشي.

بل لقد نسي البردَ الذي خشّب بدنه، وهو يتصوّر، من جديد، حياته في كوبا لو أنّه لم يفكّر في الرحيل عنها. كان إرفينغ قد بنى، للحظات الشكّ وأوقات الارتياب، حكاية منمقة، ملوّنة، معزّزة بذكريات جميلة، عن أيّام ملؤها الاحتفالات والبلاجات والاجتماعات واللقاءات والمغامرات العاطفيّة والإحساس القوي بالانتماء والقرب: حلزونه مدرعة، أو، بالأحرى، فقاعة تضيئها شمس يضعها هو لتغطّي على أحلك وجوه الواقع الذي خلّفه وراءه. أجواء مفعمة أيضاً بمخاوف موجعة، حقيقيّة ووهميّة، ونقص من كلّ نوع، وارتياب بلا حدودٍ تؤشر نهايته، ولا تاريخٍ يشير إلى نهاية صلاحيته.

صحيح أنّه وصل، حينها، إلى درجة الشكّ في صحّة القرار الذي اتخذه، لكنّه لم يندم. فلطالما استعمل القدرُ والتاريخُ تلك القوّة الطاردة، التي فعلت فعلها فيه وفي العديد من أصدقائه، لتنقلهم إلى وضعٍ آخر،

وتجعل منهم أشخاصاً آخرين (مواطنين من چويكا، مثلاً؟، ثوريين برجوازيين كاتالانيين؟)، وتجعل من أبناء أبنائهم مواطنين فرنسيين أو من تبعيّة پويرتوريكو أو أو أو... أمّا الأرباح الظاهرة والخسائر البائنة، فليست بالشيء المهم: المهم هو أنّه وجد نفسه مدفوعاً دفعاً إلى أن يتغيّر ويصبح شخصاً آخر، لا يعرف نفسه إذا ما نظر في المرآة إلى نفسه. فمتى انهار كلّ شيء، وكيف ولماذا؟ هوراثيو هو من يمتلك الجواب. هل انهار كلّ شيء لكي يرحلوا ويعثروا على عالم آخر، ويكتشفوا جنّاتٍ لم يكونوا يتوقعون وجودها، وإن لم تحز على رضاهم كاملاً ودائماً؟

تأمّل *الملاكَ الساقط* وتساءل إلى أيّ حدّ بعث ابتعادُ إليسا الحزنَ في نفسه، وإلى أيّ حد فاقم الخوفُ الذي سببته الأحداث التي عاشها إثر موت والتر. ربّما كان قربه من تلك الصديقة خيرَ ما كسبه في سنوات شبابه، حين كانت ميوله الجنسيّة ما زالت تعدّ وصمة سياسيّة وأيديولوجية واجتماعيّة؛ وحين كان الزملاء، من هذا الجنس وذاك، ما زالوا يرون فيها ضعفاً أو شذوذاً. لذلك، آلمه، بل مزّق قلبه، ولسنوات، أنّ إليسا تجاهلته حين رأته في ذلك المكان، بعد عشرة أعوام من اختفائها. لكنّ فكرة صدرت من كلارا، وأمام *الملاك الساقط* أيضاً، غيّرت منظوره.

حدث ذلك في الأيام التي تلت ولادة آدم، أي قبل سنتين، حين تصادف وجودُ عدد من الأصدقاء، وبينهم هوراثيو وكلارا، في تولوز. كان ذلك اللقاء مناسبة لتنشيط الذاكرة والمشاعر، غابت عنه ماريسا، زوجة هوراثيو، التي اعتذرت بمرض أمّها، وبأنّها لا تريد أن توكل أمرها إلى ابنتيها التوأمتين، المشغولتين آنذاك بالبحث عن خيارات الدراسة في الجامعة. قد أظهرت مونتسي ذكاءها العملي واحتجّت بالتزامها بشؤون لا تقبل التأجيل، وبأنّها تقدر أن تذهب في أيّ وقت تشاء. وهكذا خلا الجو لهوراثيو وداريّو وإرفينغ وجويل وكلارا، الذين اجتمعوا في شقة استأجرها داريّو، بالقرب من شقة رمسيس.

كان لهم في ليالي العشاء والنبيذ وجلسات السمر التي أمضوها في تولوز، والأيام التي أمضوها في باريس، ورحلتهم إلى (شارتر) لتأمّل كاتدرائيتها، وإلى (أوفير سور واز) لزيارة قبر ڤان كوخ المتداعي، المكافأة التي نالوها

جزاء تمسكهم بأخويّة حافظت، رغم تقلص عدد أفرادها وتفرقهم، على صحبةٍ صمدت أمام كوارث وهزّات أرضيّة وموجات مدّ بحريّة. بل صمدت أمام أعاصير تروح وتجيء، مثل إعصار فلورا. صحبة لها من القوّة ما تقهر بها نهاية الكون وإنتروبيا المادة. إنّها، حسب الفيزيائي هوراثيو، ديناميكية التماسك، الأقوى من ديناميكية الافتراق. أجزاءٌ من قطعة مغناطيسٍ تجمعها دائماً طبيعتها التي ترفض الانصياع والانقياد.

لم يتطرّق الأصدقاء إلى المسائل الموجعة، ولا الخطيرة، فكأنّهم توافقوا على ذلك. كان همّهم الاحتفال، وألّا يبلغوا سوى الحدّ الأدنى، الضروري، من العتاب. فلم تعتب كلارا على داريّو إلّا مرتين. وسأله إرفينغ مرة واحدة إن كان يصدّق قصّة مظلوميّة شعب كاتالونيا، وقول الكاتالان بأنّهم يعيلون بقيّة أنحاء إسبانيا. ولم يفاجأ إذ ساند هوراثيو داريّو، لأنّه يتفهّم موقف الكاتالان ويدعم مطالبهم في الانفصال والاستقلال. وكان جويل، كعادته، هو من لجأ إلى حسّه الواقعي ودعاهم إلى أن يذهبوا إلى الجحيم وأن يكفّوا عن الخوض في السياسة.

قبل ثلاثة أسابيع من موعد عودة كلارا إلى كوبا، اصطحبها إرفينغ وجويل إلى مدريد، حيث أقامتْ في شقتهما في (چويكا) طوال عشرة أيام (تركا لها الغرفة وناما هما على الكنبة). خصص إرفينغ لها كلّ وقت فراغه، فاصطحبها، صباح الأحد، في جولة إلى حيث يقفان الآن، قبالة *الملاك الساقط*، في (ريتيرو). وعند قدمي التمثال، حكى لها، بالحركات وبالتصوير، لقاءه الغريب مع إليسا، حين تقاطعت نظراتهما بعد ما يقرب من عشر سنوات، وحين مرّت من أمامه بسرعة صورة تلك البنت المراهقة التي بدا أنّها ابنتها. هنا كشف إرفينغ، وللمرة الأولى، عن جديد في ذلك الحادث.

– لم تكن إليسا تبدو ذاتها. كان شعرها مختلفاً، لكنّ الصبيّة... الصبيّة كانت نسخة من هوراثيو.

– إرفينغ! ماذا تقول؟

– ما سمعتِ، كلارا... فإذا كانت تلك الصبيّة ابنة إليسا،... فهي ابنة هوراثيو أيضاً.

- لكنّه أقسم دائماً...

- أنا لا أقول إلّا ما رأيتُ.

ركّزت كلارا نظرتها في التمثال.

- إن كانت ابنة هوراثيو... -تلكأت كلارا في تصوّر ذلك الاحتمال ومعانيه، لكنّ خاطرة مرّت ببالها غيّرت اتجاه تفكيرها-. اسمع، إرفينغ، سأقول لك شيئاً... أعتقد أنّ خير ما فعلته إليسا هو الاختفاء... نعم، الاختفاء. لا تنظر إليّ هكذا... فعلاً لقد آذتنا جميعنا تقريباً. آذتني وآذت برناردو وآذتكَ، وقد كنتَ أقربَ الناس إليها، وآذت هوراثيو، إن كان فعلاً هو والد ابنتها، إذ حجبت عنه الحقيقة ولم تعرّفه بابنته... لا شكّ أنّ هروبها ترك فراغاً، لكنّنا استطعنا أن نكسب شيئاً من ذلك الفراغ... هل تتخيّل إلى أين كانت ستأخذنا لو أنّ جميعَ الحوادث وقعت بوجودها؟ راجع ما وقع في غيابها وقل لي ماذا كان ستكون عليه الحال لو أنّه جرى وهي موجودة حاضرة حضورها... أنا مثلاً، خدعتني حتّى صدّقتُ... وأنتَ تعلم ما ظننتُ بنفسي واعتقدت... قل لي، ونحن بعيدون عمّا حدث: كم تُصدّق من كلام إليسا؟ حين تكون شاباً، يبدو لك ذلك لعبة. ثمّ يصبح مرضاً.

لم يكن إرفينغ، وهو يواجه منطق كلارا الصريح وبرد نهار ذلك الخامس عشر من آذار من عام 2015، في ظرف يسمح له بتصوّر ما يمكن أن يعنيه وجود إليسا، بمشاكلها وأحمالها، بينهم: فإن كان من ملاكٍ ساقطٍ في تلك المجموعة، فهو إليسا. ولذلك فإنّ من الأفضل أن تكون بعيدة: في الجحيم الذي أشعلت ناره بنفسها، أو في النعيم، الذي فازت به بابتعادها.

بقيت أمامه عشرُ دقائق، وفكّر أنه لن يتحمّل برد الطقس وبلبلة الذهن واضطراب الأفكار لوقت أطول. فدقّ على هاتف كلارا.

- نعم، عزيزي - سمع صوت المرأة بعد دقتين.

- هل كنتِ تنتظرين مكالمتي؟

- من ساعة، على الأقل.

ابتسم إرفينغ

– وأنا هنا ميت من البرد... كيف جرت الأمور؟

– أجروا له العملية الجمعة. أمس سمحوا لي بزيارته لدقائق في العناية المشددة. إذا جرت الأمور على خير، فسوف ينزلونه غداً إلى الصالة.

– وكيف هو؟

– منهك، تصوّر. أنابيب وإبر من كلّ ناحية...

– وماذا يقول الأطباء؟

– يقولون إنّ العملية ناجحة. يبدو أنّهم استأصلوا كلّ الجزء المصاب، لأنّه كان محصوراً في منطقة واحدة. أجروا له تنظيفاً عاماً، يقول الغويو... والآن سيأخذون منه خزعة ويزرعونها ويفحصونها. عملية طويلة عريضة، لذلك لا بدّ من الانتظار.

– مسكين... –تمتم إرفينغ–. وأنتِ؟ كيف حالكِ؟

– متعبة ونعسانة، لكنّي أظنّ أنّي على ما يرام –قالت كلارا، وصمتت–. لا. لستُ على ما يرام. فهذه الحالة تقضي عليّ. ومعنوياتي متدنية جداً...

– عليكِ أن تراعي نفسكِ، كلاريتا! أن تكوني قويّة – قال إرفينغ، ثمّ لم يلبث أن لام نفسه على كلامه. فواجبه أن يكون هناك، في ميدان المعركة، مع الألم، في مكانه: تلك هي مسؤوليته، فلماذا يتفوّه بتلك العبارات الجاهزة؟

– صحيح، لكنّ الواقع مؤلم والحالة صعبة، إرفينغ. عندي ثقة في أنّ برناردو سيتعافى. فقد تعافى غيره. فلماذا لا يتعافى هو؟ هل تدري لماذا أقول ذلك؟ لأنّي أره أفضل واحد فينا...

– سيتعافى... سيشفى...

– انظر... قبل أيام... الخميس، حين كنتُ أجهّزه للعمليّة، ظهر في المستشفى خلاسي عجوز، يبلغ الثمانين تقريباً. حضر من طرف رمسيس...

– صحيح؟

– صحيح: عرّاب رمسيس. البابالاو. لاثاروا موروا... كان رمسيس قد كلّمه، فحضر ليستأذننا في أن يجري طقساً لبرناردو. تنظيف. تنقية. شيئاً يسمونه «التماس الرأس»، أو لا أدري ماذا...

– وماذا بعد، كلاريتا؟

- تكلمتُ مع برناردو ووافقنا. وطلبنا منه أن يفعل ما بدا له. فنحن نحتاج لكلّ دعم.

- حسناً فعلتما. أنتِ تعلمين أنّي لا أؤمن بهذه الأمور، لكنّي أظنّ أنّها تساعد. لا أدري كيف، لكنّها تساعد.

- أجرى العجوز الطقوس بالياروبا ورتّل الصلاة الملائكيّة، ثمّ مرّر على جسمه لفافة صغيرة من القماش الأبيض ودعك ظهره بزهورٍ وناوله قدحاً من الماء المخلوط بالعسل والأعشاب ليشربه... وحشر تحت وسادته دقيق قشور وصورة قديس،... فهل هو الذي يقتل التنّين؟

- يا إلهي. -كان إرفينغ يتخيّل عملية «التنظيف»، فهو يعرفها، مثل أيّ كوبي-. سان خورخي!

- طبعاً، سان خورخي... ثمّ ربط قطعة من القماش الأبيض على رأسه...

- وهل قال له شيئاً؟

- ما أفظع حال الدنيا، إرفينغ. حين انتهى قال لنا إنّ برناردو بات في يد الربّ ويد الأطباء.

- في خير يد! -صاح إرفينغ، الذي نسي البرد وخلع القفّاز الأيمن ليمسك بالهاتف جيداً-. هذا الرجل حكيم... أين أنتِ الآن؟

- هنا، في المستشفى. في الساعة التاسعة سيصدر تقرير عن حالته، وربّما استطاع الغويو أن يُدخلني إلى الصالة لكي أراه... أمس نمتُ في البيت، لكنّي لم أنم جيداً...

- لحسن الحظ.

- نعم... المشكلة، إرفينغ...، المشكلة أنّي لا أدري ماذا سأفعل إذا مات برناردو. يبدو أنّ قسمتي هي أن أفقد كلّ شيء...

- سيعيش، كلاريتا. اهدئي... قولي لي، ماذا تحتاجان؟

صمتت كلارا.

- آلو... ألو! هل تبكين؟

- لا. ولماذا أبكي؟ بكيتُ حين رحلتَ أنتَ وحين رحل رمسيس ثمّ حين رحل ماركوس... وما كنتُ لأصبر وأتحمّل لولا برناردو. هو أخرجني

من اليأس ومن الوحدة. أعاد لي ما فقدته، صالحني مع الربّ ومنحني الفرحة وردّ إليّ الإحساس... وشكرني لأنّي أنقذته. المسكين... ليتني أستطيع أن أنقذه ثانية! بعون الربّ والأطباء والبابالاو... هذا ما نحتاجه... لا حاجة بنا للأصدقاء. فأنتم عائلتنا التي بقيت لنا...

هزّ إرفينغ رأسه، بعد أن نسي البرد الذي قسا عليه واشتدّ.

- ويحك، كلارا! إنّكِ تؤلمينني - قال، ونظر ثانية وثالثة إلى صورة *الملاك الساقط*.

صباحاً كانت كلارا تجوبُ الحيّ أو تذهب إلى المدينة بحثاً عمّا يحتاجونه من قوت، كانت ترى عالما يزداد عدوانيّة، فكأنّ حالة طوارئ دائمة فُرِضت على البلد. في أعوام التسعين، وهي أقسى سنوات ما دعي بالفترة الخاصة، عزّ كلّ شيء وباتت المعركة اليوميّة تتمثّل في كسبَ قوت ذلك اليوم فحسب. وتوزّع الناسُ بين محاربٍ من أجل البقاء ومستسلم للموت. لقد عاش البلدُ حالاتٍ من التناقض، ولوقت طويل، إلى درجة أنّ الناسَ، حين بلغوا حالة اقتصاديّة أخرى أقلّ سوءاً، اكتشفوا أنّ قوانين أشدّ صرامة وأكثر تفصيلاً دخلت حيّز التنفيذ. ظروف مرهونة بحظوة أن تملك ولعنة ألّا تملك، أو الإعلان الرسمي عن أنّ المساواة ليست هي التساوي، بمعنى وجوب تقبّل الضرر النسبي، فالبعض تضرر أكثر من البعض الآخر، والبعض المتضرر هو أقلّ تضرراً من آخرين سواه... وبدأ الأشخاص ينظرون إلى الواقع بطريقة مختلفة: فالتعايش المديد مع الفقر المادي ولّد فقراً إنسانياً وأخلاقياً واضحاً، وهو بكل تأكيد أصعب على التجاوز وأعصى على الحل من الفقر المادي.

أمّا الآن، فقد بدأت كلارا، بفضل الدولارات التي كان يبعثها إليها ولداها والأصدقاء، تذهب إلى الحوانيت والصيدليات فتجد نمطاً من الحياة يسير وفق شعار «ليدبّر كلٌّ أمره». فإن احتجتَ إلى حنفيّة ماء، فإنّك لن تجدها في الحانوت المخصص للعِدد، بل في الشارع، حيث تعثر على مَن يعرض عليك حلّ مشكلتك أو ينصب عليك. وتبحث عن الزيت، لكنك تجد رفوف الحانوت خالية من الزيت، فينبري لك شخصٌ يقف عند الناصية يعرضه عليك بسعرٍ أعلى من سعره. وحين تشتري لحم الخنزير أو القلقاس أو البطاطا الحلوة أو الطماطم، تكتشف أنّ الأسعار تضاعفت

(فالإنتاج يتناقص والمواد تتناقص)، والوزن، بالمقابل، قلّ وانخفض... في جميع المصالح، حكوميّة كانت أم غير حكوميّة، يتفق الباعة مع الموزعين، ويتفق هؤلاء مع المفتشين، وهؤلاء مع المديرين، وهكذا تتضاعف حلقات السلسلة وفروعها نحو الجانبين وصوب الأعلى. فالسرقة متاحة لكلّ من استطاع إليها سبيلاً. والشراء متاح لكلّ من توفر لديه المال. أمّا من لم يستطع أن يسرق، ولا يملك ما يشتري به، فليضرب الحائط برأسه. كان يؤلم كلارا أن ترى أشخاصاً يغوصون في مستوعبات الزبالة بحثاً عن شيء، عن أيّ شيء، في بلدٍ لا يرمي فيه أحدٌ إلى الزبالة إلّا ما كان زبالة فعلاً.

بل لقد صار واضحاً، أو محسوساً، على الأقل، شيء كان مستحيلاً، وفق مفهوم الجيل الرومانسية والتضحيات الذي تنتمي إليه كلارا، ووفق معايير تربيتهم. فقد نشأت آليّات خبيثة للبحث عن الأدوية وشرائها. وكشف عن فضائح لبيع الأسئلة الامتحانيّة، وعمليات نصب جماعي أو محدودة، مدفوعة الثمن. وعلى الرغم من أنّ بعضها كان ملء السمع والبصر، وعلى الرغم من أنّ كلاماً جرى عن أن عقوبات قاسية ستُشرّع، فإنّ ما ظهر لم يكن، في نظر الجميع، إلّا قمة جبل الثلج.

أمّا أوضح مظاهر الإهمال وضياع القيم فقد تجسّد في ما حدث في المصح العقلي القريب من بيتهم في (فونتانار). في ذلك المصح حدث ما يمكن وصفه بقمّة السقوط: قريباً من ثلاثين مريضاً (أم هم أربعون؟) ماتوا من البرد (بردٌ كوبي، لا سيبيري) الذي تسلل إلى غرفهم عبر النوافذ المكسورة، أو المفقودة من أشهر، وفتك بالأجساد التي تلاصقت من الجوع، بعد أن عانت طويلاً من سوء التغذية وغياب الرعاية، إذ انصرف المكلفون بهم إلى نهب الطعام المخصص لهم وملاءات الأسرة والبطانيّات، بل، ربّما، إلى خلع النوافذ التي دخل الزمهريرُ من خلالها. لا شكّ في أنّ تلك الحالة المرعبة، الشبيهة بمشهد القيامة في لوحات البوسكو، كانت ظاهرة للكثير من العيون والضمائر، المتواطئة أو المقصرة، لرجال ونساء مسؤولين (كوبيين من قادة وشيوعيين وأطباء ردّدوا قسم أبقراط) ما كان لهم أن يكونوا غافلين عمّا كان يجري هناك وعمّا سيؤدي إليه من كارثة. يوم قيامة. وتساءلت كلارا: أهكذا تسير الأمور في بلدي؟ كيف وصلنا إلى هذه الحال؟

وبعد الزوبعة والعقوبات، التي قُصد منها أن تكون رادعة، حلّ الهدوء من جديد، وعادت الأمور إلى سابق عهدها. أم إنّ التهاونَ قد عمّ وشاع؟ تأكّد ذلك لكلارا حين ذهبت إلى المستشفى لإجراء بعض تحاليل، حيث أخبروها بأنّ المعاملات الكيمياويّة اللازمة لإجراء التحليل غير متوفرة. وهنا خرجت جارةٌ لها من المختبر، بعد أن أجري لها تحليل، فانتحت بها جانبا وقالت لها: أعطيهم دولاراً وستظهر المعاملات الكيمياويّة. وهكذا كان.

فهناك من يكافح من أجل البقاء، وكثيرون يكافحون لكي يعيشوا، بينما يسعى آخرون إلى أن يحسّنوا مستوى معيشتهم، أو لكي يستعرضوا نجاحاتهم في صورة بيوت وسيارات ودعوات لا تتجرأ الأغلبية على أن تحلم بها، وهي التي لم تحلم بما كان الحلم به ممكناً من قبل. كلّ فرد يحاول، كما يستطيع، وبما يستطيع، أن يدبّر حياته ويتدبّر أمره، أن يشق طريقه عنوة في حالةٍ من الانحلال والتحلل، في نوعٍ من حالة حرب لم تستعر بعدُ لكنّ أوارها سيبلغ جميعَ الجبهات. رغم الخطابات الناريّة والدعوة إلى الوعي... فهل من المنطقي أن ينتهي أمرُ الكفاح المرير والتضحيات السخيّة والشعارات والمبادئ في ذلك المستنقع الموبوء بالسمك الفتّاك، إلى تلك السبخة المسكونة بالتقصير والانتهازيّة والنفاق، التي تبدو بلا ضفة ولا قاع؟ وهل يمكن قطع دابر الظلم بالخطب الحماسيّة، أو بسيطرات لن تلبث أن تخرج عن السيطرة، بينما تنفتح ثقوب أخرى؟ كم هو حجم الفساد الذي باتوا يتكلّمون عنه في الخطابات والصحف، ويعدون بمكافحته؟... وأين باتت الحدودُ الفاصلة بين الشرفاء والفاسدين؟

كان الانهيار الأخلاقي هو ما يبعث الفزع في قلب كلارا، لكنّ أكثر ما يؤلمها هو أنّ كثيراً من الناس تضرّروا من تلك اللعبة الدنيئة، ولم يجدوا طوق النجاة الذي يبقي عليهم أحياء، كما هي حالها وحال برناردو. أولئك الذين يظهرون في أحد أفلام بونويل، يتشاجرون لشراء كيسٍ من بسكوتٍ رديء ورخيص، أو يضعون القرش على القرش لشراء رقابٍ أو أرجلٍ لدجاج تعود عليهم بشيء من البروتينات، أو مكعبات الحساء المركزة لتضفي على الرزّ طعما ومذاقا. أو أولئك الذين يحملون السباغيتي المفتت، المعمول من دقيق مغشوش، المستخرج من أكياس كبيرة، ليباع بالحفنة، ذلك السباغيتي

الطري الذي كانوا يطبخونه في أوقات رخائهم بلحم مفروم مشكوك في رائحته، مشكوك في طعمه. أو أولئك المسحوقون الذين يسكنون أكواخاً مسقوفة بصفيح الزنك أو الخيش، بلا مجارٍ لتصريف الماء، كتلك التي رأتها في بعض الأنحاء، خارج المدينة، ليس بعيداً عن بيتها، وذكرتها بأحلام زمن الرومانسيّة وخطاباته، بسنوات الإيمان بمشاريع المستقبل التي كان أشخاص من مثل والديها المهندسين يمنون أنفسهم بتحقيقها، وبالوعود المكررة بتوفير سكن لائق للجميع ضمن صورة مستقبل واعد سائر في طريق البناء. أليس من الممكن أنّها، والآخرين، لم يسمعوا الكلام جيداً؟ هل هناك من رأى ذلك الواقع؟ هل لاحظ أحدٌ أنّ المتضررين بين السود أكثر عدداً من المتضررين بين البيض؟ تقصد: هل ثمّة من يستطيع القول إنّه لم ير الواقع؟

كان عام 2015، بالنسبة إلى كلارا، عامَ توتراتٍ وألم، بل لقد عدّته بداية شيخوختها وسقوطها النهائي في البئر العميقة التي كان التاريخ والقدر قد أعدّاها لها. لم تكن فاقت بعدُ من أثر سفر ولدها الصغير، حتّى داهمها مرضُ برناردو ليحملها على أن تحشد كلّ قواها البدنية والذهنيّة وأن تستعدّ لمعركة طويلة. وقاتلت كلارا، يحدوها الأمل بشفاء المريض، بينما كان شبحُ الاستسلام والهزيمة المحتومة يطاردها، ناشراً كلّ معناه المأساوي على الحياة. فالموت موجود، وهو الذي ينتصر دائماً في النهاية؛ أمّا ديمومة الروح وثواب النعيم، أو حتّى رهبة الجحيم، فما هي إلّا تسلية وعزاء حاول بنو البشر أن يخففوا بواسطتها من وقع هزيمتهم الكبرى.

لكنّ بصيصاً من الأمل ظهر مع ذلك التحوّل الذي وقع على المستوى الشخصي والعائلي، ففي نهاية عام 2014، بدا أنّ انفراجاً وطنياً يحدث ويترك أثرَه على كلّ واحد من أيّام ذلك الجيل الذي ولد في حدود عام 1959. فقد بدأت الحكومة الكوبيّة والأمريكيّة تتحادثان وتتباحثان وتتبادلان الزيارات. ثمّ أقيمت علاقات دبلوماسيّة بين البلدين، وفتح كلّ منهما سفارته في هاڤانا وفي واشنطن، ورفع عليهما علم البلدين، بينما خفّت لهجة الخطابات، وكانت مشحونة بالكهرباء، وأحياناً بالبرق والرعد. بل لقد بدأ الحديث عن قرب رفع الحصار الذي فرضته الولايات المتحدة قبل نصف قرن من الزمان، إبّان الحرب الباردة (أو إنّها لم تكن باردة إلى هذا الحد).

كانت الحالة الجديدة، بالنسبة إلى أشخاص مثل كلارا وبرناردو، بمنزلة صحوة من كابوس عاشوه على امتداد سنوات عمرهم الطويلة. ومع أنّهما لم يلمسا بعدُ تغيّراً على صعيد حياتهما الخاصة، فقد شعرا بالارتياح، على الأقل في ما يتصل بتلك الجزئيّة من علاقتهما بالعالم. فهل من ضوء ينير ما بقي لهما من مستقبل؟ وهل من إمكانية، ضمن هذا المستقبل، في أنّ يتصالح الكوبيون المشتتون في أنحاء الأرض مع الكوبيين المقيمين في الجزيرة؟ يا ريت، فكّرت، وربّما بتفاؤل مبالغ فيه نحو عنصر بالغ الحساسيّة في نزاع شكّل مصيبة وطنيّة غُذّيتْ بكلّ عناية واهتمام.

في ذلك الخليط من التجارب والظروف المؤلمة أو الواعدة، شعرت كلارا بالرضا، وهي ترى أنّ جهود الأطباء، وربّما مداخلات البابالواس الأفرو-كوبيين، والصلوات للعذراء، وعصارات جذوع الموز وسمّ العقرب، أثمرت عن استقرار في حالة برناردو. ولكي تتمكن من التفرّغ للعناية بالمريض الناقه، طلبت كلارا إجازة بلا راتب (مع أنّ راتبها لا يكفي لتغطية الكثير)، بعد أن باتت تعتمد أساساً على ما يصلها من دعم خارجي. ولكن، ما كان لأطواق النجاة (وهكذا سيدعونها لسنوات) تلك أن تؤدي الغرض منها لولا حسن تصرّفها بالنفقات ولولا براعتها في ترتيب الأولويات، في بلدٍ حيث تكلّفك السيارة الخاصة التي تحملك إلى العيادة الطبية، أو تنتظرك في المستشفى ثمّ تعيدك إلى بيتك، ما تكسبه مهندسة مثل كلارا چاڤيه في الشهر. أمّا إذا لم تقع حالتك ضمن صنف «حالة اجتماعية»، فقد يطلب منك التكسي الحكومي، هذا إذا وجدته، الضِعف: أي راتب شهرين.

بعد أربعة أشهر من العملية، صار برناردو قادراً على خدمة الزبائن الذين يأتون له بحواسيبهم إلى البيت في (فونتانار). أمّا كلارا، فقد رأت أنّ الوقت لم يكن مناسباً للعودة إلى عملها، لا سيما أن مديراً جديداً تولّى إدارة المؤسسة، بعد أن طرد المديرُ السابق، كما يحدث في العادة، وما أكثر الأسباب الجاهزة التي تساق لتبرير تلك القرارات. لكنّ هاجساً مقلقاً بات يحوم، كالذبابة، حول كلارا، ومفاده أنّ الحالة التي جدّت لا تقوم على أسسٍ متينة، بل قد تنهار في أيّة لحظة.

وفي تشرين الأوّل، حين بلغ برناردو أفضل حالاته، وبعد واحد من فحوصاته المعتادة، سقطت القنبلة: لقد عاد السرطان إلى الظهور، بل لقد عاد مثل إعصار فلورا، ولكن، هذه المرة، فوق أرض رخوة، وبأقصى قوّته.

شعرت كلارا، في ذلك العصر، وهي جالسة في شرفة بيتها، بأنها على وشك الانهيار، بعد أن كلّمت ماركوس وهو تحبس دموعها. فعلاً، وكما اعتاد برناردو أن يقول: فقد كانت تتقدّم، بلا توقف، خطوة خطوة، ومن هزيمة إلى هزيمة. أمّا الكارثة الكبرى، قالت لنفسها، فهي أنّ النصرَ النهائي لا يلوح في الأفق.

المشي: أربع كيلومترات أو خمسة أو ستة. المشي: عصر كلّ يوم إن أمكن. فالمشي مفيد للقلب والركبتين، ومفيد أيضاً للذهن. كان يفضل المشي لوحده، وإن كان يروقه أيضاً أن يمشي برفقة زوجته. كينتين هوراثيو يقترب من قمّة الستين عاماً الضبابيّة، وسيبدأ بعدها بالنزول، أمّا الأنسب له، في هذه الحالة، فهو أن يصعد مشياً، بإيقاع جيد، ونبض يتراوح بين 100 و120، قال له الطبيب، ثم يواصل المشي، إن استطاع ذلك، فالمشي رياضة مثالية، إن مارسها برفقة شخص يرتاح له.

في جولاته تلك، سيراً على الأقدام وحيداً، كان هوراثيو يمشي ويفكّر. لم يكن يضع السمّاعات على أذنيه، كما يفعل الكثيرون، الذين بدوا، لكثرتهم، وكأنّهم يخرجون من تحت الحجارة، بعد أن بات المشي في المدينة موضة. وهكذا كان ذهنه يتحرّك على راحته، يهيم بلا تشويش ولا تداخل بين الأفكار، التي تقفز، أحياناً، إثر رؤية شيء، أو سماع صوت، أو التي تتسلل، من دون دعوة ولا داع، قادمة من أعمق أعماق وعيه وذاكرته. لوقت من الأوقات، عمد هوراثيو إلى استثمار جولاته المسائيّة في مراجعة دروس اليونانية الكلاسيكيّة التي طالما حلم بتعلّمها لكي يقرأ، باليونانيّة، ما كتبه الفلاسفة الإغريق الذين جاءوا قبل سقراط وبعده، وأفلاطون وأرسطو، وخصوصاً أبيقور (الفيزيائي والمفكر المفضّل لديه) مؤلف النظام الأخلاقي *ترافارماكوس* [العلاج بأربعة أجزاء][73]. فهكذا فقط يستطيع أن يفهم جوهر ما فكروا ومضمون ما كتبوا وسطروا.

73- لا تخف من الآلهة. لا تخف من الموت. الجيد يسهل الحصول عليه. الفظيع يسهل تحمله.

في بويرتوريكو، لا يمثّل الشتاءُ إلّا فصلاً يحتفلُ الناسُ فيه بأعياد الميلاد وبابا نويل، ينفقون النقود، ويشترون صنوبراتٍ ينثرون عليها ما يشبه الثلج، ويشربون كميات أكثر، ويرقصون وقتاً أطول، أمّا درجاتُ الحرارة فتقارِبُ معدلاتها في تمّوز وآب. ربط هوراثيو منديلاً أحمرَ على جبهته، وخرج قاصداً طريق الساحل. وصل إلى (إيسلا بيرده). لقد اعتاد أن يتحايل على الطريق، فيقطعه إلى نصفين، إذ يدخل عبر البلاج الصغير المجاور لشاطئ هيلتون، وهو بلاج دافئ وهادئ، يعزله حاجزٌ صخري فيحيله إلى ما يشبه المسبح الكبير. هناك يسبح، ويعود إلى التفكير. فدائما لديه ما يفكّر فيه. بل لديه أحياناً الكثير ممّا يفكر فيه.

أمّا حين ترافقه ماريسا، فيمضيان الطريق بالحديث. فالمواضيع كثيرة، وقد شكّل الحوار والكلام بينهما، على الدوام، واحداً من أسس العلاقة الوثيقة التي تمتدّ إلى ما يقرب من عقدين من الزمان. يتكلمان، أحياناً، عن كوبا، وعن حياة هوراثيو هناك، وعن الصورة التي تتخيلها المرأة للجزيرة حتّى تصل بها إلى درجة الأسطورة. لكنّ الكلام عن كوبا راح يقلّ مع الوقت، بل صارا يمضيان أسابيع من دون أن يوردا لها ذكراً.

لم تكن ماريسا تخرج مع هوراثيو دائماً، بل كانت، في بعض الأحيان، تفضّل الذهاب إلى نادٍ للجمناستك قريب من مسكنهما، وقد تذهب إلى ذلك النادي ليلاً، حين تكون مشغولة. لذلك تراها، على الرغم من سنواتها التسع والأربعين، قويّة العضلات مشدودة النهدين، وهي الصورة التي يروق لهوراثيو أن يراها عليها. فتلك المرأة واحدة من أكبر مكاسبه في الحياة، وهو يرتاح لرؤيتها جميلة وجذّابة، وإن لم يشكّل ذلك رادعاً له عن الأكل من أيّ طبق يقع في متناوله. لكنّه بات أقلّ شراهة وتلهفا، كما أمر أبيقور، فإلى متى؟ فكّر. لكنّه سيواصل، في هذه الأثناء، المشي والسير، ليحافظ على لياقة جسمه، وإن كانت الحياة والوقت يسيران وفق إيقاعهما الصارم، ويقربانه من أعوامه الستين.

ولمّا كان نيسانُ أجملَ فصول المدار، فقد كانت ماريسا تكثر من الخروج فيه معه للاستمتاع بأجواء جزيرتها. عندها، يتحوّل التمرين إلى نزهة حقيقيّة. فقد اعتادا، بعد أربعة كيلومترات من المسير، أن يستلقيا على بقعة من الرمل

في شاطئ (هيلتون)، ويستمتعا بمزيج الألوان الذي يصنعه الغروب. ويتكلّما.

منذ أن علم هوراثيو بمرض برناردو، عادت كوبا لتحضر بقوّة في ذهنه. ظلّ على اتصال به وبكلارا، وأرسل لهما بالعون تلو العون للتخفيف، على الأقل، من أزمتهما، الماديّة. لكنّ هوراثيو لم يكن يؤمّل الكثير. فثمّة سببان يدفعانه إلى البقاء على اتصال بهما، فضلاً عن الصداقة القديمة والحسّ التضامني الذي يميّزه. السبب الأوّل هو فكره الوجودي الراسخ: فصحّة الناس الذين من سنّه، ومنهم أصدقاؤه، تتردّى مع مرور السنين: فداريّو أصيب بالسكّر؛ وتطوّر ارتفاع الضغط لدى إرفينغ ليؤدّي إلى تصلّب في الشرايين قد يحمله إلى غرفة العمليات؛ أمّا كلارا فكانت تعاني آلاماً في فقراتها العنقيّة ومشاكل في دورتها الدمويّة؛ أمّا عنه هو فكان يعاني من سوفان في غضاريف المفاصل يصعّب عليه السير، فضلاً عن اضطرابات في المعدة اضطر مؤخراً بسببها إلى أن يكشف عن مؤخرته ليحشروا فيها خرطوماً ويعاينوا مصارينه وكلّ أحشائه تقريباً.

وكان احتمال وفاة برناردو السببَ الثاني الذي دفع بهوراثيو إلى التقرّب منه: فقد كان شعوره بالذنب يتربّص به دائماً، بين صحوة وسُبات، وإن أقنع نفسه دائماً بأن المسؤولية تقع على إليسا، فهي التي كسرت التوازن وقادته إلى الفراش. وهي التي استعملته. لقد كان ضحيّة أكثر منه مذنباً. كان كومبارساً في مسرحيّة كتبتها إليسا وبرناردو من وحي مشاكلهما وسوء علاقتهما. مع ذلك، فهو يلوم نفسه على أنه وقع في خيانة واضحة فاضحة، حين واقع امرأة طالما أغرته وجذبته، علاوة عن أنّها زوجة صديقه. ومع أنّ الفجوة بين الاثنين تقلّصت، مع السنين ومع الظروف، وعادت العلاقة بينهما إلى سابق عهدها، فقد بقيت ظلال من الشكّ تعكّر صفو تلك الصداقة، وكيف السبيل إلى محو ما لا ينمحي. ربّما تجاوز برناردو الماضي، لأنّه كان أحسن خلقاً منه، ولأنّه استطاع، بفضل فلسفته الوجوديّة، أن يصنع فسحة للعفو، بل للمسامحة، وأفلح في تجاوز الإهانة التي تعرّض إليها. أمّا هوراثيو، فقد وجد نفسه، وسيجدها دائماً، أمام حالات من الأسباب والنتائج، الأفعال وردود الأفعال: حوادث يجنيها من أخرى كان قد زرعها.

وهناك سببٌ ثالث خفيّ، ارتياب، وربّما افتراض غير منطقي، لكنّه مثير للقلق. في الأسابيع الأخيرة، عاد إلى الظهور شكٌّ فيه الكثيرُ من المنطق، عاد بقوة متجددة، ليشغل باله ويوقظ ذنوبه.

الأيام الأولى من ذلك النيسان الرائع من عام 2015، أرسل له ماركوس، على بريده الإلكتروني، صورة حفلة عيد ميلاد. حين فتح هوراثيو الملف المرفق وشاهد صورة ماركوس، يلبس برنيطة فريق *لوس اندوستريياليس*، ويضع ذراعه على كتف الفتاة التي ذكر أنّها خطيبته، أحسّ هوراثيو بالصدمة: فالفتاة نسخة حيّة من ابنتيه التوأمين (ألبا) و(أورورا). صحيح أنّ لون بشرتها يبدو أفتح، لكنّ العينين وتدويرة الوجه والأنف والفم، وخصوصاً الفم، بالشفتين المكتنزتين، اللتين تنبئان عن أصلها وعرقها، فيهما من التشابه ما لا يدع مجالاً لصدفة. فإن كانت صدفة، كما هو ظاهر، فإنّها صدفة تقرب من المعجزة.

بحث هوراثيو، وقد أقلقه الأمر، في مجموعة الصور المحفوظة في الحاسوب، عن صورة لأمّه حين كانت في العشرين، ورأى في وجه والدته، الغامق بعض الشيء، ذات الملامح التي في وجه ابنتيه... ووجه آديلا. فكأنّها بصمة انتقلت من أمّه الخلاسيّة نحو مستقبل البشريّة.

شعر هوراثيو بالمرارة، وسأل نفسه إن كان ماركوس أرسل الصورة متعمداً أم عن حسن نيّة: «هذه خطيبتي. اسمها آديلا. ما رأيُك؟». لم يمل هوراثيو إلى فرضيّة حسن النيّة، ربّما ليبدأ محاولة من خداع الذات، وتصديق ما لا يصدّق. فردّ عليه: «أهنئك. جميلة». ثمّ طرح على ماركوس، في رسالة لاحقة، سؤالاً أراد له أن يكون عابراً: أين تعرّف عليها وكيف. وهكذا عرف جانباً من سيرتها: فالفتاة مولودة في نيويورك، من أم كوبيّة، تدعى لوريتا، وأب أرجنتيني. وقد وجد هوراثيو في تلك المعلومة ما أشعره، لحظتها، بالكثير من الراحة. لكنّه ظلّ معلقاً بسنّارة ذلك الهاجس. دخل على صفحة ماركوس في الفيسبوك، وعاين صوراً أخرى لآديلا... من أين جاء ذلك الشبه بينها وبين ابنتيه وأمّه، بل بينها وبينه، من دون أن تكون بينها وبينهم رابطة دم؟ ولم تسعفه ذاكرته عن علاقة له بأيّة واحدة تدعى لوريتا، ولم يتجرأ أن يسأل ماركوس المزيد عن أمّ آديلا.

قرّر هوراثيو ألّا يذهب تفكيرُه بعقله: فالشبه وليدُ صدفة. وما أكثر الذين يشبهون إلفيس بريسلي ويتنافسون في بيان ذلك الشبه، وما هم من أقربائه ولا من عشيرته؟ ثمّ إنّ الاحتمال الآخر، الذي ينطوي على شكّ مُلحّ، فيه من الالتواء والغرابة ما يدعوه إلى استبعاده بمجرد التفكير فيه. لكنّه لم يكن يستطيع ذلك: فصورة آديلا تلاحقه، ومع الصورة احتمالُ أن تكون تلك المرأة المسماة لوريتا فتزبيرغ هي إليسا كورّيا وأن يكون هو والد الطفل الذي كانت إليسا تنتظره قبل خمسة وعشرين عاماً. وعليه: فهل آديلا هي ابنة إليسا وابنته؟... يا له من هذيان وتفاهة كبرى! إنّ عليه القبول بذلك، والتسليم بأنه بات مجنوناً رسمياً ونهائياً.

منذ ذلك الحين صار يتذكّر ما سمعه من إرفينغ من أنّه شاهد في مدريد امرأة حسبها إليسا، ترافقها فتاة قد تكون ابنتها، وأنّ تلك الفتاة تشبه هوراثيو. وتذكّر هوراثيو ولعَ إرفينغ بالأشباح. لكنّ ما قاله إرفينغ بات له، في تلك اللحظات، معنى يثير القلق. ولكن. هل ظهرت إليسا في إسبانيا؟ هل تسكن هناك، أم كانت في زيارة فحسب؟ وهل ابنتها أمريكية من نيويورك أم إسبانية؟... وبعد تفكر طويل، قرّر أن يبعثَ بصورة ماركوس وآديلا إلى إرفينغ، فكأنّه أراد أن يعرف إن كان ماركوس أرسلها له، وليسأله إن كانت ملامح الفتاة تذكره بأحد. وردّ إرفينغ بقنبلة من العيار الثقيل: «تسألني مَن تشبه؟... »، كتب له. «تشبه الفتاة التي رأيتُها في (ريتيرو) قبل سنوات... الفتاة التي كلمتُك عنها وضحكتَ مني... هل تذكر؟» لم يردّ عليه هوراثيو. فما زال غير قادر، بل غير راغب، في الردّ.

في ذلك العصر من نهاية نيسان، وعقبَ أيام من تلقيه رسالتي ماركوس وإرفينغ، جلس هوراثيو وماريسا على الرمل، قبالة البحر. وبعد خمسة عشر دقيقة أو عشرين، مالت الشمس إلى الغروب، وبدآ في مسيرة العودة إلى البيت. شعر هوراثيو بعجزه عن السير، وهو يحمل على عاتقه، وبمفرده، عبء ما يجول في رأسه. سألها.

– ماري... ما قولكِ لو تبيّن أنّ لي بنتاً أخرى؟

حاولت ماريسا أن تبتسم.

- عمّ تتحدّث، هوراثيو؟

- ربّما أسأتُ طرح السؤال، فالموضوع من الغرابة أنّني لم أستطع طرحه كما يجب... هي ابنة لي ولدت قبل أن أعرفكِ، ولم أكن أعرف أنّها موجودة، بل لا أعرف إن كانت موجودة الآن.

ابتسمت ماريسا، هذه المرة.

- انتظر... انتظر. فأنا لا أستوعب ما تقول... ولدتْ لك ابنة في كوبا؟ ولماذا لم تخبرني؟

- لأنّي لم أكن أعرف. أقصد، لأنّي ما زلتُ غير متأكد... لأنّي لم أصدّق ما سمعت.

- هوراثيو، ما بك؟ أقسم لك أنّي لا أفهم شيئاً.

- ولا أنا... لأني لا أدري كيف تكون لي ابنة لا أعرف أنّها ابنتي، بل لا أعرف إن كانت موجودة. ابنة لم يخبرني أحد بأنها ابنتي، وإن كانت ابنتي، فأنا لا أعرف كيف...

فتح هوراثيو قلبه لامرأته وحكى لها عن خيانته صديقه، وعن الاحتمال الضئيل في أن يكون تسبب في أن تحمل زوجة صديقه العقيم ذاك منه.

- هل تقصد إليسا، زوجة برناردو التي اختفت؟ - سألته ماريسا، ثمّ سمعت رده واجمة، فكأنها تستمع إلى اعتراف متهم يحاول تبرئة نفسه، بينما يقرّ فيه بكلّ ذنوبه.

- إليسا كانت حاملاً حين اختفت. ولو أنّها وضعتْ بنتاً لكان عمر البنت خمسة وعشرين عاماً. وبرناردو، على حدّ علمي، عقيم، وأنا لست المسؤول عن حملها. فلا بدّ أنّ يكون هناك شخص آخر، وأنا متأكّد من أنّ هذا الشخص هو والتر...

- الذي انتحر...

- أو الذي قتل... المشكلة أنّ خطيبة ماركوس... لا تشبه إليسا ولا برناردو ولا والتر... بل تشبهني... تشبه أمّي، وتشبه ابنتيّ...

- يا إلهي، هوراثيو!

- أرأيتِ؟ كلامي يبدو لكِ ضرباً من الجنون، تمام؟ - سألها ثمّ أخرج

هاتفه. بحث في حافظة الصور. أخرج الصورة التي كان ماركوس بعثها له. كبّرها وأعطى ماريسا الهاتف.

- آآآي، هوراثيو! - صاحت المرأة.

- هل ما زلتِ ترين الأمر جنوناً؟

هزّت ماريسا رأسها نافية.

- وماذا ستفعل؟

تأمّل هوراثيو الشمس التي كانت تجنح فوق الكاريبي. وخمّن أنّ ما زال أمامها أن تضيء سماء هاڤانا ساعة أخرى إضافيّة. تصوّر كلارا وبرناردو جالسين في شرفة بيتهما في (فونتانار)، يتأملان الغروب، وهما، في الواقع، ينتظران أن ينقلب الكارت المنكفئ ليكشف إن كان الرقم الذي يحمله رقمَ الحياة أم رقمَ الموت. وأحسّ بالحزن.

- لا أدري، مار... -قال-. هل تقترحين عليّ أن أجري اختبار الحمض النووي وأجريه على خطيبة ماركوس؟ لماذا تشبهني وتشبه ابنتيّ؟ وبأيّ حق أغيّر حياة إنسانة لم تطلب منّي شيئاً، ولا يمكنها أن تكون، بأيّة صورة من الصور، ما تبدو عليه؟ طالما فكرتُ في ذلك. وطالما رددتُ على نفسي بأنّ من الخير أن نقطع الشكّ باليقين. لكنّي أعتقد أنّ أيّ شيء سأفعله لن يكون إلّا من قبيل تحريك ماء آسن. وتحرك الماء الآسن يعني انبعاث الرائحة الكريهة من جديد... لا أحد يعلم شيئاً عن إليسا ولا عن سبب اختفائها. فهل اختفت بسببي؟ ومن عساها تكون لوريتا فتزبيرغ، والدة آديلا؟ لا أعرف أيّة امرأة بهذا الاسم! يا للمصيبة!... لا. لا يمكن - قال، وفيه قناعة متنامية بأنّ النفي ما هو إلّا مظهر من مظاهر خداع النفس.

أمسكت ماريا بيده، وحرّكت وجهه نحوها.

- وماذا ستفعل، هوراثيو؟

فكرت كلارا: أكادُ أجنّ. وأحسّتْ برغبة في الجري، في الاختباء تحت السرير، بل في البكاء. لكنّها شعرت، في الوقت نفسه، بحماس ينمو في داخلها. حماس ظنّته تبدد أمام احتمالٍ لم تفترض ضياعه، بل ظنّته غيرَ ممكن. احتمال سرعان ما سيتحقق. أمّا ما أسفت له حقاً فهو أن الدافع الذي أحدث معجزة وضعها في مواجهة أحقادها السابقة، المنسيّة تقريباً، كان إعلاناً عن نهاية، وليس التبشير بأمل في ظهور جديد، فما من فسحة لفرح، وما كانت في وارد أن تتخيّل بدايات جديدة لها ولأصدقائها. في غمرة مشاعرها المتناقضة تلك، وجدت نفسها الراحة. فقد أبان لها تصريحٌ مبهج من حب وأخوّة، عن أنّ بعضَ الجوهر يظلّ قائماً وإن تعرّضت الكثير من الأشياء في هذا العالم للهدم. لا. لم يضع كلّ شيء.

حين علم برناردو بما يُدبّر ويدنو، نهاهم عنه: إذ لم يكن مستعداً لأن يشهد مراسيم موته. فعلى الرغم من أنّه، بعد أن علم بالتشخيص النهائي، تجاوز الحالة التي وضعته على حافة الكآبة وبدأ يتصرّف بعزّة نفس، فإنّ تدهور صحته صارت تظهر على شكل تعبٍ شديد ورغبة في البقاء مع كلارا، أهمّ امرأة في حياته الموشكة على الانتهاء.

في أسابيع الصراع ذاك مع نفسه، تذكر برناردو أحلكَ سنوات انهياره الإنساني، يوم رأى أنّ الموتَ هو الحلّ، بل حين أوشك أن ينفذ ما فكّر به إذ وجد أنّ ذهنه الغارق في الكحول عاجز حتّى عن تمنّي الموت. لكنّ الربَّ والجيران أنقذوه، يومها، ومنحوه وقتاً إضافيّاً كان خيرَ ما عاشه طول حياته الدنيا. أمّا الآن، فما عاد من أملٍ في تدخلٍ بشري أو سماوي قادرٍ على أن يطيل ذلك الزمن الهنيّ الجميل، وربّما كان مبعث ألمه يقينه من أنّه سيفارق كلارا ولن يستمتع بقربها لوقت أطول.

أمّا أصدقاؤه، فقد قرّروا أن يتحملوا ما عدّوه مسؤولية تجاه صديقهم. لم يرضخوا لإرادة المريض ولا لمخاوف كلارا، فكلارا تحتاج إلى وقفتهم، وهم ملزمون بها، وبرناردو يستحق منهم ذلك الاهتمام وتلك العناية. تقاطروا، بين 21 و 23 من كانون الأوّل من 2015، على (فونتانار): وصل داريّو ورمسيس، أولاً، ثمّ إرفينغ وجويل. وفي مساء 23، وصل هوراثيو مع ماريسا، التي لم يسبق لها أن وطئت أرض جدٍّ لها، تعرّف في (تامپا)، على مارتي الرسول [58]، وأبٍ، هو من لاجئي القوارب في الستينيّات، لاجئ لم يفكّر قطّ في العودة إلى وطنه. وعلى الرغم من أجواء اللقاء الحزينة، فقد كانت أجواءً احتفاليّة، بل إنّ برناردو، بعد أن تداول الأمر مع كلارا ونال موافقتها، شرب أوّل كأسٍ له من الرون بعد انقطاع دام اثنين وعشرين عاماً. فما عاد المبلولُ يخشى المطر، فكّروا. وحين شمّ المريض كأس الشراب المعتّق، ثمّ تذوّقه، لم يجد عبارة أبلغ من قوله:

- يا لكَ من ابن قحبة! كم تاقت نفسي إليك! - ثمّ عبّ ما في الكأس عبّاً.

كانت تلك المرة الأولى التي يعود فيها طبيبُ الأعصاب داريو وولدُه المهندسُ الشاب رمسيس إلى الوطن. وبعد أن سعدا بفرحة اللقاء وحرارة العناق، ورثيا لحال برناردو، الذي بلغ به الهزال مبلغه وبدا التعب حتّى على أنفاسه، صُدم داريو للحال التي بات عليها المنزل الذي طالما اعتنى به حين كان مسكنه. وتأثّر حين رأى القارورتين اللتين تحويان كتلة الدماغ البشري في مكانهما من حجرة دراسته. أثرٌ منه ما زال حيّاً.

وقرّر داريو، في ما بدا إرضاءً لضميرٍ صحا ووعيٍ عاد، وتخفيفاً عن ذنوبٍ بدرت منه، ومساعدة لأناس لم يبخلوا في مساعدته، أن يزور جاره الذي ساعده قبل ثلاثين سنة مضت في تصليح سيارته الروسية المقلقلة. سأله داريّو إن كان يستطيع أن يحصل على الأصباغ ويجمع العمّال اللازمين لطلاء البيت، من الخارج والداخل. أجرى له جاره، الذي كان يتكسّب من تلك الأعمال على هامش الدولة (وما أقلّ ما تدفع الدولة وتنفع)، ميزانية بالتكلفة (لا يهمّ ما يكلّف العمل، قال له داريّو، وقد أخطأ إذ قال له ذلك). أفزع الرقمُ داريّو (في كوبا، تضاعف سعر المشروب الغازي عشرين مرّة،

وصار طلاءُ بيت يكلّف ما يكلفه في إسبانيا)، مع ذلك وافق، وطلب منه أن يبدأ العمل ما إن يعود الزائرون إلى بلدانهم.

أثار استغراب رمسيس أن يرى كلّ شيء في البيت وقد انكمش وتقلّص، فكأنّ الزمن والبُعد صغّرا الصور التي تحتفظ بها ذاكرته. وأثار شجونَه أن يرى، تحت شجرة الأفوكاتو، التي كان غرسها بنفسه، وهو بعد طفلٌ صغير، كومة من الحجارة، وفي أعلاها صخرة بيضاء نُقش عليها باللون الأسود اسم دينجر.

وهكذا رأى رمسيس ودارِيّو، اللذان لم يجعلا من المسافات سبباً لاستثارة الشجون والحنين، بل اتخذا منها وسيلة للاحتماء والدفاع، وغيّرا الكثير من جوانب حياتهما تغييراً مرضياً وجذرياً، أنّ الماضي يمكن أيضاً أن يكون بقعة لا تنمحي.

أمّا إرفينغ وجويل فقد استأجرا، حال وصولهما، سيارة سافرا بها إلى (پينار دل ريو)، حيث يسكن أقاربُ جويل، وعادا بنصف خنزير وكيسٍ مليء بالقلقاس والبطاطا الحلوة والكاسافا، وكيس آخر من الفاصوليا السوداء الصغيرة القاسية التي لن تلبث أن تلين وتجهز حين تطبخ وتضاف إليها رشّة الكمّون الواجبة. فإن قدّر لتلكَ الوليمة أن تكون آخر عشاء لبرناردو في ليلة الميلاد، فلا بدّ أن تكون أفضل ما يستطيعان أن يقدماه. وجلب رمسيس نبيذاً فرنسياً، بينما جاء دارِيّو بالتورّون والنقانق والأجبان، واشترى هوراثيو وماريسا البيرة والرون، بل لقد كلّفوا أحد الجيران بقارورة من جوز الهند المغمور بالشراب المركّز وقدموا لكلارا علباً من قهوة (لا يابي) الفاخرة التي جاءهم بها ماركوس إلى المطار، لعلمه بمدى حبّ أمّه لتلك القهوة.

وهكذا أقيمت، ليلة 24 كانون الأوّل، في بيت (فونتانار)، وللمرة الأولى من ربع قرن، وليمة عيد الميلاد، واستمتع الجميع بما صُفّ على المائدة الطويلة التي نصبت في الشرفة، في درجة حرارة لطيفة، وإن وجدتها ماريسا، القادمة من پويرتوريكو، باردة قليلاً. أكلوا وشربوا وتحادثوا وضحكوا، وإن تأسفوا لغياب ماركوس، غير القادر على السفر إلى كوبا، وفابيولا، لأنّها لم تشأ أن تقطع بالصغير آدم رحلة طويلة عبر الأطلسي. كم كانت كلارا تتمنّى لو كان الحفيد معهم!

في تلك الليلة أغلق الباقون من الأخويّة على العفاريت في كهوفها، فهم لم يأتوا للاحتفال بميلاد المسيح الناصري قدر ما أرادوا أن يحتفلوا بدوام صداقاتهم. بتلك الرابطة التي أسسوها من سنوات طويلة وحافظوا عليها، على الرغم من شدائدَ تحملوها، وهزّاتٍ ما زالوا يتذكرونها، وأزماتٍ يصرّ التاريخ على إخضاعهم لها، وظروفٍ شخصيّة وأوضاع وطنيّةٍ فرّقتهم ومزقتهم شرّ ممزّق.

ولذلك، دعا برناردو، وهو يرفع كأس الرون، نصف سكران، إلى نخب.

- اليوم، ونحن نحتفل من جديد، مجتمعين، بليلة الميلاد... هل تذكرون حين وجهونا إلى ألّا نحيي ليلة الميلاد ورأس السنة؟... فإلى جهنّم كلّ ما وجّهوا به ومنعوه... وإلى جهنّم كلّ ما أساؤوا التوجيه إليه وأخطأوا في منعه، أليس كذلك؟... كنتُ أقول، كنتُ أقول... آآآه... كنتُ أقول -توقف عن الكلام ليستردّ أنفاسه-: اليوم أشعرُ بأنّي أسعد إنسان على وجه الأرض. أقسم لكم... وأريد أن أشرب نخباً معكم، فأنتم وإن لم تكونوا أنفسكم، فنحن أنفسنا، كما قال مارتي... لا تنظر إليّ هكذا إرفينغ، فمن قال هذا هو مارتي! مارتي قال كلّ شيء! -وابتسم وسعل واضطرّ إلى انتظار أن ينتظم وقع تنفسه-. كنتُ أقول: مع أنّكم ستبلغون الستين وستشيخون، فأنتم أنفسكم، ستبقون أنفسكم، لأنّ شيئاً ما فينا، نحن الموجودين هنا، لم يتغيّر، مكسبٌ لم نخسره ولم نفقده، وحين اعتدينا عليه، كافحنا من أجل استعادته، واستعدناه. -ونظر، في تلك اللحظة، إلى هوراثيو-. ذلك المكسب هو الأخوّة. لم نفقد الأخوّة، بالذات لأنّ هناك شخصاً كافح كثيراً من أجل أن تبقى الأخوّة بيننا وتحمينا... هذا الشخص هو هذه المرأة، حبيبتي، كلارا، قطعة المغناطيس الأقوى التي جذبتنا إليها ونحن مطمورون في أعماق الأرض، وها هي اليوم تجمعنا، تجمع الشظايا التي ظلّت واستمرت، فالتأم شملها فوق حجارة النحاس الممغنطة القادمة من أرضٍ مقدسة كوبيّة، الحجارة التي ينهض عليها هذا البيت، هذا البيت الذي هو أكثر من بيت: إنّه ملاذنا وقوقعة الحلزون التي تحمينا. في صحة كلارا! - هتف برناردو بصعوبة.

- في صحة كلارا - ردد وراءه الآخرون، وكانوا ما زالوا قادرين على أن يرسموا ابتسامة على وجوههم وأن يشربوا، قبل أن يجهش بالبكاء بعضهم،

وأولهم إرفينغ، حين بدأ رمسيس، كما قبل خمسة وعشرين عاماً مضت، يردد أغنية كنساس، التي يحبها برناردو، والتي تذكرهم بما كانوا عليه، وبما كان عليه كلّ شيء في حياتهم: *غبار في الريح*.

كانوا جميعهم قد حددوا الثاني من كانون الثاني موعداً لسفرة عودتهم بعد أن خصّصوا اليوم الأولّ منه للاستراحة، بعد الاحتفالية التي ودّعوا بها عام 2015 وأسرفوا فيها أكلاً وشرباً ومشاعر.

في مساء الأوّل من كانون الثاني من عام 2016، الذي سيكون عاماً صعباً، لم يطلب داريّو (بما قد يصفه هوراثيو بأنّه من تأثير طباع الكاتالان) سيارة أجرة، بل طلب من إرفينغ أن يعيره سيارته التي استأجرها لأنّه كان راغبا في القيام بجولة في المدينة مع رمسيس. حين عادا، حكى الأب وابنه للآخرين أنهما تجوّلا في الماليكون وهاڤانا القديمة ليستعيدا ذكرياتهما. وصدّق الجميعُ روايتهما إلّا كلارا.

كذبا. لم يذهبا إلى الماليكون ولا إلى هاڤانا القديمة، بل ذهبا إلى شارع (پرسيبيرانثيا) العتيق، في وسط العاصمة الكئيب. من سنوات وداريّو يظنّ أنّه ربّما لن يعود إلى الجزيرة التي كانت جزيرته، والتي لم يشعر بها قريبة من قلبه، حين تحدد موعد عودته، إلّا وهو في (فونتانار)، فقرّر أن يبطل السحر ويطرد الأرواح نهائيّاً. فاصطحب ابنه إلى المكان الذي نشأ فيه، وحيث عاشت أمّه، جدّة رمسيس، حتّى وفاتها قبل حوالي ثلاث سنين. لم يعرف داريو بوفاة أمّه إلّا حين أعادوا له إرساليّة النقود التي كان بعثها إليها عن طريق أحد البنوك.

وجد المكانَ على حاله، بل ازداد بؤساً: بناء الممرّ الوسطي متصدّع؛ وأسلاك الكهرباء تخرج كالمجسات من العدادات وتنتشر مكشوفة على الجدران؛ أبواب الحجرات مفتوحة على التحرر والاختلاط؛ الجدران متقشرة يكسوها سخام ووساخة تاريخيّة. أجواء كئيبة ورائحة تزكم الأنوف في خليط من انبعاثات الفقر. فاضت علب البيرة الفارغة وزجاجات الرون

من كيس وضع بالقرب من بوابة الدخول، لتكون شاهداً على الاحتفال الذي أقامه القاطنون في السولار رغم البؤس والعوز. من إحدى الحجرات يعلو صخب الريغيتون بموسيقى مكررة وكلمات غير مفهومة، ليضع خاتمة لفرح أو دالّة على طبيعة المكان.

ما كان داريّو يعلم مَن صار يشغل الحجرة التي عاش فيها حتّى بلوغه سنّ الشباب، والتي سكنتها أمّه، حسب علمه، منذ ولادتها حتى مماتها، قبل ما يزيد على سنتين. لم يكلّف نفسه مهمّة السؤال، ومن عساه يكون غير بائس عاجز عن أن يسكن في مكانٍ أنسب لحياة كريمة. ما كان يهمّ طبيب الأعصاب الناجح، الذي صار يقود سيارة فارهة ويخطط لإجازة يمضيها في اليابان، هو أن يطلع ابنه على ذلك القصر المنيف، لكي يرى بعينيه ويسجّل في ذاكرته، واعياً الأسباب والنتائج، ممرّاً إسمنتياً متصدّعاً، ولكي يريه المكان الذي اعتادت أمّه أن تعاقبه فيه على أن خُلق، بأن تجلسه على المصطبة عارياً. كانت تجلده بالنطاق، أو بعصا المكنسة، أو حتّى بغرّافة الطعام، وهي تصرخ به، وتصفه بالمجنون. أراد داريو أيضاً أن يري ابنه الركنَ القذر، القريب من المغسلة، حيث كان يتكوّر ويتغطّى بأيّ دثار يجده (كيس من الخيش أو خرقة تنظيف أو صفحة من جريدة)، إن هي قررت أن تنام القيلولة أو أن تغلق باب الحجرة على نفسها وعلى من يصحبها من الرجال. إنّه عين المكان حيث غلبه النعاس، ذات مرّة، ونام ليصحو، وهو يصرخ كالمجنون، حين أحسّ بيدي الرجل الذي كان يداعب مؤخرته العجفاء، بينما يعرض أمامه قضيباً منتصباً دامياً. مشهد عار ومهانة لم ينتشله منه إلّا خلاسي سائق حافلة وساحر يدعى لاثارو ماروا، ثمّ، وبعد سنوات، أم أولاده.

– يااااه. لم يتغيّر شيء... بل لقد تغيّر نحو الأسوأ –قال داريّو، وبدت على صوته كراهية ممزوجة بالألم وبالشعور بالعار–. ما أفظع هذا... ما زال هؤلاء البشر، وآباؤهم وأجدادهم من قبلهم، يعيشون هنا، في هذا المستنقع، متخالطين متعاشرين. وهكذا سيظلون إلى ما شاء الربّ... كلما تذكّرتُ نفسي مرمياً في تلك الزاوية، أرى أنّ معجزة من معجزات الطبيعة وأعاجيبها وقعت لي. ومع أنّ الكثير من الناس ما زالوا يعيشون في هذه الزبالة، فمن

الجحود ألّا أشكر لهذا البلد أنّه منحني الفرصة لكي أكون المعجزة التي أنا عليها الآن.

– ما فعلته هو الصحيح... –تمتم رمسيس، والألم يعتصر قلبه، لكنّه واصل النظر إلى المشهد البائس، الذي حركته، في لحظة ما، امرأة غير واضحة السن خرجت إلى الممرّ لتنفض الأوساخ عن قطعة من القماش، ربّما غطاء طاولة، راحت تنظر إليهما شزراً، فكأنّها تتفحصهما–. وكيف وصلت جدّتي إلى هنا؟

– ولدتْ هنا... وولد أبوها هنا أيضاً... هناك شيء آخر لا تعرفه... جدّي الكبير، والد جدّي، يبدو أنّه كان عبداً. انتقل من الكوخ ومزرعة القصب إلى هنا ليعمل حمّالا في الميناء.

– فجدي الثالث، إذن، كان عبداً أسود؟

– أظنّ ذلك. جدّي الثاني كان أسود، من أولئك السود الذين يضرب سوادهم إلى الحمرة. فقد بدأوا يتمازجون. أمّا أمّ جدّتك فكانت بيضاء. وأمّي كانت تبدو بيضاء، ويبدو أنّ أبي كان أبيض أيضاً، لذلك أبدو أنا أبيض، وأنت كذلك... لكنّنا بيضٌ مزيفون. كشأني أنا: كاتلاني مزيّف...

هزّ رمسيس رأسه وتكلّف الابتسام. كانت إحدى صديقاته قد أكّدت له أنّ عضوَه عضوُ أسود وخصيتيه خصيتا أسود: ليس بسبب الحجم، بل بسبب لون القلفة وملمس كيس الخصيتين، المغضّن المكرمش الغامق، الذي يكسوه شعر مجعّد. فالمرأة، إذن، على حق.

– لماذا لم تكلمنا عن هذه الأمور قط؟ هل بسبب أصلنا الأسود؟

– أبداً... بل لأنّ التطرّق إلى هذا هو الجحيم بعينه.

– وأين كانت تسكن المرأة السوداء والرجل الإسباني اللذان كانا يأخذانك أحياناً؟

– هناك، في الباب الأخير. المصبوغ بالأخضر.

– وماذا حلّ بهما؟

– لا أدري... كانا طيبين، لكنّ هذا المكان كان يمرضني. حين انتقلتُ للسكن مع أمّك حاولتُ ألّا أعود إلى هنا. وبدأتُ أرسل نقوداً إلى جدتك...

في حوالة بريديّة. فإن أردتُ أن أعطيها شيئاً، ذهبتُ إليها في المطعم الذي كانت تعمل فيه. وقد أخذتُكَ إلى هناك مرتين أو ثلاث مرات. هل تذكر؟

هزّ رمسيس رأسه بالإيجاب. إنّه لا يذكر غير صورة مطموسة لامرأة قدّمها له داريو على أنّها جدّته لأمّه.

– وماذا تعرف أمّي من كلّ هذا؟

– لا شيء تقريباً... هذا أفضل. وأنت أيضاً لا تحكِ لماركوس –قال له داريّو، وهو يلتفّ ويستعد للصعود إلى السيارة ويبتعد ما استطاع عن ذلك المكان–. أمّا لماذا أتيتُ بك إلى هنا فلأنّك تعرف جانباً من القصّة، وقد أردتُ أن تعاين وأن تقول لي إن صرت تفهم الآن لماذا فعلت بعض ما فعلته.

أخذ رمسيس بيد أبيه، وهو يحرص على أن يتحكّم في إيماءاته وعواطفه، قبل أن يقول له.

– شكرا، أبي، على كلّ ما فعلتَه من أجلنا. هيّا بنا، لننصرف من هنا...

– فعلتُ ما كان عليّ أن أفعله، وإن لم أفعله أحياناً كما يجب... اسمع، إذا رأيتَ لاثارو مروراً قبل أن تسافر، فقل له إنّي طالما تذكرتُ طيبته وحسن معاملته... لكنّي أفضّل ألّا أراه، لأنّه جزءٌ من هذا كلّه.

وافقه رمسيس. وبينما كانا يبتعدان عن السولار، سأل أباه:

– هل لي أن أقصّ الحكاية على آدم؟ قد لا يعنيه الأمرُ، لكنّي أظنّ أنّ من الواجب أن يعرف البيئة التي نشأ فيها جدّه، ونجا منها أبوه، والتي لن أسمح بأن يعيشها هو.

نام إرفينغ وجويل القيلولة، جرياً على عادتهما المدريديّة. أمّا كلارا، المرهقة من شحنة العواطف التي عاشتها طوال تلك الأيّام، فقد اعتكفت في الإستوديو، حيث وضعوا التلفاز، لتغفو، بعد خمس دقائق، أمام الشاشة التي كانت تعرض فيلماً مملاً. حين مالت الشمسُ إلى الغروب، خرجت ماريسا، وكانت ذهبت صباحا لزيارة أقارب والدها الوحيدين الذين بقوا في كوبا، لتقطع مسافة الستة كيلومترات التي التزمت قطعها لتخفيف وزنها الذي زاد من كثرة ما التهمت وعبّت. خرجت وحدها بعد أن لم يتشجّع أحدٌ على السير تلك المسافة الطويلة.

أمّا برناردو وهوراثيو، فقد وجدا نفسيهما في الشرفة مع كأس من الرون في يد كلّ منهما. شعرا بأنّ اللحظة التي تجنباها طوال خمسة وعشرين عاماً قد وصلت. فهل هناك من حضّر لتلك اللحظة، أم إنّها جاءت هكذا، ببساطة، وبلا تحضير؟ هل التقيا في الشرفة لصدفة أم لحاجة؟ هل هي الصدفة التي يشير إليها أبيقور؟

وكان برناردو هو من بدأ.

- أشكر لك أنّكَ أتيت، وجئتَ معك بماريسا. أنتَ محظوظ أن ظفرتَ بمثل هذه المرأة.

- فعلاً. لم أتوقّع أن أكون محظوظاً إلى هذا الحد. إنّها هبة من السماء... لكنّك أيضاً كنتَ محظوظاً... فأنا لا أعرف أيّة امرأة، أو بالأحرى أيّ شخص، مثل كلارا. أسفتُ كثيراً لمرضك، برناردو... وإن لم أكن أقصد أن أتكلّم عن هذا الموضوع... لكنّي أظنّ أنّ الوقتَ قد حان لكي أطلب منك الصفح والعفو. من قبل، لم أجد في نفسي الشجاعة لأفعل ذلك، ولكن...

– تقصد أنّك تطلب العفو لأنّي موشك على الموت... لا، هوراثيو. ما من ذنبٍ أغفره لك...

– لا، برناردو... إن كنت ترى أن ليس هناك ما تغفره لي، فأنا أحتاج إلى أن ألتمس العذر منك. فما بدر منّي كان فعلاً خسيساً. خيانة. ولا عذر لي فيه، فإليسا كانت امرأتك.

– لم تكن امرأتي تقريباً... أقصد من ناحية ما يقع عادة بين الزوج وزوجته، إن كان هذا يريحك. على أيّة حال، ما حدث كان لا بدّ أن يحدث. معكَ أو مع غيرك...

– لا يريحني لأنّي لم أكن أعلم بذلك –قال هوراثيو، وتناول جرعة من الرون–. لكنّ إليسا كانت بالنسبة إليّ امرأتك، وكان يجب أن تكون محرمة عليّ، وأنا...

– هناك أمور كثيرة تجهلها غير هذه. أمورٌ ما كان لي أن أخبرك بها، ولن أخبرك بها، وإن كنتُ على وشك أن أودّع...

– لا تكرر ذلك، رجاءً

– أنا أنازع، هوراثيو، ويجب ألّا نقلب الأمرَ أكثر... ألم تحضروا كلّكم بسبب ذلك؟

لم يردّ هوراثيو، بل اكتفى بترديد عبارة تقال في مثل هذه المواقف:

– ما أتفه هذه الحياة!

تناول برناردو جرعة أخرى من كأسه وابتسم.

– دعني أقل لكَ شيئاً... إن كنتَ ما زلتَ في شكّ من أمر المرأة والبنت اللتين شاهدهما إرفينغ في مدريد قبل سنوات... فأنا أؤكّد لك أنّهما إليسا وابنتها. البنت يمكن أن تكون ابنتك... أنتَ أردتَ أن تقنع نفسك بأنّها ابنة والتر، لأنّك كنتَ، وما زلت، تفكر أنّ من غير الممكن أن تكون أنتَ من تسبب في حمل إليسا، وكنتَ تظنّ أنّها ضاجعتْ والتر.

– من حكى لك ذلك؟

عاد برناردو يبتسم.

– لا يهمّ من يكون... أوكي، إرفينغ... ومن غيره؟... ولأنّه يظنّ أيضاً

أنّي ميت لا محالة و... هوراثيو، أنا لا أدري إن كنتَ أنتَ من سبب حملها أم كان آخر، ما أعرفه هو أنّها لم تنم معه. وليس لأنّها تنفي ذلك. أنا لا أستطيع أن أضمن صدق إليسا في كل ما قالته. لكنّي واثق من أنّها لم تنم مع والتر.

– برناردو... رجاءً! هل من الضروري أن نتكلّم عن كلّ هذا؟

– نعم، لأنّ من حقّك أن تعرف... إليسا لم تنم معه، لأنّها كان تعرف ذلك القوّاد، وكانت تعلم أنّ في مقدوره أن يعمل مخبراً للشرطة، هذا على افتراض أنّه لم يكن مخبراً فعلاً...، إليسا حاولت الابتعاد عنه، وعن أبيها أيضاً، لأنّ روبرتو كوريّا كان غارقاً في خرائه...

– فمن كان يبلّغ عنا، إذن، هو والتر؟ وماذا عن غيستي؟

– لا أدري، قد تكون وقد لا تكون، أنتَ تعرف كيف تتحرّك هذه الأمور... فأنتَ تنفي، بينما إرفينغ وداريو يؤكدان، مع ذلك فأنا أستكثر أن يخصصوا مخبرين اثنين لمراقبة مساكين بائسين مثلنا... أمّا والتر... فلست متأكداً منه أيضاً. لأنّ من اتهمه هو روبرتو كورّيا، وكلّ ما كان هذا الرجل يقوله كذب في كذب... فما الذي يخيف الشرطة من أناس مثلنا؟ ما أنا متأكّد منه هو أنّ والتر كان كالمجنون، كان يريد الرحيل لأنّه يعلم أنّهم إن استمروا في التحقيق بشأن تجارة الكوكايين فلا بدّ أنّهم سيصلون إليه، أو أنّهم وصلوا إليه. يبدو أنّه هو من كان يخضع لمراقبتهم... يبدو... الصورة معقدة، ولن نصل أبداً إلى معرفة كلّ شيء... ما كنتُ أريد أن أقوله وأعرفه حقاً هو أنّ إليسا ووالتر، حين التقيا في بيت صديقتها، وقع بينهما جدال... كان والتر يظنّ أنّه قادر على ابتزاز والدها، لذلك وقع الجدال. فقد والتر السيطرة على أعصابه، أمسك بإليسا وهزّها بعنف... وقد حكت لي عن ذلك حين لاحظت ازرقاقاً في ذراعيها...

– ازرقاق في ذراعيها؟ – اشتعل ضوءٌ في رأس هوراثيو، فقد كان لاحظ هو أيضاً تلك البقع الزرق. وماذا قالت لك إليسا؟ قالت لك إنّها رفسة بقرة أو حصان؟ وإذن...؟

– عجباً، برناردو! – قال، وهو يرى الأحجية في رأسه تتفتت شرراً، فكأنّها ولاعة روسيّة. معلوماتٌ ترد مجزأة لتستقر في مكانها وتغيّر مسار القصّة التي يعرفها.

– بعد ذلك وقعت مشادّة بينهما. ذهبتُ إلى والتر. كان يحمل سيخاً من الحديد تحت قميصه... قلتُ له إنّي سأقتله إن تقرب ثانية من إليسا. لم يرها ثانية، حسب علمي ثمّ... حلّ المشكلة بنفسه، حين ألقى بنفسه من البناية... هذا كلّ ما أعرفه. هل عرفتَ الآن لماذا أردتُ أن أحكي لك كلّ هذا قبل أن أموت؟ وهل فهمتَ لماذا لا تستطيع أن تقصّ على أحدٍ ما حكيتُ لك وما سأحكيه، وخصوصاً كلارا؟

في 6 نيسان 2016 قرّرت كلارا أن تفتح صفحة لها على الفيسبوك بعد أن ألحّ عليها ولدها ماركوس. وجعلت من الصورة التي التقطوها للأخويّة ليلة الاحتفال بعيد ميلادها الثلاثين، صورة للغلاف. وتمّ كلّ شيء، كما في تلك المناسبة، على عجل، فكأنّ التأثيرات المعلّقة المركونة المشدودة كانت بانتظار الإشارة لكي تنفلت من عقالها.

بعد ثلاثة أيام، تلقّت أولَ الردود على تصرّفها العفوي. شعورٌ بالمرارة ولّدته فيها مكالمة هاتفية جاءتها من (هياليه). فقد ركب ماركوس هوسُ البحث عن ذكرى ضائعة، وتمكن منه هاجسُ التحقق من رؤية باتت تسيطر على عقله، لكنّها تبعث في أمّه ألما ومرارة: إنّه يتحقق من معنى القبلة التي تبادلتاها هي وإليسا في المخدع الذي حملت فيه به وبأخيه، وحيث عاشرت داريّو طوال اثني عشر عاماً، وتنام مع برناردو منذ ما يقرب من عشرين.

بعد تسعة أيام، وفي صبيحة 25 نيسان، قبل الحادية عشرة بقليل، توفي برناردو. سعل طوال الليل، وتقيأ دماً، ولازمته الأمصال وكمامة الأوكسجين، حتى إنّ جسمه لم يستفد من جرعة المورفين القويّة التي كان وصفوها له. قبل ساعتين من لفظه أنفاسه الأخيرة، وربّما من دون أن يعي ما كان يجري حوله، تلقى المسحة الأخيرة على يد راهب كنيسة (كالاباثار). إن كان الربّ هو من أنقذه، فعليه الآن أن يعجّل في إنهاء معاناته. فكّرت كلارا.

حضرت كلارا، في ذلك المساء، حرق الجثة. كانت وحدها، كما أرادت. وتنفيذاً لوصيّة برناردو، فقد أودع الرمادُ في قارورة بسيطة، من صنع فخّاري قرية (الكانو)، القريبة من (فونتانار).

حين أعادها الدكتور غويو إلى بيتها، مع رماد برناردو، اتجهت كلارا

إلى ما كان مكتب والديها المهندسين ومكتبها ومكتب داريو ثمّ مكتب أولادهما من بعدهما، وهي تضمّ قارورة الفخار إلى صدرها. بحثت عن الكوّة الأنسب في جدار الآجر الذي يفصل الإستوديو عن بقيّة أنحاء الطابق واختارت واحدة. وضعت الجرة فوق المكتب ثمّ رفعت من الكوّة واحدة من القارورتين الزجاجيّتين الكبيرتين اللتين تحتويان قطعتي الدماغ البشري المتحلل. فتحت الباب الزجاجي الذي يطلّ على الباحة الجانبية وألقت بالقارورة على الأرض، التي نما عليها العشب. ثمّ عادت وحملت القارورة الثانية وفعلت معها الشيء ذاته. وأخيراً رفعت قارورة الرماد من المكتب ووضعتها على الكوة التي اختارتها. كانت القارورة والآجر من نفس اللون. هناك سيكون مكانها، وهناك سيكون ضريحه، إلى أن تنفذ إرادته الأخيرة وتدفن رفاته في المكان الأخير لراحته.

خرجت كلارا من البيت، بعد أن استجمعت ما تبقى لها من طاقة، ومعها الحاسوب المحمول، وقطعت المربعات التي تفصل بيتها عن الحديقة الصغيرة حيث شبكة *الواي فاي*. نشرت نعي برناردو على صفحتها في الفيسبوك. أسطر قليلة طلبت فيها أيضاً ألّا يحاول أحد الاتصال بها. قالت إنّ برناردو مات بسلام مع الربّ ومن دون ألم؛ وطمأنت الجميع على حالها، فهي على ما يرام، سوى أنّها متعبة وحزينة وتحتاج إلى أن تختلي بنفسها. وشكرت للجميع ما أبدوه من مساندة طوال السنة الأخيرة من حياة برناردو. وقبل أن ترسل النص وتغلق البرنامج، بحثت عن الصورة التي التقطتها لهم ماريسا يوم 24 كانون الأول الأخير، والتي يظهر فيها برناردو مبتسماً وهو يرفع كأس الرون ويدعو إلى نخب، ثمّ ألصقتها بالنص بعد أن أضافت إليه: «نحن غبار في الريح، حتّى النصر النهائي». أرسلت ما نشرت وأنهت الاتصال بالشبكة.

عادت إلى البيت. استحمّت. نزلت إلى المطبخ، وشربت بقيّة عصير المانغو الذي كانت أعدته قبل ثلاثة أيام لبرناردو. نظرت من مكانها في المطبخ، من خلال ألواح الزجاج، إلى البقعة الغامقة في الباحة. بحثت في الرف الأعلى الذي فوق المغسلة، عن علبة السجائر التي كانت تخفيها عن نفسها وعن ضعف إرادتها. أشعلتْ واحدة من السيجارتين الباقيتين فإذا

بطعم التبغ كطعم العشب. بل بات طعمُ الحياة كلّها في فمها فجاً مجّاً. فلماذا برناردو وليس هؤلاء الكلاب الذين يملأون الدنيا؟ ليسامحني الربّ على سؤالي، لكنّه سؤال مشروع.

صعدتْ إلى غرفتها، وحين وضعت رأسها على المخدّة ورأت السرير الطبي وكمامة الأوكسجين، التي ما زالت في ركن الغرفة الواسعة، أحسّت بقسوة الوحدة. كان الصمتُ الذي خيّم على البيت صاخباً مدوياً. وأجهشت بالبكاء حتى غلبها النوم.

10

النصر النهائي

الأغنية القديمة نفسُها
قطرة ماءٍ في بحرٍ محيط
كلّ ما نفعله يسقط في الأرض
وإن أنكرنا رؤيته
غبارٌ في الريح
ما نحنُ إلّا غبارٌ في الريح
• كنساس 1977

من لوح المطعم الزجاجي، ألقت نظرة على جادة المدينة الرئيسة: مطعم *ويندِيز*، صيدليّة *والغرينز*، محطتا وقود، مصرف محلي وآخر اتحادي، مطعم *ماغدونالدز* وكنيستان ضخمتان، واحدة في كلّ ناصية. كنيستان من حجر ومن خشب، متشابهتان في التصميم، وإن انتمتا إلى فرعين مختلفين مجهولين من المذهب البروتستانتي. عند وصولها منتصف نهار ذلك اليوم، وبعد أن اكترت غرفة في موتيل يقع في شارع مجاور، خرجت لتتمشّى وتتناول فنجانا كبيراً من الاسبريسو في أحد مقاهي (ستاربكس)، واستطاعت أن تحسب، في مسافة ستة مربعات سكنيّة، المباني المتشابهة دائمة لثماني كنائس أخرى، كلها بروتستانتيّة، تنتمي إلى فروع مختلفة، وست صيدليات، وخمس محطات للوقود، ومصارف كثيرة أخرى: يبدو أنّ الإيمان والآلام

والمال والوقود هي المكونات الأكثر رواجاً في مدينة مرشحة للتنافس في مسابقة لاختيار أقبح وأتفه مدينة في العالم.

إنّها لا تعلم كيف وصلت إلى هناك، لكنّها تعلم أنّها أرادت أن تصل إلى قريب من هناك. كانت قد قرأت، قبل أشهر، رواية مؤلفها هو إلمور ليونارد[74]. لا تذكر عنوان الرواية، لكنّها تذكر أنّ أحداثها تدور في أوكلاهوما، في السنوات التي سبقت عصر ظهور البترول والسنوات التي أعقبته، في أوقات قانون منع الكحول والكساد الكبير. تحكي الرواية عن مساعد مأمور للشرطة ذاع صيته لأنّه ما كان يخرج مسدسه إلّا ليقتل. ابن أمريكي نصف هندي، كان قد شارك في ما يدعونها في الكتاب بحرب كوبا، حين اتخذت واشنطون من تفجير البارجة الأمريكية (مين)، في ميناء هاڤانا، ذريعة لشن تلك الحرب. لقد أدت تلك العملية، التي قام بها الأمريكان أنفسهم، إلى تدخل قوات مشاة البحرية الأمريكية في النزاع الدائر آنذاك بين المتمردين الكوبيين وجيش المحتل الإسباني، عام 1898، لكي يبولوا على هؤلاء وهؤلاء. وما كان أشدّ ما بالوا على الاثنين!

كان والد مساعد مأمور الشرطة المذكور قد نجا بأعجوبة من حادثة تفجير البارجة، وقبل أن يعود إلى أوكلاهوما، تزوّج من كوبيّة اسمها غراثياپلينا (ببال مَن في كوبا يخطر أن يسمي ابنته *غراثياپلينا* [نعمة تامة]!)، ماتت وهي تضع الطفل الذي أصبح، حين كبر، مساعد مأمور الشرطة. اسم مساعد مأمور الشرطة هذا كان كارلوس، وليس كارل، كما كانوا يتعمدون تسميته. كارلوس، على اسم جده لأمّه، الكوبيّ أيضاً. في تلك الرواية، يعمل الجميع، باستثناء كارلوس وأبيه، وهو صاحب مزرعة للجوز، وباستثناء الكاثوليكيين المتعصبين المنتمين إلى إخوانية (كو كلوس كلان)[75]، في صناعة الكحول؛ أمّا النساء فيمارسن البغاء، أمّا أكثرهم جشعاً، فمهنتهم سرقة البنوك. لكنّهم كلّهم، ومن ضمنهم، بالطبع، متعصبو الكلان، المتدينون جداً، بارعون في استخدام المسدس. رواية لطيفة، أبطالها ظريفون ومختلّو العقل، فهم، حين

74- **Elmore Leonard** (1925-2013). روائي أمريكي ألّف في أدب الجريمة والإثارة.

75- **Ku Klux Klan** مجموعة من المتدينين الأمريكان المتطرفين، الذين يؤمنون بتفوق العنصر الأبيض ويلجأون إلى العنف والإرهاب مع خصومهم.

يصيبهم الخوف، يعترفون بأنّهم «يخرؤون على أنفسهم»، تماماً كما هي حالها منذ أسابيع عدّة.

ربّما ألقت لوريتا فتزبيرغ، في رحلتها المتخبطة، عصا التسيار في مدينة (نورمان) المقرفة، التي تقع على بعد أربعين ميلاً من عاصمة الولاية، أوكلاهوما سيتي، التي لا بدّ أن تكون، قياساً على حالة المقاطعة، مقرفة أيضاً، مدفوعة بتلك القراءة. فأيّ نوع من الناس يسكنون في ذلك المكان، عدا الطلبة وأساتذة الجامعة، المضطرين إلى أن يسكنوها بحكم المنح الدراسية والرواتب؟

عند السادسة عصراً، أحسّت لوريتا بالجوع: فباستثناء الإسبريسو، لم تأكل شيئاً منذ أن غادرت الموتيل الذي أمضت فيه الليلة البارحة. لذلك اختارت، بعد نظرة سريعة إلى قائمة الأطباق الموجزة، طبق الفوفيليه مع البطاطس المقليّة وسَلَطة الخضار وعصير البرتقال الطبيعي. فإن كان من جيد في تلك البقاع الشاسعة، التي لا يمكن أن يقال بأنّ الربّ قد تخلّى عنها، من كثرة ما فيها من كنائس بروتستانتية، فهو لحم أغنامها. حتّى برونو، وهو من آكلي اللحوم الوطنيّة المتعصبين، يعترف بأنّه يميل إلى اللحم الأرجنتيني، الذي كان يشتريه، قبل صدور قانون منع استيراد اللحوم من أمريكا الجنوبيّة، من قصابة مختصّة باللحوم الأرجنتينيّة والبرازيليّة في (بروكلين).

في قائمة الأطباق، وجدت لوريتا مفتاحَ الدخول إلى شبكة الإنترنت، فأدخلته في حاسوبها المحمول. ولما كانت تستخدم هاتفاً مسبق الدفع، فقد كان مرّ يومان من دون أن تجري أيّ اتصال، وشعرت أنّها ليست محتاجة للاتصال بأحد، بل لا تريد الاتصال بأحد. لم تكن، في الحقيقة، تعرف ماذا تحتاج وماذا تريد، على الرغم من هاجس قوي يلفّها بخصوص ذلك. لكنّها ستستسلم، في النهاية، وترفع يديها عالياً، وهي ميتة من الخوف. أم إنّها ستطلق النار من المسدسين؟

منذ أن خرجت من *ذي سي بريز فارم*، يوم مات رينغو، ثمّ أجرت تلك المكالمة الشهيرة مع ابنتها، وفتحت قلبها لـ مس ميلر، لم تدخل، إلّا مرتين، إلى الفضاءات التي يمكن أن تقربها من الشخص الوحيد الذي كان يربطها،

في تلك اللحظات، إلى العالم: ابنتها آديلا. وبينما كانت تبحر عبر الفيسبوك، علمت، كما كانت توقعت في حينها، بأنّ آديلا مرّت بالمزرعة ثمّ عادت إلى (هياليه) القذرة، وهي تحمل نحوها، بكل تأكيد، كراهية مستحقّة مضاعفة. بعد عدة أيام، وحين كانت في أحد فنادق كنساس سيتي، حيث أمضت ليلتين، دخلت على شبكة الإنترنت. لم تستطع أن تقاوم الدخول إلى صفحة كلارا وإرفينغ وداريّو وهوراثيو وماركوس. حينئذٍ ساورها شعور بأنّها تطلّ على ثقب فضائي أسود، تعرف بوجوده، لكنّها لا تعرف دواخله، تشخّص عن بعدٍ مَن به من الأشخاص، لكنّها لا تقدر على تحديد ملامحهم.

استطاعت، بعد أن أبانت عن فضولها وأشبعته، أن ترى ملامح شيء من المصير الذي حدّده، في ستة وعشرين عاماً، أشخاصٌ صاحبتهم في شبابها، وعايشتهم، ثمّ تخلّت عنهم نهائياً. لم يفاجئ لوريتا أن تجد داريّو، الأصلع الممتلئ، وقد بات جراحَ أعصابٍ ناجحاً، ولا أن يبدو داعياً شرساً إلى الاستقلال لكاتالونيا: فمثله مثل الكثيرين من الكوبيين الذين لم يفتحوا فمهم حين كانوا في كوبا، حتّى إذا خرجوا منها باتوا ببغاوات، بل لقد أعادوا كتابة سيرهم الذاتية ليشحنوها ببطولات مزعومة وانشقاقات موهومة، بينما كانوا في كوبا لا يجرأون حتّى على التنفس. فرحت، بالمقابل، أن علمت بأنّ إرفينغ وجويل ما زالا يقيمان في مدريد، تلك المدينة التي فتنتها وأحبّتها حتّى تصادفت مع إرفينغ وبدأت تشعر بالخطر يتهدد كيانها. ولاحظت من كتابات إرفينغ أنّ لسانه ما زال لاذعاً، وأنّه بات ناشطاً رقمياً ينشر عبارات ذكيّة أو ظريفة، ويعلّق صورا جديدة وقديمة...

لكنّ تصوّر هوراثيو، مواطناً من بويرتوريكو، متزوجاً، وأباً لابنتين توأمتين، لم يكن بتلك السهولة. لاحظت أنّه انجرّ، في العديد من منشوراته التي رفعها في الأشهر الأخيرة، إلى معركة حامية (عقيمة، في رأيها) مع مواطنيه، من داخل الجزيرة وخارجها، ممّن انتقدوا الرئيس أوباما على زيارته إلى هاڤانا: فمنهم مَن عدّه دخيلاً، ومنهم من رآه خائناً، أمّا هوراثيو فقد وصف هؤلاء جميعاً بأنّهم مرضى الكراهية، وبأنّهم أسوأ من يمثّل الروح الوطنية. مع ذلك، فقد وجدت في قراءة ما يكتبه ما حفّزها ورفع من معنوياتها: فهوراثيو ما زال هوراثيو، ساذجٌ كعهده. لأنّه يطمح إلى أن يكون

أبناء وطنه أشخاصاً طبيعيين تقريباً؟ وكيف يظنّ أنّ المصالحة الوطنيّة ممكنة بعد كلّ ما تراشق به الطرفان من الشتائم، وكلّ ما تكدّس وترسّخ بينهما من كراهية؟ يا له من مسكين، فكّرت، وحدّقت في صورة الخلاسي الوسيم، الذي ما عاد وسيماً جداً (بدا على هوراثيو التقدّم في السنّ أكثر مما بدا على داريو، وعلى إرفينغ، ولكن بقدر أقلّ ممّا بدا على جويل)، وقارنتها بصورة آديلا ثمّ بصورة التوأمتين، حتّى ما كان في إمكانها أن تنفي أنّهما أختا آديلا غير الشقيقتين (أو أن تنفي أن تكون آديلا أختهما): اللهمّ إلّا إذا كانوا جميعهم مستنسخين.

ولم تتفاجأ لوريتا كثيراً بأن تكوّن كلارا وبرناردو ثنائياً سعيداً، مؤمناً بالربّ، متشبثا بالسكن في بيت (فونتانار)، حيث ألقيا بمرساتهما كما روبنسون كروزو في جزيرته (الحلزون الذي طالما ذكرته كلارا). إنّها تعلم بأنّ إليسا لاحظت انجذاب كلارا نحو برناردو منذ أن انضمّ إلى الأخويّة... لكنّها بادرت إلى اصطياده. علمت أنّ برناردو يعاني من مرضٍ لم تعرف ماهيته، لكنّها خمّنت خطورته. أمّا ما فاجأها حقاً فهو أن يتزوّج رمسيس من فابيولا ويعيشا في فرنسا، حيث التقيا وتحابّا، بعد سنوات من الفراق. يا لهذه الحياة كم تلفّ وكم تدور! ولكن، لماذا لا يشير أيّ من هؤلاء إلى فابيو وليوبا؟ هل ابتعدا عن بقيّة المجموعة بسبب قناعاتهما السياسيّة؟ وهكذا جرفها حنينٌ طاغٍ، وأخذها لتطوف في صورهم (كلارا وداريّو وإرفينغ وجويل وهوراثيو) في تولوز، حين التقوا بمناسبة ولادة ابن رمسيس وفابيولا، وفي باريس ومدريد وبرشلونة و آكس أون بروفانس. وتنقلت من مكان إلى مكان حتى وصلت إلى تعليقٍ كشف لها عن سبب غياب فابيو ليوبا على الشبكة: فقد ماتا في حادث في بوينوس آيريس قبل أكثر من عشرين سنة. يا إلهي، تمتمت.

فما أكثر ما تجهل عن حياة أناسٍ كانوا قريبين منها! وما أكثر ما تجهل عن موتهم! فكيف تتشكّل الحياة؟ وكيف تتقرّر المصائر؟ كم بقي من ذكرى كائنات شاركتهم كلّ شيء في حياة أخرى؟ وكم طوى النسيان آخرين؟ كم بقي من لحظات السعادة والخوف والأمل والخيبة ومشاعر الحب والخيانة والإخلاص والأسرار والجوع والشبع؟ وكيف استطاعت أن تظلّ بعيدة،

كلّ تلك السنين، عن ذلك العالم الذي ظلّ مغلقاً على اهتماماتها الكبرى والصغرى؟ وماذا فعلت بحياتها وحياة هؤلاء الآخرين المقربين؟ هل تراهم يعرفون من هي لوريتا فتزبيرغ؟ تساءلت، وستظلّ تتساءل، طوال يومين، حين ضغطت، وهي في مطعم (نورمان) المقرفة، على الزر الذي أدخلها على صفحة كلارا.

في صدر الصفحة، رأت صورة برناردو: وجه شاحب نحيل مبتسم، وشعيرات مريضة تنط فوق رأسه، وهو يرفع كأساً من الرون. قرأت أنّه قد توفي في اليوم السابق، 25 نيسان 2016، وهو في السابعة والخمسين، بعد صراع مع سرطان الرئة. «كما أوصى، في داره في (فونتانار)، دون ألم، متصالحاً مع ربّه ومع الناس ومع نفسه، ومؤمناً بأنّنا غبارٌ في الريح، وبأنّنا سنصل، ذات يوم، ونحن مثقلون بالهزائم، إلى النصر النهائي المؤزّر»، كتبتْ كلارا، ثمّ شكرت الأصدقاء على دعمهم لها ولبرناردو طوال مرضه.

تناولت إليسا طعامها بشهيّة أقلّ من تلك التي توقعتها، مع أنّ شريحة اللحم كانت جيدة. لا شكّ أنّ شيئاً مّا زحزح داخلها عن موضعه، بينما كانت تبحر في عالم كان ذات يوم عالمها، لكنّه بدا لها مليئاً بالألغاز، بل غريباً، على الرغم من قربه منها والتصاقه بها.

في الجهة الأخرى من لوح الزجاج، كان المساء يحلّ على (نورمان)، تلك المدينة التي لا تفلح حتّى شمس الغروب اللطيفة في تجميل صورتها، فلم تجد خياراً آخر غير أن تسأل نفسها عمّا تفعله هناك، وسط العدم، صفراً من كلّ شيء.

منذ أن استقرّ في الولايات المتحدة، قبل سنتين، أحسّ ماركوس، للمرّة الأولى، بقبضة فراق الجذور والبعد عن الأحبّة تضيّق الخناقَ عليه. إنّه يعرف نقاط ضعفه، لكنّه أخطأ تقدير صبره ومناعته في مواجهة إغراءات الحنين ومكائد الشوق.

وبينما كان يقرأ المنشور الذي رفعته أمّه في صفحتها على الفيسبوك قبل ساعة من الوقت، بدأ يتخيّلها وهى تقترب حثيثاً من عامها الستين، وتنغلق على نفسها أكثر فأكثر، وتضوي وتذوي. تخيّلها جالسة قبالة محرقة الجثث، حيث حُشر رفات برناردو. وتصوّر لحظة وضعوا الرماد، وكان ما يزال حاراً، في قارورة فخاريّة تشبه الأصص التي طالما اشتروها لزراعة البنفسجات النادرة، التي لم تنجح كلارا فى زراعتها، على الرغم من أنّ يدها مباركة وهي تزرع الپاپايا والبطاطس الحلوة والطماطم. وتصوّرها تخرج، وهي تحمل القارورة من المحرقة، ذلك الموضع الذي تصوّره مكاناً مسقفاً، تحته فرنٌ يشبه فرن الآجر الذي كان فخّارو (الكانو) يستعملونه. شعر ماركوس بالرغبة في البكاء، فهو يعجز عن الوصول إلى هناك إلا بمشاعره وخياله، في وقت تزداد آلام أمّه وهي تودّع رفيقها الذي بات رماداً. هل كان برناردو حبّها الكبير؟ تذكّر أن كلارا حدّثتهم عن مدى حبّها له، لكنّها لم تعترف قط باللحظة التي بدأت تميل إليه. فربّما حدث ذلك، فكّر ماركوس، قبل سنوات بعيدة، حين تعرّفا على بعضهما في الثانويّة، حين سدّت إليسا عليها الطريق و... حين دخل داريو في اللعبة. فهل حدث ذلك لأجل أن يجد هو ورمسيس مكاناً لهما في الوجود؟

وتصوّر الشاب أمّه وهي تدخل إلى وحشة المنزل في (فونتانار)، وتصوّرها وهي تُنزّل، وقد جلست على دكّة في إحدى الحدائق، نعيَ برناردو

ثمّ تغلق الحاسوب وتطفئ هاتفها المحمول وتنظر إلى السماء لترى طائرة محلّقة، تحمل، بكلّ تأكيد، عديداً من الكوبيين الباحثين عن حياة جديدة. تتابع الطائرة بنظرها حتّى تضيعَ الطائرة في البعد بحثاً عن عوالم وآفاق أخرى. وتصوّر كلارا الوحيدة، وحلزونها على ظهرها. وأحسّ ماركوس، في ليل (هياليه) الذي ما زال بارداً، أنّه بات، في تلك اللحظة، قريباً من المرأة الذي لم يحبّ امرأة مثلها، المرأة التي قسا عليها قبل أسابيع حين أجبرها على أن تبوح بسرّ لا يخصّ أحداً في الكون غيرها.

– الليلة البارحة سمعتكَ تتمتم بشيء... وأمضيتَ الليلة تتقلب على فراشك – قالت له آديلا صباح اليوم التالي، حين دخلت إلى المطبخ، ووجدت ماركوس يركّب جهاز القهوة.

– كنتُ أرغب في أن أصرخ –اعترف لها–. هل تتصورين؟ إن أخذتُ طائرة من هنا، فسأكون، بعد خمس وأربعين دقيقة، على مقربة كيلومترين من بيتي. أي أربع ساعات أو خمس ساعات، على الأكثر، مع حساب وقت الإجراءات والانتظار؟ وبعدها سأجد أمي هناك... لكنّها في نظري على مسافة ألف سنة ضوئيّة، في مجرة أخرى بعيدة لا أستطيع بلوغها. وأشعر بالذنب... إنّها ثمرة سخافاتي...

– لا ذنب لك في شيء. أخرج هذه الفكرة من رأسك.

– ليتني أستطيع... أتعلمين؟ عليها الآن أن تسعى هي إلى ذلك، فإن منحوها الفيزا الأمريكية، تستطيع أن تأتي لقضاء بعض الوقت معنا... أو تبقى معنا إلى الأبد، إن أرادت. وتنتهي من هذا الحلزون المقيت.

– أيّ حلزون؟

– حلزونها – قال ماركوس، وأومأ بيده: لا تقلقي.

وبينما كانت تصبّ اللبن اليوناني *اللايت* في صحنها، مدعوماً بالحبوب والفواكه؛ وبينما بدأت رائحة القهوة المنعشة تضوع، أدركت آديلا كم تحسد صديقها وخطيبها على أنّه يتألّم، بل على مشاعر الذنب التي تعصف به، مشاعر نابعة من الحب، ومنه هو، بالذنب الذي لم ينشأ عن الظروف، بل عن قراراته أيضاً. حبّ فيّاض قاهر يربطه بأمّ تكاد تكون أسطوريّة، مقدّسة، كما

يقول الكوبيون، ويربطه، في الوقت نفسه، بعالم من العلاقات الحقيقيّة، مع ناس حقيقيين وذكريات حقيقيّة. أمّا هي، فليس في مقدورها أن تمتلك تلك المشاعر، وبالطريقة نفسها، لأنّها كانت ستتلاشى تماماً، هذا إذا افترضنا وجود مثلها مع أمّ كأمّها. أمّا ما بقي حياً من العلاقة مع لوريتا فتزبيرغ فلا يمثّل غير جمع من اكتشافات أليمة وتساؤلات جارحة، وكلّها قاتمة، ومليئة بنقاط غامضة وفراغات لا يمكن ملؤها، وبمعلومات تخصّ سلوك امرأة غامضة اسمها إليسا كورّيا، تعيش حالة من الهروب، حتى باتت لا تعرفها إلّا قليلاً. خبرة اكتسبتها من كذبة أكبر ومن عملياتٍ لا تعدّ ولا تحصى من النصب والكذب والخداع.

قبل أسبوعين، بعد محاولته الفاشلة للعثور عليها في مزرعة (تاكوما)، وبعد المحادثة التي أجراها مع برونو فتزبيرغ، والدها الشرعي والعاطفي، عاد ماركوس إلى (هياليه)، وواجهها بدليل بدا قاطعاً: العم هوراثيو، هوراثيو فوركيه، هو أبوها، بلا شك، على الرغم من أنّ هوراثيو كرّر على مسامع ماركوس أنّه لا يمكن أن يكون أباها، إلا على افتراض وقوع كارثة صناعيّة (واقي ذكري سيئ الصناعة) أو معجزة كبرى من معجزات الطبيعة، عصيّة على الشرح. فهل هذا ممكن؟ وما الممكنُ أيضاً في حقيقة حياتها أو في كذبها؟

رفضت آديلا، في موقف أقرّت ببعده عن المنطق، اقتراح ماركوس بالسفر إلى سان خوان للقاء والدها البيولوجي المفترض. وذكرته، دعماً لحجتها وقرارها، بأن في قلب هوراثيو، بحسب كلام ماركوس نفسه، من الارتياب قدر ما في قلبها هي منه، وأنّه ينفي مسؤوليته عن مغامرات أمّها. أخبرته آديلا، أيضاً، بأنّ ذلك اللقاء يثير خوفها، وبأنّها لن توافق عليه إلّا إذا شعرت بأنّ ظروفها تسمح لها بذلك. إنّ مبعث خوفها، قالت، ليست المشاعر المنطقية المتولدة عن المواجهة المباشرة مع الرجل الذي تشير الدلائل إلى أنّه هو من أنجبها. فما ذاك الرجل، في نظرها، إلّا رجل لا تشعر نحوه بأيّة عاطفة (بل إنّ ماركوس، إذ يدعوه «عمّي»، كان أقرب إليه منها)، فإن تبيّن أنّه أبوها حقاً، فربّما لن تجد من رابطة غير الدم تربطها به. إنّ مبعث صراعها مع نفسها هو أنّ هوراثيو يؤدي دوراً في الرواية التي يُفترض

أنّها تروي قصّة حياتها، حياتها التي سُرقت منها. ولمّا كانت تلك السرقة قد خطط لها لتغطّي عليها وتتجاوزها، فقد ولّدت اختلالات شوّشت على الحياة الأخرى التي لفّقوها لها، والتي هي، في نهاية الأمر، حياتها.

– أجرى هوراثيو، قبل أن يذهب إلى سان خوان، اختبار الحمض النووي. وهو ينتظر النتائج –قال لها ماركوس–. لم يشأ أن ينتظر عودتكِ... ترك لي مع شقيقته وصل استلام التقرير... وقال لي أن أعطيك إيّاه، فربّما يهمّك أن تعرفي ذلك...

– لا أنوي إجراء أيّ اختبار – قالت آديلا، وفضّل ماركوس ألّا يخبرها بأنّ هوراثيو ترك في المختبر شعرة من شعرات رأسها مع العينة التي أخذوها منه.

– وماذا ستخسرين؟

– وماذا سأكسب؟

– ستكسبين الحقيقة، حبيبتي. فمع هذه النزر القليل من الحقيقة...

خفّ إرفينغ لاستقبال هوراثيو في المطار. أخبره بأنّه سيحملُ له ملفعاً صوفياً وسترة ثقيلة، فقد لا تكون ملابسه كافية لدرء البرد عنه. وذكّره بأنّ كنبة الصالون بانتظاره. طال الشتاءُ على مدريد، وكان حقّها أن تستمتع بأجواء الربيع. ما أكثر ما أضيقُ بالبرد اللعين هذا! يقول إرفينغ.

منذ أن التقيا في هاڤانا، من أربعة أشهر مضت، حين أبلغه هوراثيو بأنّه سيشارك في مؤتمر علمي تنظمه جامعة الملك خوان كارلوس، انتظره إرفينغ وشجعه على القدوم قبل موعد المؤتمر ليستمتعا بوقت أطول في مدريد، قبل أن ينتقل هوراثيو إلى (كامپوس دي أرانخويث) حيث ينظّم المؤتمر. وتنفيذا لرغبة إرفينغ تلك، قرر الهبوط في مطار مدريد يوم 26 نيسان 2016، أي قبل يومين من بداية أعمال مؤتمر أرانخويث، محتجّا بأنّ السفر الطويل يتعبه. واستقبله إرفينغ في المطار وهو يحمل له معطفاً وبرنيطة وملفعاً. وبعد أن عانقه، أبلغه بوفاة برناردو في اليوم السابق.

– مسكين برناردو.

– ومسكينة كلارا. باتت وحيدة.

– سنتصل بها.

– لا. لا تريد أن يتصل بها أحد.

كان هوراثيو يكره الرحلات الطويلة، فهو لا يستطيع أثناءها النوم ولو دقيقة واحدة. وقعت في يده، على متن الطائرة، جريدتان اسبانيتان وجد فيهما ما استرعى انتباهه. قرأ في إحداهما مقالا يتحدث عمّا وصفه بالزيارة «التاريخيّة» للرئيس أوباما إلى كوبا، وفيه يطرح الكاتب التساؤل تلو التساؤل (وكلّها تساؤلات مقلقة) حول مستقبل العلاقات بين البلدين، ويخلص إلى

أنّ أوباما اختار هذا الطريق لكي يمهّد الطريق لخليفته هيلاري كلينتون، إن هي فازت في الانتخابات، لإنهاء الحصار الاقتصادي الأزلي المفروض على الجزيرة.

كان هوراثيو يتابع ذلك الحدث منذ بدايته يوم 20 من نيسان. أحسّ بالارتياح إذ وجد صحفياً إسبانياً يتبنى موقفاً موضوعياً ومتعقلاً قريباً من موقفه: لقد سلك أوباما طريقاً لا يتمنّى الكثيرون، ولأسباب مختلفة، أن يسلكه، بل لقد عمل الكثيرون على عرقلته أو غلقه. تكلّم عن أحقاد متجذرة، وعن مصالح تتعرّض للتهديد، وعن عصبيّاتٍ سياسيّة تتفجّر داخل الجزيرة وخارجها. على الرغم من أنّ كاتب المقال لم يتطرّق إلى تأثير تلك الزيارة على الآخرين، الذين يفكرون بطريقة تختلف عن طريقة تفكير الراديكاليين والمتشدقين، من هذا الطرف من مضيق فلوريدا أو من ذاك.

لن ينسى هوراثيو منتصف نهار 14 كانون الأوّل 2014 التاريخي ذاك، حين سمعَ أوّل إعلان عمّا سيحدث اعتباراً من تلك اللحظة. فهم هوراثيو ساعتها، وقد استبدت به الدهشة، كلّ كلمة قيلت، لكنّ تفكيره المبنيّ على المنطق بدا غير قادر على استيعاب المضمون والأسباب والتأثيرات. لأنّ ما استطاع هضمه دفع بذاكرته العاطفية إلى حافة الدموع. هل كان ذلك ممكناً؟ تساءل.

كانت ماريسا قد نبّهته، صباح ذلك اليوم، إلى أنّ البيت الأبيض سيعلن عن خبرٍ مهم يتصل بكوبا. في الجامعة، التقى هوراثيو بعدد من الأساتذة، وبينهم كوبيون، وراحوا يتطلعون إلى شاشة التلفزيون وينتظرون ما ستبثه قناة الـ CNN من أخبار. عند الثانية عشرة بالضبط، كان هوراثيو وزملاؤه والعالم أجمعُ على موعدٍ مع خبر فاق بوقعه كلّ التوقعات، إذ أعلن عن أنّ حكومتي الولايات المتحدة الأمريكية وكوبا ستذهبان إلى ما هو أبعد من تبادل الجواسيس المعتقلين لدى البلدين، وستبدآن مباحثات لإعادة العلاقات الدبلوماسيّة المقطوعة منذ 1960. هل كان ذلك ممكناً؟

لم يكن هوراثيو قد استوعب بعدُ أبعادَ القرار السياسي، حين وصلته صورة قبرٍ متواضع دفن فيه أبوه، ريناتو فوركيه، في مقبرة كئيبة في (تامپا).

وسرعان ما عادت به ذاكرته إلى مقبرة هاڤانا الفخمة، ساعة دفنوا، في الضريح العائلي المتواضع، التابوت البسيط، المبطّن بقماش رمادي، الذي كان يضمّ رفات أمّه. إنّ قصّة علاقة الحب بين هذين الشخصين، التي قتلها التاريخ، هي أيضاً جزءٌ من قصّة حياته قصّة الكثير من المخاوف وحالات التخفّي التي عاشها ونما بينها. لقد بدا له كلّ ذلك الألم نتيجة مأساويّة، بل قاتلة تقريباً، لخلافٍ يحاول الآن تسويته وبطريقة لم يتصورها: بالحديث وربّما بالتنازل، من طرف ومن آخر. هل كان لأحدهما أن يتنازل؟ وهل كان الوالدان، وقتها، سيستطيعان أن يعيشا مع أولادهما ويستطيع الأولاد أن يعترفوا بأبويهم؟ لن تتكرر تجربته الشخصية، تجربة طفل يتيم لأبٍ حيّ، وتجربة أرملة لزوجٍ يتنفس ويتكلّم، وتجربة أبٍ أتعبه الانتظار والانكسار؟ كم من التجارب المؤسفة كتجاربه حدثت، تجارب خلقتها السياسة ودعمها التعصّب؟ هل التوافق بين الأشخاص وبين البلدان ممكن؟ قلب صفحة؟ فتح الطريق أمام الاحترام، والقضاء على التعالي والعجرفة، وتجاوز الأحقاد؟ وشعر هوراثيو بالتشاؤم يغمره.

في عمادة الكليّة، ثمّ في بيت أهل زوجته مساءً، بدأ أستاذ الفيزياء هوراثيو يرى أنّ قبوله وسواه من مواطنيه بالمخرج السياسي هو السبيل لمداواة الجراح والسير إلى الأمام. ورأى آخرون في ذلك ما يشبه رشّ الملح على الجرح لينتج ألمٌ يصعب تسكينه، ألم سيظهر في ذكريات مُهينة، مريرة، تعجز، لا عن النسيان، بل عن الصفح والخلاص والتوافق البنّاء. وكما يحدث في أيّ ظرف خطير، فقد انقسم الكوبيون، لا يهمّ كم منهم كان في هذا الطرف وكم في الطرف الآخر: المهم أنّهم انقسموا وتبادلوا التهم والأوصاف وتباصقوا مشاعر الكراهية وتوعّد أحدهم الآخر. فإن لم تكن معي فأنت ضدّي. وهكذا دخلت عناصرُ أخرى لتزيد من تشاؤمه. من سيتنازل؟ وهكذا، وكما كان متوقعاً، رجحت كفة من هم أعلى صوتاً وأكثر دعوة إلى عدم التنازل.

فوجئ هوراثيو بأنّ حماه الكوبي اللطيف دائماً، لاجئ القوارب، فيليپه مارتينث، يصف الرئيس الأمريكي بالأسود القذر والشيوعي المستعدّ للتحالف مع الدكتاتوريّة الشرسة. لكنّه ارتاح لسماع ابنة ذلك الرجل،

الپويرتوريكية، زوجة لاجئ القوارب الآخر، هوراثيو فوركيه، وحفيدة مزارع التبغ، الذي صافح، في وقتها، خوسيه مارتي، الذي كان يقود حرباً بلا كراهية، ويطمح إلى بناء وطن يضمّ الجميع، تقول لأبيها إنّه يتصرّف تصرّف ساكني الكهوف والعنصريين والمتطرفين، مثله مثل لاجئين كوبيين آخرين يرون رأيه، ويقولون قولَ المتطرفين الذين ما انفكوا يطلقون، من داخل كوبا، بالتصريحات الناريّة ويصرخون بأن لا تفاوض على المبادئ ولا تسامح عن الإهانات. ثمّ ختمت كلامها بأن ذكرتْ أباها بأنّها متزوجة من أسود وبأنّ حفيداته سوداوات.

– أفكر أحياناً بأنّنا بلدٌ خاص. وأفكر أحياناً أخرى بأنّنا شعبٌ ملعون –قال لها هوراثيو تلك الليلة، وقد أتعبته مشاعر النهار–. لطالما سمعنا بكوبيين انتقدوا خوسيه ماريّا هيريديا الذي مات وحيداً وهو يشتاق إلى العودة إلى كوبا لتكتحل عيناه برؤية أمّه. وطعن بعض الكوبيين في كارلوس مانويل دي ثيسپيدِس وكادوا يحكمون عليه بالموت. ومن الكوبيين من انتقد مارتي لأنّه قاد ونادى بفكرة الأمّة المتصالحة المتوافقة، وانظر كيف انتهى قتيلاً في مناوشة تافهة، بينما كان الوطن، الذي حلم ببنائه، في أمسّ الحاجة إليه. وكوبيّون خانوا چيباس، والذين... ومطالبون بالاستقلال ومنادون بالحكم الذاتي والأقاليميّة، ومؤيدون للأمريكان، ومناهضون للاستعمار، وشيوعيون ومناهضون للشيوعيّة... وكلّهم كوبيون. يكره بعضُهم بعضاً، منذ البداية إلى الأبد... ولطالما قال إرفينغ: في كوبا لا يهمّ أن تشرق الشمس، ولا أن يكون الجوّ حاراً ولا أن يكون النهارُ رائعاً. ثم يأتي من يردّ عليه ويقول: ألا يمكن أن يكون ذلك عقاباً تاريخياً؟

أمّا هذه المرّة، فقد شعر هوراثيو بأنّه لا يستطيع السكوت. فقد سكت كثيراً، سكت داخل كوبا وسكت خارجها. وها هو في السادسة والخمسين، ويريد أن ينظر إلى نفسه في المرآة فلا يخجل من نفسه. منذ الأيام الأخيرة من عام 2014، استخدم هوراثيو الشبكة العنكبوتية للتصريح بآرائه حول المحادثات بين كوبا والولايات المتحدة، ثمّ للإعراب عن فرحته بعودة العلاقات الدبلوماسيّة بين البلدين، ثمّ للتعبير عن آماله التي أنعشتها زيارة أوباما إلى كوبا، حيث ألقى خطاباً مؤثراً، أشار فيه إلى مارتي، وقدّم للكوبيين

وردة بيضاء، وأقرّ بأنّ مشاكل كوبا تخصّ كوبا والكوبيين وحدهم. وجاءت الردود على هوراثيو، تنعته، كما هو متوقع، بأوصاف تجمع بين الشيوعي والعميل؛ بين المندس من رجال كاسترو وعميل المخابرات المركزية الأمريكيّة؛ بين الساذج والسافل. شتائم وصلت إلى أمّه، وتهديدات من مجهولين، معروفين، يتوعدون بقتل ناكر الجميل الذي ما كان له أن يبلغ درجة الأستاذيّة في جامعة أمريكية لولا صفة اللاجيء منزوع الجنسيّة. لكنّه لم يسكت. لا يستطيع أن يسكت. لن يسكت هذه المرّة.

لم يعلّق، إلّا قليلاً، على الخبر الذي أبلغه به إرفينغ في مدريد. قال له إنّه يحتاج أن يفطر، وأن يتناول قهوة حقيقيّة، بعد الساعات الطويلة التي أمضاها من دون أكل (إنّه لا يطيق الطعام ولا القهوة التي تقدم في الطائرة). في كافتريا المطار، طلب هوراثيو من إرفينغ أن يوافيه بتفاصيل وفاة برناردو، فردّ عليه إرفينغ بانه لا يعرف أكثر ممّا نشرته كلارا على صفحتها: مات برناردو في سلام. مؤمناً بالنصر النهائي. ابتسم إرفينغ وهوراثيو وكررا أسفهما.

- يا لكلارا المسكينة!

- كم هو مسكين برناردو! النصر النهائي... كان يؤمن بانتصارات في هذا العالم البائس - قال هوراثيو.

- هل أطلب لك، مع القهوة، شيئاً من التفاؤل؟

- هذا شيء ما عادوا يصنعونه في أيّ مكان.

في شقة (چويكا) الصغيرة، كان جويل بانتظارهما، وهو يستعد للخروج إلى عمله، الذي يبدأ في الرابعة عصراً حتّى الثانية عشرة ليلاً. لسبب مّا، خطر ببال جويل أن يعزّي هوراثيو بوفاة برناردو، وكأنّه قريبَ المتوفى المقرّب. سأل إرفينغ هوراثيو عن خططه، فطلب هذا أن يدخل إلى الحمام أولاً ليستحمّ. سينام، بعد الحمّام، لمدة ساعة، ثمّ سيخرجان لتناول عشاء خفيف، ثمّ سيعود لتناول حبّة دوائه، قبل أن يأوي إلى الفراش لينعم بنوم طويل. ولكي يتمكّن الضيف من الاستمتاع بالخصوصيّة والظروف المناسبة لراحته، فقد عرض عليه إرفينغ أن ينام على سريره. أمّا هو وجويل فسينامان على الكنبة التي كانت دائماً وثيرة مريحة.

عند الساعة الثامنة، كان الصديقان أوّل الداخلين إلى المطعم المتخصص بأطباق الرزّ، القريب من شقّة شارع (سانتا بريجيدا). أبلغهما الغارسون، وكان ما يزال يرتّب الطاولات، أنّ الوقت ما زال مبكراً، لأنّ الطباخ قد وصل للتو، وهذا يعني أن عليهما أن ينتظرا خمساً وأربعين دقيقة أخرى حتّى يكون طبق البائيّا الذي طلباه جاهزاً.

– ما من مشكلة –قال هوراثيو–. هاتِ لنا قليلاً من الجمبون وزجاجة من النبيذ، شرط أن يكون جيداً وألّا يتعدّى سعره ثلاثين يورو.

– ما تطلبه يكلّفك اثنين وثلاثين يورو، لكنّي سأعمل لكما خصماً وسآتيكما ببعض المقبلات على حساب المطعم – قال الغارسون، بنبرة لطيفة.

– هل أنتَ من الكناري؟ – سأله هوراثيو، بينما كان الرجل يرفع قائمة الأطباق.

– أنا كوبي مثلكما... من (پينار دل ريّو)... ألا يلاحظ ذلك على وجهي؟ أمّا اللكنة الكناريّة، فلأني عشتُ أربعة أعوام في (تَنَريفه)...

وضحك الثلاثة.

– وماذا كنتَ تعمل في كوبا؟

– ما أعمله هنا... غارسون.

شرب هوراثيو وإرفينغ نخب برناردو، ووجدا النبيذ فاخراً. صبّ هوراثيو لنفسه ثانية.

– هل رأيتَ خطيبة ماركوس؟ – سأل وكأنّه كان ينتظر لحظة الهدوء تلك.

ابتسم إرفينغ وهزّ رأسه بالإيجاب.

– أعرف إلامَ ترمي، كينتوس هوراتيوس... طبعاً، رأيتُها في الصور، مع ماركوس... لأنّي لم أذهب إلى ميامي. وربّما رأيتُها شخصياً. أنتَ تعرف، وقد حدّثتك عن ذلك قبل سنوات و... منذ أن ارتبطت آديلا بماركوس، وأنا أفكّر في ذلك.

- هل أنتَ متأكّد من أنّ آديلا هي البنت التي رأيتَها مع إليسا هنا في مدريد؟ وكم من الوقت مضى على ذلك؟

- ربّما... لماذا تسألني إن كنتُ رأيتُها؟

رفع هوراثيو كأسه وتناول جرعة كبيرة.

- هل من الممكن أن تكون آديلا ابنة إليسا، وأن تكون، لا أدري كيف، ابنتي أيضاً؟

- سيكون أمراً فظيعاً، أليس كذلك؟ - قال إرفينغ وهو يحاول تجنّب الردّ على سؤال هوراثيو المتلهّف لسماع الرد. بل إنّه ربّما قدّم وصوله إلى مدريد من أجل سماعه.

- أتظنّ أنّ لوريتا هي إليسا؟ -واصل هوراثيو الكلام، وهو يهزّ رأسه نافياً. أخرج هاتفه المحمول من جيبه. بحث عن صورة آديلا وراح يكبّرها، تلك الصورة التي كان ماركوس أرسلها له مع سؤال قصد منه، بلا شكّ، تضليله-. ماركوس يرى أنّها ابنتي. كنتُ معه، قبل أيام، في ميامي. لكنّها لم تكن في المدينة...

- نعم. لقد حكى لي عن ذلك.

- تكلمنا عن آديلا. قال إنّها تبحث عن أمّها و... ما يزعجني هو إحساسي بأنّ ماركوس يخفي عليّ أمراً. هو لا يقول شيئاً، لكنّي أراهن على أنّ الأمر له علاقة بوالدة آديلا، المدعوة لوريتا فيتزبريغ، التي هي، في رأيك، إليسا.

- في رأيي...؟ اسمع، أنا لا أعرف شيئاً عن أيّة لوريتا... أعرف أنّي رأيتُ إليسا... وكانت معها فتاة جميلة... قد تكون آديلا. آديلا وماركوس يعتقدان أنّ لوريتا هي إليسا، وإن لم يقولا ذلك صراحة... هذا على افتراض أنّ إليسا هي أمّ آديلا...

عاد هوراثيو يهزّ رأسه موافقاً ثمّ نافياً.

- وفي أيّة زبالة اختفت إليسا كلّ تلك السنين؟ لوريتا فتزبيرغ؟... ألا يبدو لك هذا جنوناً؟

وجاء دور إرفينغ هذه المرّة ليهزّ رأسه بالموافقة.

– ربّما أقلّ ممّا يبدو لك...

– طبعاً، لأنّ إليسا حدّثتك، قبل أن ترحل، بشيء لم تخبرني به قط، أيّها النذل. تكلّم. ألم تقل لك إليسا إنّها حملت منّي؟

– أنتَ مخطئ، أيّها العبقري. لم تكن إليسا، بل برناردو، حين كنّا في كوبا نهاية العام.

ركّز هوراثيو عينيه على محاوره.

– برناردو؟ لقد تكلمتُ كثيراً معه... وقد أكّد لي إنّ إليسا لم تنم مع والتر. ماذا قال لك؟

– ما تقوله عن والتر، أعرفه. أمّا البقيّة فلا ستطيع أن أحكيه لك.

– لا تحرق أعصابي، إرفينغ!

– لا أقدر...

– اسمع، برناردو مات، وآديلا حيّة ترزق... وإليسا أيضاً في ما يبدو. وإذا بدأتَ...

– كنتُ أنوي أن أخبرك... لكنّي أردتُ أن أعذّبك قليلاً... كنتُ أريد أن أخبرك، لكنّ الأمور يجب أن تتمّ يجب أن تتمّ هكذا، face to face، لذلك طلبتُ منكَ أن تقدّم رحلتك وطلبتُ من جويل أن يبّدل ورديته لكي نستطيع أنا وأنتَ...

– أيّ طينةٍ من البشر أنت!

– لا تتصوّر كم أشعر بالضيق!

– أحفظُ كلامك عن ظهر قلب. هيّا. تكلّم.

ابتسم إرفينغ. شرب ما في كأسه، ثمّ عاد يصبّ أخرى.

– ستضطر أن تطلب زجاجة أخرى، أم سنكتفي بالرز –قال، وهو ينظر إلى الزجاجة–. وهكذا توفر على نفسك الحبوب المنوّمة.

– هيّا، يا رجل. لا تمطمط أكثر –دفعه هوراثيو–. وتذكّر أنّي لستُ داريّو...

- داريّو تغيّر كثيراً، لعلمك.

- هيّا. تكلّم، أيّها الفتى!

أطلق إرفينغ زفرة مسرحيّة، كان، هو وإليسا، بارعين فيها.

- برناردو كان مع والتر في سطح البناية ليلة الحادثة...

فتح هوراثيو فمه. أحسّ وكأنه ضرب بمطرقة على قفاه.

- برناردو هو من قتل والتر؟

- أنا لم أقل ذلك! اسمعني... برناردو اكتشف أنّ بين إليسا ووالتر ما أثار استغرابه. شيء له علاقة بوالد إليسا: المخدرات التي كان يدخلها والتر، وموضوع أنّهم كانوا يراقبونه، ولهفته للخروج من كوبا. لقد أخبرت إليسا برناردو بذلك، بعد أن كان والتر على وشك أن يضربها. وذهب برناردو ليقابل والتر. كلّنا يعلم أنّ برناردو كان يشرب كثيراً، لكنّنا نعلم أنّه كان إنساناً طيباً...

- أحسن منّي، بالتأكيد -قال هوراثيو-. أقسم لكَ أنّ إليسا هي من حرّضته... لكنّي أعرف هذا الجزء من القصّة. برناردو نفسه حكاه لي... استمر، إرفينغ، بربّك... هيّا... ماذا جرى له مع والتر؟

- ذهب برناردو ليقابله وأنذره إن هو عاد إلى المساس بإليسا، أو هددها ثانية، بل إن اقترب منها... فسيقتله. وأراه السكين التي يحملها ملفوفة في خرقة.

- وهذا أيضاً أعرفه، إرفينغ! وإن لم يحك لي عن موضوع السكين... قال إنّه كان يحمل سيخاً من الحديد... اختصر، اختصر...

- لا تستعجل... هو قال لي إنّه أخبرك بكلّ ذلك لكي تشعر بالذنب... ما لم يقله لك هو أنّه علم أنّ والتر خطط للقاء إليسا ثانية... عقب يومين من الشجار الذي وقع بيننا، أنا ووالتر. خطط للقائها في تلك البناية...

- ولماذا في تلك البناية؟

- ربّما لقربها من بيت إليسا، ووالتر لديه مفاتيح الباب التحتاني ومفتاح قفل السطح. المشكلة هي أنّه تواعد مع إليسا هناك، وذهب برناردو، في الوقت نفسه، إلى هناك.

- ويحك، إرفينغ! ومن يجرؤ على لقاء مجنون في سطح البناية؟ في سطح بناية لا يسكن فيها؟...

- لا بدّ أنّ والتر كلّم إليسا عن موضوع مّا لكي يجبرها على الذهاب للقائه، لأنّها لم تكن، في ما يبدو، راغبة في لقائه بعد ما حصل بينهما، وبعد الفصل الذي جرى بيننا، أنا وهو... يبدو أنّه كلمها عن أمرٍ يتعلق بأبيها.

- وهل كانت هي تعلم بأنّ برناردو هدّد والتر؟ هل كانت تعلم بوجود سيخ الحديد أو السكين؟

- أظنّ ذلك...

- فلماذا أخبرتْ برناردو، إذن، بأنّها ذاهبة للقاء والتر؟ ماذا جرى، إرفينغ؟

- هي لم تخبره بذلك. لكنّ برناردو سمعها تتكلّم بالهاتف مع والتر... فلحقها، وحين دخل إلى السطح، رأى إليسا تصرخ في وجه والتر. تطلب منه أن يتركها في سلام، أن يختفي وألّا يضايقها أكثر... كان والتر يريد من أبيها أن يساعده في الخروج من كوبا... كان والتر نصف سكران، أو سكران تماماً. و...

- وماذا؟

- حين رأت إليسا برناردو صرخت به وطلبت منه أن ينصرف، فالموضوع يخصها هي ووالتر. طلبت منه ألّا يتدخل... يقول برناردو إنّ والتر لم يلبث أن قفز. هكذا، من دون أن يتفوه بكلمة، قفز.

راح هوراثيو ينظر إلى إرفينغ. ترك الكأسَ على الطاولة فكأنّه تكهرب

- انتحر؟ هكذا؟ أمامهما؟

- نعم... ألقى بنفسه... هذا ما قاله برناردو. قال إنّ والتر قفز... وعندها خرج هو وإليسا من هناك. قال لي إنّهما لم يغلقا الباب ولا القفل. وحين وصلا إلى الشارع شاهدا ناساً وسمعاً صخباً، تصوّر... ركضا ودخلا إلى البيت، فما كانا قادرين على أن يخبرا أحداً بما شاهدا. فلو تكلما لحققوا معهما ووقعا في سين وجيم. كان الصمت الطريقة الوحيدة لحماية

نفسيهما... وهكذا صار كلّ منهما يمثّل حجة الغياب للآخر، والشاهد على براءته.

ظلّ هوراثيو، تحت وطأة المفاجأة والشكوك، مطرقاً، ينظر إلى إرفينغ، ويقلّب الأفكار والأسئلة.

– يا إلهي... ما أغرب هذا... كيف؟... رجل مثل والتر ينتحر؟ برناردو كان يحمي إليسا، ولكن، ألم يحدث شيء آخر؟

– لا أظنّ أنّ برناردو كان يكذب عليّ. برناردو كان يحتضر. أتظنّ أنّه أخفى عليّ شيئاً؟ هل رأى إليسا تدفع والتر، وكان ذلك سبب اختفائها بعد الحادث مباشرة؟ أم إنّه كان هو من دفع بوالتر وأراد أن يلفّق لي قصّة؟؟ ولماذا؟

رفع هوراثيو الكأس وشرب.

– هناك شيء غريب في كلّ ما قلت... بل أشياء...

– اللعنة، هوراثيو! وأيّ شيء أغرب من أن ترى رجلاً أمامك يلقي بنفسه من الطابق الثامن عشر وتسمع ارتطامه بالأرض؟

– ولكن إن كان اعتزم الانتحار، فلماذا ينتحر أمام إليسا، مع وصول برناردو العازم على قتله؟

– ربّما كان خطط لذلك، ولذلك أراد أن يقابل إليسا هناك، أليس كذلك؟ فإن جرت الأمور هكذا وألقى والتر بنفسه، ولم يدفعه أحد...، الأمور عندي واضحة جداً، فوالتر كان غارقاً حتى أذنيه، ولم يكن يستطيع الخروج من كوبا، كان نصف سكران، ويائساً، ربّما لأنّه لم يكن عنده كوكايين، ما أدراني أنا، وكان سافلاً وأنانياً إلى درجة أنّه أراد أن ينتحر أمام جمهور.

– لا، إرفينغ. أظنّ أنّ الأمر أسوأ من ذلك. إن كان هذا ما جرى، وأنا لستُ متأكداً إطلاقاً، فإنّ والتر أراد أن يجعل من إليسا وبرناردو شاهدين على ذلك المشهد الفظيع. ليشعرهما بالذنب. بل لكي يبدوا مذنبين و...

– نعم. هذا أقرب إلى تفكير والتر ماثيّاس... انظر، حين حكى لي برناردو كلّ هذا، بدأت تتضح لي بعض الأمور. ومنها رحيلُ إليسا. لأنّها

خافت. فلو أنّها خضعت للاستجواب كما استجوبوني، لما صمدت نصف ساعة، ولاعترفت بأنّها كانت مع والتر، وبأنّ برناردو كان هناك أيضاً، وأنّه هدده بقتله... فهمتُ أيضاً سببَ إفراط برناردو في الكحول، وهو ما أثّر في صحته وجعله يعيش في عذاب مقيم... كما فهمتُ سبب تديّنه وتردده على الكنيسة للصلاة والاعتراف. حين بدأ ذلك، لم أستطع أن أفهم كيف يؤمن رجل بذكاء برناردو بقصّة ابن الربّ الذي ولد بعد أن حملت به أمّه من أحد الملائكة. اسمع، هوراثيو، ما كان لبرناردو أن يفعل ذلك إلّا لذنبٍ عظيم اقترفه أو تأنيب ضمير كبير ساوره...

وافقه هوراثيو.

– هل سألت برناردو مباشرة إن كان دفع والتر؟

– لا... وكيف لي أن أسأله؟

– ولم تسأله إن كانت إليسا دفعته؟ أو إن كان يعتقد أنّها دفعته من دون أن تنتبه؟

– هو حكى لي... ما قصصتُه عليك.

– كان يحمي إليسا. على الرغم من كلّ شيء، كان يحميها. وفي حالة كهذه... كان سيحميها أيضاً، وإلى النهاية. ألا ترى ذلك؟

– بلى. بالطبع – قال إرفينغ.

– لماذا صعدت إليسا إلى السطح مع والتر؟ ماذا عساها قالت له لكي يرمي بنفسه من شاهق؟ ولماذا حكى لك برناردو هذه القصّة وهو موشك على الموت وما كان لأحدٍ أن يطلع على ما حدث؟... لقد حكى لك القصّة لكي تحكيها أنتَ، إرفينغ. ألا ترى ذلك.

– لم يطلب منّي أن أقصّها على أحد!

– لكنّه كان يعرف أنّك ستقصها! أم ظننتَ أنّك ستستطيع العيش وأنت تحمل هذا الخراء في داخلك؟

– اسمعني، إذن: لا أريد أن يعرف أحد بما حكيته لكَ، لا كلارا، ولا جويل... وخصوصاً آديلا، إن ثبت أنّها ابنة إليسا.

حضر الغارسون، وهو يحمل زجاجة نبيذ أخرى، وأبلغهما بأنّ الطبق المطلوب سيجهز في ظرف خمس دقائق، لأنّ الرفيق الطبّاخ كان عاملاً طليعياً في اتحاد الطبخ. نكتة طريفة، لم يستظرفها السامعان.

– ولماذا اخترتَ أن أعرف أنا – سأل هوراثيو.

– لأنّك طالما ظننتَ أنّ والتر مات مقتولاً... ولأنّ من جبل الخراء هذا لم يبق إلاّ إليسا التي تهيم على وجهها هناك، وابنة لها هي ابنتك... ولأنّ ما حكاه برناردو يفسّر الكثير. ولأنّ عليك أن تفعل شيئاً.

– لقد فعلتُ الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله. أجريتُ اختبار الـ أي دي أن، وسيستلم ماركوس نتيجته هذه الأيّام...

– وآديلا؟

– أنا أدّيت ما يتصل بي. أمّا البقية، فعلى آديلا أن تقرره بنفسها. إن كانت أمّها هي إليسا. عجباً، إرفينغ، فإن كانت أم آديلا واحدة من اللائي صاحبتُهنّ في كوبا، واحدة من اللائي كنّ متزوجات و...؟

– آآآي هوراثيو، بروح أمّك، لا تكن...، إنّها إليسا! –قال إرفينغ جازماً–. لماذا تنظر إليّ هكذا؟ إنّها ابنتك...

واصل هوراثيو التحديق في إرفينغ.

– تباً لك، إرفينغ!... كّل ما حكيتَه لي عن انتحار والتر...، لا أدري، لا أدري. أشمّ رائحة عفونة. شيء ما لا يقنعني... كلّ هذه الأسطوانة تدور في رأسي منذ... اسمعني، لا يهمّ إن كان والتر سقط من دفعة أم لا. ولكن... هل تعرف كم من الوقت ظلّ محلقاً في الهواء قبل أن يرتطم بالأرض؟

– وكيف لي أن أعرف، هوراثيو؟ وما الداعي إلى هذا السؤال؟

– لقد أجريتُ حساباتي. ذهبتُ إلى البناية وقستُها، على وجه التقريب... أربعون متراً. والتر كان نحيفاً، يزن ستين كيلوغراماً تقريباً، أي مئة وثلاثين رطلاً... اسمعني جيداً: إن كان قفز هو، ولم يدفعه أحد، فإنّ السرعة الأوليّة كانت، لنقل، صفراً، وهكذا لا نأخذ بالحسبان احتكاك الهواء... لمعرفة البقيّة نحتاج إلى معادلات تربيعيّة... لا تنظر إليّ هكذا. هذا سهل –قال

هوراثيو، وتناول السكين وبدأ يرسم بها خطوطاً على الشرشف. خطوطاً لا يفهمها غيره. واستنتج-: إذا كان ارتفاع البناء أربعين متراً، وكانت الجاذبيّة 9. 81 م/ ثانية، فإنّ الوقت اللازم هو ثانيتان وستة وثمانون سنتاً من الثانية...
-رسم خطوطاً أخرى ونظر إلى إرفينغ-: الحساب يعطيني ثمانية وعشرين متراً في الثانية، أي أنّه سقط بسرعة مئة كيلومتر في الساعة...

مسح إرفينغ، الذي نسي كلّ المعادلات التي درسها في درس الفيزياء، وجهه بيده.

- طلقة - همس.

- أقلّ من ثلاث ثوانٍ. ظلّ محلقاً في الهواء أقلّ من ثلاث ثوان... لطالما سألتُ نفسي، بغضّ النظر عن إن كان دُفع به أم أنّه ألقى بنفسه، إن كان والتر يرى، أثناء الثواني الثلاث التي كان فيها محلّقاً، كيف كان يقترب من الموت بسرعة مئة كيلومتر في الساعة. كالطلقة.

اعتاد ماركوس وآديلا أن يخرجا ليلة السبت، وأحياناً، الجمعة أو الأحد، لزيارة أحد الأصدقاء، وهم في العادة من الكوبيين، ضمن نطاق (هياليه)، أو في (ساوث ويست)، أو (ويستچستر)، أو في البلاج، كما يسمّون هم (ميامي بيتش). يشربون البيرة ويحضّرون موضعاً للشواء أو لعمل البائيّا أو لشيّ فخذ خنزير. وقد يفضّلون طلب الطعام أو المقبّلات من مطعم (الرينكونثيتو اللاتينو) أو (إيسلاس كنارياس) أو (لا كارّيتا) أو (لا سانتا)، إن كانوا في (هياليه). وقد يذهبان إلى أحد النوادي أو المراقص، مع الأصدقاء أنفسهم أو مع سواهم، ليمضوا الليل بين رقص وشرب ودردشة. يتكلمون دائماً تقريباً بصوت عالٍ، ويتنافسون في بسط الحجج بعضهم على بعض. يتكلّمون عن الماضي وعن الحاضر، وحتّى عن المستقبل، عن كوبا، وعن أمريكا، وعن العالم. عن أمور جادة (العمل والعائلة والسياسة والبيسبول) وعن أخرى تافهة، ولا سيّما، عن تفاهات كوبا: كنتُ، كان عندي، ذهبتُ...، مزايدات ومناقصات على الدوام. ويضحكون أو لا يضحكون. ويتجادلون أو لا يتجادلون.

أغلب أصدقاء ماركوس عاملون ممّن درسوا في كوبا وتخرجوا في جامعتها. حظي بعضهم بالعمل ضمن اختصاصاتهم، بعد أن أفلحوا في معادلة شهاداتهم؛ بينما رضي آخرون، من مثل ماركوس، بأيّ عمل. تعّرف ماركوس على العديد منهم وهو في كوبا، بينما تعرّف على بعضهم الآخر في المنفى، ثمّ بدأ التقارب انطلاقاً من الأصول المشتركة والانتماء النوعي والانتماء الجيلي. وبينما كان بعضهم يعيش في بحبوحة، لم يبلغ بعضهم الآخر تلك الحالة المريحة ماديّاً. كان بعضهم يحنّ إلى الجزيرة، بل يحلم، حين يبلغ الشيخوخة، بالعودة وشراء بيت على شاطئ البحر، بينما

يُقسم آخرون أنّهم لن يعودوا إلى (ميامي بيتش) ولو حملوا إليها مربوطين مشدودي الوثاق. لم تكن السياسة في نظر معظمهم هاجساً وهوساً، بل هي مشهدٌ، عبءٌ يجري في أثرهم... يخوضون في الحديث عنها، لا عن رغبة، بل لمجرد النقاش، وأحيانا، لتعكير صفو الليل. وقد يصل بهم الحديث عن السياسة، أحياناً، إلى تعكير صفو الصداقة.

كان ماركوس، المحتاج إلى الصحبة، يستمتع بتلك اللقاءات، ويشجّع عليها، لأنّه، وهو فيها، يشعر بأنّه يقف على أرضه، قريباً من شيء يفتح له أبواباً يعرفها ويألفها: كان لتلك اللقاءات، دون أن يشعر هو، ودون أن يقصد أصدقاؤه، فعلُ جلساتِ علاج بالانتماء، تغذية للذاكرة، بناء لقلعتهم الكوبيّة المنيعة التي لا يريدون أن يبرحوها، ولا يستطيعون.

وتستمتع آديلا الأمريكيّة بتلك الدردشات، وقد تصدر أحكاماً شديدة بحق سياسة بلدها نحو كوبا (تصفها بالمتعجرفة والوقحة والغبيّة). بل لقد بدت، في الأشهر الأخيرة، راضية عن التوجّه الجديد للرئيس أوباما، حتّى قال عنها أحدهم إنّها باتت «شيوعية». دردشات كانت تمنحها إحساساً بالانتماء إلى إخوانيّة تزداد، يوماً بعد يوم، تقرباً منها، وإن لم تستطع التغلغل في مسالكها المتعرجة وعوالمها الغامضة. فإن تكلّموا عن أحذية الـ *چوپا - مياو* التي لبسوها وهم أطفال، أو عن البرّادات الصينيّة الـ *يوبيثناوس* التي تتصبب عرقاً، أو عن عاصفة القرن الفظيعة (الكوبيّون دائماً عندهم شيء أكبر من الآخرين، بما في ذلك الأعضاء التناسليّة الذكريّة أو الأنثويّة)، بقيت هي كالأطرش بالزفّة، على الرغم من أنّها تفلح، أحياناً، في التقاط بعض التفاصيل وفهم المعنى من السياق، بينما لا تستطيع فهم تعابير أخرى، وإن ساعدها ماركوس وترجمها لها، كقوله «أكلتُ كلاباً بلا مصارين»[76]

وقد يلوذ ماركوس وآديلا بمطعمٍ من مطاعم (بريكل) أو (ميامي بيتش)، من تلك التي تقدّم وجبات رخيصة، حيث يستمتعان بالخلوة للحديث والنظر واللمس وتبادل القبلات. ثمّ يخرجان من المطعم، ويتمشيان في

76- يشير هنا إلى (هوت دوغ) غامقة اللون، طويلة، صلبة، وبلا قشرة (مصارين) يسمونها *perro sin tripa* أو *Fricandel*.

شارع (أوشن درايف)، أو يسيران على الرمل، بالقرب من البحر، حتّى إذا عادا إلى شقتهما في (هياليه)، مارسا الحبّ وغرقا في بحوره. فقد كانا عاشقين مغرمين.

أمّا في ليلة السبت تلك، فقد قرّرا البقاء في البيت، إذ لم يكونا مدعوين لأيّ لقاء أو اجتماع. في صباح ذلك اليوم، كانت آديلا قد انتهت من دورتها الشهريّة، وهكذا كان في مقدورهما، عند العصر، أن يعوّضا ما فاتهما طوال أربعة أيام، أوشك ماركوس خلالها أن يصاب بالجنون، وأن يتخلّصا من أشباح أخرى كانت تترصدهما. حين ارتويا وشبعا، حاول ماركوس أن يقنع فتاته بالذهاب، في اليوم التالي، إلى البلاج، فلطالما فضّلت آديلا المكوث في البيت أيام الأحد، على الأقل صباحاً، لتنظيم ما اضطرب، وتنظيف ما اتسخ، طوال الأسبوع. بل إنّها لتفضّل البقاء في البيت طوال اليوم، لتلتفت إلى العناية بيديها وقدميها، بينما تشاهد فيلماً أرجنتينياً أو كوبياً قديماً، ويغطّ ماركوس في نومه بعد أن أمضى الصباح في تدريب الأطفال على البيسبول. لكنّ ماركوس كان يعلم أنّ الراحة البدنية والارتواء العاطفي اللذين صارت تشعر بهما، كفيلان بإقناعها بأيّ شيء تقريباً. كان ماركوس مغرماً بشاطئ (غولدن بيتش) في (هالانديل)، حيث البحرُ -يقول- يشبه البحر في كوبا، وحيث يوجد مطعمٌ يقدم -يقول- أفضل أطباق السمك المقلي في جنوب فلوريدا، وتمتدّ -يقول- أرائكُ مريحة يمكن الاستلقاء عليها، بعد الغداء، للقيلولة على البحر. إنّ هذه جنّته المستعادة.

حين استيقظا صباحَ ذلك الأحد، الذي قرّرا أن يقضياه في البلاج، تناولا الإفطار. دخلت آديلا إلى الحمّام. رتّبت حقيبة البلاج، ودسّت فيها المناشف والكريمات الواقية وعدّة الغوص وكلّ ما رأته ضرورياً. ولمّا كان ماركوس، الذي أتمّ استعداداته (الشورت والخفين والفانيلة وبرنيطة قديمة ركبت عليها نظارات رخيصة)، يعلم بمقدار ما تتأخر آديلا في الاستعداد، فقد وضع الشرشف الأبيض على طاولة الطعام وراح يطالع في حاسوبه نتائج مباريات البيسبول التي جرت الليلة الماضية. بدأ، كالعادة، مستاءً من أداء *كنساس سيتي رويال*، الفريق الذي يلعب فيه كندريز مورالِس، والذي هو، بالتالي، فريقه (لأيّ فريق من فرق الدرجة الممتازة أن يكون

فريقه، شرط أن يضمّ بين صفوفه كوبيّاً له ماض رياضي في الجزيرة). كان ماركوس قد شاهد كندريز يلعب مع فريقه الحقيقي *لوس إندروستريا ليس - هاڤانا*، وعشق، مثله مثل الآلاف أو الملايين من المشجعين، ذلك اللاعب المستجدّ، صاحب المهارات العالية الذي أثار إعجاب متابعيه في الجزيرة. ولذلك استمتع كثيراً بانتصار *لوس إندوستريا ليس* في موسم 2004 وانتصار *كنساس سيتي* في السلسلة العالمية للعام السابق، وفي الحالتين كان كندريز يلعب ضمن تشكيلتهما. ضغط ماركوس على زر «النتائج» حين سمع جرس الباب، وتساءل عمّن يكون الطارق، في تلك الساعة من يوم الأحد. صرخ من مكانه على الطاولة:

- حبيبتي، هل تنتظرين أحداً؟



ردّت آديلا من الحمّام:

- لا... انظر من يكون...

نظر ماركوس إلى شاشة حاسوبه: تجاوز كندريز الضارب مرتين، عظيم!

- حسناً...، لكنّنا سنذهب إلى البلاج، كائناً من كان الطارق... تبا! لم يتعلّم الناس بعد أنّ عليهم أن يتصلوا قبل الذهاب إلى بيوت الغير. هؤلاء الكوبيون يعيشون هنا منذ ألف سنة ولم يتعلموا بعد...

أغلق ماركوس غطاء الحاسوب وذهب إلى الباب، وهو يتمتم بعبارات الاحتجاج. دق الجرس ثانية. وتساءل ثانية عمّن يكون الزائر الملحاح، وكرّر أنّ ليس في مقدور كائن من كان أن يفسد عليهما خطتهما في الخروج إلى البلاج. وفتح.

يا للصدمة!

- إليسا؟

- عجباً، ماركيتوس...، صرتَ تشبه أمّك.

- إليسا... - كرّر ماركوس الذاهل، وهو بعدُ غير متأكّد.

- ألن تسمحَ لي بالدخول؟

- طبعاً، طبعاً. تفضّلي - قال حين سمع صوت آديلا.

- من الطارق، حبيبي؟

ونطق ماركوس بجملة كان لها أن تكون نكتة بايخة لو أنّها نطقت في ظرف آخر:

- أمّك!

لم تتلقّ آديلا أخباراً من أمّها منذ أن اتصلت بها لوريتا لتكلمها عن نيتهم التضحية بـ رينغو. إنه نفس اليوم التي كشف فيه عن أنّ آديلا هي، أو ليست هي، آديلا فتزبيرغ، وأنّ لوريتا هي، في الواقع، إليسا كورّيا. لقد مرّ سبعة وثلاثون يوماً، بضمنها الأيام التي أمضتها في ذي سي بريز. شهر كامل وأسبوع، انتظرت الشابة أثناءه، يحدوها أملٌ راح يضعف، وصول إشارة تخفف، على الأقل، من قلقها ولهفتها. في غمرة أيّام الصمت والترقّب تلك، راحت تتشكّل في ذهنها صورة تقريبيّة عن إليسا كورّيا، رسمتها شهاداتٌ سمعتْها من مس ميلر وشاك، ومعلوماتٌ انتزعتْها من أبيها، برونو فتزبيرغ. مع ذلك، فقد وجدتْ في ذكريات ماركوس، مدعومة بمساهمات كلارا وداريّو وهوراثيو، عوناً وأيّ عون. وكان لها في حوارات مطوّلة مهمّة، عبر السكايپ، أجرتها مع إرفينغ، بترتيب من ماركوس، ما وضّح لها الكثير. كما حصلت على صورة لشلّة شتّتتها الغربة والموت، وإن ظلّت متجانسة متماسكة في جوهرها.

في أول حواراتها مع إرفينغ، الذي أسعده لقاء الفتاة التي هي، بكلّ تأكيد، ابنة إليسا وهوراثيو، شرح لها أنه رآها صيفَ 2004 في متنزه الـ (رتيرو) بمدريد، وكانت مع أمّها وبرونو فيتزبيرغ. أم تراها كانت تهيؤات رسخت في ذهنه؟ تذكر آديلا جيداً تلك الإجازة التي أمضوها في إسبانيا -مدريد وبرشلونة وسان سيباستيان واشبيليا، حيث شتمت غجريّة أمّها لأنّها أعادت إليها باقة إكليل الجبل بعد أن أخذتها آديلا منها-، تتذكر جولتهم في الـ (رتيرو)، لذلك لم تفهم كلام إرفينغ. كيف يمكن أن يكون إرفينغ رآهم ثمّ يقول إنّه لم يرَ صديقته منذ أن توارت عن الأنظار عام 1990؟ لأنّي رأيتها وهممتُ بالاقتراب منها، لكنّها هربت -ردّ عليها-، وكان في ذلك ما أكّد لآديلا طبع أمّها، بل لقد جعلها تفكّر في ألّا تعاود رؤيتها أو السؤال عنها.

كلما زادت آديلا معرفة بطبع إليسا كورّيا، زادت قناعتها بأنّ أمّها اختفت، وإلى الأبد، هرباً من ماضٍ تعلم آديلا أنّه ماضٍ غير مشرّف. لكنّ هذه المعرفة، التي تسعى إلى رسم الصورة التي باتت الفتاة تمتلكها عن والدتها، ظلّت قاصرة عن تكوين الصورة النهائيّة لها، وتحديد الأسباب الفظيعة التي حملتها على الخروج من كوبا ومحاولة قطع كلّ صلة لها بالماضي، وصولاً إلى أن تصبح شخصاً آخر.

أطلّت آديلا برأسها، وهي ترتدي المايوه الذي لبست فوقه روباً بشرائط. لم يكن في صوت ماركوس ما يوحي بأنّه كان يمزح، وإن اعتاد الكوبيون أن يغلّفوا جدّهم بنكتة أو استغراب أو سباب، حتّى لا يدري الواحد إن كانوا يقولون ما يقولون صادقين أم مازحين.

– كوسي... كم اشتقتُ إليك! وأنتِ؟

إنّه صوت أمّها الخشن، الذي لا يخطئه سمعها. تقدمت آديلا نحو الصالة. نظرت إلى لوريتا ثمّ نظرت إلى ماركوس. وبعد طول تفكّر، إذ ما كانت تدري ماذا تفكر ولا ماذا تتمنّى ولا ماذا تقول، تكلّمت، بقلبها أكثر ممّا بعقلها.

– آآآآي، أمّي! ما أكثر ما يكلّفني حبّك، يوماً بعد يوم!

– لا تعلمين كم أحبّك أنا...

اقتربت إليسا من آديلا وحضنتها، ثمّ قبّلتها وداعبت وجهها، لكنّ الفتاة لم تحرّك ساكناً، بل أبقت على ذراعيها مسبلتين. بدت آديلا كالمصدومة، وكأنّها في غير مكانها. بدت لنفسها مضحكة بملابسها الغريبة: مايوه يغطيه روبٌ بشرائط وعلى رأسها قبعة من القش. جذبتها أمّها نحو الكنبة، بينما ظلّ ماركوس عند الباب، لا يدري ماذا يفعل.

– هل آتيكِ بفنجان قهوة؟ هل أفطرتِ؟ – سألها حين جلست، وأحسّ بيديه نديتين وشعر بالتوتّر. أيعقل أن أكون أنا، ماركوس، الملقب بالوشق، متوترا؟ تساءل مستغربا. وشعر بحاجة إلى فنجانٍ من القهوة!

– شكراً ماركيتوس –قالت إليسا–. لقد تناولت فطوري قبل أن أصل بيتكم. تعمّدتُ أن أتأخّر لأمنحكما وقتاً للنهوض من النوم. فاليوم أحد و...

– هل لي أن أعرفَ أينَ اختفيتِ؟ – سألتها آديلا باستغراب.

- البارحة نمتُ في نابلِس. كنتُ مرهقة. جئت أقود السيارة من (تاكوما)... قطعتُ هذه البلاد الملعونة طولاً وعرضاً... أردتُ أن أختلي بنفسي. أن أفكّر في ما أفكّر وفي ما لا أفكّر فيه. أن أتأمّل، أن أنظّف نفسي من الداخل... لكنّي مررتُ بمدينة تقع في أوكلاهوما اسمها (نورمان). بدت لي مكاناً من أقبح الأماكن في العالم... وإن كانت (هياليه) هذه تنافس (نورمان) قبحاً.

- لوريتا! - احتجّت آديلا.

- معذرة، كوسي، معذرة... لكنّها الحقيقة!

- ما أجملكِ وأنتِ تتكلمين عن الحقيقة!

- في (نورمان)، سمعتُ بوفاة برناردو... فقرّرتُ أن أغيّر وجهتي. إذ كان في الخبر ما يكفي... وما عدتُ أستطيع المزيد...

- برناردو المسكين -قال ماركوس-. كان خيرَ من عرفتُ من البشر.

وافقته إليسا على قوله.

- لكنّه كان، في بعض الأمور، بالغ الضعف. ولذلك أدمن الكحول وسقط في اليأس. أنا أتحمّل كثيراً من الذنب، لكنّي لست المسؤولة عن كلّ ما حدث. كان برناردو نقياً، ساذجاً، يصدّق كلّ شيء. لم تكن له قدرة على تحمّل بعض الأمور فوقع في أزمة. ولذلك لا أستغرب أن يتديّن ويصبح كاثوليكياً -قالت، والتفتت ناحية ماركوس-. هل صحيح أنّه ترك الشراب طوال عشرين سنة؟

- صحيح. أمّي ساعدته على ذلك.

- كلارا... -ابتسمت ابتسامة خفيفة-. كيف حال أمّك؟

- تعبانة -اعترف الشاب-. كانت تحبّ برناردو كثيراً...

هزّت إليسا رأسها موافقة.

- مع الأسف -قالت، ثمّ نظرت إلى آديلا-. من يومين تكلمتُ مع والدك، برونو... قلتُ له إنّي أنوي أن أزوركِ وأن أطلعكِ على بعض الأمور، وطلبتُ منه أن يخبرني بما حكى لكِ هو منها.

- أبي لا يعرف شيئاً عنكِ. لا يعرف حقيقتك.

– لكنّه يعرف بما حكى لكِ. الحقيقة الحقيقيّة التي أعتقد أن لا أحد يعرفها بعد برناردو.

– وكيف استطعتِ أن تعيشي خمسة عشر عاماً مع أبي؟ لا أفهم...

– عشتُ معه وجميع هذه الأبواب مغلقة. أنا لم أكن إليسا معه، بل لوريتا. امرأة أخرى...

– هل أتيتِ لتكلميني عن البوذيّة أم لتشرحي لي سبب خروجك من كوبا؟ لماذا اختبأتِ وخبأتِني؟ وكلّ تلك الأكاذيب...

حنت إليسا رأسها ثمّ نظرت إلى ماركوس.

– هل لكَ أن تأتيني بقدح من الماء؟ وائتِ لي بالقهوة التي عرضتها عليّ؟ سأحتاجها.

– طبعاً، طبعاً. – خرج ماركوس أخيراً من حالة الذهول التي كان عليها.

– قليل من السكّر، من فضلك... ويا ريت لو كان ستيڤيا[77].

– لا نستعمله... لدينا سكّر أسمر.

– ممتاز. لكن ضعْ لي القليل منه. كنتُ مغرمة بقهوة كلارا... كانت تعملها دائماً بسكر أسمر.

ذهب ماركوس إلى المطبخ، وعلى باله يجري سيلٌ من الأسئلة، يلحّ بعضها أكثر من بعضها الآخر: هل وصلت العلاقة بين أمّه وإليسا إلى أبعد ممّا رأى؟ عن أيّة أمور شائنة تستطيع إليسا أن تكلّمه؟ ماذا أرادت المرأة بقولها إن ما من أحد عاد يعرف الحقيقة الآن؟ والأهم من كلّ ذلك: هل جاءت إليسا لتنغص عليه وعلى آديلا حياتهما؟ وبينما كان يعدّ القهوة ويبحث عن فناجين الضيوف ويملأ الأقداح بالماء، تنصّت ماركوس على الحوار الذي كان يدور بين الأم وابنتها في الصالون.

– هل تكلمتِ مع أحدٍ آخر غير أبي؟ هل تكلمتِ مع هوراثيو أو مع إرفينغ؟

– لا. لا أريد أن أتكلّم مع أحد. لا أريد أن أتكلّم إلّا معكِ.

77- بديل سكر طبيعي **Stevia**.

– صدقيني أنّي لا أفهم كيف يمكنكِ أن تفعلي ما تفعلين....

– ستفهمين –قالت، ونزعت القبعة من على رأس الفتاة–. آديلا، ستفهمين لماذا قلت لك دائماً إنّ حياتك كانت أفضل، وإنك لم تعاني...

– بسبب ما فعلته أنتِ بحياتي. هل أنتِ متأكّدة من أنّها أفضل؟

– أنا واثقة... أظنّ... دعيني أشرب القهوة... رائحتها طيبة، ماركيتوس – قالت، وبدت مسيطرة على المسرح، حين رأت الشاب يقترب وهو يحمل الصينيّة وفيها الأقداح والفناجين على الصحون الصغيرة.

شربت إليسا القهوة وأثنت عليها. وردّ ماركوس شاكراً. وشعرت آديلا بالرغبة في التدخين. حياة أفضل؟ تساءلت، والتفتت نحو إليسا.

– قولي لي أولاً... من هو أبي الحقيقي؟

– أظنّك تعلمين أنّه هوراثيو.

– ولماذا لم تكلّميه؟ ابن الـ... –توقفت آديلا حين انتبهت إلى أنّها إنّما تشتم نفسها–. هوراثيو له الحق في أن يعلم، أليس كذلك؟

– قبل ستة وعشرين عاماً كنتُ على وشك أن أخبره... بالمناسبة، عيد ميلادك بات قريباً، كوسي... –لم تردّ آديلا–. حسناً، أردتُ أن أسأل هوراثيو عن الواقيات الذكريّة التي كان يستعملها، لا شكّ أنّها سوفييتيّة، فالروس لا يصنعون إلّا كلّ رديء... كنتُ أريد أن أجد تفسيراً، مسؤولية في أمر ما كان له أن يحدث، لكنّه حدث... –قالت وأشارت إلى ابنتها: الدليل الحيّ على ما حدث–. لكنّ موقف برناردو لم يحلّ المسألة، بل عقّدها، بعد أن شقّ عليه أن يتقبّل الأمر ويتحمّل، فوق ذلك، إهانتي له بأن نشرتُ الخبر وقلتُ له...

– لكنّ إرفينغ يقول إنّكِ قلتِ له إنّ حملك ليس منه أمام كلارا وداريّو.

– هذا حدث لاحقاً. حين تعقدت الأمور. وكان والتر هو من عقدها. وكان عليّ أن أصرّح بأشياء وأفعل أخرى... آديلا...، ما سأحكيه لكما فظيع.... فظيع إلى درجة أنّه نغّص عليّ حياتي.

شعر ماركوس، الذي أعاد الفناجين والأقداح إلى الصينيّة، بتشنج في معدته: فهل سمع جيداً ما قالته؟

نظر إلى خطيبته، فوجد في عينيها مزيجاً من الألم والكراهية. ونظر إلى

إليسا، فوجدها غامضة لا يسبر غورها. وقرّر أن ينسحب، لأنّ تلك الحكاية «الفظيعة» تخصّ المرأتين، لا غير. المهم هو أنّ إليسا أفسدت عليهما خطته بالخروج إلى البلاج.

– من الأفضل أن أنصرف... – قال

– لا تذهب – طلبت منه آديلا.

– أشكركَ، ماركوس، هذا أفضل –قالت إليسا–. سأنصرف بعد أن أنتهي من الكلام مع آديلا، لذلك أريد أن أقول لك إنّي سعيدة بأنّ آديلا وجدتك واختارتك من بين كلّ هؤلاء الكوبيين هنا. وأرجوك، إن لم أرك ثانية، أن تبلّغ أمّك رجائي بأن تغفر لي ما يستحق المغفرة وبأنّي حزينة جداً على وفاة برناردو. لأنّ برناردو كان، بالفعل، أفضل واحد فينا.

خط. دائماً تقريباً أبيض. أحياناً أحمر. هل يهمّ اللون؟ لا. ما يهمّ هو الخط. الخط فقط.

هل تلك هي كارمتها؟ ستتساءل إليسا كورّيا، طوال ما تبقّى لها من حياتها، وللآلاف المرّات، عن سبب ارتباطها بذلك المصير، بذلك القدر الذي لن يلبث أن يسودّ ويكفهرّ، وإلى الأبد. قد تستطيع، مع الزمن ومع المسافات، التخفيف منه، أمّا محوه، فهيهات. وتلحّ بالسؤال على نفسها: كيف بلغ بها الغباء أنّها سايرت والتر في مطالبه؟ تردّ أحياناً على نفسها: إنّها الثقة بالنفس، التي ما هي، في بعض الأحيان، إلّا صدى تكبرها.

لفهم التعقيد في قصّة ستنتهي بحالات موتٍ واختفاءٍ وخداع، حرص والتر الرسّام منذ البداية على تصوير المشهد ببساطة مانويّة مريحة: وضع بفرشاته خطاً على الأرض. فإمّا أن تجتازيه أو لا تجتازيه، هكذا ببساطة. ولأنّ إليسا كورّيا هي إليسا كورّيا، الأبيّة العزيزة النفس (عجرفة ملعونة ستتضح وتشتدّ)، فقد قبلت التحدّي واجتازت الخط. ولو أنّ الأمور لم تنته، لاحقاً، كما انتهت، لما فكّرت أبداً في ذلك الخط، ولا في ما يعنيه قرارها باجتيازه. لكنّها اجتازت الخط، وبذلك الإصرار الذي يميزها، فتحت الأبواب أمام أسوأ ما في كارمتها، فتحت الأبواب لتلك الظلمة التي لا يمكن أن تثمر إلّا عن ظلمة، ولتلك اللعنة التي تحمل، منذ ذلك الوقت، كلّ ما يدفعها إلى التساؤل: لماذا؟

اتصل بها والتر، منتصفَ نهار 26 كانون الثاني 1990. سألته مستاءة عن الداعي إلى مكالمته، وكرّرت عليه أن ليس لديها ما تكلمه عنه.

– أنتَ لا تستحي. بعد الفصل الذي عملته مع أبي، عمّ تريد أن تكلمني؟

هل نسيتَ أنّكَ دفعتني وأنتَ تعلم بأنّي حامل؟ هل نسيتَ ما قاله لك أبي؟... وما فعلته بإرفينغ؟ هل نسيتَ، والتر؟ من تحسبُ نفسك؟ ما عدتُ أصدّق كلامك ودموع التماسيح في عينيك!

– آاي، إليسا، معذرة... أنا الآن كالمجنون. في ورطة. ومستعد لفعل أيّ شيء.

– هل تهددني؟ تهددني بتقديم شكوى ضد أبي؟... اشكِه، وإن كان مذنباً فليلقَ جزاءه. فليس هو بالطفل، وهو يعرف ما يفعل وما فعل. لا علاقة لي بذلك، ولا أريد أن أسمع أيّ كلام بهذا الخصوص... لكنّي أحذّرك... إن تقرّبتَ منه، فلن تلوم إلّا نفسك. أنتَ لا تعرف من يكون أبي...

– ماذا تقولين؟

– أقول لك إنّ لأبي أصدقاءَ كثيرين نافذين... وليس بينهم من يعجبه أمثالك.

– لن أقول شيئاً عن أبيك، أقسم لك... لكنّي أريدُ أن أتكلّم معك. أرجوك، إليسا، أنتِ الوحيدة التي تستطيعين مساعدتي –قال الرسّام وهو يضع الخط على الأرض–. ولا أستطيع الكلام عن ذلك بالتلفون. أرجوك، إليسا...

– لا أقدر، والتر...

– عشر دقائق، لا أكثر... من الأفضل أن تسمعيني. سأخبرك بأشياء، إليسا، أشياء خطيرة... نعم. من الأفضل أن تسمعيني... اسمعي، سأنتظرك اليوم، الساعة الثامنة، عند مدخل البناء، بين شارعي E و 9، عندي مفاتيح شقة هناك. أرجوك، إليسا... الباب يقع في شارع E... على مسافة سبعة مربعات سكنية من بيتك...

في تلك اللحظة، رأت إليسا الخط المرسوم على الأرض. والتر يعرف أشياء خطيرة. هل تتعلّق هذه الأشياء بها أم بأبيها؟ وأيّة أشياء أقبح وأفظع وأخطر من المصائب التي تدفعها للتفكير في الهروب والاختفاء؟ لكنّها قرّرت ألّا تنجرّ إلى الإغراء. لن تجتاز الخط، لا تريد ولا تحتاج إلى سماع ما يدور في الطرف الآخر. ولماذا؟ فشؤون والتر وأبيها تخصهما. وعليهما هما

تقع مسؤولية حل مشاكلهما. أمّا هي فلديها ما يكفيها، قالت لنفسها، وليس في مقدورها أن تساعد والتر، الذي لا تجد في أفعاله ما يوجب المساعدة.

- لا أدري. لا أدري - قالت، وأغلقت الهاتف، بينما كان الآخر يواصل توسلاته.

لكنّ إليسا كورّيا 1990، إليسا ذلك الوقت، أو حتّى قبل ذلك الوقت بقليل، حين حملت بأغرب طريقة، ومع الرجل الأقلّ مناسبة، تلك الإليسا كورّيا نفسها التي خالفت الجميع واختارت أن تبقي على حملها مهما كلّف جسمَها وعقلها، إليسا كورّيا تلك تصرّفت كما توقّع والتر أن تتصرّف. وتعاضد شعورُها بالذنب، لأنّها هي من قرّب بين أبيها ووالتر قبل سنوات، وشعورُها بالخجل، بعد أن خانت برناردو وورطت هوراثيو وكلارا في ألاعيبها، فضلاً عن مخاوفَ غير محددة، والثقة بنفسها، لتحملها على الذهاب، عند الثامنة وعشر دقائق ليلاً، إلى العمارة الكائنة بين شارعي E و 9، حيث كان بانتظارها، عند السلالم، والتر المقيت. والخط أيضاً.

- شكراً لكِ على حضورك - قال حين رآها.

- تكلّم، فأنا لستُ مستعدة لإضاعة الليلة كلّها معك. ماذا تريد؟

- هل أخبرتِ برناردو بأنّك قادمة؟

- بالطبع لا. يودّ برناردو لو يقتلك. أم إنّك فقدتَ الذاكرة؟ اسمع، هل أنت مخمور؟

- لا. لم أشرب إلّا كأسين... حسناً. أردتُ أولاً أن أعتذر منكِ لما حصل مع إرفينغ. فأنا كنتُ متوتراً وهو...

- أنتَ تحسن كسب الأصدقاء. هل تعلم كم عددُ الذين يريدون قتلك؟

ابتسم والتر.

- وأردتُ أيضاً أن أعتذر عن تصرفاتي في منزل أبيك...

- نعم. هيّا. ماذا تريد؟

تلفّت والتر حوله

- تعالي، لنصعد. الناس هنا يروحون ويجيئون... الموضوع شائك...

- نصعد أين؟

- إلى السطوح... هناك مصاطب. وأنا لدي المفتاح - قال، وأراها الميدالية التي كان يحملها: كلب معدني تخرج من ظهره سلسلة صغيرة تنتهي بحلقة فيها ثلاثة مفاتيح. أترى والتر رسم الخط في تلك اللحظة، بينما كان يريها المفاتيح؟

- لن أصعد معك.

هزّ والتر سلسلة المفاتيح وابتسم.

- ألا يهمّك أن تعرفي مع من رأيتُكِ تخرجين من بيت صديقتكِ صاحبة القط؟

حاولت إليسا أن تخفي انفعالها. ماذا يعرف والتر؟ هل رآها مع هوراثيو؟ هل يحاول ابتزازها؟

حين علمت إليسا أنّها حامل، واتخذت القرار بالمضيّ قدماً فيه، كانت تدركُ أنّها تلعب بقنبلة يدويّة قد تنفجر لأيّة حركة. فما لم تكشف هي عمّا فعلت وهوية الفاعل، فليس في مقدور أحد أن يعرف المسؤول عن حملها: ولا حتّى هوراثيو نفسه. وما لم يعلم أحدٌ بذلك، فلا الإهانة التي ستلحقها ببرناردو ستكون كبيرة ولا خيانتها له ستكون مدوّية. ووالتر؟ هل تراه يطلق رصاصة تحذيريّة أم إنّه يصوّب نحو جبينها؟ وأدركت المرأة، وهي ما تزال مضطربة، أنّ والتر لا يطلق رصاصاً في الهواء، وأدركت أنّ عليها أن تكون أقوى منه وأن عليها أن تأخذ بزمام المبادرة.

وجدا باب البناية مفتوحاً والمدخل خالياً. فربّما لا يُغلق المدخلُ إلّا نهاية الليل. دخلا في المصعد المتهالك الذي يعود إلى زمن إنشاء البناية، في الخمسينيات. تحرّكَ المصعد ببطء وعلا صريره وهو يطلع نحو الأعلى.

- لا أفهم عمّ تتكلّم... -قالت إليسا وهي تحاول أن تستردّ عزيمتها وتبدو قوية-. ولا أعرف لماذا نحن هنا...

- لمساعدة صديق -قال والتر-. أنتِ تستطيعين مساعدتي.

- كيف؟

صرّ بابُ المصعد حين فتح في الطابق الثامن عشر. وهو الأخير. خرج والتر أولاً. وضع قدمه على البسطة الأولى من الدرج المؤدّي إلى السطح. مصباح خافت ينير ذلك الفضاء الميّت. باب السطح المعدني أصفرُ صفرة الضوء الذي ينبعث من المصباح. في المتراس قفلٌ متوسط الحجم. فتح والتر القفل بأحد المفاتيح الثلاثة التي لديه. لا شكّ أنّها نسخة من نسخ عديدة من المفتاح يتداولها سكان البناية. صعب على والتر نزع المفتاح من القفل، ربّما لأنّه كان متوتراً، ومخموراً بعض الشيء. تمتم لاعناً، ثمّ أفلح في نزع المفتاح بالقوّة. أزاح المتراس وفتح الباب. فسح المجال أمام إليسا لتخرج إلى السطح ثمّ تبعها. ترك القفلَ وسلسلة المفاتيح على جدارٍ واطئ بجانب الباب. تطلّعت إليسا مرّة أخرى: ثلاثة مفاتيح صفر، وحلقة معدنيّة، وكلب معدني معلّق بسلسلة. ورأت فوق ذلك الجدار، قريباً من القفل والمفاتيح، قطعة من حديد، غامقة، صدئة.

في عتمة السطح، تطلّعت إليسا إلى ليل هاڤانا. من أعلى العمارة، شاهدت (البيدادو)، ببناياته العالية، وهي بعدُ مضاءة؛ مجمعات البيوت المؤلفة من طابقين أو ثلاثة طوابق؛ جادة (لوس پرسيدنتس) المؤدية إلى البحر. القمر المنحسر، المنزوي، لا يجود إلّا بالقليل من ضوئه. من ذلك الارتفاع، لا يلمس الرائي كم في تلك المدينة، التي تمرّ بأوقات صعبة لا يقدر أحد على التنبؤ بها، من كآبة وهموم. فحين تسقط الجدران يضطرب التاريخ.

بالقرب من طرف السطح المطلّ على الشارع (9)، الطرف الذي يطلّ على خط الساحل الذي يرسم الماليكون حدوده، وُضعتْ مصطبة قديمة من حديد وخشب، لا شكّ أنّها سرقت من إحدى الحدائق، ولا شكّ أنّ من وضعها هناك قصد أن يجلس والمدينة وراء ظهره، بينما يستطيع، في النهار، أن ينظر، من مكانه، إلى البحر حتّى آخر الأفق، حيث تغيب الشمس كلّ مساء. حين جلست إليسا، حجب الجدار المشبّك، الذي يرتفع متراً ويحيط بالسطح، جزءاً من المشهد.

– من أعطاك المفاتيح؟ – سألت الرجل الذي اختفت معالمُ وجهه.

– صديقة لي تسكن في الطابق الثاني عشر... أعطتني إيّاها قبل سنة

تقريباً... كنّا نأتي إلى هنا أحياناً لندخن الماريجوانا... لم أعد إليها المفتاح... أحياناً أصعد إلى هنا حين أكون متضايقاً وأتأمّل المنظر فأشعر بالراحة.

بدا لها أنّها رأت والتر يبتسم، بينما أخرج سيجارة من علبة وضعها فوق المصطبة وراح يبحث في جيبه عن الولاعة.

– والآن تكلّم، فأنا لم آتِ لقضاء الليلة كلها هنا...

نظر والتر إلى ظلمة البحر. ثمّ أدار وجهه ناحية إليسا.

– كيف تمضي الأمور معكِ؟ مع برناردو؟

– لم آتِ لكي أحكي لك عن شؤوني الخاصة... هذا شيء لا يعنيك. تكلّم أو سأنصرف... عمّ كنتَ تتكلّم حين كنّا تحت؟

– رأيتكما تخرجان من الشقة... مصادفة غريبة... في البناء المقابل يسكن رسّام أعرفه. كنّا في شرفة منزله نشرب حين خرجتما...

كان والتر صادقاً في ما يقول. فقد كلّمهم مرّة عن صديق له رسّام. ثمّ إنّ هوراثيو لا يمكن أن يصل به الغباء إلى درجة أن يحكي لأحد عما جرى بينهما. هدّدها والتر بفضحها. فهل كان يحاول ابتزازها؟ ربّما كان يستطلع ردود فعلها. وأنّى لوالتر أن يعرف ردود فعلها!

– ها قد عرفتُ بأنّك تعرف. لكنّ ما لا تعرفه هو أنّ ما تقول لا يعني لي شيئاً. أنا فعلتُ ما أردتُ أن أفعل... –قالت، وتلمّست بطنها–. ولكن عليك أن تفكّر أولاً: بين كذبك وكذبي، سيصدّقون من؟ ما لم أكن أتصوره هو أن تكون على هذا القدر من السفالة والحقارة...

– اللعنة، إليسا. لا. أنا لا أريد أن أبتزّك. فقط أريد أن تعرفي ذلك، لا أكثر. وأن تساعديني... أقسم لك بروح أمي أنّي لم أسئ لأحد...

إنّها لا تثق به. لكنّها وجدت نفسها مضطرة إلى أن تلعب معه بنفس أوراقه. أن تعطي نفسها وقتاً لتفكّر. لتعلم أكثر. لتسيطر على الموقف.

– يا لك من نذل...

– أوكي... أوكي. لكِ أن تقولي عنّي ما تشائين... ولكن، أرجوك، اسمعيني أولاً، اسمعيني إلى الأخير. كلّ ما سأقوله لك منطقي...

- حسناً. سأساعدكَ إن استطعتُ - قالت إليسا.

- يلزمني خمسة آلاف دولار لكي يخرجوني من هنا...

- أوكي. ثمّ ماذا...؟ - قاطعته إليسا. أشعل والتر سيجارته وأعاد الولاعة إلى جيبه.

- دعيني أكمل، أرجوك... اتفقتُ مع صاحب لنش، وسيخرجني الأسبوع القادم. مقابل خمسة آلاف دولار. عندي ثلاثة آلاف تقريباً... وبقي ألفان... من المؤكد أنّ أباك لديه هذا المبلغ...، أنا متأكّد... انتظري، انتظري، اسمعي: خروجي يناسب أباك، هو يتمنّى أن أذهب إلى جهنّم وأن أختفي نهائيا. لأنّهم إن أمسكوا بي وشدّدوا عليّ فسأعترف بكلّ شيء. فحين يقع الواحد في قبضة هؤلاء، يتحوّل كلّ شيء إلى برنامج تلفزيوني: الجميع عندهم يغرّد.

- ولماذا أنتَ متأكد من أنّ أبي يملك هذا المبلغ؟

- أعرف أنّه يملكه، إليسا. أعرف. -كان في صوت والتر، على الرغم من نبرة الرجاء، نبرة أخرى واثقة-. لطالما جرت النقود بين يديه أنهاراً. أنا قوّمتُ له عدداً من اللوحات التي أخرجها من كوبا... بعضها كان نسخا مزيفة. وأنا متأكّد من أنّه تاجر بالمخدرات وأدخلها إلى كوبا.

- وكيف يدعونه حراً طليقاً وهو تاجر مخدرات، كما تقول؟ وهل قبض بالعملة المحلية أم بالدولار؟ آآي، يا فتى، انسَ ما قلتَ. ربّما زلّت قدما أبي، لكنّها ليست القدم التي تتحدث عنها. هو يعرف الكثير...

- وأنا أيضاً أعرف الكثير... وأعرف أنّه يملك مالاً. يحرّك مالاً كثيراً...

- وماذا تريد؟ أن أذهب وأقول له أن يعطيك ألفي دولار لأنّك ستعترف عليه؟ بعد ما فعلتَه، وبعد ما قاله لك؟ والتر، إن كانوا يريدون الإمساك بك، لأيّ سبب، أليس من الطبيعي أن يكونوا فعلوا ذلك من زمان؟

- لم يمسكوا بي لأنّي أرشوهم... وأرفع لهم التقارير عن الناس...

- فأنتَ، إذن، مخبر -قالت إليسا، دون أن يبدو عليها الاستغراب-. كان والدي على حق، أنتَ...

– نعم. وما في ذلك؟... أنتِ لا تعرفين ما معنى...

– وهل رفعتَ لهم تقارير عنّا؟

– كلا. أمرُكم لا يهمهم...

– فأمر من يهمهم؟

– ناس آخرون... المهم، ما عاد هذا يعنينا. أنا نويتُ الرحيل وعليكِ أن تساعديني! – صاح ورمى بالسيجارة وسحقها بعصبيّة.

– أوكي. سأذهب وأقول لأبي إنّك تحتاج ألفي دولار وكفى...

– بل اسرقيها منه!

لم تجرؤ إليسا على الضحك. ثم فكّرت: لا

– أنا ذاهبة –واستعدّت للنهوض. ربّما ما زال أمامها وقت لكي تجتاز الخط–. أنتَ مجنون... – وحين حاولت النهوض، أمسك والتر بذراعها بقوة ومنعها من الوقوف على قدميها. وهكذا أزال والتر بفعلته الخط. ما عاد أمامها من مكانٍ آمنٍ تعود إليه.

– اللعنة، إليسا... ساعديني وسأساعدكِ. فأنا قادر على أن أنغّص عليك حياتك!

– اتركني!

– نقود قذرة...! لكنّها تخرجني من هنا و...!

– اتركني، أيّها اللعين! – صرخت به وانتزعت ذراعها من قبضته.

تمكّنت إليسا من الوقوف على قدميها. نهض والتر أيضاً، ثمّ عاد وأمسك بإحدى ذراعيها.

– كفاك يا نذل! –صرخت هي–. اغرب عن وجوهنا، ولا تحرق أعصابنا. قل عنّي ما شئتَ، يا ساقط... أتركني، اللعنة عليك!

من فتحة الباب، التي أضاءها مصباحُ الدرج، ظهر خيالٌ. تعرفت عليه إليسا في الحال. وظلّت إليسا ووالتر جامدين وهما يريان شخصاً يسرع الخطى نحوهما. أفلت والتر إليسا من قبضته، وتراجع إلى الخلف، ليضع المرأة بينه وبين الرجل الذي كان يقترب. صرخت إليسا:

- أنتَ...! اذهب من هنا حالاً، برناردو، لا دخل لك بهذا الموضوع!

- اسمع أيّها القذر! - سمعت إليسا برناردو، الذي وقف على مسافة مترين منهما، وركّز عينيه في والتر. واستطاعت أن تراه وهو يحمل قطعة من الحديد. نفسها التي رأتها فوق الجدار، حين دخلت إلى السطح.

ستعلم إليسا، في ما بعد، أنّ برناردو سمع جانباً من الحديث الذي دار بينها وبين والتر منتصفَ نهار ذلك اليوم. وستعلم أنّه كان مقتنعاً، بعد كلّ ما وقع بينهما، من أنّ إليسا لن تلبّي دعوة والتر. لكنّه أدرك أنّه أخطأ التقدير، حين رآها تخرج مساءً، فقرر السير وراءها. ويا له من قرار! فقد كان عبّ كأسين لعبا برأسه وعكرا قدرته على التفكّر وأفقداه حواسه. وحين وصل إلى مدخل البناية وجد باب المدخل مغلقا، فاضطر إلى انتظار خروج أحدٍ من الساكنين. وكان من حسن حظّه أن خرج أحدهم بسرعة وترك الباب مفتوحا، فدخل هو من دون أن يراه أحد. ورأى واجهة المصعد تؤشر على الطابق الثامن عشر.

وقع كلّ شيء في ثوانٍ. بدأ برناردو يقترب، حاملاً سيخ الحديد، وعليه علامات الشرود، بينما احتمى والتر بإليسا، خائفاً. لم تعد إليسا تقوى على التفكير، وإن أحسّت بأنفاس والتر الأثيريّة الحامضة قريبة منها. لم تنكّر، في تلك اللحظة، إلّا في أنّ الاصطدام بات وشيكاً. ولم تفهم لماذا لم تتقدم صوب برناردو، بل استدارت نحو والتر، الذي راح يمدّ يديه محاولاً الإمساك بها. حاولت منعَه من التشبّث بها، والابتعادَ عنه، فاصطدمت بصدره وبأحد إبطيه. وكان في تلك الصدمة ما أخلّ بتوازن والتر، فتراجع خطوة وخطوتين، ووجهه إلى وجهها، ينظر إليها. ثمّ تراجع خطوة ثالثة قبل أن يصطدم بحاجز السطح ويفقد التوازن ويبدأ سقوطاً على الظهر، ممتثلاً لقوة الجذب الكونيّة.

فقدت آديلا القدرة على الردّ، بل القدرة على التنفس تقريباً. هي تريد أن تفهم، أن تستوعب ما سمعته، لكنّ الصدمة التي تلقتها سحقتها.

– كوسي، هل فهمتِ الآن لماذا قلتُ لكِ إنّك نعمتِ بحياة أفضل بكثير من تلك التي عشتُها؟ هل بات كلامي واضحا؟

– أمّي...، هل ما قلتِه لي هي الحقيقة؟

– وهل تبدو لكِ غير ذلك؟ –سألت إليسا ابنتها وبحثت عن شيء في حقيبتها. رفعت يدها ببطء ووضعت أمام ابنتها ميدالية فيها ثلاثة مفاتيح صفر في حلقة مربوطة إلى كلبٍ معدنيّ–. يؤسفني أن أقول لك، آديلا، إنّ ما قلته هو الحقيقة.

– ولماذا علي أن أصدّقك؟

– لأنّي أقسم لك على أنّها الحقيقة... أقسم لك بمحبتي لك...

تنهّدت آديلا.

– وهل كان ما حدث مع والتر هو السبب في أنّكِ...

هزّت إليسا رأسها بصمت لثوان.

– هكذا وقع كلّ شيء، ولم يكن أمامي وقتٌ للتفكير، أقسم لك... بقيتُ كالمشلولة، وأمسك برناردو بيدي وجرّني نحو الباب. سألني إن كنتُ لمستُ شيئاً... وحين مررنا من المكان الذي كان فيه القفل والمفاتيح، أخذ هذه الميدالية ووضعها في جيبه...

– والقفل؟

– بقي في مكانه... لا أدري إن كان أحد ما أغلقه فعلاً، كما قيل لنا،

لا أدري... برناردو أيضاً لا يدري لماذا أخذ المفاتيح... حين خرجنا إلى الشارع كان الناس يصرخون ويركضون ليتفرجوا على الحادث. لم يتنبه أحد إلينا. ظلّ برناردو ممسكاً بيدي، ونحن نسير بالاتجاه المعاكس.، نحو شارع E... هناك رأيتُ ما كان يحمله برناردو معه.

– تقصدين سيخ الحديد؟

– جريدة مطويّة... كان اشتراها في الشارع... لا أظنّ أنّ برناردو يقدر على أن يضرب أحداً بسكين أو بسيخ من حديد...

– ولماذا هربتما؟ ألم يكن حادثا؟

– هل عندكِ فكرة عمّا كنّا نعيشه؟ برناردو لم يفكّر. ولا أنا... سيطر علينا الخوف، وهربنا. هكذا، من دون تفكير... ألم يكن حادثاً؟ من يتحمّل الذنب؟ لا أحد. ربّما والتر، المجنون، الذي كان نصف مخمور، بعد أن هددني أنا وأبي. لأنّه سافل... ولكن، بعد أن ترك على جبهتنا علامة صليبٍ أسود. سنواتٌ وأنا أرى كوابيس في منامي. أراه يترنّح ثمّ يختفي وراء جدار السطح... أرى عينيه.

– يا إلهي – تمتمت آديلا، دون أن تتوقف عن النظر إلى أمّها.

ضغطت إليسا على جفنيها بأطراف أصابعها، فكأنّها تريد حجبَ ما استحضرته ذاكرتها.

– حين وصلنا إلى البيت، طلب برناردو منّي أن أنسى كلّ شيء، فكأنّ شيئاً لم يحدث... فإن عرف أحدٌ بأنّنا كنّا هناك، وسألنا، فسنردّد كلاماً واحداً: اتصل بنا والتر ليقول لنا إنّه ينوي الانتحار، وصعدنا لنمنعه، لكنّه كان قد سبقنا وألقى بنفسه... أمّا لماذا هربنا، فلأننا خفنا... وهذه كانت هي الحقيقة تقريباً... وحين استعدتُ قدرتي على التفكير، لم أفكّر إلّا في شيء واحد هو أنّني لا أتحمل أيّ ذنبٍ عمّا وقع. حتّى لو علم أحدٌ بأنّي كنتُ على السطح، مع والتر ومع برناردو، فهل سيصدق ما سنحكيه عن انتحار أو عن حادثة أو عن الخوف الذي أصابنا؟ هل هناك من سيصدق كلامي عن سبب وجودي على السطح؟ أرى أنّ من الصعب أن يصدّقونا، وهم عالمون بما كان معروفا عن والتر، وبعد أن خرجتُ من هناك ركضاً... وقلتُ في نفسي

إنّ الأمر لا يحتمل المجازفة، وإنّ عليّ أن أنجو بنفسي وبحمل بطني... هل تدرين ما كان الأسوأ؟ لقد فكّرتُ في إنّهم إن استجوبوني، فسأنفي أيّة صلة لي بالحادث...، بل فكّرتُ، إن حدث ولم أستطع في لحظة ما أن أقاوم، أن أقول إنّ برناردو هو من دفع بوالتر. كنتُ على استعداد لفعلٍ وقولِ أيّ شيء. طبعاً، كوسي، لأنّي كنتُ مصممة على أن أنجو بنفسي. لذلك رأيتُ أنّ أفضل ما يمكنني فعله هو أن أهرب. أن أرحل...

نظرت آديلا يمنة ويسرة. شعرت بالراحة لأنّ ماركوس لم يكن معهما. فكلّ فصل من تلك التي روتها أمّها أفظعُ من سابقه وأشدّ إيلاماً.

– عندها بداتُ أفكّر في الرحيل... هل تعلمين من ساعدني على الخروج من كوبا؟

– أبوك... جدّي – قالت آديلا.

– أبي كان، آنذاك، خارج الميدان. فقد تبيّن أنّه كان متورطاً في أكثر ممّا ظنّ والتر بكثير. لا أصدق أنّه تورط في تجارة المخدرات، ولكن يبدو أنّه تورط في أشياء أخرى، كبيع الماس أو العاج الذي يأتون به من أنغولا أو أعمال فنيّة أو أشياء كانوا يأمرونه بإخراجها من كوبا... ويبدو أنه كسب من ذلك، لكنّي في الحقيقة لا أدري، ولا أريد أن أعرف شيئاً..

– فمن ساعدكِ، إذن؟

– برناردو، ومن دون أن يشعر... حين واجهتُ برناردو، أمام كلارا وداريّو، وقلتُ له إنّه ليس المسؤول عمّا أحمل في بطني، كنتُ قد خططتُ للرحيل. لقد صارحته بذلك لأنّي أردتُ أن أبعده نهائياً عن كلّ ما حدث وعمّا خططتُ. فقد كان برناردو، بعد ما وقع لوالتر، في حالة انهيار، وقد لجأ إلى الكحول لينسى، وكان عليّ أن أبعد عن ذهنه أيّ تفكير باحتمال أن يكون هو الوالد... وأوشكتُ أن أقنعه بأن يجرّب علاجاً جديداً للإدمان، وبعد يومين أو ثلاثة من اعترافي له، أمام كلارا وداريو، منعتُ عنه الرون. أخفيتُ عنه ما بقي من الدولارات الألفين التي كان أبوه، وكيل الوزارة السابق، تركها عنده ليحافظ عليها، لكنّه صار ينفق منها على الشراب، وهو يردد المثل القائل بأنّ اللص الذي يسرق لصاً تمحى مئة سنة من ذنوبه، وسيجد، مع ما سرق، شراباً لذيذاً.

حدّثت إليسا ابنتها عن أنّ فكرة الخروج من كوبا خطرت ببالها حين تذكرت أنّ السلطات الرسمية لم تسحب منها جوازها الذي تحمله باسم لوريتا أغيرّي (أم إنّهم لم يأخذوه منها لأنّها ابنة دبلوماسي؟) الذي عادت به إلى كوبا مختوماً بفيزا إنكليزيّة صالحة لمدة عشر سنوات، اعتباراً من سفرها، للمرة الأخيرة، مع والدها، عام 1981. سرقت أوراقا عليها ختم العيادة البيطريّة، وزوّرت رسالة دعوة لحضور مؤتمر في لندن، وهكذا جددت مصلحة الهجرة لها جوازها. اشترت بجزء من دولارات والد برناردو تذكرة السفر، وحملت معها من نقود أبيها ما كان والتر يحتاجه للهرب، وهو مبلغ كان أبوها يحتفظ به فعلاً في بيت عمّتها.

- وبرناردو؟ ألم يقل شيئاً؟... -سألت آديلا-. لم يعلّق بشيء... ألم أقل لكِ إنّ برناردو كان الأطيب فينا؟... وقد خنتُه، بل فكّرتُ في أن أتهمه إن تعرضتُ للاستجواب، أمّا هو فطالما حماني... وعلم أنّي أخذتُ شيئاً من نقوده لأسافر... وحملتُ مع النقود، سلسلة المفاتيح هذه، وهذا الصليب الخشبي الذي لا بدّ أنّكِ رأيته من قبل. رأيتُ أنّ ذلك سيقنعه بأن يطوي صفحة الماضي وأن ينساني... لذلك، حين سمعتُ بخبر وفاته...، قلتُ لنفسي إنّ الرحلة انتهت... وها أنا ذي، معكِ، في (هياليه) أحكي لك ما لم أحكه لأحد، وما لم أكن أريد أن أحكيه لأحد، وأطلب منك المغفرة، آديلا... فإن لم تستطيعي أن تغفري لي، فحاولي، على الأقل أن تفهميني، أرجوك.

أطالت آديلا النظر إلى أمّها.

- صعب... أفهم أنّكِ خفتِ، وأفهم أنّك يئستِ، بل أفهم أنّكِ خرجتِ من كوبا دون أن تبلّغي أحداً... فقد كان ثمّة ميّت وجريمة... لكنّي لا أفهم أن تتخلي عن كلّ شيء. أن تقلبي حياتي وتجعليني أعيش كذبة. هل تتصورين شعوري الآن، وشعوري طوال السنوات الكثيرة الماضية؟...

أومأت إليسا برأسها. وتأخر أيضاً ردّها، وإن كانت تعرفه، بلا شكّ، من سنوات طويلة.

- الخوف هو ما دفعني، آديلا. لكنّ ما دفعني حقاً هي الروح التي كنتُ أحملها في أحشائي. -ولمست بطنها-. هي ما حملتني على اتخاذ القرار...

أمّا ما أبقاني من بعدُ حيّة نشيطة فهو القرف والتعب الذي عشته، والذي تماهيتُ معه. كنتُ مسؤولة عن موت ذلك البائس، سواء أكان مات عرضاً أم منتحراً... كان عليّ أن أخرج من كوبا، ودون أن أبلغ أحداً. لا إرفينغ ولا كلارا ولا سواهما. بل لم أستطع أن أبلغ برناردو. فكلمة واحدة قد تكفي لإفساد كلّ شيء. ما كان لي أن أثق بأقرب الناس إليّ... ففي تلك الأوقات، لك أن تشكّي في أيّ إنسان، أمّا التصريح برغبتك في السفر فيكاد يكون جريمة. وما حالة والتر، الذي صار مخبراً، بالحالة المعزولة... ماركوس يعرف عن ماذا أتكلّم، فاسأليه... ليقل لكِ إن كان داريّو أخبر أحداً بأنّه لن يعود من إسبانيا... وربّما أخفى ذلك حتّى على كلارا، زوجته... أمّا أنا، فقد كنتُ، فوق ذلك، كالهاربة... وقد قرّرتُ أن أظلّ هاربة. آديلا، كان عليّ أن أقطع صلتي بكلّ شيء، أن أتطرف في موقفي... أن أبتعد عن كلّ هذه القذارة. لا أدري إن كان ذلك جنوناً منّي، لا أدري، لكنّي كنتُ أريد أن أكون شخصاً آخر، وما كان في مقدور هذا الشخص الآخر أن يحمل ماضيه وأن يحمّلك، فوق هذا، تبعاته. وكان هذا ما فعلت... وحين بدأتِ الماكنة بالدوران، ما عدت أستطيع إيقافها. لا، آديلا، إنّك لا تستطيعين أن تتصوّري حالة التوتر التي عشتها طوال هذه السنين.

أحسّت آديلا بالدموع تجري على خدّيها. بدا كأنّ حياتها وقعت فجاة تحت تأثير شعاعٍ خطف بصرها. إنّ عليها أن تستردّ قدرتها على النظر والحكم والتفكير وإصلاح ما يمكن إصلاحه.

– وكنتُ أنا وأبي، برونو، أولَ مَن خدعتِ...

– وماذا كان في مقدوري أن أفعل، كوسي؟ برونو كان ملاكاً هبط عليّ من السماء. وأنتِ كنتِ المعجزة...

– لوريتا... –قالت. ثمّ توقفت–. أمّي...، ثمّ ماذا؟

– لا أدري ثمّ ماذا الآن. ستعرفين الحقيقة في حينها. أعرفُ فقط أنّكِ هنا، كوسي. لطالما فكّرت: معجزة من معجزات الطبيعة. ولا تقولي لي إنّك لم تحظي بحياة أفضل... ففي مقدوركِ أن تفعلي بقصتي، بقصتك، ما يحلو لك. أو أن تخترعي قصّة أفضل منها... لا بدّ أن تتعلمي شيئاً منّي.

أشاحت آديلا بنظرها. فغور أمّها لا يسبر فعلاً. فهل قصّت عليها الحقيقة؟، واصلت سؤال نفسها، وستواصل التساؤل، ربّما طيلة حياتها. شعرت آديلا بأنّها منهكة مرهقة.

– لم تحكي لي لماذا سمّيتني آديلا... ولم تسمّني *ميلاغروس* [= معجزة]

– صحيح... أو *غراثياپلينا* [= نعمة تامّة]...

– غراثياپلينا؟

– نعم... لم أحكِ لكِ عن أشياء كثيرة... كثيرة... بعضها غريبة عجيبة... وبما أنّنا وصلنا إلى هذا الموضوع... فأريد أن أخبركِ بأنّي أميل إلى الجنسين، أي أنّي شاذّة – قالت.

– مس ميلر؟ – دهشت آديلا.

– نعم... منذ سبع سنوات ونحن مغرمتان ببعضنا. وقد ساعدتني هذه العلاقة كثيراً. هي وبوذا.

– لم تقولي لي لماذا سمّيتني آديلا.

– لأني لا أعرف أحداً بهذا الاسم. لا بين الأقارب ولا بين الأصدقاء. أنتِ الوحيدة التي تحملينه... هذا الاسم لا يذكرني بأحد... بعد أن تعرفتُ على برونو في بوسطن، فكّرتُ في أن أسميك ألين، على اسم زوجة رينوار، الفتاة التي تظهر في لوحته *مأدبة غداء لحفلة قوارب*. لكنّي اخترت أن أسميك آديلا. ومن حسن الحظ أنّي لم أسمّكِ غراثياپلينا. –وهنا ابتسمت إليسا، للمرة الأولى منذ أن وصلت إلى بيت هياليه–. عيد ميلادك، بالمناسبة، قريب... فهلا سمحتِ لي أن أقبّلكِ، حبيبتي كوسي الغالية؟

الساعة التاسعة من مساء 2 حزيران. الجو ما زال حارّاً ورطباً ودبقاً. البرق يقطع السماء المظلمة من حين لآخر ليكشف عن كتلة من السحاب تستقرّ في الأفق. قد يهطل المطر هذه الليلة. وإن قُدّر له أن يهطل على ناحية من أنحاء هاڤانا فهذه الناحية ستكون (فونتانار). من باب المدخل الحديدي تنظر كلارا إلى السماء المخيفة المتوعدة. مع ذلك، فقد باتت تشعر بهدوء أكبر، بعد أن كلّمت الجار، صاحب السيارة، الذي ظلّ طوال مرض برناردو يأخذهما إلى المستشفى، وطلبت منه أن يأتيها بسيارته، الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي.

عند العاشرة، تناولت كلارا حبة الدواء الذي وصفوه لها لعلاج الأرق، ثمّ استلقت على فراشها. وبينما راحت تنتظر النوم، فكّرت في المكالمة التلفونية التي تلقتها، عصرَ ذلك اليوم، من ولدها ماركوس، يبلغها فيها أنّ كلّ الدلائل تشير إلى أنّ خطيبته حامل. صحيح أنّهما ما زالا غير متأكدين، قال لها ماركوس، لكنّ دورتها الشهريّة، تأخرت أسبوعين، ثمّ إنّ اختبار البول أعطى نتيجة موجبة. قال لها إنّهما راغبان، إن كانت آديلا حاملاً، في إنجاب الطفل. سيكون لها حفيد أمريكي أو حفيدة أمريكيّة! فهل أولاد الكوبيين القاطنين في (هياليه) أمريكان مئة في المئة؟ وسيلعب، إن كان ذكرا، البيسبول، كأبيه، وربّما سيصبح نجما كبيراً، شأنَ الدوكي إرنانِدِث... وها هي كلارا، بعد الصدمات المتتالية والخسارات الكبيرة، تتلقى خبراً لا يحمل في طياته مصيبة. حفيد فرنسي، ثمّ حفيد أمريكي. فكيف للحياة أن تكون مشتتة هكذا؟ وكيف لها أن تكون على هذا القدر من التخبّط؟ قبل أيام، نشر إرفينغ، على صفحته في الفيسبوك، عبارة تنبؤيّة لبرخيليو ﭘنييرو، وجدها في مراسلات هذا الكاتب مع خيمي سوريانو: «في ليلة من ليالي

1965، على مصطبة من تلك الموضوعة في جادة (الپرادو) في هاڤانا، بكى برخيليو پنييرو الشاعرَ أورلاندو پوثو: «هذا هو التشتت الأعظم، فلا تُمنّ نفسكَ بلقاءٍ جديد». فما أعظمه من تعبير! أليس كذلك؟

طلبت كلارا من ابنها أن يشرع بإجراءات سفرها إليهم، وانتهزت الفرصة لتسأله إن سمع جديداً عن إليسا. كان ماركوس وآديلا هما من أبلغاها عن ظهور إليسا وأحاطها علماً بالأسباب التي دفعتها إلى اتخاذ قراراتها، والتي كانت قد علمت بها عن طريق إرفينغ: لقد شاهدت إليسا وشاهد برناردو والتر يقفز من سطح ذلك البناء الشاهق، ثمّ واصل كلّ منهما، بعد اتخاذ القرار بالتكتّم على ما شاهداه، طريقه الذي اختاره: فاختار برناردو طريق الكحول، واختارت إليسا طريق الرحيل... أبلغها ماركوس حينئذٍ أنّ «حماته العزيزة»، عادت، بعد عيد ميلاد آديلا، إلى مزرعة الخيل في (تاكوما)، لتبدأ جلساتها اليوميّة في التأمّل، وتمنح لنفسها الوقت المفتوح الذي طلبته من آديلا لإصلاح داخلها، وللاتصال، كما طلبت منها ابنتها، بالأصدقاء لتشرح لهم أسبابها وتقدّم لهم تبريراتها، وإن كان لا يعلّق أملاً كبيراً، ولا يضع ثقة كبيرة في حدوث ذلك.

- إليسا، بحسب ما رأيتُ، تعد بشيء، لكنّها تفعل شيئاً آخر - قال ماركوس.

- صحيح... هي هكذا - قالت كلارا.

- هل تتمنين رؤيتها؟

- لا أدري. برناردو سامحها مرات ومرات، لكنّي لا أدري إن كنتُ أستطيع أن أسامحها. فأنا لستُ برناردو.

- حسناً، قد تلتقين بها هنا إن أعطوك فيزا أمريكيّة وجئت لزيارتنا... فهي الجدّة الأخرى لطفلنا...، أعرف أنّ ليس من حقي أن أتدخل، ولكن، هل وقع بينكما، أنتِ وهي، شيء آخر؟

في المكالمات التي جرت، في الأسابيع الأخيرة، بين ماركوس وأمّه، لم يذكر أيّ شيء عن اعتراف إليسا لابنتها حول ميولها الجنسيّة. لكنّ كلارا، وهي في بيتها في (فونتانار)، كانت فكّرت في الجواب.

– أبداً. لا أكثر ممّا رأيتَ... لم يحدث شيء آخر.

– طيب. ربّما لن تلتقيها... إن لم تكوني راغبة في رؤيتها... حين زارنا العم هوراثيو قبل أيّام وتكلّم مع آديلا، قال لها إنّه لا يرغب في لقاء إليسا. أمّا من كان متحمساً للقائها حدّ الجنون فهو...

– إرفينغ.

– طبعاً. إرفينغ... مامي، دعينا من إليسا، المهم أن تكوني أنتِ معنا حين ولادة ابننا... وإلّا فمن الظلم أن تشهدي ولادة ابن رمسيس ولا تكوني حاضرة ولادة ابني...

ابتسمت كلارا. فماركوس هو ماركوس دائماً... ابنها

– كم سيكون جميلاً أن يحضر أبوك أيضاً... هل أبلغتَه بالخبر؟

– لا، فأنتِ أوّل من أبلغت...

– خسارة أنّ برناردو لن يكون بيننا.

– صحيح... شيء مؤسف...، متّى الدفن، مامي؟

– غداً – قالت كلارا.

– كان عليّ أن أكون هناكَ، معكِ.

– لا. هنا الموت. أمّا معكَ، فهناك الحياة... أترى؟ صرتُ أتكلّم مثل إرفينغ... طيب، لا تبذّر نقودك... هنئ آديلا من طرفي وقبلاتي لكم ثلاثتكم. چاو.

– مامي... مامي، إذا أتيتِ لزيارتنا... فلماذا لا تبقي معها؟ أنتِ هناك وحيدة... صار ممكناً في كوبا بيع البيوت، وبهذا المال تستطيعين...

– لا تطلب منّي أن أبيع البيت، ماركوس... لا تطلب منّي ذلك الآن. عليّ أن أبقى.

– لماذا؟ تأمّلي كم من الأشخاص رحلوا، أنا هنا، وحفيدتك...

– عليّ أن أبقى. هذا هو نصيبي... هل قلتِ حفيدتي؟

– أقصد إنّنا نتمنى أن يكون المولود أنثى، وسنسميها كلارا.

– لا رجاءً... ابحث لها عن اسم جميل... هيّا، هيّا، چاو، چاو..

أغلقت كلارا الخط وقد شعرت بأنّها مهددة. فهل سترحل أخيراً وتلحق بأولادها وأحفادها، يطاردها شبحُ الوحدة؟ أيّ جنون هذا!

في الساعة السادسة صباحاً، فتحتْ كلارا عينيها فرأت خيط المطر ينساب على زجاج النافذة. تذكّرت فجر عيد ميلادها الثلاثين، وخيوط المطر التي كانت تنساب على الزجاج، وقبلة إليسا التي ما انفكّت تطاردها. فهل هي عودة أبديّة؟ وفكّرت: سأذهب ولو حدث طوفان.

في ذلك اليوم، 3 حزيران 2016، حلّت أربعينيّة برناردو. في الساعة التاسعة صباحاً كان المطر قد توقف، وأشرقت الشمس. النهار يعد بحرٍّ لاهب، بعد أن تبخرت الرطوبة المتراكمة. انتظرت كلارا وصول جارها بسيارته، وقد ارتدت حذاءها الطويل الذي اعتادت أن ترتديه في العمل، والذي لم يكن يناسب الفستان الأنيق الذي كانت المناسبة تتطلبه. لقد اعتاد الرجل أن يظهر دائماً بعد عشر دقائق على الموعد ومعه ما يبرّر تأخره.

صعدت كلارا في السيارة، وهي تحمل القارورة الفخاريّة التي تحتوي رماد برناردو، وطلبت من السائق أن يسلك طريقاً غير مألوف: ضواحي بلدة ماناغوا، حيث تنهض تلال تعرف بـ (لوماس دي تاپاسته).

- تاپاسته؟ وماذا هناك، كلارا؟ - سألها السائق.

- هناك مكانٌ مناسب.

ظلّت كلارا توجّه السائق بعد أن خرجا عن الطريق العام الذي يربط (سانتياغو دي لا بيغاس) بـ (ماناغوا)، ثمّ طلبت منه أن يستدير يميناً، ويدخل في طريق ترابي. احتجّ الرجل لأنّ الوحل سيغطّي سيارته، فذكّرته كلارا بأنّ السيارة وسخة أصلاً، ووعدته بخمسة دولارات إضافية. فواصل الطريق.

- توقفْ هنا. أظنّ أنّ هذا هو المكان...

غادرت كلارا السيارة بالقرب من سياج من الأسلاك يحيط بمزرعة تبدو مهجورة. فتحت الحاجز وتقدمت نحو مرتفع من الأرض فيه نخيل ملكيّ وشجرة قابوق وشجرة بونسيانا، متوهجة الكأس، برتقالية الزهر. تقدمت كلارا، وجزمتها مثقلة بالوحل، صعوداً، وسارت على الأرض الزلقة حتى عثرت على بركة صغيرة، كونتها، في ما يبدو، مياهُ عيونٍ تأتي من الأكمات المحيطة. نعم. ذلك هو المكان.

من أسابيع سبقت، كانت كلارا قد بحثت، بمساعدة زميل لها من

الجامعة، مختصّ بعلم المياه، عن معلومات ساعدتهما في العثور على ذلك المكان. إنّها تعرف الآن أنّ حوض الماء النظيف ذاك هو أحد فروع نهر (المندارِس)، وهو النهر الوحيد الذي يقطع جزءاً كبيراً من هاڤانا ويقسمها إلى جانب شرقي وجانب غربي، قبل أن يصبّ، بعد أن تنتن رائحته ويتلوّث ماؤه، في الساحل الشمالي من الجزيرة. من تلك النقطة، ومن السفح الذي ينحرف نحو الطرف الآخر من الجبل، ينطلق جدول صغير يلتقي، أثناء مسيره، بجداول أخرى، ليصبح، بعد كيلومترين اثنين، نهراً صغيراً، لكنّه أسطوريّ في عرف الهاڤانيين، فقد موّن مدينتهم بالماء لقرون، منذ أيام السدّ الملكي الذي شيّد عقب وقت قصير من بناء المدينة.

أحسّت كلارا بالسلام الذي يخيّم على المكان. في أحد المروج، ثمّة طيرٌ حاكٍ شمالي يصدح بالغناء. ربّما لها. شمس رابعة النهار تكوي رقبتها وذراعيها. وفكّرت في الصلاة: هل تتلوها قبل أن تتمّ الطقس أم بعده؟ ثمّ تخلّت عن الفكرة. ما من ربّ فارغ للاستماع إليها. أم إنّ ثمّة ربّاً فارغاً مستعداً للاستماع إليها وهي تتلو صلاة؟ أمّا ما يصدح به الحاكي الشمالي فهو موسيقى الحياة، أنشودة البلاد. أغمضت كلارا عينيها لتستمع إلى زقزقات الطائر واضحة صادحة، فرأت بخيالها غابة أخرى، غابة من القصب، قصب ينثني مع النسائم، وشعرت بيد برناردو تلمسها، تداعب وجهها، واستحضرت اللحظة التي التقت شفتاها بشفتيه، للمرة الأولى، تحت تلك الأيكة. هناك، وحدهما، بلا أفق ولا مستقبل، حين اكتشفا أنّهما ما زالا قادرين على استنشاق السعادة وهما في غمرة المصائب والعوز، بل في غمرة الخيانات والفراق. سعادة مستحقة، وها هما يبلغانها. وهناك اكتشفا كم تأخر لقاؤهما، وقد كانا موعودين به. فتحت كلارا عينيها. كان الطائر قد غيّر شجرته، لكنّه ظلّ معها، يصدح لها بغنائه.

عندها، شرعت كلارا بتنفيذ ما أوصاها به برناردو: نثرت في مياه منبع النهر النقيّة الصافية رماد من كان رجُلها وسَنَدها، وخيرَ من عرفت من البشر، فانجرف الرمادُ وتفرّق مع التيار. جزءٌ من برناردو سيمتصّه ترابُ الجزيرة ليمتزج به وإلى الأبد؛ بينما سيواصل الجزءُ الآخر طريقه، مثل أنهار الحياة، ليصبّ في البحر ويجوب العالم. حتّى النصرالنهائي.

- رمال في الريح -قال-. كلّنا سنكون رماداً في الريح...

حين عادت كلارا إلى (فونتانار)، أعطت الجارَ خمسة وعشرين بيزو، فأخذها، محتجّاً، وابتعد. بحثت في حقيبة يدها عن مفاتيح البيت. كانت تحمل قارورة الفخار فارغة، بينما غطّى الوحل حذاءها. فتحت الباب ودخلت إلى البيت، حيث الوحدةُ والصمتُ والذكريات بانتظارها. كلارا وحلزونها.

في مانتّيا. نيسان 2018 – نيسان 2020

ملاحظة وشكر

كغبار في الريح رواية، وعلى هذا الأساس يجب أن تُقرأ. كلّ الحوادث التاريخيّة المذكورة فيها حدثت واقعاً، وإن اتخذت في الرواية منحى قصصياً. الكثير من الوقائع الاجتماعية المطروحة مأخوذة أيضاً من الواقع ومن التجربة الشخصيّة والجيليّة، وإن تعاملتُ معها تعاملاً دراماتيكيّاً ضمن متطلبات الحبكة الروائيّة. الشخصيّات وقصة كلّ واحدة منها مأخوذة من أشخاص حقيقيين، وهي، في بعض الأحيان، حاصلُ مزج أشخاص عديدين محددين، نسجتُ سيرهم من خيالي. أمّا الأماكن التي تتخذ القصّة منها مسرحاً لها -من حي (فونتانار) الهافاني إلى مزرعة الخيل في أطراف (تاكوما)، في الشمال الغربي من الولايات المتحدة الأمريكيّة- فهي أماكن حقيقيّة، وقد أدخلتُ عليها التغييرات الضروريّة لتناسب المقاصد الدرامية للرواية. وأمّا الخيال، فكان دوره أنّه وظّف العناصر التاريخيّة والبشريّة والمادية التي اجتمعت في حقبة من الزمان وفي عديد من الأماكن، لبناء هذه الرواية. الكاتب مثلي يتغذّى على الواقع، لكنّي لستُ مسؤولاً عن هذا الواقع في ما هو أبعد من شعاراتي الفرديّة والتزامي المدني، بصفتي مواطناً وشاهداً له صوت، ولا همّ له غير أن يترك شهادته بخصوص الزمان الذي عاشه.

كلّ واحدة من رواياتي هي، بصورة من الصور، ثمرة مساعدة أتلقاها من آخرين. فلولا أصدقائي وقرّائي وناشريّ، ما استطعتُ أن أكتب رواية، ولا أن أبلغ بها درجة الأمانة والصدق التي أرتضيها لها عند نشرها وظهورها. مع ذلك، ففي هذه المرّة، أعتقد أنّ قائمة المتعاونين أطولُ وأضخم من جميع المرات التي كتبتُ فيها موضحاً شاكراً.

تلقيتُ من صديقيّ العزيزين الكريمين، ميغيل و نيلدا باسايّو، عونا كبيراً في ما يتصل بالكوبيين في ميامي وهياليه، إذ جلتُ بصحبتهما في أماكن يعرفونها حق المعرفة لأنّهما عاشا فيها، ورأيتُ بأمّ عيني الأماكن التي وضعتُ فيها بعض شخصيّات الرواية وعقدها. وكانت مهمّة أيضاً وحاسمة الجولاتُ التي رافقتُ فيها، عبر هذه الرواية، الرسّام أورستيس غولهياك مع صديقي القديم، ابن (مانتيّا)، رافئيل كويّاثو، والمعلوماتُ القيّمة الغزيرة التي تلقيتها من المؤرخ والدو أثيبس. أدينُ لصديقي الوفي المعوان دائماً، ولفريدو كانثيو، قراءته واتصاله بالعمدة راؤول مارتينث، أوّل عمدة كوبي لهياليه، ذلك الرجل الذي هو، بحق، دائرة معارف حيّة عن كلّ ما يتصل بتلك المدينة الأمريكيّة. ولا تقلّ معونة خابيير فيغيروا وزوجته سيلفيا قدراً ولا أهمية، فقد تحادثا وتواصلا وقرآ مسوّدة الرواية وأدخلا عليها إضافات مهمّة، وخصوصاً حول الوسط الأكاديمي في الولايات المتحدة.

ولولا دعم الأستاذ جون لير وزوجته الكوبيّة، الأستاذة ماريسيلا فونتِس – لير، ما استطعتُ أن أتصوّر مزرعة الخيل في أطراف (تاكوما)، التي اتخذتُ منها واحداً من مسارح الأحداث التي تصوّرها الرواية. عن طريقهما تعرّفتُ على المكان، ورسمت مصيرَ واحدة من الشخصيّات، ثمّ عدتُ لزيارته: وهناك استقبلني مايكل وول، في مزرعته الرائعة لتربية الخيل من سلالة كليفيلاند باي، واستقبلتني معه مربية الخيول ومدربتها، اللطيفة آسيا ثاير، التي زوّدتني بالكثير من أسرار مهنتها وكلّمتني عن الكثير من عادات الخيول وشخصياتها وطباعها، فقد أمضت حياتها مع الخيل، لأنها حياتها. ماريسيلا كانت، أيضاً، قارئة ممتازة لواحدة من مسودات الرواية وقد أسهمت في أن تبلغ المستوى الذي وصلت إليه.

لديّ مجموعة من القرّاء يساعدونني بكرم في التعرّف على ما يجدون في نصوصي من أخطاء وزيادات غير ضرورية فرضها اندفاعي وحماسي. بين هؤلاء القرّاء العزيزتان فيفيان ليتشوغا ولوردس غوميث. ومنهم أيضاً مترجم أعمالي إلى اليونانيّة، كوستاس أثناسيو، وصديقي القديم، آليكس فليتيس، الذي أشّر إلى العديد من التفاصيل وساعدني في إصلاح الخلل فيها، وزميلي أرتورو أرانغو، الذي طالما أبدى ملاحظاته الصائبة. أفادتني

أيّما فائدة قراءة الصديق خوسيه أنطونيو ميتشيلينا وزوجته، آنا ماريّا. وقراءة الدكتور الفيزيائي ماريو فيديل غارثيّا، الروسي.

أمّا أكثر قرّائي تكاملاً وشمولاً فهي إلينا ثاياس، التي ترجمت إلى الفرنسيّة العديد من رواياتي، والتي غمرتني بكرمها حين قرأت مرتين المسودات، وفي طورين مختلفين من كتابتها، وأسهمت، بنظرتها الثاقبة، في تحسين ما سطّرت.

وكان دعم ناشريّ آن - ماري ميتلييه وخوان ثريثو (توسكيتس) سخيّاً صادقاً، وقد أنجز خوان قراءة متقنة للأصل ساعدتني على التخفيف من الكثير من الإفراط في الأسلوب، الذي أميل إليه.

وفي بداية عملي وفي وسطه وفي نهايته. في أعلاه وفي أسفله. في هذا الجانب وفي ذاك، تقف لوثيّا. دائماً. حسبي أن أكرر أنّي لولاها، ما كنتُ كتبتُ هذه الرواية ولا الروايات الأخريات. من دون قراءاتها ما كان لهذه الرواية وللأخريات أن تكون كما هي. بل أقول ما هو أكثر: لولاها ما كنتُ الشخصَ الذي تعرفونه.



المحتويات



في غياب الحريّة، وفي التعسّف والظلم تكمن أصولُ المنافي. ومن رحمها تولد المصائبُ والرزايا: القمع والخوف والفساد والسجن والمنفى والموت...

- ما أغربَك، داريّو -قال إرفينغ-. هناكَ كنتَ ممن لا يتكلّمون بالسياسة...

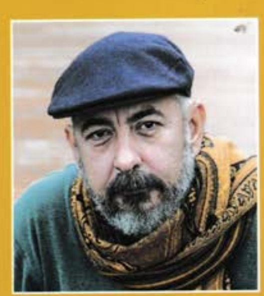
- لأنّ الكلام في السياسة كان محرّماً... لا شيء غير الطاعة. وأنت تعلم ذلك

- كنّا نتكلّم ولكن بصوت منخفض، كنّا نتكلّم... وأنتَ كنتَ في الحزب...

- اسمع، إرفينغ، أتعلم ما هو أفضل شيء وقع لي هنا؟

- أفضل ممّا أنتَ فيه؟ - سأل إرفينغ.

- هنا أستطيع أن أتكلّم عمّا أريد، ومع من أريد، أن أعيش بلا قناع، ومن دون خوف! ولا تذكّرني بالأشياء هناك، ولا كيف تعمل، أرجوك... »



«كان الموظفون ينظرون إلى المسافرين، يتحققون من الحقائب، ويعودون للتحقق من الجوازات، ويطرحون على من يوشك على الخروج السؤال تلو السؤال. هل معك أجهزة كهربائيّة؟ مواد غذائيّة؟ هدايا؟ كتب؟ هلّا أريتني جواز سفرك؟ رجال الجمارك في إسبانيا لا يسألونك عن شيء، اللهمّ إلّا إذا كان معك فيلان مطليان بالأزرق. سيكتفون، عندها، بسؤالك: لماذا صبغتهما بالأزرق؟»

«لكنّ إرفينغ يعلم أنّ الحرّ الدبق الوسخ لم يكن المسبب الوحيد لتعرّقه الشديد، ولا لرغبته الجامحة في البكاء: بل هو خوفه، وحضوره الدائم الذي لا يستطيع منها فكاكاً، فالخوف عنده جزءٌ من الأوكسجين الذي كان يستنشقه في الجزيرة، وهو حالة التسمم التي جعلته يبتعد عنها. إنّه ذات الخوف الذي ظنّ، بعد كلّ تلك السنوات، أنّه طرده، لكنّه عاد عودة بومرنغ محتال تائه في البعد الرابع، ليضربه بقوته الطاغية»

«رفعت إليسا كتفيها من البطانية وعاينت القدح البلاستيكي.


9 789933 655709